





"موسوعة خطب مخرجة وموثقة وتحوي بحوثاً ومسائل فقهية وحديثية ولغوية"

تأليف

د. إبراهيم بن محمد الحقيل

الجزء السابع

المجموعة الثانية


بسم الله الرحمن الرحيم


المفيد
في
خطب الجمعة والعيد

(ح) مجلة البيان، ١٤٣٧ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحقيل، إبراهيم محمد

المفيد في خطب الجمعة والعيد - موسوعة خطب مخرجة وموثوقة وتحوي بحوثًا ومسائل فقهية وحديثية ولُغوية

إبراهيم محمد الحقيل - الرياض، ١٤٣٧ هـ

١٠ مج.

ردمك: ١-٨٤-٨١٠١-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٨-٨٥-٨١٠١-٦٠٣-٩٧٨ (ج٧)

١- الخطب الدينية ٢- خطبة الجمعة ٣- خطبة العيد أ. العنوان

ديوي ٢١٣ ١٤٣٧/١٥٥

رقم الإيداع: ١٤٣٧/١٥٥

ردمك: ١ - ٨٤ - ٨١٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (مجموعة)

٨ - ٨٥ - ٨١٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (ج٧)

www.albayan-magazine.com

الرياض: هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٣٢_ ٠٥٠٢٢١٩٢٠_ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦_ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥_ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

جدة: ٠٥٨٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦٢٠ المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٠٦١٦

رمضان والحج

٢٤٥- رمضان وأبواب الجنة

١/ ٩/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ جَعَلَ الدُّنْيَا دَارَ بَلَاءٍ وَامْتِحَانٍ، وَجَعَلَ الْآخِرَةَ دَارَ الْجَزَاءِ وَالْقَرَارِ .. أَحْمَدُهُ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ؛ فَقَدْ بَلَّغَنَا رَمَضَانَ، وَأَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَفَاضَ عَلَيْنَا مِنَ النِّعَمِ بِلَا نُقْصَانٍ، وَأَسْتَغْفِرُهُ اسْتِغْفَارَ عَبْدٍ مُذْنِبٍ لَا مَفَرَّ لَهُ إِلَّا إِلَى اللَّهِ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ خَلَقَ الزَّمَانَ، وَأَجْرَى الْأَيَّامَ، وَكَتَبَ الْآجَالَ؛ فَسُبْحَانَهُ مِنْ إِلَهٍ أَوَّلٍ بِلَا ابْتِدَاءٍ، وَآخِرٍ بِلَا انْتِهَاءٍ، يَفْنَى الْوُجُودُ سِوَاهُ ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَصَفِيُّهُ وَخَلِيلُهُ، خَيْرُ مَنْ صَامَ وَقَامَ، وَنَصَبَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ ﷻ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ، فَاتَّقُوهُ حَقَّ التَّقْوَى، وَاسْتَمْسِكُوا بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى؛ فَإِنَّكُمْ قَدْ أَدْرَكْتُمْ شَهْرَ التَّقْوَى .. احْمَدُوا اللهَ الَّذِي بَلَّغَكُمْ إِيَّاهُ، وَأَرُوهُ مِنْ أَنْفُسِكُمْ خَيْرًا؛ فَإِنَّ خَيْرَ النَّاسِ مَنْ طَالَ عُمْرُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّ بَشَرًا كَثِيرًا قَدْ حُرِمُوا خَيْرَ رَمَضَانَ، وَإِنَّ إِخْوَانًا لَكُمْ مُسْلِمِينَ طَالَمَا تَمَنَّوْا إِدْرَاكَهُ، عَاجَلَتْهُمُ الْمَنَايَا قَبْلَ بُلُوغِهِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

أَيُّهَا النَّاسُ: عِبَادَةُ اللَّهِ تَعَالَى وَطَاعَتُهُ، وَامْتِثَالُ أَمْرِهِ، وَاجْتِنَابُ نَهْيِهِ هِيَ جَنَّةُ الدُّنْيَا، مَنْ دَخَلَهَا دَخَلَ جَنَّةَ الْآخِرَةِ، وَمَنْ صُرِفَ عَنْهَا حُرِمَ جَنَّةَ الْآخِرَةِ.

وَانْشِرَاحُ الصَّدْرِ بِالطَّاعَةِ وَسُرُورُ الْقَلْبِ بِالْعِبَادَةِ يَجِدُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ طَائِعٍ لِرَبِّهِ، وَيَظْهَرُ ذَلِكَ جَلِيًّا فِي المَوَاسِمِ الْعَظِيمَةِ كَشَهْرِ رَمَضَانَ؛ إِذْ يَجِدُ أَكْثَرُ المُسْلِمِينَ لَذَّةً فِي الصِّيَامِ وَالْقِيَامِ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَبِرِّ الْوَالِدَيْنِ، وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَالصَّدَقَةِ وَالْإِحْسَانِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ مَا لَا يَجِدُونَهُ فِي الشُّهُورِ الْأُخْرَى.

وَكَمَا أَنَّ لِجَنَّةِ الْآخِرَةِ أَبْوَابًا يَدْخُلُ مِنْهَا أَهْلُوهَا؛ فَإِنَّ لِجَنَّةِ الدُّنْيَا أَبْوَابًا، وَأَبْوَابُهَا الطَّاعَاتُ مِنَ الْوَاجِبَاتِ وَالمَنْدُوبَاتِ.

وَأَبْوَابُ الْجَنَّةِ ثَمَانِيَةٌ كَمَا فِي حَدِيثِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَابْنُ أَمَتِهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ الجَنَّةَ حَقٌّ وَأَنَّ النَّارَ حَقٌّ أَدْخَلَهُ اللهُ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ شَاءَ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[1].

وَفِي حَدِيثِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﵁ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبْلِغُ أَوْ فَيُسْبِغُ الْوُضُوءَ ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[2].

وَقَدْ جَاءَ تَعْدَادُ بَعْضِ أَبْوَابِ الجَنَّةِ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ؛ فَالصَّلَاةُ وَالصَّدَقَةُ

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، باب قوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾ [النساء: ١٧١] (٣٢٥٢)، ومسلم واللفظ له في الإيمان، باب الدليل على أَنَّ مَنْ مَاتَ على التوحيد دخل الجنة قطعًا (٢٨).

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة، باب الذكر المستحب عقب الوضوء (٢٣٤)، وأبو داود في الطهارة، باب ما يقول الرجل إذا توضأ (١٦٩)، والترمذي في الطهارة، باب فيما يقال بعد الوضوء (٥٥)، والنسائي في الكبرى (١٤١)، وأحمد (٤/ ١٥٣).

وَالصِّيَامُ وَالْجِهَادُ لِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهَا بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ؛ كَمَا رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ: يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا خَيْرٌ؛ فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ دُعِي مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ . .**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٣).

وَمَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَإِنَّ لَهُمْ بَابًا يَخْتَصُّونَ بِهِ؛ كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**. . فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٤).

وَأَوَّلُ مَنْ يَطْرُقُ بَابَ الجَنَّةِ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَنَا أَوَّلُ مَنْ يَقْرَعُ بَابَ الجَنَّةِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٥).

فَيُفْتَحُ لَهُ بَابُ الجَنَّةِ؛ كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**فَآخُذُ بِحَلْقَةِ بَابِ الجَنَّةِ فَأُقَعْقِعُهَا فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيُقَالُ: مُحَمَّدٌ، فَيَفْتَحُونَ لِي، وَيُرَحِّبُونَ بِي، فَيَقُولُونَ مَرْحَبًا**» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ(٦).

---

(٣) أخرجه البخاري في الصوم، باب الريان للصائمين (١٧٩٨)، ومسلم في الزكاة، باب من جمع الصدقة وأعمال البر (١٠٢٧).

(٤) أخرجه البخاري في التفسير: «تفسير سورة الإسراء»، باب ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣] (٤٤٣٥)، ومسلم في الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٤).

(٥) أخرجه مسلم في الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٦)، وأبو يعلى (٣٩٦٤)، وابن حبان (٦٤٨١).

(٦) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه: الترمذي في تفسير القرآن، باب ومن سورة بني إسرائيل (٣١٤٨)، والدارمي (٥٠)، وأبو يعلى (٣٩٨٩)، وفي سنده علي بن زيد بن جدعان ضعيف، لكن الحديث يتقوى برواية مسلم المذكورة قبله وهي عن أنس أيضًا.

وَهِيَ أَبْوَابٌ عَظِيمَةٌ وَاسِعَةٌ تَدُلُّ عَلَى عَظَمَةِ الجَنَّةِ وَسَعَتِهَا، بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، كَمَا أَنَّ دَرَجَاتِ الْجَنَّةِ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ فَكَذَلِكَ أَبْوَابُهَا، وَكُلَّمَا كَانَتِ الجَنَّةُ أَعْلَى كَانَتْ أَعْظَمَ وَأَكْبَرَ، وَكَانَتْ أَبْوَابُهَا أَعْظَمَ وَأَوْسَعَ، قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ مَا بَيْنَ المِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الجَنَّةِ لَكَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرَ**»، وَفِي رِوَايَةٍ: «**لَكَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٧).

وَجَاءَ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ: «**أَنَّ بَيْنَ المِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الجَنَّةِ مَسِيرَةَ سَبْعِ سِنِينَ**»، وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: «**مَسِيرَةَ أَرْبَعِينَ عَامًا**»(٨).

فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ سَعَةُ أَبْوَابِهَا، فَكَيْفَ بِسَعَتِهَا وَسَعَةِ مَا فِيهَا مِنَ الْقُصُورِ وَالْأَنْهَارِ؟! جَعَلَنَا اللهُ وَوَالِدِينَا وَالمُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِهَا . . آمِينْ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

وَأَبْوَابُ الجَنَّةِ الْوَاسِعَةُ الَّتِي تَحَارُ فِيهَا الْعُقُولُ، وَتَشْتَاقُ إِلَيْهَا النُّفُوسُ؛

---

(٧) هو نفس حديث أبي هريرة المخرج في حاشية (٤)، لكن جاء في رواية البخاري: «**كما بَيْنَ مَكَّةَ وَحِمْيَر أو كَمَا بين مَكَّةَ وَبُصْرَى**»، وجاء في رواية مسلم: «**لَكَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرَ، أو كما بين مَكَّةَ وبُصْرَى**».

(٨) أخرجه من حديث معاوية بن قرةﷺ: ابن حبان (٧٣٨٨)، والبيهقي في البعث والنشور (٢٣٩).

وأخرجه بلفظ «مسيرة سبعين عامًا»: أبو نعيم في الحلية (٦/ ٢٠٥).

وأخرجه بلفظ: «مسيرة أربعين عامًا»: أحمد (٥/ ٣).

والحديث إسناده حسن، لكن لتفاوت المدة المذكورة في الروايات حكم عليه ابن القيم بالاضطراب في حادي الأرواح (٩٢).

وفي موضع آخر جمع ابن القيم بين الروايات جمعًا حسنًا بأن سعة الجنة تختلف باختلاف الجنان، فكلما كانت الجنة أعلى كانت أبوابها أوسع، فقال رحمه الله تعالى: «وكلما عَلَتِ الجَنَّة اتَّسَعَتْ، فَعَاليها أَوْسَعُ مِمَّا دُونَهُ، وسعة الباب بحسب وسع الجَنَّةِ، وَلَعَلَّ هذا وَجْهُ الخِلَاف الذي جاء في مسافَةِ مَا بَيْنَ مصْرَاعي الباب» اهـ من حادي الأرواح (٩٦).

سَتَكُونُ مُزْدَحِمَةً بِالدَّاخِلِينَ؛ كَمَا قَالَ عُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ ﷺ: «**وَلَقَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ مِصْرَاعَيْنِ مِنَ مَصَارِيعِ الجَنَّةِ بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْهِ يَوْمٌ وَهُوَ كَظِيظٌ مِنَ الزِّحَامِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٩).

وَنِصْفُ الدَّاخِلِينَ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ الْعَظِيمَةِ هُمْ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةِ، فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الجَنَّةِ، فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إِلَّا كَالشَّعَرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَبْيَضَ، أَوْ كَشَعَرَةٍ بَيْضَاءَ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَسْوَدَ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٠)، وَالرَّجَاءُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ، فَلِلَّهِ الْحَمْدُ عَلَى إِكْرَامِ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِأَنْ يَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَعَلى أَنْ جَعَلَنَا مِنْهَا.

وَأَوَّلُ شَيْءٍ يُسْتَقْبَلُ بِهِ المُؤْمِنُونَ إِذَا فُتِحَتْ لَهُمْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ أَنَّهُمْ يُبَشَّرُونَ بِالسَّلَامِ وَالْخُلُودِ ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزُّمر: ٧٣]

---

(٩) أخرجه مسلم في فاتحة كتاب الزهد والرقائق (٢٩٦٧)، وأحمد (٥/ ٦١)، وابن حبان (٧١٢١)، والحاكم (٣/ ٢٩٢)، والطبراني في الكبير (١٧/ ١١٤) برقم (٢٨٠)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣٠١).

(١٠) أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب قصة يأجوج ومأجوج (٣١٧٠)، ومسلم في الإيمان، باب قوله: يقول الله لآدم: أَخْرِجْ بَعْثَ النار، مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْع مئة وتسعة وتسعين (٢٢٢)، وجاء من حديث ابن مسعود ﷺ بنحوه عند البخاري (٦١٦٣)، ومسلم (٢٢١). ومعنى آخر الحديث: أي: نسبتكم في المشركين قليلة جدًا؛ كما جاء مفسرًا في الرواية الأخرى للبخاري (٦١٦٣) من حديث ابن مسعود ﷺ وفيها: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَذَلِكَ أَنَّ الجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ، وَمَا أَنْتُمْ فِي أَهْلِ الشِّرْكِ إِلَّا كَالشَّعَرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ أَوْ كَالشَّعَرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَحْمَرِ**».

فَبَدَأَهُمْ خَزَنَتُهَا بِالسَّلَامِ المُتَضَمِّنِ لِلسَّلَامَةِ مِنْ كُلِّ شَرٍّ وَمَكْرُوهٍ، أَيْ: سَلِمْتُمْ فَلَا يَلْحَقُكُمْ بَعْدَ الْيَوْمِ مَا تَكْرَهُونَ.

وَتَظَلُّ أَبْوَابُهَا مُفَتَّحَةً؛ لِأَنَّهَا دَارُ أَمْنٍ لَا خَوْفَ مَعَهُ، وَإِنَّمَا تُغْلَقُ الْأَبْوَابُ خَوْفًا مِنْ شَيْءٍ، وَلَا خَوْفَ فِي الْجَنَّةِ ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ۝٥٠ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ [سورة ص: ٥٠، ٥١].

وَفِي تَفْتِيحِ أَبْوَابِهَا لَهُمْ إِشَارَةٌ إِلَى تَصَرُّفِهِمْ وَذَهَابِهِمْ وَإِيَابِهِمْ وَتَبَوُّئِهِمْ فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاؤُوا، وَدُخُولِ المَلَائِكَةِ عَلَيْهِمْ كُلَّ وَقْتٍ بِالتُّحَفِ وَالْأَلْطَافِ وَالنَّعِيمِ مِنْ رَبِّهِمْ، وَدُخُولِ مَا يَسُرُّهُمْ عَلَيْهِمْ كُلَّ حِينٍ(١١)، ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

بِخِلَافِ حَالِ أَهْلِ النَّارِ -أَعَاذَنَا اللهُ وَوَالِدِينَا وَالمُسْلِمِينَ مِنْهَا- فَإِنَّ أَبْوَابَهَا تُغْلَقُ عَلَيْهِمْ؛ لِيَشْتَدَّ عَذَابُهُمْ، وَيَعْظُمَ حُزْنُهُمْ، وَيَنْقَطِعَ رَجَاؤُهُمْ فِي الْخُرُوجِ مِنْهَا؛ وَلِتَبْقَى مَعَهُمْ حَسْرَتُهُمْ وَنَدَامَتُهُمْ فِي نَارٍ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ۝٨ فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ﴾ [الهمزة: ٦-٩] أَيْ: مُطْبَقَةٌ مُغْلَقَةٌ، وَمِنْهُ سُمِّيَ الْبَابُ وَصِيدًا ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾ [المائدة: ٣٧].

يَصِيحُونَ فِيهَا سَائِلِينَ رَبَّهُمْ ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٧] فَيَكُونُ جَوَابُ سُؤَالِهِمْ: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، وَاللهُ تَعَالَى يَعْلَمُ حَقِيقَتَهُمْ، وَفَسَادَ قُلُوبِهِمْ، وَاسْتِكْبَارَهُمْ عَنْ عِبَادَتِهِ ﷻ، وَأَنَّهُمْ لَوْ أُخْرِجُوا مِنْهَا لَعَادُوا إِلَى كُفْرِهِمْ وَاسْتِكْبَارِهِمْ ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

---

(١١) حادي الأرواح (٨٥).

فَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ حَالِهِمْ وَمَآلِهِمْ، وَنَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَجْعَلَنَا وَوَالِدِينَا مِنْ أَهْلِ الْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَى مِنَ الْجَنَّةِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البيِّنة: ٦-٨].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . . .

❀ ❀ ❀

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْآجَالَ مَحْدُودَةٌ، وَالْأَعْمَارَ مَعْدُودَةٌ، وَكَمَا يَبْتَدِئُ الْيَوْمَ رَمَضَانُ فَإِنَّهُ قَرِيبًا سَيَنْتَهِي، وَالْعِبْرَةُ بِمَا اسْتَوْدَعَ الْإِنْسَانُ فِيهِ مِنْ أَعْمَالٍ، خَيْرًا كَانَتْ أَمْ شَرًّا.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ بَيْنَ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ وَبَيْنَ رَمَضَانَ وَشَعِيرَةِ الصِّيَامِ عَلَاقَةً وَثِيقَةً؛ فَأَبْوَابُ الْجَنَّةِ تُفْتَحُ فِي رَمَضَانَ؛ كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا جَاءَ رَمَضَانُ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ**»، وَفِي رِوَايَةٍ لِلتِّرْمِذِيِّ: «**فَلَمْ يُغْلَقْ مِنْهَا بَابٌ**»(١٢).

(١٢) أخرجه البخاري في الصوم، باب هل يقال رمضان أو شهر رمضان، ومن رأى كله =

وَذَلِكَ يَكُونُ طَوَالَ شَهْرِ رَمَضَانَ، كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِذَا دَخَلَتْ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجِنَانِ فَلَمْ يُغْلَقْ مِنْهَا بَابٌ، الشَّهْرَ كُلَّهُ**»(١٣).

وَلِفَضْلِ الصِّيَامِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى جَعَلَهُ أَحَدَ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ، وَاخْتَصَّهُ بِبَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، لَا يَدْخُلُ مِنْهُ إِلَّا مَنْ أَكْثَرَ مِنَ الصِّيَامِ، وَعُرِفَ بِهِ؛ كَمَا رَوَى سَهْلُ بْنُ سَعْد رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**فِي الجَنَّةِ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابٍ، فِيهَا بَابٌ يُسَمَّى الرَّيَّانُ لَا يَدْخُلُه إِلَّا الصَّائِمُونَ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٤).

وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ الرَّيَّانُ يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، فَإِذَا دَخَلُوا أُغْلِقَ فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ**»(١٥)، وَفِي رِوَايَةٍ لِلنَّسَائِيِّ: «**مَنْ دَخَلَ فِيهِ شَرِبَ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا**»(١٦).

وَالرَّيَّانُ مُشْتَقٌّ مِنَ الرِّيِّ، وَهُوَ ضِدُّ الْعَطَشِ، فَكَمَا أَنَّ الصَّائِمَ حَبَسَ نَفْسَهُ عَنْ

= واسعًا (١٧٩٩)، ومسلم في الصيام، باب فضل شهر رمضان (١٠٧٩).
والرواية الثانية للترمذي في الصوم، باب ما جاء في فضل شهر رمضان (٦٨٢)، وابن ماجه في الصيام، باب ما جاء في فضل شهر رمضان (١٦٤٢)، وصححها ابن خزيمة (١٨٨٣)، وابن حبان (٣٤٣٥)، والحاكم (١/ ٥٨٢).

(١٣) أخرجه عبد الرزاق (٧٣٨٥)، وذكره الحافظ في الفتح من حديث ابن مسعود رضي الله عنه وعزاه للبيهقي (٤/ ١١٤).

(١٤) أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب صفة أبواب الجنة (٣٠٨٤)، ومسلم في الصيام، باب فضل الصيام (١١٥٢).

(١٥) هذه الرواية للبخاري في الصوم، باب الريان للصائمين (١٧٩٧).

(١٦) هذه الرواية للنسائي في الصوم، باب ذكر الاختلاف على محمد بن أبي يعقوب في حديث أبي أمامة في فضل الصائم (٤/ ١٦٨).

مُشْتَهَيَاتِهَا وَأَعْظَمُهَا المَاءُ؛ كَانَ جَزَاؤُهُ أَنْ يَدْخُلَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ، فَيَشْرَبَ وَلَا يَظْمَأَ أَبَدًا(١٧).

إِنَّ مَا اخْتُصَّ بِهِ رَمَضَانُ مِنْ فَتْحِ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَغَلْقِ أَبْوَابِ النَّارِ، وَتَصْفِيدِ الشَّيَاطِينِ إِنَّمَا هُوَ خَاصٌّ بِالمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يُعَظِّمُونَ رَمَضَانَ، وَيَقُومُونَ بِحَقِّ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ. وَأَمَّا الْكُفَّارُ الَّذِينَ يَسْتَحِلُّونَ الإِفْطَارَ فِيهِ، وَلَا يَرَوْنَ لَهُ حُرْمَةً وَلَا مَزِيَّةً؛ فَلَا تُفْتَحُ لَهُمْ فِيهِ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، وَلَا تُغْلَقُ عَنْهُمْ فِيهِ أَبْوَابُ النَّارِ، وَلَا تُصَفَّدُ شَيَاطِينُهُمْ(١٨).

وَمَنْ شَابَهَ الْكُفَّارَ مِنَ المُسْلِمِينَ بِانْتِهَاكِ حُرْمَةِ الشَّهْرِ، وَإِتْيَانِ المُفْطِرَاتِ، أَوْ فَعَلَ مَا يُبْطِلُ الصِّيَامَ أَوْ يَخْرِقُهُ مِنَ الْغِيبَةِ وَالنَّمِيمَةِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَشُهُودِ مَجَالِسِهِ، وَالِاسْتِمَاعِ إِلَيْهِ؛ فَيُخْشَى عَلَيْهِ مِنْ فَوَاتِ هَذَا الْفَضْلِ الْعَظِيمِ، وَأَنْ تُغْلَقَ دُونَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، وَأَنْ تُفْتَحَ لَهُ أَبْوَابُ النَّارِ، وَأَنْ تُطْلَقَ شَيَاطِينُهُ.

وَإِنَّ حَالَ كَثِيرٍ مِنَ الصَّائِمِينَ فِي هَذَا الْعَصْرِ لَيُنْبِئُ عَنْ حَالٍ مُحْزِنَةٍ أَلِيمَةٍ؛ إِذْ يَسْتَبْشِرُ أَكْثَرُهُمْ بِرَمَضَانَ لَا لِأَجْلِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَإِحْيَاءِ اللَّيْلِ بِالصَّلَاةِ وَالْقِيَامِ، وَبَذْلِ المَعْرُوفِ وَالْإِحْسَانِ؛ وَإِنَّمَا لِأَجْلِ مَا يُبَشِّرُهُمْ بِهِ شَيَاطِينُ الْإِنْسِ مِنْ قَوْلٍ بَذِيءٍ، وَتَرْفِيهٍ غَيْرِ بَرِيءٍ، عَبْرَ بَرَامِجَ وَمُسَلْسَلَاتٍ صُنِعَتْ خِصِّيصًا لِرَمَضَانَ، فِيهَا مَا فِيهَا مِنَ اسْتِهْزَاءٍ بِمِلَّةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَشَعَائِرِهِ الَّتِي ارْتَضَاهَا لِعِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ، مَعَ مَشَاهِدَ خَلِيعَةٍ يَخْجَلُ ذُوو المُرُوءَةِ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهَا، يُصَاحِبُهَا مَعَازِفُ تُزَاحِمُ الْقُرْآنَ فِي لَيَالِي تَنَزُّلِ الْقُرْآنِ! فَوَاعَجَبًا مِنْ أَهْلِ الْقُرْآنِ كَيْفَ يَرْضَوْنَ ذَلِكَ

(١٧) ينظر: فتح الباري لابن حجر (٤/ ١١١)، وقال القرطبي: «اكتفى بذكر الري عن الشبع؛ لأنه يدل عليه من حيث إنه يستلزمه»، قال الحافظ: «أو لكونه أشق على الصائم من الجوع» اهـ من الفتح.

(١٨) ينظر: مجموع فتاوى ابن تيمية (٥/ ١٣١-٤٧٤).

لِأَنْفُسِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ؟! وَأَيْنَ هِيَ غَيْرَتُهُمْ عَلَى أُسَرِهِمْ وَبُيُوتِهِمْ، وَقَبْلَ ذَلِكَ عَلَى مَحَارِمِ اللَّهِ تَعَالَى؟!

وَإِذَا كَانَ اللهُ تَعَالَى قَدْ عَلَّلَ اخْتِصَاصَهُ بِالْجَزَاءِ عَلَى الصِّيَامِ بِقَوْلِهِ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الْقُدُسِيِّ: «**يَدَعُ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَشَهْوَتَهُ مِنْ أَجْلِي**»[١٩]، وَهَذَا فِي الشَّهْوَةِ الْحَلَالِ فِي غَيْرِ الصَّوْمِ، فَكَيْفَ بِمَنِ اسْتَبَاحَ الشَّهَوَاتِ الْمُحَرَّمَةِ فِي هَذَا الشَّهْرِ الْمُعَظَّمِ، وَانْتَهَكَ حُرُمَاتِ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ؛ بِالنَّظَرِ إِلَى الْحَرَامِ، وَسَمَاعِهِ، وَحُضُورِ مَجَالِسِهِ، وَالرِّضَا بِهِ، وَالتَّفَكُّهِ عَلَيْهِ؟!

فَأَيْنَ مَنِ اشْتَاقَ إِلَى الْجَنَّةِ، وَرَجَا أَنْ يَدْخُلَهَا مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ؛ فَيَشْرَبَ وَلَا يَظْمَأَ أَبَدًا؟! هَلْ يَلِيقُ بِهِ أَنْ يُطْلِقَ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ وَجَوَارِحَهُ لِمَا تَبُثُّهُ عَلَيْهِ هَذِهِ الشَّاشَاتُ الْمُدَمِّرَةُ، بِقَنَوَاتِهَا الْمُفْسِدَةِ، وَبَرَامِجِهَا الْمُحَرَّمَةِ؟ وَلِمَاذَا لَا يَتْرُكُ شَهْوَتَهُ الْمُحَرَّمَةَ مِنْ أَجْلِ اللَّهِ تَعَالَى؟ لِيَتَوَلَّى الرَّبُّ جَزَاءَهُ عَلَى ذَلِكَ، وَهُوَ الْجَوَادُ الْكَرِيمُ الَّذِي يُعْطِي الْعَطَاءَ الْجَزِيلَ فِي هَذَا الشَّهْرِ الْعَظِيمِ.

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- فِي فَاتِحَةِ هَذَا الشَّهْرِ الْكَرِيمِ، شَهْرِ الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى، وَاصْبِرُوا عَمَّا حَرَّمَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْكُمْ، وَاتَّقُوهُ فِي أَوْلَادِكُمْ وَأُسَرِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ مَسْؤُولُونَ أَمَامَ اللَّهِ تَعَالَى عَمَّا يُشَاهِدُونَهُ وَيَسْمَعُونَهُ بِرِضَاكُمْ.. مُرُوهُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَانْهُوهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَاقْصُرُوهُمْ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا، وَأْطُرُوهُمْ عَلَيْه أَطْرًا؛ عَسَى أَنْ تَكُونُوا مِنَ الْفَائِزِينَ فِي هَذَا الْمَوْسِمِ الْكَرِيمِ.

أَلَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ...

❁ ❁ ❁

(١٩) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: البخاري في الصوم، باب فضل الصوم (١٧٩٥)، ومسلم في الصيام، باب فضل الصيام (١١٥١).

٢٤٦- رمضان والبركة

٨/ ٩/ ١٤٢٥هـ

الحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ . .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: عُمْرُ الإِنْسَانِ فِي الدُّنْيَا مَحْدُودٌ بِسَنَوَاتٍ قَلَائِلَ، وَلَدَيْهِ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالمَشَاغِلِ مَا يَسْتَوْعِبُ عُمُرَهُ وَزِيَادَةً، وَمَا مِنْ مَقْبُورٍ إِلَّا لَهُ مَشَاغِلُ لَمْ يَقْضِهَا، وَأَعْمَالٌ كَانَ يَوَدُّ الْقِيَامَ بِهَا، وَلَكِنْ حَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا نِهَايَةُ أَجَلِهِ.

وَالعِبَادَاتُ كَثِيرَةٌ، وَسُبُلُهَا عَدِيدَةٌ، وَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى الْقِيَامِ بِكُلِّ النَّوَافِلِ لَا يَفُوتُهُ مِنْهَا شَيْءٌ؛ فَإِنْ فُتِحَ لِلْعَبْدِ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ العِبَادَةِ أُغْلِقَتْ دُونَهُ أَبْوَابٌ أُخْرَى، وَمَشَاغِلُ دُنْيَاهُ تُزَاحِمُ أَعْمَالَ آخِرَتِهِ.

وَلِذَا كَانَ مِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ: أَنْ يُبَارَكَ لِلْعَبْدِ فِي وَقْتِهِ وَعُمْرِهِ، وَفِي جَسَدِهِ

وَرِزْقِهِ؛ حَتَّى يُنْجِزَ فِي الْوَقْتِ الْقَلِيلِ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ فِي وَقْتٍ طَوِيلٍ، وَحَتَّى يَكُونَ لَهُ أَعْمَالٌ صَالِحَةٌ كَثِيرَةٌ فِي يَوْمِهِ وَلَيْلَتِهِ، مَعَ عَدَمِ انْقِطَاعِهِ عَنِ الدُّنْيَا، وَأَخْذِ حَظِّهِ مِنْهَا، تِلْكَ هِيَ الْبَرَكَةُ، وَمَعْنَاهَا: ثُبُوتُ الْخَيْرِ وَدَوَامُهُ وَكَثْرَتُهُ وَتَتَابُعُهُ[(١)].

وَالْبَرَكَةُ تُطْلَبُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى؛ فَهُوَ سُبْحَانَهُ مَالِكُ الْمُلْكِ، وَخَالِقُ الْخَلْقِ، إِذَا أَرَادَ بَرَكَةَ شَيْءٍ تَبَارَكَ وَلَوْ كَانَ قَلِيلًا، وَإِذَا نَزَعَ الْبَرَكَةَ مِنْ شَيْءٍ تَمَاحَقَ مَهْمَا كَانَ كَثِيرًا، وَقَدْ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ أَدْخَلَ يَدَهُ فِي إِنَاءٍ فِيهِ مَاءٌ قَلِيلٌ ثُمَّ قَالَ: **«حَيَّ عَلَى الطَّهُورِ المُبَارَكِ، وَالْبَرَكَةُ مِنَ اللَّهِ، فَنَبَعَ المَاءُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ ﷺ»** رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[(٢)].

وَلَمْ يَأْتِ إِسْنَادُ الْبَرَكَةِ فِي الْقُرْآنِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؛ فَهُوَ سُبْحَانَهُ مَالِكُهَا وَمَانِحُهَا وَنَازِعُهَا جَلَّ فِي عُلَاهُ ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ [هود: ٤٨].

وَلَمَّا حَمَلَتْ أُمُّ إِسْحَاقَ بِهِ عليه السلام وَقَدْ بَلَغَتْ مِنَ الْكِبَرِ مَا بَلَغَتْ، وَعَجِبَتْ مِنْ ذَلِكَ؛ قَالَ لَهَا مَلَائِكَةُ الرَّحْمَنِ عليهم السلام: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [هود: ٧٣].

وَكَانَ مِنْ ثَنَاءِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي اسْتِفْتَاحِ صَلَاةِ اللَّيْلِ قَوْلُهُ: **«لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ»** رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(٣)].

---

(١) ينظر: الوسيط للواحدي (٢/ ٢٩٨) وتفسير القرطبي (١١/ ٣٠٥).

(٢) أخرجه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه: البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٣٨٦)، والدارمي (٢٩)، وأحمد (١/ ٤٠١)، وابن حبان (٦٥٤٠).

(٣) أخرجه من حديث علي رضي الله عنه: مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه (٧٧١)، وأبو داود في الصلاة، باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء =

يَقُولُ ابْنُ الْقَيِّم -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «كُلُّ كَمَالٍ وَخَيْرٍ فِي المَوْجُودَاتِ فَهُوَ مُسْتَفَادٌ مِنْ خَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَكَمَالِهِ فِي نَفْسِهِ، وَهِيَ تُسْتَمَدُّ مِنْهُ، وَهُوَ لَا يَسْتَمِدُّ مِنْهَا، وَهِيَ فَقِيرَةٌ إِلَيْهِ، وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْهَا، كُلٌّ مِنْهَا يَسْأَلُهُ كَمَالَهُ؛ فَالمَلَائِكَةُ تَسْأَلُهُ مَا لَا حَيَاةَ لهَا إِلَّا بِهِ، وَإِعَانَتَهُ عَلَى ذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ، وَتَنْفِيذَ أَوَامِرِهِ . . . وَالرُّسُلُ تَسْأَلُهُ أَنْ يُعِينَهُمْ عَلَى أَدَاءِ رِسَالَاتِهِ وَتَبْلِيغِهَا، وَأَنْ يَنْصُرَهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ مَصَالِحِهِمْ فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ، وَبَنُو آدَمَ كُلُّهُمْ يَسْأَلُونَهُ مَصَالِحَهُمْ عَلَى تَنَوُّعِهَا وَاخْتِلَافِهَا، وَالْحَيَوانُ كُلُّهُ يَسْأَلُهُ رِزْقَهُ وَغِذَاءَهُ وَقُوتَهُ وَمَا يُقِيمُهُ، وَالشَّجَرُ وَالنَّبَاتُ يَسْأَلُهُ غِذَاءَهُ وَمَا يَكْمُلُ بِهِ، وَالْكَوْنُ كُلُّهُ يَسْأَلُهُ إِمْدَادَهُ بِقَالِهِ وَحَالِهِ ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرَّحمن: ٢٩] فَأَكُفُّ جَمِيعِ الْعَالَمِ مُمْتَدَّةٌ إِلَيْهِ بِالطَّلَبِ وَالسُّؤَالِ، وَيَدُهُ مَبْسُوطَةٌ لهُمْ بِالْعَطَاءِ وَالنَّوَالِ، «**يَمِينُهُ مَلْأَى، لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**»(٤) وَعَطَاؤُهُ وَخَيْرُهُ مَبْذُولٌ لِلْأَبْرَارِ وَالْفُجَّارِ، لَهُ كُلُّ كَمَالٍ، وَمِنْهُ كُلُّ خَيْرٍ، لَهُ الحَمْدُ كُلُّهُ، وَلَهُ الثَّنَاءُ كُلُّهُ، وَبِيَدِهِ الْخَيْرُ كُلُّهُ، وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ، تَبَارَكَ اسْمُهُ، وَتَبَارَكَتْ أَوْصَافُهُ، وَتَبَارَكَتْ أَفْعَالُهُ، وَتَبَارَكَتْ ذَاتُهُ، فَالْبَرَكَةُ كُلُّهَا لَهُ وَمِنْهُ، لَا يَتَعَاظَمُهُ خَيْرٌ سُئِلَهُ، وَلَا تَنْقُصُ خَزَائِنُهُ عَلَى كَثْرَةِ عَطَائِهِ وَبَذْلِهِ» اهـ(٥).

= (٧٦٠-٧٦١)، والترمذي في الدعوات، باب ما جاء في الدعاء عند افتتاح الصلاة بالليل (٣٤٢٢)، والنسائي في الافتتاح، باب نوع آخر من الذكر والدعاء بين التكبير والقراءة (٢/ ١٢٩)، وفي السنن الكبرى (٩٧١)، وأحمد (١/ ١٠٢)، والدارمي (١٢٣٨)، والطيالسي (١٥٢)، وابن الجارود في المنتقى (١٧٩)، وأبو يعلى (٥٧٤).

(٤) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [سورة ص: ٧٥] (٦٩٧٦)، ومسلم في الزكاة، باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف (٩٩٣).

(٥) شفاء العليل(١٨٣-١٨٤).

وَالْبَرَكَةُ قَدْ تكُونُ خَاصَّةً بِأُمُورِ الدُّنْيَا، وَقَدْ تَجْمَعُ خَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَالْغَيْثُ الَّذِي يُنْزِلُهُ اللهُ تَعَالَى رَحْمَةً لِلْعِبَادِ فِيهِ مِنَ الْبَرَكَةِ مَا يُحْيِي الْأَرْضَ، وَتَشْرَبُ مِنْهُ الْأَحْيَاءُ، وَيَنْتَفِعُ بِهِ النَّاسُ؛ وَلِذَا يَفْرَحُ الْخَلْقُ بِنُزُولِهِ أَشَدَّ الْفَرَحِ، وَقَد جَاءَ وَصْفُهُ بِالْبَرَكَةِ فِي الْقُرْآنِ ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ﴾ [سورة ق: ٩-١١].

وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ أَنْزَلَهُ اللهُ تَعَالَى هَادِيًا لِلنَّاسِ، وَهُوَ بَرَكَةٌ لِمَنْ آمَنَ بِهِ، وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَجَاءَ وَصْفُهُ بِالْبَرَكَةِ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة ص: ٢٩].

وَوُصِفَ بِالْبَرَكَةِ لِأَنَّهُ كَثِيرُ الْبَرَكَاتِ، وَهُوَ أَحَقُّ أَنْ يُسَمَّى مُبَارَكًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ[٦].

وَلِلْبَرَكَةِ أَسْبَابُهَا، مَنْ أَخَذَ بِهَا بَارَكَ اللهُ تَعَالَى لَهُ فِي حَيَاتِهِ وَفِي أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ وَرِزْقِهِ، وَرَأْسُ هَذِهِ الْأَسْبَابِ: تَقْوَى اللَّهِ ﷻ، فَمَنْ لَزِمَهَا فُتِحَتْ لَهُ الْخَيْرَاتُ، وَحَلَّتْ عَلَيْهِ الْبَرَكَاتُ، وَمَنْ فَرَّطَ فِيهَا نُزِعَ مِنْهُ مِنَ الْبَرَكَةِ بِقَدْرِ تَفْرِيطِهِ ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وَالِاسْتِغْفَارُ سَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِهَا؛ كَمَا قَالَ نُوحٌ عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ

---

(٦) ينظر: جلاء الأفهام لابن القيم (٣٠٤).

جَنَّٰتٍ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠-١٢]. وَقَالَ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ [هود: ٥٢].

وَصِلَةُ الرَّحِمِ تَمُدُّ فِي الْعُمُرِ، وَتَزِيدُ فِي الرِّزْقِ «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**»(٧)، وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهَا: «**إِنَّهُ مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ وَحُسْنُ الْجِوَارِ يَعْمُرَانِ الدِّيَارَ، وَيَزِيدَانِ فِي الْأَعْمَارِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(٨).

وَمِنْ أَعْظَمِ مَا يَمْحَقُ الْبَرَكَةَ فِي الْأَعْمَارِ وَالْأَرْزَاقِ: الذُّنُوبُ وَالمَعَاصِي؛ حَتَّى إِنَّ سَلْبَ بَرَكَاتِ الْأَرْضِ وَخَيْرَاتِهَا وَثِمَارِهَا وَنَبَاتِهَا إِنَّمَا هُوَ مِنْ نَتَائِجِ عِصْيَانِ بَنِي آدَمَ.

وَيَطُولُ أَثَرُ نَزْعِ الْبَرَكَةِ مِنَ الْأَرْضِ وَمَا فِيهَا: الْحَيَوانَ، فَيَتَضَرَّرُ بِقِلَّةِ الْبَرَكَةِ فِي طَعَامِهِ، وَلَرُبَّمَا نَفِقَتِ الْحَيَوانَاتُ مِنْ جَرَّاءِ ذَلِكَ؛ وَلِذَا جَاءَ فِي بَعْضِ الْآثَارِ أَنَّ الْبَهَائِمَ تَلْعَنُ عُصَاةَ بَنِي آدَمَ(٩).

---

(٧) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه: البخاري في الأدب، باب مَنْ بُسِطَ له في الرِّزْقِ بِصِلَةِ الرحم (٥٦٤٠)، ومسلم في البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها (٢٥٥٧).

(٨) أخرجه أحمد واللفظ له (٦/ ١٥٩)، وأبو يعلى (٤٥٣٠)، والقضاعي في مسند الشهاب (٤٤٤، ٤٤٥، ٤٤٦).

(٩) روى الطبري في تفسيره (٢/ ٥٥) عن مجاهد -رحمه الله تعالى- في قول الله سبحانه: ﴿وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]، قال: «البهائم تَلْعَنُ عُصَاةَ بَنِي آدَمَ حِينَ أَمْسَكَ اللهُ عَنْهُمْ بِذُنُوبِ بَنِي آدَمَ المَطَرَ فَتَخْرُجُ الْبَهَائِمُ فَتَلْعَنُهُمْ».
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٤): «وقال غير واحد من السلف: إذا قحط المطر فالدَّوَابّ تَلْعَنُ عُصَاةَ بَنِي آدم فتقول: اللهم الْعَنْهُمْ فَبِسَبَبِهِمْ أَجْدَبَتِ الأَرْضُ وقحَطَ المَطَرُ» اهـ، وينظر أيضًا: بدائع الفوائد (٣/ ٥٢٥)، والداء والدواء (٣٨).

وَتعَلُّقُ الْقَلْبِ بِالمَالِ سَبَبٌ لِمَحْقِ بَرَكَتِهِ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ هَذَا المَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٠).

وَتَلْوِيثُ المَالِ بِالرِّبَا أَوِ الرِّشَا أَوِ المُعَامَلَاتِ المُحَرَّمَةِ وَالْكَذِبِ فِي التِّجَارَةِ أَوِ الْغِشِّ فِي المُعَامَلَاتِ، كُلُّ ذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ مَحْقِ بَرَكَةِ المَالِ ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]. وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْبَائِعِ وَالْمُشْتَرِي: «**فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَذَبَا وَكَتَمَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١١).

وَرَوَى الشَّيْخَانِ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**الحَلِفُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ لِلْبَرَكَةِ**»(١٢).

وَمَا قَلَّتْ بَرَكَةُ الْأَعْمَارِ وَالْأَوْقَاتِ وَالْأَمْوَالِ إِلَّا بِسَبَبِ الذُّنُوبِ وَالمَعَاصِي، وَالتَّقْصِيرِ فِي تَحْصِيلِ أَسْبَابِ الْبَرَكَةِ؛ حَتَّى كَثُرَتِ الْأَمْوَالُ فِي أَيْدِي النَّاسِ وَلَكِنَّهَا لَا تَكْفِيهِمْ! وَتَنَوَّعَتْ وَسَائِلُ الِاتِّصَالِ وَالرَّاحَةِ وَلَكِنْ مَشَاغِلُهُمْ لَا تَتَّسِعُ لَهَا أَوْقَاتُهُمْ، وَالْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَسْعَى بِشِدَّةٍ، وَيُرْهِقُ نَفْسَهُ، وَيَسْتَنْفِذُ أَوْقَاتَهُ وَلَا يَرَى ثَمَرَةً لِهَذَا السَّعْيِ، وَلَمْ يُحَقِّقْ إِنْجَازًا يُذْكَرُ يُوَازِي سَعْيَهُ وَلُهَاثَهُ.

إِنَّهَا قِلَّةُ الْبَرَكَةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَلَيْسَتْ قِلَّةَ مَوَارِدَ، وَلَا قِلَّةَ أَوْقَاتٍ، وَيُخْشَى

---

(١٠) أخرجه من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه البخاري في الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة (١٤٠٣)، ومسلم في الزكاة، باب بيان أن اليد العليا خير من السفلى (١٠٣٥).

(١١) أخرجه من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه: البخاري في البيوع، باب إذا بَيَّنَ البَيِّعَان ولم يكتما ونصحا (١٩٧٣)، ومسلم في البيوع، باب الصدق في البيع والبيان (١٥٣٢).

(١٢) أخرجه البخاري في البيوع، باب يمحق الله الربا ويربي الصدقات (١٩٨١)، ومسلم في المساقاة، باب النهي عن الحلف في البيع (١٦٠٦).

عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ أَنْ تَكُونَ أَعْمَارُهُمْ مَمْحُوقَةَ الْبَرَكَةِ، فَتَمْضِي بِلَا طَائِلٍ، نَسْأَلُ اللهَ الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ، وَنَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يُبَارِكَ لَنَا فِي أَوْقَاتِنَا وَأَعْمَالِنَا وَأَهْلِنَا وَأَوْلَادِنَا وَأَمْوَالِنَا، وَفِي كُلِّ مَا نَحْتَاجُ إِلَى الْبَرَكَةِ فِيهِ؛ فَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو بِذَلِكَ، وَيَسْأَلُ رَبَّهُ الْبَرَكَةَ، وَكَانَ النَّاسُ فِي عَهْدِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِذَا رَأَوْا أَوَّلَ الثَّمَرِ جَاءُوا بِهِ إِلَيْهِ، فَإِذَا أَخَذَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: «**اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي ثَمَرِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي مُدِّنَا، اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَبْدُكَ وَخَلِيلُكَ وَنَبِيُّكَ، وَإِنِّي عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، وَإِنَّهُ دَعَاكَ لِمَكَّةَ، وَأَنَا أَدْعُوكَ لِلْمَدِينَةِ بِمِثْلِ مَا دَعَاكَ لِمَكَّةَ، وَمِثْلِهِ مَعَهُ**» قَالَ الرَّاوِي: ثُمَّ يَدْعُو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَصْغَرَ وَلِيدٍ فَيُعْطِيهِ ذَلِكَ الثَّمَرَ. رَوَاهُ الشَّيْخَانِ وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ(١٣).

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ..

❀ ❀ ❀

---

(١٣) أخرجه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: البخاري في الجهاد والسير، باب فضل الخدمة في الغزو (٢٧٣٢).
وأخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: مسلم في الحج، باب فضل المدينة ودعاء النبي ﷺ لها بالبركة، واللفظ له (١٣٧٣).
وجاء أيضًا من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عند: مسلم في الحج، باب فضل المدينة ودعاء النبي ﷺ لها بالبركة (١٣٧٤)، ومن حديث عائشة عند البخاري (١٧٩٠).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاحْذَرُوا نِقْمَتَهُ فَلَا تَعْصُوهُ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: يُبَارِكُ اللهُ تَعَالَى فِي بَعْضِ الْبِقَاعِ فَتَكُونُ أَكْثَرَ بَرَكَةً مِنْ غَيْرِهَا؛ كَمَا بَارَكَ فِي مَكَّةَ وَالمَدِينَةِ وَبَيْتِ المَقْدِسِ، وَيُبَارِكُ سُبْحَانَهُ فِي بَعْضِ الْأَشْهُرِ وَالْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي فَيَكُونُ فِيهَا مِنَ الْبَرَكَةِ مَا لَيْسَ فِي سِوَاهَا، وَشَهْرُ رَمَضَانَ هُوَ خَيْرُ الشُّهُورِ وَأَكْثَرُهَا بَرَكَةً، وَقَدْ جَاءَ التَّنْصِيصُ عَلَى بَرَكَتِهِ فِيمَا رَوَاهُ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه فَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَتَاكُمْ رَمَضَانُ شَهْرٌ مُبَارَكٌ**» رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَأَحْمَدُ(١٤).

وَمِنْ بَرَكَتِهِ: فَتْحُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ فِيهِ، وَغَلْقُ أَبْوَابِ النَّارِ، وَسَلْسَلَةُ الشَّيَاطِينِ. وَأَعْظَمُ لَيْلَةٍ فِيهِ: لَيْلَةُ الْقَدْرِ، وَهِيَ مُبَارَكَةٌ؛ بَارَكَهَا اللهُ تَعَالَى بِإِنْزَالِ الْقُرْآنِ فِيهَا، وَهُوَ كِتَابٌ مُبَارَكٌ، وَمَنْ قَامَهَا إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، فَاجْتَمَعَتِ الْبَرَكَةُ فِيهَا مِنْ أَوْجُهٍ عِدَّةٍ، وَوَصَفَهَا اللهُ تَعَالَى بِالْبَرَكَةِ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان: ٣].

وَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِالسُّحُورِ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ بَرَكَةٌ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**تَسَحَّرُوا**

---

(١٤) أخرجه بهذا اللفظ أحمد (٢/ ٣٣٠)، والنسائي في الصيام، باب فضل شهر رمضان (٤/ ١٢٦)، وإسحاق بن راهويه في مسنده (١-٢)، وعبد بن حميد (١٤٢٩) والطبراني في مسند الشاميين (٢٦٨٧)، والحديث بألفاظ أخرى في الصحيحين وغيرهما.

فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَةً» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ ﷺ[(١٥)] وَمِنْ بَرَكَةِ السَّحُورِ: أَنَّهُ يُقَوِّي عَلَى الصِّيَامِ، وَيُنَشِّطُ لَهُ، وَيُخَفِّفُ المَشَقَّةَ فِيهِ.

وَأَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ: أَنَّ فِيهِ اتِّبَاعًا لِلسُّنَّةِ، وَمُخَالَفَةً لِأَهْلِ الْكِتَابِ فَإِنَّهُمْ لَا يَتَسَحَّرُونَ؛ وَلِذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**فَصْلُ مَا بَيْنَ صِيَامِنَا وَصِيَامِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَكْلَةُ السَّحَرِ**»[(١٦)].

وَوَقْتُ السَّحَرِ وَقْتُ اسْتِغْفَارٍ وَدُعَاءٍ، فَمَنِ اسْتَيْقَظَ لَهُ تَهَيَّأَ لَهُ مِنَ الدُّعَاءِ وَالِاسْتِغْفَارِ مَا يَعُودُ عَلَيْهِ بِالنَّفْعِ الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ، وَاللهُ تَعَالَى قَدْ أَثْنَى عَلَى الْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ، وَأَخْبَرَ أَنَّ مَثْوَاهُمُ الْجَنَّةُ.

وَفَوَائِدُ السُّحُورِ كَثِيرَةٌ، وَبَرَكَاتُهُ عَدِيدَةٌ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ إِلَّا حُصُولُ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَدُعَاءُ المَلَائِكَةِ -وَهُمْ عِبَادُ اللَّهِ المُقَرَّبُونَ- لَكَانَ حَرِيًّا بِالمُسْلِمِ أَنْ يُحَافِظَ عَلَى أَكْلَةِ السَّحَرِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**السَّحُورُ أَكْلُهُ بَرَكَةٌ فَلَا تَدَعُوهُ، وَلَوْ أَنْ يَجْرَعَ أَحَدُكُمْ جُرْعَةً مِنْ مَاءٍ؛ فَإِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى المُتَسَحِّرِينَ**»[(١٧)]، وَفِي

---

(١٥) أخرجه البخاري في الصوم، باب بركة السحور من غير إيجاب (١٨٢٣)، ومسلم في الصيام، باب فضل السحور (١٠٩٥).

(١٦) أخرجه من حديث عمرو بن العاص ﷺ: مسلم في الصيام، باب فضل السحور (١٠٩٦)، وأبو داود في الصوم، باب في تأكيد السحور (٢٣٤٣)، والترمذي في الصوم، باب ما جاء في فضل السحور (٨٠٧)، والنسائي في الصيام، باب فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب (٤/ ١٤٦)، وأحمد (٤/ ١٩٧)، والدارمي (١٦٩٧)، وعبد بن حميد (٢٩٣).

(١٧) أخرجه أحمد (٣/ ٤٤)، وفي سنده أبو رفاعة مجهول، وبقية رجاله ثقات.

وللحديث شواهد أخرى يصح بها، منها: حديث ابن عمر عند ابن حبان (٣٤٦٧)، وحديث ابن مسعود عند أبي يعلى (٥٠٧٣)، وابن خزيمة (١٩٣٦)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٦٨٣).

لَفْظٍ آخَرَ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ السَّحُورَ بَرَكَةٌ أَعْطَاكُمُوهَا اللهُ ﷻ فَلَا تَدَعُوهَا» رَوَاهُ أَحْمَدُ(١٨).

وَالْإِفْطَارُ عَلَى التَّمْرِ إِفْطَارٌ عَلَى شَيْءٍ مُبَارَكٍ، وَقَدْ ثَبَتَ طِبِّيًّا مَا لِلْإِفْطَارِ عَلَى التَّمْرِ مِنَ المَنَافِعِ الْعَظِيمَةِ عَلَى الْجِسْمِ وَآلَاتِهِ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِذَا أَفْطَرَ أَحَدُكُمْ فَلْيُفْطِرْ عَلَى تَمْرٍ؛ فَإِنَّهُ بَرَكَةٌ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ تَمْرًا فَالمَاءُ فَإِنَّهُ طَهُورٌ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ(١٩).

فَبَانَ بِهَذِهِ النُّصُوصِ الْكَثِيرَةِ أَنَّ رَمَضَانَ شَهْرٌ مُبَارَكٌ، وَبَرَكَتُهُ تَشْمَلُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ؛ فَهُوَ مُبَارَكٌ بِمَا يَقُومُ بِهَ الصَّائِمُونَ مِنْ أَعْمَالٍ صَالِحَةٍ تُقَرِّبُهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَتَكُونُ سَبَبًا فِي سَعَادَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَفَوْزِهِمْ فِي الْآخِرَةِ بِالْجَنَّةِ . . وَهُوَ بَرَكَةٌ عَلَى الْفُقَرَاءِ بِمَا يَظْهَرُ فِيهِ مِنْ إِحْسَانٍ لَهُمْ وَالنَّفَقَةِ عَلَيْهِمْ . . وَهُوَ بَرَكَةٌ عَلَى الْأَغْنِيَاءِ بِمَا يُخْرِجُونَ فِيهِ مِنَ الصَّدَقَاتِ، وَمَا يَبْذُلُونَهُ مِنَ المَعْرُوفِ وَالْخَيْرِ . . وَهُوَ بَرَكَةٌ عَلَى عُمُومِ المُسْلِمِينَ بِمَا يَقُومُونَ فِيهِ مِنْ صَلَاةِ اللَّيْلِ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَكَثْرَةِ الذِّكْرِ . . وَالسَّحُورُ فِيهِ بَرَكَةٌ . . وَالْإِفْطَارُ عَلَى رُطَبٍ أَوْ تَمْرٍ بَرَكَةٌ . . وَمِنْ أَعْظَمِ الْبَرَكَاتِ: أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَغْفِرُ لِلصَّائِمِينَ، وَيُعْتِقُ خَلْقًا كَثِيرًا مِنْ عِبَادِهِ مِنَ النَّارِ . .

---

(١٨) أخرجه من حديث عبد الله بن الحارث عن رجل من الصحابة: أحمد (٥/ ٣٦٧)، والنسائي في الصيام، باب فضل السحور (٤/ ١٤٥)، وجهالة الصحابي لا تَضُرّ.

(١٩) أخرجه من حديث سلمان بن عامر الضبي رضي الله عنه: الترمذي في الصوم، باب ما جاء ما يستحب عليه الإفطار، وقال: هذا حديث حسن صحيح (٦٩٥)، واللفظ له، والنسائي في الكبرى (٣٣٢٠)، وأحمد (٤/ ١٧)، والطيالسي (١١٨١)، وصححه ابن خزيمة (٢٠٦٧)، وابن حبان (١٥١٤)، وجاء بنحوه عن أنس رضي الله عنه.

فَجِدُّوا فِيهِ -عِبَادَ اللَّهِ- وَاجْتَهِدُوا؛ حَتَّى تَنَالُوا بَرَكَتَهُ، فَمَنْ فَاتَتْهُ بَرَكَاتُ هَذَا الشَّهْرِ فَهُوَ مَحْرُومٌ، قَالَ جِبْرِيلُ عليه السلام لِلنَّبِيِّ ﷺ: **«مَنْ أَدْرَكَ رَمَضَانَ وَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ فَأَبْعَدَهُ اللهُ، قُلْ: آمِينَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: آمِينَ»**[٢٠].

أَلَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ . .



(٢٠) أخرجه من حديث مالك بن الحويرث رضي الله عنه: ابن حبان (٤٠٩)، والحاكم وصححه (٤/ ١٧٠).

وله شاهد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند الترمذي (٣٥٤٥)، وقال الترمذي: حسن غريب، وأحمد (٢/ ٢٥٤) وصححه ابن حبان (٩٠٨).



٢٤٧- رمضان والإيمان

٢/ ٩/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْجَوَادِ الْكَرِيمِ؛ هَدَانَا لِلإِيمانِ، وَعَلَّمَنَا الْقُرْآنَ، وَجَعَلَنَا مِنْ خَيْرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، نَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا، وَنَشْكُرُهُ عَلَى مَا اجْتَبَانَا. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ أَرْسَلَ إِلَيْنَا أَفْضَلَ رُسُلِهِ، وَاخْتَصَّنَا بِخَاتِمَةِ كُتُبِهِ، وَهَدَانَا لِمَعَالِمِ دِينِهِ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الرُّوم: ٣٠].

وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ اخْتَارَهُ اللهُ تَعَالَى رَسُولًا لِهَذِهِ الأُمَّةِ، وَاخْتَارَ لَهُ أُمَّتَهُ، فَكَانَ أَفْضَلَ نَبِيٍّ لِخَيْرِ أُمَّةٍ، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[1]، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ؛ أُوتُوا الإِيمانَ قَبْلَ العِلْمِ وَالقُرْآنِ؛ فَقَوِيَ إِيمَانُهُمْ، وَصَلَحَتْ قُلُوبُهُمْ، وَزَكَتْ أَعْمَالُهُمْ؛ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى، وَاشْكُرُوهُ عَلَى مَا مَنَّ بِهِ عَلَيْكُمْ مِنَ الإِيمانِ، وَإِدْرَاكِ رَمَضَانَ؛ فَكَمْ فِي القُبُورِ مِنْ أُنَاسٍ فَاتَهُمْ هَذَا المَوْسِمُ العَظِيمُ، فَفَاتَهُمْ مِنَ الخَيْرِ كَثِيرٌ، وَشُكْرُ اللَّهِ تَعَالَى يَكُونُ بِاسْتِعْمَالِ نِعْمَتِهِ فِيمَا يُرْضِيهِ، وَعِمَارَةِ

---

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في فضائل القرآن، باب كيف نزول الوحي وأول ما نزل (٤٦٩٦)، ومسلم في الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس.. (١٥٢).

رَمَضَانَ بِطَاعَتِهِ، وَاجْتِنَابِ مَعْصِيَتِهِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ زِيَادَةِ الإِيمَانِ، وَصَلَاحِ الْقُلُوبِ، وَتَمَامِ النِّعَمِ ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، فَأَرُوا اللهَ تَعَالَى مِنْ أَنْفُسِكُمْ خَيْرًا فِي هَذَا الشَّهْرِ الْكَرِيمِ؛ فَإِنَّكُمْ فِي بِدَايَتِهِ، وَمَنْ عَاشَ مِنْكُمْ أَدْرَكَ نِهَايَتَهُ، وَالأَيَّامُ تَمُرُّ سَوَاءً بِسَوَاءٍ عَلَى أَهْلِ التَّشْمِيرِ وَالطَّاعَةِ، وَعَلَى أَهْلِ التَّفْرِيطِ وَالمَعْصِيَةِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ الَّتِي يُنْعِمُ اللهُ تَعَالَى بِهَا عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَهْدِيَهُ لِلْإِيمانِ بِهِ سُبْحَانَهُ وَبِمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ؛ فَإِنَّ فِي الإِيمَانِ بِذَلِكَ رَاحَةَ الْقَلْبِ وَطُمْأَنِينَتَهُ، وَنُورَ الْبَصِيرَةِ وَنَفَاذَهَا، وَصِحَّةَ الْعَمَلِ وَاسْتِقَامَتَهُ؛ وَكَمْ مِنْ أُنَاسٍ فِي الأَرْضِ يَتَعَبَّدُونَ لِأَوْثَانِهِمْ عَلَى غَيْرِ هُدًى، فَمَا كَانَ عَمَلُهُمْ مَبْرُورًا، وَلَا كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤].

وَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ بِالإِيمَانِ فِي كَثِيرٍ مِنْ آيِ الْقُرْآنِ؛ لِنَيْلِ رِضْوَانِهِ سُبْحَانَهُ، وَلِنَجَاةِ نُفُوسِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ . . . [البقرة: ١٣٦].

وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦].

وَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْبِرَّ الَّذِي يَطْلُبُهُ النَّاسُ إِنَّمَا هُوَ فِي الإِيمانِ ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وَلَمَّا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ مَا أَعَدَّ لِلْمُتَّقِينَ مِنْ عِبَادِهِ فِي الجَنَّةِ بَيَّنَ ﷻ أَنَّهُمْ ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٦]، وَنَوَّهَ ﷻ

بِدُعَائِهِمْ حِينَ قَالُوا: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّاۚ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

وَأَثْنَى سُبْحَانَهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الجِنِّ لَمَّا قَالُوا: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ [الجن: ١٣]، بَلْ إِنَّهُمْ ﵃ دَعَوْا أَقْوَامَهُمْ إِلَى الإِيمَانِ فَقَالُوا: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣١].

وَامْتَدَحَ ﷻ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَّا عَرَفُوا الْحَقَّ فِي الْإِسْلَامِ، وَتُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْقُرْآنِ فَفَاضَتْ أَعْيُنُهُمْ بِالدَّمْعِ خُشُوعًا وَتَصْدِيقًا، وَأَعْلَنُوا إِيمَانَهُمْ بِمُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

وَنَوَّهَ ﷻ بِسَحَرةِ فِرْعَوْنَ لَمَّا آمَنُوا بِاللَّهِ تَعَالَى، وَاتَّبَعُوا مُوسَى ﵇ عِنْدَمَا اسْتَبَانَ لَهُمُ الحَقُّ، وَظَهَرَتْ لَهُمُ الْآيَاتُ، وَذَكَرَ سُبْحَانَهُ خَبَرَهُمْ فِي قُرْآنٍ يُتْلَى إِلَى يَوْمِ الدِّينِ: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١، ١٢٢]، وَلَمَّا هَدَّدَهُمْ فِرْعَوْنُ بِالْعَذَابِ وَالنَّكَالِ مَا زَادَهُمْ ذَلِكَ إِلَّا تَأْكِيدًا لِإِيمَانِهِمْ، وَثَبَاتًا عَلَى دِينِهِمْ؛ وَخَاطَبُوا فِرْعَوْنَ بِعِزَّةٍ وَإِبَاءٍ فَقَالُوا: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَاۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٥، ١٢٦].

وَالإِيمانُ سَبَبٌ لِرَفْعِ الْعَذَابِ عَنِ الْأُمَّةِ الْمُؤْمِنَةِ، كَمَا أَنَّ عَدَمَ الْإِيمَانِ سَبَبٌ لِهَلَاكِ النَّاسِ، وَمَا عُذِّبَتِ الأُمَمُ السَّالِفَةُ مِنْ لَدُنْ نُوحٍ ﵇ إِلَّا بِسَبَبِ رَفْضِهِمُ الْإِيمَانَ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ ﵈، وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ بِاللَّهِ تَعَالَى، فِي حِينِ أَنَّ قَوْمَ يُونُسَ ﵇ نُجُّوا مِنَ الْعَذَابِ بِسَبَبِ إِيمَانِهِمْ: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ

فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

وَأَهْلُ الْإِيمَانِ هُمُ الْأَتْبَاعُ الْحَقِيقِيُّونَ لِإِمَامِ الْحُنَفَاءِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]، وَهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ تَعَالَى وَأَصْفِيَاؤُهُ، المَخْصُوصُونَ بِبِشَارَتِهِ وَرِضْوَانِهِ، ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

وَالإِيمانُ سَبَبٌ لِلْأَمْنِ وَالتَّثْبِيتِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وَكَانَ جَزَاؤُهُمْ فِي الآخِرَةِ عَلَى إِيمَانِهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠، ١١].

وَالفِرْدَوْسُ الأَعْلَى مِنَ الجَنَّةِ هُوَ نُزُلُ مَنْ تَرَقَّوْا فِي إِيمَانِهِمْ إِلَى أَنْ حَازُوا كَمَالَهُ، أَوْ قَارَبُوا ذَلِكَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧].

وَإِذَا كَانَتْ تِلْكَ بَعْضَ آثَارِ الإِيمَانِ وَنَتَائِجِهِ، أَفَلَا يَكُونُ الإِيمَانُ أَعْظَمَ نِعْمَةٍ مَنَّ اللهُ تَعَالَى بِهَا عَلَى عِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ؟! بَلَى وَرَبِّي إِنَّهُ لَكَذَلِكَ.

وَالإِيمَانُ هُوَ الإِقْرَارُ بِمَا يَجِبُ الإِقْرَارُ بِهِ، وَهُوَ يَقُودُ إِلَى الْعَمَلِ؛ إِذْ لَيْسَ هُوَ

بِالتَّحَلِّي وَلَا بِالتَّمَنِّي، وَلَكِنَّ الْإِيمَانَ مَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ وَصَدَّقَهُ الْعَمَلُ[٢]، فَالْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنَ الإِيمَانِ، وَهِيَ بَرَاهِينُ عَلَيْهِ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ وَلَمْ يَعْمَلْ صَالِحًا فَإِنَّ تَرْكَهُ لِلْعَمَلِ يُكَذِّبُ زَعْمَهُ، وَهَذِهِ الحَقِيقَةُ مُقَرَّرَةٌ فِي القُرْآنِ، وَلَا قَوْلَ لِأَحَدٍ فِيهَا بَعْدَ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى؛ فَفِي الأَنْفَالِ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، وَفِي التَّوْبَةِ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]، وَفِي الفَتْحِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ﴾ [الفتح: ٤]، وَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أو بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ. وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه[٣].

وَوَاجِبٌ عَلَى المُسْلِمِ أَنْ يَتَرَقَّى فِي دَرَجَاتِ الْإِيمَانِ، وَيَسْعَى لِتَحْصِيلِ كَمَالِهِ بِإِصْلَاحِ قَلْبِهِ، وَاسْتِقَامَتِهِ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالإِكْثَارِ مِنَ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ؛ فَإِنَّهَا مِنْ أَفْرَادِ الإِيمَانِ وَأَجْزَائِهِ، وَكُلَّمَا أَكْثَرَ المُسْلِمُ مِنْهَا ازْدَادَ إِيمَانُهُ؛ وَعَلَيْهِ أَنْ يَجْتَنِبَ المَعَاصِيَ؛ فَإِنَّهَا سَبَبٌ لِنَقْصِ الإِيمَانِ، وَمِصْدَاقُ ذَلِكَ حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما

---

(٢) أخرجه من قول الحسن -رحمه الله تعالى-: ابن أبي شيبة (٦/ ١٦٣)، والبيهقي في الشعب (٦٦).
وجاء مرفوعًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند: اللالكائي في السنة (١٥٦١)، ولا يصح مرفوعًا، ففي سنده محمد بن عبد الرحمن الحميري، قال ابن عدي: روى عن الثقات بالمناكير وعن أبيه عن مالك بالبواطيل، ثم ساق ابن عدي هذا الحديث عن أبيه عن مالك، وعليه فلا يصح مرفوعًا، ينظر: الكامل (٦/ ٢٨٨) رقم الترجمة (١٧٧٣).

(٣) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في الإيمان، باب أمور الإيمان (٩)، ومسلم في الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها (٣٥).

قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَا يَزْنِي الْعَبْدُ حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَقْتُلُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ**»، قَالَ عِكْرِمَةُ: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: كَيْفَ يُنْزَعُ الْإِيمَانُ مِنْهُ؟ قَالَ: هَكَذَا، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، ثُمَّ أَخْرَجَهَا، فَإِنْ تَابَ عَادَ إِلَيْهِ هَكَذَا، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٤).

وَرَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِذَا زَنَى الرَّجُلُ خَرَجَ مِنْهُ الْإِيمَانُ فَكَانَ عَلَيْهِ كَالظُّلَّةِ، فَإِذَا انْقَطَعَ رَجَعَ إِلَيْهِ الْإِيمَانُ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ. وَفِي لَفْظٍ لِلْحَاكِمِ: «**مَنْ زَنَا وَشَرِبَ الخَمْرَ نَزَعَ اللهُ مِنْهُ الإِيمَانَ كَمَا يَخْلَعُ الإِنْسَانُ القَمِيصَ مِنْ رَأْسِهِ**»(٥).

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يُثَبِّتَنَا عَلَى الإِيمَانِ، وَأَنْ يَهْدِيَنَا لِزِيَادَتِهِ بِالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَاجْتِنَابِ المَعَاصِي، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ

---

(٤) أخرجه البخاري في المحاربين، باب إثم الزنا (٦٤٢٤).
وأخرجه بنحوه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في المظالم، باب النهب بغير إذن صاحبه (٢٣٤٣)، ومسلم في الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي (٥٧).

(٥) أخرجه أبو داود في السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه (٤٦٩٠)، والطبري في تهذيب الآثار (٩٠٩)، وابن منده في الإيمان (٥١٩)، والبيهقي في الشعب (٥٣٦٤)، وصححه الحاكم (١/ ٧٢-٧٣)، والحافظ ابن حجر في الفتح (١٢/ ٦١).

وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزَّلزلة: ٧، ٨].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: مَنْ رَأَى حَالَ الْمُؤْمِنِينَ فِي رَمَضَانَ وَهُوَ لَا يَعْرِفُ مَعْنَى الإِيمَانِ فَإِنَّهُ سَيَعْجَبُ أَشَدَّ العَجَبِ مِنْ طَاعَتِهِمْ لِلَّهِ تَعَالَى، وَمُبَادَرَتِهِمْ إِلَى تَرْكِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، وَمُفَارَقَةِ مَا يَتَلَذَّذُونَ بِهِ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالنِّكَاحِ، لَا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ طَلَبًا لِلدُّنْيَا، وَلَا لِأَجْلِ الخَلْقِ؛ وَإِنَّمَا طَاعَةً لِلَّهِ تَعَالَى، وَلَا رَقِيبَ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ إِلَّا هُوَ ﷻ؛ وَلَوْ أَفْطَرُوا سِرًّا لَمَا عَلِمَ بِهِمْ أَحَدٌ سِوَى خَالِقِهِمْ ﷻ، وَلَوْ كَثُرَ المُفْطِرُونَ لَاشْتَهَرَ ذَلِكَ فِي المُسْلِمِينَ وَلَوْ حَاوَلُوا إِخْفَاءَهُ، وَلَكِنَّ المَشْهُورَ وَالمُشَاهَدَ أَنَّ عُمُومَ المُسْلِمِينَ يَلْتَزِمُونَ بِفَرِيضَةِ الصِّيَامِ، وَقَلَّ فِيهِمْ مَنْ يُخِلُّ بِهَا حَتَّى مَنْ هُمْ مُقَصِّرُونَ فِي الفَرَائِضِ الأُخْرَى كَالصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا.

إِنَّ الصَّائِمَ يَجُوعُ فَلَا يَأْكُلُ، وَيَظْمَأُ فَلَا يَشْرَبُ، وَيَضْحَى فَلَا يُفْطِرُ، وَيُجْهَدُ أَشَدَّ الجَهْدِ إِذَا كَانَ عَمَلُهُ شَاقًّا فَيَصْبِرُ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ، وَكَانَ قَادِرًا عَلَى أَنْ يَتَخَفَّى فَيُفْطِرَ، وَيَخْتَلِقَ لِنَفْسِهِ المَعَاذِيرَ.

وَفِي بِلَادِ الكُفْرِ مُؤْمِنُونَ صَائِمُونَ، يَعْمَلُونَ فِي المَزَارِعِ وَالمَصَانِعِ وَالأَسْوَاقِ وَغَيْرِهَا، وَيَرَوْنَ غَيْرَهُمْ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَيَتَمَتَّعُونَ وَهُمْ مُمْسِكُونَ عَنْ شَهَوَاتِهِمْ بِاخْتِيَارِهِمْ، مَعَ أَنَّ الدَّاعِيَ يَدْعُوهُمْ إِلَى تَرْكِ الصِّيَامِ.

فَمَا الَّذِي جَعَلَ هَؤُلَاءِ وَأُولَئِكَ يَصُومُونَ، وَيَحْرِمُونَ أَنْفُسَهُمْ مَا أُودِعَ فِي بَنِي آدَمَ مِنْ شَهَوَاتِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالنِّكَاحِ؟ مَا الَّذِي يَجْعَلُهُمْ يَلْتَزِمُونَ بِوَقْتِ إِمْسَاكِهِمْ وَوَقْتِ إِفْطَارِهِمْ لَا يُخِلُّونَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَلَا يَضْعُفُونَ أَمَامَ الشَّهَوَاتِ الَّتِي تُحِيطُ بِهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ؟

إِنَّهُ -يَا عِبَادَ اللَّهِ- الإِيمَانُ الَّذِي وَقَرَ فِي قُلُوبِهِمْ، وَصَدَّقَتْهُ أَعْمَالُهُمْ، فَيَصُومُونَ قُرْبَةً لِلَّهِ تَعَالَى، وَيُرَاقِبُونَهُ ﷻ فِي صِيَامِهِمْ، وَلَا يَخْشَوْنَ فِي ذَلِكَ أَحَدًا إِلَّا اللهَ تَعَالَى، وَلَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى المُفْطِرِينَ وَشَهَوَاتِهِمْ؛ قَدْ رَوَّضُوا نُفُوسَهُمْ عَلَى الصَّبْرِ وَالمُصَابَرَةِ وَالمُرَابَطَةِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى.

سَمِعُوا نِدَاءَ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ لَهُمْ فَأَرْعَوْا لَهُ أَسْمَاعَهُمْ، وَوَعَتْهُ قُلُوبُهُمْ، وَبَادَرَتْ إِلَى امْتِثَالِهِ جَوَارِحُهُمْ، وَأَجَابُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا.

نَادَاهُمْ رَبُّهُمْ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣] فَسَارَعُوا إِلَى الِاسْتِجَابَةِ وَالِامْتِثَالِ.

إِنَّهُمْ مَا صَامُوا إِلَّا إِيمَانًا بِاللَّهِ تَعَالَى، وَامْتِثَالًا لِأَمْرِهِ، وَرِضًا بِدِينِهِ، وَطَلَبًا لِمَرْضَاتِهِ. مَا تَرَكُوا طَعَامَهُمْ وَشَرَابَهُمْ، وَجَانَبُوا نِسَاءَهُمْ، إِلَّا لِأَجْلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَفِي ذَاتِهِ ﷻ، فَقَالَ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ فِي الصَّائِمِ: «**يَتْرُكُ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَشَهْوَتَهُ مِنْ أَجْلِي، الصِّيَامُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ**» رَوَاهُ البُخَارِيُّ(٦).

إِنَّ المُؤْمِنِينَ الصَّائِمِينَ لَا يُرَاقِبُهُمْ فِي صِيَامِهِمْ إِلَّا اللهُ تَعَالَى، وَآيَةُ الأَمْرِ بِالصِّيَامِ خُوطِبَ بِهَا المُؤْمِنُونَ، وَالإِيمَانُ مَحَلُّهُ القَلْبُ، وَعُلِّلَ ذَلِكَ بِالتَّقْوَى ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وَالنَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «**التَّقْوَى هَا هُنَا**» وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٧)، فَوَقَعَ الصِّيَامُ فِي الآيَةِ الْكَرِيمَةِ بَيْنَ الإِيمَانِ وَالتَّقْوَى، وَكِلَاهُمَا مَحَلُّهُ القَلْبُ، فَالصِّيَامُ سِرٌّ بَيْنَ العَبْدِ وَرَبِّهِ، وَالدَّافِعُ الَّذِي يَدْفَعُ إِلَيْهِ الإِيمَانُ وَالتَّقْوَى.

---

(٦) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في الصوم، باب فضل الصوم، واللفظ له (١٧٩٥) ومسلم في الصيام، باب فضل الصيام (١١٥١).

(٧) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: مسلم في البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم، وخذله، واحتقاره، ودمه، وعرضه، وماله (٢٥٦٤).

إِنَّ الصَّائِمِينَ القَائِمِينَ يَطْلُبُونَ بِصِيَامِهِمْ وَقِيَامِهِمُ الأَجْرَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا أَجْرَ عَلَى صِيَامٍ وَلَا قِيَامٍ إِلَّا إِذَا كَانَ عَنْ إِيمَانٍ، وَالمُؤْمِنُونَ هُمُ المُخَاطَبُونَ بِالصِّيَامِ وَالقِيَامِ، وَلَوْ صَامَ غَيْرُهُمْ فَلَا أَجْرَ لَهُمْ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَمَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»، «**وَمَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه(٨).

فَالمُؤْمِنُ يَصُومُ وَيَقُومُ إِيمَانًا بِاللَّهِ تَعَالَى، وَإِيمَانًا بِأَنَّهُ عَبْدٌ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ، وَإِيمَانًا بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ فَرَضَ الصِّيَامَ وَشَرَعَ القِيَامَ، وَإِيمَانًا بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يَشْرَعُ لَهُ وَلَا يَفْرِضُ عَلَيْهِ إِلَّا مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَإِيمَانًا بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ، يَعْلَمُ سِرَّهُ وَجَهْرَهُ، وَيُحْصِي عَلَيْهِ عَمَلَهُ، وَإِيمَانًا بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى يُجَازِيهِ عَلَى صِيَامِهِ وَقِيَامِهِ أَعْظَمَ الجَزَاءِ، فَيَحْتَسِبُ ذَلِكَ عِنْدَهُ عز وجل، وَإِيمَانًا بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى سَيُعَاقِبُ مَنْ أَفْطَرُوا فِي نَهَارِ رَمَضَانَ لِكُفْرِهِمْ أَوْ لِفِسْقِهِمْ، فَيَفِرُّ بِالصَّوْمِ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ تَعَالَى.

إِنَّهُ يُؤْمِنُ بِالبَعْثِ بَعْدَ المَوْتِ، وَبِحَشْرِ النَّاسِ وَحِسَابِهِمْ، وَبِالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، وَيُؤْمِنُ أَنَّ ذَلِكَ لِلَّهِ تَعَالَى وَلَيْسَ لِأَحَدٍ سِوَاهُ؛ فَيَطْلُبُ ثَوَابَ مَنْ يَمْلِكُ الثَّوَابَ، وَيَفِرُّ مِنْ عِقَابِ مَنْ يَمْلِكُ الْعِقَابَ، وَيَتَّقِي عَذَابَهُ بِطَاعَتِهِ، وَالْتِزَامِ فَرَائِضِهِ، وَإِنْ نَالَهُ بَعْضُ المَشَقَّةِ مِنْ صِيَامِهِ وَقِيَامِهِ، الَّتِي يَعْقُبُهَا رَاحَةٌ أَبَدِيَّةٌ، وَسَعَادَةٌ سَرْمَدِيَّةٌ.

---

(٨) أخرجه البخاري في الإيمان، باب تطوع قيام رمضان من الإيمان (٣٧) وباب صوم رمضان احتسابًا من الإيمان (٣٨) وفي الصوم، باب من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا ونية (١٨٠٢)، ومسلم في صلاة المسافرين، باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح (٧٦٠).

وَمِنْ هُنَا نَعْلَمُ -أَيُّهَا الإِخْوَةُ- شِدَّةَ ارْتِبَاطِ الصِّيَامِ بِالإِيمَانِ، وَلِمَاذَا خُوطِبَ بِهِ المُؤْمِنُونَ؟ وَلِمَاذَا لَا يَنَالُ ثَوَابَ الصِّيَامِ وَالقِيَامِ إِلَّا مَنْ صَامَ وَقَامَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا؟

جَعَلَنَا اللهُ تَعَالَى مِنْ أَهْلِ الإِيمَانِ وَالْإِحْسَانِ، وَثَبَّتَنَا عَلَيْهِ إِلَى المَمَاتِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ . . .



٢٤٨- رمضان والمغفرة

٤/ ٩/ ١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِى ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [غافر: ٣]، أَحْمَدُهُ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ أَفَاضَ عَلَى عِبَادِهِ مِنْ رَحَمَاتِهِ، وَتَابَعَ عَلَيْهِمْ مِنَنَهُ وَإِحْسَانَهُ، وَشَرَعَ لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا يُصْلِحُ أَحْوَالَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ خَيْرُ مَنْ صَلَّى وَصَامَ، وَقَنَتَ لِرَبِّهِ وَقَامَ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ؛ فَإِنَّكُمْ فِي شَهْرِ الصَّوْمِ، وَقَدْ عُلِّلَ فَرْضُ الصَّوْمِ بِالتَّقْوَى، فَمِنْ مَقَاصِدِهِ وُقُوعُهَا مِنَ الْعِبَادِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

أَيُّهَا النَّاسُ: رَبُّكُمْ جَلَّ فِي عُلَاهُ عَظِيمُ الْعَفْوِ، حَسَنُ التَّجَاوُزِ، وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ، كَرِيمُ الصَّفْحِ، عَظِيمُ الْمَنِّ، يَبْتَدِئُ الْعِبَادَ بِالنِّعَمِ قَبْلَ اسْتِحْقَاقِهَا، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ.

وَمِنْ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى: الْغَفُورُ، وَمِنْ صِفَاتِهِ: الْمَغْفِرَةُ، وَأَصْلُ الْغَفْرِ: التَّغْطِيَةُ وَالسَّتْرُ[١]، وَرَبُّنَا جَلَّ جَلَالُهُ قَدْ سَتَرَ ذُنُوبَ عِبَادِهِ، ثُمَّ هُوَ يَغْفِرُهَا لَهُمْ بِالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ دُونَ أَنْ يَعْلَمَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ بِهَا.

أَرَأَيْتُمْ -يَا عِبَادَ اللَّهِ- لَوْ أَنَّ مَنْ أَذْنَبَ ذَنْبًا لَمْ تُقْبَلْ تَوْبَتُهُ حَتَّى يُعْلِنَ ذَنْبَهُ عَلَى

---

(١) قال الطبري في تفسيره: وأصل الغفر التغطية والستر فكل ساتر شيئًا فهو غافره (١/ ٣٠٢).

المَلأ؟! فَكَمْ فِي ذَلِكَ مِنَ الْعُسْرِ وَالْحَرَجِ؟! أَوْ أَنَّ ذَنْبَهُ يُكْتَبُ عَلَى جَبِينِهِ حَتَّى يَرَاهُ النَّاسُ كُلَّ يَوْمٍ، فَكَمْ فِي ذَلِكَ مِنَ الْخِزْيِ وَالْفَضِيحَةِ!!

وَإِذَا كَانَ الْإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- وَهُوَ هُوَ فِي الْعِلْمِ وَالْوَرَعِ وَالزُّهْدِ وَالتَّقْوَى يَقُولُ: «لَوْ كَانَ لِلذُّنُوبِ رِيحٌ مَا اسْتَطَاعَ أَحَدٌ مِنْكُمْ أَنْ يَدْنُوَ مِنِّي»(٢)، فَمَا عَسَانَا أَنْ نَقُولَ نَحْنُ؟! وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِمَا اقْتَرَفْنَا مِنْ سَيِّئَاتٍ.

يَمْشِي الْوَاحِدُ مِنَّا أَمَامَ النَّاسِ وَهُوَ حَسَنُ الشَّكْلِ وَاللِّبَاسِ، نَظِيفُ الْجَسَدِ وَالثِّيَابِ، طَيِّبُ الرَّائِحَةِ، وَكُلُّهُ ذُنُوبٌ خَفِيَّاتٌ لَا يَعْلَمُ بِهَا إِلَّا اللهُ تَعَالَى فَمَا هَتَكَ رَبُّهُ سِتْرَهُ، وَلَا فَضَحَ أَمْرَهُ، ثُمَّ بِتَوْبَتِهِ وَاسْتِغْفَارِهِ يَغْفِرُ اللهُ تَعَالَى لَهُ وَمَا عَلِمَ أَحَدٌ بِمَا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ، فَيَا لَهَا مِنْ نِعْمَةٍ مَا أَعْظَمَهَا! وَمِنَّةٍ مَا أَكْبَرَهَا! نَحْمَدُ اللهَ تَعَالَى عَلَيْهَا وَعَلَى سَائِرِ نِعَمِهِ وَمِنَنِهِ عَلَيْنَا.

لَقَدْ وَسِعَ حِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى عِبَادَهُ، وَتَابَعَ عَلَيْهِمْ مَغْفِرَتَهُ وَرَحَمَاتِهِ؛ حَتَّى سُمِّيَ الْغَفَّارَ مِنْ كَثْرَةِ مَغْفِرَتِهِ ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ [سورة ص: ٦٦]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ [الزُّمر: ٥]، وَكَيْفَ لَا يَكُونُ مِنْ أَسْمَائِهِ الْغَفَّارُ وَهُوَ الْقَائِلُ جَلَّ فِي عُلَاهُ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، وَجَاء اسْمُهُ (الغَفُورٌ) فِي الْقُرْآنِ فِي إِحْدَى وَتِسْعِينَ آيَةً.

وَقَدْ دَلَّتِ الْآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ الْكَثِيرَةُ عَلَى مَغْفِرَةِ اللَّهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ، وَتَجَاوُزِهِ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ، وَحَطِّهِ خَطِيئَاتِهِمْ، حَتَّى لَوْ بَلَغُوا أَعْظَمَ ذَنْبٍ وَهُوَ الشِّرْكُ بِهِ سُبْحَانَهُ فَإِنَّهُمْ إِنْ تَابُوا تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟

---

(٢) أخرجه أبو بكر المروزي في الورع (٤٩٥)، والدينوري في المجالسة وجواهر العلم (١٥٧)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٤٩).

مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزُّمر: ٥٣].

يَغْفِرُ لِلْعِبَادِ ظُلْمَهُمْ وَإِسْرَافَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ﴾ [الرعد: ٦].

وَمَهْمَا بَلَغَتْ ذُنُوبُ الْعِبَادِ كَثْرَةً وَعِظَمًا، فَإِنَّ مَغْفِرَةَ اللَّهِ تَعَالَى أَعْظَمُ مِنْ ذُنُوبِهِمْ ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾ [النَّجم: ٣٢] أَفَلَا تَسَعُ مَغْفِرَتُهُ ذُنُوبَ عِبَادِهِ؟! بَلَى وَرَبِّنَا الْغَفُورِ الرَّحِيم.

وَمِنْ وَاسِعِ مَغْفِرَتِهِ، وَعَظِيمِ جُودِهِ وَكَرَمِهِ: أَنَّ الْعَبْدَ يَعِيشُ السِّنِينَ الطَّوِيلَةَ وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى مَعَاصِيهِ، مُجَانِبٌ لِمَا يُرْضِيهِ، مَا مِنْ ذَنْبٍ إِلَّا ارْتَكَبَهُ، وَلَا مُوبِقَةٍ إِلَّا أَتَاهَا، فَيَتُوبُ مِنْ ذُنُوبِهِ، فَيَسْتُرُ اللهُ تَعَالَى عَيْبَتَهُ، وَيُقِيلُ عَثَرَاتِهِ، وَيَغْفِرُ زَلَّاتِهِ، وَيُكَفِّرُ خَطِيئَاتِهِ الَّتِي جَمَعَهَا طَوَالَ سَنَوَاتِهِ، لَيْسَ ذَلِكَ فَحَسْبُ، بَلْ يُبَدِّلُ اللهُ تَعَالَى سَيِّئَاتِهِ حَسَنَاتٍ؛ إِذْ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ عَظَائِمَ الذُّنُوبِ، وَأُصُولَ الشُّرُورِ؛ مِنَ الشِّرْكِ، وَقَتْلِ الْأَنْفُسِ المَعْصُومَةِ، وَالزِّنَا، ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠].

إِنَّهُ جَلَّ فِي عُلَاهُ هُوَ مَنْ يَبْحَثُ عَنْ عِبَادِهِ، وَيَسْعَى إِلَيْهِمْ، وَيُبَشِّرُهُمْ بِمَغْفِرَتِهِ، وَيَدُلُّهُمْ عَلَى مَظَانِّ رَحْمَتِهِ؛ شَفَقَةً عَلَيْهِمْ، وَإِحْسَانًا إِلَيْهِمْ، وَرَحْمَةً بِهِمْ، فَيَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ، وَيُخْبِرُهُمْ أَنَّهُ أَكْثَرُ تَقَرُّبًا إِلَيْهِمْ مِنْ تَقَرُّبِهِمْ إِلَيْهِ، وَأَسْرَعُ إِلَيْهِمْ مِنْ سُرْعَتِهِمْ إِلَيْه؛ كَمَا فِي الْحَدِيثِ الْقُدُسِيِّ عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**يَقُولُ اللهُ ﷻ: مَنْ جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَأَزِيدُ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَجَزَاؤُهُ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا أَوْ أَغْفِرُ، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَمَنْ**

تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً، وَمَنْ لَقِيَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئَةً لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَقِيتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٣).

وَيُنَادِي ﷻ عِبَادَهُ فَيَقُولُ: «يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ»(٤).

وَفِي نِدَاءٍ آخَرَ يَقُولُ سُبْحَانَهُ فِي الْحَدِيثِ الْقُدُسِيِّ: «يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ، وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ(٥).

وَمِنْ أَرْجَى الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ، وَأَعْظَمِهَا فِي بَابِ المَغْفِرَةِ: قَوْلُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى (٢٦٨٧).

(٤) أخرجه من حديث أبي ذر ﷺ، عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه تعالى: مسلم في البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٢٥٧٧).

(٥) أخرجه من حديث أنس بن مالك ﷺ: الترمذي في الدعوات، باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله بعباده، وقال: حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه (٣٥٤٠) والبزار وقال: وهذا الحديث لا نعلمه يروى عن أنس إلا من هذا الوجه ولا رواه عن بكر عن أنس إلا سعيد بن عبيد ، وسعيد بن عبيد قد قالوا: سعيد بن عبيد وقالوا: سعيد بن عبيد الله ، وليس به بأس (٦٧٦٠)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٢٧).

وأخرجه من حديث أبي ذر ﷺ: أحمد (٥/ ١٦٧)، والدارمي (٢٨٧٧)، وابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله (٣٢).

[النساء: ١١٠]، قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: يَجِدِ اللهَ تَعَالَى غَفُورًا لِذُنُوبِهِ مَهْمَا بَلَغَتْ[٦].

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «أَخْبَرَ اللهُ عِبَادَهُ بِحِلْمِهِ وَعَفْوِهِ وَكَرَمِهِ وَسَعَةِ رَحْمَتِهِ وَمَغْفِرَتِهِ، فَمَنْ أَذْنَبَ صَغِيرًا كَانَ أَوْ كَبِيرًا ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَحِيمًا، وَلَوْ كَانَتْ ذُنُوبُهُ أَعْظَمَ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ»[٧].

وَجَاءَ فِي حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ -أَوْ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ- لَوْ أَخْطَأْتُمْ حَتَّى تَمْلَأَ خَطَايَاكُمْ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتُمُ اللهَ عز وجل لَغَفَرَ لَكُمْ»** رَوَاهُ أَحْمَدُ[٨].

وَلَمَّا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ فِي سُورَةِ الْبُرُوجِ شِدَّةَ بَطْشِهِ بِمَنْ حَرَّقُوا أَوْلِيَاءَهُ أَعْقَبَ ذَلِكَ بِذِكْرِ مَغْفِرَتِهِ؛ حَتَّى لَا يَيْأَسَ مِنْهَا أَحَدٌ؛ فَالْقَوْمُ الَّذِينَ خَدُّوا الْأَخَادِيدَ فِي الْأَرْضِ وَأَشْعَلُوهَا نَارًا عَظِيمَةً وَقَذَفُوا فِيهَا الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ تَعَالَى، لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى قِصَّتَهُمْ دَعَاهُمْ لِلتَّوْبَةِ بَعْدَ أَنْ هَدَّدَهُمْ بِالْعَذَابِ، وَأَخْبَرَهُمْ بِأَنَّ مَغْفِرَتَهُ تَسَعُهُمْ ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ [البروج: ١٢-١٤]، قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «فَهُوَ سُبْحَانَهُ الْمَوْصُوفُ بِشِدَّةِ الْبَطْشِ، وَمَعَ ذَلِكَ هُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ الْمُتَوَدِّدُ إِلَى عِبَادِهِ بِنِعَمِهِ الَّذِي يَوَدُّ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ، وَهُوَ الْوَدُودُ أَيْضًا أَيْ: الْمَحْبُوبُ ... وَقَالَ شُعَيْبٌ عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠]. وَمَا أَلْطَفَ اقْتِرَانَ اسْمِ الْوَدُودِ بِالرَّحِيمِ وَبِالْغَفُورِ! فَإِنَّ الرَّجُلَ

---

(٦) ينظر: تفسير البيضاوي (٢/ ٢٥٠)، وتفسير أبي السعود (٢/ ٢٣٠).

(٧) أخرجه الطبري في تفسيره (٥/ ٢٧٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٢٣٤٥)، واللالكائي في السنة (١٩٥٨).

(٨) أخرجه أحمد (٣/ ٢٣٨)، وأبو يعلى (٤٢٢٦)، والضياء في المختارة (١٥٤٤)، وأورده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، وحسنه بالرواية السابقة لأنس رضي الله عنه (١٩٥١).

قَدْ يَغْفِرُ لِمَنْ أَسَاءَ إِلَيْهِ وَلَا يُحِبُّهُ، وَكَذَلِكَ قَدْ يَرْحَمُ مَنْ لَا يُحِبُّ، وَالرَّبُّ تَعَالَى يَغْفِرُ لِعَبْدِهِ إِذَا تَابَ إِلَيْهِ وَيَرْحَمُهُ وَيُحِبُّهُ مَعَ ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ، وَإِذَا تَابَ إِلَيْهِ عَبْدُهُ أَحَبَّهُ، وَلَوْ كَانَ مِنْهُ مَا كَانَ» انْتَهَى(٩).

وَقَالَ الْحَسَنُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- مُعَلِّقًا عَلَى قِصَّةِ أَصْحَابِ الْأُخْدُودِ: «انْظُرُوا إِلَى هَذَا الْكَرَمِ وَالْجُودِ؛ يَقْتُلُونَ أَوْلِيَاءَهُ وَيَفْتِنُونَهُمْ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالمَغْفِرَةِ، انْظُرُوا إِلَى كَرَمِ الرَّبِّ تَعَالَى يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ، وَقَدْ فَتَنُوا أَوْلِيَاءَهُ فَحَرَّقُوهُمْ بِالنَّارِ، فَلَا يَيْأَسِ الْعَبْدُ مِنْ مَغْفِرَتِهِ وَعَفْوِهِ وَلَوْ كَانَ مِنْهُ مَا كَانَ، فَلَا عَدَاوَةَ أَعْظَمُ مِنْ هَذِهِ الْعَدَاوَةِ، وَلَا أَكْفَرَ مِمَّنْ حَرَّقَ بِالنَّارِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَعَبَدَهُ وَحْدَهُ، وَمَعَ هَذَا فَلَوْ تَابُوا لَمْ يُعَذِّبْهُمْ وَأَلْحَقَهُمْ بِأَوْلِيَائِهِ»(١٠).

وَمَغْفِرَتُهُ سُبْحَانَهُ لِعِبَادِهِ لَيْسَتْ مِنْ عَجْزٍ عَنْهُمْ، أَوْ مِنْ ضَعْفٍ أَمَامَهُمْ، أَوْ سَبَبُهَا الْحَاجَةُ إِلَيْهِمْ؛ كَمَا قَدْ يَغْفِرُ الضَّعِيفُ وَالْعَاجِزُ وَالمُحْتَاجُ لِغَيْرِهِ، بَلْ رَبُّنَا غَنِيٌّ عَنَّا وَعَنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ يَغْفِرُ لَهُمْ؛ وَلِذَلِكَ اقْتَرَنَ الِاسْمَانِ الْكَرِيمَانِ: الْغَفَّارُ وَالْغَفُورُ بِاسْمِ الْعَزِيزِ فِي عَدَدٍ مِنَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ؛ لِلدِّلَالَةِ عَلَى أَنَّ مَغْفِرَتَهُ سُبْحَانَهُ عَنْ عِزٍّ وَقُوَّةٍ، وَمَا هِيَ إِلَّا مَحْضُ كَرَمٍ وَتَفَضُّلٍ عَلَى عِبَادِهِ ﴿أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ [الزمر: ٥]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

إِنَّ مَغْفِرَةَ اللَّهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ هِيَ السَّبَبُ فِي نَجَاتِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَالْعِبَادُ لَا يَزَالُونَ مُقَصِّرِينَ مُحْتَاجِينَ إِلَى عَفْوِ رَبِّهِمْ جَلَّ جَلَالُهُ وَمَغْفِرَتِهِ، فَلَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ، وَمَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَلَهُ ذُنُوبٌ يَحْتَاجُ فِيهَا

(٩) التبيان في أقسام القرآن (٥٩).

(١٠) المصدر السابق (٥٨).

إِلَى مَغْفِرَةِ اللَّهِ لَها، وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ . . . وَمَا أَعْظَمَ ضَلَالَ مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ قَائِمٌ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ لِلَّهِ تَعالَى، وَمَا يَجِبُ لِخَلْقِهِ عَلَيْهِ مِنَ الْحُقُوقِ، وَأَنَّهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى مَغْفِرَةِ الرَّبِّ تَعالَى وَعَفْوِهِ! كَيْفَ وَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ**» قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ، وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يُنْجِيهِ عَمَلُهُ**» قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ مِنْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَرَحْمَةٍ**»(١١).

هَذَا فِي الْآخِرَةِ، وَأَمَّا فِي الدُّنْيَا فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [النحل: ٦١]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣]، وَقَالَ ﷻ: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ [الكهف: ٥٨].

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**لَوْ أَنَّ اللهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ لَعَذَّبَهُمْ غَيْرَ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ لَهُمْ خَيْرًا مِنْ أَعْمَالِهِمْ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(١٢).

فَهَذِهِ النُّصُوصُ وَأَمْثَالُهَا تَدُلُّ عَلَى مَغْفِرَةِ اللَّهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،

---

(١١) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل (٦٤٦٣)، ومسلم في صفات المنافقين: باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى (٢٨١٦).

(١٢) أخرجه أبو داود في السُّنة، باب في القدر (٤٦٩٩)، وابن ماجه في المقدمة، باب في القدر (٧٧)، وأحمد (٥/ ١٨٩)، وصححه ابن حبان (٧٢٧).

وَلَوْلَا هَذِهِ المَغْفِرَةُ لَعَجَّلَ الْعَذَابَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَلَوْ عَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَكَانَ ذَلِكَ عَدْلًا مِنْهُ ﷻ؛ إِذْ نِعَمُ اللَّهِ تَعَالى عَلَى عِبَادِهِ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُؤَدِّيَ الْعِبَادُ شُكْرَهَا، وَقَدْ جَاءَ فِي بَعْضِ الْآثَارِ أَنَّ نِعْمَةَ الْبَصَرِ وَحْدَهَا رَجَحَتْ بِعِبَادَةِ عَابِدٍ انْقَطَعَ لِعِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى خَمْسَ مِئَةِ عَامٍ(١٣)، فَكَيْفَ إِذًا بِالنِّعَمِ الْأُخْرَى؟! وَكَيْفَ بِذُنُوبِ الْعِبَادِ الَّتِي يُقَارِفُونَهَا بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ؟!

وَبِهَذَا يُعْلَمُ أَنَّ مَا يُصِيبُ الْعِبَادَ مِنْ أَنْوَاعِ الْبَلَاءِ وَالْعَذَابِ؛ كَالزَّلَازِلِ، وَالطُّوفَانِ، وَالْأَمْرَاضِ إِنَّمَا هُوَ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ، وَأَنَّ الْخَلْقَ أَشَدُّ مَا يَكُونُونَ حَاجَةً إِلَى مَغْفِرَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَلِأَجْلِ ذَلِكَ كَانَ مِنْ دُعَاءِ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ أَثْنَى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِهِ فِي الْقُرْآنِ قَوْلُهُمْ: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فَمَعَ سَمْعِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ سَأَلُوا اللهَ تَعَالَى المَغْفِرَةَ، وَلَمْ يَغْتَنُوا بِطَاعَتِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ.

يَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: «فَتَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ كَمَالَ إِيمَانِهِمْ وَكَمَالَ قَبُولِهِمْ وَكَمَالَ انْقِيَادِهِمْ، ثُمَّ قَالُوا: غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ، لمَّا عَلِمُوا أَنَّهُمْ لَمْ يُوَفُّوا مَقَامَ الإِيمَانِ حَقَّهُ مَعَ الطَّاعَةِ وَالِانْقِيَادِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ مِنْهُمْ، وَأَنَّهُمْ لَا بُدَّ أَنْ تَمِيلَ بِهِمْ غَلَبَاتُ الطِّبَاعِ وَدَوَاعِي الْبَشَرِيَّةِ، إِلَى بَعْضِ التَّقْصِيرِ فِي وَاجِبَاتِ الإِيمَانِ، وَأَنَّهُ لَا يَلُمُّ شَعْثَ ذَلِكَ إِلَّا مَغْفِرَةُ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ، سَأَلُوهُ غُفْرَانَهُ الَّذِي

---

(١٣) جاء ذلك في حديث عن جابر رضي الله عنه مرفوعًا، أخرجه الخرائطي في فضيلة الشكر (١٣٣)، والعقيلي في الضعفاء (٦٣٩)، وتمام في فوائده (١٦٨٨)، والبيهقي في الشعب (٤٦٢٠)، والحاكم وصححه (٤/ ٢٧٨)، وقال ابن القيم في شفاء العليل: والإسناد صحيح ومعناه صحيح لا ريب فيه؛ فقد صح عنه ﷺ أنه قال: لن ينجو أحد منكم بعمله. شفاء العليل (١١٤). لكن ضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة وتعقب الحاكم وابن القيم في تصحيحهما للحديث (١١٨٣).

هُوَ غَايَةُ سَعَادَتِهِمْ وَنِهَايَةُ كَمَالِهِمْ، فَإِنَّ غَايَةَ كُلِّ مُؤْمِنٍ المَغْفِرَةُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى» اهـ(١٤).

نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَغْفِرَ لَنَا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَأَلَّا يُعَذِّبَنَا بِذُنُوبِنَا، وَلَا بِمَا فَعَلَ سُفَهَاؤُنَا، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ . . .

❁ ❁ ❁

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ . .

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لِمَغْفِرَةِ اللَّهِ تَعَالَى أَسْبَابٌ إِذَا أَخَذَ بِهَا الْعَبْدُ غَفَرَ اللهُ تَعَالَى لَهُ، فَمِنْ أَهَمِّ أَسْبَابِهَا: التَّوْبَةُ مِنَ الذُّنُوبِ؛ إِقْلَاعًا عَنْهَا، وَنَدَمًا عَلَى فِعْلِهَا، وَعَزْمًا عَلَى عَدَمِ الْعَوْدَةِ إِلَيْهَا، مَعَ أَدَاءِ الْحُقُوقِ إِلَى أَهْلِهَا؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٠]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ١٤٦]، وَقَالَ

---

(١٤) مجموع الفتاوى (١٤/ ١٣٦).

سُبْحَانَهُ: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النمل: ١١].

وَالتَّرَاحُمُ وَالتَّغَافُرُ سَبَبٌ لِلرَّحْمَةِ وَالمَغْفِرَةِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«ارْحَمُوا تُرْحَمُوا، وَاغْفِرُوا يَغْفِرِ اللهُ لَكُمْ»**(١٥).

وَصِيَامُ رَمَضَانَ وَقِيَامُهُ وَقِيَامُ لَيْلَةِ الْقَدْرِ سَبَبٌ لِلْمَغْفِرَةِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»**(١٦).

وَمِنْ كَثْرَةِ المَغْفِرَةِ فِي رَمَضَانَ أَنَّهَا لَا تَكَادُ تَفُوتُ أَحَدًا، حَتَّى قَالَ جِبْرِيلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: **«قُلْ: آمِينْ، قَالَ: فَقُلْتُ: آمِينْ، قَالَ: رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ رَمَضَانُ ثُمَّ انْسَلَخَ قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ»**(١٧).

وَالسُّحُورُ سَبَبٌ لِلْمَغْفِرَةِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى المُتَسَحِّرِينَ»**(١٨).

---

(١٥) أخرجه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﵄: أحمد (٢/ ٢١٩)، وعبد بن حميد (٣٢٠)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٨٠)، والبيهقي في الشعب (٧٢٣٦)، والطبراني في مكارم الأخلاق (٥٧)، واللالكائي في السنة (١٩٤٢)، قال المنذري في الترغيب والترهيب: رواه أحمد بإسناد جيد (٣/ ١٤٠)، وأورده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، وقال: وهذا إسناد صحيح رجاله كلهم ثقات (٤٨٢).

(١٦) أخرجه من حديث أبي هريرة ﵁: البخاري في الإيمان، باب: صوم رمضان احتسابًا من الإيمان (٣٨)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في قيام رمضان (٧٥٩).

(١٧) أخرجه من حديث أبي هريرة ﵁: الترمذي في الدعوات، باب قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «رَغِمَ أنف رجل»، وقال: حديث حسن غريب (٣٥٤٥)، وأحمد (٢/ ٢٥٤)، وصححه ابن حبان (٩٠٨).

(١٨) أخرجه من حديث ابن عمر ﵄: ابن أبي الدنيا في فضائل رمضان (٦٥)، والروياني (١٤٣٢)، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٣٢٠)، وصححه ابن حبان (٣٤٦٧)، وأورده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة وحسنه (١٦٥٤).

وجاء من حديث أبي سعيد الخدري ﵁ عند أحمد (٣/ ١٢).

وَصَلَاةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ ثَنَاؤُهُ سُبْحَانَهُ عَلَيهِمْ، وَصَلَاةُ المَلَائِكَةِ عَلَيْهِمُ اسْتِغْفَارُهُمْ وَدُعَاؤُهُمْ لهُمْ(١٩)، وَهَذَا مِنَ الْأَسْبَابِ الْجَالِبَةِ لِلْمَغْفِرَةِ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى

(١٩) قال أبو العالية -رحمه الله تعالى-: «صلاة الله: ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة الدعاء» أخرجه البخاري معلقًا مجزومًا به في التفسير (٦/ ١٢٠). ووصله إسماعيل القاضي في كتاب الصلاة على النبي: من طريق نصر بن علي، حدثنا خالد بن يزيد، عن أبي جعفر، عن الربيع ابن أنس، عن أبي العالية (٨٠).

وقال الجصاص -رحمه الله تعالى-: «الصلاة من الله هي الرحمة، ومن العباد الدعاء» أحكام القرآن (٥/ ٢٣١).

وقال السمعاني في تفسيره: «الصلاة من الله الرحمة، ومن الملائكة الاستغفار، ومن الناس الدعاء» (١/ ٤٤)، ومثله البغوي في شرح السنة (٣/ ١٨٩) وفي التفسير (١/ ٤٧)، وابن عطية في تفسيره (٣/ ٧٤).

وقال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: «قولهم: والصلاة من الله بمعنى الرحمة باطل من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن الله تعالى غاير بينهما في قوله: ﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾.

الثاني: أن سؤال الرحمة شرع لكل مسلم والصلاة تختص بالنبي وهي حق له ولآله، ولهذا منع كثير من العلماء من الصلاة على معين غيره، ولم يمنع أحد من الترحم على معين.

الثالث: أن رحمة الله عامة وسعت كل شيء، وصلاته خاصة بخواص عباده.

وقولهم: الصلاة من العباد بمعنى الدعاء مشكل من وجوه:

أحدها: أن الدعاء يكون بالخير والشر، والصلاة لا تكون إلا في الخير.

الثاني: أن (دعوت) تُعدى باللام و(صليت) لا تعدى إلا بـ (على) ودعا المعدى بـ (على) ليس بمعنى صلى، وهذا يدل على أن الصلاة ليست بمعنى الدعاء.

الثالث: أن فعل الدعاء يقتضي مدعوًّا ومدعوًّا له، تقول: دعوت الله لك بخير، وفعل الصلاة لا يقتضي ذلك. لا تقول: صليت الله عليك ولا لك، فدل على أنه ليس بمعناه. فأي تباين أظهر من هذا؟ ولكن التقليد يعمي عن إدراك الحقائق، فإياك والإخلاد إلى أرضه.

وقال: رأيت لأبي القاسم السهيلي كلامًا حسنًا في اشتقاق الصلاة، وهذا لفظه، قال: معنى الصلاة: اللفظة حيث تصرفت ترجع إلى الحنو والعطف، إلا أن الحنو والعطف يكون محسوسًا ومعقولًا، فيضاف إلى الله تعالى منه ما يليق بجلاله، وينفي عنه ما يتقدّس عنه. كما أن العلو محسوس ومعقول؛ فالمحسوس منه صفات الأجسام، والمعقول منه =

. . . .

= صفة ذي الجلال والإكرام. وهذا المعنى كثير موجود في الصفات، والكثير يكون صفة للمحسوسات وصفة للمعقولات، وهو من أسماء الرب تعالى، وقد تقدَّس عن مشابهة الأجسام، ومضاهاة الأنام، فالمضاف إليه من هذه المعاني معقولة غير محسوسة. وإذا ثبت هذا، فالصلاة كما تسمى عطفًا وحنوًّا تقول: اللهم اعطف علينا، أي: ارحمنا، قال الشاعر:

وما زلت في ليني له وتعطفي عليه كما تحنو على الولد الأم

ورحمة العباد رقة في القلب إذا وجدها الراحم من نفسه انعطف على المرحوم، وانثنى عليه. ورحمة الله للعباد جود وفضل، فإذا صلى عليه فقد أفضل عليه وأنعم.

وهذه الأفعال إذا كانت من الله أو من العبد فهي متعدية بـ (على) مخصوصة بالخير لا تخرج عنه إلى غيره، فقد رجعت كلها إلى معنى واحد، إلا أنها في معنى الدعاء والرحمة صلاة معقولة، أي: انحناء معقول غير محسوس، ثمرته من العبد الدعاء؛ لأنه لا يقدر على أكثر منه، وثمرته من الله الإحسان والإنعام، فلم تختلف الصلاة في معناها، إنما اختلفت ثمرتها الصادرة عنها.

والصلاة التي هي الركوع والسجود انحناء محسوس، فلم يختلف المعنى فيها إلا من جهة المعقول والمحسوس، وليس ذلك باختلاف في الحقيقة؛ ولذلك تعدت كلها بـ(على) واتفقت في اللفظ المشتق من الصلاة، ولم يجز: صليت على العدو، أي: دعوت عليه، فقد صار معنى الصلاة أرق وأبلغ من معنى الرحمة، وإن كان راجعًا إليه؛ إذ ليس كل راحم ينحني على المرحوم ولا ينعطف عليه» بدائع الفوائد (١/ ٢٦، ٢٧)، وينظر: جلاء الأفهام؛ ففيه تفصيل أكثر (١٥٧إلى١٧٠).

وقال الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله تعالى-: «صلاة الله على النبي ﷺ معناها: اللهم أثن عليه في الملأ الأعلى، واذكره بالجميل. وليست صلاة الله على عبده بمعنى رحمته، وإن كان بعض العلماء قال: «إن الصلاة من الله الرحمة» لكنه قول مرجوح بالآية التي قال الله فيها: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ﴾ والعطف يقتضي التغاير» مجموع فتاواه (٥/ ٢٨٢).

وفي فتاوى اللجنة الدائمة: «الصلاة من الله سبحانه هي: ثناؤه على عبده في الملأ الأعلى، والصلاة من الملائكة والمؤمنين هي: الدعاء، وصلاة الله على رسوله تليق به سبحانه» (٢٤/ ١٥٠).

أَنَّ رَمَضَانَ شَهْرُ المَغْفِرَةِ، وَأَنَّ أَسْبَابَ المَغْفِرَةِ كَثِيرَةٌ، وَأَنَّ مَنْ حُرِمَ المَغْفِرَةَ فِيهِ فَقَدْ أَبْعَدَهُ اللهُ تَعَالَى بِسَبَبِ عُتُوِّهِ وَاسْتِكْبَارِهِ. فَلْنَأْخُذْ مِنْ هَذَا الشَّهْرِ حَظَّنَا مِنَ المَغْفِرَةِ؛ فَمَنْ حُرِمَ المَغْفِرَةَ فِيهِ كَانَ أَجْدَرَ بِحِرْمَانِهَا فِي غَيْرِهِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا . . .





٢٤٩- رمضان وسلامة القلوب

٧/ ٩/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ اخْتَارَ لَنَا مِنَ الدِّينِ أَحْسَنَهُ، وَمِنَ الشَّرِيعَةِ أَكْمَلَهَا، أَحْمَدُهُ عَلَى مَا مَنَّ بِهِ عَلَيْنَا مِنْ عَظِيمِ النِّعَمِ، وَأَشْكُرُهُ فَكَمْ دَفَعَ عَنَّا مِنَ النِّقَمِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ شَرَعَ الصِّيَامَ تَطْهِيرًا لِلْقُلُوبِ، وَزَكَاءً لِلنُّفُوسِ، وَصَلَاحًا لِلْعِبَادِ فِي المَعَاشِ وَالمَعَادِ: ﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٤].

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَخِيرَتُهُ مِنْ خَلْقِهِ؛ كَانَ يَصُومُ حَتَّى يَقُولَ أَصْحَابُهُ: لَا يُفْطِرُ، وَيُفْطِرُ حَتَّى يَقُولُوا: لَا يَصُومُ، وَمَا اسْتَكْمَلَ صِيَامَ شَهْرٍ إِلَّا رَمَضَانَ[1]، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ وَاقْتَفَى أَثَرَهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ؛ فَإِنَّكُمْ فِي شَهْرٍ تَتَأَكَّدُ فِيهِ التَّقْوَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

أَيُّهَا النَّاسُ: امْتَنَّ اللهُ تَعَالَى عَلَى المُؤْمِنِينَ بِأَنْ جَمَعَ قُلُوبَهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ، وَوَحَّدَ كَلِمَتَهُمْ ضِدَّ الأَعْدَاءِ، وَجَعَلَهُمْ إِخْوَةً مُتَحَابِّينَ مُتَعَاوِنِينَ، وَحِينَ كَانَتِ الثَّارَاتُ وَالحُرُوبُ بَيْنَ قَبِيلَتَيِ الأَنْصَارِ: الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ؛ جَاءَ اللهُ تَعَالَى بِالإِسْلَامِ الَّذِي جَمَعَهُمْ بَعْدَ التَّفَرُّقِ، وَوَحَّدَهُمْ بَعْدَ الشَّتَاتِ، وَأَبْدَلَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ

---

(١) كما في حديث عائشة ﵂ عند: البخاري في الصوم، باب صوم شعبان (١٩٦٩) ومسلم في الصيام، باب صيام النبي ﷺ في غير رمضان (١١٥٦).

مِنَ البَغْضَاءِ وَالشَّحْنَاءِ مَحَبَّةً وَوِئَامًا وَإِيثَارًا ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، بَلِ امْتَنَّ اللهُ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ بِتَأْلِيفِهِ سُبْحَانَهُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ، وَجَمْعِهِ كَلِمَتَهُمْ، وَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لِيَجْمَعَهُمْ وَلَوْ أَنْفَقَ كُنُوزَ الأَرْضِ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ؛ لِتَمَكُّنِ الشَّيْطَانِ مِنْهُمْ، وَامْتِلَاءِ قُلُوبِهِمْ بِالضَّغِينَةِ وَالشَّحْنَاءِ؛ فَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ أَزَالَ ذَلِكَ مِنْ قُلُوبِهِمْ بِبَرَكَةِ الإِسْلَامِ، وَغَسَلَ قُلُوبَهُمْ مِنَ الأَحْقَادِ بِمَاءِ الإِيمَانِ: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣].

إِنَّ سَلَامَةَ الْقُلُوبِ وَصَلَاحَهَا يَكُونُ بِاسْتِقَامَتِهَا عَلَى أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِذَا اسْتَقَامَ قَلْبُ الْعَبْدِ ضَمِنَ صَاحِبُهُ طَهَارَتَهُ مِنَ الشِّرْكِ وَالنِّفَاقِ وَالرِّيَاءِ وَالحَسَدِ وَالْغِشِّ لِلْمُسْلِمِينَ، وَمَنْ كَانَ سَلِيمَ الْقَلْبِ فَازَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

وَأَصْحَابُ الْقُلُوبِ السَّلِيمَةِ يُدْرِكُونَ مِنَ الأَجْرِ، وَيَبْلُغُونَ مِنَ المَنَازِلِ بِطَهَارَةِ قُلُوبِهِمْ وَنَقَائِهَا مَا لَا يَبْلُغُهُ الصَّائِمُونَ الْقَائِمُونَ بِصِيَامِهِمْ وَأَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ؛ كَمَا رَوَى أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه فَقَالَ: «كُنَّا جُلُوسًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: **يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ**، فَطَلَعَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ تَنْطِفُ لِحْيَتُهُ مِنْ وَضُوئِهِ قَدْ تَعَلَّقَ نَعْلَيْهِ فِي يَدِهِ الشِّمَالِ، فَلَمَّا كَانَ الغَدُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مِثْلَ ذَلِكَ، فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ مِثْلَ المَرَّةِ الأُولَى، فَلَمَّا كَانَ اليَوْمُ الثَّالِثُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مِثْلَ مَقَالَتِهِ أَيْضًا، فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ الأُولَى، فَلَمَّا قَامَ النَّبِيُّ ﷺ تَبِعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ العَاصِ فَقَالَ: إِنِّي لَاحَيْتُ أَبِي فَأَقْسَمْتُ أَنْ لَا أَدْخُلَ عَلَيْهِ ثَلَاثًا، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُؤْوِيَنِي إِلَيْكَ حَتَّى تَمْضِيَ، فَعَلْتُ، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ أَنَسٌ: وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ يُحَدِّثُ أَنَّهُ بَاتَ مَعَهُ تِلْكَ اللَّيَالِيَ الثَّلَاثَ، فَلَمْ يَرَهُ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ

شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا تَعَارَّ وَتَقَلَّبَ عَلَى فِرَاشِهِ ذَكَرَ اللهَ ﷻ وَكَبَّرَ، حَتَّى يَقُومَ لِصَلَاةِ الفَجْرِ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَسْمَعْهُ يَقُولُ إِلَّا خَيْرًا، فَلَمَّا مَضَتِ الثَّلَاثُ لَيَالٍ وَكِدْتُ أَنْ أَحْتَقِرَ عَمَلَهُ، قُلْتُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، إِنِّي لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِي غَضَبٌ وَلَا هَجْرٌ ثَمَّ، وَلَكِنْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لَكَ ثَلَاثَ مِرَارٍ: **يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ**، فَطَلَعْتَ أَنْتَ الثَّلَاثَ مِرَارٍ، فَأَرَدْتُ أَنْ آوِيَ إِلَيْكَ لِأَنْظُرَ مَا عَمَلُكَ فَأَقْتَدِيَ بِهِ، فَلَمْ أَرَكَ تَعْمَلُ كَثِيرَ عَمَلٍ؛ فَمَا الَّذِي بَلَغَ بِكَ مَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَ: مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ، قَالَ: فَلَمَّا وَلَّيْتُ دَعَانِي فَقَالَ: مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ، غَيْرَ أَنِّي لَا أَجِدُ فِي نَفْسِي لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ غِشًّا، وَلَا أَحْسُدُ أَحَدًا عَلَى خَيْرٍ أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهُ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: هَذِهِ الَّتِي بَلَغَتْ بِكَ، وَهِيَ الَّتِي لَا نُطِيقُ» رَوَاهُ أَحْمَدُ[٢].

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ أَفَاضِلَ النَّاسِ هُمْ مَنْ سَلِمَتْ قُلُوبُهُمْ مِنَ الضَّغَائِنِ وَالأَحْقَادِ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ﵄ قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: **كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ صَدُوقِ اللِّسَانِ**، قَالُوا: صَدُوقُ اللِّسَانِ نَعْرِفُهُ، فَمَا مَخْمُومُ الْقَلْبِ؟ قَالَ: **هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ لَا إِثْمَ فِيهِ وَلَا بَغْيَ وَلَا غِلَّ وَلَا حَسَدَ**» رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ[٣].

---

(٢) أخرجه عبد الرزاق من طريق معمر عن الزهري عن أنس ﵁ به (٢٠٥٥٩)، وابن المبارك في مسنده (١)، وفي الزهد (٦٩٤)، وأحمد (٣/ ١٦٦)، وعبد بن حميد (١١٥٩)، والنسائي في الكبرى (١٠٦٩٩)، والبيهقي في الشعب (٦٦٠٥). وصححه ابن كثير في تفسيره (٤/ ٣٣٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله رجال الصحيح (٨/ ٧٩).

(٣) أخرجه ابن ماجه في الزهد، باب الورع والتقوى (٤٢١٦)، والطبراني في مسند الشاميين (١٢١٨)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٦٩)، والبيهقي في الشعب (٦٦٠٤)، وابن عساكر في تاريخه (٥٩/ ٤٥٢)، وصححه أبو حاتم كما في العلل (١٨٧٣)، والبوصيري في مصباح الزجاجة (٤/ ٢٤٠)، والمنذري في الترغيب (٤٣٨٦).

وَامْتَدَحَ اللهُ تَعَالَى مَنْ جَاءَ بَعْدَ الصَّحَابَةِ ﷺ فَسَلِمَتْ قُلُوبُهُمْ عَلَيْهِمْ وَعَلَى عُمُومِ المُسْلِمِينَ، وَنَوَّهَ اللهُ تَعَالَى بِدُعَائِهِمْ فِي قُرْآنٍ يُتْلَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وَأَرْشَدَ اللهُ ﷻ إِلَى كَيْفِيَّةِ التَّعَامُلِ مَعَ مَنْ نَاصَبَكَ الْعَدَاءَ مِنْ إِخْوَانِكَ المُسْلِمِينَ بِأَنْ تُقَابِلَ إِسَاءَتَهُ بِالإِحْسَانِ، وَتَرُدَّ جَهْلَهُ بِالحِلْمِ، وَلَا تَسْتَسْلِمَ لِعَمَلِ الشَّيْطَانِ وَكَيْدِهِ وَوَسْوَسَتِهِ الَّذِي يَدْفَعُكَ إِلَى الانْتِصَارِ وَالانْتِقَامِ دَفْعًا: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٦].

وَصَاحِبُ الْقَلْبِ السَّلِيمِ عَلَى إِخْوَانِهِ المُسْلِمِينَ مُتَّصِفٌ بِصِفَاتِ أَهْلِ الجَنَّةِ الَّذِينَ سَلِمَتْ قُلُوبُ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ مِنَ الْغِلِّ وَالكَرَاهِيَةِ بِتَطْهِيرِ اللَّهِ تَعَالَى لَهَا: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]، وَذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ حَالَهُمْ فِي الجَنَّةِ فَقَالَ: «**لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ**» رَوَاهُ البُخَارِيُّ(٤).

إِنَّ قُلُوبَ العِبَادِ تُفْسِدُهَا الضَّغَائِنُ وَالشَّحْنَاءُ وَالحَسَدُ وَالأَحْقَادُ؛ حَتَّى يَشْقَى بِهَا أَصْحَابُهَا فِي الدُّنْيَا؛ فَلَا يَهْنَئُونَ بِعَيْشٍ، وَلَا يَرْتَاحُ لَهُمْ بَالٌ، وَلَا تُرْفَعُ لَهُمْ أَعْمَالٌ، مَعَ مَا يَفُوتُهُمْ مِنَ الخَيْرِ الْكَثِيرِ، بَلْ وَيُفَوِّتُونَ الخَيْرَ عَلَى غَيْرِهِمْ بِسَبَبِ مَا فِي قُلُوبِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ.

---

(٤) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: البخاري في بدء الخلق، باب في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٠٧٣).

وَلْتَعْلَمُوا -أَيُّهَا الإِخْوَةُ- أَنَّ لَيْلَةَ القَدْرِ رُفِعَ العِلْمُ بِهَا فِي سَنَةٍ مِنَ السَّنَوَاتِ -وَلَا تَزَالُ مَعْرِفَتُهَا مَرْفُوعَةً إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ- بِسَبَبِ خُصُومَةٍ وَقَعَتْ بَيْنَ رَجُلَيْنِ؛ كَمَا رَوَى عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ رضي الله عنه قَالَ: «خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ لِيُخْبِرَنَا بِلَيْلَةِ القَدْرِ، فَتَلَاحَى رَجُلَانِ مِنَ المُسْلِمِينَ، فَقَالَ: **خَرَجْتُ لِأُخْبِرَكُمْ بِلَيْلَةِ القَدْرِ فَتَلَاحَى فُلَانٌ وَفُلَانٌ فَرُفِعَتْ . . .**» رَوَاهُ البُخَارِيُّ[٥].

وَأَمَّا عَدَمُ رَفْعِ العَمَلِ الصَّالِحِ بِسَبَبِ الشَّحْنَاءِ، فَجَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**تُفْتَحُ أَبْوَابُ الجَنَّةِ يَوْمَ الاِثْنَيْنِ وَيَوْمَ الخَمِيسِ فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا، إِلَّا رَجُلًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ، فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ، وَفِي رِوَايَةٍ لِأَحْمَدَ: «**تُعْرَضُ الأَعْمَالُ فِي كُلِّ اثْنَيْنِ وَخَمِيسٍ، فَيَغْفِرُ اللهُ عز وجل لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا إِلَّا المُتَشَاحِنَيْنِ، يَقُولُ اللهُ لِلْمَلَائِكَةِ: ذَرُوهُمَا حَتَّى يَصْطَلِحَا**»[٦].

وَكَمْ فِي المُسْلِمِينَ مِنَ التَّقَاطُعِ وَالتَّدَابُرِ بِسَبَبِ خِلَافَاتٍ يُمْكِنُ عِلَاجُهَا، وَإِزَالَةُ أَسْبَابِهَا؟!

كَمْ فِي الْقَرَابَةِ وَالْأَرْحَامِ وَالْأَصْهَارِ مِنَ الشَّحْنَاءِ وَالْبَغْضَاءِ، وَالْحَسَدِ وَالهِجْرَانِ، وَالتَّفَرُّقِ وَالاِخْتِلَافِ بِسَبَبِ إِرْثٍ لَمْ يُقَسَّمْ، أَوْ مَزَارِعَ مَيِّتَةٍ لَا تُسَاوِي شَيْئًا، يَدْفَعُونَ أَضْعَافَ أَثْمَانِهَا لِلْغُرَبَاءِ عَنْهُمْ، وَيَعِزُّ عَلَى الْوَاحِدِ مِنْهُمْ أَنْ يَتَنَازَلَ

---

(٥) أخرجه البخاري في صلاة التراويح، باب رفع ليلة القدر لتلاحي الناس (١٩١٩).

(٦) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب، باب النهي عن الشحناء والتهاجر (٢٥٦٥)، وأبو داود في الأدب، باب فيمن يهجر أخاه المسلم (٤٩١٦)، والترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في المتهاجرين (٢٠٢٣)، وابن ماجه في الصيام، باب صيام يوم الاثنين والخميس (١٧٤٠)، ومالك (١٦١٨)، وأحمد (٢/ ٢٦٨).

عَنْ شِبْرٍ وَاحِدٍ مِنْهَا لِقَرِيبِهِ، وَلَمْ تَكُنِ الأَرْضُ هِيَ السَّبَبَ، وَلَا الإِرْثُ هُوَ المُشْكِلَةَ، إِنْ هِيَ إِلَّا تَعْلِيلَاتٌ تُجْعَلُ فِي الْوَاجِهَةِ، وَأَعْذَارٌ تُبْدَى لِلنَّاسِ عِنْدَ المُنَاقَشَةِ، وَلَكِنَّ المُشْكِلَةَ الحَقِيقِيَّةَ هِيَ فِي قُلُوبٍ امْتَلَأَتْ بِالضَّغَائِنِ، وَاسْوَدَّتْ بِالأَحْقَادِ؛ فَتَمَنَّى القَرِيبُ مَعَهَا لِقَرِيبِهِ كُلَّ سُوءٍ، وَحَسَدَهُ عَلَى كُلِّ خَيْرٍ.

وَكَمْ فِي البَيْتِ الوَاحِدِ مِنْ قَطِيعَةٍ وَهِجْرَانٍ بَيْنَ الزَّوْجِ وَزَوْجَتِهِ، وَالأَبِ وَابْنِهِ، وَالأَخِ وَأَخِيهِ، يَشْرَبُونَ وَيَأْكُلُونَ مِنْ زَادٍ وَاحِدٍ، وَيَسْتَظِلُّونَ تَحْتَ سَقْفٍ وَاحِدٍ، وَرُبَّمَا جَمَعَهُمْ مَجْلِسٌ أَوْ فِرَاشٌ وَاحِدٌ، فَيُعْرِضُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَنِ الآخَرِ؟ فَأَيُّ بُؤْسٍ لِأُسْرَةٍ تَجْتَمِعُ أَبْدَانُ أَصْحَابِهَا كُلَّ يَوْمٍ وَكُلَّ سَاعَةٍ، وَقُلُوبُهُمْ مُتَفَرِّقَةٌ مُتَنَافِرَةٌ؟! وَأَيُّ ضَرَرٍ يُصِيبُ مَنْ قُدِّرَ عَلَيْهِ أَنْ يَعِيشَ بَيْنَهُمْ، وَيَكْتَوِيَ بِنَارِ قَطِيعَتِهِمْ؟!

أَرْحَامٌ جَمَعَتْهَا أَوَاصِرُ الرَّحِمِ، وَوَشَائِجُ القُرْبَى، فَفَرَّقَتْهَا الأَحْقَادُ، وَمَزَّقَتْهَا الضَّغَائِنُ، وَيَا وَيْلَ قَاطِعِيهَا مِنَ الرَّحْمَنِ جَلَّ جَلَالُهُ! إِذْ أَوْجَبَ صِلَتَهَا، وَحَرَّمَ قَطِيعَتَهَا، وَقَالَ سُبْحَانَهُ فِي الحَدِيثِ القُدُسِيِّ: «**أَنَا الرَّحْمَنُ وَهِيَ الرَّحِمُ، شَقَقْتُ لَهَا اسْمًا مِنِ اسْمِي، مَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَتُّهُ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(٧).

وَكَمْ فِي الجِيرَانِ مِنْ قُلُوبٍ لَا تَخْلُو مِنْ كَدَرِ الحَسَدِ وَالغِلِّ وَالْكَرَاهِيَةِ، بُيُوتُهُمْ مُتَجَاوِرَةٌ وَرُبَّمَا مُتَلَاصِقَةٌ، وَيَسْلُكُونَ فِي ذَهَابِهِمْ وَإِيَابِهِمْ طَرِيقًا وَاحِدَةً، وَيُشَاهِدُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا صَبَاحًا وَمَسَاءً، بَلْ يَصْطَفُّونَ فِي مَسْجِدِ حَيِّهِمْ خَلْفَ إِمَامٍ وَاحِدٍ، قَدِ الْتَصَقَتْ أَكْعُبُهُمْ وَمَنَاكِبُهُمْ فِي عِبَادَةٍ مِنْ أَجَلِّ الْعِبَادَاتِ وَأَعْظَمِهَا عِنْدَ اللَّهِ

(٧) أخرجه من حديث عبد الرحمن بن عوف ﷺ: أبو داود في الزكاة، باب في صلة الرحم (١٦٩٤)، والترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في قطيعة الرحم، وقال: حديث صحيح (١٩٠٧)، وأحمد (١/ ١٩٤)، وأبو يعلى (٨٤٠)، وصححه ابن حبان (٤٤٣)، والحاكم (٤/ ١٧٤)، وله شواهد في الصحيحين.

تَعَالَى، وَلَكِنْ بَيْنَهُمْ مِنَ التَّنَافُرِ وَالتَّبَاعُدِ أَبْعَدُ مِمَّا بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ، وَإِذَا جَمَعَهُمُ اللهُ تَعَالَى عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ فِي سُوقٍ أَوْ وَلِيمَةٍ أَوْ عِنْدَ بَابِ المَسْجِدِ أَعْرَضَ هَذَا وَتَنَحَّى ذَاكَ، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ.

وَكَمْ بَيْنَ بَعْضِ الزُّمَلَاءِ فِي الْوَظَائِفِ وَالشَّرِكَاتِ وَالمُؤَسَّسَاتِ مِنَ الضَّغِينَةِ وَالْبَغْضَاءِ وَالتَّقَاطُعِ وَالتَّدَابُرِ وَالهَجْرِ بِسَبَبِ التَّنَافُسِ عَلَى التَّرْقِيَاتِ أَوِ الدَّوْرَاتِ أَوْ غَيْرِهَا مِمَّا هُوَ مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا الَّتِي لَا تُسَاوِي أَنْ يَتَقَاطَعَ الإِخْوَانُ مِنْ أَجْلِهَا، وَلَا أَنْ يَتَهَاجَرُوا فِي سَبِيلِهَا، مَكَاتِبُهُمْ مُتَجَاوِرَةٌ، وَيَقْضِي بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ فِي يَوْمِهِمْ أَكْثَرَ مِمَّا يَقْضُونَ مَعَ وَالِدِيهِمْ وَأَهْلِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ، قَدْ جَمَعَتْهُمُ الْوَظَائِفُ وَالمَكَاتِبُ، وَلَكِنْ فَرَّقَ الشَّيْطَانُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا يَزُولُ، وَلَا تَزُولُ ضَغَائِنُهُمْ، نَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ!

وَلَوْ فَتَّشْتَ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ أَسْبَابِ الْغِلِّ وَالْكَرَاهِيَةِ، وَالتَّدَابُرِ وَالْقَطِيعَةِ، لَوَجَدْتَهَا أَسْبَابًا تَافِهَةً، وَلَكِنَّهُ الشَّيْطَانُ الَّذِي أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ المُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ.

إِنَّهَا عِزَّةٌ مُتَوَهَّمَةٌ، وَقُوَّةٌ مَزْعُومَةٌ تَمْنَعُ الْوَاحِدَ مِنَ المُتَخَاصِمَيْنِ أَنْ يُزِيلَ أَسْبَابَ الخِلَافِ، وَيَدْحَرَ الشَّيْطَانَ، وَيَبْدَأَ صَاحِبَهُ بِالسَّلَامِ، وَتَمْضِي الأَيَّامُ وَهُمَا عَلَى قَطِيعَتِهِمَا، فَلَا تُرْفَعُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَعْمَالُهُمَا؛ لِأَنَّ رَفْعَ الأَعْمَالِ مَشْرُوطٌ بِاصْطِلَاحِهِمَا، وَإِزَالَةِ الشَّحْنَاءِ بَيْنَهُمَا، وَصَفَاءِ قَلْبِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ.

وَلَوْ مَاتَ أَحَدُهُمَا وَهُمَا عَلَى قَطِيعَتِهِمَا لَنَدِمَ الآخَرُ، وَمَنْ خَتَمَ حَيَاتَهُ بِهِجْرَانِ أَخِيهِ المُسْلِمِ فَبِئْسَ الخَاتِمَةُ؛ فَإِنْ كَانَ جَارًا لَهُ فَبِئْسَ الجَارُ، وَإِنْ كَانَ ذَا رَحِمٍ فَالأَمْرُ أَشَدُّ، وَالمَعْصِيَةُ أَكْبَرُ، وَبِقَدْرِ قُرْبِ رَحِمِهِ مِنْهُ مَعَ هَجْرِهِ لَهُ يَزْدَادُ الإِثْمُ، وَتَعْظُمُ شَنَاعَةُ الهَجْرِ وَالْقَطِيعَةِ؛ كَيْفَ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ**

يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ؛ فَمَنْ هَجَرَ فَوْقَ ثَلَاثٍ فَمَاتَ دَخَلَ النَّارَ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[٨]. هَذَا فِي حَقِّ المُسْلِمِ عُمُومًا، فَكَيْفَ إِذَنْ بِالجَارِ؟! ثُمَّ كَيْفَ بِذِي الرَّحِمِ وَالْقَرَابَةِ؟!

فَإِنْ بَلَغَ الهَجْرُ بَيْنَهُمَا سَنَةً كَامِلَةً فَالأَمْرُ أَخْطَرُ، وَالإِثْمُ أَشَدُّ؛ لِمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي خِرَاشٍ السُّلَمِيِّ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ هَجَرَ أَخَاهُ سَنَةً فَهُوَ كَسَفْكِ دَمِهِ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[٩].

فَكَيْفَ إِذَنْ بِهِجْرَانٍ وَتَقَاطُعٍ يَمْتَدُّ سَنَوَاتٍ كَثِيرَةً؟!

نَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ، وَنَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَنَا مِنَ الحِقْدِ وَالحَسَدِ وَالضَّغِينَةِ، وَأَنْ يَجْعَلَهَا قُلُوبًا سَلِيمَةً ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي القُرْآنِ العَظِيمِ.

❀ ❀ ❀

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ

---

(٨) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أبو داود في السنة، باب فيمن يهجر أخاه المسلم (٤٩١٤)، وصححه النووي في رياض الصالحين، وقال: على شرط البخاري (١/ ٣٦٤)، وقال المنذري في الترغيب: على شرط البخاري ومسلم (٤١٧٥).

(٩) أخرجه أبو داود في السنة، باب فيمن يهجر أخاه المسلم (٤٩١٥)، وأحمد (٤/ ٢٢٠)، والطبراني في الكبير (٢٢/٢٠٨)، رقم (٧٨٠)، وصححه النووي في رياض الصالحين (١/ ٣٦٤).

وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاعْمُرُوا أَوْقَاتَكُمْ بِذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ؛ فَإِنَّ الأَعْمَارَ تَمْضِي، وَالْأَعْمَالَ تُكْتَبُ، وَلَا يَنْفَعُ الْعَبْدَ فِي آخِرَتِهِ -بَعْدَ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى- إِلَّا مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

أَيُّهَا النَّاسُ: شَهْرُ رَمَضَانَ شَهْرُ خَيْرٍ وَبَرَكَةٍ وَإِحْسَانٍ، وَهُوَ فُرْصَةٌ عَظِيمَةٌ لِتَطْهِيرِ الْقُلُوبِ مِنْ أَدْرَانِ الحَسَدِ وَالْبَغْضَاءِ، وَالْكَرَاهِيَةِ وَالشَّحْنَاءِ.

إِنَّهُ فُرْصَةٌ لِوَصْلِ أَرْحَامٍ قُطِعَتْ، وَزِيَارَةِ إِخْوَانٍ هُجِرُوا ..

إِنَّهُ مُنَاسَبَةٌ جَلِيلَةٌ لِإِزَالَةِ أَسْبَابِ الخِلَافِ وَالنِّزَاعِ بَيْنَ المُتَخَاصِمِينَ، وَوَضْعِ حَدٍّ لِلْمُتَهَاجِرِينَ وَالمُتَقَاطِعِينَ، إِنَّهُ فُرْصَةٌ لأَنْ تَسْمُوَ فِيهِ النُّفُوسُ عَلَى حُظُوظِهَا، وَتَتَطَهَّرَ فِيهِ الْقُلُوبُ مِنْ أَدْرَانِهَا وَغَلْوَائِهَا، فَتَمْتَدُّ فِيهِ الأَيْدِي بِالمُصَافَحَةِ بَعْدَ سَنَوَاتِ الانْقِبَاضِ، وَتُطْرَقُ فِيهِ الأَبْوَابُ لِلزِّيَارَةِ بَعْدَ طُولِ الجَفَاءِ وَالهِجْرَانِ، وَتَجْتَمِعُ فِيهِ الأَرْحَامُ بَعْدَ التَّفَرُّقِ وَالِانْقِطَاعِ.

إِنَّ رَمَضَانَ قَدْ جَمَعَ المُسْلِمِينَ فِي وَقْتِ إِمْسَاكِهِمْ وَإِفْطَارِهِمْ، وَضَيَّقَ مَجَارِيَ الشَّيْطَانِ فِي عُرُوقِهِمْ، فَصَارَ لِلصَّائِمِينَ فِيهِ إِقْبَالٌ عَلَى الخَيْرِ وَالإِحْسَانِ، وَمَشَاهِدُ ذَلِكَ ظَاهِرَةٌ لِلْعِيَانِ فِي مَوَائِدِ الإِفْطَارِ، وَكَثْرَةِ البِرِّ وَالصَّدَقَاتِ، وَمُسَاعَدَةِ النَّاسِ؛ فَلِمَاذَا لَا يَمْتَدُّ هَذَا الإِحْسَانُ إِلَى مَوَاطِنِ النِّزَاعِ، وَمَوَاضِعِ الخِلَافِ، فَتُزَالَ أَسْبَابُهَا، وَيَسْتَعْلِيَ عَلَى حُظُوظِ النَّفْسِ أَصْحَابُهَا، فَيَسْتَبِقُونَ إِلَى مَنْ قَطَعُوا وَهَجَرُوا بِالمُصَافَحَةِ وَالِاعْتِذَارِ اسْتِبَاقَهُمْ إِلَى سَائِرِ أَنْوَاعِ البِرِّ وَالإِحْسَانِ، وَرَمَضَانُ هُوَ الفُرْصَةُ المُوَاتِيَةُ لِذَلِكَ، وَقَدْ جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ الصِّيَامَ سَبَبٌ لِإِزَالَةِ مَا فِي القُلُوبِ مِنَ الإِحَنِ وَالغِشِّ وَالدَّغَلِ، فَتَكُونُ النُّفُوسُ أَقْرَبَ مَا تَكُونُ

إِلَى الصَّفْحِ وَالعَفْوِ وَالمُسَامَحَةِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَذْهَبَ كَثِيرٌ مِنْ وَحَرِ صَدْرِهِ فَلْيَصُمْ شَهْرَ الصَّبْرِ وَثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَفِي رِوَايَةٍ لِلنَّسَائِيِّ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا يُذْهِبُ وَحَرَ الصَّدْرِ صَوْمُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ**»(١٠).

وَجَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**صَوْمُ شَهْرِ الصَّبْرِ وَثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ صَوْمُ الدَّهْرِ، وَيُذْهِبُ مَغَلَّةَ الصَّدْرِ**. قَالَ: قُلْتُ: وَمَا مَغَلَّةُ الصَّدْرِ؟ قَالَ: **رِجْسُ الشَّيْطَانِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(١١).

قَالَ الخَطَّابِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «مَغَلُّ الصَّدْرِ مَا يَجِدُهُ الوَاجِدُ فِي صَدْرِهِ مِنَ الغِلِّ وَالفَسَادِ»(١٢).

وَجَاءَ فِي غَيْرِ مَا حَدِيثٍ أَنَّ الصِّيَامَ جُنَّةٌ يَسْتَجِنُّ بِهَا الْعَبْدُ، وَمِنْ جُمْلَةِ مَا يَسْتَجِنُّ مِنْهُ الْعَبْدُ بِالصِّيَامِ الأَحْقَادُ وَالشَّحْنَاءُ وَالْبَغْضَاءُ، حَتَّى يَكُونَ قَلْبُهُ سَلِيمًا عَلَى إِخْوَانِهِ المُسْلِمِينَ.

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ أَيُّهَا المُسْلِمُونَ، وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ، وَطَيِّبُوا قُلُوبَكُمْ عَلَى إِخْوَانِكُمْ، وَصِلُوا مَا قَطَعْتُمْ مِنْ أَرْحَامِكُمْ، وَأَزِيلُوا أَسْبَابَ الخِلَافِ وَالنِّزَاعِ بَيْنَكُمْ، وَخُذُوا بِوَصِيَّةِ نَبِيِّكُمْ ﷺ الَّتِي وَصَّاكُمْ بِهَا، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ**»(١٣).

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .

---

(١٠) أخرجه من حديث النمر بن تولب رضي الله عنه: أحمد (٥/ ٧٨)، والنسائي في الصوم، باب صوم الدهر (٤/ ٢٠٨)، وقد سبق تخريجه في مجلد (٢) خطبة رقم (٥٩) رمضان والصبر، حاشية رقم (١٥) وينظر غريبه هناك.

(١١) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٤)، والطيالسي (٤٨٢).

(١٢) غريب الحديث (١/ ٥٨٥).

(١٣) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه: البخاري في الأدب، باب الهجرة (٥٧٢٦).

٢٥٠- افتقارنا إلى الله تعالى

٢١/ ٩/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ خَلَقَ الخَلْقَ بِقُدْرَتِهِ، وَكَتَبَ آجَالَهُمْ وَأَرْزَاقَهُمْ بِحِكْمَتِهِ، نَحْمَدُهُ حَمْدَ الشَّاكِرِينَ، وَنَسْتَغْفِرُهُ اسْتِغْفَارَ الْمُذْنِبِينَ، وَنَسْأَلُهُ مِنْ فَضْلِهِ الْعَظِيمِ؛ فَلَهُ سُبْحَانَهُ فِي رَمَضَانَ هِبَاتٌ وَعَطَايَا لَا تَنْقَضِي، وَخَزَائِنُهُ ﷻ لَا تَنْفَدُ، وَهُوَ الْقَائِلُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]. لَوْ أَعْطَى كُلَّ سَائِلٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ فِي مُلْكِهِ، إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ البَحْرَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، عَظِيمٌ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَأُلُوهِيَّتِهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ؛ فَهُوَ المَلِكُ الحَقُّ الكَبِيرُ، وَهُوَ العَلِيمُ الخَبِيرُ ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ﴾ [المائدة: ١٢٠]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ عَرَفَ رَبَّهُ تَمَامَ المَعْرِفَةِ، وَقَدَرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ، فَتَبَرَّأَ مِنْ كُلِّ حَوْلٍ وَقُوَّةٍ، إِلَّا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَنَصَبَ فِي طَاعَتِهِ سُبْحَانَهُ سَاجِدًا وَقَائِمًا، وَفِي عَشْرِ رَمَضَانَ كَانَ يَعْتَزِلُ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، مُعْتَكِفًا فِي مَسْجِدِهِ، خَالِيًا بِرَبِّهِ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ؛ فَإِنَّهَا النَّجَاةُ لِلعَبْدِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَا قِيمَةُ الإِنْسَانِ بِلَا إِيمَانٍ وَلَا تَقْوَى ﴿وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

أَيُّهَا النَّاسُ: حَاجَةُ الخَلْقِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لَا يُحِيطُ بِهَا الْوَصْفُ؛ إِذْ هُمْ مُفْتَقِرُونَ إِلَيْهِ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِمْ، مُحْتَاجُونَ إِلَى عَوْنِهِ فِي كُلِّ شُؤُونِهِمْ؛ فَهُوَ سُبْحَانَهُ مُوجِدُهُمْ مِنَ الْعَدَمِ، وَمُرَبِّيهِمْ بِالنِّعَمِ، وَهَادِيهِمْ إِلَى مَا يَنْفَعُهُمْ، وَصَارِفُهُمْ عَمَّا

يَضُرُّهُمْ؛ فَمَا قِيمَةُ الخَلْقِ بِلَا خَالِقِهِمْ؟!

وَالقُرْآنُ العَظِيمُ قَدْ عَرَضَتْ آيَاتُهُ لِهَذِهِ المَسَائِلِ، وَجَلَّتْ تَلِكَ الحَقَائِقَ، وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَغْفُلُونَ عَنْهَا وَهُمْ يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ، وَهَذِهِ اللَّيَالِي هِيَ لَيَالِي الْقُرْآنِ، فَالمُسْلِمُونَ فِي كُلِّ الأَقْطَارِ يَتَحَرَّوْنَ فَضْلَهَا، وَيَلْتَمِسُونَ أَجْرَهَا، فَيُحْيُونَهَا بِالتِّلَاوَةِ وَالصَّلَاةِ، وَأَنْوَاعِ الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ، وَحَرِيٌّ بِهِمْ أَنْ يَتَدَبَّرُوا مَا يَقْرَؤُونَ وَيَسْمَعُونَ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ تعالَى فِي تِلْكَ اللَّيَالِي المبَارَكَاتِ؛ لِيُدْرِكُوا حَقِيقَةَ فَقْرِهِمْ لِلَّهِ تعالَى، وَيَعْرِفُوا مَا لَهُ سُبْحَانَهُ مِنَ المِنَّةِ وَالفَضْلِ عَلَيْهِمْ، فَيَقُودُهُمْ ذَلِكَ إِلَى تَعْظِيمِهِ وَذِكْرِهِ، وَشُكْرِهِ وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ.

إِنَّ رَبَّنَا جَلَّ جَلَالُهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَنَا وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْ خَلْقِنَا، فَلَمْ يَخْلُقْنَا سُبْحَانَهُ لِيَسْتَكْثِرَ بِنَا مِنْ قِلَّةٍ، وَلَا لِيَسْتَقْوِيَ بِنَا مِنْ ضَعْفٍ، وَلَا لِيَحْتَاجَ لَنَا فِي أَيِّ شَيءٍ؛ فَكَانَ خَلْقُهُ لَنَا مَحْضَ فَضْلٍ مِنْهُ ﷻ تَفَضَّلَ بِهِ عَلَيْنَا ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٦].

تَخَيَّلْ يا عَبْدَ اللَّهِ أَنَّكَ لَمْ تُخْلَقْ، فَمَاذَا كَانَ؟! هَلْ سَيَخْتَلُّ الكَوْنُ بِدُونِكِ؟! وَهَلْ سَتَفْتَقِرُ المَوْجُودَاتُ إِلَى وُجُودِكَ؟!

أَلَمْ تَمْضِ أَزْمَانٌ قَبْلَ وُجُودِكِ، وَالكَوْنُ هُوَ الكَوْنُ، وَلَمْ يَفْتَقِرْ أَحَدٌ إِلَيْكَ، حَتَّى تُوْجَدَ مِنْ أَجْلِهِ، وَبَعْدَ مَوْتِكَ سَيَعِيشُ مَنْ يَعِيشُ، وَالْكَوْنُ هُوَ الْكَوْنُ، وَالنَّاسُ هُمُ النَّاسُ، فَلَا افْتَقَرَتِ المَوْجُودَاتُ إِلَى خَلْقِكَ، وَلَا اخْتَلَّ نِظَامُهَا بِمَوْتِكِ؟

وَهَذِهِ الحَقِيقَةُ نَصَّ عَلَيْهَا القُرْآن فِي غَيْرِ مَا مَوْضِعٍ ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٦٧]، ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١].

نَعَمْ، مَضَتْ أَزْمَانٌ قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ عليه السلام لَمْ يَكُنْ لِلْبَشَرِ فِيهَا ذِكْرٌ؛ لأَنَّهُمْ غَيْرُ مَخْلُوقِينَ، ثُمَّ مَضَتْ أَزْمَانٌ أُخْرَى بَعْدَ وُجُودِ الْبَشَرِ لَمْ يَكُنِ الْوَاحِدُ مِنَّا فِيهَا مَذْكُورًا مَعْرُوفًا؛ لأَنَّهُ لَمْ يُولَدْ بَعْدُ، فَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ تعالَى عَلَيْنَا أَنْ خَلَقَ أَصْلَ الْبَشَرِ، ثُمَّ تَفَضَّلَ سُبْحَانَهُ عَلَيْنَا، فَجَعَلَنَا مِنْ نَسْلِ هَذَا الْبَشَرِ، وَلَمَّا بُشِّرَ زَكَرِيَّا عليه السلام بِالْوَلَدِ، وَتَعَجَّبَ أَنْ يُرْزَقَ الْوَلَدَ عَلَى الْكِبَرِ وامْرَأَتُهُ عَاقِرٌ، كَانَ الْجَوَابُ: ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩].

وَسَمِعَ جُبَيرُ بْنُ مُطْعِمٍ وَهُوَ عَلَى الشِّرْكِ قِرَاءَةَ النَّبِيِّ ﷺ لِسُورَةِ الطُّورِ، قَالَ: «فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]، قَالَ: كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[١].

ثُمَّ بَعْدَ افْتِقَارِنَا إِلَى اللَّهِ تعالَى فِي وُجُودِنَا بَشَرًا سَوِيًّا، نَفْتَقِرُ إِلَى اللَّهِ تعالَى فِي بَقَائِنَا وَبَقَاءِ جِنْسِنَا الْبَشَرِيِّ، وَاللهُ عز وجل -وَهُوَ الغَنِيُّ عَنَّا- كَانَ وَلَا يَزَالُ قَادِرًا عَلَى أَنْ يُهْلِكَنَا وَيُذْهِبَنَا، وَأَنْ يُبْدِلَنَا بِبَشَرٍ مِثْلِنَا، بَلْ هُوَ القَادِرُ عَلَى أَنْ يُلْغِيَ جِنْسَنَا، وَيَخْلُقَ خَلْقًا آخَرَ غَيْرَنَا، يَعْبُدُونَ اللهَ تعالَى وَلَا يَعْصُونَهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ.

وَالقُرْآنُ مَمْلُوءٌ بِالْآيَاتِ الَّتِي تُثْبِتُ افْتِقَارَنَا إِلَى اللَّهِ عز وجل فِي اسْتِمْرَارِ بَقَائِنَا وَبَقَاءِ جِنْسِنَا البَشَرِيِّ ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، وفِي سُورَةِ النِّسَاءِ: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣]، وفِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾

---

(١) أخرجه من حديث: جبير بن مطعم رضي الله عنه البخاري في التفسير، باب تفسير سورة الطور (٤٥٧٣)، والنسائي في افتتاح الصلاة، باب القراءة في المغرب (٨٣١)، والدارمي (١٢٩٥)، وأحمد (٤/ ٨٤).

[إبراهيم: ١٩، ٢٠]، وفِي سُورَةِ المَعَارِجِ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾ [المعارج: ٤٠، ٤١]، وفِي سُورَةِ الإنْسَانِ: ﴿نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٨].

بَلْ جَاءَ النَّصُّ الصَّرِيحُ فِي القُرْآنِ عَلَى حَقِيقَةِ افْتِقَارِنَا إِلَى رَبِّنَا جَلَّ جَلَالُهُ فِي بَقَائِنَا وَبَقَاءِ جِنْسِنَا البَشَرِيِّ ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ۝١٥ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ۝١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ﴾ [فاطر: ١٥-١٧].

وَنَحْنُ مُفْتَقِرُونَ إِلَى اللَّهِ تعَالَى فِي هِدَايَتِنَا وَإِسْلَامِنَا وَإِيمَانِنَا، وَإِلَى عِبَادَتِهِ ﷻ، فَلَوْلَا اللهُ تعَالَى لَمَا كُنَّا مُسْلِمِينَ، وَلَا آمَنَّا، وَلَا صَلَّيْنَا، وَلَا صُمْنَا، وَلَا عَمِلْنَا صَالِحًا، وَلَا جَانَبْنَا المُحَرَّمَاتِ، وَلَسْنَا أَعْلَى الْبَشَرِ شَأْنًا، وَلَا أَوْفَرَهُمْ عَقْلًا، وَلَا أَشَدَّهُمْ بَأْسًا، وَلَكِنَّ اللهَ تعَالَى مَنَّ عَلَيْنَا بِالهِدَايَةِ، وَضَلَّ عَنْهَا غَيْرُنَا مِمَّنْ لَمْ يَهْتَدُوا ﴿قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ فِي الحَدِيثِ القُدُسِيِّ: «**يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ**»[٢].

وَاسْتَحَقَّ جَلَّ جَلَالُهُ أَنْ نَحْمَدَهُ وَنُكَبِّرَهُ عَلَى هَذِهِ الهِدَايَةِ؛ كَمَا جَاءَ الأَمْرُ بِذَلِكَ فِي سِيَاقِ آيَاتِ مَنَاسِكِ الحَجِّ: ﴿وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨]، وَفِي سِيَاقِ آيَاتِ الصِّيَامِ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

---

(٢) أخرجه من حديث أبي ذر رضي الله عنه في حديث طويل: مسلم في البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٢٥٧٧).

وَكَمْ مِنْ شَخْصٍ ضَلَّ الطَّرِيقَ إِلَى الْإِيمَانِ فَلَا هَادِيَ لَهُ، بَلِ الْكَثْرَةُ الكَاثِرَةُ مِنَ البَشَرِ هُمْ أَهْلُ الضَّلَالِ، وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ، وَرَبُّنَا سُبْحَانَهُ جَعَلَنَا مِنَ المُؤْمِنِينَ وَهُمُ الأَقَلُّونَ، وَاقْرَؤُوا آيَاتِ الهِدَايَةِ وَالضَّلَالِ فِي كِتَابِ اللَّهِ تعَالَى تَعْرِفُوا قَدْرَ نِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْكُمْ بِالهِدَايَةِ، وَتُدْرِكُوا مَدَى افْتِقَارِكُمْ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ فِي الثَّبَاتِ عَلَى الإِيمَانِ، فَقَدَ أَنْكَرَ ﷺ عَلَى مَنْ أَرَادَ أَنْ يَهْدِيَ مَنْ أَضَلَّهُ اللهُ، وَبَيَّنَ أَنَّ مَنْ أَضَلَّهُ اللهُ تَعَالَى فَلَنْ يُوجَدَ سَبِيلٌ إِلَى هُدَاهُ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٨٨]، وَفِي الآيَةِ الأُخْرَى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: ٤١]، وَفِي آيَةٍ ثَالِثَةٍ: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

وَلَا زِلْنَا مُفْتَقِرِينَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي الدَّيْمُومَةِ عَلَى إِيمَانِنَا، وَالثَّبَاتِ عَلَى إِسْلَامِنَا؛ فَلَا ثَبَاتَ لَنَا إِلَّا بِاللَّهِ تعالَى وَعَوْنِهِ وَتَوْفِيقِهِ؛ وَلِذَا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ عَنِ الرَّاسِخِينَ فِي العِلْمِ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨]، وَالمُصَلِّي يَتْلُو فِي كُلِّ رَكْعَةٍ هَذَا الدُّعَاءَ المُبَارَكَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

وَنَحْنُ مُفْتَقِرُونَ إِلَى اللَّهِ تعَالَى فِي رِزْقِنَا، فَمَنْ ذَا الَّذِي يَرْزُقُنَا غَيْرُ رَبِّنَا وَخَالِقِنَا، وَالمُنْعِمِ عَلَيْنَا؟ وَالخَلْقُ مَهْمَا كَانَتْ عَظَمَتُهُمْ، أَوْ بَلَغَتْ قُوَّتُهُمْ، أَوْ عَلَتْ مَكَانَتُهُمْ، لَا يَرْزُقُونَ أَنْفُسَهُمْ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَرْزُقُوا غَيْرَهُمْ، فَكُلُّهُمْ عِيَالٌ عَلَى اللَّهِ تعَالَى، يَسُوقُ إِلَيْهِمْ أَرْزَاقَهُمْ حَيْثُ كَانُوا، ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

وَقَدْ جَمَعَ اللهُ تعَالَى ذِكْرَ افْتِقَارِنَا إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ فِي الخَلْقِ وَالرِّزْقِ فِي آيَاتٍ

كَثِيرَةٍ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَا قِوَامَ لَنَا، وَلَا بَقَاءَ لِجِنْسِنَا بَعْدَ أَنْ خَلَقَنَا رَبُّنَا جَلَّ جَلَالُهُ إِلَّا بِرِزْقِهِ الَّذِي رَزَقَنَا، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠]، وَأَمَرَنَا سُبْحَانَهُ بِدَوَامِ تَذَكُّرِ هَذِهِ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ، وَعَدَمِ نِسْيَانِهَا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣].

وَلَوْ حَبَسَ عَنَّا رِزْقَهُ، فَمَنْ يَرْزُقُنَا؟ ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ [الملك: ٢١]، فَالرِّزْقُ إِنَّمَا يُطْلَبُ مِمَّنْ يَمْلِكُهُ وَيَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَرَبُّنَا جَلَّ جَلَالُهُ بِيَدِهِ خَزَائِنُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

إِنَّنَا مُفْتَقِرُون إِلَى اللَّهِ تعالَى فِي طَعَامِنَا وَشَرَابِنَا، وَكِسَائِنَا وَصِحَّتِنَا وَعِلَاجِنَا، وَفِي كُلِّ شُؤُونِنَا، وَقَدْ قَالَ اللهُ تعالَى فِي الحَدِيثِ القُدُسِيِّ: «**يَا بَنِي آدَمَ كُلُّكُمْ كَانَ ضَالًّا إِلَّا مَنْ هَدَيْتُ، وَكُلُّكُمْ كَانَ عَارِيًا إِلَّا مَنْ كَسَوْتُ، وَكُلُّكُمْ كَانَ جَائِعًا إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُ، وَكُلُّكُمْ كَانَ ظَمْآنَ إِلَّا مَنْ سَقَيْتُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، وَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، وَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، وَاسْتَسْقُونِي أَسْقِكُمْ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ بِإِسْنَادٍ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ(٣).

وَفَقْرُنَا إِلَى اللَّهِ تعالَى دَائِمٌ مَعَنَا، مُلَازِمٌ لَنَا، فَكُلُّ حَرَكَاتِنَا وَسَكَنَاتِنَا بِتَقْدِيرِ اللَّهِ تعالَى وَتَدْبِيرِهِ، أَقَرَّ بِذَلِكَ مَنْ أَقَرَّ بِهِ، فَخَضَعَ لِعِبَادَةِ مَوْلَاهُ جَلَّ جَلَالُهُ فَكَانَ مِنَ النَّاجِينَ الفَائِزِينَ، وَأَنْكَرَهُ مَنْ أَنْكَرَهُ، فَاسْتَكْبَرَ عَنْ عِبَادَتِهِ سُبْحَانَهُ فَكَانَ مِنَ الهَالِكِينَ المُعَذَّبِينَ.

---

(٣) هذه الرواية من حديث أبي ذر رضي الله عنه: لأحمد في المسند (٥/ ١٦٠)، والحديث أخرجه مسلم كما في حاشية (٢).

فَاعْرِفُوا لِلَّهِ تعَالَى حَقَّهُ، وَأَقِرُّوا بِفَضْلِهِ، وَتبَرَّؤُوا مِنْ كُلِّ حَوْلٍ وَقُوَّةٍ إِلَّا بِاللَّهِ تعَالَى؛ فِإنَّ التَّبَرُّؤَ مِنْ كُلِّ حَوْلٍ وَقُوَّةٍ إِلَّا مِنْ حَوْلِ اللَّهِ تعَالَى وَقَوَّتِهِ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ؛ لأَنَّ فِيهِ اعْتِرَافًا بِالفَقْرِ الدَّائِمِ إِلَى اللَّهِ تعَالَى؛ رَوَى أَبُو مُوسَى الأَشْعَرِيُّ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَتَى عَلَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، فَقَالَ: «**أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ هِيَ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ؟ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٤).

﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ فَتَمَتَّعُوا۟ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٥٢-٥٥].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي القُرْآنِ العَظِيمِ.

❁ ❁ ❁

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ؛ أَعْطَى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى، أَحْمَدُهُ كَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُحْمَدَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ قَيُّومُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، خَضَعَ الخَلْقُ لأَمْرِهِ، وَذَلُّوا لِسُلْطَانِهِ، وَلَمْ يَخْرُجْ أَحَدٌ عَنْ حُكْمِهِ ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٦، ١١٧].

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ كَانَ يُطِيلُ قِيَامَ اللَّيْلِ؛ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ؛

---

(٤) أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة خيبر (٣٩٦٨)، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب خفض الصوت بالذكر (٢٧٩٤).

قَالَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ رضي الله عنه: «إِنْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَيَقُومُ لِيُصَلِّيَ؛ حَتَّى تَرِمَ قَدَمَاهُ أَوْ سَاقَاهُ، فَيُقَالُ لَهُ، فَيَقُولُ: **أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**»(٥)، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- فَإِنَّكُمْ فِي لَيَالٍ عَظِيمَةٍ؛ تُغْفَرُ فِيهَا الذُّنُوبُ، وَتُرْفَعُ الدَّرَجَاتُ، وَتُسْتَجَابُ الدَّعَوَاتُ، وَتُقَالُ الْعَثَرَاتُ، وَيُعْتِقُ اللهُ تعالَى خَلْقًا كَثِيرًا مِنْ عِبَادِهِ مِنَ النَّارِ، وَفِيهَا لَيْلَةٌ مُبَارَكَةٌ، مَنْ أَدْرَكَهَا وَهُوَ عَلَى عَمَلٍ صَالِحٍ، فَقَبِلَ اللهُ تعالَى مِنْهُ، فَقَدْ نَالَ خَيْرًا عَظِيمًا، وَحَازَ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [القدر: ٣-٥].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: كَانَ تَوْجِيهُ الرُّسُلِ إِلَيْكُمْ، وَسَبِيلُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، الِافْتِقَارَ إِلَى اللَّهِ تعالَى، وَالِانْطِرَاحَ عَلَى بَابِهِ، وَالِاعْتِرَافَ لَهُ بِالْعَجْزِ وَالْفَاقَةِ وَالضَّعْفِ وَالْحَاجَةِ، وَالتَّبَرُّؤَ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ.

هَذَا خَلِيلُ الرَّحْمَنِ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام يَتَبَرَّأُ مِنْ أَصْنَامِ قَوْمِهِ، وَيُعْلِنُ فَقْرَهُ لِلَّهِ تعالَى فِي كُلِّ شُؤُونِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالأُخْرَوِيَّةِ ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٧ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٥-٨٢].

اعْتِرَافٌ مِنْهُ عليه السلام بِفَضْلِ اللَّهِ تعالَى عَلَيْهِ، وَإِعْلَانُ الْفَقْرِ وَالْحَاجَةِ إِلَيْهِ، وَتَعْدَادُ نِعَمِهِ عَلَيْهِ.

---

(٥) أخرجه البخاري في التهجد، باب قيام النبي ﷺ حتى ترم قدماه (١٠٧٨)، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار، باب إكثار العمل والاجتهاد في العبادة (٢٨١٩).
وجاء من حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري (٤٥٥٧)، ومسلم (٢٨٢٩).

وَنَبِيُّكُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ كَانَ أَشَدَّ النَّاسِ فَقْرًا إِلَى اللَّهِ تعَالَى، واعْتِرَافًا بِفَضْلِهِ، وَتَعْدَادًا لِنِعَمِهِ، وَتَعَلُّقًا بِجَنَابِهِ، وَإِلْحَاحًا فِي دُعَائِهِ، دَعَاهُ عَلَيْه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ قُبَاءٍ، فَلَمَّا طَعِمَ وَغَسَلَ يَدَيْهِ، قَالَ: «**الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ، مَنَّ عَلَيْنَا فَهَدَانَا وَأَطْعَمْنَا وَسَقَانَا، وَكُلَّ بَلَاءٍ حَسَنٍ أَبْلَانَا، الحَمْدُ لِلَّهِ غَيْرَ مُوَدَّعٍ وَلَا مُكَافِئٍ، وَلَا مَكْفُورٍ وَلَا مُسْتَغْنًى عَنْهُ، الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَ مِنَ الطَّعَامِ، وَسَقَى مِنَ الشَّرَابِ، وَكَسَا مِنَ الْعُرْيِ، وَهَدَى مِنَ الضَّلَالَةِ، وَبَصَّرَ مِنَ الْعَمَايَةِ، وَفَضَّلَ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلًا، الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**» صَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ، وَالحَاكِمُ(٦).

وَكَانَ عَلَيْه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُرَبِّي ذُرِّيَّتَهُ وَأُمَّتَهُ عَلَى دَوَامِ الِافْتِقَارِ إِلَى اللَّهِ تعَالَى، وَالإِقْرَارِ بِالْحَاجَةِ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ؛ رَوَى أَنَسٌ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِابْنَتِهِ فَاطِمَةَ ﷺ: «**مَا يَمْنَعُكِ أَنْ تَسْمَعِي مَا أُوصِيكِ بِهِ أَنْ تَقُولِي إِذَا أَصْبَحْتِ وَأَمْسَيْتِ: يَاحَيُّ يَا قَيُّومُ، بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، ولَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ**» رَوَاهُ الحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ(٧).

فَسِيرُوا -رَحِمَكُم اللهُ تعَالَى- سِيرَةَ الأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ فِي افْتِقَارِهِمْ إِلَى اللَّهِ تعَالَى، وَإِعْلَانِ الحَاجَةِ إِلَيْهِ، فَكَمْ نَحْتَاجُ إِلَى إِحْيَاءِ هَذَا الِافْتِقَارِ فِي القُلُوبِ، بَعْدَ أَنْ قَسَتْ بِالذُّنُوبِ؟

---

(٦) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: النسائي في الكبرى (١٠١٣٣)، والطبراني في الدعاء (٨٩٦)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٢٤٢)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٤٨٦)، والبيهقي في الشعب (٤٣٧٧)، وابن أبي الدنيا في الشكر(١٥)، وصححه ابن حبان (٥٢١٩)، والحاكم وقال: على شرط مسلم (١/ ٧٣١).

(٧) أخرجه النسائي في الكبرى (١٠٤٠٥)، والضياء المقدسي في المختارة (٢٣١٩)، وصححه الحاكم، وقال: على شرط الشيخين (١/ ٧٣٠).

لِنُعْلِنْ -يَا عِبَادَ اللَّهِ- فِي هَذِهِ الْعَشْرِ الْمُبَارَكَةِ فَقْرَنَا إِلَى اللَّهِ تعَالَى، وَلْنُلِحَّ عَلَيْهِ بِالدُّعَاءِ، فَمَا أَفْقَرَنَا إِلَى رَبِّنَا جَلَّ فِي عُلَاهُ! وَمَا أَحْوَجَنَا إِلَيْهِ!

إِنَّنَا مُفْتَقِرُونَ إِلَى اللَّهِ تعَالَى فِي صَلَاحِ قُلُوبِنَا، وَزَكَاءِ أَعْمَالِنَا، واسْتِقَامَتِنَا عَلَى دِينِنَا، وَكُلُّ ذَلِكَ بِيَدِ اللَّهِ تعَالَى؛ فَقُلُوبُنَا بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِهِ، يُقَلِّبُهَا كَيْفَ شَاءَ. وَمُفْتَقِرُونَ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ فِي حِفْظِ أَنْفُسِنَا وَأَوْلَادِنَا وَأَمْوَالِنَا مِنَ الأَمْرَاضِ وَالحَوَادِثِ وَالجَوَائِحِ. وَمُفْتَقِرُونَ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ فِي دَوَامِ أَمْنِنَا وَاسْتِقْرَارِنَا، وَفِي حِفْظِ بِلَادِنَا وَبِلَادِ المُسْلِمِينَ مِنْ مَشْرُوعَاتِ الكُفَّارِ وَالمُنَافِقِينَ. وَمُفْتَقِرُونَ إِلَيْهِ ﷻ فِي دَيمُومَةِ النِّعَمِ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْنَا، فَهُوَ مَنْ يَمْلِكُ بِقَاءَهَا وَزَوَالِهَا.

مَا أَفْقَرَنَا إِلَى اللَّهِ تعَالَى فِي صَلَاحِ بُيُوتِنَا، وَاسْتِقَامَةِ أَزْوَاجِنَا وَأَوْلَادِنَا عَلَى مَا يَنْفَعُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ! وَمَا أَفْقَرَنَا إِلَى عَفْوِ رَبِّنَا وَرَحْمَتِهِ؛ لِنُعْتَقَ مِنَ النَّارِ، وَيُكْتَبَ لَنَا الرِّضْوَانُ! وَلِرَبِّنَا تَبَارَكَ وَتعَالَى فِي هَذِهِ العَشْرِ المُبَارَكَةِ هِبَاتٌ وَعَطَايَا، فَمَا أَشَدَّ حَاجَتَنَا إِلَيْهَا!

فَتَعَرَّضُوا لِنَفَحَاتِ رَبِّكُمْ بِدُعَائِكُمْ وَإِلْحَاحِكُمْ، وَإِقْرَارِكُمْ بِفَقْرِكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ، وَلَا تَغْتَرُّوا بِجَاهِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَصِحَّتِكُمْ وَرَغَدِ عَيْشِكُمْ، وَمَا بُسِطَ عَلَيْكُمْ مِنَ النِّعَمِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ أَبْيَنِ الدَّلَائِلِ عَلَى فَقْرِكُمْ؛ لأَنَّكُمْ وَقَعْتُمْ فِي أَسْرِهَا، وَلَا تُطِيقُونَ فِرَاقَهَا، وَلَا يَمْلِكُ دَوَامَهَا لَكُمْ إِلَّا اللهُ تعَالَى؛ فَافْتَقِرُوا إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ يُغْنِكُمْ، وَلَا تَسْتَغْنُوا بِغَيْرِهِ فَتَهْلِكُوا.

انْطَرِحُوا عَلَى بَابِهِ فِي هَذِهِ اللَّيَالِي المُبَارَكَاتِ، خَاشِعِينَ بَاكِينَ، دَاعِينَ مُسْتَغْفِرِينَ، تُقِرُّونَ بِفَضْلِهِ وَنِعْمَتِهِ عَلَيْكُمْ، وَتَعْتَرِفُونَ بِجُرْمِكُم وَتَقْصِيرِكُمْ فِي حَقِّهِ؛ فَإِنَّ رَبَّكُمْ غَنِيٌّ حَمِيدٌ، جَوَادٌ كَرِيمٌ، إِنْ عَلِمَ صِدْقَكُمْ، وَرَأَى ذُلَّكُمْ، وَسَمِعَ

تَضَرُّعَكُمْ؛ غَفَرَ لَكُمْ، وَأَعْطَاكُمْ سُؤْلَكُمْ، وَدَفَعَ الشَّرَّ عَنْكُمْ ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .



٢٥١- رمضان والعفو (٢) (*)

٢٩/ ٩/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: لِلدُّنْيَا مُرِيدُوهَا الَّذِينَ يَسْعَوْنَ لهَا، وَيُفْنُونَ أَعْمَارَهُمْ فِي الِاسْتِمْتَاعِ بِهَا .. وَلِلْآخِرَةِ طُلَّابُهَا الَّذِينَ يَعْمَلُونَ لهَا، وَيَجْعَلُونَ الدُّنْيَا مَطِيَّتَهُمْ إِلَيْهَا ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

وَلَقَدْ كَانَ رَمَضَانُ مَوْسِمًا لِلطَّائِفَتَيْنِ، وَمَيْدَانًا لِتَنَافُسِ الْفَرِيقَيْنِ؛ فَعُبَّادُ الدُّنْيَا

(*) رمضان والعفو (١) تجدها في مجلد (٢)، خطبة رقم (٦٠).

اسْتَمْتَعُوا فِيهِ بِمَا حَلَّ وَبِمَا حَرُمَ، وَقَضَوْا لَيَالِيَهُ الْفَاضِلَةَ فِي اللَّهْوِ وَالْعَبَثِ.

وَطُلَّابُ الْآخِرَةِ عَمِلُوا فِيهِ مَا عَمِلُوا مِنْ خَيْرَاتٍ، وَاكْتَسَبُوا كَثِيرًا مِنَ الْحَسَنَاتِ، وَسَيَجِدُ الْفَرِيقَانِ جَزَاءَ مَا عَمِلُوا فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ.

وَهَا هُوَ ذَا رَمَضَانُ يَنْتَهِي عَلَى الطَّائِفَتَيْنِ سَوَاءً بِسَوَاءٍ، لَمْ يَتَقَدَّمْ لِلْعُصَاةِ دُونَ الطَّائِعِينَ، وَلَا تَأَخَّرَ عَنِ الطَّائِعِينَ دُونَ الْعَاصِينَ.

هَا هُو ذَا رَمَضَانُ يَنْتَهِي كَمَا كَانَ قَبْلَ أَيَّامٍ يَبْتَدِي، وَسَتُطْوَى صَحَائِفُهُ بِأَعْمَالِ الْعِبَادِ؛ لِيَجِدُوا مَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

فَيَا لِلَّهِ الْعَظِيمِ! كَمْ مِنْ ذَنْبٍ غُفِرَ؟ وَكَمْ مِنْ عَبْدٍ قُبِلَ؟ وَكَمْ مِنْ دَعْوَةٍ أُجِيبَتْ؟ كَمْ مِنْ رَقَبَةٍ أُعْتِقَتْ مِنَ النَّارِ؟ وَكَمْ مِنْ عِبَادٍ لِلَّهِ تَعَالَى اسْتَوْجَبُوا الْجَنَّةَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَكَانَتْ أَعْمَالُهُمْ سَبَبًا لِنَيْلِ هَذِهِ الرَّحْمَةِ؟!

وَرَبُّنَا جَلَّ فِي عُلَاهُ عَفُوٌّ كَرِيمٌ يُحِبُّ الْعَفْوَ، لَهُ الْعَفْوُ الشَّامِلُ الْكَامِلُ الَّذِي يَلِيقُ بِهِ كَرَبٍّ لِلْعَالَمِينَ، وَخَالِقٍ لِلْخَلْقِ أَجْمَعِينَ.

وَمِنْ كَمَالِ عَفْوِهِ عَنْ عِبَادِهِ: أَنَّ الْعَبْدَ مَهْمَا أَسْرَفَ عَلَى نَفْسِهِ، ثُمَّ تَابَ إِلَيْهِ؛ غَفَرَ لَهُ جَمِيعَ جُرْمِهِ ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزُّمر: ٥٣].

وَلَوْلَا كَمَالُ عَفْوِهِ، وَسَعَةُ حِلْمِهِ جَلَّ جَلَالُهُ مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ تَدِبُّ، وَلَا نَفْسٍ تَطْرِفُ؛ فَإِنَّ ذُنُوبَ الْعِبَادِ تُرْدِيهِمْ، وَتَسْتَوْجِبُ عِقَابَهُمْ وَهَلَاكَهُمْ، وَلَكِنَّ الْعَفُوَّ الْكَرِيمَ يَعْفُو عَنْهُمْ ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [النحل: ٦١]، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

وَمِنْ أَظْهَرِ الْأَدِلَّةِ عَلَى عَفْوِهِ ﷻ: قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «**لَيْسَ أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَذًى**

سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ، **إِنَّهُمْ لَيَدْعُونَ لَهُ وَلَدًا، وَإِنَّهُ لَيُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه[(١)].

إِنَّهُ سُبْحَانَهُ مَا تَرَكَ عَذَابَ النَّاسِ مِنْ عَجْزٍ عَنْهُمْ، أَوْ لِأَجْلِ حَاجَتِهِ إِلَيْهِمْ؛ بَلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، الْغَنِيُّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥]، ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٥-١٧].

وَمَا يَنْزِلُ بِالْعِبَادِ مِنْ كَوَارِثَ وَمَصَائِبَ تُصِيبُ أَفْرَادًا بِخُصُوصِهِمْ، أَوْ تُصِيبُ أُمَّةً كَامِلَةً مِنَ اضْطِرَابَاتٍ سِيَاسِيَّةٍ، أَوْ مُشْكِلَاتٍ اقْتِصَادِيَّةٍ، أَوْ تَسَلُّطِ الْأَعْدَاءِ، أَوْ أَيِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَصَائِبِ، فَهُوَ بِسَبَبِ ذُنُوبِ الْعِبَادِ، وَمَا عَفَا اللهُ تَعَالَى عَنْهُ مِنْ ذُنُوبِهِمْ أَكْثَرُ مِمَّا يُؤَاخِذُهُمْ بِهِ، وَيُعَاقِبُهُمْ عَلَيْهِ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]. قال ﷻ: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ وَمَا قَالَ: «كُلَّ الَّذِي عَمِلُوا» وَإِلَّا لَأَهْلَكَهُمْ بِهِ؛ لِأَنَّهُ يُوجِبُ هَلَاكَهُمْ مِنْ كَثْرَتِهِ وَعِظَمِهِ.

وَلَمَّا بَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ، خَاطَبَ الْعِبَادَ بِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧].

يَعْنِي سُبْحَانَهُ: أَنَّهُ لَا حَاجَةَ بِاللَّهِ أَنْ يَجْعَلَ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب، باب في الأذى (٥٧٤٨)، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار، باب: لا أحد أصبر على أذى من الله ﷻ (٢٨٠٤).

النَّارِ، وَلَا أَنْ يُعَذِّبَ عِبَادَهُ بِأَيِّ عَذَابٍ إِذَا أَنَابُوا إِلَى طَاعَتِهِ، وَعَمِلُوا بِأَوَامِرِهِ، وَتَرَكُوا مَا نَهَاهُمْ عَنْهُ؛ لِأَنَّهُ ﷻ لَا يَجْتَلِبُ بِعَذَابِ خَلْقِهِ إِلَى نَفْسِهِ نَفْعًا، وَلَا يَدْفَعُ عَنْهَا ضُرًّا، وَإِنَّمَا عُقُوبَتُهُ مَنْ عَاقَبَ مِنْ خَلْقِهِ جَزَاءً مِنْهُ لَهُ عَلَى جَرَاءَتِهِ عَلَيْهِ، وَعُقُوبَةً عَلَى مُخَالَفَتِهِ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ، وَكُفْرَانِهِ نِعَمَهُ عَلَيْهِ، فَإِنْ أَنْتُمْ شَكَرْتُمْ لَهُ عَلَى نِعَمِهِ، وَأَطَعْتُمُوهُ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ فَلَا حَاجَةَ بِهِ إِلَى تَعْذِيبِكُمْ، بَلْ يَشْكُرُ لَكُمْ مَا يَكُونُ مِنْكُمْ مِنْ طَاعَةٍ لَهُ بِمُجَازَاتِكُمْ عَلَى ذَلِكَ أَعْظَمَ الثَّوَابِ وَأَجْزَلَهُ[٢].

وَالْيَقِينُ بِعَفْوِ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِحْسَانُ الظَّنِّ بِهِ، مَعَ الْأَخْذِ بِأَسْبَابِ الْعَفْوِ؛ مِنْ فِعْلِ الْأَوَامِرِ، وَاجْتِنَابِ النَّوَاهِي، وَلُزُومِ التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ هُوَ طَرِيقُ الصَّالِحِينَ مِنَ الْبَشَرِ؛ فَإِنَّهُمْ يَأْمُلُونَ بِعَفْوِ اللَّهِ ﷻ مَعَ سَعْيِهِمْ فِي تَحْصِيلِ الْأَسْبَابِ الَّتِي يَنَالُونَ بِهَا عَفْوَهُ وَمَغْفِرَتَهُ.

قَالَ بَكْرُ بْنُ سُلَيْمَانَ الصَّوَّافُ: «دَخَلْنَا عَلَى مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ فِي الْعَشِيَّةِ الَّتِي قُبِضَ فِيهَا، فَقُلْنَا: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، كَيْفَ تَجِدُكَ؟ قَالَ: مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لَكُمْ، إِلَّا أَنَّكُمْ سَتُعَايِنُونَ غَدًا مِنْ عَفْوِ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُنْ لَكُمْ فِي حِسَابٍ، قَالَ: ثُمَّ مَا بَرِحْنَا حَتَّى أَغْمَضْنَاهُ»[٣].

وَرَمَضَانُ الْمُبَارَكُ وَعَشْرُهُ الْأَخِيرَةُ مِنْ أَكْبَرِ مَوَاسِمِ عَفْوِ الْعَفُوِّ الْكَرِيمِ الَّذِي يُحِبُّ الْعَفْوَ؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ يَجُودُ عَلَى عِبَادِهِ بِعَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَأَوْلَى النَّاسِ بِذَلِكَ مَنْ تَعَرَّضُوا لِعَفْوِهِ، بِالْقِيَامِ بِحَقِّهِ ﷻ عَلَيْهِمْ فِي صَلَاتِهِمْ وَقِيَامِهِمْ، وَذِكْرِهِمْ وَدُعَائِهِمْ.

وَلَيْلَةُ الْقَدْرِ هِيَ أَعْظَمُ لَيْلَةٍ لِلْعَفْوِ فِي رَمَضَانَ، وَالْعَفُوُّ الْكَرِيمُ يَعْفُو فِيهَا عَنْ

---

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٥/ ٣٤٠).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله (٨٦).

كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ مِمَّنِ اسْتَوْجَبُوا عِقَابَهُ، وَلِذَا خُصَّتْ بِسُؤَالِ اللَّهِ تَعَالَى الْعَفْوَ؛ كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ عَلِمْتُ أَيَّ لَيْلَةٍ لَيْلَةُ الْقَدْرِ مَا أَقُولُ فِيهَا؟ قَالَ: «**قُولِي: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ كَرِيمٌ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي**» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ(٤).

وَهَذَا الدُّعَاءُ الْمُبَارَكُ مِنْ أَوْجَزِ الدُّعَاءِ وَأَنْفَعِهِ، بَلْ تَنْتَظِمُ بِهِ مَصَالِحُ الْعِبَادِ وَالْبِلَادِ، وَالْأَفْرَادِ وَالْجَمَاعَاتِ، وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ فَالْأُمَمُ يَحِقُّ عَلَيْهَا الْعَذَابُ وَالْهَلَاكُ بِعَمَلِ أَفْرَادِهَا، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا، وَالْفَرْدُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَسْتَوْجِبُ عُقُوبَةَ اللَّهِ تَعَالَى بِتَرْكِهِ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَارْتِكَابِ نَهْيِهِ، فَإِذَا سَأَلَ الْمُسْلِمُ رَبَّهُ الْعَفْوَ فَقَبِلَ مِنْهُ لِإِتْيَانِهِ بِأَسْبَابِ الْقَبُولِ رَفَعَ عَنْهُ الْعُقُوبَةَ .. فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ الْمُسْلِمُونَ -وَهُمْ يَفْعَلُونَهُ فِي رَمَضَانَ بِدُعَائِهِمْ فِي قُنُوتِهِمْ وَسُجُودِهِمْ يَسْأَلُونَ رَبَّهُمُ الْعَفْوَ- وَاسْتَجَابَ اللهُ تَعَالَى لَهُمْ رَفَعَ عَنْهُمُ الْعَذَابَ فِي الدُّنْيَا، فَزَالَتْ عَنْهُمُ الْمَصَائِبُ، وَفُرِجَتْ هُمُومُهُمْ، وَكُشِفَتْ غُمُومُهُمْ، وَحُلَّتْ مُشْكِلَاتُهُمْ.

وَعَفْوُ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ عِبَادِهِ يَسْتَلْزِمُ عَدَمَ مُؤَاخَذَتِهِمْ فِي الْآخِرَةِ، وَسَلَامَتِهِمْ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، وَذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ الْفَوْزِ وَالْفَلَاحِ؛ فَانْتَظَمَتْ بِهَذَا الدُّعَاءِ الْمُبَارَكِ مَصَالِحُ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَمَنْ يُفَرِّطُ فِي مِثْلِ هَذَا الدُّعَاءِ الْمُبَارَكِ إِلَّا مَحْرُومٌ؟! وَمَنْ يَسْتَبْدِلُ بِهِ أَدْعِيَةً مَسْجُوعَةً مُتَكَلَّفَةً إِلَّا مَنْ يَسْتَبْدِلُ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ؟!

---

(٤) أخرجه الترمذي في الدعوات، باب (٨٥) وقال: حديث حسن صحيح (٣٥١٣)، والنسائي في الكبرى (٧٧١٢)، وأحمد (٦/ ١٨٣)، وإسحاق بن راهويه (١٣٦١)، والقضاعي في مسند الشهاب (١٤٧٤).

وجاء هذا الدعاء بسند ضعيف من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عند: أبي يعلى (١٠٢٣)، والطبراني في الأوسط (٧٧٤٦)، ولم يذكر فيه رمضان ولا ليلة القدر.

نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى صَلَاحَ الْقُلُوبِ، وَقَبُولَ الأَعْمَالِ، وَاسْتِجَابَةَ الدُّعَاءِ، اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ كَرِيمٌ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنَّا.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٨، ١٤٩].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ..

❁ ❁ ❁

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاشْكُرُوا اللهَ الَّذِي بَلَّغَكُمْ رَمَضَانَ، وَسَلُوهُ قَبُولَ الأَعْمَالِ، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وَمِنْ شُكْرِ اللَّهِ ﷻ: تَكْبِيرُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلإِسْلَامِ، وَوَفَّقَنَا لِلصِّيَامِ وَالْقِيَامِ، وَيَبْتَدِئُ التَّكْبِيرُ مِنْ غُرُوبِ شَمْسِ آخِرِ يَوْمٍ مِنْ رَمَضَانَ، أَيْ: لَيْلَةَ الْعِيدِ، يَجْهَرُ بِهِ الرِّجَالُ فِي مَسَاجِدِهِمْ وَأَسْوَاقِهِمْ وَبُيُوتِهِمْ وَطُرُقَاتِهِمْ.

وَمِنْ شُكْرِهِ ﷻ: إِخْرَاجُ زَكَاةِ الْفِطْرِ؛ طُهْرَةً لِلصَّائِمِ مِنَ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ، وَطُعْمَةً لِلْمَسَاكِينِ، فَمَنْ أَدَّاهَا قَبْلَ صَلَاةِ الْعِيدِ فَهِيَ زَكَاةٌ مَقْبُولَةٌ، وَمَنْ أَدَّاهَا بَعْدَ الصَّلَاةِ

فَهِيَ صَدَقَةٌ مِنَ الصَّدَقَاتِ، وَيَأْثَمُ مَنْ أَخَّرَهَا إِلَى مَا بَعْدَ الصَّلَاةِ إِنْ لَمْ يَكُنْ مَعْذُورًا بِعُذْرٍ مُعْتَبَرٍ شَرْعًا.

وَوَقْتُ إِخْرَاجِهَا الْفَاضِلُ: مَا بَيْنَ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْعِيدِ، وَيَجُوزُ تَقْدِيمُهَا قَبْلَ الْعِيدِ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ .. يُخْرِجُهَا رَبُّ الْأُسْرَةِ عَنْ نَفْسِهِ وَعَمَّنْ تَلْزَمُهُ نَفَقَتُهُ، وَمَنْ كَانَ مُكْتَسِبًا مِنَ الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ، فَالْأَفْضَلُ أَنْ يُخْرِجَهَا كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَنْ نَفْسِهِ .. وَهِيَ صَاعٌ بِالصَّاعِ النَّبَوِيِّ مِنْ بُرٍّ أَوْ شَعِيرٍ أَوْ تَمْرٍ أَوْ أَقِطٍ أَوْ زَبِيبٍ أَوْ طَعَامٍ يَقْتَاتُهُ النَّاسُ.

وَالْعِيدُ مِنْ شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ الْعِظَامِ، وَلَيْسَ لِلْمُسْلِمِينَ إِلَّا عِيدَانِ حَوْلِيَّانِ: الْفِطْرُ وَالْأَضْحَى، وَعِيدٌ أُسْبُوعِيٌّ: الْجُمُعَةُ. وَهَذِهِ الْأَعْيَادُ الثَّلَاثَةُ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى هَدَى لَها أَهْلَ الْإِسْلَامِ، وَحَرَمَ مِنْهَا أَهْلَ الْكِتَابِ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ، وَالنَّبِيُّ ﷺ لمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ وَجَدَ لِلْأَنْصَارِ عِيدَيْنِ يَلْعَبُونَ فِيهِمَا، فَقَالَ: «**إِنَّ اللهَ قَدْ أَبْدَلَكُمْ بِخَيْرٍ مِنْهُمَا عِيدَ الْفِطْرِ وَعِيدَ الْأَضْحَى**»[٥].

وَلِلْعِيدِ صَلَاةٌ عَظِيمَةٌ هِيَ مِنْ أَجَلِّ الشَّعَائِرِ، وَأَفْضَلِ الْعِبَادَاتِ، فَيَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ الْحِرْصُ عَلَى أَدَائِهَا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا سِيَّمَا أَنَّ جَمْعًا مِنَ الْمُحَقِّقِينَ قَالُوا بِفَرْضِيَّتِهَا عَلَى آحَادِ النَّاسِ.

وَلِتَأْكِيدِهَا وَأَهَمِّيَّتِهَا فِي دِينِ الْإِسْلَامِ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِإِخْرَاجِ النِّسَاءِ لَهَا، وَلَمْ يَسْتَثْنِ إِلَّا الْحُيَّضَ فَيَخْرُجْنَ وَيَعْتَزِلْنَ الْمُصَلَّى، وَيَشْهَدْنَ جَمْعَ الْمُسْلِمِينَ[٦]، وَمَا

---

(٥) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب صلاة العيدين (١١٣٤)، والنسائي في صلاة العيدين (٣/ ١٧٩)، وأحمد (٣/ ١٠٣، ١٧٨، ٢٣٥، ٢٥٠)، وعبد بن حميد (١٣٩٢)، وأبو يعلى (٣٨٢٠، ٣٨٤١)، والحاكم وصَحَّحَهُ وقال: عَلَى شرط مسلم ووافقه الذهبي (١/ ٤٣٤)، وصححه الحافظ في الفتح (٢/ ٤٤٢).

(٦) جاء ذلك في حديث أم عَطِيَّة رضي الله عنها قالت: «أُمِرْنَا أَنْ نَخْرُجَ فَنُخْرِجَ الْحُيَّضَ وَالْعَوَاتِقَ =

ذَاكَ إِلَّا لِعَظِيمِ أَمْرِ هَذِهِ الصَّلَاةِ الْحَوْلِيَّةِ الَّتِي تَسَاهَلَ بِشَأْنِهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، وَمَنْ لَمْ يَخْرُجْ إِلَيْهَا فَإِنَّهُ لَا يُصَلِّيهَا فِي بَيْتِهِ، وَمَنْ فَاتَتْهُ فَلَا يَقْضِيهَا عَلَى الصَّحِيحِ(٧).

وَالسُّنَّةُ أَنْ لَا يَخْرُجَ فِي عِيدِ الْفِطْرِ إِلَى الْمُصَلَّى حَتَّى يَأْكُلَ تَمَرَاتٍ، وَيَأْكُلُهُنَّ وِتْرًا كَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَفْعَلُ(٨).

وَحِكْمَةُ ذَلِكَ: امْتِثَالُ السُّنَّةِ، وَتَأْكِيدُ الْإِفْطَارِ فِي يَوْمِ عِيدِ الْفِطْرِ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ؛ لِأَنَّهُ يَحْرُمُ صِيَامُهُ. فَالْيَوْمُ الَّذِي قَبْلَهُ كَانَ يَحْرُمُ فِطْرُهُ فِي النَّهَارِ، وَفِي يَوْمِ الْعِيدِ يَجِبُ أَنْ يُفْطِرَ، فَيُثْبِتُ الْمُسْلِمُ بِذَلِكَ عُبُودِيَّتَهُ لِلَّهِ تَعَالَى، وَتَمَامَ خُضُوعِهِ لِشَرِيعَتِهِ، فَهُوَ يَصُومُ بِأَمْرِهِ، وَيُفْطِرُ بِأَمْرِهِ.

وَيَتَجَمَّلُ يَوْمَ الْعِيدِ، وَيَتَطَيَّبُ، وَيَلْبَسُ أَحْسَنَ ثِيَابِهِ؛ لِأَنَّهُ يَوْمُ فَرَحٍ وَسُرُورٍ بِطَاعَةِ اللَّهِ ﷻ، وَبِخِتَامِ الشَّهْرِ، وَإِتْمَامِ الصِّيَامِ.

وَيَخْرُجُ الْمُسْلِمُ لِمُصَلَّى الْعِيدِ مَاشِيًا إِنْ تَيَسَّرَ لَهُ ذَلِكَ؛ لِقَوْلِ عَلِيٍّ رضي الله عنه: «السُّنَّةُ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْعِيدِ مَاشِيًا» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ(٩).

= وَذَوَاتِ الخُدُورِ، فأمَّا الحيَّضُ فَيَشْهَدْنَ جَمَاعَةَ المُسْلِمِينَ ودَعْوَتَهُمْ، ويَعْتَزِلْنَ مُصَلَّاهُمْ» أخرجه البُخَارِيّ في العيدين، باب اعتزال الحيض المصلى(٩٣٨)، ومسلم في صلاة العيدين، باب ذكر إباحة خروج النساء في العيدين إلى المصلى وشهود الخطبة مفارقات للرجال (٨٩٠).

(٧) ينظر: فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٤/ ١٨١).

(٨) كما في حديث أنس رضي الله عنه قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لا يَغْدُو يَوْمَ الْفِطْرِ حَتَّى يَأْكُلَ تمرَاتٍ وَيَأْكُلُهُنَّ وِتْرًا» أخرجه البخاري في العيدين، باب الأكل يوم الفطر قبل الخروج (٩١٠)، والترمذي في العيدين، باب ما جاء في الأكل يوم الفطر قبل الخروج (٥٤٣)، وابن ماجه في الصيام، باب الأكل يوم الفطر قبل الخروج (١٧٥٩).

(٩) أخرجه الترمذي في العيدين، باب ما جاء في المشي يوم العيد، وحسنه (٥٣٠)، والبيهقي (٣/ ٢٨١)، وعبد الرزاق (٥٦٦٧)، وابن أبي شيبة (١/ ٤٨٦).

وله شاهد من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عند: ابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما =

وَيُكَبِّرُ وَيَجْهَرُ بِتَكْبِيرِهِ إِلَى أَنْ يَشْرَعَ فِي الصَّلَاةِ، وَالتَّكْبِيرُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ أَفْضَلُ مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ؛ لِأَنَّ التَّكْبِيرَ عِبَادَةُ ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَإِذَا حَضَرَ الْمُصَلَّى صَلَّى تَحِيَّةَ الْمَسْجِدِ قَبْلَ أَنْ يَجْلِسَ، ثُمَّ يَشْتَغِلُ بِالتَّكْبِيرِ.

وَإِذَا صَلَّى الْمُسْلِمُونَ الْعِيدَ شُرِعَ لَهُمُ التَّهْنِئَةُ بِهِ عَلَى إِكْمَالِ الْعِدَّةِ، وَإِتْمَامِ النِّعْمَةِ؛ شُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى، وَاعْتِرَافًا بِفَضْلِهِ، وَلِإِزَالَةِ مَا قَدْ يَكُونُ فِي الْقُلُوبِ مِنَ الشَّحْنَاءِ؛ فَإِنَّ سَلَامَ النَّاسِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ سَبَبٌ لِلتَّحَابِّ بَيْنَهُمْ.

وَالسُّنَّةُ أَنْ يَرْجِعَ مِنْ طَرِيقٍ أُخْرَى غَيْرِ الطَّرِيقِ الَّتِي ذَهَبَ مِنْهَا إِلَى الْمُصَلَّى؛ لِمَا ثَبَتَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ «كَانَ إِذَا خَرَجَ يَوْمَ الْعِيدِ خَالَفَ الطَّرِيقَ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[(١٠)].

وَاحْذَرُوا -عِبَادَ اللَّهِ- مِنَ الْمُنْكَرَاتِ فِي الْعِيدِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ كُفْرَانِ النِّعْمَةِ، وَاحْفَظُوا نِسَاءَكُمْ مِنَ التَّبَرُّجِ وَالسُّفُورِ، أَوِ الْخُرُوجِ إِلَى مُصَلَّى الْعِيدِ وَهُنَّ مُتَعَطِّرَاتٌ؛ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ خَطَرًا عَلَى دِينِهِنَّ، وَسَبَبًا لِفِتْنَةِ الرِّجَالِ بِهِنَّ، وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ فِي رَمَضَانَ وَفِي شَوَّالٍ وَفِي كُلِّ الشُّهُورِ وَالْأَعْوَامِ.

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يُخْلِفَ عَلَيْنَا رَمَضَانَ بِخَيْرٍ، وَأَنْ يُعِيدَهُ عَلَيْنَا وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ أَعْوَامًا عَدِيدَةً، فِي أَعْمَارٍ مَدِيدَةٍ، وَحَيَاةٍ سَعِيدَةٍ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ.

= جاء في الخروج إلى العيد ماشيًا (١٢٩٥).

وشاهد آخر من حديث ابن أبي رافع عن أبيه عن جَدِّهِ عِنْدَ: ابن ماجه أيضًا (١٢٩٧) وفيه آثار عن السلف الصالح ﷺ.

(١٠) أخرجه من حديث جابر ﷺ: البخاري في العيدين، باب من خالف الطريق إذا رجع يوم العيد (٩٤٣).

٢٥٢- العشر والدعاء (٣) (*)

٢٢/ ٩/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ يَسْمَعُ كُلَّ شَكْوَى، وَهُوَ مُنْتَهَى كُلِّ نَجْوَى، وَيَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى، أَحْمَدُهُ حَمْدًا كَالَّذِي نَقُولُ، وَخَيْرًا مِمَّا نَقُولُ ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠].

وَأَسْتَغْفِرُهُ لِي وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ؛ فَقَدْ كَثُرَ عِصْيَانُنَا، وَقَلَّ اسْتِغْفَارُنَا، وَثَقُلَتْ عَنِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ نُفُوسُنَا، فَنَسْتَغْفِرُكَ اللَّهُمَّ لِكُلِّ ذُنُوبِنَا.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَخَالِقُ النَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَصَفِيُّهُ وَخَلِيلُهُ «كَانَ إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ شَدَّ مِئْزَرَهُ، وَأَحْيَا لَيْلَهُ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ»[١] صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ؛ فَإِنَّكُمْ فِي دَارِ الْعَمَلِ وَالإِمْهَالِ، وَقَرِيبًا تُفَارِقُونَهَا إِلَى دَارِ الْجَزَاءِ وَالْقَرَارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: عَيْشُ الْمَرْءِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فُرْصَةٌ وَاحِدَةٌ، مَنْ ضَيَّعَهَا شَقِيَ أَبَدًا، وَمَنِ اسْتَثْمَرَهَا سَعِدَ أَبَدًا.

(*) العشر والدعاء (١) تجدها في مجلد (٢)، خطبة رقم (٦١)، و(٢) تجدها في مجلد (٢)، خطبة رقم (٦٢).

(١) أخرجه من حديث عائشة ﵂: البخاري في صلاة التراويح، باب العمل في العشر الأواخر من رمضان (١٩٢٠)، ومسلم في الاعتكاف، باب الاجتهاد في العشر الأواخر من شهر رمضان (١١٧٤).

وَكَمَا أَنَّ فِي أَعْمَالِ الدُّنْيَا مِنْ تِجَارَةٍ وَصِنَاعَةٍ وَغَيْرِهَا فُرَصًا سَانِحَةً، وَمَجَالَاتٍ لِلرِّبْحِ الْعَظِيمِ، يَفُوزُ بِهَا مَنْ يَفُوزُ، وَتَفُوتُ مَنْ ضَيَّعَهَا؛ فَكَذَلِكَ أَعْمَالُ الْآخِرَةِ فِيهَا فُرَصٌ أَيُّ فُرَصٍ، وَمَجَالَاتٌ لِلْكَسْبِ الْعَظِيمِ، وَالْأَجْرِ الْكَبِيرِ، فِي أَزْمِنَةٍ مَخْصُوصَةٍ، وَأَعْمَالٍ مَشْرُوعَةٍ، وَمَا عَشْرُ رَمَضَانَ إِلَّا فُرْصَةٌ مِنْ فُرَصِ الْآخِرَةِ، مَنِ اعْتَنَى بِهَا اعْتَنَى بِعَظِيمٍ، وَرَبِحَ كَثِيرًا، وَمَنْ فَاتَتْهُ أَوْ شُغِلَ عَنْهَا بِغَيْرِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَقَدْ فَاتَهُ خَيْرٌ كَثِيرٌ، وَاشْتَغَلَ بِمَا لَا يَدُومُ عَمَّا يَدُومُ، وَأَيُّ خَسَارَةٍ أَعْظَمُ مِنْ تِلْكَ الخَسَارَةِ؟!

إِنَّ رَبَّنَا جَلَّ جَلَالُهُ شَرَعَ الْعَمَلَ الصَّالِحَ فِي هَذِهِ الْعَشْرِ لِيَغْفِرَ لَنَا، وَيَرْحَمَنَا، وَيُعْتِقَنَا مِنَ النَّارِ، وَهُوَ غَنِيٌّ عَنَّا وَنَحْنُ مُفْتَقِرُونَ إِلَيْهِ، قَدْ أَنْعَمَ عَلَيْنَا نِعَمًا لَا نُحْصِيهَا، وَرَفَعَ عَنَّا مِنَ الْبَلَاءِ مَا لَا نَعْلَمُهُ، وَكَثِيرٌ مِنَّا مَا شَكَرُوا نِعَمَهُ الْعَظِيمَةَ، وَلَكِنْ إِذَا أَحَاطَتْ بِهِمُ الْبَلَايَا، أَوْ نَزَلَتْ بِهِمُ المَصَائِبُ تَذَكَّرُوا رَبَّهُمْ، فَهَرِعُوا إِلَيْهِ يَسْأَلُونَهُ رَفْعَ بَلَائِهِمْ، وَكَشْفَ ضَرَّائِهِمْ.

تَأَمَّلُوا مَعِي -أَيُّهَا الصَّائِمُونَ- قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]. ذَكَرَ النِّعْمَةَ مُنَكَّرَةً؛ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ نِعْمَةً وَاحِدَةً وَإِنَّمَا نِعَمٌ لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى، كُلُّ ذَلِكَ يَنْسَاهُ الْإِنْسَانُ! فَإِذَا أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ خَفِيفَةٌ عَبَّرَ عَنْهَا بِالمَسِّ، وَأَدْخَلَ عَلَيْهَا (أل) التَّعْرِيفِ؛ لِأَنَّهُ ضُرٌّ وَاحِدٌ خَفِيفٌ؛ لَجَأَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى يَسْأَلُهُ كَشْفَهُ.

إِنَّ الْبَشَرَ يَهْرَعُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي أَقَلِّ ضُرٍّ يَمَسُّهُمْ، وَيَنْسَوْنَ شُكْرَهُ عَلَى عَظِيمِ النِّعَمِ[٢].

وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ عَفُوٌّ كَرِيمٌ رَحِيمٌ، يَرْحَمُ عِبَادَهُ وَيَكْشِفُ ضُرَّهُمْ،

---

(٢) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (١٧/ ١٢٧).

وَيَسْتَجِيبُ دُعَاءَهُمْ، وَالدُّعَاءُ سِلَاحُ الْمُؤْمِنِ، وَهُوَ الْعِبَادَةُ، لَجَأَ إِلَيْهِ خِيرَةُ الْخَلْقِ، وَأَفَاضِلُ الْبَشَرِ: الْأَنْبِيَاءُ وَالْمُرْسَلُونَ ﷺ.

فَخَلِيلُ الرَّحْمَنِ إِبْرَاهِيمُ ﷺ لَمَّا قَذَفَهُ قَوْمُهُ فِي النَّارِ قَالَ: «حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»[٣]، فَكَانَتْ نَتِيجَةُ ذَلِكَ ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

وَأَيُّوبُ ﷺ كَانَ كَثِيرَ الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ وَالمَالِ؛ فَابْتُلِيَ بِذَهَابِ ذَلِكَ، حَتَّى نَالَهُ الْبَلَاءُ فِي جَسَدِهِ، وَمَا سَلِمَ إِلَّا قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ، وَاسْتَمَرَّ بَلَاؤُهُ سَنَوَاتٍ عِدَّةً، جَفَاهُ فِيهَا الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ إِلَّا امْرَأَةً لَهُ كَانَتْ تَقُومُ عَلَيْهِ وَتُطْعِمُهُ وَهُوَ مُمَدَّدٌ فِي الْعَرَاءِ، وَكُلُّ مَنْ مَرَّ بِهِ يَسْتَقْذِرُهُ مِمَّا فِي جَسَدِهِ مِنْ قُرُوحٍ وَصَدِيدٍ، وَهُوَ فِي بَلَائِهِ لَا يَفْتُرُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَشُكْرِهِ عَلَى نِعَمِهِ[٤].

فَلَمَّا عَظُمَتْ مِحْنَتُهُ، وَاشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَطَالَ سَقَمُهُ؛ دَعَا اللهَ ﷻ بِأُسْلُوبٍ فِي غَايَةِ الْأَدَبِ مَعَ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]. عَبَّرَ فِي دُعَائِهِ بِالمَسِّ وَهُوَ الْإِصَابَةُ الْخَفِيفَةُ؛ لِأَنَّهُ ﷺ نَظَرَ إِلَى نِعَمِ اللَّهِ ﷻ، فَمَا وَجَدَ بَلَاءَهُ رَغْمَ شِدَّتِهِ شَيْئًا يُذْكَرُ أَمَامَ تِلْكَ النِّعَمِ، وَعَرَّضَ بِطَلَبِ زَوَالِ هَذَا الضُّرِّ وَلَمْ يُصَرِّحْ بِهِ فَقَالَ: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، فَوَصَفَ نَفْسَهُ بِمَا تَقْتَضِي الرَّحْمَةُ لَهُ، وَوَصَفَ رَبَّهُ بِالْأَرْحَمِيَّةِ تَعْرِيضًا بِسُؤَالِهِ[٥].

فَكَانَتْ نَتِيجَةُ هَذَا الدُّعَاءِ المُبَارَكِ ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ

---

(٣) أخرجه من حديث ابن عباس ﭭ البخاري في التفسير باب ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ [آل عمران: ١٧٢] (٤٢٨٧).

(٤) ينظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٠١-٣٠٢).

(٥) ينظر: التحرير والتنوير (١٧/ ١٢٧).

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤].

لَقَدْ جَرَتِ الْعَادَةُ أَنَّ الْأَمْرَاضَ وَالْعِلَلَ تَزُولُ شَيْئًا شَيْئًا، وَلَكِنْ لِسُرْعَةِ اسْتِجَابَةِ اللَّهِ تَعَالَى لِعَبْدِهِ أَيُّوبَ عليه السلام زَالَ مَا بِهِ فِي لَحْظَةٍ ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ [الأنبياء: ٨٤]، وَالْكَشْفُ يُسْتَعْمَلُ فِي الْإِزَالَةِ السَّرِيعَةِ، فَشُبِّهَتْ إِزَالَةُ الْأَمْرَاضِ وَالْأَضْرَارِ الْمُتَمَكِّنَةِ الَّتِي يُعْتَادُ أَنَّهَا لَا تَزُولُ إِلَّا بِطُولِ وَقْتٍ بِإِزَالَةِ الْغِطَاءِ مِنَ الشَّيْءِ فِي السُّرْعَةِ(٦).

حَتَّى إِنَّ امْرَأَتَهُ لَمَّا جَاءَتْ تُطْعِمُهُ عَلَى عَادَتِهَا لَمْ تَعْرِفْهُ، فَأَخْبَرَهَا أَنَّهُ أَيُّوبُ عليه السلام(٧).

فَالْبَلَاءُ قَدْ يَطُولُ، لَكِنَّ أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ إِذَا أَذِنَ بِالْفَرَجِ جَاءَ بِأَسْرَعَ مِمَّا يَظُنُّ النَّاسُ.

وَيُونُسُ عليه السلام ابْتَلَاهُ اللهُ تَعَالَى بِحُوتٍ ابْتَلَعَهُ، وَضُيِّقَ عَلَيْهِ فِي بَطْنِهِ، فَاجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ ظُلْمَةُ اللَّيْلِ، وَظُلْمَةُ الْبَحْرِ، وَظُلْمَةُ بَطْنِ الْحُوتِ ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. فَكَانَ جَوَابُ دَعْوَتِهِ الْمُبَارَكَةِ: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨].

وَمَنِ ابْتَلَعَهُ حُوتٌ حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي بَطْنِهِ هَلْ يَظُنُّ أَنَّهُ نَاجٍ لَوْلَا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَمَنْ نَجَّى يُونُسَ وَأَخْرَجَهُ مِنْ بَطْنِ الْحُوتِ أَلَيْسَ قَادِرًا عَلَى إِزَالَةِ كُلِّ هَمٍّ، وَكَشْفِ كُلِّ كَرْبٍ، وَرَفْعِ كُلِّ بَلَاءٍ؟! بَلَى وَرَحْمَةِ رَبِّنَا الرَّحِيمِ الْقَدِيرِ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨]، مَهْمَا عَظُمَتْ كُرُوبُهُمْ، وَاشْتَدَّ بَلَاؤُهُمْ، وَتَوَالَتْ مَصَائِبُهُمْ.

(٦) المصدر السابق (١٧/ ١٢٧).

(٧) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٠٣).

مَا أَحْوَجَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى اسْتِحْضَارِ هَذَا الْمَعْنَى فِي هَذَا الزَّمَنِ الْعَصِيبِ! فَلَا يَيْأَسُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا يَنْقَطِعُ رَجَاؤُهُمْ بِهِ، وَلَا يَهْجُرُوا دُعَاءَهُ مُسْتَبْطِئِينَ الْإِجَابَةَ، بَلْ كُلَّمَا اشْتَدَّتِ الْمِحَنُ، وَعَظُمَتِ الْفِتَنُ ازْدَادُوا إِلْحَاحًا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مُوقِنِين أَنَّ فَرَجَهُ قَرِيبٌ.

وَهَكَذَا كَانَتِ اسْتِجَابَةُ اللَّهِ تَعَالَى لِدُعَاءِ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ عليهم السلام، كَانَتْ فِي أَوْجِ الشِّدَّةِ، وَمُنْتَهَى الِابْتِلَاءِ.

وَلَيْسَ ذَلِكَ خَاصًّا بِالْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام، بَلْ هُوَ عَامٌّ لِلْمُؤْمِنِينَ بِنَصِّ الْقُرْآنِ ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣].

وَتَأَمَّلُوا مَعِي سُرْعَةَ اسْتِجَابَةِ اللَّهِ تَعَالَى لِخَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ رضي الله عنها حِينَ اشْتَدَّتْ كُرْبَتُهَا، وَعَظُمَتْ مِحْنَتُهَا، فَبَثَّتْ شَكْوَاهَا لِلَّهِ تَعَالَى، وَأَبْلَغَتْ بِهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَجَاءَهَا الْفَرَجُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الْفَوْرِ بِرِسَالَةٍ يَحْمِلُهَا جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها تَحْكِي قِصَّتَهَا: «تَبَارَكَ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ كُلَّ شَيْءٍ، إِنِّي لَأَسْمَعُ كَلَامَ خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ، وَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُهُ وَهِيَ تَشْتَكِي زَوْجَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهِيَ تَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَكَلَ شَبَابِي، وَنَثَرْتُ لَهُ بَطْنِي، حَتَّى إِذَا كَبِرَتْ سِنِّي، وَانْقَطَعَ لَهُ وَلَدِي؛ ظَاهَرَ مِنِّي، اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَمَا بَرِحَتْ حَتَّى نَزَلَ جِبْرِيلُ عليه السلام بِهَؤُلَاءِ الْآيَاتِ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ وَاللَّفْظ له[٨].

---

(٨) أخرجه البخاري مختصرًا معلقًا في التوحيد باب قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤] (٦/ ٢٦٨٩)، ووصله النسائي في الطلاق، باب الظهار (٦/ ١٦٨)، وابن ماجه -واللفظ له- في الطلاق، باب الظهار (٢٠٦٣)، وأحمد (٦/ ٤٦)، وعبد بن حميد (١٥١٤)، وأبو يعلى (٤٧٨٠)، والحاكم وصححه (٢/ ٥٢٤).

عَائِشَةُ رضي الله عنها مَا سَمِعَتْ كَامِلَ كَلَامِهَا، وَهِيَ بِجِوَارِهَا! وَرَبُّنَا جَلَّ جَلَالُهُ سَمِعَ شَكْوَاهَا، وَاسْتَجَابَ دُعَاءَهَا مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ، فَهَلْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ؟ وَهَلْ يَكْسَلُ عَنْ دُعَائِهِ إِلَّا المَحْرُومُونَ؟

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَلَّا يَحْرِمَنَا فَضْلَهُ، وَأَنْ يُسْبِغَ عَلَيْنَا نِعَمَهُ، وَأَنْ يَرْفَعَ عَنَّا النِّقَمَ، وَأَنْ يَقْبَلَ صِيَامَنَا، وَقِيَامَنَا، وَدُعَاءَنَا، وَأَنْ يَجْعَلَنَا مِنَ المُفْلِحِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، إِنَّهُ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ ..

❊ ❊ ❊

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، يُجِيبُ المُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ، فَيَرْفَعُ عَنْهُ الْبَلَاءَ، لَا يَخِيبُ مَنْ رَجَاهُ، وَلَا يَهْلِكُ مَنْ دَعَاهُ، كَمْ مِنْ ذَنْبٍ غَفَرَهُ، وَمِنْ عَيْبٍ سَتَرَهُ، وَكَرْبٍ كَشَفَهُ؟!

أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، اسْتَغَاثَ رَبَّهُ بِبَدْرٍ فَأَغَاثَهُ بِالنَّصْرِ المُبِينِ، وَأَمَدَّهُ بِالمَلَائِكَةِ المُكَرَّمِينَ ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩]، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ.

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: الصَّائِمُ مَرْجُوُّ الْإِجَابَةِ، وَلَهُ عِنْدَ فِطْرِهِ دَعْوَةٌ مَا تُرَدُّ(٩)، وَهَذِهِ

---

(٩) كما في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**لِلصَّائِمِ عِنْدَ فِطْرِهِ دَعْوَةٌ مَا تُرَدُّ**» أخرجه ابن ماجه في الصيام، باب في الصائم لا ترد دعوته (١٧٥٣)، والحاكم =

اللَّيَالِي الْمُبَارَكَةُ هِيَ لَيَالِي الصَّلَاةِ وَالْقُرْآنِ وَالدُّعَاءِ، وَالرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ يَنْزِلُ فِي ثُلُثِ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَيَقُولُ: «**مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ**»(١٠).

وَالْمُسْلِمُونَ يُحْيُونَ فِي هَذِهِ اللَّيَالِي سُنَّةَ الْقِيَامِ فِي الْمَسَاجِدِ؛ الْتِمَاسًا لِلَيْلَةِ الْقَدْرِ. وَآيَاتُ الصِّيَامِ تَخَلَّلَهَا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وَهَذِهِ الْآيَةُ مِنْ أَعْظَمِ الْآيَاتِ الْمُحَرِّضَةِ عَلَى الدُّعَاءِ، وَهِيَ تُبَيِّنُ قُرْبَ الرَّبِّ مِنْ عِبَادِهِ، وَسُرْعَةَ اسْتِجَابَتِهِ لِدُعَائِهِمْ، يَظْهَرُ ذَلِكَ لِمَنْ نَظَرَ فِي سِيَاقِ الْآيَةِ، وَتَدَبَّرَهَا حَقَّ التَّدَبُّرِ مَعَ فَهْمِهِ لِمَعَانِيهَا، وَإِلْمَامِهِ بِلُغَةِ الْقُرْآنِ.

فَالْآيَةُ سَبَقَتْهَا آيَاتُ فَرْضِ الصِّيَامِ، وَتَشْرِيعِ الْأَحْكَامِ، وَفِيهَا مِنَ الشِّدَّةِ عَلَى الْمُكَلَّفِينَ مَا فِيهَا، وَجَاءَ عَقِبَهَا التَّيْسِيرُ وَالرُّخْصَةُ ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وَكَوْنُ هَذِهِ الْآيَةِ جَاءَتْ فِي وَسْطِ آيَاتِ الصِّيَامِ فَإِنَّهُ مُشْعِرٌ بِأَنَّ الصَّائِمَ مَرْجُوُّ الْإِجَابَةِ إِنْ دَعَا.

وَمَا جَاءَ سُؤَالٌ فِي الْقُرْآنِ إِلَّا فُصِلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ جَوَابِهِ بِأَمْرِ الْقَوْلِ إِلَّا فِي هَذِهِ

= (١/ ٥٨٣)، وصححه البوصيري في الزوائد (٢/ ٣٨).

(١٠) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ**» أخرجه البخاري في التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل (١٠٩٤)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه (٧٥٨).

الْآيَةِ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّۗ﴾ [البقرة: ١٨٩]، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [الأحزاب: ٦٣].

إِلَّا فِي هَذِهِ الْآيَةِ فَالْجَوَابُ جَاءَ مُبَاشَرَةً بَعْدَ السُّؤَالِ ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ﴾ [البقرة: ١٨٦]، مِمَّا يُشْعِرُ بِقُرْبِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ مِنْ عِبَادِهِ، ثُمَّ أَكَّدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وَقَدْ أَكَّدَتِ السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ هَذَا المَعْنَى صَرَاحَةً، كَمَا قَالَ أَبُو مُوسَى رضي الله عنه: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ، إِذَا عَلَوْنَا كَبَّرْنَا فَقَالَ: «**ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا قَرِيبًا**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ.

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «**وَالَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَةِ أَحَدِكُمْ**»(١١).

فَادْعُوا اللهَ -أَيُّهَا الصَّائِمُونَ- وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ .. ادْعُوهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً، وَأَلِحُّوا عَلَيْهِ فِي الدُّعَاءِ؛ فَإِنَّهُ يُحِبُّ المُلِحِّينَ .. اسْأَلُوهُ أَنْ يَجْبُرَ مُصَابَ المُسْلِمِينَ، وَأَنْ يَرْفَعَ الْبَلَاءَ عَنْهُمْ، وَأَنْ يُبْدِلَ خَوْفَهُمْ أَمْنًا، وَذُلَّهُمْ عِزًّا، وَضَعْفَهُمْ قُوَّةً؛ فَلَعَلَّ دَعْوَةً صَادِقَةً مِنْ قَلْبٍ خَاشِعٍ فُتِحَتْ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ، فَاسْتَجَابَ لَهَا الْجَوَادُ الْكَرِيمُ، فَعَمَّ خَيْرُهَا الْإِسْلَامَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَلَا يَحْقِرَنَّ عَبْدٌ نَفْسَهُ لِمَا يَرَى مِنْ ذُنُوبِهِ، فَلَعَلَّ دَعْوَتَهُ تَكُونُ سَبَبًا فِي تَوْبَتِهِ وَرَفْعِ الْبَلَاءِ عَنْهُ وَعَنِ

---

(١١) أخرجه من حديث أبي موسى: البخاري في الجهاد والسير، باب ما يكره من رفع الصوت في التكبير (٢٨٣٠)، ومسلم في الذكر والدعاء والاستغفار، باب استحباب خفض الصوت بالذكر (٢٧٠٤).

الْمُسْلِمِينَ، قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «لَا يَمْنَعَنَّ أَحَدًا الدُّعَاءَ مَا يَعْلَمُ فِي نَفْسِهِ -يَعْنِي مِنَ التَّقْصِيرِ- فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَجَابَ دُعَاءَ شَرِّ خَلْقِهِ وَهُوَ إِبْلِيسُ حِينَ قَالَ: ﴿أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الأعراف: ١٤]»(١٢)، وَرَبُّنَا عَفُوٌّ كَرِيمٌ يُحِبُّ الْعَفْوَ، وَيُجِيبُ الْمُضْطَرَّ.

أَلَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ . .



(١٢) فتح الباري لابن حجر (١١/ ١٤٠)، وشرح الزرقاني على الموطأ (٢/ ٤٧)، وفيض القدير (١/ ٣٤٣).

٢٥٣- فضل صلاة التهجد (١)

١٤٢٨/٩/٢٣هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ؛ وَفَّقَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ لِلْخَيْرَاتِ، وَاكْتِسَابِ الْحَسَنَاتِ؛ فَكَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا، وَعَمَلُهُمْ مَبْرُورًا، نَحْمَدُهُ عَلَى فَضْلِهِ وَنِعَمِهِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى آلَائِهِ وَمِنَنِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ اصْطَفَى مِنْ خَلْقِهِ عِبَادًا تَرَكُوا الدُّنْيَا لِأَهْلِهَا، وَأَقْبَلُوا بِقُلُوبِهِمْ عَلَى الْآخِرَةِ ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الْفَتْح: ٢٩]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ مَا صَامَ أَحَدٌ كَصِيَامِهِ، وَلَا قَامَ كَقِيَامِهِ، وَهُوَ الْمَغْفُورُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، خَيْرِ صَحْبٍ وَآلٍ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَأَحْسِنُوا خِتَامَ شَهْرِكُمْ، وَاسْتَدْرِكُوا فِيمَا بَقِيَ مِنْهُ مَا فَاتَكُمْ، وَاعْلَمُوا أَنَّ هَذِهِ اللَّيَالِيَ الْقَلَائِلَ هِيَ خَيْرُ اللَّيَالِي، وَحَرِيٌّ أَنْ تَكُونَ فِيهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ، وَهِيَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، مَنْ قَامَهَا إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ؛ فَلَا تَحْرِمُوا أَنْفُسَكُمْ بَرَكَتَهَا، وَاعْمَلُوا بِخَيْرِ مَا عِنْدَكُمْ فِيهَا؛ فَإِنَّ الْجَزَاءَ فِيهَا كَبِيرٌ، وَهِبَاتِ الرَّحْمَنِ عَظِيمَةٌ، وَالْمَحْرُومُ مَنْ حُرِمَ خَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدُّخَان: ٣، ٤].

أَيُّهَا النَّاسُ: فِي هَذِهِ اللَّيَالِي الْعَظِيمَةِ تَعُجُّ مَسَاجِدُ الْمُسْلِمِينَ فِي أَوَّلِ اللَّيْلِ وَآخِرِهِ بِالْمُصَلِّينَ، قَائِمِينَ رَاكِعِينَ سَاجِدِينَ، يَتْلُونَ كِتَابَ رَبِّهِمْ، وَيُنْصِتُونَ إِلَى آيَاتِهِ خَاشِعِينَ مُتَدَبِّرِينَ، مُتَّبِعِينَ هَدْيَ نَبِيِّهِمْ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، الَّذِي

شَرَعَ لَهُمْ قِيَامَ رَمَضَانَ جَمَاعَةً فِي المَسَاجِدِ، كَمَا شَرَعَ لَهُمْ قِيَامَ اللَّيْلِ طَوَالَ السَّنَةِ فِي بُيُوتِهِمْ.

وَأَحْيَا عُمَرُ رضي الله عنه سُنَّةَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَجَمَعَ النَّاسَ عَلَى أَئِمَّتِهِمْ فِي رَمَضَانَ، وَكَانَ هَذَا دَأْبَ المُسْلِمِينَ بِتَتَابُعِ الْقُرُونِ، وَتَطَاوُلِ السِّنِينَ، يُحْيُونَ لَيَالِيَ رَمَضَانَ فِي المَسَاجِدِ، وَيَخُصُّونَ الْعَشْرَ الْأَخِيرَةَ مِنْهُ بِمَزِيدِ عِنَايَةٍ وَاجْتِهَادٍ؛ تَأَسِّيًا بِالنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَيَزِيدُونَ فِي رَكَعَاتِ الصَّلَاةِ، وَيُطِيلُونَ الْقُنُوتَ وَالرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ.

وَالصَّلَاةُ مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ الْبَدَنِيَّةِ، وَمِنْ خَيْرِ مَا يَتَطَوَّعُ بِهِ المُسْلِمُ لِرَبِّهِ عز وجل، وَهِيَ صِلَةٌ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ، وَأَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ؛ فَإِذَا كَانَتِ الصَّلَاةُ فِي أَفْضَلِ شَهْرٍ كَانَتْ أَعْظَمَ، فَكَيْفَ إِذَنْ إِنْ كَانَتْ فِي خَيْرِ عَشْرٍ، وَفِي أَفْضَلِ وَقْتٍ وَهُوَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ، حِينَ يَنْزِلُ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ، يَغْفِرُ لِلْمُسْتَغْفِرِينَ، وَيُجِيبُ الدَّاعِينَ، وَيُعْطِي السَّائِلِينَ؟!

لَقَدِ اجْتَمَعَتْ فِي قِيَامِ هَذِهِ اللَّيَالِي المُبَارَكَةِ فَضِيلَةُ الْعَمَلِ وَهُوَ الصَّلَاةُ، وَفَضِيلَةُ الشَّهْرِ وَهُوَ رَمَضَانُ، وَفَضِيلَةُ عَشْرِهِ الْأَخِيرَةِ، وَفَضِيلَةُ الْوَقْتِ وَهُوَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ. وَهَذَا الْعَمَلُ الصَّالِحُ الْجَلِيلُ الَّذِي كَانَ فِي أَشْرَفِ الزَّمَانِ وَأَشْرَفِ الْأَمَاكِنِ، وَبِهَيْئَاتٍ هِيَ أَشْرَفُ الْهَيْئَاتِ مِنْ قُنُوتٍ وَرُكُوعٍ وَسُجُودٍ، إِنَّمَا كَانَ لِلَّهِ تَعَالَى الَّذِي لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ سِوَاهُ، وَهُوَ الْكَرِيمُ الْجَوَادُ الَّذِي بِيَدِهِ خَزَائِنُ كُلِّ شَيْءٍ، وَيُعْطِي عَطَاءً جَزِيلًا عَلَى قَلِيلِ الْأَعْمَالِ، فَمَا ظَنُّكُمْ -يَا عِبَادَ اللَّهِ- بِعَطَايَا رَبِّكُمْ لِلْمُتَهَجِّدِينَ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا عَلِمْنَا مَا فِي التَّهَجُّدِ مِنْ فَضِيلَةٍ!!

إِنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ لَهُ مِنَ الْفَضْلِ وَالمَنْفَعَةِ لِلْمُؤْمِنِ مَا لَا يَعُدُّهُ الْعَادُّونَ، وَلَا يُحْصِيهِ المُحْصُونَ، وَمِنْ عَظِيمِ فَضْلِهِ أَنَّهُ كَانَ فَرْضًا فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ، وَخُوطِبَ بِهِ النَّبِيُّ

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي مَكَّةَ، وَلَمَّا تَكْتَمِلْ بَعْدُ شَرَائِعُ الْإِسْلَامِ، وَلَا أُقِيمَتْ لِلْمُسْلِمِينَ دَوْلَةٌ.

بَلْ إِنَّ الْأَمْرَ بِقِيَامِ اللَّيْلِ جَاءَ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ الْمَكِّيَّةِ نُزُولًا، وَهِيَ سُورَةُ الْمُزَّمِّلِ الَّتِي هِيَ ثَانِيَةُ السُّوَرِ نُزُولًا أَوْ ثَالِثَتُهَا أَوْ رَابِعَتُهَا عَلَى خِلَافٍ بَيْنَ الْمُفَسِّرِينَ[١]، وَلَوْ كَانَتِ الرَّابِعَةَ عَلَى أَبْعَدِ تَقْدِيرٍ فَهِيَ مُتَقَدِّمَةٌ جِدًّا، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى مَكَانَةِ قِيَامِ اللَّيْلِ مِنْ شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ؛ إِذْ جَاءَ فِيمَا تَقَدَّمَ نُزُولُهُ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المُزَّمِّل: ١-٤]، وَسَأَلَ سَعْدُ بْنُ هِشَامٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- عَائِشَةَ رضي الله عنها عَنْ قِيَامِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَقَالَتْ: «أَلَسْتَ تَقْرَأُ: يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَتْ: فَإِنَّ اللهَ عز وجل افْتَرَضَ قِيَامَ اللَّيْلِ فِي أَوَّلِ هَذِهِ

---

(١) قال ابن الجوزي -رحمه الله تعالى-: «قال المفسرون: وكان النبي ﷺ يتزمل في ثيابه في أول ما جاء جبريل فَرَقًا منه حتى أنس به، وقال السدي: كان قد تزَمَّل للنوم، وقال مقاتل: خرج من البيت وقد لبس ثيابه فناداه جبريل: يا أيها المزمل، وقيل: أريد به متزمل النبوة، قال عكرمة في معنى هذه الآية: زملت هذا الأمر فقم به، وقيل: إنما لم يخاطب بالنبي والرسول ها هنا؛ لأنه لم يكن قد بلغ، وإنما كان في بدء الوحي» اهـ من زاد المسير (٨/ ٣٨٨).

وقال ابن عاشور -رحمه الله تعالى-: «واختلف في عدِّ هذه السورة في ترتيب نزول السور، والأصح الذي تضافرت عليه الأخبار الصحيحة: أن أول ما نزل سورة العلق، واختلف فيما نزل بعد سورة العلق، فقيل سورة (ن والقلم)، وقيل: نزل بعد العلق سورة المدثر، ويظهر أنه الأرجح، ثم قيل: نزلت سورة المزمل بعد القلم فتكون ثالثة. وهذا قول جابر بن زيد في تعداد نزول السور، وعلى القول بأن المدثر هي الثانية يحتمل أن تكون القلم ثالثة والمزمل رابعة، ويحتمل أن تكون المزمل هي الثالثة والقلم رابعة، والجمهور على أن المدثر نزلت قبل المزمل، وهو ظاهر حديث عروة بن الزبير عن عائشة في بدء الوحي من صحيح البخاري» التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٥٤).

السُّورَةِ، فَقَامَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ حَوْلًا وَأَمْسَكَ اللهُ خَاتِمَتَهَا اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا فِي السَّمَاءِ حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ فِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ التَّخْفِيفَ، فَصَارَ قِيَامُ اللَّيْلِ تَطَوُّعًا بَعْدَ فَرِيضَةٍ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَفِي رِوَايَةٍ لِأَبِي دَاوُدَ وَالدَّارِمِيِّ: «فَقَامَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى انْتَفَخَتْ أَقْدَامُهُمْ وَحُبِسَ خَاتِمَتُهَا فِي السَّمَاءِ اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا، ثُمَّ نَزَلَ آخِرُهَا فَصَارَ قِيَامُ اللَّيْلِ تَطَوُّعًا بَعْدَ فَرِيضَةٍ»(٢).

بَيْدَ أَنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ وَإِنْ وُضِعَ فَرْضُهُ عَنِ الْمُسْلِمِينَ؛ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِهِمْ، وَتَخْفِيفًا عَلَيْهِمْ؛ لِعَجْزِهِمْ وَضَعْفِهِمْ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَافَظَ عَلَيهِ؛ تَعْظِيمًا لِرَبِّهِ، وَزِيَادَةً فِي عِبَادَتِهِ، وَطَلَبًا لِرِفْعَةِ الدَّرَجَاتِ، وَحِرْصًا عَلَى فَضَائِلِ الْأَعْمَالِ، كَمَا اخْتَصَّهُ اللهُ تَعَالَى بِأَعْلَى الْمَنَازِلِ وَالْمَقَامَاتِ، وَفِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ خُوطِبَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالْفَرَائِضِ، ثُمَّ خُوطِبَ عَقِبَهَا بِقِيَامِ اللَّيْلِ ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الْإِسْرَاء:٧٩]؛ أَيْ لِأَجْلِكَ، وَهَذَا دَلِيلُ اخْتِصَاصِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِنَافِلَةِ قِيَامِ اللَّيْلِ دُونَ أُمَّتِهِ، أَيْ: زِيَادَةً فِي أَجْرِهِ، وَرَفْعِ دَرَجَتِهِ؛ لِأَنَّهُ مَغْفُورٌ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ(٣).

---

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض(٧٤٦)، وأبو داود في الصلاة، باب في صلاة الليل (١٣٤٢)، والنسائي في قيام الليل وتطوع النهار، باب قيام الليل (٣/ ١٩٩)، وأحمد (٦/ ٥٣)، والدارمي (١٥١٦).

(٣) اختلف العلماء في فرضية قيام الليل على النبي ﷺ، مع اتفاقهم على نسخ فرضيته على الأمة، وانتقال الحكم فيه من الوجوب إلى الاستحباب، كما دلت على ذلك الأحاديث الكثيرة.

فقال قوم: إن قيام الليل كان فرضًا على النبي عليه الصلاة والسلام، وهو ما رجحه جماعة من أهل التفسير في تفسيرهم؛ لقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]. =

. . . .

= قال البغوي -رحمه الله تعالى-: «والمراد من الآية قيام الليل للصلاة وكانت صلاة الليل فريضة على النبي ﷺ في الابتداء وعلى الأمة؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١-٢]، ثم نزل التخفيف فصار الوجوب منسوخًا في حق الأمة بالصلوات الخمس، وبقي الاستحباب قال الله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠]، وبقي الوجوب في حق النبي ﷺ . . . .وقوله ﷻ: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾؛ أي: زيادة لك، يريد فضيلة زائدة على سائر الفرائض فرضها الله عليك.

وذهب قوم إلى أن الوجوب صار منسوخًا في حقه كما في حق الأمة فصارت نافلة، وهو قول مجاهد وقتادة؛ لأن الله تعالى قال ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ ولم يقل (عليك).

فإن قيل: فما معنى التخصيص وهي زيادة في حق كافة المسلمين كما في حقه ﷺ؟

قيل: التخصيص من حيث إن نوافل العباد كفارة لذنوبهم، والنبي ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فكانت نوافله لا تعمل في كفارة الذنوب فتبقى له زيادة في رفع الدرجات . . .» ثم ساق البغوي جملة أحاديث في قيام النبي عليه الصلاة والسلام في تفسيره (٣/ ١٢٨-١٢٩).

وقال ابن كثير -رحمه الله تعالى-: «واختلف في معنى قوله تعالى: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ فقيل: معناه أنك مخصوص بوجوب ذلك وحدك، فجعلوا قيام الليل واجبًا في حقه دون الأمة، رواه العوفي عن ابن عباس، وهو أحد قولي العلماء، وأحد قولي الشافعي -رحمه الله تعالى-، واختاره ابن جرير.

وقيل: إنما جعل قيام الليل في حقه نافلة على الخصوص؛ لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وغيره من أمته إنما يكفر عنه صلواته النوافل الذنوب التي عليه، قاله مجاهد وهو في المسند عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه» اهـ من تفسير ابن كثير (٣/ ٥٥-٥٦) وقريب منه في تفسير السعدي (٤٦٥).

وقال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: «فصل في هديه في قيام الليل، قد اختلف السلف والخلف في أنه: هل كان فرضًا عليه أم لا، والطائفتان احتجوا بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩] قالوا: فهذا صريح في عدم الوجوب.

قال الآخرون: أمره بالتهجد في هذه السورة كما أمره في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١، ٢]، ولم يجئ ما ينسخه عنه، وأما قوله تعالى: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ فلو كان المراد به التطوع لم يخصه بكونه نافلة له، وإنما المراد بالنافلة الزيادة، ومطلق =

. . . .

= الزيادة لا يدل على التطوع قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٢]؛ أي: زيادة على الولد، وكذلك النافلة في تهجد النبي زيادة في درجاته، وفي أجره؛ ولهذا خصه بها، فإن قيام الليل في حق غيره مباح ومكفر للسيئات، وأما النبي فقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فهو يعمل في زيادة الدرجات، وعلو المراتب، وغيره يعمل في التكفير. قال مجاهد: إنما كان نافلة للنبي؛ لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فكانت طاعته نافلة، أي: زيادة في الثواب، ولغيره كفارة لذنوبه.
قال ابن المنذر في تفسيره: حدثنا يعلى بن أبي عبيد، حدثنا الحجاج، عن ابن جريج، عن عبد الله ابن كثير، عن مجاهد قال: ما سوى المكتوبة، فهو نافلة من أجل أنه لا يعمل في كفارة الذنوب، وليست للناس نوافل، إنما هي للنبي ﷺ خاصة، والناس جميعًا يعملون ما سوى المكتوبة لذنوبهم في كفارتها.
حدثنا محمد بن نصر، حدثنا عبد الله، حدثنا عمرو، عن سعيد وقبيصة، عن سفيان، عن أبي عثمان، عن الحسن في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩].
قال: لا تكون نافلة الليل إلا للنبي ﷺ. وذكر عن الضحاك، قال: نافلة للنبي ﷺ خاصة.
وذكر سليم بن حيان، حدثنا أبو غالب، حدثنا أبو أمامة، قال: إذا وضعت الطهور مواضعه، قمت مغفورًا لك، فإن قمت تصلي، كانت لك فضيلة وأجرًا، فقال رجل: يا أبا أمامة، أرأيت إن قام يصلي تكون له نافلة؟ قال: لا، إنما النافلة للنبي ﷺ، فكيف يكون له نافلة، وهو يسعى في الذنوب والخطايا؟! تكون له فضيلة وأجرًا.
قلت: والمقصود أن النافلة في الآية، لم يرد بها ما يجوز فعله وتركه، كالمستحب، والمندوب، وإنما المراد بها الزيادة في الدرجات، وهذا قدر مشترك بين الفرض والمستحب، فلا يكون قوله: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ نافيًا لما دل عليه الأمر من الوجوب» زاد المعاد (١/ ٣١١-٣١٣).

واحتج القائلون بأنه فرض عليه بحديث عائشة أن النبي ﷺ قال: «**ثلاث هُنَّ عَلَيَّ فريضَة ولَكُمْ سُنَّة: الوِتْر، والسِّوَاكُ، وقِيامُ الليل**» أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٢٦٦) وهو حديث ضعيف لا يحتج به، قال ابن الملقن: وهو حديث لا ينبغي الاحتجاج به أوردته للتنبيه على ضعفه، قال البيهقي: في إسناده موسى بن عبد الرحمن -يعني الصنعاني- وهو ضعيف جدًّا. قال: ولم يثبت في هذا إسناد. البدر المنير(٢/ ٢٩)، وضعفه أيضًا الحافظ في التلخيص (٣/ ١١٩). =

وَاللهُ تَعَالَى لَا يَخْتَارُ لِخَاتَمِ رُسُلِهِ إِلَّا مَا هُوَ أَفْضَلُ وَأَكْمَلُ، وَلَا يَشْرَعُ لَهُ إِلَّا مَا يُقَرِّبُهُ إِلَيْهِ، وَلَا سِيَّمَا أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ عَلَّلَ هَذَا الْأَمْرَ لِنَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي قِيَامِ اللَّيْلِ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإِسْرَاء: ٧٩].

وَالمَقَامُ المَحْمُودُ مَقَامٌ عَظِيمٌ جَلِيلٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ مَقَامُ الشَّفَاعَةِ لِلْخَلْقِ بِأَنْ يُقْضَى بَيْنَهُمْ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ المَقَامُ إِلَّا لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، حِينَ يَشْفَعُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى فَيَقْبَلُ اللهُ تعالَى شَفَاعَتَهُ، فَيَغْبِطُهُ المُرْسَلُونَ ﷺ عَلَى ذَلِكَ المَقَامِ.

= واحتج القائلون أنه ليس فرضًا على النبي ﷺ بقول عائشة ﵂: «فإن الله ﷿ افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام نبي الله ﷺ وأصحابه حولًا، وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهرًا في السماء، حتى أنزل الله في آخر هذه السورة التخفيف، فصار قيام الليل تطوعًا بعد فريضة» أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل، ومن نام عنه أو مرض (٧٤٦). فهو صريح في رفع الفرض، ولم يخص النبي ﷺ من رفع الفرض.

قال ابن حجر: وفي سياقه أيضًا دلالة على أنه حين وجب لم يكن من خصائصه. تلخيص الحبير (٣/ ١٢٠).

ومن أدلتهم أيضًا على عدم الوجوب: قصة حجة النبي ﷺ، وفيها أنه في ليلة مزدلفة نام إلى الفجر، قال جابر ﵁: حتى أتى المزدلفة، فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، ولم يسبح بينهما شيئًا، ثم اضطجع رسول الله ﷺ حتى طلع الفجر، وصلى الفجر، حين تبين له الصبح، بأذان وإقامة. أخرجه مسلم في الحج، باب صفة حجة النبي ﷺ (١٢١٨).

قال ابن حجر: «واستدل أيضًا بأنه كان يصلي التطوع في الليل على الراحلة في السفر، ويصليه في الحضر جالسًا، وقد استدل الشافعي على عدم وجوب الوتر عليه بذلك، وقيل: كان ذلك واجبًا عليه في حال الحضر، وفي حال عدم المشقة، وهذا يحتاج إلى نقل خاص» تلخيص الحبير (٣/ ١٢٠).

فَكَانَ المُتَأَسِّي بِالنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي قِيَامِ اللَّيْلِ قَدْ تَأَسَّى بِمَا اخْتَارَهُ اللهُ تَعَالَى لَهُ، وَأَمَرَهُ بِهِ؛ لِيُعْطِيَهُ المَقَامَ المَحْمُودَ، وَفِي ذَلِكَ مِنَ الْفَضِيلَةِ مَا لَا يَخْفَى.

وَقِيَامُ اللَّيْلِ جَاءَ الْأَمْرُ بِهِ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرًا:

فَفِي سُورَةِ ق ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [سورة ق: ٤٠].

وَفِي الطُّوْرِ ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ [الطُّور: ٤٩].

وَفِي الْإِنْسَانِ ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾ [الإِنْسَان: ٢٦].

وَأَثْنَى ﷻ عَلَى المُتَهَجِّدِينَ فَقَالَ: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾ [الزُّمَر: ٩].

وَفِي الْأُمَمِ الَّتِي سَبَقَتْنَا صَالِحُونَ مُتَهَجِّدُونَ يَقُومُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَالنَّاسُ نِيَامٌ، فَامْتَدَحَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِذَلِكَ ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ﴾ [آل عِمْرَان: ١١٣].

وَذَكَرَ سُبْحَانَهُ فِي «الْفُرْقَانِ» صِفَاتِ عِبَادِهِ ﷻ، وَمِنْهَا ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا﴾ [الفُرْقَان: ٦٤]، ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّ مَأْوَاهُمُ الْجَنَّةُ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ [الفُرْقَان: ٧٥، ٧٦].

وَفِي مَقَامٍ آخَرَ ذَكَرَ ﷻ مَا أَعَدَّ لِعِبَادِهِ المُتَّقِينَ فِي الْجَنَّةِ مِنَ النَّعِيمِ المُقِيمِ، وذَكَرَ مِنْ صِفَاتِهِمْ ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾ [آل عِمْرَان: ١٧].

وَفِي مَوْضِعٍ ثَالِثٍ أَخْبَرَ ﷻ أَنَّ لِلْمُتَّقِينَ جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَذَكَرَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ أَنَّهُمْ ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾ [الذَّارِيَات: ١٧].

وَذَكَرَ ﷻ أَنَّ المُؤْمِنِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى تَنْتَفِعُ قُلُوبُهُمْ بِهَا، فَيَخْشَعُونَ عِنْدَهَا،

وَيَنْقَادُونَ لَهَا، وَيَتَأَثَّرُونَ بِمَوَاعِظِهَا، فَتَزِيدُهُمْ تَعْظِيمًا لِلَّهِ تَعَالَى وَإِجْلَالًا، وَخُضُوعًا وَإِذْعَانًا، وَمَحَبَّةً وَخَوْفًا وَرَجَاءً، ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ فِي وَصْفِ حَالِهِمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السَّجْدَة: ١٦] وَالْجُنُوبُ لَا تَتَجَافَى عَنِ المَضَاجِعِ إِلَّا إِذَا اهْتَمَّتِ الْقُلُوبُ، وَالْقُلُوبُ لَا تَهْتَمُّ إِلَّا لِلْأُمُورِ الْعَظِيمَةِ المُهِمَّةِ، وَهَلْ شَيْءٌ فِي الدُّنْيَا -بَعْدَ الْإِيمَانِ- أَعْظَمُ وَأَجَلُّ وَأَهَمُّ مِنْ مُنَاجَاةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي هَجْعَةِ اللَّيْلِ وَسُكُونِ الْخَلْقِ؟! وَلَا يُدْرِكُ عَظَمَةَ ذَلِكَ إِلَّا أَصْحَابُ الْقُلُوبِ الْحَيَّةِ، وَالضَّمَائِرِ الْيَقِظَةِ، الَّذِينَ عَرَفُوا قَدْرَ رَبِّهِمْ، فَعَظَّمُوهُ حَقَّ التَّعْظِيمِ، وَانْتَفَضُوا مِنْ فُرُشِهِمْ لِجَلَالِهِ فِي اللَّيْلِ الْبَهِيمِ، ذَاكِرِينَ مُسَبِّحِينَ مُسْتَغْفِرِينَ، قَانِتِينَ رَاكِعِينَ سَاجِدِينَ.

عَرَفُوا ضَعْفَ أَنْفُسِهِمْ وَعَجْزَهُمْ وَهَوَانَهُمْ، وَحَاجَتَهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَافْتِقَارَهُمْ إِلَيْهِ؛ فَسَأَلُوا حَاجَاتِهِمْ مِمَّنْ يَقْضِي الْحَاجَاتِ، وَاسْتَغْفَرُوا مَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عِمْرَان: ١٣٥].

وَقِرَاءَةُ اللَّيْلِ أَقْوَى حُضُورًا لِلْقَلْبِ، وَأَعْظَمُ تَأْثِيرًا فِي النَّفْسِ، وَأَكْثَرُ خُشُوعًا، وَأَحْرَى بِالتَّدَبُّرِ؛ فَكَانَتْ صَلَاةُ اللَّيْلِ أَفْضَلَ الصَّلَاةِ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المُزَّمِّل: ٦]، وَرَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«أَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ رَمَضَانَ شَهْرُ اللَّهِ المُحَرَّمُ، وَأَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ صَلَاةُ اللَّيْلِ»** رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٤).

فَخُذُوا حَظَّكُمْ -عِبَادَ اللَّهِ- مِنْ هَذِهِ اللَّيَالِي المُبَارَكَةِ الَّتِي هِيَ خَيْرُ اللَّيَالِي،

---

(٤) أخرجه مسلم في الصيام، باب فضل صوم المحرم (١١٦٣) وأبو داود في الصوم، باب في صوم المحرم (٢٤٢٩) والترمذي في الصلاة، باب ما جاء في فضل صلاة الليل (٤٣٨) والنسائي في قيام الليل، باب فضل صلاة الليل (٣/ ٢٠٦-٢٠٧) وابن ماجه في الصيام، باب صيام أشهر الحرم (١٧٤٢)، وأحمد (٢/ ٣٠٣).

وَأَحْيُوهَا بِالْقُرْآنِ قِرَاءَةً وَتَدَبُّرًا وَخُشُوعًا، وَانْطَرِحُوا فِيهَا عَلَى بَابِ رَبِّكُمْ ﷻ؛ فَلَهُ فِيهَا هِبَاتٌ عَظِيمَةٌ مَنْ حَازَهَا فَازَ فِي الدَّارَيْنِ، وَمَنْ فَاتَتْهُ فَوَاللَّهِ إِنَّهُ المَغْبُونُ ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المُنَافِقُون:٧].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ . .

❀ ❀ ❀

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْجَوَادِ الْكَرِيمِ؛ يُعْطِي جَزِيلًا عَلَى الْقَلِيلِ، وَيَغْفِرُ الذَّنْبَ الْعَظِيمَ، نَحْمَدُهُ وَنَشْكُرُهُ وَنَتُوبُ إِلَيْهِ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى، وَاعْمَلُوا صَالِحًا؛ فَلَا يَبْقَى لِلْعَبْدِ فِي قَبْرِهِ وَآخِرَتِهِ إِلَّا عَمَلُهُ فِي الدُّنْيَا ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: قِيَامُ اللَّيْلِ سَبَبٌ لِلْقُرْبِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَا صَامَ الصَّائِمُونَ، وَتَعَبَّدَ الْمُتَعَبِّدُونَ إِلَّا تَقَرُّبًا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، رَوَى عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنَ الْعَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الْآخِرِ؛ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُ اللهَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فَكُنْ**» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ(٥).

---

(٥) أخرجه الترمذي في الدعوات باب (١١٩)، وقال: حسن صحيح غريب (٣٥٧٩)، والنسائي في المواقيت، باب النهي عن الصلاة بعد العصر (١/ ٢٧٩)، والطبراني في الدعاء (١٢٨)، وصححه ابن خزيمة (١١٤٧)، والحاكم وقال: على شرط مسلم (١/ ٤٥٣).

وَقِيَامُ اللَّيْلِ سَبَبٌ لِمَحَبَّتِهِ ﷻ لِعَبْدِهِ الْقَائِمِ الْقَانِتِ، وَمَنْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَرْجُو مَحَبَّتَهُ سُبْحَانَهُ؛ رَوَى أَبُو الدَّرْدَاءِ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**ثَلَاثَةٌ يُحِبُّهُمُ اللهُ وَيَضْحَكُ إِلَيْهِمْ وَيَسْتَبْشِرُ بِهِمْ** . . وَذَكَرَ مِنْهُمْ: **الَّذِي لَهُ امْرَأَةٌ حَسَنَةٌ وَفِرَاشٌ لَيِّنٌ حَسَنٌ فَيَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ، فَيَقُولُ اللهُ** ﷻ: **يَذَرُ شَهْوَتَهُ وَيَذْكُرُنِي وَلَوْ شَاءَ رَقَدَ**» رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ وَحَسَّنَهُ الْمُنْذِرِيُّ(٦).

وَجَاءَ فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ: «أَنَّ رَبَّنَا ﷻ عَجِبَ مِنْ رَجُلٍ ثَارَ عَنْ وِطَائِهِ وَلِحَافِهِ مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ وَحِبِّهِ إِلَى صَلَاتِهِ فَيَقُولُ رَبُّنَا: **أَيَا مَلَائِكَتِي، انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي ثَارَ مِنْ فِرَاشِهِ وَوِطَائِهِ مِنْ بَيْنِ حِبِّهِ وَأَهْلِهِ إِلَى صَلَاتِهِ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِي**» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ.

وَفِي رِوَايَةٍ لِلطَّبَرَانِيِّ: «فَيَقُولُ اللهُ ﷻ لِمَلَائِكَتِهِ: **مَا حَمَلَ عَبْدِي هَذَا عَلَى مَا صَنَعَ؟** فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا رَجَاءَ مَا عِنْدَكَ وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدَكَ، فَيَقُولُ: **فَإِنِّي قَدْ أَعْطَيْتُهُ مَا رَجَا وَأَمَّنْتُهُ مِمَّا خَافَ**» جَاءَ مَرْفُوعًا وَمَوْقُوفًا، قَالَ الدَّارَقُطْنِيُّ: وَالمَوْقُوفُ أَصَحُّ(٧).

---

(٦) عزاه المنذري والهيثمي للطبراني في الكبير، وقال المنذري: إسناده حسن، وقال الهيثمي: ورجاله ثقات، ينظر: الترغيب والترهيب (٩٥٣)، ومجمع الزوائد (٢/ ٢٥٥)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور للبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٣٨٣)، وأورده الألباني في الصحيحة (٣٤٧٨).

(٧) أخرجه أحمد (١/ ٤١٦)، وأبو يعلى (٥٢٧٢)، وابن أبي شيبة في مسنده (٣٨٥)، وابن أبي عاصم في السنة (٥٦٩) وفي الجهاد (١٢٥)، والبغوي في شرح السنة (٩٣٠)، وصححه ابن حبان (٢٥٥٧)، وحسنه الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٢٥٥)، والمنذري في الترغيب فقال: رواه الطبراني موقوفًا بإسناد حسن (١/ ٤٣٦)، وصحح الدارقطني في العلل وقفه (٥/ ٢٦٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، وقال بعد أن ذكر الاختلاف في رفعه ووقفه بين حماد ابن زيد وحماد بن سلمة: «فالخطب حينئذ سهل؛ لأنه في حكم المرفوع؛ لأنه لا يقال بمجرد الرأي كما هو ظاهر» اهـ(٧/ ١٤٠١) تحت الحديث (٣٤٧٨). =

أَرَأَيْتُمْ -يَا عِبَادَ اللَّهِ- لَوْ أَنَّ مَلِكًا مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا ضَرَبَ مَوْعِدًا لِأَحَدِ النَّاسِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الْآخِرِ لِيُقَابِلَهُ وَحْدَهُ، وَيَسْمَعَ شِكَايَتَهُ، وَيَقْضِيَ حَاجَتَهُ، بَلْ وَيَكُونُ لِقَاؤُهُ بِهِ سَبَبَ قُرْبِهِ مِنْهُ، وَمَحَبَّتِهِ لَهُ، أَتُرَاهُ يَهْنَأُ بِنَوْمٍ تِلْكَ اللَّيْلَةَ؟ كَلَّا بَلْ لَا يَنَامُ، وَإِنْ نَامَ فَنَوْمُ مُتَيَقِّظٍ لَا يَكَادُ يَخْفُقُ رَأْسُهُ حَتَّى يَفْزَعَ خَشْيَةَ فَوَاتِ مَوْعِدِهِ، فَمَا ظَنُّكُمْ بِمَنْ سَيُنَاجِي رَبَّ الْعَالَمِينَ، وَمَلِكَ الْمُلُوكِ، وَمَنْ خَزَائِنُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِيَدِهِ، وَمَنْ يَقْضِي كُلَّ الْحَاجَاتِ، لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، وَلَا يَسْتَعْظِمُ عَطَاءً أَعْطَاهُ؛ يُنَاجِيهِ لِيَنَالَ قُرْبَهُ وَمَحَبَّتَهُ، وَيَسْأَلَهُ حَاجَتَهُ، مَا ظَنُّكُمْ بِهِ؟!

وَكَمْ أَغْدَقَ رَبُّنَا جَلَّ فِي عُلَاهُ عَلَى الْخَلْقِ مُنْذُ خَلْقِهِمْ؟ وَكَمْ أَعْطَاهُمْ وَهُمْ يَعْصُونَهُ؟ وَمَا أَمْسَكَ عَنْهُمْ رِزْقَهُ، وَلَا أَغْلَقَ دُونَهُمْ خَزَائِنَهُ؛ بَلْ يُعْطِي وَيُعْطِي وَيُعْطِي ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النَّحل: ٩٦]، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ [سورة ص: ٥٤].

فَهَنِيئًا لِمُؤْمِنٍ يَتَوَضَّأُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، أَوْ فِي لَهْوِهِمْ، فَيَخْلُو بِرَبِّهِ يُنَاجِيهِ، يَتْلُو كِتَابَهُ، وَيَسْأَلُ حَاجَتَهُ، وَيُلِحُّ عَلَيْهِ فِي سُؤَالِهِ؛ فَوَاللَّهِ مَا خَسِرَ وَلَا خَابَ، وَلَا يَرُدُّهُ الْكَرِيمُ الْوَهَّابُ، وَفِي اللَّيْلِ سَاعَةُ إِجَابَةٍ قَدْ يُوَافِقُهَا فَيَنَالُ

= وقوله: «من بين أهله وحبه» جاءت في المسند (حَيِّه) في الموضعين، ط: الشيخ أحمد شاكر، وكذلك ط: الرسالة بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، رقم الحديث في كليهما (٣٩٤٩)، وكذلك في مسند أبي يعلى ت: الشيخ حسين سليم أسد (٥٢٧٢) ولم يعلق عليها أحد من المحققين.

وجاءت بالباء الموحدة (وحبه) في صحيح ابن حبان ت: الشيخ شعيب (٢٥٥٧)، وفي الموارد للهيثمي ت: الشيخ حسين سليم أسد (٦٤٣)، وفي شرح السنة (٩٣٠)، وسنن البيهقي(٩/ ١٦٤)، والمعجم الكبير للطبراني (١٠/ ١٧٩) رقم (١٠٣٨٣)، والجهاد لابن أبي عاصم (١٢٥)، والترغيب والترهيب للمنذري(٩٢٥)، قال الألباني في صحيح الترغيب: (وحبه)؛ أي حبيبه، ووقع في المسند: (حيه)!.

قلت: (وحِبِّه) أظهر في المعنى من (وحيِّه)، ولا سيما أن أكثر الكتب عليها، خلافًا لمسندي أحمد وأبي يعلى؛ ولذا استغرب الألباني -رحمه الله تعالى- لفظ (وحيِّه).

حَظَّهُ مِنْهَا، فَمَا أَوْفَرَ حَظَّهُ! وَمَا أَسْعَدَهُ! رَوَى جَابِرٌ ﵁ فَقَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ فِي اللَّيْلِ لَسَاعَةً لَا يُوَافِقُهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللهَ خَيْرًا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ، وَذَلِكَ كُلَّ لَيْلَةٍ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٨).

فَأَيْنَ مَنْ وَقَفُوا عَلَى أَبْوَابِ المُلُوكِ وَالْأَغْنِيَاءِ، يَنْتَظِرُونَ سَاعَاتٍ تِلْوَ سَاعَاتٍ؛ لِحَاجَاتٍ يَسْأَلُونَهُمْ قَضَاءَهَا، أَوْ لِقَلِيلٍ مِنَ الدُّنْيَا يَرْجُونَهُ مِنْهُمْ، رُبَّمَا أَدْرَكُوهُ وَرُبَّمَا فَاتَهُمْ؟! أَيْنَ هُمْ عَنْ أَبْوَابِ الْكَرِيمِ الْوَهَّابِ؟!

وَقِيَامُ اللَّيْلِ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِهِ، وَجَوْفُ اللَّيْلِ الْآخِرُ مِنْ أَوْسَعِ أَبْوَابِهِ، وَهَذِهِ اللَّيَالِي الْفَاضِلَةُ هِيَ أَوْسَعُ اللَّيَالِي لِرَحْمَتِهِ وَمَغْفِرَتِهِ وَعَطَائِهِ، وَفِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ تُكْتَبُ الْآجَالُ وَالْأَرْزَاقُ وَالمَقَادِيرُ؛ فَلْيَكُونُوا فِيهَا حَيْثُ أَمَرَهُمُ اللهُ تَعَالَى فِي مَسَاجِدِهِمْ وَخَلَوَاتِهِمْ، وَلْيَسْأَلُوا رَبَّهُمْ حَاجَاتِهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَخِيبُونَ كَمَا يَخِيبُونَ عِنْدَ أَبْوَابِ أَهْلِ الدُّنْيَا، رَوَتْ أُمُّ سَلَمَةَ ﵂ فَقَالَتْ: «اسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ يَقُولُ: **لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مَاذَا أُنْزِلَ اللَّيْلَةَ مِنَ الْفِتْنَةِ؟ مَاذَا أُنْزِلَ مِنَ الخَزَائِنِ؟ مَنْ يُوقِظُ صَوَاحِبَ الحُجُرَاتِ؟ كَمْ مِنْ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٩).

اللَّهُمَّ أَغْدِقْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلِكَ، وَأَوْجِبْ لَنَا رَحْمَتَكَ، وَخُذْ بِنَوَاصِينَا إِلَى مَا يُرْضِيكَ، اللَّهُمَّ أَعِنَّا عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ، وَافْتَحْ لَنَا أَبْوَابَ مُنَاجَاتِكَ، وَاجْعَلْنَا مِنْ عِبَادِكَ المُقَرَّبِينَ السَّابِقِينَ، وَاقْبَلْ مِنَّا وَمِنَ المُسْلِمِينَ، آمِينَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ . . .

---

(٨) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب في الليل ساعة مستجاب فيها الدعاء (٧٥٧)، وأحمد (٣/ ٣١٣)، وابن حبان (٢٥٦١).

(٩) أخرجه البخاري في اللباس، باب ما كان النبي ﷺ يتجوز من اللباس والتبسط (٥٥٠٦)، وأبو يعلى (٦٩٨٨).

٢٥٤- فضل صلاة التهجد (٢)

٢٦/ ٩/ ١٤٢٩هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الغَفُورِ الوَدُودِ؛ يَتَوَدَّدُ لِعِبَادِهِ بِالنِّعَمِ وَالْخَيْرَاتِ، وَيُضَاعِفُ لَهُمُ الأُجُورَ وَالْحَسَنَاتِ، وَيُكَفِّرُ عَنْهُمُ الْخَطَايَا وَالسَّيِّئَاتِ، نَحْمَدُهُ عَلَى عَظِيمِ نِعَمِهِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى جَزِيلِ فَضْلِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ لَهُ فِي هَذِهِ اللَّيَالِي هِبَاتٌ وَعَطَايَا وَرَحَمَاتٌ وَنَفَحَاتٌ .. مَنْ أَصَابَتْهُ فَازَ فَوزًا كَبِيرًا، وَمَنْ حُرِمَهَا حُرِمَ خَيْرًا كَثِيرًا. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ خَيرُ مَنْ صَامَ وَقَامَ وَعَبَدَ اللهَ تَعَالَى، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَومِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا المُسْلِمُونَ- وَاغْتَنِمُوا مَا بَقِيَ مِنْ أَعْمَارِكُمْ فِيمَا يَنْفَعُكُمْ، وَأَحْسِنُوا خِتَامَ شَهْرِكُمْ، وَاسْتَعِدُّوا لِمَا أَمَامَكُمْ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ؛ فَإِنَّ الْكَيِّسَ الْفَطِنَ مَنْ عَمَرَ آخِرَتَهُ فِي دُنْيَاهُ، وَسَابَقَ فِي مَغْفِرَةِ رَبِّهِ وَرِضَاهُ، أَلَا وَإِنَّ الْأَعْمَارَ مُسْتَوْدَعُ الْأَعْمَالِ، وَكُلٌّ يَجِدُ غَدًا مَا اسْتَوْدَعَهُ فِيهَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عِمْرَان: ٣٠].

أَيُّهَا النَّاسُ: هَذِهِ اللَّيَالِي المُبَارَكَاتُ مِنْ لَيَالِي الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ؛ تَتَنَزَّلُ فِيهَا رَحَمَاتُهُ، وَتَعْظُمُ هِبَاتُهُ، وَيُعْتِقُ خَلْقًا كَثِيرًا مِنْ عِبَادِهِ مِنَ النَّارِ، وَأَحْظَى النَّاسِ بِذَلِكَ مَنْ عَمَرُوا هَذِهِ اللَّيَالِيَ بِطُولِ الْقُنُوتِ، وَالتَّدَبُّرِ وَالْخُشُوعِ، وَكَثْرَةِ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، وَأَلَحُّوا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بِالدُّعَاءِ فِي أَوْقَاتِ تَجَلِّيهِ سُبْحَانَهُ لِعِبَادِهِ، وَنُزُولِهِ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا؛ لِيُعْطِيَ السَّائِلِينَ، وَيَغْفِرَ لِلْمُسْتَغْفِرِينَ، وَيُجِيبَ دُعَاءَ

الدَّاعِينَ[١]، بَيْنَمَا غَيْرُهُمْ فِي سُبَاتٍ وَرَقْدَةٍ، أَوْ لَهْوٍ وَغَفْلَةٍ.

إِنَّ هَذِهِ اللَّيَالِيَ الْعَظِيمَةَ هِيَ لَيَالِي الذِّكْرِ وَالْقُرْآنِ، وَالدُّعَاءِ وَالْقِيَامِ، وَصَلَاةُ اللَّيْلِ هِيَ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ؛ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ[٢]، وَثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ هُوَ أَفْضَلُ أَجْزَاءِ اللَّيْلِ: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ [الْمُزَّمِّل: ٦]. وَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِصَلَاةِ اللَّيْلِ وَرَغَّبَ فِيهَا، وَحَضَّ الْعِبَادَ عَلَيْهَا فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ [الْإِسْرَاء: ٧٩]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾ [الْإِنْسَان: ٢٦].

وَأَثْنَى سُبْحَانَهُ عَلَى الْمُتَهَجِّدِينَ؛ فَقَالَ فِي وَصْفِهِمْ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ [السَّجْدَة: ١٦].

وَلِأَهَمِّيَّةِ صَلَاةِ اللَّيْلِ فِي حَيَاةِ الْمُسْلِمِ، وَأَثَرِهَا فِي صَلَاحِ قَلْبِهِ، وَاسْتِقَامَةِ دِينِهِ، وَثَبَاتِ أَمْرِهِ؛ كَانَتْ فَرْضًا فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ، وَقَامَ الصَّحَابَةُ ﷺ حَتَّى وَرِمَتْ أَقْدَامُهُمْ مِنْ طُولِ الْقُنُوتِ، ثُمَّ خَفَّفَ اللهُ تَعَالَى عَنِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَرَفَعَ فَرْضَهَا، وَأَبْقَى فَضْلَهَا[٣].

---

(١) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني، فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له**» أخرجه البخاري في الكسوف، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل (١١٤٥)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل (٧٥٨).

(٢) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه، قال: سئل: أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة؟ وأي الصيام أفضل بعد شهر رمضان؟ فقال: «**أفضل الصلاة بعد الصلاة المكتوبة: الصلاة في جوف الليل، وأفضل الصيام بعد شهر رمضان: صيام شهر الله المحرم**» أخرجه مسلم في الصيام، باب فضل صوم المحرم (١١٦٣).

(٣) ينظر الخطبة الماضية: فضل صلاة التهجد (١)، ص (٩٨).

وَفِي هِجْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ لِلْمَدِينَةِ كَانَ قِيَامُ اللَّيْلِ مِنْ أَوَائِلِ مَا حَضَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِ، وَدَعَا النَّاسَ إِلَيْهِ، وَرَغَّبَهُمْ فِيهِ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ رضي الله عنه قَالَ: «لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ المَدِينَةَ انْجَفَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ، وَقِيلَ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لِأَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا اسْتَبَنْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ، فَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ: **يَاأَيُّهَا النَّاسُ: أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ؛ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ بِسَلَامٍ**» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ(٤).

وَأَهْلُ قِيَامِ اللَّيْلِ مَوْعُودُونَ بِغُرَفٍ حَسَنَةٍ فِي أَعَالِي الْجِنَانِ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ لَغُرَفًا يُرَى بُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا، وَظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا**»، فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: لِمَنْ هِيَ؟! قَالَ: «**لِمَنْ أَطَابَ الْكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَصَلَّى لِلَّهِ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ**» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ(٥).

---

(٤) أخرجه الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع، باب (٤٢) وقال: هذا حديث صحيح (٢٤٨٥)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في قيام الليل (١٣٣٤)، والدارمي (١٥٠١)، وأحمد (٥/ ٤٥١)، وعبد بن حميد (٤٩٦)، والحاكم وصححه، وقال: على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي(٣/ ١٤)، قال الألباني في السلسلة الصحيحة: وهو كما قالا (٥٦٩).

(٥) أخرجه الترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في قول المعروف، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن إسحاق، وقد تكلم بعض أهل الحديث في عبد الرحمن بن إسحاق هذا من قبل حفظه، وهو كوفي، وعبد الرحمن بن إسحاق القرشي مدني وهو أثبت من هذا، وكلاهما كانا في عصر واحد (١٩٨٤)، وابن أبي شيبة (٨/ ٦٢٥)، وأحمد (١/ ١٥٦)، وابن خزيمة (٢١٣٦).

وله شاهد من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه عند: عبد الرزاق (٢٠٨٨٣)، وأحمد =

وَجَاءَ فِي حَدِيثِ اخْتِصَامِ المَلَإِ الْأَعْلَى: «**وَالدَّرَجَاتُ: بَذْلُ الطَّعَامِ، وَإِفْشَاءُ السَّلَامِ، وَالصَّلَاةُ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(٦).

وَأَهْلُ قِيَامِ اللَّيْلِ هُمْ أَهْلُ ذِكْرٍ، وَلَيْسُوا أَهْلَ غَفْلَةٍ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٣٥]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنِ اسْتَيْقَظَ مِنَ اللَّيْلِ وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ فَصَلَّيَا رَكْعَتَيْنِ جَمِيعًا كُتِبَا مِنَ الذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ(٧).

وَقَدْ دَعَا النَّبِيُّ ﷺ بِالرَّحْمَةِ لِكُلِّ مَنْ قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَأَيْقَظَ أَهْلَ بَيْتِهِ لِلصَّلَاةِ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**رَحِمَ اللهُ رَجُلًا قَامَ مِنَ**

= (٥/ ٣٤٣)، والطبراني في الكبير (٣٤٦٦)، والبيهقي (٤/ ٣٠٠)، والبغوي في شرح السنَّة (٩٢٧)، وصححه ابن حبان (٥٠٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات (٢/ ٢٥٤).

وآخر من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عند: أحمد (٢/ ١٧٣)، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي (١/ ٣٢١).

(٦) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أحمد (١/ ٣٦٨)، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة (ص) وقال: وقد ذكروا بين أبي قلابة وبين ابن عباس في هذا الحديث رجلًا، وقد رواه قتادة، عن أبي قلابة، عن خالد بن اللجلاج، عن ابن عباس (٣٢٣٣)، وعبد بن حميد (٦٨٢).

وجاء بنحوه من حديث معاذ رضي الله عنه عند: أحمد (٥/ ٢٤٣)، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة (ص) وقال: هذا حديث حسن صحيح، سألت محمد بن إسماعيل، عن هذا الحديث، فقال: «هذا حديث حسن صحيح» (٣٢٣٤).

(٧) أخرجه من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما: أبو داود في الصلاة، باب قيام الليل (١٣٠٩)، وابن ماجه في إقامة الصلاة، باب ما جاء فيمن أيقظ أهله من الليل (١٣٣٥)، والنسائي في الكبرى (١٣١٠)، وصححه ابن حبان (٢٥٦٩)، والحاكم وقال: على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي (١/ ٣١٦)، وقال الألباني في صحيح أبي داود: صحيح على شرط مسلم (١٣٠٥).

اللَّيْلِ فَصَلَّى وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ، فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا المَاءَ، رَحِمَ اللهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ وَأَيْقَظَتْ زَوْجَهَا، فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ المَاءَ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَصَحَّحَهُ ابْنُ خُزَيْمَةَ وَابْنُ حِبَّانَ(٨).

وَالمُحَافَظَةُ عَلَى قِيَامِ اللَّيْلِ مِنْ أَعْظَمِ مَا يُغْبَطُ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ؛ لِأَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُطِيقُونَ الدَّيْمُومَةَ عَلَيْهِ، وَيُشْغَلُونَ عَنْهُ بِمَا هُوَ دُونَهُ مِنَ النَّوْمِ أَوِ اللَّهْوِ أَوِ الدُّنْيَا؛ وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الْقُرْآنَ؛ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا؛ فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ»** رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٩).

وَقِيَامُ اللَّيْلِ سَبَبٌ لِتَرْكِ المَعَاصِي، وَالْإِقْبَالِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى؛ كَمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [الْعَنْكَبُوت: ٤٥]، وَقِيَامُ اللَّيْلِ هُوَ أَفْضَلُ صَلَاةِ التَّطَوُّعِ(١٠)، وَجَاءَ فِي الْمُسْنَدِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: **«جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ فُلَانًا يُصَلِّي بِاللَّيْلِ، فَإِذَا أَصْبَحَ سَرَقَ! قَالَ: إِنَّهُ سَيَنْهَاهُ مَا تَقُولُ»** رَوَاهُ أَحْمَدُ وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ(١١).

---

(٨) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب قيام الليل(١٣٠٨)، والنسائي في قيام الليل، باب الترغيب في قيام الليل (٣/ ٢٠٥)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء فيمن أيقظ أهله من الليل(١٣٣٦)، وأحمد (٢/ ٢٥٠)، وصححه ابن خزيمة (١١٤٨)، وابن حبان (٢٨٦٧) والحاكم وقال: على شرط مسلم، ووافقه الذهبي (١/ ٣٠٩).

(٩) أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن، ويعلمه، وفضل من تعلم حكمة من فقه، أو غيره فعمل بها وعلمها (٨١٥).
وأخرجه بنحوه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في التوحيد، باب قول النبي ﷺ: **«رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل يقول: لو أوتيت مثل ما أوتي هذا فعلت كما يفعل»** (٧٥٢٨).

(١٠) ينظر حديث أبي هريرة رضي الله عنه السابق في حاشية (٢).

(١١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٤٧)، والبزار (٧٢٠)، وصححه ابن حبان (٢٥٦٠).

وَمَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ عَلَى قِيَامِ اللَّيْلِ مَعَ شِدَّةِ الدَّاعِي إِلَى النَّوْمِ وَالرَّاحَةِ، وَمُغَالَبَةِ السَّهَرِ وَالتَّعَبِ؛ فَلَهُ مَا سَأَلَ؛ جَزَاءً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى جِهَادِهِ لِنَفْسِهِ، وَقِيَامِهِ لِرَبِّهِ ﷻ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﵁ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**رَجُلَانِ مِنْ أُمَّتِي يَقُومُ أَحَدُهُمَا مِنَ اللَّيْلِ فَيُعَالِجُ نَفْسَهُ إِلَى الطَّهُورِ وَعَلَيْهِ عُقَدٌ فَيَتَوَضَّأُ، فَإِذَا وَضَّأَ يَدَيْهِ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، وَإِذَا وَضَّأَ وَجْهَهُ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، وَإِذَا مَسَحَ رَأْسَهُ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، وَإِذَا وَضَّأَ رِجْلَيْهِ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَيَقُولُ الرَّبُّ ﷿ لِلَّذِينَ وَرَاءَ الْحِجَابِ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي هَذَا يُعَالِجُ نَفْسَهُ، مَا سَأَلَنِي عَبْدِي هَذَا فَهُوَ لَهُ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ(١٢).

وَلِمَا فِي قِيَامِ اللَّيْلِ مِنَ الْفَضَائِلِ وَالْمَنَافِعِ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَدْعُو أَهْلَهُ وَآلَ بَيْتِهِ لَهُ، كَمَا دَعَا إِلَيْهِ عَلِيًّا وَفَاطِمَةَ ﵄(١٣).

وَأَوْصَتْ عَائِشَةُ ﵂ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي قَيْسٍ بِقِيَامِ اللَّيْلِ، وَرَغَّبَتْهُ فِيهِ، فَقَالَتْ ﵂: «لَا تَدَعْ قِيَامَ اللَّيْلِ؛ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ لَا يَدَعُهُ، وَكَانَ إِذَا مَرِضَ أَوْ كَسِلَ صَلَّى قَاعِدًا» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَصَحَّحَهُ ابْنُ خُزَيْمَةَ(١٤).

---

(١٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٩)، وأبو يعلى (١٧٥١)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٤١٦)، وصححه ابن حبان (٢٥٥٥).

(١٣) عن علي بن أبي طالب ﵁: أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت النبي ﵇ ليلة، فقال: «**ألا تصليان؟**» فقلت: يا رسول الله، أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف حين قلنا ذلك ولم يرجع إلي شيئًا، ثم سمعته وهو مول يضرب فخذه، وهو يقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤] أخرجه البخاري في الكسوف، باب تحريض النبي ﷺ على صلاة الليل والنوافل من غير إيجاب، والسياق له (١١٢٧)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب ما روي فيمن نام الليل أجمع . . . (٧٧٥).

(١٤) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب قيام الليل (١٣٠٧)، والطيالسي (١٥١٩)، والبخاري في الأدب المفرد (٨٠٠)، وصححه ابن خزيمة (١١٣٧)، والحاكم، وقال: على شرط مسلم، ووافقه الذهبي (١/ ٤٤٣).

فَكَيْفَ إِذَا أُضِيفَ إِلَى هَذِهِ الْفَضَائِلِ الْعَظِيمَةِ لِقِيَامِ اللَّيْلِ شَرَفُ الزَّمَانِ وَالمَكَانِ، وَفَضِيلَةُ اجْتِمَاعِ المُسْلِمِينَ فِي المَسَاجِدِ عَلَى التَّهَجُّدِ فِي هَذِهِ اللَّيَالِي الْفَاضِلَةِ؟! وَقَدْ جَاءَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١٥). وَعَنْهُ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٦).

فَهَنِيئًا لِمَنْ وَفَّقَهُ اللهُ تَعَالَى لِإِحْيَاءِ هَذِهِ اللَّيَالِي الْفَاضِلَةِ بِالصَّلَاةِ وَالْقُرْآنِ وَالدُّعَاءِ، وَهُوَ مُخْلِصٌ لِلَّهِ تَعَالَى فِي عَمَلِهِ؛ فَإِنَّهُ عَلَى خَيْرٍ عَظِيمٍ، وَيَا خَسَارَةَ مَنْ ضَيَّعَهَا فِي اللَّهْوِ وَالْغَفْلَةِ! وَوَاجِبٌ عَلَيْهِ أَنْ يُبَادِرَ إِلَى التَّوْبَةِ، وَيَغْتَنِمَ مَا بَقِيَ مِنْ هَذَا الشَّهْرِ الْكَرِيمِ، فَعَسَى أَنْ يُعَوِّضَ مَا فَاتَهُ مِنْهُ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزُّمَر: ٩].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ . . .

❀ ❀ ❀

---

(١٥) أخرجه البخاري في الإيمان، باب: تطوع رمضان من الإيمان (٣٧)، ومسلم في صلاة المسافرين، باب الترغيب في قيام رمضان (٧٥٩).

(١٦) أخرجه البخاري في الإيمان، باب: قيام ليلة القدر (٣٥)، ومسلم في صلاة المسافرين، باب الترغيب في قيام رمضان (٧٦٠).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِ وَجْهِهِ وَعَظِيم سُلْطَانِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٨١].

أَيُّهَا النَّاسُ: مَنِ اعْتَادَ عَلَى قِيَامِ رَمَضَانَ؛ فَإِنَّهُ قَادِرٌ -بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى- عَلَى أَنْ يُحَافِظَ بَعْدَ رَمَضَانَ عَلَى قَدْرٍ مِنَ الْقِيَامِ فِي أَوَّلِ اللَّيْلِ أَوْ آخِرِهِ، وَذَلِكَ أَفْضَلُ، وَلَا يَهْجُرُ قِيَامَ اللَّيْلِ إِلَى رَمَضَانَ الْقَابِلِ، وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ﵄ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ، وَمَنْ قَامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْقَانِتِينَ، وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْمُقَنْطِرِينَ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[١٧].

وَاعْلَمُوا -عِبَادَ اللَّهِ- أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ شَرَعَ لَنَا زَكَاةَ الْفِطْرِ؛ تُرَقِّعُ مَا تَخَرَّقَ مِنْ صِيَامِنَا، وَتَنْفَعُ المَسَاكِينَ مِنْ إِخْوَانِنَا؛ كَمَا رَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ ﵄ قَالَ: «فَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَكَاةَ الْفِطْرِ طُهْرَةً لِلصَّائِمِ مِنَ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ، وَطُعْمَةً لِلْمَسَاكِينِ، مَنْ أَدَّاهَا قَبْلَ الصَّلَاةِ فَهِيَ زَكَاةٌ مَقْبُولَةٌ، وَمَنْ أَدَّاهَا بَعْدَ الصَّلَاةِ

(١٧) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب تحزيب القرآن (١٣٩٨)، وابن السني (٧٠١)، وابن خزيمة (١١٤٤)، وابن المنذر في الأوسط (٥١٠)، والبيهقي في الشعب (٢١٩٤)، وصححه ابن حبان (٢٥٧٢)، وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، وجود إسناده (٦٤٢).

فَهِيَ صَدَقَةٌ مِنَ الصَّدَقَاتِ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(١٨).

وَهِيَ صَاعٌ مِنْ طَعَامٍ، تُؤَدَّى قَبْلَ صَلَاةِ الْعِيدِ، وَيَجُوزُ تَقْدِيمُهَا قَبْلَ الْعِيدِ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ؛ كَمَا فَعَلَ الصَّحَابَةُ ﷺ، رَوَى ابْنُ عُمَرَ ﷺ قَالَ: «فَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ زَكَاةَ الْفِطْرِ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ، عَلَى الْعَبْدِ وَالْحُرِّ، وَالذَّكَرِ وَالْأُنْثَى، وَالصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَمَرَ بِهَا أَنْ تُؤَدَّى قَبْلَ خُرُوجِ النَّاسِ إِلَى الصَّلَاةِ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٩).

وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ: قَالَ نَافِعٌ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «فَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يُعْطِي عَنِ الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ، حَتَى إِنْ كَانَ يُعْطِي عَنْ بَنِيَّ، وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ ﷺ يُعْطِيهَا الَّذِينَ يَقْبَلُونَهَا، وَكَانُوا يُعْطَوْنَ قَبْلَ الْفِطْرِ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ»(٢٠).

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَتَقَبَّلَ مِنَّا وَمِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ يُخْلِفَ رَمَضَانَ عَلَيْنَا بِخَيْرٍ، وَأَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ . . .

---

(١٨) أخرجه أبو داود في الزكاة، باب زكاة الفطر (١٩٠٦)، وابن ماجه في الزكاة، باب صدقة الفطر (١٨٢٧)، والدارقطني (٢/ ١٣٨)، والبيهقي في فضائل الأوقات (١٤٧)، والحاكم، وقال: صحيح على شرط البخاري ووافقه الذهبي (١/ ٤٠٩)، قال الألباني في الإرواء (٨٤٣): وأقره المنذري في الترغيب والحافظ في بلوغ المرام، وفى ذلك نظر؛ لأن من دون عكرمة لم يخرج لهم البخاري شيئًا، وهم صدوقون سوى مروان فثقة، فالسند حسن، وقد حسنه النووي في المجموع (٦/ ١٢٦)، ومن قبله ابن قدامة في المغني (٣/ ٥٦).

(١٩) أخرجه البخاري في الزكاة، باب صدقة الفطر (١٥٠٣)، ومسلم في الزكاة، باب زكاة الفطر على المسلمين من التمر والشعير (٩٨٤).

(٢٠) هذه الرواية للبخاري في الزكاة، باب: صدقة الفطر على الحر والمملوك (١٥١١).

٢٥٥- في ختام رمضان مفلحون وغافلون

٢٥/ ٩/ ١٤١٥هـ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ، فَيَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: يُوشِكُ رَمَضَانُ عَلَى الِانْقِضَاءِ، وَتُوشِكُ صَحَائِفُهُ عَلَى الِانْطِوَاءِ، وَتِلْكَ سُنَّةُ الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ، وَقَدَرُ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالدَّائِمُ الَّذِي لَا يَفْنَى.

وَدَّ الْمُؤْمِنُونَ الْقَانِتُونَ أَنْ يَطُولَ رَمَضَانُ، وَتَبْقَى أَيَّامُهُ وَلَيَالِيهِ؛ فَهُمْ فِي رِيَاضِ الطَّاعَاتِ يَتَقَلَّبُونَ، وَمِنْ نَعِيمِ الْعِبَادَاتِ يَتَزَوَّدُونَ. قُلُوبُهُمْ فِيهِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مُقْبِلَةٌ، وَلِجَنَّاتِ الْخُلْدِ مُشْتَاقَةٌ، لَا تَمِيلُ إِلَى الدُّنْيَا، وَلَا تَمِيدُ بِالشَّهَوَاتِ. ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٧-١٩]، وَهُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ، وَبِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ، وَبِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ، ﴿يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي

ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠، ٦١].

لَوْ رَأَيْتُمُوهُمْ فِي مُصَلَّاهُمْ آخِرَ اللَّيْلِ، قُلُوبُهُمْ مُتَعَلِّقَةٌ بِرَبِّهِمْ، يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ، وَيَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا، وَيَلْهَجُونَ بِالذِّكْرِ وَالْقُرْآنِ، وَيَلْتَمِسُونَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، وَيَتَحَرَّوْنَ سَاعَاتِ الْإِجَابَةِ، وَأَوْقَاتَ نُزُولِ الْجَبَّارِ.

عَلِمُوا أَنَّ رَبَّهُمْ يَنْزِلُ ثُلُثَ اللَّيْلِ الْآخِرِ فَاسْتَعَدُّوا لِذَلِكُمُ النُّزُولِ، يَقُولُ اللهُ ﷻ: «**مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟**»، فَإِذَا هُمُ الْمُسْتَغْفِرُونَ، وَالنَّاسُ لَاهُونَ، وَيَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «**مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟**»، فَإِذَا هُمُ السَّائِلُونَ وَالنَّاسُ غَافِلُونَ، وَيَقُولُ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: «**مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟**»[1]، فَإِذَا هُمُ الدَّاعُونَ وَالنَّاسُ يَلْعَبُونَ.

وَلَكِنَّهُمْ مَعَ هَذَا لَا يَأْمَنُونَ مَكْرَ اللَّهِ تَعَالَى، كَمَا أَنَّهُمْ لَا يَيْأَسُونَ مِنْ رَحْمَتِهِ سُبْحَانَهُ، يَعْلَمُونَ أَنَّ بَطْشَ رَبِّهِمْ شَدِيدٌ، وَأَنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ؛ فَخَافُوا مَقَامَهُ، وَاسْتَعَدُّوا لِلِقَائِهِ، كَمَا أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ رَحْمَةَ رَبِّهِمْ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، وَأَنَّهَا تَغْلِبُ غَضَبَهُ، وَأَنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، وَأَكْرَمُ الْأَكْرَمِينَ، فَتَعَلَّقُوا بِجَنَابِهِ، وَلَاذُوا بِبَابِهِ . .

اسْتَغْفَرُوا رَبَّهُمْ فَغَفَرَ لَهُمْ، وَسَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، وَدَعَوْهُ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُوَفَّقُونَ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، الْمَرْحُومُونَ مِنْ خَلْقِهِ ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أَهُوَ الرَّجُلُ يَزْنِي وَيَسْرِقُ وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ؟ قَالَ: «**لَا يَا بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ**

(١) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند: البخاري في الكسوف، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل (١١٤٥)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل (٧٥٨).

-أَوْ لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ- وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ، وَهُوَ يَخَافُ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُ» أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ(٢).

وَأَمَّا فِي الْقِيَامَةِ فَهُمْ يَتَذَاكَرُونَ هَذِهِ الْأَيَّامَ وَاللَّيَالِيَ الْجَمِيلَةَ، وَيَتَسَاءَلُونَ عَنْهَا، وَهُمْ فِي الْجَنَّةِ مُخَلَّدُونَ ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٥-٢٨].

وَفِي ضِمْنِ تَسَاؤُلِهِمْ وَمُحَاوَرَتِهِمْ يَتَذَاكَرُونَ أَحْوَالَ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَصْرِفُونَهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ وَآخِرَتِهِمْ إِلَى الدُّنْيَا وَزُخْرُفِهَا ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ [الصافات: ٥٠-٥٤]، ثُمَّ يَطَّلِعُونَ فِي النَّارِ عَلَى مَنِ اسْتَبْدَلُوا بِآخِرَتِهِمْ دُنْيَاهُمْ ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات: ٥٥-٥٧].

وَبَعْدَ هَذِهِ الْمُحَاوَرَةِ يَتَحَاوَرُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ مِمَّا يَرَوْنَ مِنْ نَعِيمِ الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصافات: ٥٨-٦٠]، وَلَعَمْرُ اللَّهِ لَنْ يَذُوقُوا الْمَوْتَ إِلَّا فِي الدُّنْيَا ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ۖ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الدخان: ٥٦، ٥٧].

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: لِمِثْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ . . وَمَا صَامَ الصَّائِمُونَ، وَقَامَ الْقَائِمُونَ، وَتَعِبُوا وَجَدُّوا وَشَمَّرُوا فِي طَاعَةِ رَبِّهِمْ إِلَّا زَادًا لِذَلِكَ الْيَوْمِ

---

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ١٥٩)، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة المؤمنون (٣١٧٥)، وابن ماجه في الزهد، باب التوقي على العمل (٤١٩٨)، وأبو يعلى (٤٩١٧)، وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٦٢).

الْعَظِيمِ، تِلْكَ سِيرَتُهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَهَذِهِ حَيَاتُهُمْ قَضَوْهَا فِي طَاعَةِ رَبِّهِمْ، فَاسْتَحَقُّوا النِّهَايَةَ الْحَسَنَةَ، وَالْعَاقِبَةَ الْحَمِيدَةَ، فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ، هَنِيئًا لَهُمْ مَا قَضَوْا مِنْ أَيَّامِ رَمَضَانَ فِي الصِّيَامِ وَالْقِيَامِ وَطَاعَةِ الرَّحْمَنِ.

هَذَا هُوَ الْحَدِيثُ إِلَيْهِمْ، وَتِلْكَ بُشْرَاهُمْ نَزُفُّهَا لَهُمْ، ثَبَّتَنَا اللهُ تَعَالَى وَإِيَّاهُمْ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ، وَهَدَانَا وَإِيَّاهُمُ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، وَأَنَارَ لَنَا وَلَهُمُ السَّبِيلَ الْمُبِينَ.

أَمَّا الْمُفَرِّطُونَ الْغَافِلُونَ فَالْحَدِيثُ إِلَيْهِمْ حَدِيثُ الْمُشْفِقِينَ عَلَيْهِمْ، النَّاصِحِينَ لَهُمْ، حَدِيثٌ كُلُّهُ عَطْفٌ وَمَوَدَّةٌ وَرَحْمَةٌ، حَدِيثٌ مِنَ الْقَلْبِ نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَسْتَقِرَّ فِي الْقَلْبِ، حَدِيثٌ لَا تَنْقُصُهُ الصَّرَاحَةُ، وَقَدْ يَكُونُ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ قَسْوَةٍ عَلَى قَدْرِ الْغَفْلَةِ وَالتَّفْرِيطِ، لَكِنَّهَا قَسْوَةٌ بِإِشْفَاقٍ لَعَلَّهَا تَقُودُ إِلَى تَوْبَةٍ وَإِنَابَةٍ.

أَيُّهَا الْغَافِلُونَ: هَا هُوَ رَمَضَانُ مَرَّ عَلَيْكُمْ كَمَا مَرَّ عَلَى الْمُخْبِتِينَ سَاعَةً بِسَاعَةٍ، وَيَوْمًا بِيَوْمٍ، لَمْ تَنْفَعْكُمْ غَفْلَتُكُمْ، وَلَمْ يُغْنِ عَنْكُمْ لَهْوُكُمْ، كَيْفَ قَضَيْتُمْ رَمَضَانَ؟ رَاجِعُوا أَنْفُسَكُمْ، وَتَذَكَّرُوا مَا عَمِلْتُمْ فِي أَيَّامِكُمْ، نِمْتُمْ نَهَارَهُ، وَسَهِرْتُمْ لَيْلَهُ، ثُمَّ مَاذَا؟ ضَيَّعْتُمْ قِيَامَ رَمَضَانَ، وَلَرُبَّمَا أَلْحَقْتُمْ بِهِ بَعْضَ الْفَرَائِضِ، ثُمَّ مَاذَا أَيُّهَا اللَّاهُونَ؟

فِي لَيَالِي رَمَضَانَ بَيْنَمَا الْمُتَّقُونَ فِي الْمَسَاجِدِ يُصَلُّونَ وَيَخْشَعُونَ، تُزَاحِمُهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَتَغْشَاهُمُ الرَّحْمَةُ، وَتَنْزِلُ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، كُنْتُمْ -أَيُّهَا اللَّاهُونَ- فِي مَجَالِسِ الْبَاطِلِ تَعْمَهُونَ .. تُزَاحِمُونَ الشَّيَاطِينَ، فِي لَعِبٍ وَغَفْلَةٍ، وَضَيَاعٍ وَسَكْرَةٍ، وَقَدْ مَرَّتِ الْأَيَّامُ وَانْقَضَتِ اللَّيَالِي، أَلَا يَجِدُ النَّدَمُ إِلَى نُفُوسِكُمْ سَبِيلًا، وَالْإِنَابَةُ إِلَى قُلُوبِكُمْ طَرِيقًا؟! أَلَا تَكُونُ التَّوْبَةُ بَابًا تَدْخُلُونَ مِنْهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؟ وَصَفْحَةً تُبَيِّضُونَ بِهَا مَا اسْوَدَّ مِنْ حَيَاتِكُمْ؟ هَلْ تَؤُوبُونَ إِلَى رَبِّكُمْ وَتَرْجِعُونَ أَمْ

تُرَاكُمْ عَلَى غَفْلَتِكُمْ مُقِيمُونَ؟ أَلَمْ يَأْنِ لِقُلُوبِكُمْ أَنْ تَحْيَا بَعْدَ مَوْتِهَا؟ أَلَمْ يَأْنِ لِعُقُولِكُمْ أَنْ تُفِيقَ مِنْ سُكْرِهَا؟ أَمَا آنَ لَكُمْ أَنْ تَتَعَرَّضُوا لِنَفَحَاتِ رَبِّكُمْ فِي بَقِيَّةِ شَهْرِكُمْ، فَعَسَى نَفْحَةٌ تَغْشَاكُمْ فَتَسْعَدُونَ بِهَا وَلَا تَشْقَوْنَ أَبَدًا؟ أَمْ تُرَى الشَّيْطَانُ قَدْ تَمَكَّنَ مِنْ قُلُوبِكُمْ، وَغَطَّى سَعِيرُ الشَّهَوَاتِ عُقُولَكُمْ؛ فَلَمْ تَعُدِ المَوَاعِظُ تُجْدِي، وَلَا الذِّكْرَى تَنْفَعُ؟ فَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَلْيُكَبِّرْ عَلَيْهِ أَرْبَعًا؛ فَقَدْ مَاتَتْ رُوحُهُ، وَمَاتَ قَلْبُهُ، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَحَرِيٌّ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ، أَحْسَنَ اللهُ الْعَزَاءَ فِي مُصَابِهِ!

يَا مَنْ غَرَّتْهُ الْأَمَانِي، وَذَاقَ مَرَارَةَ المَعَاصِي، يَا مَنْ غَرِق فِي لُجَجِ الْآثَامِ، وَتَاهَ فِي غُبَارِ الشَّهَوَاتِ، أَلَا يَكُنْ مِنْكَ إِقْبَالٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى؟ جَرَّبْتَ طَرِيقَ الْأَوْزَارِ، وَهَتَكْتَ الْحُرُمَاتِ، وَاسْتَهَنْتَ بِأَوَامِرِ مَوْلَاكَ، فَمَا وَجَدْتَ فِي ذَلِكَ إِلَّا شَقَاءً عَلَى شَقَاءٍ! تَعِسَتْ نَفْسُكَ، وَشَقِيَ قَلْبُكَ، وَتَعِبَ جَسَدُكَ، وَكَلَّ عَقْلُكَ، وَسَاءَتْ أَخْلَاقُكَ. وَجْهُكَ عَبُوسٌ دَائِمًا، وَنَفْسُكَ ضَيِّقَةٌ جِدًّا، تَغْضَبُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَيَظْهَرُ عَلَيْكَ الْبُؤْسُ وَالْحُزْنُ، وَتَتَّسِمُ بِالصَّمْتِ وَالتَّأَفُّفِ، وَمَا مِنْ شَيْءٍ مِنْ أَعْرَاضِ الدُّنْيَا إِلَّا وَهُوَ عِنْدَكَ، ظَنَّ النَّاسُ أَنَّكَ أَسْعَدُهُمْ بِالمَالِ وَالْجَاهِ وَالدُّنْيَا، فَإِذَا أَنْتَ أَشْقَاهُمْ، فَلِمَ تِلْكَ الشَّقَاوَةُ؟ وَفِيمَ ذَلِكُمُ الْبُؤْسُ؟ أَلَمْ تُفَتِّشْ عَنْ سَبَبِ ذَلِكَ؟

اقْرَأْ كِتَابَ اللَّهِ لِتَجِدَ أَنَّ سَبَبَ بُؤْسِكَ إِعْرَاضُكَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ هَذَا فِي الدُّنْيَا، أَمَّا فِي الْآخِرَةِ إِذَا لَمْ تُرَاجِعْ نَفْسَكَ، وَتَؤُبْ إِلَى رَبِّكَ، فَاسْتَمِعْ إِلَى المَصِيرِ الْمُنْتَظَرِ ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦].

وَأَمَّا عِنْدَ المَوْتِ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾، يَتَمَنَّى الرُّجُوعَ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَيُجَابُ: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

هَلْ عَرَفْتَ سِرَّ ضَنْكِكَ وَضِيقِكَ؟ وَهَلْ أَدْرَكْتَ سَبَبَ ضَيَاعِكَ وَتِيهِكَ؟ فَهَلْ تُزِيلُ ذَلِكَ وَتَنْضَمُّ إِلَى قَوَافِلِ التَّائِبِينَ الآيِبِينَ، وَتَقِفُ فِي صُفُوفِ المُتَّقِينَ المُخْلَصِينَ، فَتَسْعَدُ سَعَادَةً لَنْ تَجِدَهَا فِي مَالٍ أَوْ جَاهٍ أَوْ دُنْيَا؟ إِنَّمَا هِيَ فِي التَّقْوَى، أَلَا تُقْبِلُ عَلَى اللَّهِ وَتَدْحَرُ عَدُوَّكَ الرَّجِيمَ؟

اللهُ الَّذِي خَلَقَكَ وَرَزَقَكَ وَأَعْطَاكَ، وَهُوَ تَعَالَى أَرْحَمُ بِكَ مِنْ نَفْسِكَ، إِنَّهُ يَفْرَحُ بِتَوْبَتِكَ، لَا يَزَالُ يُنَادِيكَ ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، وَهُوَ جَلَّ وَعَلَا يُخْبِرُكَ ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، وَيُحَذِّرُكَ مِنْ أَحَابِيلِ عَدُوِّكَ الشَّيْطَانِ أَنْ يَزْرَعَ الْيَأْسَ مِنْ رَحْمَتِهِ فِي قَلْبِكَ، فَيُخَاطِبُكَ ﷻ: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، فَهَلْ فَقِهْتَ الْحَدِيثَ يَا رَعَاكَ اللهُ؟ وَهَلِ اسْتَفَدْتَ مِنْ مَوَاعِظِ الْكِتَابِ الْعَظِيمِ، وَزَوَاجِرِ السُّنَّةِ المُطَهَّرَةِ؟ يُصَدِّقُ ذَلِكَ تَوْبَتُكَ وَإِنَابَتُكَ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨]. بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ . . .

❁ ❁ ❁

الخُطبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ: اتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَدَاوِمُوا عَلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ بَعْدَ شَهْرِكُمْ، فَرَبُّ رَمَضَانَ هُوَ رَبُّ الشُّهُورِ كُلِّهَا، وَعَلَامَةُ الْقَبُولِ إِتْبَاعُ الْحَسَنَةِ حَسَنَةً مِثْلَهَا، وَعَلَامَةُ الرَّدِّ وَالْخَسَارَةِ الْإِسَاءَةُ بَعْدَ الْإِحْسَانِ، وَالِانْتِكَاسُ بَعْدَ الِاسْتِقَامَةِ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: أَوْجَبَ اللهُ عَلَى الصَّائِمِ أَنْ يُخْرِجَ زَكَاةَ الْفِطْرِ طُهْرَةً لِصَوْمِهِ، وَطُعْمَةً لِلْمَسَاكِينِ، قَالَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما: «**فَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَكَاةَ الفِطْرِ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ عَلَى العَبْدِ وَالحُرِّ، وَالذَّكَرِ وَالأُنْثَى، وَالصَّغِيرِ وَالكَبِيرِ مِنَ المُسْلِمِينَ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٣)، وَلَا تَجِبُ عَلَى الْحَمْلِ الَّذِي فِي الْبَطْنِ، إِلَّا أَنْ يُتَطَوَّعَ بِإِخْرَاجِهَا، فَقَدْ أَخْرَجَهَا عَنْهُ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رضي الله عنه(٤)، يُخْرِجُهَا الْإِنْسَانُ عَنْ نَفْسِهِ وَمَنْ تَلْزَمُهُ نَفَقَتُهُ، وَمَنْ كَانَ قَادِرًا فَالْأَفْضَلُ فِي حَقِّهِ أَنْ يُخْرِجَهَا مِنْ مَالِهِ، حَتَّى وَلَوْ كَانَ لَهُ عَائِلٌ يَعُولُهُ.

---

(٣) أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: البخاري في الزكاة، باب إخراج صدقة الفطر (١٥٠٣)، ومسلم في الزكاة، باب زكاة الفطر على المسلمين من التمر والشعير (٩٨٤).

(٤) عن حميد بن بكر وقتادة: «أن عثمان كان يعطي صدقة الفطر عن الصغير والكبير والحمل» مسائل أحمد بن حنبل رواية ابنه عبد الله (١٧٠)، ورواه عن حميد ابن أبي شيبة (٢/ ٤٣٢).
وعن أبي قلابة، قال: «كانوا يعطون صدقة الفطر حتى يعطوا عن الحبل» أخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ٤٣٢).

وأما الوجوب فلا يجب، قال ابن المنذر -رحمه الله تعالى-: «وأجمعوا على أن لا زكاة على الجنين في بطن أمه، وانفرد ابن حنبل فكان يحبه ولا يوجبه» الإجماع (٤٥).

وَوَقْتُهَا الْفَاضِلُ يَوْمُ الْعِيدِ قَبْلَ الصَّلَاةِ، وَإِنْ أَخْرَجَهَا قَبْلَ الْعِيدِ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ فَجَائِزٌ(٥)، وَلَا يَجُوزُ تَأْخِيرُهَا إِلَى الصَّلَاةِ، فَمَنْ أَخَّرَهَا بِلَا عُذْرٍ لَمْ تُقْبَلْ مِنْهُ.

كَمَا شَرَعَ اللهُ تَعَالَى لِلْمُسْلِمِينَ التَّكْبِيرَ مِنْ غُرُوبِ الشَّمْسِ لَيْلَةَ الْعِيدِ إِلَى صَلَاةِ الْعِيدِ ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وَصِفَتُهُ أَنْ يَقُولَ الْإِنْسَانُ: اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ، يَجْهَرُ بِهَا الرِّجَالُ فِي الْمَسَاجِدِ وَالْأَسْوَاقِ وَالْبُيُوتِ؛ إِعْلَانًا بِتَعْظِيمِ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِظْهَارًا لِعِبَادَتِهِ وَشُكْرِهِ، وَالنِّسَاءُ يُكَبِّرْنَ فِي السِّرِّ؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ فِيهِنَّ التَّسَتُّرُ وَالْحَيَاءُ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: فِي يَوْمِ الْعِيدِ يُسَنُّ لِلرَّجُلِ أَنْ يَتَجَمَّلَ وَيَلْبَسَ أَحْسَنَ ثِيَابِهِ، وَقَبْلَ الْخُرُوجِ لِصَلَاةِ الْعِيدِ يَأْكُلُ تَمَرَاتٍ وِتْرًا، قَالَ أَنَسٌ رضي الله عنه: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَا يَغْدُو يَوْمَ الْفِطْرِ حَتَّى يَأْكُلَ تَمَرَاتٍ وَيَأْكُلُهُنَّ وِتْرًا» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٦).

وَيَذْهَبُ لِصَلَاةِ الْعِيدِ مِنْ طَرِيقٍ ثُمَّ يَرْجِعُ مِنْ طَرِيقٍ آخَرَ، كَمَا يُسَنُّ لِلنِّسَاءِ أَنْ يَخْرُجْنَ لِصَلَاةِ الْعِيدِ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ، وَلَا مُتَطَيِّبَاتٍ، بَلْ مُتَسَتِّرَاتٍ مُحْتَشِمَاتٍ حَيِيَّاتٍ، قَالَتْ أُمُّ عَطِيَّةَ رضي الله عنها: أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نُخْرِجَهُنَّ فِي الْفِطْرِ وَالْأَضْحَى: الْعَوَاتِقَ، وَالْحُيَّضَ، وَذَوَاتِ الْخُدُورِ؛ فَأَمَّا الْحُيَّضُ فَيَعْتَزِلْنَ الصَّلَاةَ، وَيَشْهَدْنَ الْخَيْرَ، وَدَعْوَةَ الْمُسْلِمِينَ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِحْدَانَا لَا يَكُونُ لَهَا جِلْبَابٌ، قَالَ: «**لِتُلْبِسْهَا أُخْتُهَا مِنْ جِلْبَابِهَا**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٧).

---

(٥) لقول نافع راوي الحديث عن ابن عمر: «وكَانَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما يُعْطِيهَا الَّذِينَ يَقْبَلُونَهَا، وَكَانُوا يُعْطُونَ قَبْلَ الفِطْرِ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ» أخرجه البخاري (١٥١١).

(٦) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه: البخاري في العيدين، باب الأكل يوم الفطر قبل الخروج (٩١٠).

(٧) أخرجه البخاري في العيدين، باب خروج النساء والحيض إلى المصلى (٩٧٤)، ومسلم =

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: مَنْ كَانَ عَلَيْهِ أَيَّامٌ مِنْ رَمَضَانَ قَدْ أَفْطَرَهَا لِعُذْرٍ أَوْ لِغَيْرِ عُذْرٍ فَعَلَيْهِ المُبَادَرَةُ بِالْقَضَاءِ؛ إِبْرَاءً لِلذِّمَّةِ، وَمُسَارَعَةً لِلْخُرُوجِ مِنَ الْعُهْدَةِ، وَلَا يَجُوزُ تَأْخِيرُ الْقَضَاءِ إِلَى مَا بَعْدَ رَمَضَانَ مِنَ السَّنَةِ الْقَادِمَةِ لِغَيْرِ عُذْرٍ، وَيُسْتَحَبُّ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَصُومَ سِتَّةَ أَيَّامٍ مِنْ شَوَّالٍ، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَنْ صَامَ رَمَضَانَ ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ كَانَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ**» أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه(٨).

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: تَقْوَى اللَّهِ لَيْسَتْ فِي رَمَضَانَ فَقَطْ، بَلْ فِي كُلِّ الْأَيَّامِ وَالشُّهُورِ. إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَجْعَلُ الْعِيدَ فِسْقًا وَفُجُورًا، وَالْوَاجِبُ أَنْ يَكُونَ شُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى الصِّيَامِ وَالْقِيَامِ، وَلَيْسَ مِنَ الشُّكْرِ أَنْ تَتَبَرَّجَ النِّسَاءُ، وَيَتَسَاهَلْنَ بِالْحِجَابِ، وَيَجُبْنَ الْبِلَادَ عَرْضًا وَطُولًا فِي الْأَسْوَاقِ وَالشَّوَارِعِ وَالْمُتَنَزَّهَاتِ، وَكُلٌّ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ.

لِيَنْظُرْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا إِلَى اللِّبَاسِ الْمُعَدِّ لِلْعِيدِ لِبَنَاتِهِ وَزَوْجَتِهِ وَأَخَوَاتِهِ؛ فَإِنْ كَانَ سَاتِرًا فَضْفَاضًا وَإِلَّا وَجَبَ عَلَيْهِ مَنْعُهُنَّ مِنْ لُبْسِهِ، وَلَيْسَ هَذَا مِنَ التَّدَخُّلِ فِيمَا لَا يَعْنِي، بَلْ هُوَ فِيمَا يَعْنِي وَهُوَ مِنَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَهُوَ مِنْ وِقَايَةِ الْأَهْلِ وَالْأَوْلَادِ مِنَ النَّارِ، وَهُوَ حِفْظٌ لِلْمُجْتَمَعِ مِنَ الْفِتْنَةِ وَالْفَسَادِ الْكَبِيرِ. وَإِذَا كَانَ التَّسَاهُلُ فِي لِبَاسِ النِّسَاءِ وَالتَّبَرُّجُ وَالسُّفُورُ فِي الْعِيدِ مُنْكَرًا ظَاهِرًا مَلْحُوظًا، فَثَمَّةَ مُنْكَرٌ آخَرُ حِينَمَا تَضِيعُ أَوْقَاتُ النَّاسِ فِي السَّهَرِ الْمُحَرَّمِ، فَيُقْضَى اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ فِي أَنْوَاعِ اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ وَمِنْهُ الْمُحَرَّمُ؛ كَالرَّقْصَاتِ الشَّعْبِيَّةِ،

= في صلاة العيدين، باب ذكر إباحة خروج النساء في العيدين إلى المصلى وشهود الخطبة (٨٩٠).

(٨) أخرجه مسلم في الصيام، باب استحباب صوم ستة أيام من شوال إتباعًا لرمضان (١١٦٤).

وَالْعَرْضَاتِ الْمُتَنَوِّعَةِ، وَالمَعَازِفِ وَالمَزَامِيرِ!! فَسُبْحَانَ اللَّهِ! كَيْفَ يَنْقَلِبُ الْحَالُ، وَيَنْتَكِسُ النَّاسُ؟! فِي آخِرِ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ كَانَ صَوْتُ الْقُرْآنِ عَالِيًا فِي المَسَاجِدِ وَالْبُيُوتِ، وَرُبَّمَا فِي الْأَسْوَاقِ، وَبَعْدَهَا بِلَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ يَنْقَلِبُ الْأَمْرُ رَأْسًا عَلَى عَقِبٍ، فَتَحِلُّ المَزَامِيرُ مَحَلَّ الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ، وَيَحِلُّ الْغِنَاءُ مَحَلَّ الْقُرْآنِ . . فَمَنْ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ هَلْ يُرِيدُونَ أَنْ يَمْحُوا أَثَرَ رَمَضَانَ مِنْ نُفُوسِهِمْ، إِنْ كَانَ لِرَمَضَانَ أَثَرٌ عِنْدَهُمْ، وَيُخْشَى عَلَيْهِمْ مِنْ رَدِّ الصِّيَامِ وَالْقِيَامِ وَالْخُسْرَانِ، فَالْحَذَرَ مِنَ الْوُقُوعِ فِي مُنْكَرَاتِ الْعِيدِ، فَالْعِيدُ شُكْرٌ لِلَّهِ تَعَالَى وَتَعْظِيمٌ لَهُ، وَلَيْسَ كُفْرًا أَوْ فِسْقًا وَفُجُورًا.

تَقَبَّلَ اللهُ مِنَّا وَمِنْكُمُ الصِّيَامَ وَالْقِيَامَ، وَصَالِحَ الْأَعْمَالِ، وَأَعَادَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْنَا وَعَلَيْكُمْ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ رَمَضَانَ بِالْيُمْنِ وَالْإِيمَانِ وَالسَّلَامَةِ وَالْإِسْلَامِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].



٢٥٦- وداع رمضان

٢٨/ ٩/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ يُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَيُمْضِي الشُّهُورَ وَالْأَعْوَامَ؛ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ، نَحْمَدُهُ عَلَى مَا مَنَّ بِهِ عَلَيْنَا مِنْ إِدْرَاكِ رَمَضَانَ، وَالمَعُونَةِ عَلَى الصِّيَامِ وَالْقِيَامِ، وَنَسْأَلُهُ أَنْ يَخْتِمَ لَنَا شَهْرَنَا بِالْقَبُولِ وَالرِّضْوَانِ، وَالْعِتْقِ مِنَ النَّارِ. وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَلَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ، فَمُنْذُ خَلَقَ الْخَلْقَ وَهُوَ يُغْدِقُ النِّعَمَ عَلَيْهِمْ، وَيَدْفَعُ النِّقَمَ عَنْهُمْ، وَمَا نَفِدَتْ خَزَائِنُهُ، وَلَا حُبِسَ عَطَاؤُهُ «**يَدُهُ مَلْأَى لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ**»[(١)]، سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ، وَتَبَارَكَ اسْمُهُ وَتَعَالَى جَدُّهُ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ. وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ بَعَثَهُ اللهُ تَعَالَى رَسُولًا إِلَى النَّاسِ لِيُخْرِجَهُمْ مِنْ عُبُودِيَّةِ الْخَلْقِ إِلَى عُبُودِيَّةِ الْخَالِقِ، وَمِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَى سَعَةِ الْآخِرَةِ، فَبَلَّغَ رِسَالَةَ رَبِّهِ، وَأَدَّى أَمَانَتَهُ، وَنَصَحَ لِأُمَّتِهِ، فَجَزَاهُ اللهُ عَنَّا وَعَنِ الْمُسْلِمِينَ خَيْرَ مَا جَزَى رَسُولًا عَنْ أُمَّتِهِ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَهْلِ الْبِرِّ وَالتُّقَى، وَدُعَاةِ الْخَيْرِ وَالْهُدَى، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَاقْتَفَى.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ، فَهَا هُوَ شَهْرُ التَّقْوَى قَدْ آذَنَ بِصَرْمٍ، وَأَزِفَ رَحِيلُهُ بِمَا أَوْدَعَ الْعِبَادُ فِيهِ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، فَهَنِيئًا لِمَنْ عَمَرَهُ بِذِكْرِ اللَّهِ

---

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: البخاري في التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧] (٤٤٠٧)، ومسلم في الزكاة، باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف (٩٩٣).

تَعَالَى، وَيَا خَسَارَةَ مَنْ مَضَى عَلَيْهِ وَلَمْ يَكْتَسِبْ فِيهِ أَعْمَالًا صَالِحَةً.

أَيُّهَا النَّاسُ: تَنْقَضِي الدُّنْيَا كَمَا يَنْقَضِي عُمْرُ الْإِنْسَانِ، وَيَمْضِي عُمْرُ الْإِنْسَانِ كَمَا يَمْضِي رَمَضَانُ، فَبِالْأَمْسِ الْقَرِيبِ كَانَ النَّاسُ يَسْتَقْبِلُونَ شَهْرَهُمْ، وَهُمُ الْآنَ يُوَدِّعُونَهُ، وَهَكَذَا يُولَدُ الْإِنْسَانُ كَمَا يُولَدُ هِلَالُ الشَّهْرِ، وَمَهْمَا طَالَ عُمْرُهُ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُ نَسِيَ مَا فَاتَ، وَيُؤَمِّلُ فِيمَا هُوَ آتٍ، وَلَيْسَ بَيْنَ أَمَلِ الْإِنْسَانِ وَبُلُوغِهِ إِلَّا الْمَوْتُ؛ فَإِنَّهُ قَاصِمُ الْأَعْمَارِ، وَقَاطِعُ الْآمَالِ، قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**قَلْبُ الشَّيْخِ شَابٌّ عَلَى حُبِّ اثْنَتَيْنِ: حُبِّ الْعَيْشِ وَالْمَالِ**»(٢). وَفِي لَفْظٍ: «**يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ وَتَشِبُّ مِنْهُ اثْنَتَانِ: الْحِرْصُ عَلَى الْمَالِ، وَالْحِرْصُ عَلَى الْعُمْرِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٣).

وَالدُّنْيَا كُلُّهَا مِثْلُ عُمْرِ الْإِنْسَانِ لَهَا بِدَايَةٌ أَذِنَ اللهُ تَعَالَى بِهَا، وَلَهَا نِهَايَةٌ قَدَّرَهَا ﷻ، وَهُوَ ﷻ مَنْ يَعْلَمُ نِهَايَتَهَا ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣].

أَعَلِمْتُمْ خَبَرَ آلَافِ الْأَعْوَامِ الَّتِي مَضَتْ مِنْ عُمْرِ الدُّنْيَا، وَقَرَأْتُمْ أَوْ سَمِعْتُمْ تَارِيخَ الْأُمَمِ الْمُتَعَاقِبَةِ مِنْ لَدُنْ آدَمَ عليه السلام؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا بَعْضُ ذِكْرِهَا، وَلَيْسَ لِأَفْرَادِهَا إِلَّا مَا اسْتَوْدَعُوا صَحَائِفَ أَعْمَالِهِمْ، مِنْهُمْ أُمَمٌ عَاشَتْ آلَافَ السِّنِينَ، وَأَفْرَادٌ جَاوَزُوا الْمِئِينَ، وَنُوحٌ عليه السلام قَضَى مِنَ السِّنِينَ فِي دَعْوَةِ قَوْمِهِ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا

---

(٢) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: مسلم في الزكاة، باب كراهة الحرص على الدنيا (١٠٤٦)، والترمذي في الزهد، باب ما جاء في قلب الشيخ شاب على حب اثنتين (٢٣٣٨)، وابن ماجه في الزهد، باب الأمل والأجل (٤٢٣٣)، وأحمد (٢/ ٣٥٨)، وأبو يعلى (٦٢٥٨)، ووهم الحاكم فاستدركه وقال: على شرط الشيخين (٤/ ٣٦٣).

(٣) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه: مسلم في الزكاة، باب كراهة الحرص على الدنيا (١٠٤٧)، وأبو يعلى (١٨٥٧).

خَمْسِينَ عَامًا، وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ كَمْ كَانَ عُمْرُهُ كَامِلًا، فَأَيْنَ تِلْكَ الْأُمَمُ؟! وَأَيْنَ مَنْ عُمِّرُوا فِيهَا طَوِيلًا؟! لَقَدْ مَضَوْا إِلَى رَبِّهِمْ، وَكَأَنَّهُمْ مَا عَاشُوا فِي الدُّنْيَا إِلَّا قَلِيلًا!!

إِنَّ عُمْرَ الْإِنْسَانِ لَا قِيمَةَ لَهُ إِلَّا بِمَا كَانَ فِيهِ مِنْ عَمَلٍ؛ فَالشَّيْخُ الَّذِي يُعَمَّرُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى احْدَوْدَبَ ظَهْرُهُ، وَسَقَطَ حَاجِبَاهُ عَلَى عَيْنَيْهِ مِنَ الْكِبَرِ، يَكُونُ طُولُ عَيْشِهِ حُجَّةً لَهُ، وَسَبَبًا فِي زِيَادَةِ حَسَنَاتِهِ، وَرَفْعِ دَرَجَاتِهِ، فَيَحْظَى بِالمَنَازِلِ الْعَالِيَةِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى؛ وَلِذَا كَانَ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ تَعَالَى: إِكْرَامُ ذِي الشَّيْبَةِ المُسْلِمِ(٤).

وَأَمَّا مَنْ عُمِّرَ طَوِيلًا فَقَضَى عُمْرَهُ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى، فَيَا حَسْرَةً لَهُ عَلَى مَا فَرَّطَ وَضَيَّعَ! ذَهَبَتِ المَلَذَّاتُ وَالشَّهَوَاتُ، وَبَقِيَ النَّدَمُ وَالْحَسَرَاتُ، وَكَيْفَ يُقَابِلُ اللهَ تَعَالَى مَنْ كَانَ هَذَا حَالَهُ؟! وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ خَيْرَ النَّاسِ مَنْ طَالَ عُمْرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ، وَأَنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْ طَالَ عُمْرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ(٥).

إِنَّ الدُّنْيَا مِثْلُ رَمَضَانَ، تَمْضِي بِلَذَائِذِهَا وَشَهَوَاتِهَا، وَتَعَبِهَا وَنَصَبِهَا، وَيَنْسَى الْعِبَادُ ذَلِكَ، وَلَكِنَّهُمْ يَجِدُونَ مَا قَدَّمُوا مُدَّخَرًا لَهُمْ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، وَنَحْنُ فِي أُخْرَيَاتِ شَهْرِنَا -يَا عِبَادَ اللَّهِ- سَلُوا مَنْ جَاهَدُوا نُفُوسَهُمْ،

---

(٤) كما في حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن مِنْ إجْلَالِ اللهِ: إكْرَامَ ذي الشَّيْبَةِ المُسْلِمِ، وحَامِلَ القُرْآنِ غَيْرَ الغَالي فيه والجافِي عَنْهُ، وإكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ المُقْسِطِ**» أخرجه أبو داود في الأدب، باب في تنزيل الناس منازلهم (٤٨٤٣)، وابن أبي شيبة (٤/ ٤٤٠)، وابن المبارك في الزهد (٣/١٨)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٥٧).

(٥) عن أبي بكرة رضي الله عنه أن رجلًا قال: يا رسول الله، أي الناس خير؟ قال: «**مَنْ طَالَ عمرُهُ، وحَسُنَ عَمَلُهُ**»، قال: فأيُّ الناس شرّ؟ قال: «**مَنْ طَالَ عُمْرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ**» أخرجه الترمذي في الزهد، باب منه، وقال: هذا حديث حسن صحيح (٢٣٣٠).

وللاستزادة ينظر خطبة: فضيلة طول العمر مع حسن العمل (٣/ ١٤١-١٤٢).

وَاصْطَبَرُوهَا عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْأَيَّامِ الْمَاضِيَةِ، فَأَضْنَوْا أَجْسَادَهُمْ، وَأَمْضَوْا نَهَارَهُمْ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَفِي بِرِّ وَالِدِيهِمْ، وَصِلَةِ أَرْحَامِهِمْ، وَنَفْعِ إِخْوَانِهِمْ رَغْمَ صِيَامِهِمْ، وَأَسْهَرُوا لَيْلَهُمْ فِي التَّهَجُّدِ وَالْمُنَاجَاةِ، وَالدُّعَاءِ وَالِاسْتِغْفَارِ، سَلُوهُمُ الْآنَ عَنْ تَعَبِهِمْ وَسَهَرِهِمْ، وَعَنْ جُوعِهِمْ وَعَطَشِهِمْ، تَجِدُوا أَنَّهُمْ قَدْ نَسُوا ذَلِكَ، وَلَكِنْ كُتِبَ فِي صَحَائِفِهِمْ أَنَّهُمْ صَامُوا فَحَفِظُوا الصِّيَامَ، وَقَامُوا فَأَحْسَنُوا الْقِيَامَ، وَعَمِلُوا أَعْمَالًا صَالِحَةً كَثِيرَةً امْتَلَأَتْ بِهَا صُحُفُهُمْ فِي رَمَضَانَ، وَسَوْفَ يَجِدُونَ عُقْبَى ذَلِكَ غَدًا فِي قُبُورِهِمْ وَعِنْدَ نَشْرِهِمْ، نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْهُمْ.

وَسَلُوا الَّذِينَ قَضَوْا رَمَضَانَ فِي النَّوْمِ وَالْبِطَالَةِ، وَرَفَّهُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ بِأَنْوَاعِ الْمُحَرَّمَاتِ، وَتَفَكَّهُوا بِمَا يُعْرَضُ فِي الْفَضَائِيَّاتِ، وَضَحِكُوا كَثِيرًا مِنْ مَشَاهِدِ السُّخْرِيَةِ بِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِنْ صَلَّى أَحَدُهُمْ صَلَّى ثَقِيلًا، وَإِنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ مَلَّ مِنْهُ سَرِيعًا، وَمَا مَضَتْ عَلَيْهِمُ اللَّيَالِي الشَّرِيفَةُ إِلَّا وَقَدْ أَخَذُوا مِنَ الرَّفَاهِيَةِ أَكْثَرَهَا، وَمِنَ الضَّحِكِ وَالْمُتْعَةِ أَنْوَاعَهَا، سَلُوهُمُ الْآنَ عَنْ أَنْوَاعِ الرَّفَاهِيَةِ وَالْمُتَعِ الَّتِي تَمَتَّعُوا بِهَا لَنْ تَجِدُوا عِنْدَهُمْ مِنْهَا شَيْئًا يُذْكَرُ، وَبَقِيَتِ الْأَوْزَارُ تُثْقِلُ كَوَاهِلَهُمْ، وَتُسَوِّدُ صَحَائِفَهُمْ، وَلَا نَجَاةَ لَهُمْ إِلَّا بِتَوْبَةٍ عَاجِلَةٍ قَبْلَ أَنْ يُحَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ.

إِنَّ الدُّنْيَا يَا عِبَادَ اللَّهِ هِيَ مِثْلُ تِلْكَ الْأَيَّامِ الَّتِي مَضَتْ بِحَرِّهَا وَعَطَشِهَا وَجُوعِهَا وَسَهَرِهَا وَتَعَبِهَا، يَنْسَى الْمُعَمَّرُونَ فِيهَا مَا أَصَابُوهُ مِنْ أَنْوَاعِ الْخَيْرِ وَالسَّرَّاءِ، وَأَلْوَانِ الرَّفَاهِيَةِ وَالنَّعْمَاءِ، كَمَا يَنْسَوْنَ مَا لَحِقَهُمْ فِيهَا مِنْ أَصْنَافِ الْبَلَاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَيَبْقَى الْمُحْسِنُ فِيهَا مُحْسِنًا يَجْنِي فِي الْآخِرَةِ ثَمَرَةَ إِحْسَانِهِ، كَمَا يَجِدُ الْمُسِيءُ عَاقِبَةَ سُوئِهِ، وَمِصْدَاقُ ذَلِكَ مَا رَوَى أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه فَقَالَ: قَالَ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ. وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِك شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٦).

نَسِيَ الْمُؤْمِنُ الْمُعَذَّبُ فِي الدُّنْيَا كُلَّ مَا أَصَابَهُ فِيهَا بِغَمْسَةٍ وَاحِدَةٍ فِي الْجَنَّةِ، وَنَسِيَ الْكَافِرُ الْفَاجِرُ كُلَّ النَّعِيمِ الَّذِي عَاشَهُ سِنِينَ طَوِيلَةً فِي الدُّنْيَا بِغَمْسَةٍ وَاحِدَةٍ فِي النَّارِ.

إِنَّهَا عِبْرَةٌ لِمَنِ اعْتَبَرَ، وَمَوْعِظَةٌ لِمَنِ اتَّعَظَ، مَنْ فَهِمَهَا فَأَخَذَ بِهَا نَجَا بِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْهَا فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَجِدُ نَتِيجَةَ ذَلِكَ.

وَالْقُرْآنُ قَدْ جَاءَ بِهَذَا الْمَعْنَى الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ هَذَا الْحَدِيثُ الْعَظِيمُ، فَالْآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ تُخْبِرُ أَنَّ أَهْلَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَنْسَوْنَ الدُّنْيَا وَنَعِيمَهَا، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ مَا لَبِثُوا فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا، رَغْمَ أَنَّهُمْ قَدْ عُمِّرُوا فِيهَا طَوِيلًا ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ [يُونُس: ٤٥]، بَلْ وَيُقْسِمُونَ عَلَى ذَلِكَ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الرُّوم: ٥٥]، ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ [الْمُؤْمِنُون: ١١٢، ١١٣].

فَمَا نَفَعَهُمْ مَا تَمَتَّعُوا بِهِ فِي الدُّنْيَا مِنْ طُولِ أَعْمَارِهِمْ، وَكَثْرَةِ أَوْلَادِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَقُوَّةِ عَشَائِرِهِمْ، لَقَدْ ذَهَبَ كُلُّ ذَلِكَ بِذَهَابِهِمْ عَنِ الدُّنْيَا، وَوُرُودِهِمْ لِلْحِسَابِ ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ

(٦) أخرجه مسلم في المنافقين، باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار (٢٨٠٧).

عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٠٥-٢٠٧].

إِنَّ الْجَزَاءَ فِي الْآخِرَةِ يَكُونُ عَلَى الْأَعْمَالِ فِي الدُّنْيَا، وَهَذِهِ حَقِيقَةٌ قَرَّرَهَا الْقُرْآنُ فِي ذِكْرِ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَأَصْحَابِ النَّارِ؛ فَفِي سِيَاقِ الْآيَاتِ الَّتِي تُخْبِرُ عَنْ أَحْوَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ نَجِدُ أَنَّهُمْ فَرِحُونَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ، مُغْتَبِطُونَ بِمَا نَالُوهُ مِنَ الثَّوَابِ الْعَظِيمِ عَلَى أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ الَّتِي عَمِلُوهَا فِي الدُّنْيَا، وَقَدْ نَسُوا مَا أَصَابَهُمْ فِي الدُّنْيَا مِنْ أَكْدَارِهَا وَآلَامِهَا وَمَصَائِبِهَا؛ وَلِذَلِكَ يَحْمَدُونَ اللهَ تَعَالَى عَلَى هِدَايَتِهِ لَهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ الَّذِي كَانَ سَبَبًا فِي دُخُولِهِمُ الْجَنَّةَ ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الْأَعْرَاف: ٤٣].

وَفِي آيَةٍ أُخْرَى بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ حَمْدَهُمْ لَهُ تَعَالَى أَثْنَى عَلَى عَمَلِهِمُ الَّذِي اسْتَحَقُّوا بِهِ هَذَا الْأَجْرَ الْكَبِيرَ ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [الزُّمَر: ٧٤]، وَقَدْ جَاءَ النَّصُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْجَزَاءَ الْعَظِيمَ لَهُمْ إِنَّمَا كَانَ عَلَى عَمَلِهِمُ الصَّالِحِ فِي الدُّنْيَا ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الْإِنْسَان: ٢٢]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الْحَاقَّة: ٢٤].

وَفِي مُقَابِلِ ذَلِكَ يُخْبِرُ الْقُرْآنُ عَنْ نَدَمِ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَرَوْنَ أَنْوَاعَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ، وَأَنَّهُمْ يَتَمَنَّوْنَ الرُّجُوعَ لِلدُّنْيَا لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَلَكِنْ هَيْهَاتَ! قَدْ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَمَا هِيَ إِلَّا فُرْصَةٌ وَاحِدَةٌ لَا تَتَكَرَّرُ، فَمَا أَشَدَّ بُؤْسَهُمْ حِينَ يَقُولُونَ ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ [الْمُؤْمِنُون: ١٠٧]! وَمَا أَعْظَمَ خَسَارَتَهُمْ حِينَ يُبْعَثُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ لِلْحِسَابِ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الْأَنْعَام: ٣١]! وَيَقُولُ قَائِلُهُمْ عِنْدَ الْمَوْتِ: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ

﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾ [المُؤْمِنون: ٩٩، ١٠٠]، وَلَكِنْ لَا يُجَابُونَ إِلَى ذَلِكَ، قَالَ قَتَادَةُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَاللَّهِ مَا تَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلٍ وَلَا إِلَى عَشِيرَةٍ، وَلَا بِأَنْ يَجْمَعَ الدُّنْيَا، وَيَقْضِيَ الشَّهَوَاتِ، وَلَكِنْ تَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ فَيَعْمَلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ ﷻ، فَرَحِمَ اللهُ امْرَأً عَمِلَ فِيمَا يَتَمَنَّاهُ الْكَافِرُ إِذَا رَأَى الْعَذَابَ»(٧)، ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ [الشُّورَى: ٤٤].

وَلَوْ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَجَابَهُمْ إِلَى مَا أَرَادُوا مِنْ إِعَادَتِهِمْ إِلَى الدُّنْيَا لِيَعْمَلُوا صَالِحًا لَعَادُوا إِلَى أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ؛ إِذْ لَوْ كَانُوا صَادِقِينَ فِي دَعْوَاهُمْ لَأَخَذُوا الْعِبْرَةَ مِمَّا حَلَّ بِالْمُكَذِّبِينَ قَبْلَهُمْ، وَلَمْ يَسِيرُوا سِيرَتَهُمْ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ عَاقِبَتَهُمْ ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأَنْعَام: ٢٨].

يَقِفُونَ أَمَامَ رَبِّهِمْ وَهُمْ فِي غَايَةِ الذُّلِّ وَالِانْكِسَارِ، وَالْخِزْيِ وَالْعَارِ مِمَّا صَنَعُوا وَاكْتَسَبُوا فِي الدُّنْيَا ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السَّجْدَة: ١٢]، فَلَا رُجُوعَ حِينَئِذٍ، إِنَّمَا حِسَابٌ وَعَذَابٌ، فَخُذُوا -رَحِمَكُمُ اللهُ تَعَالَى- مِنْ حَالِهِمْ أَبْلَغَ الْعِبْرَةِ، وَأَحْسَنَ الْمَوْعِظَةِ؛ فَقَدْ قَرَأْتُمْ كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْأَيَّامِ الْخَوَالِي، وَاسْتَمَعْتُمْ إِلَى آيَاتِهِ فِي تِلْكَ اللَّيَالِي، وَعَلِمْتُمْ كَثِيرًا مِنْ أَوْصَافِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ، فَحَذَارِ حَذَارِ أَنْ تَسْلُكُوا مَسْلَكَهُمْ؛ فَإِنَّ دُنْيَاهُمْ قَدْ زَالَتْ عَنْهُمْ، وَبَقِيَ عَذَابُهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ، وَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ وَلَا نَعِيمُهُمْ فِي الدُّنْيَا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى شَيْئًا.

فَمَنْ أَحْسَنَ فِيمَا مَضَى مِنْ رَمَضَانَ فَلْيَحْمَدِ اللهَ تَعَالَى، وَلْيَخْتِمْ شَهْرَهُ بِكَثْرَةِ الِاسْتِغْفَارِ، وَلْيَثْبُتْ عَقِبَ رَمَضَانَ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَلْيَعْلَمْ أَنَّ انْتِهَاءَ الْعُمْرِ

---

(٧) تفسير البغوي (٣/ ٣١٧)، وتفسير النسفي (٣/ ١٣٠)، وتفسير ابن كثير (٣/ ٢٥٦).

سَيَكُونُ كَانْتِهَاءِ رَمَضَانَ، يَمُرُّ سَرِيعًا وَلَا يَبْقَى لَهُ إِلَّا مَا عَمِلَ فِيهِ.

وَمَنْ أَسَاءَ فِي رَمَضَانَ، وَفَاتَهُ الْخَيْرُ وَالْإِحْسَانُ، فَلْيُبَادِرْ بِتَوْبَةٍ صَادِقَةٍ يَخْتِمُ بِهَا شَهْرَهُ، وَلْيَسْتَغْفِرْ لِمَا مَضَى مِنْ ذَنْبِهِ، وَلْيَأْخُذْ مِنْ سُرْعَةِ دُخُولِ الشَّهْرِ وَخُرُوجِهِ عِبْرَةً بِسُرْعَةِ زَوَالِ الدُّنْيَا، وَقُرْبِ رَحِيلِهِ هُوَ عَنْهَا، وَلَهُ عِوَضٌ فِيمَا بَقِيَ مِنْ عُمْرِهِ عَمَّا فَاتَهُ مِنْ تَحْصِيلِ الْخَيْرِ، وَلْيَحْذَرْ مِنْ تَضْيِيعِ عُمْرِهِ كَمَا ضَيَّعَ رَمَضَانَ، فَتَكُونُ عَاقِبَتُهُ النَّدَمَ وَالْخُسْرَانَ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [الْحَشر: ١٨-٢٠].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.

❁ ❁ ❁

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الْأَمِينُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاعْبُدُوهُ فِي رَمَضَانَ وَفِي غَيْرِ رَمَضَانَ، وَإِيَّاكُمْ وَهِجْرَانَ الْمَسَاجِدِ وَالْمَصَاحِفِ بَعْدَ الصِّيَامِ وَالْقِيَامِ؛ فَبِئْسَ الْقَوْمُ قَوْمٌ لَا يَعْرِفُونَ اللهَ تَعَالَى إِلَّا فِي رَمَضَانَ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: شَرَعَ اللهُ تَعَالَى لَكُمْ فِي خِتَامِ شَهْرِكُمْ أَعْمَالًا صَالِحَةً تُزَكِّي نُفُوسَكُمْ، وَتُتَمِّمُ طَاعَتَكُمْ، وَتَجْبُرُ نَقْصَ صِيَامِكُمْ.

وَمِنْ ذَلِكُمْ: زَكَاةُ الْفِطْرِ الَّتِي فَرَضَهَا اللهُ تَعَالَى طُهْرَةً لِلصَّائِمِينَ، وَطُعْمَةً لِلْمَسَاكِينِ، وَأَوْجَبَهَا عَلَى الْوَاجِدِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، مَنْ أَدَّاهَا قَبْلَ الصَّلَاةِ فَهِيَ زَكَاةٌ مَقْبُولَةٌ، وَمَنْ أَدَّاهَا بَعْدَ الصَّلَاةِ فَهِيَ صَدَقَةٌ مِنَ الصَّدَقَاتِ، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ عَنْ نَبِيِّكُمْ ﷺ.

يُخْرِجُهَا الرَّجُلُ عَنْ نَفْسِهِ وَعَمَّنْ تَلْزَمُهُ نَفَقَتُهُ مِنْ زَوْجٍ وَوَلَدٍ وَنَحْوِهِمْ، وَالْأَفْضَلُ لِلْمُكْتَسِبِ الْوَاجِدِ أَنْ يُخْرِجَهَا عَنْ نَفْسِهِ. وَتُخْرَجُ مِنَ الْأَصْنَافِ الْمَنْصُوصِ عَلَيْهَا فِي الْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: «كُنَّا نُخْرِجُ زَكَاةَ الْفِطْرِ صَاعًا مِنْ طَعَامٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ أَقِطٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ زَبِيبٍ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٨).

وَالْأَفْضَلُ أَنْ يُخْرِجَهَا الْمُسْلِمُ بَيْنَ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْعِيدِ، وَلَهُ أَنْ يُقَدِّمَ إِخْرَاجَهَا قَبْلَ الْعِيدِ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ، كَمَا جَاءَ ذَلِكَ عَنِ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم(٩).

كَمَا شَرَعَ اللهُ تَعَالَى لَكُمْ فِي خِتَامِ شَهْرِكُمْ تَكْبِيرَهُ ﷻ عَلَى مَا هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ، وَشُكْرَهُ عَلَى مَا وَفَّقَكُمْ لِلصِّيَامِ ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٨٥]. وَيَبْدَأُ التَّكْبِيرُ مِنْ غُرُوبِ شَمْسِ آخِرِ يَوْمٍ مِنْ رَمَضَانَ إِلَى صَلَاةِ الْعِيدِ.

وَاحْذَرُوا مُنْكَرَاتِ الْعِيدِ مِنَ الْمَعَازِفِ وَالْغِنَاءِ، وَالْإِسْرَافِ فِي اللِّبَاسِ

---

(٨) أخرجه البخاري في صدقة الفطر، باب صدقة الفطر صاع من طعام (١٤٣٥)، ومسلم في الزكاة، باب زكاة الفطر على المسلمين من التمر والشعير (٩٨٥).

(٩) لقول نافع راوي الحديث عن ابن عمر: «وكَان ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما يُعْطِيهَا الَّذِينَ يَقْبَلُونَهَا، وَكَانُوا يُعْطُونَ قَبْلَ الفِطْرِ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ» أخرجه البخاري (١٥١١).

وَالطَّعَامِ، وَتَضْيِيعِ الصَّلَوَاتِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآثَامِ، وَأَتْبِعُوا رَمَضَانَ بِصِيَامِ سِتٍّ مِنْ شَوَّالٍ؛ فَإِنَّ مَنْ صَامَهَا مَعَ رَمَضَانَ كَانَ كَمَنْ صَامَ الدَّهْرَ كُلَّهُ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ(١٠).

وَاخْتِمُوا شَهْرَكُمْ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَكْثِرُوا مِنَ الِاسْتِغْفَارِ، وَسَلُوا اللهَ تَعَالَى الْقَبُولَ؛ فَإِنَّ الْمُعَوَّلَ عَلَيْهِ فِي الْأَعْمَالِ قَبُولُهَا، وَلَا تَغْتَرُّوا بِعَمَلِكُمْ، وَلَا تُسِيئُوا الظَّنَّ بِرَبِّكُمْ، وَكُونُوا بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، تَرْجُونَ رَبَّكُمْ، وَتَخَافُونَ تَقْصِيرَكُمْ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ.



---

(١٠) كما في حديث أبي أيوب الأنصاري ﷺ عند: مسلم في الصيام، باب استحباب صيام ستة أيام من شوال (١١٦٤).

٢٥٧- من أحكام العيد

٢٥/٩/١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: نِعَمُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ كَثِيرَةٌ، وَمِنَّتُهُ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِمْ عَظِيمَةٌ؛ خَلَقَهُمْ وَرَزَقَهُمْ، وَعَلَّمَهُمْ وَهَدَاهُمْ ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

نِعَمٌ تَتَعَلَّقُ بِحُظُوظِ الدُّنْيَا مِنَ الصِّحَّةِ وَالْأَمْنِ، وَأَنْوَاعِ الْمَآكِلِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَلَذَّاتِ، وَنِعَمٌ تَتَعَلَّقُ بِحُقُوقِ الْآخِرَةِ مِنَ الْهِدَايَةِ لِلدِّينِ، وَسُلُوكِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَفَرْضِ الْفَرَائِضِ، وَشَرْعِ الشَّرَائِعِ الَّتِي تُقَرِّبُ الْعِبَادَ مِنْ رَبِّهِمْ ﷻ،

وَتَسْتَوْجِبُ لَهُمْ رِضَاهُ وَجَنَّتَهُ، وَنِعَمٌ تَتَعَلَّقُ بِالتَّوْفِيقِ لِلْإِتْيَانِ بِهَا كَمَا أَمَرَ اللهُ تَعَالَى. وَمِنْ أَعْظَمِ هَذِهِ النِّعَمِ: فَرِيضَةُ الصِّيَامِ، وَمَا تَسْتَوْجِبُهُ مِنَ المَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ وَتَكْفِيرِ السَّيِّئَاتِ، وَالْإِنْسَانُ لَا يَنْفَكُّ عَنِ الْخَطَإِ وَالنِّسْيَانِ وَالْعِصْيَانِ، فَشَرَعَ اللهُ تَعَالَى الْفَرَائِضَ مُقَرِّبَاتٍ إِلَيْهِ، مُكَفِّرَاتٍ لِلسَّيِّئَاتِ، مُسْتَوْجِبَاتٍ لِلْفَوْزِ فِي الْآخِرَةِ، إِذَا أَتَى بِهَا الْعِبَادُ طَاعَةً لِلَّهِ تَعَالَى وَمَحَبَّةً وَخَوْفًا وَرَجَاءً. وَحَقٌّ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَفْرَحَ بِعِيدِهِ بَعْدَ كَمَالِ شَهْرِهِ، وَإِتْمَامِ صَوْمِهِ وَقِيَامِهِ بِأَمْرِ رَبِّهِ سُبْحَانَهُ، ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

إِنَّهُ عِيدُ فَرَحٍ وَشُكْرٍ لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى الْعِبَادِ مِنْ فَرِيضَةِ الصِّيَامِ، وَهَدَاهُمْ إِلَيْهَا، وَوَفَّقَهُمْ لِلْقِيَامِ بِهَا، وَلَوْلَاهُ سُبْحَانَهُ مَا صَامُوا وَلَا قَامُوا، فَكَمْ مِنْ مَحْرُومٍ مِنَ الْبَشَرِ صُرِفَ عَنْ ذَلِكَ بِكُفْرِهِ أَوْ فِسْقِهِ أَوْ جَهْلِهِ؟!

وَالْعِيدُ فِي الْإِسْلَامِ مَعَ كَوْنِهِ مَوْسِمَ فَرَحٍ وَحُبُورٍ وَسُرُورٍ، فَهُوَ كَذَلِكَ عِبَادَةٌ يَتَقَرَّبُ بِهَا الْعِبَادُ إِلَى رَبِّهِمْ سُبْحَانَهُ، يَرْجُونَ بِهَا الْأَجْرَ وَالمَثُوبَةَ مِنْهُ سُبْحَانَهُ، فِي شَعَائِرَ عَظِيمَةٍ، وَعِبَادَاتٍ جَلِيلَةٍ، وَآدَابٍ كَثِيرَةٍ.

وَشِعَارُ الْعِيدِ: التَّكْبِيرُ فِي لَيْلَتِهِ وَصَبَاحِهِ إِلَى أَنْ يُصَلِّيَ صَلَاةَ الْعِيدِ، وَالتَّكْبِيرُ إِنَّمَا يُشْرَعُ فِي المَوَاطِنِ الْكِبَارِ الَّتِي مِنْهَا الْأَعْيَادُ.

وَالسُّنَّةُ جَهْرُ الرِّجَالِ بِالتَّكْبِيرِ فِي أَسْوَاقِهِمْ وَطُرُقِهِمْ وَمَسَاجِدِهِمْ، كَمَا كَانَ الصَّحَابَةُ -رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ- يَفْعَلُونَ.

وَلِلتَّكْبِيرِ صِيَغٌ كَثِيرَةٌ عَنِ الصَّحَابَةِ ﷺ؛ فَابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي تَكْبِيرِهِ: اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ[(١)].

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١/ ٤٩٠)، وابن المنذر في الأوسط (٤/ ٣٠١).

وَابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما كَانَ يَقُولُ فِي تَكْبِيرِهِ: اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ، اللهُ أَكْبَرُ وَأَجَلُّ، اللهُ أَكْبَرُ عَلَى مَا هَدَانَا[٢].

وَقَالَ سَلْمَانُ رضي الله عنه: كَبِّرُوا اللهَ: اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا[٣]، وَقَدْ حُفِظَ عَنِ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم عَشْرُ صِيَغٍ لِلتَّكْبِيرِ، فَأَيًّا ما اخْتَارَ الْمُسْلِمُ مِنْهَا فَصَحِيحٌ، وَقَدْ وَافَقَ هَدْيَهُمْ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ.

وَلَيْلَةُ الْعِيدِ لَيْسَ لَها سُنَّةٌ تُحْيَا، وَلَمْ يَرِدْ فِي فَضْلِ قِيَامِهَا بِخُصُوصِهَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ، فَإِنْ كَانَ مِنْ عَادَةِ الْمُسْلِمِ أَنَّهُ يَقُومُ اللَّيْلَ فَهِيَ مِثْلُ غَيْرِهَا. وَيَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ لَا يَنْشَغِلَ بِالِاسْتِعْدَادِ لِلْعِيدِ عَنِ الْوِتْرِ أَوَّلَ اللَّيْلِ أَوْ آخِرَهُ، بِحَسَبِ مَا يَتَيَسَّرُ لَهُ.

وَشُهُودُ صَلَاةِ الْعِيدِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ فِي مُصَلَّيَاتِهِمْ وَمَسَاجِدِهِمْ هُوَ شُهُودٌ لِأَعْظَمِ شَعِيرَةٍ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ؛ فَإِنَّ صَلَاةَ الْعِيدِ مِنَ الشَّعَائِرِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَى بِهَا عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ، حُضُورُهَا مُتَأَكِّدٌ جِدًّا، حَتَّى قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ بِفَرْضِهَا عَلَى الْأَعْيَانِ[٤].

---

(٢) أخرجه البيهقي (٣/ ٣١٥).

(٣) أخرجه البيهقي (٣/ ٣١٦).

(٤) ممن قال بذلك أبو حنيفة، واختاره ابن تيمية وابن القيم والشوكاني وابن باز وابن عثيمين.
قال السرخسي في المبسوط (٢/ ٣٧): «روى الحسن عن أبي حنيفة -رحمهما الله تعالى- أنه تجب صلاة العيد على مَنْ تَجِبُ عليه صلاة الجمعة» وينظر: بدائع الصنائع (١/ ٢٧٥).
وقال شيخ الإسلام: «ولهذا رجحنا أن صلاة العيد واجبة على الأعيان كقول أبي حنيفة وغيره، وهو أحد أقوال الشافعي، وأحد القولين في مذهب أحمد. وقول من قال: لا تجب، في غاية البعد؛ فإنها مِنْ أَعْظَمِ شَعَائِرِ الإسلام، والناس يجتمعون لها أعظم من الجمعة، وقد شرع فيها التكبير. وقول من قال: هي فرض على الكفاية لا ينضبط؛ فإنه لو حضرها في المصر العظيم أربعون رجلًا لم يحصل المقصود، وإنما يحصل بحضور المسلمين =

وَقَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ النِّسَاءَ أَنْ يَخْرُجْنَ لِصَلَاةِ الْعِيدِ، حَتَّى أَمَرَ الحُيَّضَ بِشُهُودِ الْمُسْلِمِينَ فِي صَلَاةِ الْعِيدِ مَعَ اعْتِزَالِ الْمُصَلَّى، وَحُضُورِ الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ(٥)، وَمَا

= كلهم كما في الجمعة» مجموع الفتاوى (٢٣/ ١٦١-١٦٢).

وقال ابن القيم: «صلاة العيد من أعاظم شعائر الإسلام الظاهرة، ولم يكن يتخلف عنها أحد من أصحاب رسول الله ﷺ، ولا تركها رسول الله ﷺ مرة واحدة، ولو كانت سنة لتركها ولو مرة واحدة كما ترك قيام رمضان؛ بيانًا لعدم وجوبه، وترك الوضوء لكل صلاة؛ بيانًا لعدم وجوبه وغير ذلك» الصلاة وأحكام تاركها (٣٩).

وقال الشوكاني بعد أن ساق الخلاف فيها: «والظاهر ما قاله الأولون؛ لأنه قد انضم إلى ملازمته ﷺ لصلاة العيد على جهة الاستمرار وعدم إخلاله بها، الأمر بالخروج إليها، بل ثبت كما تقدم أمره ﷺ بالخروج للعواتق والحيض وذوات الخدور، وبالغ في ذلك حتى أمر من لها جلباب أن تلبس من لا جلباب لها، ولم يأمر بذلك في الجمعة ولا في غيرها من الفرائض، بل ثبت الأمر بصلاة العيد في القرآن كما صرح بذلك أئمة التفسير في تفسير قول الله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢] فقالوا: المراد صلاة العيد ونحر الأضحية. ومن مقويات القول بأنها فرض: إسقاطها لصلاة الجمعة كما تقدم، والنوافل لا تسقط الفرائض في الغالب» نيل الأوطار (٣/ ٣٦٩).

وقال ابن باز -رحمه الله تعالى-: «صلاة العيد فرض كفاية عند كثير من أهل العلم، ويجوز التخلف من بعض الأفراد عنها، لكن حضوره لها ومشاركته لإخوانه المسلمين سنة مؤكدة لا ينبغي تركها إلا لعذر شرعي، وذهب بعض أهل العلم إلى أن صلاة العيد فرض عين كصلاة الجمعة، فلا يجوز لأي مكلف من الرجال الأحرار المستوطنين أن يتخلف عنها، وهذا القول أظهر في الأدلة، وأقرب إلى الصواب» مجموع فتاواه (١٣/ ٧).

وقال الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله تعالى-: «الذي أرى أن صلاة العيد فرض عين، وأنه لا يجوز للرجال أن يدعوها، بل عليهم حضورها؛ لأن النبي ﷺ أمر بها، بل أمر النساء العواتق وذوات الخدور أن يخرجن إلى صلاة العيد، بل أمر الحيض أن يخرجن إلى صلاة العيد ولكن يعتزلن المصلى، وهذا يدل على تأكدها، وهذا القول الذي قلت إنه الراجح هو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله» مجموع فتاواه (١٦/ ٢١٤).

(٥) عَنْ أُمِّ عَطِيَّةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «أَمَرَنَا - تَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ - أَنْ نُخْرِجَ فِي الْعِيدَيْنِ، الْعَوَاتِقَ، وَذَوَاتِ الْخُدُورِ، وَأَمَرَ الْحُيَّضَ أَنْ يَعْتَزِلْنَ مُصَلَّى الْمُسْلِمِينَ» رواه مسلم (٨٩٠).

ذَاكَ إِلَّا لِتَأْكِيدِ اجْتِمَاعِ المُسْلِمِينَ كُلِّهِمْ عَلَى هَذِهِ الشَّعِيرَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي فَرَّطَ فِيهَا بَعْضُ النَّاسِ بِالنَّوْمِ عَنْهَا، أَوْ بِالِانْشِغَالِ بِالسَّفَرِ، أَوْ بِغَيْرِ ذَلِكَ.

وَالسُّنَّةُ أَنْ يَتَهَيَّأَ المُسْلِمُ لِلْعِيدِ بِالْغُسْلِ وَالطِّيبِ، وَلُبْسِ أَحْسَنِ الثِّيَابِ، كَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَفْعَلُ فِي مِثْلِ هَذِهِ المُنَاسَبَاتِ، قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَكَانَ ﷺ يَلْبَسُ لِلْخُرُوجِ إِلَيْهِمَا أَجْمَلَ ثِيَابِهِ، فَكَانَ لَهُ حُلَّةٌ يَلْبَسُهَا لِلْعِيدَيْنِ وَالْجُمُعَةِ»(٦).

وَثَبَتَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ كَانَ يَلْبَسُ أَحْسَنَ ثِيَابِهِ فِي الْعِيدَيْنِ(٧)، وَجَاءَ عَنْهُ رضي الله عنه أَنَّهُ كَانَ يَغْتَسِلُ يَوْمَ الْفِطْرِ قَبْلَ أَنْ يَغْدُوَ لِلْمُصَلَّى(٨).

قَالَ سَعِيدُ بْنُ المُسَيِّبِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «سُنَّةُ الْفِطْرِ ثَلَاثٌ: المَشْيُ إِلَى المُصَلَّى، وَالْأَكْلُ قَبْلَ الْخُرُوجِ، وَالِاغْتِسَالُ»(٩).

وَالسُّنَّةُ أَنْ يَفْتَتِحَ المُسْلِمُ يَوْمَ عِيدِ الْفِطْرِ بِالْفِطْرِ عَلَى تَمَرَاتٍ؛ إِعْلَانًا بِأَنَّهُ يَصُومُ حِينَ يَصُومُ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَيُفْطِرُ حِينَ يُفْطِرُ بِأَمْرِهِ سُبْحَانَهُ.

قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا يَغْدُو يَوْمَ الفِطْرِ حَتَّى يَأْكُلَ تَمَرَاتٍ وَيَأْكُلُهُنَّ وِتْرًا» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١٠).

وَإِنِ اسْتَطَاعَ المَشْيَ إِلَى المُصَلَّى أَوْ إِلَى المَسْجِدِ فَهُوَ أَفْضَلُ مِنَ الرُّكُوبِ؛

(٦) زاد المعاد (١/ ٤٤١).

(٧) فتح الباري لابن حجر، وعزاه لابن أبي الدنيا، والبيهقي بإسناد صحيح (٢/ ٤٣٩).

(٨) أخرجه مالك بسند صحيح (٤٢٥).

(٩) أخرجه الفريابي في أحكام العيدين (٨٤).

(١٠) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه: البخاري في العيدين، باب الأكل يوم الفطر قبل الخروج (٩٥٣).

لِقَوْلِ عَلِيٍّ -رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ-: «مِنَ السُّنَّةِ أَنْ تَخْرُجَ إِلَى الْعِيدِ مَاشِيًا»(١١).

وَرَوَى ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ «كَانَ يَخْرُجُ إِلَى الْعِيدِ مَاشِيًا، وَيَرْجِعُ مَاشِيًا»(١٢).

وَيُكَبِّرُ فِي طَرِيقِهِ إِلَى الْمُصَلَّى جَهْرًا؛ تَعْظِيمًا لِلَّهِ تَعَالَى، وَشُكْرًا عَلَى نِعَمِهِ، وَإِظْهَارًا لِشَعِيرَةِ الْعِيدِ. فَإِذَا بَلَغَ الْمَسْجِدَ أَوِ الْمُصَلَّى أَدَّى تَحِيَّتَهُ رَكْعَتَيْنِ، وَلَا يَتَنَفَّلُ قَبْلَ صَلَاةِ الْعِيدِ وَلَا بَعْدَهَا، بَلْ يَشْتَغِلُ بِالتَّكْبِيرِ إِلَى أَنْ يَخْرُجَ الْإِمَامُ؛ لِأَنَّ التَّكْبِيرَ هُوَ عِبَادَةُ ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَقَدْ جَاءَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ يَوْمَ الفِطْرِ، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ لَمْ يُصَلِّ قَبْلَهَا وَلَا بَعْدَهَا ...»(١٣).

وَلَا يُشْرَعُ لِلْمُسَافِرِ أَنْ يُنْشِئَ صَلَاةَ الْعِيدِ، لَكِنْ إِنْ حَضَرَ الْمُسْلِمِينَ وَهُمْ يُصَلُّونَهَا صَلَّاهَا مَعَهُمْ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَدْرَكَهُ الْعِيدُ وَهُوَ فِي سَفَرٍ فَلَمْ يُصَلِّهَا فِي سَفَرِهِ مَعَ كَثْرَةِ الَّذِينَ مَعَهُ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ عَدَمَ إِنْشَائِهَا لِلْمُسَافِرِ مَقْصُودٌ، وَأَنَّ إِنْشَاءَهَا فِي السَّفَرِ خُرُوجٌ عَنِ السُّنَّةِ(١٤).

---

(١١) أخرجه الترمذي في العيدين، باب في المشي يوم العيد، وقال: هذا حديث حسن. والعمل على هذا الحديث عند أكثر أهل العلم (٥٣٠).

(١٢) أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: ابن ماجه في إقامة الصلاة، باب ما جاء في الخروج إلى العيد ماشيًا (١٢٩٥)، وضعفه البوصيري في الزوائد بعبد الرحمن بن عبد الله العمري، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٩٣٢).

(١٣) أخرجه البخاري في العيدين، باب الصلاة قبل العيد وبعدها (٩٨٩)، ومسلم في العيدين، باب ترك الصلاة قبل العيد وبعدها في المصلى (٨٨٤).

(١٤) قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى-: «تنازع الناس في «صلاة الجمعة والعيدين» هل تشترط لهما الإقامة أم تفعل في السفر؟ على ثلاثة أقوال:

أحدها: من شرطهما جميعًا الإقامة فلا يشرعان في السفر. هذا قول الأكثرين وهو مذهب أبي حنيفة ومالك وأحمد في أظهر الروايتين عنه.

والثاني: يشترط ذلك في الجمعة دون العيد وهو قول الشافعي وأحمد في الرواية الثانية عنه. =

وَإِذَا صَلَّى مَعَ الْمُسْلِمِينَ فَالسُّنَّةُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى بَيْتِهِ مِنْ طَرِيقٍ آخَرَ غَيْرِ الطَّرِيقِ الَّذِي جَاءَ مِنْهُ إِلَى الْمُصَلَّى أَوِ الْمَسْجِدِ؛ لِمَا رَوَى جَابِرٌ ﷺ قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا كَانَ يَوْمُ عِيدٍ خَالَفَ الطَّرِيقَ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١٥).

وَالتَّهْنِئَةُ بِالْعِيدِ لَا حَرَجَ فِيهَا، قَالَ التَّابِعِيُّ الْجَلِيلُ جُبَيْرُ بْنُ نُفَيْرٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ

= والثالث: لا يشترط لا في هذا ولا هذا كما يقوله من يقوله من الظاهرية . . . والصواب بلا ريب هو القول الأول، وهو أن ذلك ليس بمشروع للمسافر؛ فإن رسول الله ﷺ كان يسافر أسفارًا كثيرة. قد اعتمر ثلاث عمر سوى عمرة حجته، وحج حجة الوداع ومعه ألوف مؤلفة، وغزا أكثر من عشرين غزاة ولم ينقل عنه أحد قط أنه صلى في السفر لا جمعة ولا عيدًا. بل كان يصلي ركعتين ركعتين في جميع أسفاره، ويوم الجمعة يصلي ركعتين كسائر الأيام . . . وكذلك أيضًا لم يصل العيد بمنى لا هو ولا أحد من خلفائه الراشدين؛ فقد دخل مكة عام الفتح، ودخلها في شهر رمضان فأدرك فيها عيد الفطر ولم يصل بها يوم العيد صلاة العيد ولم ينقل ذلك مسلم. ومن المعلوم أنهم لو كان صلى بهم صلاة العيد بمكة مع كثرة المسلمين معه -كانوا أكثر من عشرة آلاف- لكان هذا من أعظم ما تتوفر الهمم والدواعي على نقله، وكذلك بدر كانت في شهر رمضان وأدركه يوم العيد في السفر ولم يصل صلاة عيد في السفر» مجموع الفتاوى (٢٤/ ١٧٧-١٧٩).

وقال الشيخ ابن باز -رحمه الله تعالى-: «صلاة العيد إنما تقام في المدن والقرى، ولا تشرع إقامتها في البوادي والسفر، هكذا جاءت السنة عن رسول الله ﷺ، ولم يحفظ عنه ﷺ ولا عن أصحابه ﷺ أنهم صلوا صلاة العيد في السفر ولا في البادية. وقد حج حجة الوداع عليه الصلاة والسلام فلم يصل الجمعة في عرفة وكان ذلك اليوم هو يوم عرفة، ولم يصل صلاة العيد في منى، وفي اتباعه ﷺ وأصحابه ﷺ كل الخير والسعادة، والله ولي التوفيق» مجموع فتاواه (٣/ ٣٢١).

وقال الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله تعالى-: «لا تشرع صلاة العيد في حق المسافر، كما لا تشرع الجمعة في حق المسافر أيضًا، لكن إذا كان المسافر في البلد الذي تقام فيه صلاة العيد فإنه يؤمر بالصلاة مع المسلمين» مجموع فتاواه (١٦/ ٢٣٦).

(١٥) أخرجه البخاري في العيدين، باب من خالف الطريق إذا رجع يوم العيد (٩٨٦).

تَعَالَى-: «كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا الْتَقَوْا يَوْمَ الْعِيدِ يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: تَقَبَّلَ اللهُ مِنَّا وَمِنْكَ»(١٦).

وَتُشْرَعُ التَّوْسِعَةُ عَلَى الْأَهْلِ وَالْعِيَالِ فِي الْعِيدِ، وَإِدْخَالُ السُّرُورِ عَلَيْهِمْ بِاللَّهْوِ الْمُبَاحِ كَالدُّفِّ وَنَحْوِهِ؛ لِمَا رَوَى الشَّيْخَانِ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «دَخَلَ عَلَيَّ أَبُو بَكْرٍ وَعِنْدِي جَارِيَتَانِ مِنْ جَوَارِي الْأَنْصَارِ، تُغَنِّيَانِ بِمَا تَقَاوَلَتْ بِهِ الْأَنْصَارُ يَوْمَ بُعَاثَ، قَالَتْ: وَلَيْسَتَا بِمُغَنِّيَتَيْنِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَبِمَزْمُورِ الشَّيْطَانِ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ وَذَلِكَ فِي يَوْمِ عِيدٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **يَا أَبَا بَكْرٍ إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيدًا، وَهَذَا عِيدُنَا**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ. وَفِي رِوَايَةٍ لِلشَّيْخَيْنِ قَالَتْ: وَكَانَ يَوْمَ عِيدٍ يَلْعَبُ السُّودَانُ بِالدَّرَقِ وَالْحِرَابِ، فَإِمَّا سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَإِمَّا قَالَ: «**تَشْتَهِينَ تَنْظُرِينَ؟**»، فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَأَقَامَنِي وَرَاءَهُ، خَدِّي عَلَى خَدِّهِ، وَيَقُولُ: «**دُونَكُمْ بَنِي أَرْفِدَةَ**»، حَتَّى إِذَا مَلِلْتُ، قَالَ: «**حَسْبُكِ؟**»، قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «**فَاذْهَبِي**»(١٧).

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «مَشْرُوعِيَّةُ التَّوْسِعَةِ عَلَى الْعِيَالِ فِي أَيَّامِ الْأَعْيَادِ . . . وَفِيهِ أَنَّ إِظْهَارَ السُّرُورِ فِي الْأَعْيَادِ مِنْ شَعَائِرِ الدِّينِ . . . » اهـ(١٨).

وَلَا يَحِقُّ لِأَهْلِ الْعِصْيَانِ وَالْفُجُورِ الَّذِينَ يَسْتَحِلُّونَ الْمُحَرَّمَاتِ، وَيَنْتَهِكُونَ الْحُرُمَاتِ أَنْ يَسْتَدِلُّوا بِهَذَا الْحَدِيثِ وَأَمْثَالِهِ عَلَى فِسْقِهِمْ وَفُجُورِهِمْ كَمَا يَفْعَلُهُ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْجَهْلِ أَوِ الْهَوَى فِي هَذَا الزَّمَنِ فِيمَا يُسَمَّى بِالْمِهْرَجَانَاتِ الْغِنَائِيَّةِ الَّتِي

---

(١٦) عزاه الحافظ ابن حجر للمحاملي، وحَسَّنَهُ كما في الفتح (٢/ ٤٤٦)، وفيه آثار أخرى ضعيفة.

(١٧) رواه البخاري في العيدين، باب سنة العيدين لأهل الإسلام (٩٥٢)، ومسلم في العيدين، باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه في أيام العيد (٨٩٢).
والرواية الثانية للبخاري في العيدين، باب الحراب والدرق يوم العيد (٩٥٠)، ومسلم (٨٩٢).

(١٨) فتح الباري (٢/ ٤٤٣).

يُلَطِّخُونَ بِهَا قُدْسِيَّةَ الْأَعْيَادِ وَشَعَائِرَهَا؛ كُفْرًا لِنِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمُجَاهَرَةً بِالمَعَاصِي، فَالرُّخْصَةُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ إِنَّمَا هِيَ فِي الدُّفِّ فَقَطْ، وَبَيْنَ النِّسَاءِ فَحَسْبُ، وَيَبْقَى المَنْعُ مِنْ بَقِيَّةِ آلَاتِ اللَّهْوِ عَلَى عُمُومِهِ، فَأَيْنَ هَذَا مِنْ أَنْوَاعِ المَعَازِفِ وَالْغِنَاءِ، وَالمُحَرَّمَاتِ المُصَاحِبَةِ لهَا، وَاخْتِلَاطِ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ، وَمَا يَقَعُ بِسَبَبِ ذَلِكَ مِنْ فِتَنٍ عَظِيمَةٍ، وَإِفْسَادٍ لِلْقُلُوبِ، وَمَحْوٍ لِأَثَرِ الصِّيَامِ وَالْقِيَامِ وَالْقُرْآنِ؟!

ثُمَّ يَأْتِي مَنْ يَأْتِي مِنْ ذَوِي الْأَهْوَاءِ المَفْتُونِينَ لِيَنْتَزِعَ هَذَا الْحَدِيثَ مِنْ سِيَاقِهِ، وَيَجْعَلَهُ أَسَاسًا لِإِبَاحَةِ جُمْلَةٍ مِنَ المُحَرَّمَاتِ، وَفِعْلِ عَدَدٍ مِنَ المُنْكَرَاتِ وَالمُوبِقَاتِ، لَا يَرْضَاهَا اللهُ تَعَالَى، وَتُخَالِفُ أَمْرَ رَسُولِهِ ﷺ، وَهَذَا مِنَ الِافْتِيَاتِ عَلَى الشَّرِيعَةِ، وَالْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَالْكَذِبِ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ، وَغِشِّ عَامَّةِ المُسْلِمِينَ.

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَاحْذَرُوا المُنْكَرَاتِ؛ فَإِنَّهَا سَبَبٌ لِزَوَالِ النِّعَمِ، وَحُلُولِ النِّقَمِ، وَلَيْسَ مِنْ شُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى نِعْمَةِ إِدْرَاكِ رَمَضَانَ وَصِيَامِهِ وَقِيَامِهِ المُجَاهَرَةُ بِالمَعَاصِي بَعْدَ رَمَضَانَ، وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ أَوْ شَارَكَ فِيهِ أَوْ رَضِيَهُ فَيُخْشَى عَلَيْهِ مِنْ رَدِّ الصِّيَامِ وَالْقِيَامِ. نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ . . .

❊ ❊ ❊

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْعُمْرَ يَمْضِي كَمَا مَضَى رَمَضَانُ، وَكَمَا أَنَّ فِي النَّاسِ مُحْسِنًا وَمُسِيئًا فِي رَمَضَانَ، فَكَذَلِكَ النَّاسُ فِي الدُّنْيَا عَلَى فَرِيقَيْنِ: فَرِيقٍ يَعْمَلُ لِنَجَاةِ نَفْسِهِ وَفَوْزِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَفَرِيقٍ يَعُبُّ مِنْ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا، وَلَيْسَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَيْسَ فِي الْإِسْلَامِ أَعْيَادٌ سِوَى الْعِيدَيْنِ الشَّرْعِيَّيْنِ، وَعِيدِ الْجُمُعَةِ، وَكُلُّ عِيدٍ يُتَّخَذُ غَيْرَ هَذِهِ الْأَعْيَادِ فَبَاطِلٌ وَإِثْمٌ وَضَلَالٌ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ أَبْدَلَ هَذِهِ الْأُمَّةَ الْخَاتِمَةَ بِأَعْيَادِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ أَعْيَادًا خَيْرًا مِنْهَا، وهي هَذِهِ الْأَعْيَادُ الشَّرْعِيَّةُ الثَّلَاثَةُ الْمُبَارَكَةُ. وَلَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ وَجَدَ لِلْأَنْصَارِ عِيدَيْنِ يَلْعَبُونَ فِيهِمَا فَقَالَ: «**إِنَّ اللهَ قَدْ أَبْدَلَكُمْ بِهِمَا خَيْرًا مِنْهُمَا: يَوْمَ الْأَضْحَى، وَيَوْمَ الْفِطْرِ**»(١٩).

وَالْإِبْدَالُ يَقْتَضِي سُقُوطَ الْمُبْدَلِ إِلَى الْبَدَلِ، وَيَلْزَمُ مِنْهُ الْوَقْفُ فِي بَابِ الْأَعْيَادِ

---

(١٩) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه: أبو داود في الصلاة، باب صلاة العيدين (١١٣٤)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود - الأم (٤/ ٢٩٧) وقال: وهذا سند صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجه.

عَلَى مَا جَاءَ فِي الشَّرِيعَةِ، وَإِلَّا لَمَا كَانَ لِلْإِخْبَارِ بِالْإِبْدَالِ فَائِدَةٌ(٢٠).

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: وَمِمَّا يُشْرَعُ فِي خِتَامِ شَهْرِكُمْ: صَدَقَةُ الْفِطْرِ، وَهِيَ طُعْمَةٌ لِلْمَسَاكِينِ، وَطُهْرَةٌ لِلصَّائِمِينَ، وَمَرْضَاةٌ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَتَكَافُلٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، فَرَضَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «. . . صَاعًا مِنْ تَمْرٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ، عَلَى الْعَبْدِ وَالْحُرِّ، وَالذَّكَرِ وَالأُنْثَى، وَالصَّغِيرِ وَالكَبِيرِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَمَرَ بِهَا أَنْ تُؤَدَّى قَبْلَ خُرُوجِ النَّاسِ إِلَى الصَّلَاةِ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٢١).

وَيَجُوزُ إِخْرَاجُهَا قَبْلَ الْعِيدِ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ(٢٢).

---

(٢٠) قال شيخ الإسلام في الاقتضاء (١/ ٤٨٦-٤٨٨): «والإبدال من الشيء يقتضي ترك المبدل منه؛ إذ لا يجمع بين البدل والمبدل منه؛ ولهذا لا تستعمل هذه العبارة إلا فيما ترك اجتماعهما، كقوله سبحانه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]، وقوله: ﴿وَبَدَّلْنَـٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سبأ: ١٦]، وقوله: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: ٥٩]، وقوله: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾ [النساء: ٢]. ومنه الحديث في المقبور فيقال له: «**انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ، أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ خَيْرًا مِنْهُ مَقْعَدًا فِي الجَنَّةِ**»، ويقال للآخر: «**انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ فِي الجَنَّةِ، أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ النَّارِ**». وقول عمر رضي الله عنه للبيد: «ما فعل شِعرك؟» قال: أبدلني الله به البقرة وآل عمران. وهذا كثير في الكلام. فقوله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ قَدْ أَبْدَلَكُمْ بِهِمَا خَيْرًا مِنْهُمَا**» يقتضي ترك الجمع بينهما، لا سيما وقوله: «خَيْرًا مِنْهُمَا» يقتضي الاعتياض بما شرع لنا عما كان في الجاهلية. وأيضًا فقوله لهم: «إن الله قد أبدلكم» لما سألهم عن اليومين فأجابوه: «بأنهما يومان كانوا يلعبون فيهما في الجاهلية» دليل على أنه نهاهم عنهما اعتياضًا بيومي الإسلام؛ إذ لو لم يقصد النهي لم يكن ذكر هذا الإبدال مناسبًا؛ إذ أصل شرع اليومين الإسلاميين كانوا يعلمونه، ولم يكونوا ليتركوه لأجل يومي الجاهلية.

(٢١) أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: البخاري في الزكاة، باب إخراج صدقة الفطر (١٥٠٣)، ومسلم في الزكاة، باب زكاة الفطر على المسلمين من التمر والشعير (٩٨٤).

(٢٢) لقول نافع راوي الحديث عن ابن عمر: «وكَان ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما يُعْطِيهَا الَّذِينَ يَقْبَلُونَهَا، وَكَانُوا يُعْطُونَ قَبْلَ الفِطْرِ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ» أخرجه البخاري (١٥١١).

عِبَادَ اللَّهِ: أَحْسِنُوا خِتَامَ شَهْرِكُمْ، وَأَرُوا اللهَ تَعَالَى مِنْ أَنْفُسِكُمْ خَيْرًا فِيمَا بَقِيَ مِنْهُ، فَلَعَلَّ مِنَّا مَنْ لَا يُدْرِكُهُ الْعَامَ الْقَابِلَ، وَلَعَلَّ عَبْدًا تَابَ مِنْ تَفْرِيطِهِ فِيمَا مَضَى مِنْ عُمُرِهِ، وَاجْتَهَدَ فِيمَا بَقِيَ مِنْ شَهْرِهِ، فَقَبِلَ اللهُ تَعَالَى تَوْبَتَهُ، وَغَسَلَ حَوْبَتَهُ، وَأَوْجَبَ رَحْمَتَهُ، فَتَعَرَّضُوا لِنَفَحَاتِ رَبِّكُمْ؛ فَإِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ، غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ، يَعْفُو عَنِ السَّيِّئَةِ، وَيَجْزِي الْحَسَنَةَ بِأَضْعَافِهَا، وَقَدْ فَتَحَ لَكُمْ أَبْوَابَهُ، وَنَشَرَ بَيْنَكُمْ رَحْمَتَهُ، وَنَادَى فِي عِبَادِهِ فَقَالَ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، وَأَخْبَرَ ﷻ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ غَفَّارٌ ﴿لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، وَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ رَحْمَتَهُ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، فَلَا يَيْأَسُ مِنْ رَحْمَتِهِ إِلَّا ضَالٌّ قَانِطٌ، وَلَا يُعْرِضُ عَنْ نَفَحَاتِهِ إِلَّا مَحْرُومٌ خَاسِرٌ، وَمَنْ ذَا الَّذِي لَا يَفْتَقِرُ إِلَى عَفْوِ رَبِّهِ سُبْحَانَهُ وَجُودِهِ وَكَرَمِهِ وَرَحْمَتِهِ مِنَ الْبَشَرِ؟! وَحَاجَاتُهُمْ كُلُّهَا إِلَيْهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ، ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْۗ﴾ [الزُّمر: ٧]؟!

فَأَكْثِرُوا -عِبَادَ اللَّهِ- مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَاسْأَلُوا اللهَ تَعَالَى حَاجَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ، وَظُنُّوا بِرَبِّكُمْ سُبْحَانَهُ خَيْرًا؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى عِنْدَ ظَنِّ عِبَادِهِ بِهِ، فَإِنْ ظَنُّوا خَيْرًا فَلَهُمْ، وَإِنْ ظَنُّوا غَيْرَ ذَلِكَ فَعَلَيْهِمْ، وَبِئْسَ مَا ظَنُّوا.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ ....

❊ ❊ ❊

٢٥٨- خطبة عيد الفطر المبارك موقفنا من الأحداث المعاصرة (٣) (★)

السبت ١/ ١٠/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ.

الْحَمْدُ لِلَّهِ أَتَمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْنَا فَبَلَّغَنَا رَمَضَانَ، وَوَفَّقَنَا لِلصِّيَامِ، وَأَعَانَنَا عَلَى الْقِيَامِ، فَلَهُ الْحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِهِ، لَا نُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْهِ كَمَا أَثْنَى هُوَ عَلَى نَفْسِهِ، وَنَسْأَلُهُ أَنْ يَقْبَلَ عَمَلَنَا، وَأَنْ يَشْكُرَ سَعْيَنَا، وَأَنْ يَغْفِرَ ذَنْبَنَا، وَأَنْ يُكْمِلَ نَقْصَنَا؛ فَهُوَ الْجَوَادُ الْكَرِيمُ، الْغَنِيُّ عَنِ الْعَالَمِينَ، يُثِيبُ الثَّوَابَ الْكَثِيرَ عَلَى الْعَمَلِ الْقَلِيلِ، وَيَغْفِرُ الذَّنْبَ الْعَظِيمَ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ٢٥، ٢٦].

أَحْمَدُهُ حَمْدًا كَثِيرًا كَالَّذِي نَقُولُ، وَخَيْرًا مِمَّا نَقُولُ، وَأَشْكُرُهُ شُكْرًا مَزِيدًا، يَتَتَابَعُ مَعَ تَتَابُعِ نِعَمِهِ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ خَلَقَنَا وَرَزَقَنَا، وَهَدَانَا وَأَنْعَمَ عَلَيْنَا، فَلَا رَبَّ لَنَا سِوَاهُ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ؛ أَرْسَلَهُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، وَسِرَاجًا مُنِيرًا؛ فَبَلَّغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ

(*) موقفنا من الأحداث المعاصرة (١) تجدها في مجلد (٢) خطبة رقم (٦٩)، و(٢) تجدها في مجلد (٢) خطبة رقم (٧٠).

وَأَصْحَابِهِ؛ السَّادَةِ المُكَرَّمِينَ، وَالْغُرِّ المَيَامِينِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الحَمْدُ.

اللهُ أَكْبَرُ مَا صَامَ الصَّائِمُونَ وَأَفْطَرُوا، اللهُ أَكْبَرُ مَا صَلَّى المُصَلُّونَ وَخَشَعُوا، اللهُ أَكْبَرُ مَا قَرَأَ الْقَارِئُونَ كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى وَتَدَبَّرُوا.

اللهُ أَكْبَرُ، قَسَّمَ الْأَرْزَاقَ، وَضَرَبَ الْآجَالَ، وَقَدَّرَ المَقَادِيرَ.

اللهُ أَكْبَرُ، لَا يَخْرُجُ شَيْءٌ عَنْ أَمْرِهِ، وَلَا يُقْضَى شَأْنٌ إِلَّا بِحُكْمِهِ، ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصّلت: ١١]، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ.

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الحَمْدُ.

اللهُ أَكْبَرُ، كَمْ مِنْ عِبَادٍ لِلَّهِ تَعَالَى أَحْيَوْا لَيَالِيَ رَمَضَانَ، وَرَفَعُوا أَكُفَّهُمْ لِلَّهِ تَعَالَى ضَارِعِينَ خَاشِعِينَ مُخْبِتِينَ، يَجْأَرُونَ إِلَيْهِ بِالدُّعَاءِ، يَسْأَلُونَهُ حَاجَاتِهِمْ، فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، فِي أَوْقَاتٍ مُتَتَابِعَةٍ، وَبِلُغَاتٍ مُتَبَايِنَةٍ؟! فَسُبْحَانَ مَنْ أَحَاطَ عِلْمُهُ بِهِمْ، وَسَمِعَ أَصْوَاتَهُمْ، وَاسْتَجَابَ دَعَوَاتِهِمْ، وَقَضَى حَاجَاتِهِمْ!

اللهُ أَكْبَرُ، كَمْ مِنْ دَعْوَةٍ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى رُفِعَتْ؟ كَمْ مِنْ حَاجَةٍ مِنْهُ طُلِبَتْ؟ كَمْ مِنْ مَسْأَلَةٍ سُئِلَتْ؟ مَنْ سَمِعَهَا، وَمَنْ يُجِيبُهَا، وَمَنْ يَقْضِيهَا، إِلَّا رَبُّنَا الْجَوَادُ الْكَرِيمُ الْغَنِيُّ عَنِ الْعَالَمِينَ؟ ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرَّحمن: ٢٩].

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الحَمْدُ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، أَيُّهَا الصَّائِمُونَ، أَيُّهَا الْقَائِمُونَ، أَيُّهَا الدَّاعُونَ: أَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا، وَظُنُّوا بِرَبِّكُمْ خَيْرًا؛ فَإِنَّكُمْ قَدْ سَأَلْتُمُ الْجَوَادَ الْكَرِيمَ، وَلُذْتُمْ بِحِمَى

اللَّطِيفِ الرَّحِيمِ، الْخَزَائِنُ بِيَدِهِ، وَالْكَرَمُ صِفَتُهُ، وَابْقُوا عَلَى الْعَهْدِ وَالْوَعْدِ؛ فَإِنَّ رَبَّكُمْ يُعْبَدُ فِي كُلِّ الْأَزْمَانِ، وَيَا أَيُّهَا الْمُفَرِّطُونَ تُوبُوا؛ فَإِنَّ رَبَّكُمْ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ.

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: بَيْنَمَا كَانَ عِبَادُ اللَّهِ الصَّالِحُونَ يُحْيُونَ الْعَشْرَ؛ رَجَاءَ الْأَجْرِ، وَالْتِمَاسًا لِلَيْلَةِ الْقَدْرِ كَانَ النَّاسُ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا يَدُوكُونَ فِي الشُّؤُونِ السِّيَاسِيَّةِ مِنْ هَلَاكِ بَعْضِ الزُّعَمَاءِ، وَمِنَ انْتِخَابِ بَعْضِهِمْ[1]، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ هَذِهِ الْأَحْدَاثَ الدَّوْلِيَّةَ بَاتَتْ مُؤَثِّرَةً عَلَى أَمْنِ الدُّوَلِ وَأَرْزَاقِهَا، وَلَا سِيَّمَا بَعْدَ تَآزُرِ الصِّهْيَوْنِيَّةِ بِشِقَّيْهَا الْيَهُودِيِّ وَالنَّصْرَانِيِّ مَعَ اللِّيبْرَالِيَّةِ الِاسْتِعْمَارِيَّةِ لِأَجْلِ احْتِلَالِ الْبُلْدَانِ، وَالِاسْتِيلَاءِ عَلَى الثَّرَوَاتِ، سَوَاءٌ كَانَتِ الدَّوَافِعُ دِينِيَّةً تَوْرَاتِيَّةً، أَمْ كَانَتْ دُنْيَوِيَّةً مَادِّيَّةً.

وَلَقَدْ كَانَ لِلْيَمِينِ الْإِنْجِيلِيِّ الْمُتَصَهْيِنِ صَوَلَاتُهُ السَّابِقَةُ، وَمُغَامَرَاتُهُ الْمُتَهَوِّرَةُ، وَقَدْ عَادَ مِنْ جَدِيدٍ يَعْتَلِي سُدَّةَ أَقْوَى نِظَامٍ فِي الْأَرْضِ؛ لِيَبْدَأَ مَرْحَلَةً جَدِيدَةً مِنْ سِيَاسَاتِ التَّوَسُّعِ وَالِاحْتِلَالِ، وَالْحِصَارِ وَالتَّجْوِيعِ، وَالْقَهْرِ وَالظُّلْمِ، وَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ تَعَالَى إِلَى أَيِّ مَدًى سَيَصِلُونَ، وَعِنْدَ أَيِّ حَدٍّ يَنْتَهُونَ، وَلَكِنْ سُنَّةُ اللَّهِ الثَّابِتَةُ: أَنَّ عَاقِبَةَ الظُّلْمِ أَلِيمَةٌ، وَأَنَّ نِهَايَتَهُ قَرِيبَةٌ، مَهْمَا كَانَتْ قُوَّةُ أَصْحَابِهِ، وَلَوْ طَوَّعُوا الْأُمَمَ كُلَّهَا لَهُمْ، وَأَذَلُّوا الْعَالَمِينَ بِقُوَّتِهِمْ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ يُطِيلُ أَمَدَ ذَلِكَ بَعْضَ الشَّيْءِ؛ إِمْلَاءً لِلظَّالِمِ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ، وَابْتِلَاءً لِلْمَظْلُومِ حَتَّى يَصْبِرَ وَيَتَّقِيَ ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾

---

(١) هذا إشارة إلى موت الرئيس الفلسطيني (عرفات)، وكثرة الجدل حول كَوْنِه مسمومًا أو لا، وكان ترشيح (بوش) للولاية الثانية رئيسًا لأمريكا في عشر رمضان الأخيرة، وأخذ هذان الموضوعان أكثر الاهتمام الإعلامي على مستوى العالم.

[الحج: ٤٨]، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

إِنَّهُمْ إِنِ اسْتَمَرُّوا فِي ظُلْمِهِمْ وَبَغْيِهِمْ فَإِنَّ نِهَايَتَهُمْ آتِيَةٌ، وَعَذَابَهُمْ وَاقِعٌ، لَهُ مَوْعِدٌ لَا يُخْلَفُ ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩].

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الحَمْدُ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَقَدْ مَرَّتْ بِالمُسْلِمِينَ خِلَالَ هَذِهِ السَّنَوَاتِ الْقَلَائِلِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْبُلْدَانِ أَزَمَاتٌ خَانِقَةٌ، وَكُرُوبٌ شَدِيدَةٌ، نَتَجَ عَنْهَا خَرَابُ الدِّيَارِ، وَتَدْمِيرُ الْعُمْرَانِ، وَحَبْسُ الْأَرْزَاقِ، تَوَلَّى كِبْرَهَا أَعْدَاءُ المِلَّةِ وَالدِّينِ، مِنَ الصَّهَايِنَةِ الْحَاقِدِينَ، وَالإِنْجِيلِيِّينَ المُتَطَرِّفِينَ، وَسَوَّقَ لِشِعَارَاتِهَا الزَّائِفَةِ ضِعَافُ الْعَقْلِ وَالدِّينِ، مِنَ الْجَهَلَةِ وَالمُنَافِقِينَ، وَلَنْ يَكُونَ مَا مَضَى مِنْ أَحْدَاثٍ أَيْسَرَ مِمَّا سَيَأْتِي، إِلَّا أَنْ يَتَوَلَّى اللهُ تَعَالَى المُسْلِمِينَ بِرَحْمَتِهِ وَلُطْفِهِ.

إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ قَدْ فُتِنُوا بِالدِّيمُقْرَاطِيَّةِ وَاللِّيبْرَالِيَّةِ؛ لِأَنَّ الدَّوْلَةَ الرَّائِدَةَ فِي الظُّلْمِ وَالطُّغْيَانِ تَنْتَهِجُهَا، وَيُرِيدُونَ فَرْضَ الْفَاسِدِ مِنْهَا عَلَى المُسْلِمِينَ بِالْقُوَّةِ، وَلَوِ اقْتَضَى ذَلِكَ إِقْصَاءَ أَدْيَانِهِمْ، وَإِلْغَاءَ أَخْلَاقِهِمْ، زَاعِمِينَ أَنَّ نِهَايَةَ التَّارِيخِ كَانَتْ عِنْدَهَا، وَيَطْمَحُونَ فِي إِنْهَاءِ الْجُغْرَافِيَا عِنْدَهَا كَذَلِكَ؛ بِتَطْوِيعِ الْأُمَمِ وَالشُّعُوبِ لِأَفْكَارِهِمُ المَجْنُونَةِ بِالْبَطْشِ وَالْقُوَّةِ، وَالْقَهْرِ وَالظُّلْمِ، وَلَنْ تَكُونَ مَشْرُوعَاتُهُمُ الِاسْتِعْمَارِيَّةُ نِهَايَةَ التَّارِيخِ، وَلَا نِهَايَةَ الْجُغْرَافِيَا، بَلْ هِيَ وَاللَّهِ بِدَايَةُ نِهَايَتِهِمْ بِحَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَقُوَّتِهِ ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الحَمْدُ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: هَذِهِ الْمِحْنَةُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي يَعِيشُهَا الْمُسْلِمُونَ فِي هَذَا الْعَصْرِ قَدْ نَتَجَ عَنْهَا فِتَنٌ عِدَّةٌ، غَرِقَ فِي لُجَّتِهَا مَنْ غَرِقَ، وَالْتَبَسَ بِسَبَبِهَا الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، حَتَّى صَارُوا حَيَارَى لَا يَدْرُونَ مَا يَقُولُونَ! وَلَا مَنْ يَنْصُرُونَ!!

فَطَائِفَةٌ خَالَفَتِ النُّصُوصَ الْوَاضِحَةَ، وَافْتَاتَتْ عَلَى الشَّرِيعَةِ، وَخَرَقَتْ إِجْمَاعَ الْأُمَّةِ؛ فَشَقَّتْ عَصَا الطَّاعَةِ، وَخَرَجَتْ عَلَى السَّلَاطِينِ، وَرَفَعَتِ السِّلَاحَ عَلَى الْمُعَاهَدِينَ وَالْمُؤَمَّنِينَ، وَأَحْدَثَتْ مَا أَحْدَثَتْ مِنَ التَّخْرِيبِ وَالْإِفْسَادِ فِي أَوْسَاطِ الْمُسْلِمِينَ!!

وَمَا عَلِمَ هَؤُلَاءِ وَمَنْ نَاصَرَهُمْ أَنَّ الشَّرِيعَةَ لَا تُبِيحُ الْخُرُوجَ عَلَى السُّلْطَانِ إِلَّا فِي حَالِ الْكُفْرِ الْبَوَاحِ الَّذِي لَهُ فِيهِ بُرْهَانٌ، وَمَا فَقِهُوا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ قَبِلَ تَأْمِينَ امْرَأَةٍ مُسْلِمَةٍ لِرَجُلٍ مُشْرِكٍ وَقَالَ: «**قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمَّ هَانِئٍ**»[٢] فَكَيْفَ بِتَأْمِينِ وَلِيِّ الأَمْرِ؟!

وَمَا أَدْرَكَ هَؤُلَاءِ أَنَّ عَمَلَهُمُ الْمَشِينَ يَنْفَعُ أَعْدَاءَ الْمِلَّةِ وَالدِّينِ، وَيُصَدِّعُ وَحْدَةَ الْمُسْلِمِينَ، وَيَجُرُّ مَا يَجُرُّ عَلَى الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ مِنَ الْفِتَنِ وَالْوَيْلَاتِ. وَمَنْ عَظَّمَ اللهَ تَعَالَى عَظَّمَ شَرِيعَتَهُ، وَأَخَذَ بِالنُّصُوصِ كُلِّهَا وَلَوْ خَالَفَتْ هَوَاهُ وَمُشْتَهَاهُ؛ فَاللَّهُمَّ اكْفِ الْمُسْلِمِينَ شَرَّهُمْ، وَرُدَّهُمْ إِلَى جَادَّةِ الْحَقِّ، وَافْتَحْ عَلَى قُلُوبِنَا وَقُلُوبِهِمْ بِالْهِدَايَةِ وَالصَّوَابِ.

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.

وَطَائِفَةٌ أُخْرَى حَمَلَتْ عَلَى عَاتِقِهَا تَزْوِيرَ شَرِيعَةِ اللَّهِ ﷻ، وَلَيَّ أَعْنَاقِ

---

(٢) أخرجه من حديث أم هانئ بنت أبي طالب: البخاري في الجزية والموادعة، باب أمان النساء وجوارهن (٣٠٠٠)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة الضحى (٣٣٦).

النُّصُوصِ، وَتَطْوِيعَهَا لِلْوَاقِعِ، وَدَعْمَ ذَلِكَ بِالْأَقْوَالِ الشَّاذَّةِ، وَإِحْيَاءَ الْمَذَاهِبِ الْمَهْجُورَةِ، بَلْ وَالْقَوْلَ بِأَقْوَالٍ لَمْ يَقُلْ بِهَا أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَا قَدِيمًا وَلَا حَدِيثًا؛ إِرْضَاءً لِأَهْوَائِهِمْ، وَمُسَايَرَةً لِلْأَحْدَاثِ، يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ أَعْلَمُ بِرُوحِ الشَّرِيعَةِ، وَأَدْرَى بِمَصَالِحِ الْأُمَّةِ، وَأَكْثَرُ غَيْرَةً عَلَى الْحُرُمَاتِ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَهُمْ فِي وَاقِعِ الْأَمْرِ يَدْفَعُونَ دِينَهُمُ اسْتِبْقَاءً لِدُنْيَاهُمْ، وَيُبَدِّلُونَ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى خَوْفًا عَلَى أَرْزَاقِهِمْ وَآجَالِهِمْ!!

وَمَا عَلِمُوا أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا، وَأَنَّ الْحَذَرَ لَا يُنْجِي مِنَ الْقَدَرِ؛ فَإِنْ كَانَ اللهُ تَعَالَى قَدْ قَدَّرَ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ تَسَلُّطَ أَعْدَائِهَا عَلَيْهَا فَلَنْ يَرُدَّهُمْ عَنْ غَيِّهِمْ فَتَاوَى مُضَلِّلَةٌ، أَوِ اجْتِهَادَاتٌ خَاطِئَةٌ، تَخْدُمُهُمْ فِي مَشْرُوعَاتِهِمُ التَّوَسُّعِيَّةِ الِاسْتِعْمَارِيَّةِ، وَتُسَبِّبُ الْخِذْلَانَ الْعَظِيمَ لِلْمُسْلِمِينَ.

لَقَدْ ظَنَّتْ هَذِهِ الطَّائِفَةُ -كَمَا ظَنَّ الْجَاهِلُونَ- أَنَّ هَذَا الْعَدُوَّ الْمُتَصَهْيِنَ سَيُوقِفُهُ عَنْ أَطْمَاعِهِ فَتَاوَى تَكُونُ فِي صَالِحِهِ، وَسَيُرْضِي طُمُوحَه شَوَاذٌّ فِقْهِيَّةٌ تَقِفُ إِلَى جَانِبِهِ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، بَلْ وَاللَّهِ الَّذِي لَا يُحْلَفُ بِغَيْرِهِ إِنَّ تَبْدِيلَ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَزْوِيرَ شَرِيعَتِهِ لَمُؤْذِنٌ بِالْهَلَاكِ وَالْعَذَابِ، وَتَسَلُّطِ الْأَعْدَاءِ، وَمَنْ سَكَتَ عَنْ حَقٍّ لَا يُطِيقُ نُطْقَهُ خَيْرٌ مِمَّنْ نَطَقَ بِالْبَاطِلِ، وَلَأَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ ذَيْلًا فِي الْخَيْرِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَكُونَ رَأْسًا فِي الشَّرِّ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يُخَيَّرُ فِيهِ الرَّجُلُ بَيْنَ الْعَجْزِ وَالْفُجُورِ، فَمَنْ أَدْرَكَ مِنْكُمْ ذَلِكَ الزَّمَانَ فَلْيَخْتَرِ الْعَجْزَ عَلَى الْفُجُورِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ(٣).

وَمَنْ غَيَّرَ دِينَ اللَّهِ تَعَالَى اتِّقَاءً لِشَرٍّ مُتَوَهَّمٍ أَوْ مُتَوَقَّعٍ فَهُوَ الْمَفْتُونُ، وَيُوشِكُ اللهُ

---

(٣) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أحمد (٢/ ٢٧٨-٤٤٧)، وإسحاق بن راهويه (١٥٠)، وأبو يعلى (٦٤٠٣)، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي (٤/ ٤٨٤-٤٨٥).

تَعَالَى لَهُ بِعَذَابٍ عَاجِلٍ مَعَ الْعَذَابِ الْآجِلِ، نَسْأَلُ اللهَ الْعَافِيَةَ، قَالَ حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ رضي الله عنهما: «إِذَا أَحَبَّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَعْلَمَ أَصَابَتْهُ الْفِتْنَةُ أَمْ لَا فَلْيَنْظُرْ، فَإِنْ كَانَ رَأَى حَلَالًا كَانَ يَرَاهُ حَرَامًا فَقَدْ أَصَابَتْهُ الْفِتْنَةُ، وَإِنْ كَانَ يَرَى حَرَامًا كَانَ يَرَاهُ حَلَالًا فَقَدْ أَصَابَتْهُ الْفِتْنَةُ» رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ وَقَالَ: عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ(٤).

وَاللهُ تَعَالَى أَمَرَ عِبَادَهُ فِي حَالِ اشْتِدَادِ أَذَى الْأَعْدَاءِ وَتَكَالُبِهِمْ وَمَكْرِهِمْ بِالصَّبْرِ مَعَ التَّقْوَى، وَلَمْ يُرَخِّصْ فِي تَبْدِيلِ الدِّينِ، أَوْ تَحْرِيفِ النُّصُوصِ؛ اتِّقَاءً لِشَرِّهِمْ، أَوْ دَفْعًا لِخَطَرِهِمْ ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وَلَيْسَ مِنَ التَّقْوَى فِي شَيْءٍ تَبْدِيلُ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا تَحْرِيفُ نُصُوصِهِ، وَيُوشِكُ مَنْ نَهَجَ هَذَا الْمَنْهَجَ الْآثِمَ أَنْ لَا يَسْلَمَ لَهُ دِينُهُ، وَلَا تَسْتَقِيمَ لَهُ دُنْيَاهُ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَغَارُ عَلَى حُرُمَاتِهِ، وَإِنَّ الْأَعْدَاءَ إِنْ ظَفِرُوا بِالْمُسْلِمِينَ فَلَنْ يَرْقُبُوا فِيهِمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً، سَوَاءً مَنْ كَانَ ضِدَّهُمْ أَوْ مَنْ كَانَ مَعَهُمْ، نَسْأَلُ اللهَ لَنَا وَلِلْمُسْلِمِينَ الْهِدَايَةَ وَالْعِصْمَةَ.

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.

وَطَائِفَةٌ ثَالِثَةٌ قَدِ انْتَفَشَتْ زُهُوًّا، وَرَقَصَتْ طَرَبًا مِنْ مُصَابِ الْمُسْلِمِينَ، وَتُبَشِّرُ بِانْتِهَاءِ الْإِسْلَامِ الْحَقِّ الَّذِي تَوَارَثَهُ الْمُسْلِمُونَ؛ لِيَخْلُفَهُ الْإِسْلَامُ اللِّيبْرَالِيُّ، زَعَمُوا وَخَسِئُوا!

إِنَّهَا طَائِفَةُ الْمُنَافِقِينَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ الَّتِي أَبْدَأَ الْقُرْآنُ فِيهَا وَأَعَادَ، وَحَذَّرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهَا أَشَدَّ تَحْذِيرٍ .. إِنَّهَا الطَّائِفَةُ الَّتِي تَرْكَبُ مَوْجَ الْأَحْدَاثِ؛

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٤٧٤)، والحاكم وصححه وقال: على شرط الشيخين (٤/ ٥١٤).

لِتَحْقِيقِ أَغْرَاضِهَا الدَّنِيئَةِ، وَالتَّنْفِيسِ عَنْ أَحْقَادِهَا الدَّفِينَةِ ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ [المائدة: ٥٢].

بَاتَتْ هَذِهِ الطَّائِفَةُ تُخَوِّفُ الْأُمَّةَ حُكَّامًا وَمَحْكُومِينَ بِأَعْدَاءِ المِلَّةِ وَالدِّينِ، وَتَدْعُوهُمْ إِلَى نَبْذِ دِينِهِمْ، وَالتَّخَلِّي عَنْ شَرِيعَتِهِمْ، بَلْ وَتَتَوَعَّدُ مَنْ لَمْ يُوَافِقْهَا فِي ضَلَالِهَا بِتَسْلِيطِ الْأَعْدَاءِ عَلَيْهِ!!

وَمَا عَلِمُوا أَنَّ فِي الْأُمَّةِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَجْعَلُ مَجْمُوعَهَا يَخَافُونَ اللهَ تَعَالَى أَكْثَرَ مِنْ خَوْفِهِمْ مِنَ الْأَعْدَاءِ وَمَا يَمْتَلِكُونَ، قَدْ وَضَعُوا نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ﴾ [الزُّمر: ٣٦]. وَقَوْلَهُ ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢].

وَمَآلُ هَذِهِ الطَّائِفَةِ المَنْكُودَةِ: الخَسَارَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، هَتَكَ اللهُ تَعَالَى سِتْرَهُمْ، وَكَشَفَ أَمْرَهُمْ، وَكَفَى المُسْلِمِينَ شَرَّهُمْ!

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الحَمْدُ.

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: إِنَّ مَا تُوَاجِهُهُ الْأُمَّةُ مِنْ تَحَدِّيَاتٍ كَبِيرَةٍ، وَمَا تُعَانِيهِ مِنْ مُشْكِلَاتٍ جَسِيمَةٍ؛ لَيُوجِبُ عَلَى الجَمِيعِ حُكَّامًا وَمَحْكُومِينَ الرُّجُوعَ إِلَى اللَّهِ ﷻ، وَالتَّوْبَةَ مِنَ الذُّنُوبِ، وَاسْتِحْضَارَ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ الَّتِي تُبَيِّنُ عَظَمَةَ اللَّهِ ﷻ وَقُوَّتَهُ، وَأَنَّ الْأَمْرَ بِيَدِهِ، وَأَنَّ الحُكْمَ إِلَيْهِ، وَأَنَّهُ مَالِكُ المُلْكِ، وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّ الْعِزَّةَ لَهُ ﷻ، فَمَنْ طَلَبَهَا مِنْ غَيْرِهِ فَلَنْ يَجِدَهَا ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ﴾ [فاطر: ١٠]، وَأَنَّهُ ﷻ المُسْتَحِقُّ لِلْخَشْيَةِ دُونَ النَّاسِ، مَهْمَا عَظُمَتْ قُوَّتُهُمْ، وَكَثُرَتْ أَعْدَادُهُمْ، وَتَطَوَّرَتْ صِنَاعَاتُهُمْ ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣]، ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

يَجِبُ أَنْ يُوقِنَ المُسْلِمُونَ أَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ عَلَى الْحَقِّ المُبِينِ، وَأَنَّ دِينَهَا هُوَ الدِّينُ الصَّحِيحُ، وَأَنَّ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَدْيَانِ وَالْأَفْكَارِ فَضَلَالٌ وَإِثْمٌ وَخَطَأٌ وَبَاطِلٌ.

وَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ أُمِرَ بِالِاسْتِمْسَاكِ بِالدِّينِ وَهُوَ المَعْصُومُ مِنَ الحَيْدَةِ عَنْهُ، فَكَيْفَ بِنَا نَحْنُ يَا مَعَاشِرَ المُسْلِمِينَ؟! ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزُّخرف: ٤٣]، ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩].

كَمَا يَجِبُ أَنْ يَعْلَمَ المُسْلِمُونَ أَنَّ هَذِهِ المَرْحَلَةَ الْحَرِجَةَ مِنْ تَارِيخِ الْأُمَّةِ مَا هِيَ إِلَّا مَرْحَلَةُ الِابْتِلَاءِ وَالتَّمْحِيصِ الَّتِي تَسْبِقُ الرِّيَادَةَ وَالتَّمْكِينَ، فَلَا بُدَّ فِيهَا مِنَ الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى؛ لِنَيْلِ النَّصْرِ وَالْحُسْنَى ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [غافر: ٥٥]، ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ﴾ [محمد: ٤]، ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصَّافات: ١٧١-١٧٣].

كَمَا يَجِبُ أَنْ يَعِيَ المُسْلِمُونَ حَقِيقَةً مُهِمَّةً وَهِيَ: أَنَّ التَّخَلِّيَ عَنِ الدِّينِ، أَوْ تَبْدِيلَ الشَّرِيعَةِ سَبَبٌ لِلْمَصَائِبِ فِي الدُّنْيَا وَالْخَسَارَةِ فِي الْآخِرَةِ، وَأَنَّ مَا قَدَّرَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى المُسْلِمِينَ أَفْرَادًا وَأُمَمًا كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ، وَلَنْ يَرُدَّهُ تَبْدِيلُ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى، بَلْ سَيَكُونُ سَبَبًا لِلْخِذْلَانِ وَالِانْتِكَاسَةِ، وَمَنْ نَصَرَ دِينَ اللَّهِ تَعَالَى نَصَرَهُ اللهُ ﷻ، وَمَنْ خَذَلَ دِينَ اللَّهِ تَعَالَى خَذَلَهُ اللهُ ﷻ، وَأَصَابَهُ مَا قَدْ قُدِّرَ عَلَيْهِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

يَجِبُ عَلَى المُسْلِمِينَ أَنْ يُوقِنُوا أَنَّ مَنْ يَنْصُرُهُ اللهُ ﷻ بِسَبَبِ نَصْرِهِ لِدِينِهِ فَهُوَ غَالِبٌ، وَمَنْ خَذَلَهُ اللهُ تَعَالَى بِسَبَبِ خِذْلَانِهِ لِدِينِهِ فَلَنْ يُنْصَرَ، بَلْ سَيَنَالُهُ الذُّلُّ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

إِنَّ هَذِهِ المَعَانِيَ الْعَظِيمَةَ يَجِبُ أَنْ يَتَدَبَّرَهَا المُسْلِمُونَ، وَأَنْ يَفْهَمُوا كَلَامَ

اللَّهِ ﷺ، وَأَنْ يَعْمَلُوا بِمَا فِيهِ، كَمَا يَجِبُ غَرْسُ هَذِهِ المَفَاهِيمِ فِي قُلُوبِ النَّاشِئَةِ، وَتَرْبِيَةُ المُسْلِمِينَ كُلِّهِمْ عَلَيْهَا؛ فَلَا عِزَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ تَعَالَى، وَلَا نَصْرَ إِلَّا فِي دِينِهِ، وَلَا غَالِبَ إِلَّا هُوَ جَلَّ جَلَالُهُ.

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الحَمْدُ.

أَيَّتُهَا المَرْأَةُ المُسْلِمَةُ، أَيَّتُهَا الصَّائِمَةُ الْقَائِمَةُ: إِنَّ هَذِهِ المَعَانِيَ الْعَظِيمَةَ الَّتِي تَمْلَأُ قَلْبَ المُؤْمِنِ عِزَّةً وَأَنَفَةً وَثِقَةً فِي اللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ نَحْتَاجُ إِلَى غَرْسِهَا فِي أَفْهَامِ النَّاشِئَةِ، وَتَرْبِيَتِهِمْ عَلَيْهَا، وَهَذَا وَاجِبٌ عَلَيْكِ تُؤَدِّينَهُ؛ خِدْمَةً لِدِينِكِ، وَإِرْضَاءً لِرَبِّكِ، وَنَصْرًا لِأُمَّتِكِ.

أَيَّتُهَا الْعَفِيفَةُ الحَصِينَةُ: إِيَّاكِ وَادِّعَاءَاتِ اللِّيبْرَالِيِّينَ، وَمَنْ لَفَّ لَفَّهُمْ مِنْ دُعَاةِ تَحْرِيرِ المَرْأَةِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ فَسَادَ الْأُسْرَةِ، وَتَقْوِيضَ دَعَائِمِ الْفَضِيلَةِ، وَجَعْلَ مُجْتَمَعَاتِ المُسْلِمِينَ مُجْتَمَعَاتٍ حَيَوَانِيَّةً بَهِيمِيَّةً لَا تَرْعَى لِلَّهِ حُرْمَةً، وَلَا تَأْنَفُ مِنْ تَفَسُّخٍ وَانْحِلَالٍ، وَلَا تَأْبَهُ بِالْحَيَاءِ، وَلَا تَرْفَعُ بِشَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى رَأْسًا.

تَمَسَّكِي بِدِينِكِ وَحِجَابِكِ، وَعَضِّي بِالنَّوَاجِذِ عَلَى طُهْرِكِ وَعَفَافِكِ، وَلَا تَغْتَرِّي بِأُطْرُوحَاتِهِمُ المَأْفُونَةِ، وَاحْذَرِيهِمْ ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤].

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الحَمْدُ.

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: حُقَّ لَكُمْ أَنْ تَفْرَحُوا بِعِيدِكُمْ بَعْدَ صِيَامِ شَهْرِكُمْ، وَإِرْضَاءِ رَبِّكُمْ، وَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى فِي فِطْرِكُمْ كَمَا كُنْتُمْ تَتَّقُونَهُ فِي صَوْمِكُمْ، وَاحْذَرُوا المُنْكَرَاتِ وَالمَعَازِفَ وَالْغِنَاءَ، وَأَتْبِعُوا رَمَضَانَ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ؛ فَإِنَّ مَنْ صَامَهَا مَعَ رَمَضَانَ فَكَأَنَّمَا صَامَ الدَّهْرَ كُلَّهُ؛ كَمَا صَحَّ ذَلِكَ عَنِ المَعْصُومِ ﷺ(٥).

---

(٥) أخرجه من حديث أبي أيوب الأنصاري ﷺ: مسلم في الصيام، باب استحباب صوم ستة أيام من شوال إتباعًا لرمضان (١١٦٤).

بَرُّوا وَالِدِيكُمْ، وَصِلُوا أَرْحَامَكُمْ، وَلِينُوا لِإِخْوَانِكُمْ، وَأَزِيلُوا الشَّحْنَاءَ مِنْ قُلُوبِكُمْ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا.

وَلَا تَنْسَوْا إِخْوَانَكُمُ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَالْمُحَاصَرِينَ وَالْمُضْطَهَدِينَ، أَكْثِرُوا لَهُمْ مِنَ الدُّعَاءِ فَهُمْ أَحْوَجُ مَا يَكُونُونَ إِلَيْهِ.

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الحَمْدُ.

أَعَادَهُ اللهُ عَلَيْنَا وَعَلَيْكُمْ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ بِالْيُمْنِ وَالإِيمَانِ، وَالسَّلَامَةِ وَالْإِسْلَامِ، وَتَقَبَّلَ اللهُ مِنَّا وَمِنْكُمْ صَالِحَ الْأَعْمَالِ.



٢٥٩- خطبة عيد الفطر المبارك
التذكير بالنعم والتحذير من النقم

الخميس ١/ ١٠/ ١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ شَرَعَ لَنَا مَوَاسِمَ الْخَيْرِ وَالْإِحْسَانِ، وَأَعَانَنَا بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ عَلَى الصِّيَامِ وَالْقِيَامِ، وَجَعَلَنَا مِنْ خَيْرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ .. هُوَ خَالِقُنَا وَرَازِقُنَا، وَهُوَ رَبُّنَا وَمَعْبُودُنَا، لَا رَبَّ لَنَا سِوَاهُ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ. نَحْمَدُهُ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْنَا مِنْ نِعَمِهِ الْعَظِيمَةِ، وَآلَائِهِ الْجَسِيمَةِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى تَتَابُعِ إِحْسَانِهِ، وَتَرَادُفِ تَوْفِيقِهِ وَامْتِنَانِهِ، وَنَسْتَغْفِرُهُ لِتَقْصِيرِنَا فِي الْقِيَامِ بِأَمْرِهِ، وَارْتِكَابِنَا نَهْيَهُ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ وَسِعَ حِلْمُهُ عَلَيْنَا، فَسَتَرَ عُيُوبَنَا، وَلَمْ يَأْخُذْنَا بِذُنُوبِنَا، مَعَ وُقُوعِنَا فِي مُوجِبَاتِ غَضَبِهِ، وَاسْتِحْقَاقِنَا لِعِقَابِهِ، وَلَكِنَّ رَبَّنَا جَوَادٌ كَرِيمٌ، غَفُورٌ حَلِيمٌ، عَفْوُهُ أَقْرَبُ مِنْ عُقُوبَتِهِ، وَرَحْمَتُهُ سَبَقَتْ غَضَبَهُ، فَسُبْحَانَهُ مِنْ رَبٍّ كَرِيمٍ، وَإِلَهٍ عَظِيمٍ، وَرَحْمَنٍ رَحِيمٍ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ خَيْرَ مَنْ شَهِدَ رَمَضَانَ، فَصَلَّى وَصَامَ، وَقَنَتَ لِلَّهِ تَعَالَى وَقَامَ. وَفِي عَشْرِ رَمَضَانَ الْأَخِيرَةِ كَانَ يَشُدُّ مِئْزَرَهُ، وَيُحْيِي لَيْلَهُ، وَيُوقِظُ أَهْلَهُ، وَيَعْتَكِفُ فِي مَسْجِدِهِ، خَالِيًا قَلْبُهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، يُعَظِّمُهُ وَيُنَاجِيهِ، وَيَذْكُرُهُ وَيَسْأَلُهُ، وَيَدْعُوهُ وَيَسْتَغْفِرُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ خَيْرِ صَحْبٍ وَآلٍ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ؛ فَإِنَّهَا نِعْمَ الزَّادُ

وَالْعُدَّةُ لِيَوْمٍ عَسِيرٍ، عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرِ يَسِيرٍ ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: ٢٨١].

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الحَمْدُ.

أَيُّهَا النَّاسُ: اشْكُرُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَاذْكُرُوهُ فِي كُلِّ أَحْيَانِكُمْ، وَاعْبُدُوهُ حَقَّ عِبَادَتِهِ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مَهْمَا عَمِلْتُمْ مِنْ أَعْمَالٍ صَالِحَةٍ فَإِنَّكُمْ لَا تَفُونَ اللهَ تَعَالَى حَقَّهُ، وَلَا تَجْزُونَهُ عَنْ نِعْمَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ نِعَمِهِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي غَمَرَكُمْ بِهَا، فَمَنْ ذَا الَّذِي يَجْزِي خَالِقَهُ وَرَازِقَهُ وَهَادِيَهُ مَهْمَا عَمِلَ؟!

خَلَقَكُمْ رَبُّكُمْ وَلَيْسَ مُحْتَاجًا إِلَيْكُمْ، وَكَلَّفَكُمْ بِالشَّرِيعَةِ وَهُوَ الْغَنِيُّ عَنْكُمْ، فَلَا طَاعَتُكُمْ تَنْفَعُهُ، وَلَا مَعْصِيَتُكُمْ تَضُرُّهُ، كَيْفَ وَهُوَ الْقَائِلُ سُبْحَانَهُ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «**يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي**»[1].

وَلَوْ شَاءَ سُبْحَانَهُ لَأَهْلَكَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا، وَلَوْ أَرَادَ سُبْحَانَهُ لَأَبْدَلَ جِنْسَ الْبَشَرِ بِخَلْقٍ غَيْرِهِمْ لَا يَعْصُونَهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [النِّسَاء: ١٣٣]، ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ [الأَنْعَام: ١٣٣]، ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فَاطِر: ١٥-١٧]، ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ [مُحَمَّد: ٣٨].

---

(١) أخرجه من حديث أبي ذر ﷺ عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى: مسلم في البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٢٥٧٧).

وَشُكْرُ اللَّهِ تَعَالَى يَكُونُ بِتَحْقِيقِ الْعُبُودِيَّةِ وَالإِخْلَاصِ لَهُ ﷻ، فَمَنْ أَرَادَ شُكْرَ اللَّهِ تَعَالَى آمَنَ بِهِ وَحْدَهُ، وَعَمِلَ صَالِحًا؛ فَذَلِكَ سَبَبٌ لِحِفْظِ النِّعَمِ فِي الدُّنْيَا، كَمَا أَنَّهُ سَبَبٌ -بَعْدَ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى- لِلنَّجَاةِ مِنَ الْعَذَابِ فِي الآخِرَةِ، وَالْفَوْزِ بِالْجَنَّةِ، وَكُلَّمَا زَادَ تَتَابُعُ النِّعَمِ عَلَى الْعِبَادِ اسْتَوْجَبَ ذَلِكَ مَزِيدًا مِنْ حَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَشُكْرِهِ وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ.

وَتَأَمَّلُوا -رَحِمَكُمُ اللهُ تَعَالَى- قَوْلَ سُلَيْمَانَ عليه السلام حِينَ وَرِثَ المُلْكَ، وَأُوتِيَ الْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ، وَعُلِّمَ مَنْطِقَ الطَّيْرِ، وَسُخِّرَ لِخِدْمَتِهِ الْجِنُّ، وَحَكَمَ كُلَّ المَخْلُوقَاتِ فِي الأَرْضِ، قَالَ عليه السلام: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النَّمل: ٤٠]، وَتَأَمَّلُوا رَحِمَكُمُ اللهُ تَعَالَى قَوْلَ مُوسَى عليه السلام مُخَاطِبًا قَوْمَهُ بَعْدَ أَنْ ذَكَّرَهُمْ بِنِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إِبْرَاهِيم: ٨].

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الحَمْدُ.

أَيُّهَا الصَّائِمُونَ: لَئِنْ كُنْتُمْ مُحْسِنِينَ فِي رَمَضَانَ، مُحَافِظِينَ عَلَى الصِّيَامِ وَالْقِيَامِ فَاعْلَمُوا أَنَّ ذَلِكَ مَحْضُ فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْكُمْ، وَهِدَايَتِهِ وَإِعَانَتِهِ لَكُمْ، وَلَوْلَا اللهُ تَعَالَى لَمَا صُمْتُمْ وَلَا قُمْتُمْ؛ فَأَعْدَادُ الَّذِينَ خُذِّلُوا عَنْ فَرَائِضِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْأَرْضِ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَعُصَاةِ المُسْلِمِينَ أَكْثَرُ مِنَ الْقَائِمِينَ بِهَا، فَاحْمَدُوا اللهَ الَّذِي جَعَلَكُمْ مِنَ النَّاجِينَ وَهُمْ قَلِيلٌ، وَلَمْ يَجْعَلْكُمْ مِنَ الْهَالِكِينَ وَهُمْ كَثِيرٌ، وَاسْتَمْسِكُوا بِدِينِكُمْ، وَسَلُوا اللهَ تَعَالَى الثَّبَاتَ عَلَيْهِ إِلَى المَمَاتِ؛ فَإِنَّ قُلُوبَ الْعِبَادِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ.

وَلَئِنْ كُنْتُمْ مُفَرِّطِينَ فِي رَمَضَانَ -وَمَا مِنْ أَحَدٍ مِنَّا إِلَّا وَعِنْدَهُ شَيْءٌ مِنْ تَفْرِيطٍ

فَمُسْتَكْثِرٌ وَمُقِلٌّ- لَئِنْ كُنْتُمْ كَذَلِكَ فَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ رَبِّكُمْ، وَاسْتَغْفِرُوهُ لِذُنُوبِكُمْ، وَسِيرُوا سِيرَةَ الصَّالِحِينَ مِنَ الْبَشَرِ مِنْ لَدُنْ أَبِيكُمْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي كَانَ دُعَاؤُهُ بَعْدَ خَطِيئَتِهِ ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الْأَعْرَاف: ٢٣]، وَهَكَذَا قَالَ أَفَاضِلُ الْخَلْقِ، وَأُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَهُمْ قُدْوَةُ الصَّالِحِينَ مِنَ الْبَشَرِ، فَنُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هُود: ٤٧] وَخَلِيلُ الرَّحْمَنِ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٢]، وَكَلِيمُ الرَّحْمَنِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ [الْقَصَص: ١٦]، وَيُونُسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الْأَنْبِيَاء: ٨٧]، وَكَانَ مِنِ اسْتِغْفَارِ خَاتَمِ الرُّسُلِ وَأَفْضَلِ الْبَشَرِ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ ﷺ: «**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**»[٢]، وَلَمَّا سَأَلَهُ الصِّدِّيقُ الْأَوَّلُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: «عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[٣].

فَتِلْكَ جَادَّةُ الصَّالِحِينَ مِنَ الْبَشَرِ: الِاعْتِرَافُ بِالتَّقْصِيرِ وَالْخَطَإِ، مَعَ إِتْقَانِ

(٢) أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أبو داود في الصلاة، باب في الاستغفار (١٥١٦)، والترمذي في الدعوات، باب ما يقول إذا قام من المجلس، وقال: حسن صحيح غريب (٣٤٣٤)، وابن ماجه في الأدب، باب الاستغفار (٣٨١٤)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٤٥٨)، وأحمد (٢/ ٢١)، والبخاري في الأدب المفرد (٦١٨)، وصححه ابن حبان (٩٢٧)، والألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، وقال: وهذا إسناد صحيح على شرط الشيخين، ولكن الرواة اختلفوا على مالك في قوله «الغفور» (٥٥٦).

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات، باب الدعاء في الصلاة (٥٩٦٧)، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب خفض الصوت بالذكر (٢٧٠٥).

الْعَمَلِ، وَعَدَمِ التَّعْوِيلِ عَلَيْهِ، بَلْ سُؤَالُ اللَّهِ تَعَالَى المَغْفِرَةَ وَالرَّحْمَةَ؛ فَسِيرُوا -عِبَادَ اللَّهِ سِيرَتَهُمْ- وَالْزَمُوا هَدْيَهُمْ؛ فَهُمْ أَعْلَمُ الْخَلْقِ بِمَا يُرْضِي رَبَّهُمْ.

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الحَمْدُ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: مَضَتْ لَيْلَةُ الْقَدْرِ فَفَازَ بِهَا مَنْ فَازَ، وَحُرِمَ خَيْرَهَا مَنْ حُرِمَ، وَكَمْ مِنْ عَزِيزٍ كُتِبَ لَهُ فِيهَا ذُلٌّ! وَكَمْ مِنْ ذَلِيلٍ قُضِيَ لَهُ فِيهَا بِعِزٍّ! وَكَمْ مِنْ حَيٍّ قَدْ طَالَ أَمَلُهُ فِي الدُّنْيَا، يُفَكِّرُ وَيُقَدِّرُ وَيُخَطِّطُ وَيَبْنِي، قَدْ قُضِيَ أَمْرُهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ فَلَا يُدْرِكُهَا مِنْ قَابِلٍ! قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﵄: «إِنَّكَ لَتَرَى الرَّجُلَ يَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ وَقَدْ وَقَعَ اسْمُهُ فِي المَوْتَى، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدُّخَان: ٣، ٤]» رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ(٤).

أَحْدَاثٌ وَتَحَوُّلَاتٌ، وَشُؤُونٌ وَحَاجَاتٌ؛ قَضَى فِيهَا الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ بِعِلْمِهِ، وَقَدَّرَهَا اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ بِحِكْمَتِهِ، وَكَتَبَهَا الْقَوِيُّ الْقَدِيرُ بِقُدْرَتِهِ، وَكَانَ زَمَنُ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمَلَائِكَةِ بِإِمْضَائِهَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ، فَلَا يَقَعُ شَيْءٌ إِلَّا بِأَمْرِهِ، وَلَا يُقْضَى شَأْنٌ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرَّحْمَن: ٢٩] فَعَلِّقُوا بِاللَّهِ تَعَالَى قُلُوبَكُمْ، وَاطْلُبُوهُ حَاجَاتِكُمْ، وَسَلُوهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَعُوذُوا بِهِ مِنْ سَخَطِهِ.

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلهِ الحَمْدُ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَوْ نَظَرْتُمْ إِلَى أَحْوَالِ الْعَالَمِ مِنْ حَوْلِكُمْ لَعَلِمْتُمْ أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ بِنِعَمٍ عَظِيمَةٍ، وَدَرَأَ عَنْكُمْ مِحَنًا كَبِيرَةً، وَحَفِظَكُمْ فِي دِينِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ، وَأُسَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ؛ فَرَبُّكُمْ عَزَّ فِي عُلَاهُ قَدْ عَافَاكُمْ مِنْ كَلَبِ عَدُوٍّ

---

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٨٥٣٠)، والضياء في المختارة (٢٤٨)، والبيهقي في الشعب (٣٦٦١)، والحاكم (٢/ ٤٨٧).

يَحْتَلُّ دِيَارَكُمْ، وَيُفْسِدُ عُمْرَانَكُمْ، وَيَنْتَهِكُ حُرُمَاتِكُمْ، وَيَذِلُّ كَرَائِمَ رِجَالِكُمْ؛ فَفِي الْعِرَاقِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ، وَعِبَرٌ لِلْمُعْتَبِرِينَ .. فِيهَا عَدُوٌّ اغْتَصَبَ الْبِلَادَ، وَأَرْهَبَ الْعِبَادَ، وَنَهَبَ الْخَيْرَاتِ، وَنَشَرَ الْوَيْلَاتِ .. وَفِي الْعِرَاقِ قَتْلٌ وَتَرْوِيعٌ، وَإِبَادَةٌ وَتَشْرِيدٌ .. وَفِي الْعِرَاقِ جُوعٌ وَشِدَّةٌ، وَبَلَاءٌ وَكُرْبَةٌ .. مَا هَنِئَ أَهْلُهَا بِعَيْشٍ كَرِيمٍ مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ، وَزَادَ بُؤْسُهُمْ يَوْمَ وَطِئَتْ أَرْضَهُمْ أَقْدَامُ الصَّهَايِنَةِ الْمُحْتَلِّينَ، عَجَّلَ اللهُ تَعَالَى إِخْرَاجَهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً صَاغِرِينَ.

وَفِي النَّيْجَرِ أَرْضٌ مُقْفِرَةٌ، وَمَوْتٌ مُطِلٌّ .. عُيُونٌ زَائِغَةٌ، وَبُطُونٌ جَائِعَةٌ، وَبُيُوتٌ خَاوِيَةٌ، وَأَجْسَادٌ هَزِيلَةٌ .. تَنْتَظِرُ المَوْتَ بَعْدَ أَلَمِ الْجُوعِ، وَلَا تَأْمُلُ فِي شِبَعٍ قَبْلَ المَوْتِ .. صَامُوا وَمَا صَامُوا، وَأَفْطَرُوا وَمَا أَفْطَرُوا !! صَامُوا جَوْعَى، وَأَفْطَرُوا جَوْعَى، فَعَنْ مَاذَا يَصُومُونَ، وَعَلَى مَاذَا يُفْطِرُونَ؟! وَيَحْضُرُهُمُ الْعِيدُ وَهُمْ لَا يَجِدُونَ مَا يَأْكُلُونَ، وَأَنْتُمْ بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ تَرْفُلُونَ فِي أَنْوَاعِ النَّعِيمِ، وَتَجِدُونَ مَا تَشْتَهُونَ، وَلَا تُحْرَمُونَ مِمَّا تُرِيدُونَ، فَاحْمَدُوا مَنْ أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ بِالْخَيْرِ الْكَثِيرِ، وَاشْكُرُوهُ عَلَى مَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ نَعِيمٍ.

وَفِي الْبَاكِسْتَانِ زَلَازِلُ مُدَمِّرَةٌ، وَبُيُوتٌ مُهَدَّمَةٌ .. وَفِيهَا مَوْتٌ وَهَلَاكٌ، وَمَصَائِبُ عِظَامٌ، فَكَمْ خَلَّفَ زِلْزَالُهُمْ مِنْ قَتِيلٍ وَجَرِيحٍ، وَشَرِيدٍ وَطَرِيدٍ! كَمْ مِنْ فَرْدٍ أَمْسَى فِي أُسْرَتِهِ هَانِئًا بِهَا، حَالِمًا بِمُسْتَقْبَلِهَا؛ أَصْبَحَ يَوْمَ الْفَاجِعَةِ وَلَا أُسْرَةَ لَهُ!! وَكَمْ مِنْ غَنِيٍّ أَفْنَى عُمْرَهُ، وَأَضْنَى جَسَدَهُ فِي اكْتِسَابِ رِزْقِهِ، وَالِاغْتِرَابِ عَنْ بَلَدِهِ، وَجَمْعِ مَالِهِ؛ أَتَى الزِّلْزَالُ عَلَى مَتْجَرِهِ وَمَزْرَعَتِهِ فَأَذْهَبَ مَالَهُ كُلَّهُ!! كَانَ بِالْأَمْسِ مِنَ الْأَثْرِيَاءِ الْمُتَصَدِّقِينَ، وَالْيَوْمَ حَلَّتْ لَهُ الزَّكَاةُ وَلَا يَجِدُهَا!! فَتَأَمَّلُوا قُدْرَةَ الْقَدِيرِ، وَاحْمَدُوا اللَّطِيفَ الْخَبِيرَ؛ إِذْ عَافَاكُمْ وَابْتَلَى غَيْرَكُمْ.

إِنَّكُمْ -يَا عِبَادَ اللَّهِ- قَدْ أَمِنْتُمْ وَخَافَ غَيْرُكُمْ، وَشَبِعْتُمْ وَجَاعَ سِوَاكُمْ، وَنَعِمْتُمْ

وَبَئِسَ أَمْثَالُكُمْ، وَأُصِيبَتْ بُلْدَانٌ مِنْ حَوْلِكُمْ، وَسَلَّمَ اللهُ تَعَالَى بِلَادَكُمْ؛ وَمَا ذَاكَ إِلَّا فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْكُمْ، لَيْسَ لِأَحَدٍ فِيهِ فَضْلٌ سِوَاهُ. وَلَوْ شَاءَ سُبْحَانَهُ لَجُعْتُمْ كَمَا جَاعَ غَيْرُكُمْ، وَخِفْتُمْ كَمَا خَافُوا، وَشُرِّدْتُمْ كَمَا شُرِّدُوا، وَأُصِبْتُمْ كَمَا أُصِيبُوا؛ فَاحْمَدُوا اللهَ الَّذِي عَافَاكُمْ، وَالْهَجُوا لَهُ بِالشُّكْرِ وَالثَّنَاءِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ.

لَا تَظُنُّوا -عِبَادَ اللَّهِ- أَنَّكُمْ أُعْطِيتُمْ هَذِهِ النِّعَمَ وَحُرِمَهَا غَيْرُكُمْ لِقُوَّتِكُمْ وَضَعْفِهِمْ، أَوْ لِكَثْرَتِكُمْ وَقِلَّتِهِمْ، أَوْ لِشَرَفِكُمْ وَوَضَاعَتِهِمْ، أَوْ لِعَمَلِكُمْ وَكَسَلِهِمْ، فَفِي مَنْ حُرِمُوا مَا تَتَنَعَّمُونَ بِهِ مَنْ هُمْ أَشَدُّ مِنْكُمْ بَأْسًا، وَأَكْثَرُ عَدَدًا، وَأَمْكَنُ عَمَلًا، وَفِيهِمْ أَشْرَافٌ يَضْرِبُونَ فِي أَوْسَطِ الْقَبَائِلِ نَسَبًا؛ وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ أَعْطَاكُمْ وَحَرَمَهُمْ، أَفَلَا تَشْكُرُونَهُ عَلَى مَا أَعْطَاكُمْ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ الشُّكْرَ حَافِظُ النِّعَمِ وَمُبَارِكُهَا، وَأَنَّ كُفْرَهَا مُزِيلُهَا وَرَافِعُهَا؟!

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الحَمْدُ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: لَقَدْ كَثُرَتِ الْفَوَاجِعُ وَالْكَوَارِثُ الْعَامَّةُ فِي هَذَا الزَّمَنِ مِنَ الزَّلَازِلِ وَالْفَيَضَانَاتِ، وَوَقَعَ فِي عَامِنَا هَذَا ثَلَاثَةٌ مِنْ كُبْرَيَاتِهَا، أَهْلَكَتْ بَشَرًا كَثِيرًا، وَأَتْلَفَتْ مَالًا عَظِيمًا، وَهَذَا يَسْتَدْعِي النَّظَرَ وَالِاعْتِبَارَ، وَمَعْرِفَةَ الْأَسْبَابِ.

إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْبَشَرِ قَدْ طَغَوْا وَظَلَمُوا، وَبَارَزُوا اللهَ تَعَالَى بِالْعِصْيَانِ، بَلْ وَأَعْلَنُوا بِالْفَوَاحِشِ وَالْمُنْكَرَاتِ، وَجَاهَرُوا بِهَا عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ، وَيُرِيدُونَ قَهْرَ النَّاسِ عَلَيْهَا، وَيَكْفِي فِي ذَلِكَ إِثْمًا: سَنُّ الْقَوَانِينِ الدَّوْلِيَّةِ الَّتِي تُلْغِي شَرِيعَةَ اللَّهِ تَعَالَى وَتُحَارِبُهَا، وَتُبِيحُ أَنْوَاعَ الْفَوَاحِشِ وَالْمُنْكَرَاتِ مِنْ تَدْمِيرِ الْأُسَرِ السَّوِيَّةِ، وَنَشْرِ الْإِبَاحِيَّةِ، وَاكْتِفَاءِ الرِّجَالِ بِالرِّجَالِ، وَالنِّسَاءِ بِالنِّسَاءِ، وَالْمُتَاجَرَةِ بِالْغَرَائِزِ وَالشَّهَوَاتِ، إِلَى أَنْوَاعِ الظُّلْمِ وَالْبَغْيِ الَّذِي تُمَارِسُهُ الدُّوَلُ الْمُسْتَكْبِرَةُ

عَلَى الشُّعُوبِ المُسْتَضْعَفَةِ مِنِ احْتِلَالِ بُلْدَانِهَا، وَنَهْبِ خَيْرَاتِهَا، وَتَبْدِيلِ دِينِهَا وَأَخْلَاقِهَا، وَنَشْرِ الْفَسَادِ فِي أَوْسَاطِهَا، إِلَى أَنْوَاعِ التَّعَامُلَاتِ المَالِيَّةِ المُحَرَّمَةِ مِنَ الرِّبَا وَالِاحْتِكَارِ وَالِاخْتِلَاسِ، وَفَرْضِ التِّجَارَةِ الْحُرَّةِ مِنْ أَيِّ قُيُودٍ دِينِيَّةٍ أَوْ أَخْلَاقِيَّةٍ، وَتَشْغِيلِ مَصَانِعِ السِّلَاحِ عَلَى حِسَابِ دِمَاءِ المُسْتَضْعَفِينَ وَآلَامِهِمْ وَدُمُوعِهِمْ، إِلَى إِفْقَارِ النَّاسِ، وَنَشْرِ المَجَاعَاتِ، وَسَحْقِ الضُّعَفَاءِ مِنَ الْبَشَرِ لِتَحْقِيقِ رَفَاهِيَةِ الْأَقْوِيَاءِ، وَتَسْوِيغِ هَذَا الظُّلْمِ وَالْبَغْيِ بِالمُسَوِّغَاتِ الذَّرَائِعِيَّةِ الَّتِي تُبِيحُ لِلْقَوِيِّ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَشَاءُ بِالضُّعَفَاءِ، دُونَ نِظَامٍ أَوْ دُسْتُورٍ أَوْ قَانُونٍ إِلَّا قَانُونَ الْقُوَّةِ!!

وَهَذَا مَا يُسَبِّبُ غَضَبَ الْجَبَّارِ جَلَّ وَعَلَا، وَيَسْتَجْلِبُ عُقُوبَاتِهِ، وَيَرْفَعُ مُعَافَاتِهِ، فَكُلُّ هَذِهِ المُوبِقَاتِ وَالْآثَامِ، وَغَيْرُهَا كَثِيرٌ، مَارَسَهَا المُسْتَكْبِرُونَ مِنَ الْبَشَرِ، وَأَعَانَهُمْ عَلَيْهَا الظَّالِمُونَ، وَسَكَتَ عَنْ إِنْكَارِهَا الْبَقِيَّةُ، إِلَّا أَصْوَاتًا ضَعِيفَةً لَا تَكَادُ تُسْمَعُ، وَيُرِيدُ الْكَافِرُونَ وَالمُنَافِقُونَ كَبْتَ أَصْوَاتِهِمْ.

إِنَّ الْأُمَمَ السَّالِفَةَ عُذِّبَتْ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْعُقُوبَاتِ عَلَى كُفْرِهَا، وَعَلَى أَنْوَاعٍ مِنَ المَعَاصِي انْتَشَرَتْ بَيْنَ أَفْرَادِهَا، كَانْتِشَارِ الْفَاحِشَةِ فِي قَوْمِ لُوطٍ، وَالْغِشِّ فِي الْبَيْعِ عِنْدَ قَوْمِ شُعَيْبٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ عِنْدَ غَيْرِهِمْ، وَقَدْ جَمَعَتِ الْحَضَارَةُ المُعَاصِرَةُ بِقِيَادَةِ الْقُوَى الرَّأْسِمَالِيَّةِ المُسْتَكْبِرَةِ كُلَّ الشُّرُورِ وَالْآثَامِ الَّتِي عُرِفَتْ فِي الْبَشَرِ مِنْ سَالِفِ الْأَزْمَانِ، وَهِيَ مُسْتَحِقَّةٌ لِكُلِّ الْعُقُوبَاتِ الَّتِي حَلَّتْ بِالْأُمَمِ المَاضِيَةِ، فَلَا نَسْتَغْرِبُ -وَحَالُ الْبَشَرِ هَكَذَا- أَنْ تَكْثُرَ فِيهِمُ الْحَوَادِثُ الْكَوْنِيَّةُ الَّتِي هِيَ عُقُوبَاتٌ رَبَّانِيَّةٌ، وَلَوْ قَالَ المُنَافِقُونَ وَالْجَاهِلُونَ غَيْرَ ذَلِكَ، مِمَّا يُنْبِئُ عَنْ مَرَضِ قُلُوبِهِمْ، وَفَسَادِ أَفْكَارِهِمْ، وَيَدُلُّ عَلَى جَهْلِهِمْ بِاللَّهِ تَعَالَى وَقُدْرَتِهِ، وَاسْتِكْبَارِهِمْ عَنْ دِينِهِ وَشَرِيعَتِهِ؛ فَإِنَّ رَبَّكُمْ جَلَّ جَلَالُهُ غَيُورٌ، وَغَيْرَتُهُ أَنْ تُؤْتَى مَحَارِمُهُ، وَقَدْ وَقَعَ أَكْثَرُ

الْبَشَرِ فِي كَبَائِرِ الذُّنُوبِ، وَعَظَائِمِ المُوبِقَاتِ، أَفَنَسْتَغْرِبُ تَنَزُّلَ الْعُقُوبَاتِ وَحَالُ الْبَشَرِ عَلَى هَذَا النَّحْوِ؟!

بَلْ إِنَّ اللهَ تَعَالَى كَرِيمٌ حَلِيمٌ عَلَى عِبَادِهِ، فَكَمْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ، وَيُمْلِي وَيُمْهِلُ، لَعَلَّ الْعَاصِيَ يَتُوبُ، وَالشَّارِدَ يَؤُوبُ ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [النَّحل: ٦١]، ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشُّورَى: ٣٠].

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الحَمْدُ.

أَيُّهَا النَّاسُ: وَمِنْ أَكْبَرِ الظُّلْمِ، وَأَعْظَمِ الِافْتِرَاءِ: أَنَّ يَزْعُمَ قَائِدُ المُسْتَكْبِرِينَ فِي الْأَرْضِ، وَفِرْعَوْنُ الظَّالِمِينَ فِي هَذَا الْعَصْرِ: أَنَّ مَا يَقُومُ بِهِ مِنْ بَغْيٍ وَظُلْمٍ وَفَسَادٍ فِي الْأَرْضِ، إِنَّمَا هُوَ وَحْيٌ أَوْحَاهُ اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ، وَرِسَالَةٌ مِنَ السَّمَاءِ وَصَلَتْ إِلَيْهِ، بِأَنْ يُحَطِّمَ الْأُمَّةَ الْبَابِلِيَّةَ المَلْعُونَةَ فِي التَّوْرَاةِ المُحَرَّفَةِ، وَأَنَّهُ بِأَعْمَالِهِ الْإِجْرَامِيَّةِ التَّوَسُّعِيَّةِ يَسْعَى لِتَحْقِيقِ إِرَادَةِ الرَّبِّ، وَأَنَّهُ وَصَهَايِنَتَهُ التَّوْرَاتِيِّينَ يُمَثِّلُونَ مِحْوَرَ الْخَيْرِ فِي الْبَشَرِيَّةِ، بَيْنَمَا يُمَثِّلُ بَقِيَّةُ الْبَشَرِ مِحْوَرَ الشَّرِّ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُذْبَحَ عَلَى المَذْبَحِ التَّوْرَاتِيِّ، بَدْءًا بِالْأُمَّةِ المُسْلِمَةِ الَّتِي صَارُوا يَصْطَادُونَهَا دَوْلَةً بَعْدَ أُخْرَى(٥).

---

(٥) صرح الرئيس الأمريكي جورج بوش الأصغر بأن غزوه العراق وأفغانستان كان بموجب رسالة من الله تعالى، وقال حسب ما نقلته عنه وسائل الإعلام: «إن الرب طلب منه اجتياح العراق وأفغانستان»، وذكر الكاتب الأمريكي بوب وردود في كتابه «خطة الحرب»: «إن بوش تمشى في حديقة البيت الأبيض مصليًا وداعيًا الرب أن يحمي الجنود ويحفظهم»، وقال: «كنت أصلي طالبًا القوة من أجل تحقيق إرادة الرب».

وذكر وزير الإعلام في السلطة الفلسطينية نبيل شعث بأنهم التقوا بالرئيس بوش قال: «فقال لنا الرئيس بوش: أتحرك بموجب رسالة من الرب، يقول لي الرب: جورج ضَعْ حَدًّا للتسلط في العراق، وهذا ما فعلته» تعالى الله عن كذبه وإفكه علوًّا كبيرًا. ومن العجيب أن عبارة «محور الشر» مأخوذة من التوراة المحرفة.

إِنَّهَا مِحْنَةٌ عَظِيمَةٌ، وَبَلَاءٌ كَبِيرٌ نَزَلَ بِالمُسْلِمِينَ، إِذَا مَا مَضَى الْقَوْمُ فِي مَشْرُوعَاتِهِمْ، وَسَعَوْا فِي تَحْقِيقِ خُرَافَاتِهِمْ، وَلَا سِيَّمَا بَعْدَ ظُهُورِ التَّحَالُفِ النَّجِسِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْأُمَّةِ المَجُوسِيَّةِ الْفَارِسِيَّةِ الْبَاطِنِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تُظْهِرُ الْعَدَاءَ لَهُمْ، فَلَمَّا جَدَّ الْجِدُّ كَانُوا مِنْ أَكْبَرِ المُعِينِينَ لَهُمْ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ، مُحْيِينَ بِذَلِكَ سِيرَةَ أَجْدَادِهِمُ الْبَاطِنِيِّينَ الْأَوَائِلِ مِنْ أَمْثَالِ ابْنِ سَبَإٍ وَابْنِ الْعَلْقَمِيِّ. وَلَقَدْ وَقَعَ المَحْذُورُ الَّذِي طَالَمَا حَذَّرَ مِنْهُ الْغَيُورُونَ عَلَى بَيْضَةِ الْإِسْلَامِ؛ إِذْ أَضْحَتِ الْمِنْطَقَةُ بَيْنَ فَكَّيْ كَمَّاشَةِ الصَّهَاينَةِ وَالمَجُوسِ، وَبَدَأَ المَجُوسُ فِي تَسَلُّمِ مَفَاتِيحِ السَّيْطَرَةِ وَمَوَاضِعِ الْقُوَّةِ فِي حِينِ غَفْلَةٍ مِنَ الْغَافِلِينَ، وَضَعْفٍ مِنَ الْعَاجِزِينَ.

وَلَا مَخْرَجَ لِلْأُمَّةِ المُسْلِمَةِ مِنْ هَذِهِ المُصِيبَةِ الْعَظِيمَةِ إِلَّا بِاللُّجُوءِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَالِاسْتِمْسَاكِ بِدِينِهِ، وَمُقَاوَمَةِ هَذِهِ المَشْرُوعَاتِ الْإِجْرَامِيَّةِ بِكُلِّ الطُّرُقِ وَالْوَسَائِلِ المُتَاحَةِ، قَبْلَ أَنْ يَكُونَ لِسَانُ حَالِ الْقَائِلِ: أُكِلْتُ يَوْمَ أُكِلَ الثَّوْرُ الْأَبْيَضُ.

وَلَنْ يَكُونَ المَخْرَجُ مِنْ هَذِهِ الْأَزَمَاتِ المُتَلَاحِقَةِ مُسَايَرَةَ الْكَافِرِينَ وَالمُنَافِقِينَ، وَإِرْضَاءَهُمْ بِالتَّخَلِّي عَنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى شَيْئًا شَيْئًا، وَتَعْطِيلَ بَعْضِ أَحْكَامِهِ، وَمُوَافَقَتَهُمْ فِيمَا يُرِيدُونَ مِنِ انْتِهَاكِ حُرُمَاتِهِ، وَتَحْرِيفِ النُّصُوصِ الْوَاضِحَةِ لِأَجْلِهِمْ، وَفَتْحِ المَجَالِ لِلسَّفِلَةِ وَالْأَرَاذِلِ مِنَ المُنَافِقِينَ وَالمَوْتُورِينَ أَنْ يُنَفِّسُوا عَنْ أَحْقَادِهِمُ الدَّفِينَةِ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ بِالِاسْتِهْزَاءِ بِشَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالتَّنَدُّرِ بِحَمَلَتِهَا، بَلْ إِنَّ ذَلِكَ مُؤْذِنٌ بِالْعُقُوبَاتِ الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ، وَسَبَبٌ لِخِذْلَانِ اللَّهِ تَعَالَى، وَيَزِيدُ مِنْ تَسَلُّطِ الْكَافِرِينَ إِذَا مَا رَأَوْا أَنَّ الضُّغُوطَ تُجْدِي، وَلَيْسَ ثَمَّةَ مَنْ يُقَاوِمُهَا وَيُدَافِعُهَا، كَمَا يَزِيدُ مِنْ عُتُوِّ السَّفِلَةِ وَالمُنَافِقِينَ إِذَا مَا رَأَوْا أَنَّ شَرِيعَةَ اللَّهِ تَعَالَى تُسْتَبَاحُ فِي وَضَحِ النَّهَارِ وَلَا يُنْكَرُ ذَلِكَ، بَلْ يُمَكَّنُ لِلْمُسْتَهْزِئِينَ بِهَا بِكُلِّ

الْوَسَائِلِ وَالْإِمْكَانَاتِ، وَعَبْرَ وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ الْمُخْتَلِفَةِ.

وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ يَقُولُ لَنَا: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عِمْرَان: ١٦٠]، فَالنَّصْرُ يُطْلَبُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَلَا يُطْلَبُ مِنْ غَيْرِهِ كَائِنًا مَنْ كَانَ، وَمَهْمَا كَانَ يَمْلِكُ مِنْ قُوَّةٍ وَإِمْكَانَاتٍ؛ إِذْ إِنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا.

وَنَصْرُ اللَّهِ تَعَالَى إِنَّمَا يُسْتَحَقُّ بِالثَّبَاتِ عَلَى دِينِهِ مَهْمَا كَلَّفَ الْأَمْرُ، وَنَصْرِ شَرِيعَتِهِ، وَعَدَمِ الْمُسَاوَمَةِ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا فَضْلًا عَنِ التَّنَازُلِ عَنْهَا، أَوِ السَّمَاحِ بِاسْتِبَاحَتِهَا مِنْ قِبَلِ الْأَرَاذِلِ وَالْمُنَافِقِينَ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [مُحَمَّد: ٧].

وَنَصْرُهُ سُبْحَانَهُ هُوَ بِنَصْرِ دِينِهِ، وَإِقَامَةِ شَرِيعَتِهِ، وَالْغَضَبِ لَهُ سُبْحَانَهُ إِذَا انْتُهِكَتْ حُرُمَاتُهُ، وَفِي الْآيَةِ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الْحَجّ: ٣٨]، وَإِنَّمَا اسْتَحَقَّ أُولَئِكَ دِفَاعَ اللَّهِ تَعَالَى عَنْهُمْ لِأَنَّهُمْ حَافَظُوا عَلَى وَصْفِ الْإِيمَانِ الَّذِي اتَّصَفُوا بِهِ، وَلَمْ يَتَنَازَلُوا عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ.

وَلَقَدْ كَانَ مِنْ أَسْبَابِ لَعْنِ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَغَضَبِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ: تَحْرِيفُهُمْ لِكُتُبِهِمْ، وَكَذِبُهُمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَمَنْ سَارَ سِيرَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ بِإِصْدَارِ الْفَتَاوَى الشَّاذَّةِ وَتَحْرِيفِ النُّصُوصِ الْمُحْكَمَةِ لِتُوَافِقَ الْوَاقِعَ؛ فَيُخْشَى عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ مَصِيرُهُ مَصِيرَ مَنْ وَصَفَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عِمْرَان: ٧٧، ٧٨].

وَأَيُّ فِتْنَةٍ أَعْظَمُ مِنْ تَبْدِيلِ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَزْوِيرِ شَرِيعَتِهِ، وَإِضْلَالِ النَّاسِ عَنْهَا؛ اتِّبَاعًا لِلْأَهْوَاءِ، وَمُسَايَرَةً لِلْوَاقِعِ، بِاسْمِ المَصَالِحِ المَوْهُومَةِ الَّتِي صَارَتْ سَيْفًا مُصَلَّتًا عَلَى النُّصُوصِ المَحْفُوظَةِ.

عَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه قَالَ: «إِذَا أَحَبَّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَعْلَمَ أَصَابَتْهُ الْفِتْنَةُ أَمْ لَا فَلْيَنْظُرْ؛ فَإِنْ كَانَ رَأَى حَلَالًا كَانَ يَرَاهُ حَرَامًا فَقَدْ أَصَابَتْهُ الْفِتْنَةُ، وَإِنْ كَانَ يَرَى حَرَامًا كَانَ يَرَاهُ حَلَالًا فَقَدْ أَصَابَتْهُ» رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ(٦).

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الحَمْدُ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: إِنَّ مِنْ أَسْبَابِ الْقُوَّةِ: اجْتِمَاعَ الْكَلِمَةِ، وَوَحْدَةَ الصَّفِّ، وَطَاعَةَ الْأَئِمَّةِ فِي المَعْرُوفِ، وَنَصِيحَتَهُمْ، وَالِاحْتِسَابَ عَلَيْهِمْ، وَتَجَنُّبَ أَسْبَابِ الشِّقَاقِ وَالْخِلَافِ؛ فَالِاجْتِمَاعُ قُوَّةٌ، وَالِافْتِرَاقُ ضَعْفٌ، وَلَنْ يُؤْتَى المُسْلِمُونَ إِلَّا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «عَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ وَالْجَمَاعَةِ؛ فَإِنَّهَا حَبْلُ اللَّهِ الَّذِي أَمَرَ بِهِ، وَإِنَّ مَا تَكْرَهُونَ فِي الطَّاعَةِ وَالْجَمَاعَةِ خَيْرٌ مِمَّا تُحِبُّونَ فِي الْفُرْقَةِ»(٧).

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الحَمْدُ.

أَيَّتُهَا المُسْلِمَةُ الصَّائِمَةُ الْقَائِمَةُ: إِنَّ التَّحَدِّيَاتِ الَّتِي تُوَاجِهُ المُسْلِمِينَ كَبِيرَةٌ، وَإِنَّكِ مَيْدَانٌ مِنْ مَيَادِينِ المَعْرَكَةِ الَّتِي أَشْعَلَهَا الْكُفَّارُ وَالمُنَافِقُونَ، وَلَنْ يَقَرَّ لَهُمْ

(٦) أخرجه الحاكم وقال: صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه (٤/ ٥١٤).
(٧) أخرجه الطبري في تفسيره (٤/ ٣٢)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٣٩١٦)، والطبراني في الكبير (٩/ ١٩٨) رقم (٨٩٧١)، واللالكائي في السنة (١٥٩).

قَرَارٌ، أَوْ يَهْدَأَ لَهُمْ بَالٌ حَتَّى يَنْزِعُوا الْحَيَاءَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَلْبِكِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعُوا الْحِجَابَ الشَّرْعِيَّ عَنْ وَجْهِكِ وَشَعْرِكِ؛ وَدَلِيلُ ذَلِكَ: مَا يَكْتُبُونَهُ فِي صُحُفِهِمْ، وَمَا يَقْذِفُونَهُ فِي شَاشَاتِهِمْ مِنْ شُبُهَاتٍ حَوْلَ الْأُسْرَةِ وَالْمَرْأَةِ . . يَدْعُونَهَا إِلَى التَّمَرُّدِ عَلَى نِظَامِ الْأُسْرَةِ فِي الْإِسْلَامِ، وَيُطَالِبُونَهَا بِالثَّوْرَةِ عَلَى مَا يُسَمُّونَهُ الْقُيُودَ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي هِيَ أَحْكَامُ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي أَنْزَلَهَا! فَتَبًّا لَهُمْ مَاذَا يَقُولُونَ؟! وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْتُبُونَ!!

وَلَقَدِ اغْتَرَّ بِأُطْرُوحَاتِهِمُ الْآثِمَةِ كَثِيرٌ مِنْ فَتَيَاتِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَضْحَى ذَلِكَ ظَاهِرًا فِي التَّسَاهُلِ بِالْحِجَابِ الشَّرْعِيِّ، وَالْحِرْصِ عَلَى الْعَمَلِ الدُّنْيَوِيِّ وَلَوْ كَانَ فِيهِ مَا يُغْضِبُ اللهَ تَعَالَى مِنَ الِاخْتِلَاطِ بِالرِّجَالِ، وَالْخَلْوَةِ بِهِمْ، وَالسَّفَرِ بِلَا مَحْرَمٍ، وَسَبَبُ ذَلِكَ: تَقْدِيمُ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ.

فَإِيَّاكِ -أَيَّتُهَا الصَّائِمَةُ- أَنْ تَغْتَرِّي بِدَعَاوَى الْمُنَافِقِينَ وَالْمُتَحَرِّرِينَ؛ فَإِنَّهُمْ دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ قَذَفُوهُ فِيهَا!

تَمَسَّكِي بِدِينِكِ، وَعَضِّي عَلَيْهِ بِالنَّوَاجِذِ؛ فَإِنَّهُ سَبَبُ نَجَاتِكِ، وَسَبِيلُ إِسْعَادِكِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . . وَلَا تُفَرِّطِي فِي مَا شَرَعَ اللهُ تَعَالَى لَكِ مِنَ الْحِجَابِ؛ فَإِنَّهُ مَصْدَرُ عِزِّكِ وَكَرَامَتِكِ، وَلَوْلَا أَنَّهُ يُغِيظُهُمْ لَمَا شَنُّوا عَلَيْهِ هَذِهِ الْحَرْبَ الَّتِي لَا هَوَادَةَ فِيهَا، فَتَمَسَّكِي بِهِ طَاعَةً لِلَّهِ تَعَالَى، وَإِغَاظَةً لَهُمْ؛ فَإِنَّ إِغَاظَتَهُمْ بِطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ أَوْثَقِ عُرَى الْإِسْلَامِ، وَمِنْ أَجَلِّ الطَّاعَاتِ الَّتِي تُقَرِّبُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.

وَمَنْ كَانَتْ صَاحِبَةَ قَلَمٍ وَبَيَانٍ فَلْتَدْرَأْ بِقَلَمِهَا عَنْ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ فِي شُؤُونِ الْمَرْأَةِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ جِهَادِ الْكَلِمَةِ، وَكِتَابَةُ الْمَرْأَةِ فِي شُؤُونِهَا أَبْلَغُ مِنْ كِتَابَةِ الرِّجَالِ، وَأَدْعَى لِقَبُولِ مَا تَكْتُبُ بَيْنَ بَنَاتِ جِنْسِهَا.

حَمَى اللهُ تَعَالَى نِسَاءَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ كَيْدِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، وَحَفِظَ عَلَيْهِنَّ دِينَهُنَّ وَعَفَافَهُنَّ، آمِينَ آمِينَ.

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الحَمْدُ.

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: احْتَفِلُوا بِعِيدِكُمْ فِيمَا يُرْضِي اللهَ تَعَالَى، وَبَرُّوا وَالِدِيكُمْ، وَصِلُوا أَرْحَامَكُمْ، وَأَحْسِنُوا إِلَى جِيرَانِكُمْ، وَأَدْخِلُوا السُّرُورَ عَلَى أُسَرِكُمْ وَأَطْفَالِكُمْ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، وَلَا تَنْسَوْا إِخْوَانَكُمُ المُشَرَّدِينَ وَالمُسْتَضْعَفِينَ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، خُصُّوهُمْ بِدُعَائِكُمْ، وَابْذُلُوا لَهُمْ مِنْ فُضُولِ أَمْوَالِكُمْ؛ فَعَسَى أَنْ تُوَاسُوهُمْ وَتُخَفِّفُوا مُصَابَهُمْ فِي عِيدٍ لَمْ يَجِدُوا لَهُ طَعْمًا؛ فَإِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، فَأَدُّوا مَا لَهُمْ عَلَيْكُمْ.

وَاعْبُدُوا اللهَ تَعَالَى فِي رَمَضَانَ وَفِي شَوَّالٍ، وَفِي كُلِّ الشُّهُورِ وَالْأَعْوَامِ، وَأَتْبِعُوا رَمَضَانَ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ؛ فَإِنَّ مَنْ صَامَهَا مَعَ رَمَضَانَ كَانَ كَمَنْ صَامَ الدَّهْرَ كُلَّهُ.

أَعَادَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْنَا وَعَلَيْكُمْ وَعَلَى المُسْلِمِينَ بِالْيُمْنِ وَالْإِيمَانِ، وَالسَّلَامَةِ وَالْإِسْلَامِ، وَتَقَبَّلَ اللهُ مِنَّا وَمِنْكُمْ صَالِحَ الْأَعْمَالِ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

❊ ❊ ❊

٢٦٠- خطبة عيد الفطر المبارك بين الأعياد الشرعية والأعياد البدعية

الاثنين ١/ ١٠/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ للَّهِ؛ خَلَقَنَا وَرَزَقَنَا، وَكَفَانَا وَآوَانَا، وَمِنْ كُلِّ خَيْرٍ أَعْطَانَا، هَدَانَا لِلْإِيمَانِ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللهُ.

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِ وَجْهِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ لَا نُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْهِ كَمَا أَثْنَى هُوَ عَلَى نَفْسِهِ.

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ هَدَى مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ لِلْإِيمَانِ، وَفَتَحَ لَهُمْ أَبْوَابَ الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ، وَأَعَانَهُمْ عَلَى الصِّيَامِ وَالْقِيَامِ، فَكَانَ عَمَلُهُمْ مَبْرُورًا، وَسَعْيُهُمْ مَشْكُورًا.

نَحْمَدُهُ حَمْدًا كَثِيرًا؛ فَكَمْ أَنْعَمَ عَلَيْنَا؟! وَنَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَسْدَى إِلَيْنَا، وَنَسْتَغْفِرُهُ لِذُنُوبِنَا وَتَقْصِيرِنَا، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ لَا يُوَفِّيهِ الْعِبَادُ حَقَّهُ، وَلَا يَعْبُدُونَهُ كَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُعْبَدَ، وَلَوْ شَخَصُوا أَعْمَارَهُمْ كُلَّهَا قَانِتِينَ لَهُ وَرَاكِعِينَ وَسَاجِدِينَ، فَهُوَ الْعَظِيمُ الَّذِي خَضَعَ كُلُّ شَيْءٍ لِعَظَمَتِهِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الَّذِي ذَلَّ كُلُّ قَوِيٍّ لَسَطْوَتِهِ وَعِزَّتِهِ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَصَفِيُّهُ وَخَلِيلُهُ، رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ مَا رَأَى، وَعَلِمَ مِنْ عَظَمَتِهِ مَا عَلِمَ، فَخَشَعَ قَلْبُهُ لَهُ، وَسَحَّتْ بِالدَّمْعِ عَيْنُهُ، وَنَصَبَتْ فِي الطَّاعَةِ أَرْكَانُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، كَانُوا فِي مَجْلِسِهِ

كَأَنَّ عَلَى رُؤُوسِهِمُ الطَّيْرَ؛ هَيْبَةً لَهُ وَتَوْقِيرًا، وَمَحَبَّةً وَتَعْظِيمًا، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- وَأَطِيعُوهُ، وَخُذُوا حَظَّكُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ قَبْلَ أَنْ يُحَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهَا، وَاعْلَمُوا أَنَّ كُلَّ عِيدٍ جَدِيدٍ يُبْعِدُكُمْ عَنْ دُنْيَاكُمْ وَيُقَرِّبُكُمْ مِنْ أُخْرَاكُمْ، فَتَزَوَّدُوا مِنْ دَارِ فَنَائِكُمْ مَا يَكُونُ سَبَبًا لِفَوْزِكُمْ فِي دَارِ بَقَائِكُمْ ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْأَخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩].

أَيُّهَا النَّاسُ: مَضَى رَمَضَانُ بِمَا أَوْدَعَ الْعِبَادُ فِيهِ مِنْ أَعْمَالِهِمْ؛ فَمُحْسِنٌ وَمُسِيءٌ، وَمُشَمِّرٌ وَمُفَرِّطٌ، وَمُسْتَكْثِرٌ وَمُقِلٌّ، وَمَقْبُولٌ وَمَرْدُودٌ، فَيَا لَلَّهِ الْعَظِيمِ! كَمْ مِنْ آيَةٍ فِي رَمَضَانَ تُلِيَتْ، وَكَمْ مِنْ جِبَاهٍ لِلَّهِ تَعَالَى سَجَدَتْ، وَكَمْ مِنْ عَيْنٍ مِنْ خَشْيَتِهِ دَمَعَتْ، وَكَمْ مِنْ دَعَوَاتٍ إِلَيْهِ رُفِعَتْ!

مَضَى رَمَضَانُ وَمَلَايِينُ الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ الْأَقْطَارِ، وَمِنْ كُلِّ الْأَجْنَاسِ، وَبِمُخْتَلَفِ اللُّغَاتِ وَاللَّهَجَاتِ قَدْ عَبَدُوا اللهَ تَعَالَى فِيهِ، يُمْسِكُونَ عَنِ الْمُفْطِرَاتِ بِطُلُوعِ الْفَجْرِ، وَيُفْطِرُونَ وَقْتَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، فَمَنْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ؟ وَمَنْ رَاقَبَهُمْ فِيهِ؟ وَلِمَاذَا أَذْعَنُوا لَهُ وَامْتَثَلُوا أَمْرَهُ؟ فَسُبْحَانَ الَّذِي عَبَّدَهُمْ لَهُ، وَهَدَاهُمْ إِلَيْهِ!!

مَضَى رَمَضَانُ وَمَسَاجِدُ الْمُسْلِمِينَ قَدْ أَضَاءَتْ فِي اللَّيْلِ بِالْقُرْآنِ وَالدُّعَاءِ، وَالتَّهَجُّدِ وَالْوِتْرِ، فَكَمْ مِنْ حَمْدٍ لِلَّهِ تَعَالَى وَثَنَاءٍ عَلَيْهِ قَدْ رُفِعَ مِنَ الْأَرْضِ إِلَى السَّمَاءِ؟! ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ﴾ [فاطر: ١٠]، وَكَمْ مِنْ حَاجَةٍ طَلَبَهَا الْمُصَلُّونَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَأَمَّنَ عَلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ؟! وَكَمْ مِنْ مَسَائِلَ وَأَسْرَارٍ أَفْضَى بِهَا الْعِبَادُ إِلَى رَبِّهِمْ فِي خَلَوَاتِهِمْ وَسُجُودِهِمْ يَسْأَلُونَهَا رَبَّهُمْ، وَيُخَافِتُونَ بِهَا

أَصْوَاتَهُمْ، يُخْفُونَهَا عَمَّنْ يَسْجُدُونَ بِجِوَارِهِمْ؟! فَسُبْحَانَ مَنْ وَسِعَ سَمْعُهُ أَصْوَاتَهُمْ، حَتَّى عَلِمَ تَخَافُتَهُمْ وَتَمْتَمَاتِهِمْ! وَسُبْحَانَ مَنْ أَحَاطَ عِلْمُهُ بِلُغَاتِهِمْ وَلَهَجَاتِهِمْ! وَسُبْحَانَ مَنْ أَحْصَى مَسَائِلَهُمْ! وَسُبْحَانَ مَنْ وَسِعَتْ خَزَائِنُهُ حَاجَاتِهِمْ!!

خَتَمَ الْعِبَادُ شَهْرَهُمْ، وَالْيَوْمَ يَحْضُرُونَ عِيدَهُمْ، فَمِنْهُمُ الْمَرْحُومُ، وَمِنْهُمُ الْمَحْرُومُ، وَالْعِيدُ الْحَقِيقِيُّ إِنَّمَا هُوَ عِيدُ مَنْ قَبِلَ اللهُ تَعَالَى مِنْهُ، وَرَضِيَ عَمَلَهُ، وَشَكَرَ سَعْيَهُ؛ فَاللَّهُمَّ اجْعَلْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْمَقْبُولِينَ، وَلَا تَجْعَلْنَا مِنَ الْمَحْرُومِينَ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِعِبَادِهِ، وَتَفَضُّلِهِ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ الْفَاضِلَةِ الْمُبَارَكَةِ أَنْ شَرَعَ لَهَا الْعِيدَيْنِ الْكَبِيرَيْنِ: عِيدَ الْفِطْرِ وَعِيدَ الْأَضْحَى، وَجَعَلَ عِيدَهَا الْأُسْبُوعِيَّ الْجُمُعَةَ، وَهَدَاهَا لِهَذِهِ الْأَعْيَادِ الْمُبَارَكَةِ بَعْدَ أَنْ ضَلَّتْ عَنْهَا الْأُمَمُ الضَّالَّةُ، وَجَعَلَ الْعِيدَيْنِ الْحَوْلِيَّيْنِ عِوَضًا وَبَدَلًا عَنْ أَيَّامِ الْجَاهِلِيَّةِ وَأَعْيَادِهَا.

رَوَى أَنَسٌ ﷺ قَالَ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ وَلَهُمْ يَوْمَانِ يَلْعَبُونَ فِيهِمَا، فَقَالَ: «**مَا هَذَانِ الْيَوْمَانِ؟**» قَالُوا: كُنَّا نَلْعَبُ فِيهِمَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ قَدْ أَبْدَلَكُمْ بِهِمَا خَيْرًا مِنْهُمَا: يَوْمَ الْأَضْحَى وَيَوْمَ الْفِطْرِ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[1]، وَفِي حَدِيثِ عَائِشَةَ ﷺ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ**

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب صلاة العيدين (١١٣٤)، وأحمد (٣/ ١٠٢)، وأبو يعلى (٣٨٢٠)، وعبد بن حميد (١٣٩٢)، والضياء في المختارة (١٩١٠)، وصححه الحاكم وابن تيمية وقالا: على شرط مسلم، ينظر: المستدرك (١/ ٤٣٤)، والاقتضاء (١/ ١٨٤)، وصححه ابن حجر في الفتح (٢/ ٤٤٢).

عِيدًا، وَهَذَا عِيدُنَا» رَوَاهُ الشَيخَانِ[٢].

وَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ تُفِيدُ أَنَّ الْأَعْيَادَ لَيْسَتْ مِنَ الْعَوَائِدِ الَّتِي يَتَوَاطَأُ النَّاسُ عَلَيْهَا فَحَسْبُ، حَتَّى يُشَرِّعَ النَّاسُ فِيهَا مَا يُشَرِّعُونَ، وَيَخْتَرِعُوا مِنْهَا مَا يَخْتَرِعُونَ، وَيَتَّبِعُوا غَيْرَهُمْ فِيهَا؛ وَلَكِنَّ الْأَعْيَادَ مِنَ الدِّينِ وَالشَّرَائِعِ، فَوَجَبَ الْوُقُوفُ فِيهَا وَفِي شَعَائِرِهَا عِنْدَ النُّصُوصِ، وَكُلُّ عِيدٍ يُخْتَرَعُ، أَوْ يَوْمٍ يُعَظَّمُ لَمْ يَرِدْ فِي الشَّرْعِ أَنَّهُ عِيدٌ فَهُوَ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ.

وَلَوْ سَاغَ لِلنَّاسِ أَنْ يَخْتَرِعُوا أَعْيَادًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ لَأَقَرَّ النَّبِيُّ ﷺ أَهْلَ المَدِينَةِ عَلَى الْيَوْمَيْنِ الْجَاهِلِيَّيْنِ اللَّذَيْنِ كَانَا عِيدًا لَهُمْ، وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَمَا أَخْبَرَهُمْ أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ أَبْدَلَهُمْ بِهِمَا الْعِيدَيْنِ الشَّرْعِيَّيْنِ؛ وَالْإِبْدَالُ مِنَ الشَّيْءِ يَقْتَضِي تَرْكَ الْمُبْدَلِ مِنْهُ؛ إِذْ لَا يُجْمَعُ بَيْنَ الْبَدَلِ وَالمُبْدَلِ مِنْهُ[٣].

إِنَّ كُلَّ عِيدٍ يُصَاحِبُهُ -وَلَا بُدَّ- جُمْلَةٌ مِنَ الِاحْتِفَالَاتِ وَالشَّعَائِرِ وَالمَرَاسِمِ، وَهَذَا عِنْدَ كُلِّ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ وَالْحَاضِرَةِ، وَيَتَضَمَّنُ ذَلِكَ تَعْظِيمَ الْيَوْمِ الَّذِي يُتَّخَذُ عِيدًا، لِمِيزَةٍ تَمَيَّزَ بِهَا حَسَبَ شَرِيعَةٍ أَوْ عَادَةِ مَنِ اتَّخَذُوهُ عِيدًا، وَأَعْيَادُ أَهْلِ الْإِسْلَامِ قَدْ تُوِّجَتْ بِأَعْظَمِ الشَّعَائِرِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي فِيهَا صَلَاحُ الْبَشَرِيَّةِ، كَصَلَاةِ الْجُمُعَةِ وَصَلَاةِ الْعِيدِ وَخُطْبَتَيْهِمَا، وَارْتِبَاطِ الْعِيدَيْنِ الْكَبِيرَيْنِ بِرُكْنَيْنِ مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ: الصَّوْمِ وَالْحَجِّ، فَاسْتَحَقَّتْ هَذِهِ الْأَعْيَادُ الشَّرْعِيَّةُ أَنْ تَكُونَ أَعْيَادًا؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدِ ارْتَضَاهَا لِلْمُسْلِمِينَ أَعْيَادًا.

وَأَيُّ أَعْيَادٍ غَيْرِهَا أَوْ أَيَّامٍ مِنَ السَّنَةِ تُعَظَّمُ وَتُتَّخَذُ عِيدًا، وَتُرْسَمُ لَهَا المَرَاسِمُ،

---

(٢) أخرجه البخاري في العيدين، باب سنة العيدين لأهل الإسلام (٩٠٩)، ومسلم في صلاة العيدين، باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه في أيام العيد (٨٩٢).

(٣) ينظر: الاقتضاء (١/ ١٨٤-١٨٥).

وَيَحْتَفِلُ النَّاسُ فِيهَا فَهِيَ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَلَا يُحِبُّهَا اللهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ، وَلَا يَرْضَاهَا لَهُمْ أَعْيَادًا. فَنَحْمَدُ اللهَ تَعَالَى الَّذِي أَغْنَانَا بِالْأَعْيَادِ الشَّرْعِيَّةِ عَنْ أَعْيَادِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَنَسْأَلُهُ الثَّبَاتَ عَلَى الْحَقِّ إِلَى المَمَاتِ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: يَكْثُرُ فِي هَذَا الزَّمَنِ الْحَدِيثُ عَنِ الْوَطَنِ وَالْوَطَنِيَّةِ، وَالدَّوْلَةِ المَدَنِيَّةِ، وَكُلُّ مُتَكَلِّمٍ وَكَاتِبٍ يُدْلِي فِي هَذَا المَوْضُوعِ بِحَسَبِ تَوَجُّهَاتِهِ الْفِكْرِيَّةِ، وَانْتِمَاءَاتِهِ المَذْهَبِيَّةِ، وَكُلُّ طَائِفَةٍ مِنَ المُخْتَلِفِينَ تَدَّعِي أَنَّ الْحَقَّ مَعَهَا، وَأَنَّهَا أَخْلَصُ لِلْوَطَنِ مِنْ غَيْرِهَا، وَتَرْمِي سِوَاها بِالْعَدَاءِ لِلْوَطَنِ، وَالْحَقُّ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى: أَنَّ حُبَّ الْأَوْطَانِ، وَصِدقَ الانْتِمَاءِ إِلَيْهَا لَا يَكُونُ إِلَّا بِالتَّنَاصُحِ بَيْنَ الرَّاعِي وَالرَّعِيَّةِ، وَالتَّوَاصِي بِالْحَقِّ، وَالتَّعَاوُنِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَلَا خَيْرَ فِي رَعِيَّةٍ لَا يَبْذُلُونَ النُّصْحَ لِوُلَاتِهِمْ، وَلَا خَيْرَ فِي وُلَاةٍ لَا يَقْبَلُونَ نُصْحَ النَّاصِحِينَ مِنْ رَعَايَاهُمْ، وَالنَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**» قَالُوا: لِمَنْ؟ قَالَ: «**لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٤).

إِنَّ حُبَّ الْأَوْطَانِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالسَّعْيِ فِيمَا يُصْلِحُهَا، وَلَا إِصْلَاحَ إِلَّا فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَوَفْقَ شَرِيعَتِهِ، وَكُلُّ مَا عَارَضَ الشَّرِيعَةَ فَلَيْسَ بِإِصْلَاحٍ، وَلَكِنَّهُ الْفَسَادُ وَالْإِفْسَادُ، وَهُوَ ضِدُّ مَصَالِحِ الْأَوْطَانِ.

إِنَّ الْعَلَاقَةَ بَيْنَ الْحَاكِمِ وَالمَحْكُومِ أَكْبَرُ أَمْرًا، وَأَعْلَى شَأْنًا مِنْ مُجَرَّدِ التَّعَلُّقِ بِتُرَابٍ أَوْ حَصًى، أَوْ رَسْمِ أَيَّامٍ لِذَلِكَ، إِنَّهَا عَقْدٌ وَثِيقٌ، وَمِيثَاقٌ غَلِيظٌ عَلَى التَّعَاضُدِ وَالتَّعَاوُنِ، وَالنُّصْحِ وَالنُّصْرَةِ، إِنَّهَا دِينٌ يَدِينُ بِهِ الْعَبْدُ لِرَبِّهِ فِي سِرِّهِ وَعَلَانِيَتِهِ، وَفِي عُسْرِهِ وَيُسْرِهِ، وَفِي مَنْشَطِهِ وَمَكْرَهِهِ، وَفِي حَالِ الْأَثَرَةِ عَلَيْهِ، وَفِي مَا أَحَبَّ وَمَا كَرِهَ، وَلَيْسَتْ مُجَرَّدَ تِجَارَةٍ يَطْلُبُ بِهَا الْعَبْدُ جَاهًا أَوْ مَالًا، أَوْ يَبْتَغِي

---

(٤) أخرجه من حديث تميم الداري رضي الله عنه: مسلم في الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة (٥٥).

بِهَا ثَنَاءً بِمَقَالَةٍ يَتَزَلَّفُ بِهَا، وَيُظْهِرُ التَّبَاكِي بِهَا عَلَى الْوَطَنِ، وَاللهُ تَعَالَى وَحْدَهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي قَلْبِهِ مِنْ كَرَاهِيَةٍ لِهَذَا الْوَطَنِ وَأَهْلِهِ، بِسَبَبِ انْحِرَافَاتِهِ الْفِكْرِيَّةِ، وَانْتِمَائِهِ ثَقَافِيًّا وَمَذْهَبِيًّا لِأَعْدَاءِ وَطَنِهِ.

وَمَنْ أَرَادَ حَصْرَ الْعَلَاقَةِ بَيْنَ الْحَاكِمِ وَالمَحْكُومِ فِي تُرَابٍ وَحَصًى، وَاخْتَزَلَهَا فِي أَيَّامٍ يُحْتَفَى بِهَا فِيهَا فَهُوَ يُضْعِفُهَا وَيُصَدِّعُهَا، وَيُفَرِّغُهَا مِنْ مَضَامِينِهَا الشَّرْعِيَّةِ.

إِنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ يُلِحُّونَ وَبِقُوَّةٍ مِنْ بَنِي يَعْرُبَ عَلَى مَسْأَلَةِ الْوَطَنِيَّةِ إِنَّمَا يُرِيدُونَ أَنْ يَحُلَّ الِانْتِمَاءُ إِلَى الْوَطَنِ مَحَلَّ الِانْتِمَاءِ لِلدِّينِ؛ تَمْهِيدًا لِنَقْلِ النَّاسِ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَى الْإِلْحَادِ، وَمِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى عِبَادَةِ الدُّنْيَا، فِيمَا يُسَمَّى بِالدِّيمُقْرَاطِيَّةِ وَالدَّوْلَةِ المَدَنِيَّةِ الَّتِي يَتِمُّ بِمُوجَبِهَا الِاتِّفَاقُ عَلَى تَقَاسُمِ الدُّنْيَا، وَبِنَاءِ الْعَلَاقَاتِ عَلَى أَسَاسِهَا، وَتَرْكِ النَّظَرِ فِي الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ المُتَعَلِّقَةِ بِالْآخِرَةِ، وَإِقْصَائِهَا عَنْ وَاقِعِ النَّاسِ، عَلَى غِرَارِ مَا حَصَلَ فِي الْغَرْبِ إِبَّانَ نُشُوءِ مَا يُسَمَّى بِحَرَكَاتِ التَّحَرُّرِ الْوَطَنِيَّةِ الَّتِي جُعِلَتِ الْأَوْطَانُ فِيهَا بَدَائِلَ لِلْكَنَائِسِ، وَثَارَ دُعَاتُهَا عَلَى مُلُوكِ أُورِبَّةَ وَرُهْبَانِهَا، وَأَعْلَنُوا أَنَّ الدِّينَ لِلَّهِ وَأَنَّ الْوَطَنَ لِلْجَمِيعِ، وَهَذِهِ الشِّعَارَاتُ الْجَاهِلِيَّةُ يَقْذِفُ بِهَا كَثِيرٌ مِمَّنْ يُسَمَّوْنَ بِالمُفَكِّرِينَ وَالمُثَقَّفِينَ وَالصَّحَفِيِّينَ فِي أَحَادِيثِهِمْ عَنِ الْوَطَنِيَّةِ.

ثُمَّ رَأَيْنَا كَثِيرًا مِمَّنْ يَسْتَمِيتُونَ فِي إِحْلَالِ الْوَطَنِيَّةِ مَحَلَّ الدِّينِ، وَيَتَبَاكَوْنَ فِي قَنَوَاتِهِمْ وَصُحُفِهِمْ عَلَى ضَعْفِ الِانْتِمَاءِ الْوَطَنِيِّ لَدَى النَّاسِ، رَأَيْنَاهُمْ يَتَّصِلُونَ بِالْأَعْدَاءِ مِنْ وَرَاءِ حُكُومَاتِهِمْ، وَيُفْشُونَ أَسْرَارَ دُوَلِهِمْ، وَيَدُلُّونَ عَلَى عَوْرَاتِ مُجْتَمَعَاتِهِمْ، وَيُحَرِّضُونَ الْأَعْدَاءَ عَلَى بَنِي أَوْطَانِهِمْ، وَلَا يَطْرَحُونَ مِمَّا يَزْعُمُونَهُ مَشَارِيعَ إِصْلَاحٍ إِلَّا مَا رَضِيَهُ لَهُمْ مَلَاحِدَةُ الْغَرْبِ، عَبْرَ امْلَاءَاتٍ يُمْلُونَهَا عَلَيْهِمْ،

بِأُجُورٍ يَدْفَعُونَهَا لَهُمْ، فَيَا لَهَا مِنْ وَطَنِيَّةٍ خَانُوا فِيهَا أَوْطَانَهُمْ، وَجَعَلَتْهُمْ مُجَنَّدِينَ لِأَعْدَاءِ أُمَّتِهِمْ!!

ثُمَّ رَأَيْنَا إِخْوَانَهُمُ الْوَطَنِيِّينَ فِي الْبِلَادِ الْقَرِيبَةِ كَانُوا فِي مُقَدِّمَةِ جَيْشِ الْعَدُوِّ لِاحْتِلَالِ وَطَنِهِمْ، وَلَمَّا مَكَّنَ لَهُمُ الْعَدُوُّ فِي وَطَنِهِمُ الَّذِي خَانُوهُ؛ نَهَبُوا ثَرَوَاتِهِ، وَأَحَلُّوا الْفَوْضَى فِيهِ، وَلَنْ يَعْدُوَ فِعْلُ هَؤُلَاءِ فِعْلَ أُولَئِكَ لَوْ قَدَرُوا وَتَمَكَّنُوا(٥).

وَمَنْ خَانَ اللهَ تَعَالَى فَاطَّرَحَ دِينَهُ، وَرَامَ تَبْدِيلَ شَرِيعَتِهِ، فَخِيَانَتُهُ لِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى أَهْوَنُ، وَبَيْعُهُ لِوَطَنِيَّتِهِ الَّتِي يَصِيحُ بِهَا أَجْدَرُ وَأَحْرَى، وَلَا مَبْدَأَ لَدَيْهِ، وَإِنَّمَا هُوَ مَعَ مَنْ يَدْفَعُ أَكْثَرَ. حَمَى اللهُ تَعَالَى بِلَادَنَا وَبِلَادَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ شُرُورِ أَصْحَابِ هَذِهِ التَّوَجُّهَاتِ الْمَشْبُوهَةِ، وَالْأَفْكَارِ الْمُنْحَرِفَةِ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: وَيَوْمُ الْعِيدِ يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِ اللَّهِ تَعَالَى، وَنِعْمَةٌ اخْتَصَّ اللهُ تَعَالَى بِهَا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ، فَوَجَبَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَشْكُرُوا اللهَ تَعَالَى عَلَيْهَا وَعَلَى نِعْمَةِ إِدْرَاكِ رَمَضَانَ، وَتَمَامِ الصِّيَامِ، وَلَيْسَ مِنَ الشُّكْرِ فِي شَيْءٍ أَنْ يَكُونَ يَوْمُ الْعِيدِ يَوْمَ الْمُنْكَرَاتِ، وَكَأَنَّ النَّاسَ قَدْ أُطْلِقُوا مِنْ سِجْنِ رَمَضَانَ، وَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَفِيدُوا مِنْ شَهْرِهِمْ شَيْئًا.

إِنَّ النَّاسَ قَدْ تَوَسَّعُوا فِي الْعِيدِ تَوَسُّعًا تَجَاوَزَ الْمُبَاحَاتِ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ، كَإِقَامَةِ الْحَفَلَاتِ الْغِنَائِيَّةِ، وَالْمَسْرَحِيَّاتِ النِّسَائِيَّةِ، وَالْفَعَالِيَّاتِ الْمُخْتَلِطَةِ بَيْنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، وَمَا يُصَاحِبُ ذَلِكَ مِنْ تَبَرُّجِ النِّسَاءِ وَسُفُورِهِنَّ، وَمَا يَنْتِجُ عَنْهُ مِنَ الْفِتْنَةِ وَالْفَسَادِ الْكَبِيرِ، وَكُلُّ هَذَا الْإِثْمِ الْعَظِيمِ، وَالْمُنْكَرِ الْكَبِيرِ، يُسَوَّغُ بِفَرْحَةِ الْعِيدِ، وَالتَّوْسِعَةِ عَلَى النَّاسِ، فَهَلِ الْفَرحُ بِمَا شَرَعَ اللهُ تَعَالَى لِلنَّاسِ

---

(٥) هذا إشارة لما يحصل في العراق؛ فإن الذين ادعوا الوطنية فيه أعانوا المحتل الأمريكي على احتلاله وتدميره، وتسليمه للمليشيات الصفوية الفارسية التي تأتمر بأمر عمائم طهران.

مِنَ الْأَعْيَادِ الْمُبَارَكَةِ يَكُونُ بِمُبَارَزَتِهِ سُبْحَانَهُ فِيهَا بِالْعِصْيَانِ؟ لَيْسَتْ هَذِهِ أَخْلَاقُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا مَا تَعَلَّمُوهُ مِنَ الشَّهْرِ الْكَرِيمِ، فَاجْتَنِبُوا -رَحِمَكُمُ اللهُ- الْمُنْكَرَاتِ فِي الْعِيدِ؛ صِيَانَةً لِدِينِكُمْ، وَشُكْرًا لِرَبِّكُمْ ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: أَيُّهَا الصَّائِمُونَ الْقَائِمُونَ: مَا أَحْوَجَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الطَّاعَةِ بَدَلَ الْمَعْصِيَةِ، وَالِاتِّبَاعِ بَدَلَ الِابْتِدَاعِ، وَالِاسْتِقْلَالِ بَدَلَ التَّبَعِيَّةِ، وَالْخُضُوعِ لِلَّهِ تَعَالَى بَدَلَ الْخُضُوعِ لِغَيْرِهِ، وَالتَّسْلِيمِ لِأَمْرِهِ سُبْحَانَهُ فِي كُلِّ الْأُمُورِ! فَفِي الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْعِلَلِ وَالْأَوْصَابِ وَالْهُمُومِ وَالْغُمُومِ مَا لَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا اللهُ تَعَالَى.

لَقَدْ عَانَى الْمُسْلِمُونَ -وَلَا زَالُوا- مِنْ أَدْوَاءِ التَّفَرُّقِ وَالِاخْتِلَافِ، وَلَنْ يَلُمَّ شَعَثَهُمْ، وَيَقْضِيَ عَلَى تَفَرُّقِهِمْ إِلَّا الْتِزَامُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

وَيُعَانِي الْمُسْلِمُونَ مِنْ تَسَلُّطِ أَعْدائِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ عَلَيْهِمْ بِاحْتِلَالِ دِيارِهِمْ، وَنَهْبِ ثَرَوَاتِهِمْ، وَمُحَاوَلَةِ تَقْسِيمِ بُلْدَانِهِمْ فِيمَا يُعْرَفُ بِالشَّرْقِ أَوْسَطِيَّةِ، ثُمَّ الشَّرْقِ الْأَوْسَطِ الْكَبِيرِ، ثُمَّ الْجَدِيدِ، فِي مَشَارِيعَ وَخُطَطٍ يَتَآمَرُونَ بِهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ، يُبْدُونَهَا وَلَا يُخْفُونَهَا، وَالمَارِينْزُ الْعَرَبُ فِي صُحُفِهِمْ وَفَضَائِيَّاتِهِمْ يُسَوِّقُونَ لَهَا، وَيُبَشِّرُونَ النَّاسَ بِهَا، دُونَ حَيَاءٍ وَلَا خَوْفٍ.

لَقَدِ اعْتَدَى أَئِمَّةُ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ فِي هَذَا الْعَصْرِ عَلَى قُرْآنِ الْمُسْلِمِينَ فَدَنَّسُوهُ وَمَزَّقُوهُ وَأَهَانُوهُ، وَاعْتَدَوْا عَلَى نَبِيِّهِمْ فَصَوَّرُوهُ بِأَقْبَحِ الصُّوَرِ، وَوَصَفُوهُ بِأَبْشَعِ الْأَوْصَافِ، وَاعْتَدَوْا عَلَى شَرِيعَتِهِمْ فَاتَّهَمُوهَا بِالدَّمَوِيَّةِ وَالْفَاشِيَّةِ، وَانْبَرَى إِخْوَانُهُمُ الْمُنَافِقُونَ لِلطَّعْنِ فِي رِجَالَاتِ الْإِسْلَامِ وَقَادَتِهِ وَعُظَمَائِهِ بَدْءًا بِالصَّحَابَةِ ﷺ، وَمُرُورًا بِقَادَةِ الْمُسْلِمِينَ عَبْرَ الْعُصُورِ، وَانْتِهَاءً بِعُلَمَاءِ هَذَا

الْعَصْرِ وَدُعَاتِهِ، مَعَ تَشْكِيكِهِمْ فِي تَارِيخِ الْمُسْلِمِينَ كُلِّهِ، وَوَصْفِهِ بِالظَّلَامِ وَالِاسْتِبْدَادِ.

وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَثْنُونَ عَهْدَ الْخِلَافَةِ الرَّاشِدَةِ، وَأَمَّا الْآنَ، وَمَعَ ظُهُورِ الْإِلْحَادِ، وَاسْتِعْلَانِ النِّفَاقِ فَإِنَّهُمْ لَا يَسْتَثْنُونَ أَيَّ شَيْءٍ مِنْ طَعْنِهِمْ وَتَشْكِيكِهِمْ، إِضَافَةً إِلَى اسْتِهْزَائِهِمْ بِشَعَائِرِ الْإِسْلَامِ، وَأَحْكَامِهِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللهُ تَعَالَى وَفَرَضَهَا عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَسُخْرِيَّتِهِمْ مِنْ عَادَاتِ النَّاسِ وَلَهَجَاتِهِمْ فِي مُسَلْسَلَاتٍ هَازِلَةٍ، وَمَقَالَاتٍ سَاخِرَةٍ، وَرِوَايَاتٍ فَاجِرَةٍ(٦).

وَقَنَوَاتُهُمُ الْإِعْلَامِيَّةُ مِنْ صُحُفٍ وَمَجَلَّاتٍ وَإِذَاعَاتٍ وَفَضَائِيَّاتٍ تَقُومُ بِمُهِمَّةِ مَسْخِ الْعُقُولِ وَتَدْمِيرِهَا، وَإِفْسَادِ الْفِطَرِ وَتَخْرِيبِهَا، مَعَ تَكْرِيسِ كُلِّ أَنْوَاعِ الذُّلِّ وَالتَّبَعِيَّةِ، وَتَسْوِيقِ أَلْوَانِ الْفَسَادِ وَالِانْحِلَالِ، فِي شَبَكَاتٍ إِعْلَامِيَّةٍ لَيْسَ لَهَا مِنْ عَرَبِيَّتِهَا إِلَّا أَنَّ مُلَّاكَهَا عَرَبٌ، وَإِلَّا فَهِيَ إِفْرِنْجِيَّةُ التَّأْسِيسِ وَالْمَشْرَبِ، وَالتَّوَجُّهِ وَالدِّعَايَةِ، وَالْفِكْرِ وَالثَّقَافَةِ.

إِنَّهُ تَنْسِيقٌ بَيْنَ قُوَى الشَّرِّ وَالْبَاطِلِ وَالضَّلَالِ وَالظَّلَامِ فِي هَذَا الْعَصْرِ لِضَرْبِ كُلِّ مَا لَهُ صِلَةٌ بِالْإِسْلَامِ، وَتَشْوِيهِهِ وَتَجْرِيحِهِ، وَتَخْوِيفِ النَّاسِ مِنْهُ، مَعَ السَّعْيِ الْحَثِيثِ مِنْ قِبَلِ أَرْبَابِ الطَّوَائِفِ الضَّالَّةِ، وَأَصْحَابِ الْمَذَاهِبِ الْبَاطِنِيَّةِ لِاسْتِغْلَالِ هَذِهِ الْفُرْصَةِ بِتَسْوِيقِ بَاطِلِهِمْ، وَنَشْرِ مَذَاهِبِهِمْ عِنْدَ عَامَّةِ النَّاسِ.

وَقَدْ رَأَيْنَا كَيْفَ أَنَّ الْقُوَى الْعَالَمِيَّةَ الْمُسْتَكْبِرَةَ، وَالْمُرَوِّجِينَ لِمَشَارِيعِهَا مِنَ الْمَارِينْزِ الْعَرَبِ لَا يَتَعَرَّضُونَ فِي هُجُومِهِمْ لِمَبَادِئِ هَذِهِ الْفِرَقِ الضَّالَّةِ، وَأَفْعَالِهَا الشَّاذَّةِ، بَلْ يُدَافِعُونَ عَنْهَا، وَيَجْعَلُونَهَا الْمَثَلَ الْمُحْتَذَى الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَسْلُكَهُ

---

(٦) كثر في السنوات الأخيرة الحملات المغرضة على التاريخ الإسلامي وأعلام المسلمين لتشويههم، والطعن فيهم، في تآزر مكشوف وغير مسبوق بين العلمانيين مِنْ ليبراليين ويَسَارِيِّين وبين الطوائف الباطنية وخاصَّة الصفوية.

المُسْلِمُونَ؛ لِعِلْمِهِمْ أَنَّهَا مِنْ أَكْبَرِ أَسْبَابِ هَدْمِ الْإِسْلَامِ وَتَشْوِيهِهِ، وَلِيَقِينِهِمْ أَنَّ أَرْبَابَ هَذِهِ الطَّوَائِفِ مِنْ أَكْبَرِ حُلَفَائِهِمْ ضِدُّ أَهْلِ الْحَقِّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَيَكْفِي دَلِيلًا عَلَى ذَلِكَ تَمْكِينُهُمْ لَهَا فِي الْبِلَادِ الَّتِي يَحْتَلُّونَهَا؛ لِذَبْحِ أَهْلِ الْحَقِّ وَإِبَادَتِهِمْ.

إِنَّهُ لَا خَوْفَ عَلَى الْإِسْلَامِ مِنْ تِلْكَ الْحَمَلَاتِ الصَّلِيبِيَّةِ وَالنِّفَاقِيَّةِ المُعَاصِرَةِ؛ فَدِينُ اللَّهِ تَعَالَى مَنْصُورٌ، وَشَرِيعَتُهُ ظَاهِرَةٌ، وَأَمْرُهُ سُبْحَانَهُ نَافِذٌ، وَلَكِنَّ الْخَوْفَ كُلَّ الْخَوْفِ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَتْرُكُوا دِينَهُمْ، وَيَطَّرِحُوا شَرِيعَةَ رَبِّهِمْ، وَيَتَّبِعُوا مَا رَضِيَهُ لَهُمُ الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ مِنَ مَنَاهِجَ مُنْحَرِفَةٍ، وَأَفْكَارٍ ضَالَّةٍ.

وَإِزَاءَ ذَلِكَ لَا بُدَّ أَنْ تَتَضَافَرَ جُهُودُ الْغَيُورِينَ لِلدَّرْءِ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَحِمَايَةِ بَيْضَتِهِ، وَالدِّفَاعِ عَنْ شَرِيعَتِهِ، وَرَدِّ تَشْكِيكِ الْمُشَكِّكِينَ، وَدَحْضِ شُبُهَاتِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، وَحِفْظِ عَوَامِّ الْمُسْلِمِينَ وَنَاشِئَتِهِمْ وَشَبَابِهِمْ وَفَتَيَاتِهِمْ مِنْ هَذِهِ الْحَمَلَاتِ الْمُفْسِدَةِ الْمُضَلِّلَةِ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَسْؤُولٌ فِي مَجَالِهِ، وَمُطَالَبٌ بِالْعَمَلِ عَلَى قَدْرِ طَاقَتِهِ وَوُسْعِهِ.

فَأَصْحَابُ الْقَرَارِ وَالسِّيَاسَةِ هُمْ رُؤُوسُ النَّاسِ، وَبِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْحُلُولِ وَأَوْرَاقِ الضَّغْطِ مَا لَيْسَ بِأَيْدِي غَيْرِهِمْ، وَيَسْتَطِيعُونَ تَحْجِيمَ الْفَسَادِ، وَتَقْلِيلَ خَطَرِ الْمُفْسِدِينَ، كَمَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْإِصْلَاحِ، وَالتَّمْكِينِ لِلْمُصْلِحِينَ.

وَأَهْلُ الْعِلْمِ وَالدَّعْوَةِ، وَالْفِكْرِ وَالثَّقَافَةِ يَجِبُ عَلَيْهِمْ بَيَانُ الْحَقِّ الَّذِي يَدِينُونَ اللهَ تَعَالَى بِهِ، وَفَضْحُ أَصْحَابِ التَّوَجُّهَاتِ الْمُنْحَرِفَةِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ إِخْرَاجَ النَّاسِ مِنْ دِينِهِمْ إِلَى مَنَاهِجِ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ، وَتَحْذِيرُ النَّاسِ مِنْ أَسَالِيبِهِمْ وَوَسَائِلِهِمْ، وَالْأَخْذُ عَلَى أَيْدِي الْمُحَرِّفِينَ وَالْمُبَدِّلِينَ مِمَّنْ يَتَلَبَّسُونَ بِلِبَاسِ الْعِلْمِ وَيُحَرِّفُونَ النُّصُوصَ لِتُوَافِقَ الْأَهْوَاءَ، وَتُسَايِرَ الْوَاقِعَ، مَعَ إِبْدَاءِ الرَّأْيِ وَالنَّصِيحَةِ لِلْوُلَاةِ وَالْأُمَرَاءِ.

وَالْأُسْتَاذُ فِي جَامِعَتِهِ، وَالْمُدَرِّسُ فِي مَدْرَسَتِهِ، وَالْمُعَلِّمَةُ مَعَ طَالِبَاتِهَا، عَلَيْهِمْ أَنْ يُرَبُّوا وَيُعَلِّمُوا، وَيُنَشِّئُوا جِيلًا يَنْفَعُ نَفْسَهُ وَمُجْتَمَعَهُ، وَيَعِي التَّحَدِّيَاتِ الَّتِي تُوَاجِهُ أُمَّتَهُ.

وَالرَّجُلُ فِي بَيْتِهِ مَسْئُولٌ عَنْ أُسْرَتِهِ وَوَلَدِهِ بِأَنْ يَحْجِزَهُمْ عَنْ وَسَائِلِ الشَّرِّ وَالْإِفْسَادِ، وَيُوجِدَ لَهُمُ الْبَدَائِلَ النَّافِعَةَ، مَعَ غَرْسِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى فِي قُلُوبِهِمْ، وَتَرْبِيَتِهِمْ عَلَى التَّفَانِي فِي نَصْرِ دِينِهِمْ وَمُجْتَمَعِهِمْ وَأُمَّتِهِمْ؛ حَتَّى يَكُونُوا أَصْحَابَ هَمٍّ، وَحَمَلَةَ رِسَالَةٍ، لَا مُجَرَّدَ هَمَلٍ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَلَا يَفْقَهُونَ.

وَالمَرْأَةُ -وَمَا أَدْرَاكَ مَا المَرْأَةُ- عَلَيْهَا مَسْئُولِيَّةٌ كَبِيرَةٌ جِدًّا، فَقَدْ شَرَّفَهَا اللهُ ﷻ بِأَنْ وُجِّهَتْ إِلَيْهَا فِي هَذَا الْعَصْرِ أَكْثَرُ سِهَامِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، فَهِيَ المَجَالُ الْخِصْبُ عِنْدَهُمْ، وَهِيَ الْحَدِيثُ المَكْرُورُ لَدَيْهِمْ، يُرِيدُونَ نَزْعَ حَيَائِهَا مَعَ حِجَابِهَا، وَسَلْخَ دِينِهَا مَعَ عَفَافِهَا، وَهَذَا ابْتِلَاءٌ عَظِيمٌ لَهَا، يَعْظُمُ بِهِ أَجْرُهَا، وَتَعْلُو مَنْزِلَتُهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى إِذَا مَا ثَبَتَتْ عَلَى دِينِهَا، وَأَطَاعَتْ رَبَّهَا، وَحَافَظَتْ عَلَى حِجَابِهَا، وَجَاهَدَتِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ بِلِسَانِهَا وَقَلَمِهَا، فَأَعْلَنَتْ رَفْضَهَا لِمَشْرُوعَاتِهِمْ، وَقَدَّمَتْ رِضَا رَبِّهَا عَلَى شَهَوَاتِهِمْ، وَآثَرَتْ آخِرَتَهَا عَلَى دُنْيَاهُمْ.

إِنَّهَا المَرْأَةُ الصَّالِحَةُ الَّتِي تَغْرِسُ فِي قُلُوبِ أَوْلَادِهَا مَحَبَّةَ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَحَبَّةَ دِينِهِ، وَكَرَاهِيَةَ مَا يُعَارِضُهُ أَيًّا كَانَ مَصْدَرُهُ، وَمَهْمَا كَانَ زُخْرُفُهُ. إِنَّهَا المَرْأَةُ الصَّائِمَةُ الْقَائِمَةُ الَّتِي تُفْشِلُ مُخَطَّطَاتِ الْأَعْدَاءِ، وَتُغِيظُ الْكُفَّارَ وَالمُنَافِقِينَ بِرَفْضِ مَشْرُوعَاتِهِمْ ، وَرَدِّ أُطْرُوحَاتِهِمْ؛ طَاعَةً لِلَّهِ تَعَالَى، وَطَمَعًا فِي ثَوَابِهِ، وَخَوْفًا مِنْ عِقَابِهِ.

وَلَوْ قَامَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِوَاجِبِهِ، وَأَدَّى مَا عَلَيْهِ، وَثَبَتَ عَلَى دِينِهِ،

فَلَنْ يَسْتَطِيعَ الْكُفَّارُ وَالمُنَافِقُونَ أَنْ يَنَالُوا مِنَ المُسْلِمِينَ شَيْئًا ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: حُقَّ لَكَمْ أَنْ تَفْرَحُوا بِعِيدِكُمْ بَعْدَ أَنْ مَنَّ اللهُ تَعَالَى عَلَيْكُمْ بِتَمَامِ شَهْرِكُمْ، وَأَدَاءِ مَا أَوْجَبَ عَلَيْكُمْ، فَالْعِيدُ عِيدُ المُسْلِمِينَ الصَّائِمِينَ.

بَرُّوا وَالِدِيكُمْ، وَصِلُوا أَرْحَامَكُمْ، وَأَزِيلُوا الشَّحْنَاءَ مِنْ قُلُوبِكُمْ، وَأَصْلِحُوا بَيْنَ المُتَخَاصِمِينَ فِيكُمْ، وَكُونُوا كَمَا أَمَرَكُمُ اللهُ تَعَالَى إِخْوَانًا مُتَآلِفِينَ مُتَعَاوِنِينَ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى.

وَلَا تَنْسَوْا إِخْوَانَكُمُ المُسْتَضْعَفِينَ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، أَدُّوا لَهُمْ شَيْئًا مِنْ أَمْوَالِكُمْ، وَخُصُّوهُمْ بِصَالِحِ دُعَائِكُمْ؛ فَإِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، ابْتَلَاهُمُ اللهُ تَعَالَى وَعَافَاكُمْ، فَاعْرِفُوا لَهُمْ حَقَّهُمْ، وَاشْكُرُوا اللهَ تَعَالَى عَلَى عَافِيَتِهِ.

وَاعْبُدُوا اللهَ فِي رَمَضَانَ وَبَعْدَ رَمَضَانَ، وَرَاقِبُوهُ سُبْحَانَهُ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ وَالْأَحْيَانِ، فَمَا أَشَدَّ حَاجَتَكُمْ إِلَيْهِ! وَهُوَ الْغَنِيُّ سُبْحَانَهُ عَنْكُمْ.

وَأَتْبِعُوا رَمَضَانَ بِصِيَامِ سِتَّةِ أَيَّامٍ مِنْ شَوَّالٍ، تَكُونُوا كَمَنْ صَامَ الدَّهْرَ كُلَّهُ، وَمَنْ عَلَيْهِ قَضَاءٌ مِنْ رَمَضَانَ قَدَّمَ الْقَضَاءَ عَلَى سِتِّ شَوَّالٍ.

أَعَادَهُ اللهُ عَلَيْنَا وَعَلَيْكُمْ وَعَلَى المُسْلِمِينَ بِالْيُمْنِ وَالْإِيمَانِ، وَالسَّلَامَةِ وَالْإِسْلَامِ، وَتَقَبَّلَ اللهُ مِنَّا وَمِنْكُمْ وَمِنَ المُسْلِمِينَ صَالِحَ الْأَعْمَالِ.

إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ . . .

❀ ❀ ❀

٢٦١- خطبة عيد الفطر المبارك
حملات المفسدين على المصلحين

الجمعة ١/ ١٠/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ هَدَى مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ لِلْإِيمَانِ، وَاخْتَصَّهُمْ بِشَعَائِرِ الْإِسْلَامِ، وَشَرَعَ لَهُمُ الصِّيَامَ وَالْقِيَامَ، وَجَعَلَهُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ.

الْحَمْدُ لِلَّهِ قَاسِمِ الْهِبَاتِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ مُقِيلِ الْعَثَرَاتِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ مُنَزِّلِ الرَّحَمَاتِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ مُجِيبِ الدَّعَوَاتِ.

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى؛ نَحْمَدُهُ حَمْدَ الشَّاكِرِينَ، وَنَسْتَغْفِرُهُ اسْتِغْفَارَ الْمُذْنِبِينَ، وَنَسْأَلُهُ مِنْ فَضْلِهِ الْعَظِيمِ؛ فَكَمْ مِنْ نِعْمَةٍ أَنْزَلَهَا! وَكَمْ مِنْ بَلِيَّةٍ دَفَعَهَا! نَوَاصِينَا بِيَدِهِ، وَأَرْزَاقُنَا عِنْدَهُ، وَآجَالُنَا إِلَيْهِ، لَا رَبَّ لَنَا سِوَاهُ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ؛ كَانَ يَصُومُ حَتَّى يَقُولَ الْقَائِلُ: لَا يُفْطِرُ، وَيُفْطِرُ حَتَّى يَقُولَ الْقَائِلُ: لَا يَصُومُ، وَكَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ مِنْ طُولِ الْقِيَامِ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- وَاشْكُرُوهُ عَلَى نِعَمِهِ وَآلَائِهِ؛ فَإِنَّ شُكْرَ النِّعَمِ يَزِيدُهَا، وَإِنَّ كُفْرَهَا يَمْحَقُهَا وَيُزِيلُهَا.

اشْكُرُوا اللهَ تَعَالَى إِذْ هَدَاكُمْ لِلْإِسْلَامِ، وَحَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ، وَبَلَّغَكُمْ رَمَضَانَ، وَأَعَانَكُمْ عَلَى الصِّيَامِ وَالْقِيَامِ، وَوَفَّقَكُمْ لِلْخَيْرِ وَالْإِحْسَانِ؛ فَلَوْلَا اللهُ تَعَالَى مَا آمَنْتُمْ وَلَا عَمِلْتُمْ صَالِحًا ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن

قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الْبَقَرَة: ١٩٨].

اشْكُرُوهُ ﷻ إِذْ هَدَاكُمْ لِلْعِيدَيْنِ الْكَبِيرَيْنِ، وَمَا شَرَعَ لَكُمْ فِيهِمَا مِنَ الشَّعَائِرِ وَالمَنَاسِكِ الَّتِي تَزِيدُكُمْ قُرْبًا مِنْ رَبِّكُمْ، وَتَمَسُّكًا بِدِينِكُمْ، مَعَ السُّرُورِ وَالْفَرَحِ بِهِمَا؛ فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا هَدَانَا وَأَعْطَانَا.

وَمِنْ شُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ: التَّمَسُّكُ بِالْعِيدَيْنِ الشَّرْعِيَّيْنِ، وَالِاقْتِصَارُ عَلَيْهِمَا، وَالْحَذَرُ مِنْ مُزَاحَمَتِهِمَا أَوْ مُضَاهَاتِهِمَا بِالْأَعْيَادِ الْبِدْعِيَّةِ الْمُحْدَثَةِ الَّتِي مَا أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ، كَيْفَ؟ وَنَبِيُّكُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ الْمُبَلِّغُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى لَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ وَلِأَهْلِهَا يَوْمَانِ يَلْعَبُونَ فِيهِمَا قَالَ: «**مَا هَذَانِ الْيَوْمَانِ؟** قَالُوا: كُنَّا نَلْعَبُ فِيهِمَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **إِنَّ اللهَ قَدْ أَبْدَلَكُمْ بِهِمَا خَيْرًا مِنْهُمَا: يَوْمَ الْأَضْحَى وَيَوْمَ الْفِطْرِ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[1].

كَمَا أَنَّ مِنْ شُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى نِعْمَةِ الْأَعْيَادِ الشَّرْعِيَّةِ تَعْظِيمَ شَعَائِرِهَا، وَاجْتِنَابَ الْمُنْكَرَاتِ فِيهَا، مِنَ الْمَعَازِفِ وَالْغِنَاءِ، وَاخْتِلَاطِ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ، وَتَضْيِيعِ الْجَمَاعَاتِ، وَالتَّقْصِيرِ فِي الْوَاجِبَاتِ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، أَيُّهَا الصَّائِمُونَ الْقَائِمُونَ: فِي اللَّيَالِي الْمَاضِيَةِ وَعَلَى مَدَى شَهْرٍ كَامِلٍ أَضَاءَتْ مَسَاجِدُ الْمُسْلِمِينَ بِالتَّرَاوِيحِ وَالْقِيَامِ، وَعَجَّتِ الْمَآذِنُ بِآيَاتِ الْقُرْآنِ تُتْلَى، وَرُفِعَتِ الْأَيْدِي إِلَى الْكَرِيمِ الْجَوَّادِ بِالثَّنَاءِ وَالدُّعَاءِ.. يَقْنُتُونَ وَيَرْكَعُونَ وَيَسْجُدُونَ لِخَالِقِهِمْ جَلَّ فِي عُلَاهُ.. مَا سِيقُوا إِلَى الْمَسَاجِدِ مُكْرَهِينَ، وَلَا يَرْجُونَ فِيهَا شَيْئًا مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا، بَلْ سَابَقُوا إِلَيْهَا مُخْتَارِينَ رَاغِبِينَ؛ طَاعَةً لِلَّهِ تَعَالَى، يَرْجُونَ ثَوَابَهُ، وَيَحْذَرُونَ عِقَابَهُ، وَأَهْلُ الْمَلَاهِي فِي مَلَاهِيهِمْ، فَكَمْ

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب صلاة العيدين (١١٣٤)، وأحمد (٣/ ١٠٢)، وأبو يعلى (٣٨٢٠)، وعبد بن حميد (١٣٩٢)، وصححه الحاكم وابن تيمية وابن حجر، ينظر: المستدرك (١/ ٤٣٤)، والاقتضاء (١/ ١٨٤)، وفتح الباري (٢/ ٤٤٢).

لَهُمْ مِنَ الْأُجُورِ عِنْدَ الْجَوَادِ الْكَرِيمِ ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: فِي هَذَا الزَّمَنِ يُوَاجِهُ الْمُوَحِّدُونَ لِلَّهِ تَعَالَى، الْمُسْتَمْسِكُونَ بِدِينِهِمْ حَمَلَاتٍ ضَارِيَةً، وَحَرْبًا ضَرُوسًا مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَعْوَانِهِمْ مِنَ الظَّالِمِينَ وَالشَّهْوَانِيِّينَ.

حَمَلَاتٌ شَمِلَتْ جَمِيعَ الْمَيَادِينِ، وَحُرُوبٌ مَا أَبْقَتْ مَجَالًا فِيهِ نَشْرٌ لِلْإِسْلَامِ أَوْ نَفْعٌ لِلْمُسْلِمِينَ إِلَّا أَتَتْ عَلَيْهِ، يُرِيدُونَ تَبْدِيلَ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَحْرِيفَ شَرِيعَتِهِ، وَصَرْفَ النَّاسِ عَنْ دِينِهِ، وَإِخْرَاجَهُمْ مِنْهُ إِلَى مَا أَحْدَثُوهُ مِنْ أَفْكَارٍ ضَالَّةٍ، وَمَبَادِئَ مُنْحَرِفَةٍ، وَيُسَوِّقُ لِهَذَا الضَّلَالِ الْمُبِينِ وُكَلَاؤُهُمْ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِ الْحِقْدِ وَالضَّغِينَةِ أَوِ الْحُمْقِ وَالْغَفْلَةِ مِمَّنْ يُصَنَّفُونَ بِالْكُتَّابِ وَالْمُفَكِّرِينَ وَالْمُثَقَّفِينَ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ لَا يَرَوْنَ أَبْعَدَ مِنْ أُنُوفِهِمْ.

لَقَدْ كَانَ فِي خُطَطِ الدَّوْلَةِ الْأُولَى فِي الِاسْتِكْبَارِ وَالظُّلْمِ وَالِاعْتِدَاءِ مَشْرُوْعَاتٌ اسْتِعْمَارِيَّةٌ ضَخْمَةٌ؛ أَرَادُوا بِهَا تَغْيِيرَ خَرَائِطِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ، وَتَقْسِيمَ مَا قُسِّمَ مِنْ دُوَلِهِ، وَتَفْتِيتَهَا إِلَى دُوَيْلَاتٍ، وَالِاسْتِيلَاءَ عَلَى مَا تَبَقَّى مِنْ ثَرَوَاتِهِ، وَإِخْضَاعَهُ تَمَامًا لِحُكْمِهِمْ وَإِمْلَاءَاتِهِمْ، زَاعِمِينَ أَنَّ الْقَرْنَ قَرْنُهُمْ، وَأَنَّ الْعَالَمَ قَدْ خَضَعَ لِجَبَرُوتِهِمْ؛ وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى بِلُطْفِهِ وَحِكْمَتِهِ خَيَّبَ مَسَاعِيَهُمْ، وَكَسَرَ شَوْكَتَهُمْ، وَأَزَالَ هَيْبَتَهُمْ، فَغَرِقَ جُنُودُهُمْ فِي أَفْغَانِسْتَانَ وَالْعِرَاقِ، وَلَا زَالُوا يَغْرَقُونَ، وَيَبْحَثُونَ عَمَّا يَحْفَظُ مَاءَ وُجُوهِهِمْ، وَيُعِيدُ هَيْبَتَهُمْ، فَسَوَّلَتْ لَهُمْ شَيَاطِينُهُمْ إِحْلَالَ الْفَوْضَى الْخَلَّاقَةِ فِي الدُّوَلِ الَّتِي لَمْ يُسَيْطِرُوا عَلَيْهَا، وَهُوَ مُصْطَلَحٌ تَمَّ سَكُّهُ حَدِيثًا، وَيَعْنِي التَّدْمِيرَ لِمَنْ يُعَارِضُهُمْ، ثُمَّ إِعَادَةَ الصِّيَاغَةِ وَالْبِنَاءِ وَفْقَ مَا يُرِيدُونَ.

وَالتَّدْمِيرُ يَكُونُ بِأَيْدِيهِمْ أَوْ بِأَيْدِي وُكَلَائِهِمْ فِي الْمِنْطَقَةِ؛ وَمِنْ وَسَائِلِهِمْ فِي

التَّدْمِيرِ إِحْيَاءُ النُّعَرَاتِ الْعِرْقِيَّةِ وَالطَّائِفِيَّةِ، وَإِشْعَالُ الْحُرُوبِ الْأَهْلِيَّةِ تَحْتَ إِشْرَافِهِمْ، وَبِمَعُونَتِهِمْ وَإِمْدَادِهِمْ؛ حَتَّى يُفْنِيَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَإِذَا مَلُّوا مِنَ الْحُرُوبِ، وَفَنِيَ أَكْثَرُهُمْ؛ عَادُوا مَرَّةً أُخْرَى لِتَرْتِيبِ أَوْرَاقِ الْمِنْطَقَةِ بِمَا يُحَقِّقُ مَصَالِحَهُمْ، وَالمَطْلُوبُ الْأَكْبَرُ لِمَا يُسَعِّرُونَهُ مِنْ حُرُوبٍ رَأْسُ الْإِسْلَامِ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

لَقَدْ عَظُمَتْ حَرْبُهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَتَوَاصَوْا بِهَا بَيْنَهُمْ؛ فَدَنَّسُوا الْقُرْآنَ، وَمَزَّقُوهُ وَأَهَانُوهُ، وَكَتَبُوا مُصْحَفًا جَدِيدًا سَمَّوْهُ فُرْقَانَ الْحَقِّ، وَضَعُوا فِيهِ خُلَاصَةَ أَفْكَارِهِمْ؛ لِيَجْعَلُوهُ بَدِيلًا عَنِ الْقُرْآنِ الَّذِي تَنَزَّلَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى[٢].

وَسَخِرُوا مِنَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي رُسُومَاتِهِمْ وَكِتَابَاتِهِمْ، مِنَ الدِّنِمَارَكِ إِلَى السُّوِيدِ، إِلَى غَيْرِهِمَا، وَاعْتَدَوْا عَلَى شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى فَسَخِرُوا مِنْهَا، وَطَعَنُوا فِي أَحْكَامِهَا، وَوَضَعُوهَا عَلَى طَاوِلَةِ الْمُنَاقَشَةِ وَالتَّجْرِيحِ وَالتَّسْفِيهِ، وَأَسَّسُوا قَنَوَاتٍ فَضَائِيَّةً وَإِذَاعِيَّةً عَرَبِيَّةً لِهَذِهِ الْغَايَةِ، وَأَعَانُوا بِالمَالِ وَالنُّفُوذِ الْقَنَوَاتِ الْعَرَبِيَّةَ الَّتِي تُسَوِّقُ لِمَشْرُوعَاتِهِمْ، وَتَتَكَلَّمُ بِلِسَانِهِمْ، وَلَيْسَ لَهَا مِنْ عَرَبِيَّتِهَا إِلَّا لِسَانُهَا.

لَقَدْ تَمَالَئُوا فِي مُؤْتَمَرَاتِهِمْ عَلَى الْجَمْعِيَّاتِ الْخَيْرِيَّةِ الَّتِي تُطْعِمُ الْجَوْعَى، وَتَكْفُلُ الْأَيْتَامَ، وَتُقِيمُ المَشْرُوعَاتِ التَّنْمَوِيَّةَ فِي الْبُلْدَانِ الْفَقِيرَةِ، كَمَا تَمَالَأَ كُفَّارُ مَكَّةَ عَلَى بَنِي هَاشِمٍ فَحَصَرُوهُمْ فِي الشِّعْبِ.

إِنَّهُمْ يُحَارِبُونَ الْجَمْعِيَّاتِ الْخَيْرِيَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ وَقَدْ أَغْلَقُوا أَكْثَرَهَا؛ لِيُفْسِحُوا المَجَالَ لِمُنَظَّمَاتِهِمُ التَّنْصِيرِيَّةِ لِتَعْمَلَ عَمَلَهَا فِي تَنْصِيرِ فُقَرَاءِ المُسْلِمِينَ، وَنَقْلِهِمْ

(٢) وقد حصلت على نسخة منه -قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ؟!- وعلمت أن كاتبه نصراني فلسطيني أخزاه الله تعالى، وينظر تفصيلًا عنه في خطبة: إنا سنلقي عليك قولًا ثقيلًا مجلد (٦)، خطبة رقم (٢٢٥).

مِنَ الْإِيمَانِ إِلَى الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ عَجَزُوا عَنْ إِقْنَاعِ النَّاسِ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ ضَلَالٍ، فَاسْتَغَلُّوا حَاجَتَهُمْ لِفَرْضِ ضَلَالِهِمْ عَلَيْهِمْ.

وَلَمْ يَسْلَمْ مِنْ حَرْبِهِمْ مِنْدِيلٌ تُغَطِّي بِهِ امْرَأَةٌ مُسْلِمَةٌ شَعْرَهَا، فَحَارَبُوهَا مِنْ أَجْلِهِ فِي أُورُبَّةَ الْمُتَحَضِّرَةِ الَّتِي تَحْفَظُ حُقُوقَ الْإِنْسَانِ، وَتُؤْمِنُ بِالْحُرِّيَّاتِ كَمَا يَقُولُونَ!!

وَكَانَ مِنْ أُخْرَيَاتِ عَدَائِهِمْ لِلْإِسْلَامِ وَصْفُهُمْ إِيَّاهُ عَلَى أَلْسُنِ رُؤَسَائِهِمْ وَكِبَارِهِمْ بِالْفَاشِيَّةِ، وَإِصْرَارُهُمْ عَلَى مُحَارَبَتِهِ وَتَبْدِيلِهِ، وَبَعْدَ عَشَرَةِ أَيَّامٍ يَبْدَأُ أُسْبُوعٌ لِلتَّحْذِيرِ مِنَ الْفَاشِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي مِائَتَيْ جَامِعَةٍ أَمْرِيكِيَّةٍ تُلْقَى فِيهِ الْمُحَاضَرَاتُ، وَتُعْرَضُ الْأَفْلَامُ وَتُوَزَّعُ الْكُتُبُ وَالْمَنْشُورَاتُ الْمُعَادِيَةُ لِلْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، فَأَيُّ عَدَاءٍ لِلْإِسْلَامِ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا؟![٣].

لَقَدْ آذَوُا الْمُسْلِمِينَ فِي رَبِّهِمْ جَلَّ جَلَالُهُ، وَفِي نَبِيِّهِمْ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَفِي قُرْآنِهِمْ، وَفِي دِينِهِمْ، وَفِي بُلْدَانِهِمْ، وَفِي أَنْفُسِهِمْ، وَلَا زَالُوا! عَجَّلَ اللهُ تَعَالَى كَبْتَهُمْ، وَكَفَى الْمُؤْمِنِينَ شَرَّهُمْ، وَحَفِظَ بِلَادَنَا وَبِلَادَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ مَكْرِهِمْ.

وَأَمَّا إِخْوَانُهُمُ الْمُنَافِقُونَ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ فَإِنَّهُمْ أَبْدَوْا مَا كَانُوا يُخْفُونَ، وَكَشَّرُوا عَنْ وُجُوهٍ كَالِحَةٍ قَبِيحَةٍ، وَقُلُوبٍ تَقْطُرُ حِقْدًا عَلَى كُلِّ مَا يَمُتُّ لِلْإِسْلَامِ بِصِلَةٍ؛ فَمَا إِنْ رَأَوُا الْكُفَّارَ قَدْ سَنُّوا حِرَابَهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ حَتَّى انْحَازُوا لِصَفِّهِمْ، وَأَظْهَرُوا مَا كَانُوا يُبْطِنُونَ مِنْ عَدَاوَتِهِمْ، وَأَضْحَوْا عُيُونًا لِلْكُفَّارِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، يَتَّصِلُونَ بِسِفَارَاتِهِمْ، وَيَتَلَقَّوْنَ تَعْلِيمَاتِهِمْ، وَيَخْضَعُونَ لِتَوْصِيَاتِهِمْ، وَيُطَالِبُونَ بِمَطَالِبِ الْأَعْدَاءِ ذَاتِهَا، وَيُحَارِبُونَ مَا يُحَارِبُهُ الْأَعْدَاءُ، وَيُرَكِّزُونَ

(٣) أعلن مركز (هورويتز للحرية) عن إقامة هذا الأسبوع في مائتي جامعة أمريكية يبدأ من ١١ شوال، قاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ؟!

هُجُومَهُمْ عَلَى الْقَضَاءِ الشَّرْعِيِّ؛ لِيَسْتَبْدِلُوا بِهِ الْقَانُونَ الْوَضْعِيَّ، وَيُحَارِبُونَ شَعِيرَةَ الْحِسْبَةِ؛ لِيَقْضُوا عَلَى الْفَضَائِلِ، وَيَنْشُرُوا الرَّذَائِلَ، وَيُحَارِبُونَ التَّعْلِيمَ الشَّرْعِيَّ، وَحَلَقَاتِ تَحْفِيظِ الْقُرْآنِ؛ لِتَجْهِيلِ النَّشْءِ بِشَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَرْبِيَتِهِ عَلَى غَيْرِ كِتَابِهِ ﷻ، وَيُحَارِبُونَ مُؤَسَّسَاتِ الْإِغَاثَةِ وَالدَّعْوَةِ؛ لِأَنَّهَا بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْخَيْرِ، وَتَحْفَظُ الْفُقَرَاءَ مِنَ الِانْحِرَافِ وَالضَّلَالِ، وَيُحَارِبُونَ حِجَابَ الْمَرْأَةِ؛ لِأَنَّهُ يُمَيِّزُ الْمُسْلِمَةَ مِنْ غَيْرِهَا، وَلَا يُرِيدُونَهَا أَنْ تَتَمَيَّزَ بِشَيْءٍ، وَيُحَارِبُونَ عَزْلَ النِّسَاءِ عَنِ الرِّجَالِ، وَيُطَالِبُونَ بِالِاخْتِلَاطِ؛ لِأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ تَسْعِيرَ الشَّهَوَاتِ، وَيَسْعَوْنَ فِي انْحِلَالِ الْمُجْتَمَعَاتِ، وَيَكْتُبُونَ تَقَارِيرَ عَنْ كُلِّ ذَلِكَ يُمِدُّونَ بِهَا أَعْدَاءَ الْأُمَّةِ مِنَ الصَّهَايِنَةِ وَالمَلَاحِدَةِ.

إِنَّهُمْ تَحْتَ شِعَارِ مَا يُسَمُّونَهُ إِصْلَاحًا -وَهُوَ الْإِفْسَادُ- يَسْخَرُونَ مِنْ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى وَشَرِيعَتِهِ، وَيَهْزَءُونَ بِحَمَلَتِهَا، وَيُحَرِّفُونَ نُصُوصَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَيَتَلَاعَبُونَ بِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ، فَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ تَعَالَى، وَيُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ، وَيُلْقُونَ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ الْمُحْكَمَةَ عَلَى طَاوِلَةِ النِّقَاشِ وَالْمُزَايَدَةِ؛ لِيُلْغُوا مِنْهَا مَا لَا يَتَوَافَقُ مَعَ أَهْوَائِهِمْ.

إِنَّهُمْ فِي وَسَائِلِ إِعْلَامِهِمْ يَبُثُّونَ الشَّائِعَاتِ، وَيَخْتَلِقُونَ الْأَكَاذِيبَ ضِدَّ الْمُصْلِحِينَ؛ لِيُنَفِّرُوا النَّاسَ مِنْهُمْ، وَمِنْ قَبْلُ اخْتَرَعَ قُدْوَتُهُمْ فِي النِّفَاقِ إِفْكًا مُفْتَرًى فِي عَائِشَةَ ﵂، وَطَعَنَ النَّبِيَّ ﷺ فِي عِرْضِهِ، أَفَتَرَوْنَ -يَا عِبَادَ اللَّهِ- أَنَّ مُنَافِقِي زَمَنِنَا يَتَوَرَّعُونَ عَمَّا فَعَلَهُ أَسْلَافُهُمْ!!

إِنَّهُمْ يُشِيعُونَ الْفَاحِشَةَ، وَيُسَوِّقُونَ لِلرَّذِيلَةِ فِيمَا امْتَلَكُوهُ مِنْ وَسَائِلِ إِعْلَامٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَيُرِيدُونَ فَرْضَ الْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ بِمَا يَشْرَعُونَهُ مِنْ قَرَارَاتِ الِاخْتِلَاطِ فِي الْعَمَلِ، وَمَا يُطَالِبُونَ بِهِ، وَيُحَاوِلُونَ الْوُصُولَ إِلَيْهِ مِنْ قِيَادَةِ الْمَرْأَةِ لِلسَّيَّارَةِ،

وَفَرْضِ الرِّيَاضَةِ فِي مَدَارِسِ الْبَنَاتِ، وَالاخْتِلَاطِ فِي التَّعْلِيمِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ فِي سِلْسِلَةٍ مِنَ الْإِفْسَادِ لَا تَنْتَهِي.

لَقَدْ أَضْحَى إِفْسَادُ النَّاسِ، وَنَشْرُ الرَّذِيلَةِ، وَتَوْسِيعُ الاخْتِلَاطِ هُوَ شُغْلَهُمُ الشَّاغِلَ، وَقَضِيَّتَهُمُ الْكُبْرَى، مَعَ مُحَارَبَتِهِمْ لِلطُّهْرِ وَالْعَفَافِ، وَالصَّلَاحِ وَالْإِصْلَاحِ. أَخْزَاهُمُ اللهُ تَعَالَى وَأَذَلَّهُمْ، وَحَفِظَ الْبِلَادَ وَالْعِبَادَ مِنْ مَكْرِهِمْ وَشَرِّهِمْ.

إِنَّهَا حَرْبٌ عَلَى كَافَّةِ الْأَصْعِدَةِ يَتَوَلَّى كِبْرَهَا أَعْدَاءُ الرُّسُلِ، وَأَتْبَاعُ الشَّيَاطِينِ، مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، وَيُعِينُهُمْ فِيهَا بَعْضُ الظَّالِمِينَ وَالشَّهْوَانِيِّينَ.

إِنَّهَا حَرْبٌ يُسَعِّرُهَا الْمُفْسِدُونَ عَلَى الْمُصْلِحِينَ، وَيُشْعِلُهَا دُعَاةُ الرَّذِيلَةِ عَلَى دُعَاةِ الْفَضِيلَةِ.

إِنَّهُ تَحَالُفٌ نَجِسٌ نَكِدٌ يَقُودُهُ طَوَاغِيتُ أَهْلِ الْكِتَابِ وَمَلَاحِدَةُ الْغَرْبِ، وَيَنْضَوِي تَحْتَ لِوَائِهِمُ الْمُفْسِدُونَ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَالشَّهْوَانِيِّينَ لِيُجَنِّدُوا أَنْفُسَهُمْ لِلْأَعْدَاءِ ضِدَّ أُمَّتِهِمْ.

وَهُوَ تَحَالُفٌ يُذَكِّرُنَا بِمَا كَانَ بَيْنَ الْيَهُودِ فِي الْمَدِينَةِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي مَكَّةَ مِنِ اتِّصَالَاتٍ وَتَحَالُفَاتٍ ضِدَّ الْمُسْلِمِينَ. وَاتِّصَالَاتُ مُنَافِقِي عَصْرِنَا بِسِفَارَاتِهِمْ تُذَكِّرُ بِاتِّصَالَاتِ ابْنِ سَلُولَ وَأَتْبَاعِهِ بِالْيَهُودِ وَالْمُشْرِكِينَ آنَذَاكَ.

إِنَّهَا مِحْنَةٌ عَظِيمَةٌ، وَأَزْمَةٌ كَبِيرَةٌ، عَانَى مِنْهَا الْمُصْلِحُونَ خِلَالَ السَّنَوَاتِ الْقَلِيلَةِ وَلَا زَالُوا؛ حَتَّى دَبَّ الْيَأْسُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْقُلُوبِ، فَتَغَيَّرَتْ قَنَاعَاتٌ، وَزَلَّتْ أَقْدَامٌ وَأَفْهَامٌ، وَنَكَصَ أَقْوَامٌ عَنْ دِينِ الْإِسْلَامِ؛ فَارْتَدُّوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ مُنْتَحِلِينَ مَا يُسَمَّى بِالْإِنْسَانِيَّةِ، رَاكِبِينَ قِطَارَ الْعَلْمَانِيَّةِ، يُحَارِبُونَ الدُّعَاةَ وَالْمُصْلِحِينَ، وَهُمْ مَحَلُّ حَفَاوَةٍ وَإِطْرَاءٍ مِنْ قِبَلِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، فَتُفْرَدُ لَهُمُ الصَّفَحَاتُ، وَتُجْرَى مَعَهُمُ

الْمُقَابَلَاتُ؛ لِيُسَوِّقُوا رِدَّتَهُمْ وَزَنْدَقَتَهُمْ عَلَى جُمْهُورِ النَّاسِ، وَلِيَطْعَنُوا فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَفِي عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ.

وَآخَرُونَ اتَّخَذُوا مِنْ تَمْيِيعِ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ، وَلَيِّ نُصُوصِهَا، وَتَتَبُّعِ الْأَقْوَالِ الشَّاذَّةِ وَالمَهْجُورَةِ طَرِيقَةً لَهُمْ؛ لِيُقَرِّبُوهُ مِمَّا يُرِيدُ الْأَعْدَاءُ، وَلِيَرْضَى المُنَافِقُونَ وَالشَّهْوَانِيُّونَ عَنْهُمْ؛ كَيْمَا يُظْهِرُونَهُمْ فِي فَضَائِيَّاتِهِمُ الْهَابِطَةِ، وَصُحُفِهِمُ المُنْحَرِفَةِ، فَتَرَكُوا مَا كَانُوا يَدْعُونَ إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ، وَتَنَكَّرُوا لِمَنَاهِجِهِمْ، وَأَضْحَتْ هِجِّيرَاهُمْ أَقَاوِيلَ فَلَاسِفَةِ الْغَرْبِ وَمُفَكِّرِيهِ بَدَلَ نُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَلَرُبَّمَا طَوَّعُوا النُّصُوصَ لِآرَائِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ، نَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْهَوَى وَالرَّدَى.

وَآخَرُونَ غَيْرُهُمْ تَخَلَّوْا عَنْ نُصْرَةِ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، وَرَدِّ حَمَلَاتِ الْكَافِرِينَ وَالمُنَافِقِينَ عَلَى الصَّلَاحِ وَالمُصْلِحِينَ، وَاشْتَغَلُوا بِأُمُورِ الدُّنْيَا؛ إِيثَارًا لِلسَّلَامَةِ، أَوْ يَأْسًا مِنْ وَاقِعِ الْأُمَّةِ.

وَكُلُّ هَؤُلَاءِ وَأُولَئِكَ قَدْ ضَلُّوا الطَّرِيقَ، وَمَا صَبَرُوا فِي الِابْتِلَاءَاتِ، وَلَا فَقِهُوا حَقَّ الْفِقْهِ سُنَنَ اللَّهِ تَعَالَى فِي المُصْلِحِينَ وَالمُفْسِدِينَ، وَلَا أَخَذُوا مِنْ سِيَرِ الْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام مَعَ المُسْتَكْبِرِينَ دُرُوسًا وَعِبَرًا.

إِنَّ كُلَّ مَا يَجْرِي فِي هَذَا الْعَصْرِ لِلْمُسْلِمِينَ عَلَى أَيْدِي الْكَافِرِينَ وَالمُنَافِقِينَ وَالظَّالِمِينَ مِنَ الْحِصَارِ وَالمُضَايَقَةِ، وَالْحَرْبِ الشَّامِلَةِ فِي كَافَّةِ المَجَالَاتِ قَدْ جَرَى مِثْلُهُ وَأَضْعَافُهُ لِأَنْبِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى أَيْدِي الطُّغَاةِ وَالمُسْتَكْبِرِينَ؛ فَأُخْرِجَ الْأَنْبِيَاءُ عليهم السلام وَالمُؤْمِنُونَ مَعَهُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ، وَأُوذُوا فِي اللَّهِ تَعَالَى ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [الْبَقَرَة: ٢١٤]، وَمَا فَتَّ ذَلِكَ فِي عَضُدِهِمْ، وَلَا أَوْهَنَ عَزِيمَتَهُمْ، وَلَمْ يُقْعِدْهُمْ عَنْ نُصْرَةِ دِينِ اللَّهِ

تَعَالَى، وَلَمْ يُؤَدِّ بِهِمْ إِلَى مُوَافَقَةِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ فِيمَا أَرَادُوا، بَلْ صَبَرُوا وَاتَّقَوْا حَتَّى نَالُوا الظَّفَرَ فِي الدُّنْيَا، وَجَزَاءُ الآخِرَةِ أَوْفَى وَأَعْظَمُ ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [آل عِمْرَان: ١٤٦].

إِنَّ دِينَ اللَّهِ تَعَالَى مَنْصُورٌ رَغْمَ أُنُوفِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، وَإِنَّ أَهْلَ الْحَقِّ غَالِبُونَ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالتَّمْكِينُ لَا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ الْبَلَاءِ، وَالشِّدَّةُ يَعْقُبُهَا الْفَرَجُ ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشَّرْح: ٦]، ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [الصَّافَّات: ١٧٣]، ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عِمْرَان: ١٦٠].

وَبَوَادِرُ النَّصْرِ وَالظَّفَرِ وَالتَّمْكِينِ لِهَذَا الدِّينِ الْعَظِيمِ تَلُوحُ فِي الْأُفُقِ، وَيَرَاهَا الْمُسْتَبْصِرُونَ؛ وَلَكِنَّهَا تَحْتَاجُ مِنَّا إِلَى صَبْرٍ وَتَقْوَى . .

إِنَّنَا -يَا عِبَادَ اللَّهِ- فِي هَذَا الزَّمَنِ الْعَصِيبِ نَحْتَاجُ إِلَى صَبْرٍ عَلَى أَذَى الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، وَصَبْرٍ فِي التَّمَسُّكِ بِالدِّينِ؛ وَإِنْ عَظُمَ الْبَلَاءُ، وَتَوَالَتِ الْمِحَنُ، وَاشْتَدَّ الْكَرْبُ.

نَحْتَاجُ إِلَى صَبْرٍ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَالدِّفَاعِ عَنْ دِينِهِ وَحُرُمَاتِهِ، وَمُجَاهَدَةِ الْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ.

وَنَحْتَاجُ إِلَى تَقْوَى تَمْنَعُنَا مِنَ التَّنَازُلِ عَنْ شَيْءٍ مِنْ دِينِنَا إِرْضَاءً لِلْمُفْسِدِينَ، وَتَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ تَسْوِيغِ الْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ، أَوِ الرِّضَا بِالْمُنْكَرَاتِ، أَوِ السُّكُوتِ عَنْهَا.

نَحْتَاجُ إِلَى تَقْوَى تَدْفَعُنَا إِلَى الْأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالدَّعْوَةِ إِلَى

اللَّهِ تَعَالَى، وَالتَّوَاصِي بِالْحَقِّ، وَالنُّصحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ.

وَفِي غَزْوَةِ أُحُدٍ حِينَ غَدَرَ الْمُنَافِقُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَانْتَصَرَ الْمُشْرِكُونَ، وَقُتِلَ سَبْعُونَ مِنَ الصَّحَابَةِ ﷺ، وَجُرِحَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَاشْتَدَّتِ الْمِحْنَةُ بِالْمُؤْمِنِينَ، تَنَزَّلَتِ الآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ الَّتِي تَتَنَاوَلُ هَذِهِ الْغَزْوَةَ الْعَظِيمَةَ؛ لِتُبَيِّنَ أَنَّ كَيْدَ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ لَنْ يَضُرَّ الْمُؤْمِنِينَ شَيْئًا مَتَى مَا صَبَرُوا وَاتَّقَوْا ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عِمْرَان: ١٢٠].

وَمَا أَحْوَجَ الْمُصْلِحِينَ إِلَى عَوْنِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَوْفِيقِهِ وَمَدَدِهِ وَجُنْدِهِ فِي مُقَارَعَةِ الْبَاطِلِ وَأَهْلِهِ، وَرَدِّ بَاطِلِهِمْ، وَدَحْضِ حُجَجِهِمْ، وَكَشْفِ زَيْفِهِمْ! وَلَنْ يَنَالَ الْمُصْلِحُونَ عَوْنَ اللَّهِ تَعَالَى وَمَدَدَهُ وَتَوْفِيقَهُ إِلَّا بِالصَّبْرِ وَالتَّقْوَى ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عِمْرَان: ١٢٥].

بَلْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ الأَمْرُ الصَّرِيحُ بِلُزُومِ الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى عِنْدَمَا يَعْظُمُ الْبَلَاءُ، وَتَشْتَدُّ الْمِحَنُ، وَيَتَسَلَّطُ الْكَافِرُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عِمْرَان: ١٨٦].

وَلَيْسَ مِنَ الصَّبْرِ وَلَا مِنَ التَّقْوَى مُوَافَقَةُ الْمُفْسِدِينَ فِيمَا يُرِيدُونَهُ مِنْ تَشْرِيعِ الْفَسَادِ، أَوْ إِذَابَةِ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ الْغَرَّاءِ لِتُوَافِقَ أَهْوَاءَهُمْ، أَوْ لَيِّ النُّصُوصِ الْمُحْكَمَةِ مُسَايَرَةً لِلنَّاسِ، وَمُوَافَقَةً لِضُغُوطِ الْوَاقِعِ. بَلِ الصَّبْرُ وَالتَّقْوَى فِي الِاسْتِمْسَاكِ بِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى مَهْمَا زَاغَ الزَّائِغُونَ، وَانْحَرَفَ الْمُنْحَرِفُونَ، وَارْتَدَّ الْمُرْتَدُّونَ، وَمَهْمَا عَظُمَتِ الضُّغُوطُ عَلَى أَهْلِ الْحَقِّ ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزُّخْرُف: ٤٣]، فَاسْتَمْسِكُوا يَا أَهْلَ الْحَقِّ بِدِينِكُمْ، وَلَا تَتَنَازَلُوا عَنْهُ فَتَهْلِكُوا.

إِنَّ أَهْلَ الْحَقِّ أَقْوِيَاءُ بِمَا يَتَّبِعُونَهُ مِنْ حَقٍّ، وَإِنَّ أَهْلَ الْبَاطِلِ ضُعَفَاءُ بِبَاطِلِهِمْ وَلَوْ كَانُوا أَكْثَرَ جَمْعًا وَقُوَّةً ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٤٩]، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الْأَنْبِيَاء: ١٨]، ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سَبَأ: ٤٩].

أَيَّتُهَا الْمَرْأَةُ الْمُسْلِمَةُ، أَيَّتُهَا الصَّائِمَةُ الْقَائِمَةُ: إِنَّ الْجُزْءَ الْأَكْبَرَ مِنْ حَمَلَاتِ الْمُفْسِدِينَ يَتَنَاوَلُ جَوَانِبَ الْمَرْأَةِ؛ لِعِلْمِهِمْ أَنَّهَا بَوَّابَةُ الصَّلَاحِ وَالْإِصْلَاحِ مَتَى مَا تَمَسَّكَتْ بِحِجَابِهَا، وَجَانَبَتِ الرِّجَالَ، وَدَعَتْ أَخَوَاتِهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهَا قَنْطَرَةُ الْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ مَتَى مَا نَبَذَتْ حِجَابَهَا، وَخَالَطَتِ الرِّجَالَ، وَنَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ قَالَ: «**مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رضي الله عنهما[(٤)]. وَفِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «... **فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(٥)].

فَإِيَّاكِ -أُخْتِي الْمُسْلِمَةَ- أَنْ تَنْجَرِفِي لِتَيَّارَاتِهِمْ، أَوْ تُصْغِي لِدَعَوَاتِهِمْ، فَإِنَّهُمْ دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ قَذَفُوهُ فِيهَا.

كَيْفَ تُجِيبِينَهُمْ إِلَى مَا يُرِيدُونَ مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَدِ امْتَلَأَ قَلْبُكِ بِالْإِيمَانِ، وَبِمَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْتِزَامِ دِينِهِ؟!

---

(٤) أخرجه البخاري في النكاح، باب ما يتقى مِنْ شُؤْمِ المَرْأَة (٤٨٠٨)، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء (٢٧٤١).

(٥) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء (٢٧٤٢).

كَيْفَ تُطِيعِينَهُمْ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَنْتِ تُصَلِّينَ وَتَصُومِينَ وَتَعْبُدِينَ اللهَ تَعَالَى؟! فَكُونِي نَصِيرَةً لِلْحَقِّ وَجُنْدِهِ، وَاحْذَرِي أَنْ تَكُونِي عَوْنًا لِلْبَاطِلِ وَأَهْلِهِ.

ادْرَئِي عَنْ حِجَابِكِ وَعَفَافِكِ عُدْوَانَ الْأَعَادِي مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ؛ فَإِنَّهُمُ الْأَضْعَفُ مَتَى مَا جُوبِهُوا بِقُوَّةِ الْحَقِّ ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النِّسَاء: ٧٦].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: افْرَحُوا بِعِيدِكُمْ بَعْدَ تَمَامِ صِيَامِكُمْ، وَاشْكُرُوا اللهَ تَعَالَى إِذْ هَدَاكُمْ .. بَرُّوا وَالِدِيكُمْ، وَصِلُوا أَرْحَامَكُمْ، وَأَحْسِنُوا إِلَى جِيرَانِكُمْ، وَطَهِّرُوا قُلُوبَكُمْ عَلَى إِخْوَانِكُمْ، وَأَقِيمُوا عَلَى عَهْدِكُمْ، وَأَطِيعُوا رَبَّكُمْ، وَلَا تَهْجُرُوا مَسَاجِدَكُمْ وَمَصَاحِفَكُمْ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى رَبُّ رَمَضَانَ وَغَيْرِ رَمَضَانَ ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا﴾ [النَّحل: ٩٢].

أَعَادَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْنَا وَعَلَيْكُمْ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ بِالْيُمْنِ وَالْإِيمَانِ، وَالسَّلَامَةِ وَالْإِسْلَامِ، وَتَقَبَّلَ مِنَّا وَمِنْكُمْ وَمِنَ الْمُسْلِمِينَ صَالِحَ الْأَعْمَالِ.

إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ.



٢٦٢- ماذا بعد رمضان؟ (٣) (*)

٧/ ١٠/ ١٤٢٥هـ

الحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ . .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ، وَلِكُلِّ بِدَايَةٍ نِهَايَةٌ، وَالإِنْسَانُ يُولَدُ ثُمَّ يَعِيشُ مَا كَتَبَ اللهُ تَعَالَى لَهُ أَنْ يَعِيشَ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ مَآلُهُ إِلَى المَوْتِ وَالْحِسَابِ . . وَالدُّنْيَا لَهَا بِدَايَةٌ وَنِهَايَةٌ، وَالإِنْسَانُ مُفَارِقُهَا لَا مَحَالَةَ مَهْمَا طَالَ عُمْرُهُ فِيهَا، وَكَثُرَ عَمَلُهُ لَهَا، وَاشْتَدَّ سَعْيُهُ لِأَجْلِهَا، وَالمَغْبُوطُ مَنْ طَالَ عُمْرُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ، وَالمَغْبُونُ مَنْ طَالَ عُمْرُهُ، وَسَاءَ عَمَلُهُ.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخِيَارِكُمْ**؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: **خِيَارُكُمْ**

(*) ماذا بعد رمضان (١) تجدها في مجلد (٢) خطبة رقم (٧٢)، و(٢) تجدها في مجلد (٢) خطبة رقم (٧٣).

أَطْوَلُكُمْ أَعْمَارًا، وَأَحْسَنُكُمْ أَعْمَالًا» رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١].

وَعَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ: **مَنْ طَالَ عُمْرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ**، قَالَ: فَأَيُّ النَّاسِ شَرٌّ؟ قَالَ: **مَنْ طَالَ عُمْرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ[٢].

إِنَّ عُمْرَ ابْنِ آدَمَ هُوَ مُسْتَوْدَعُ عَمَلِهِ، وَتَتَفَاوَتُ مُسْتَوْدَعَاتُ النَّاسِ ضِيقًا وَاتِّسَاعًا بِحَسَبِ أَعْمَارِهِمْ، فَلَيْسَ مَنْ صَلَّى لِلَّهِ تَعَالَى سِتِّينَ سَنَةً كَمَنْ صَلَّى عَشْرَ سَنَوَاتٍ، وَلَيْسَ مَنْ صَامَ سَبْعِينَ رَمَضَانَ كَمَنْ صَامَ عَشْرَ رَمَضَانَاتٍ!!

وَالْعَبْدُ الَّذِي يُدْرِكُ مَنَافِعَهُ، وَيَعْرِفُ أَيْنَ تَكُونُ مَصَالِحُهُ؛ يَفْرَحُ أَشَدَّ الْفَرَحِ إِذَا أَدْرَكَ زَمَنًا فَاضِلًا يُؤَدِّي فِيهِ فَرِيضَةً مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِذَا مَا انْقَضَى ذَلِكَ الزَّمَنُ الْفَاضِلُ انْتَظَرَ زَمَنًا آخَرَ وَهَكَذَا؛ حَتَّى تُوَافِيَهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ مُرَابِطٌ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، عَازِمٌ عَلَى أَدَاءِ حَقِّهِ، وَالْقِيَامِ بِفَرَائِضِهِ.

وَقَدْ رَوَى عُبَيْدُ بْنُ خَالِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «آخَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ رَجُلَيْنِ، فَقُتِلَ أَحَدُهُمَا وَمَاتَ الْآخَرُ بَعْدَهُ بِجُمُعَةٍ أَوْ نَحْوِهَا، فَصَلَّيْنَا عَلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا قُلْتُمْ؟ فَقُلْنَا: دَعَوْنَا لَهُ، وَقُلْنَا: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ وَأَلْحِقْهُ بِصَاحِبِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **فَأَيْنَ صَلَاتُهُ بَعْدَ صَلَاتِهِ وَصَوْمُهُ بَعْدَ صَوْمِهِ** -شَكَّ شُعْبَةُ فِي

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٣٥)، والبزار (١٩٧١)، وصححه ابن حبان (٢٩٨١)، والشيخ أحمد شاكر (٧٢١١).

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد، باب ما جاء في طول العمر، وقال: حديث حسن صحيح (٢٣٣٠)، وأحمد (٥/ ٤٠)، وابن أبي شيبة (٧/ ٩٠)، والطيالسي (٨٦٤)، والدارمي (٢٧٤٢)، والحاكم وصححه وقال: على شرط مسلم، ووافقه الذهبي (١/ ٣٣٩).

صَوْمِهِ- وَعَمَلُهُ بَعْدَ عَمَلِهِ؟ **إِنَّ بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ[٣].

وَمَنْ بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً فَقَدْ بَلَغَ كَمَالَ عَقْلِهِ، وَمُنْتَهَى رُشْدِهِ، وَحَقَّ عَلَيْهِ شُكْرُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى نِعَمِهِ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥]. وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ إِرْشَادٌ لِمَنْ بَلَغَ الْأَرْبَعِينَ أَنْ يُجَدِّدَ التَّوْبَةَ وَالْإِنَابَةَ إِلَى اللَّهِ ﷻ، وَأَنْ يُكْثِرَ مِنْ شُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى نِعَمِهِ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، وَكَانَ مَسْرُوقٌ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- يَقُولُ: «إِذَا بَلَغْتَ الْأَرْبَعِينَ فَخُذْ حِذْرَكَ»[٤]، وَقَالَ هِلَالُ بْنُ يَسَافٍ: «كَانَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ إِذَا بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً تَفَرَّغَ لِلْعِبَادَةِ»[٥].

وَمَنْ بَلَغَ سِتِّينَ سَنَةً فَقَدْ جَاءَهُ النَّذِيرُ وَلَا عُذْرَ لَهُ؛ إِذْ أَمْهَلَهُ اللهُ تَعَالَى كَثِيرًا، وَأَنْعَمَ عَلَيْهِ بِعُمُرٍ مَدِيدٍ؛ فَعَلَيْهِ أَنْ يَشْكُرَ اللهُ تَعَالَى عَلَى نِعْمَتِهِ، وَأَنْ يَتَفَرَّغَ لِعِبَادَتِهِ، وَيُكْثِرَ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي تَنْفَعُهُ فِي الدَّارِ الَّتِي اقْتَرَبَ مِنْهَا، ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﵄: «يُعَمِّرُكُمْ سِتِّينَ سَنَةً»[٦].

وَرَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ ﵁ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**أَعْذَرَ اللهُ إِلَى امْرِئٍ أَخَّرَ أَجَلَهُ**

---

(٣) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب في النور يرى عند قبر الشهيد (٢٥٢٤)، والنسائي في الجنائز، باب الدعاء في الجنازة (٤/ ٧٤)، وأحمد (٤/ ٢١٩)، والطيالسي (١١٩١)، والبيهقي (٣/ ٣٧١)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٣٩٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢٢٠٢).

(٤) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٤١).

(٥) أخرجه هناد في الزهد (٦٧١)، ونحوه في رياض الصالحين للنووي (٤٦).

(٦) أخرجه الطبري في جامع البيان (٢٢/ ١٤١)، وصححه ابن كثير في تفسيره (٣/ ٨٨٨-٨٨٩).

حَتَّى بَلَغَ سِتِّينَ سَنَةً» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، وَفِي لَفْظٍ لِأَحْمَدَ: «مَنْ أَتَتْ عَلَيْهِ سِتُّونَ سَنَةً فَقَدْ أَعْذَرَ اللهُ إِلَيْهِ فِي الْعُمُرِ»[٧].

وَالْإِعْذَارُ هُوَ إِزَالَةُ الْعُذْرِ، وَالمَعْنَى: أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ لَهُ اعْتِذَارٌ كَأَنْ يَقُولَ: لَوْ مُدَّ لِي فِي الْأَجَلِ لَفَعَلْتُ مَا أُمِرْتُ بِهِ؛ لِأَنَّ اللهَ ﷻ بَلَّغَهُ أَقْصَى الْغَايَةِ فِي الْعُذْرِ، وَمَكَّنَهُ مِنْهُ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ عُذْرٌ فِي تَرْكِ الطَّاعَةِ مَعَ تَمَكُّنِهِ مِنْهَا بِالْعُمُرِ الَّذِي حَصَلَ لَهُ فَلَا يَنْبَغِي لَهُ حِينَئِذٍ إِلَّا الِاسْتِغْفَارُ وَالطَّاعَةُ وَالْإِقْبَالُ عَلَى الْآخِرَةِ بِالْكُلِّيَّةِ[٨].

قَالَ ابْنُ بَطَّالٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «إِنَّمَا كَانَتِ السِّتُّونَ حَدًّا لِهَذَا؛ لِأَنَّهَا قَرِيبَةٌ مِنَ الْمُعْتَرَكِ، وَهِيَ سِنُّ الْإِنَابَةِ وَالْخُشُوعِ، وَتَرَقُّبِ المَنِيَّةِ، فَهَذَا إِعْذَارٌ بَعْدَ إِعْذَارٍ؛ لُطْفًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِعِبَادِهِ؛ حَتَّى نَقَلَهُمْ مِنْ حَالَةِ الْجَهْلِ إِلَى حَالَةِ الْعِلْمِ، ثُمَّ أَعْذَرَ إِلَيْهِمْ فَلَمْ يُعَاقِبْهُمْ إِلَّا بَعْدَ الْحُجَجِ الْوَاضِحَةِ، وَإِنْ كَانُوا فُطِرُوا عَلَى حُبِّ الدُّنْيَا، وَطُولِ الْأَمَلِ؛ لَكِنَّهُمْ أُمِرُوا بِمُجَاهَدَةِ النَّفْسِ فِي ذَلِكَ؛ لِيَمْتَثِلُوا مَا أُمِرُوا بِهِ مِنَ الطَّاعَةِ، وَيَنْزَجِرُوا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ مِنَ المَعْصِيَةِ»[٩].

وَرَأَى الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- رَجُلًا فَقَالَ: «كَمْ أَتَتْ عَلَيْكَ؟ قَالَ: سِتُّونَ سَنَةً، قَالَ: فَأَنْتَ مُنْذُ سِتِّينَ سَنَةً تَسِيرُ إِلَى رَبِّكَ يُوشِكُ أَنْ تَبْلُغَ، فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا أَبَا عَلِيٍّ، إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، قَالَ لَهُ الْفُضَيْلُ: تَعْلَمُ مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، قَالَ الْفُضَيْلُ: تَعْلَمُ مَا تَفْسِيرُهُ؟ قَالَ: فَسِّرْهُ

(٧) أخرجه البخاري في الرقاق، باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر (٦٥٦)، وأحمد (٢/ ٤١٧-٢٧٥-٣٢٠-٤٠٥)، وابن حبان (٢٩٧٩)، والحاكم (٢/ ٤٦٤)، والبيهقي (٣/ ٣٧٠)، والقضاعي في مسند الشهاب (٤٢٤).

(٨) ينظر: فتح الباري لابن حجر (١١/ ٢٤٠).

(٩) المصدر السابق (١١/ ٢٤٠).

لَنَا يَا أَبَا عَلِيٍّ، قَالَ: قَوْلُكَ: إِنَّا لِلَّهِ تَقُولُ: أَنَا لِلَّهِ عَبْدٌ، وَأَنَا إِلَى اللَّهِ رَاجِعٌ، فَمَنْ عَلِمَ أَنَّهُ عَبْدٌ لِلَّهِ، وَأَنَّهُ إِلَيْهِ رَاجِعٌ فَلْيَعْلَمْ بِأَنَّهُ مَسْؤُولٌ، وَمَنْ عَلِمَ أَنَّهُ مَسْؤُولٌ فَلْيُعِدَّ لِلسُّؤَالِ جَوَابًا، فَقَالَ الرَّجُلُ: فَمَا الْحِيلَةُ؟ قَالَ: يَسِيرَةٌ، قَالَ: مَا هِيَ؟ قَالَ: تُحْسِنُ فِيمَا بَقِيَ يُغْفَرُ لَكَ مَا مَضَى وَمَا بَقِيَ، فَإِنَّكَ إِنْ أَسَأْتَ فِيمَا بَقِيَ أُخِذْتَ بِمَا مَضَى وَمَا بَقِيَ» رَوَاهُ أَبُو نُعَيْمٍ(١٠).

وَمَنِ اسْتَكْمَلَ السِّتِّينَ وَدَخَلَ فِي السَّبْعِينَ فَقَدِ اقْتَرَبَ مِنْ أَجَلِهِ، وَقَلِيلٌ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَنْ يُجَاوِزُهَا؛ لِمَا رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه فَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَعْمَارُ أُمَّتِي مَا بَيْنَ السِّتِّينَ إِلَى سَبْعِينَ، وَأَقَلُّهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذَلِكَ**» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ(١١).

فَهَنِيئًا لِمَنْ جَاوَزَ ذَلِكَ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ، هَنِيئًا لَهُ ثُمَّ هَنِيئًا لَهُ!! كَمْ أَقَامَ مِنْ سَنَةٍ عَلَى التَّوْحِيدِ؟ وَكَمْ صَلَّى لِلَّهِ ﷻ؟ وَكَمْ صَامَ؟ وَكَم اسْتَغْفَرَ وَسَبَّحَ اللهَ تَعَالَى وَذَكَرَهُ وَهَلَّلَهُ وَدَعَاهُ؟ وَكَمْ أَتَى مِنْ نَوَافِلِ الْعِبَادَاتِ وَالصَّدَقَاتِ؟ لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ إِلَّا اللهُ ﷻ! إِنَّهُ لَيُغْبَطُ، وَإِنَّ حَظَّهُ لَكَبِيرٌ، وَإِنَّ الْخَيْرَ لَيُرْجَى لَهُ، يُقْدِمُ حِينَ يُقْدِمُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بِعُمُرٍ مَدِيدٍ، وَسَنَوَاتٍ طَوِيلَةٍ قَضَاهَا فِي تَوْحِيدِ رَبِّهِ وَطَاعَتِهِ.

---

(١٠) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ١١٣).

(١١) أخرجه الترمذي في الزهد، باب ما جاء في فناء أعمار هذه الأمة ما بين الستين إلى السبعين وقال: هذا حديث حسن غريب (٢٣٣١)، وابن ماجه في الزهد، باب الأمل والأجل (٤٢٣٦)، وأبو يعلى (٥٩٩٠)، والقضاعي في مسند الشهاب (٢٥٠)، والخطيب في تاريخ بغداد (٩/ ٤٣٠)، وصححه ابن حبان (٢٩٨٠)، والحاكم وقال: على شرط مسلم، ووافقه الذهبي (٢/ ٤٦٣)، وحسنه الحافظ في الفتح (١١/ ٢٤٠).

وجاء من حديث أنس رضي الله عنه عند أبي يعلى (٢٩٠٢)، وقال عنه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٠٦): «رواه أبو يعلى، وفيه شيخ لم يسم، وبقية رجاله رجال الصحيح».

عَنْ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- قَالَ: «دَخَلْنَا عَلَى أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ نَعُودُهُ، فَذَهَبَ بَعْضُ الْقَوْمِ يُرَجِّيهِ، فَقَالَ: إِنِّي لَأَرْجُو رَبِّي وَقَدْ صُمْتُ لَهُ ثَمَانِينَ رَمَضَانًا»(١٢).

إِنَّ انْقِضَاءَ الْعُمُرِ حَقِيقَةٌ يَعْلَمُهَا كُلُّ إِنْسَانٍ، وَإِنَّ بُلُوغَ الْعَبْدِ سِتِّينَ وَسَبْعِينَ وَثَمَانِينَ سَنَةً لَمُؤْذِنٌ بِاقْتِرَابِ أَجَلِهِ، وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ يَغُرُّ الْإِنْسَانَ، وَيُزَيِّنُ لَهُ طُولَ الْأَمَلِ، وَحُبَّ الدُّنْيَا؛ حَتَّى يَغْفُلَ عَنِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ.

وَيَكْثُرُ ذَلِكَ عِنْدَ أَهْلِ الْجَاهِ وَالمَالِ؛ فَإِنَّ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ يَشِيبُ رَأْسُهُ، وَيَحْدَوْدِبُ ظَهْرُهُ، وَتَكْثُرُ عِلَلُهُ، مِنْ طُولِ عُمُرِهِ، وَهُوَ يَتَصَابَى وَيَتَشَبَّبُ، لَا يُرِيدُ مُفَارَقَةَ جَاهِهِ، وَيَخَافُ عَلَى مَالِهِ، وَهُوَ مُفَارِقٌ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، طَالَ الزَّمَنُ أَمْ قَصُرَ.

وَكُلُّ شَيْءٍ يَكْبُرُ فِي ابْنِ آدَمَ وَيَشِيبُ وَيَهْرَمُ إِلَّا حُبَّهُ لِلدُّنْيَا، وَأَمَلَهُ فِيهَا؛ فَإِنَّ هَاتَيْنِ الْخَصْلَتَيْنِ تَظَلَّانِ شَابَّتَيْنِ فِي قَلْبِهِ وَلَوْ تَجَاوَزَ المِئَةَ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَا يَزَالُ قَلْبُ الْكَبِيرِ شَابًّا فِي اثْنَتَيْنِ: فِي حُبِّ الدُّنْيَا، وَطُولِ الْأَمَلِ**»، وَفِي رِوَايَةٍ: «**قَلْبُ الشَّيْخِ شَابٌّ عَلَى حُبِّ اثْنَيْنِ: طُولِ الحَيَاةِ وَحُبِّ المَالِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٣).

وَرَوَى أَنَسٌ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**يَكْبُرُ ابْنُ آدَمَ وَيَكْبُرُ مَعَهُ اثْنَانِ: حُبُّ المَالِ، وَطُولُ الْعُمُرِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٤).

---

(١٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله تعالى (١٢٧)، وذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة (٣/ ٥٨)، والمزي في تهذيب الكمال (١٤/ ٤٠٩).

(١٣) أخرجه البخاري في الرقاق، باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر (٦٠٥٧)، ومسلم في الزكاة، باب كراهة الحرص على الدنيا (١٠٤٦)، والرواية الأولى للبخاري، والثانية لمسلم.

(١٤) أخرجه البخاري في الرقاق، باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر (٦٠٥٨)، ومسلم في الزكاة، باب كراهة الحرص على الدنيا (١٠٤٧) واللفظ للبخاري.

وَسَبَبُ ذَلِكَ -وَاللهُ أَعْلَمُ- أَنَّ أَحَبَّ الْأَشْيَاءِ إِلَى ابْنِ آدَمَ نَفْسُهُ، فَهُوَ رَاغِبٌ فِي بَقَائِهَا؛ فَأَحَبَّ لِذَلِكَ طُولَ الْعُمُرِ، وَأَحَبَّ المَالَ؛ لِأَنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ فِي دَوَامِ الصِّحَّةِ الَّتِي يَنْشَأُ عَنْهَا غَالِبًا طُولُ الْعُمُرِ، فَكُلَّمَا أَحَسَّ بِقُرْبِ نَفَادِ ذَلِكَ اشْتَدَّ حُبُّهُ لَهُ، وَرَغْبَتُهُ فِي دَوَامِهِ(١٥).

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يُصْلِحَ قُلُوبَنَا وَأَعْمَالَنَا، وَأَنْ يُحْسِنَ خَوَاتِمَنَا، وَأَنْ يَجْعَلَنَا مِمَّنْ طَالَ عُمْرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ..

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ..

❀ ❀ ❀

الخُطْبَةُ الثّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ وَاعْمَلُوا صَالِحًا، وَاشْكُرُوهُ أَنْ بَلَّغَكُمْ رَمَضَانَ، وَأَعَانَكُمْ عَلَى الصِّيَامِ وَالْقِيَامِ، وَفَتَحَ لَكُمْ أَبْوَابَ الْإِحْسَانِ، وَاسْأَلُوهُ تَعَالَى قَبُولَ الْأَعْمَالِ؛ فَقَدْ كَانَ مِنْ دُعَاءِ السَّلَفِ الصَّالِحِ: «اللَّهُمَّ سَلِّمْنِي لِرَمَضَانَ وَسَلِّمْ لِي رَمَضَانَ وَتَسَلَّمْهُ مِنِّي مُتَقَبَّلًا»(١٦).

قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ فِي شَرْحِ مَعْنَاهُ: «سَلِّمْنِي لِرَمَضَانَ؛ أَيْ: لَا يُصِيبُنِي مَا يَحُولُ

---

(١٥) ينظر: فتح الباري لابن حجر (١١/ ٢٤١)، وتحفة الأحوذي (٧/ ١٢٨).

(١٦) أخرجه عن يحيى بن أبي كثير: أبو نعيم في الحلية (٣/ ٦٩).

بَيْنِي وَبَيْنَ صَوْمِهِ مِنْ مَرَضٍ أَوْ غَيْرِهِ، وَسَلِّمْهُ لِي: هُوَ أَنْ لَا يَغُمَّ عَلَيْهِ الْهِلَالُ فِي أَوَّلِهِ أَوْ آخِرِهِ، فَيَلْتَبِسَ عَلَيْهِ الصَّوْمُ وَالْفِطْرُ، وَتَسَلَّمْهُ مِنِّي؛ أَيْ: يَعْصِمُهُ مِنَ المَعَاصِي فِيهِ»(١٧).

وَإِنَّ مِنْ شُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى نِعْمَةِ إِدْرَاكِهِ وَصِيَامِهِ وَقِيَامِهِ: المُحَافَظَةَ عَلَى الْفَرَائِضِ عَقِبَهُ، وَإِتْبَاعَهَا بِمَا تَيَسَّرَ مِنَ النَّوَافِلِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ الدَّيْمُومَةِ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ الَّتِي كَانَتْ مِنْ هَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ؛ كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا عَمِلَ عَمَلًا أَثْبَتَهُ»(١٨)، وَسَبَبُ ذَلِكَ: «**أَنَّ أَحَبَّ الْعَمَلِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ**» كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها(١٩).

وَمِنْ دَاوَمَ عَلَى قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ طِيلَةَ شَهْرِ رَمَضَانَ فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُدَاوِمَ عَلَى ذَلِكَ طَوَالَ الْعَامِ، وَلَا يَهْجُرَ كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى رَمَضَانَ الْقَابِلِ.

وَمَنْ حَافَظَ عَلَى صَلَاةِ اللَّيْلِ فِي رَمَضَانَ فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُحَافِظَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ أَوَّلَ اللَّيْلِ أَوْ آخِرَهُ، بِحَسَبِ مَا يُيَسِّرُ اللهُ تَعَالَى لَهُ، وَلَا يَقْطَعُ ذَلِكَ.

وَمَنْ بَكَّرَ فِي رَمَضَانَ إِلَى المَسْجِدِ، وَانْتَظَرَ الْفَرِيضَةَ عَقِبَ الْفَرِيضَةِ؛ حَتَّى صَارَ قَلْبُهُ مُعَلَّقًا بِالمَسْجِدِ؛ فَإِنَّهُ قَادِرٌ عَلَى فِعْلِ ذَلِكَ فِي غَيْرِ رَمَضَانَ.

وَمَنْ وُقِيَ شُحَّ نَفْسِهِ فِي رَمَضَانَ؛ فَفَطَّرَ الصَّائِمِينَ، وَبَذَلَ شَيْئًا مِنْ مَالِهِ

---

(١٧) النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٣٩٥).

(١٨) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل، ومَنْ نَامَ عنه أو مرض (٧٤٦)، وأبو داود في الصلاة، باب ما يؤمر من القصد في الصلاة (١٣٦٨)، والنسائي في القبلة، باب المصلي يكون بينه وبين الإمام سترة (٢/ ٦٨).

(١٩) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها: البخاري في الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل (٦٠٩٩)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة الدائم من قيام الليل وغيره (٧٨٢).

لِلْمُحْتَاجِينَ، فَلِمَاذَا لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي غَيْرِ رَمَضَانَ؟!

وَمَنْ بَرَّ وَالِدَيْهِ، وَوَصَلَ أَرْحَامَهُ، وَأَحْسَنَ إِلَى جِيرَانِهِ، وَنَفَعَ إِخْوَانَهُ فِي رَمَضَانَ؛ فَإِنَّهُ قَادِرٌ عَلَى فِعْلِ ذَلِكَ طَوَالَ الْعَامِ، حَتَّى يَكُونَ عَامُهُ كُلُّه رَمَضَانَ فِي الْإِقْبَالِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ.

وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَإِنَّهُ لَا يَهَابُ الْمَوْتَ؛ لِأَنَّهُ مُحْسِنٌ، وَرَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ؛ وَلِأَنَّهُ مُسْتَعِدٌّ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ بِمَا قَامَ بِهِ مِنْ أَعْمَالٍ صَالِحَةٍ طِيلَةَ أَيَّامِهِ وَلَيَالِيهِ، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ تَعَالَى بِعَبْدِهِ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ فِي طَاعَتِهِ قَبْلَ وَفَاتِهِ؛ حَتَّى يَخْتِمَ لَهُ بِتِلْكَ الطَّاعَةِ الَّتِي يَسَّرَهَا اللهُ تَعَالَى لَهُ.

وَإِنَّ مِنَ الْخَيْرِ الْعَظِيمِ لِمَنْ صَامَ رَمَضَانَ أَنْ يَصُومَ سِتَّةَ أَيَّامٍ مِنْ شَوَّالٍ، سَوَاءً كَانَتْ مُتَتَابِعَةً أَمْ مُتَفَرِّقَةً؛ لِمَا رَوَى أَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ ﵁ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ صَامَ رَمَضَانَ ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ كَانَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[٢٠].

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَاعْمُرُوا أَوْقَاتَكُمْ بِطَاعَةِ اللَّهِ ﷻ، وَاسْعُوا فِيمَا يُرْضِيهِ، وَاشْكُرُوهُ عَلَى نِعَمِهِ..

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ..

❁ ❁ ❁

(٢٠) أخرجه مسلم في الصيام، باب استحباب صوم ستة أيام من شوال (١١٦٤)، وأبو داود في الصوم، باب صوم ستة أيام من شوال (٢٤٣٣)، والترمذي في الصوم، باب ما جاء في صيام ستة أيام من شوال (٧٥٩)، والنسائي في الكبرى (٢٨٦٢)، وابن ماجه في الصيام، باب صيام ستة أيام من شوال (١٧١٦).

٢٦٣- ماذا بعد رمضان؟ (٤)

١/ ١٠/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ ذِي الْعَرْشِ المَجِيدِ؛ يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَيُبْدِي وَيُعِيدُ، وَهُوَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ، نَحْمَدُهُ عَلَى جَزِيلِ عَطَائِهِ، وَعَظِيمِ مَنِّهِ، فَقَدْ أَحْسَنَ بِنَا إِذْ مَدَّ فِي أَعْمَارِنَا، وَمَتَّعَنَا بِقُوَّاتِنَا، حَتَّى بَلَّغَنَا نِهَايَةَ شَهْرِنَا، وَأَعَانَنَا فِي صِيَامِنَا وَقِيَامِنَا، فَلَهُ الْحَمْدُ لَا نُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْهِ كَمَا أَثْنَى هُوَ عَلَى نَفْسِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ وَسِعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ فَكَتَبَهَا لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَبْعَدَ عَنْهَا الْكَافِرِينَ ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٥٦].

وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ بَشَّرَنَا وَأَنْذَرَنَا، وَبَلَّغَنَا دِينَ رَبِّنَا، وَنَصَحَ لَنَا، وَأَشْفَقَ عَلَيْنَا، فَجَزَاهُ اللهُ تَعَالَى عَنَّا وَعَنِ الْمُسْلِمِينَ خَيْرَ الْجَزَاءِ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ كَانُوا يَسْتَبِقُونَ إِلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ اسْتِبَاقَ أَهْلِ الدُّنْيَا إِلَى دُنْيَاهُمْ، وَقَدْ جَعَلُوا زَمَانَهُمْ كُلَّهُ رَمَضَانَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَاجْتِنَابِ مَعْصِيَتِهِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- وَاعْتَبِرُوا بِمُرُورِ أَيَّامِكُمْ، وَانْقِضَاءِ شُهُورِكُمْ وَأَعْوَامِكُمْ؛ فَمَا ذَلِكُمْ وَاللَّهِ إِلَّا مِنْ أَعْمَارِكُمْ، وَلَنْ تَجِدُوا فِي قُبُورِكُمْ وَآخِرَتِكُمْ إِلَّا مَا قَدَّمْتُمْ فِي دُنْيَاكُمْ ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَـٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٠٠-٢٠٢].

أَيُّهَا النَّاسُ: إِنْ كَانَ رَمَضَانُ قَدِ انْقَضَى بِمَا أَوْدَعَ الْعِبَادُ فِيهِ مِنْ أَعْمَالِهِمْ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَنْقَضِي عَمَلُهُ إِلَّا بِالمَوْتِ، وَيُكْتَبُ عَلَيْهِ فِيمَا بَقِيَ مِنْ عُمُرِهِ مَا عَمِلَ مِنْ خَيْرٍ وَمِنْ شَرٍّ؛ وَلِذَا أَمَرَنَا رَبُّنَا جَلَّ جَلَالُهُ بِأَنْ نَجْعَلَ نِهَايَةَ سَعْيِنَا المَوْتَ، فَلَا يُوقِفُنَا عَنِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ إِلَّا هُوَ ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الْحِجْر: ٩٩].

وَأَهْلُ الْإِيمَانِ يَتَزَوَّدُونَ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، كَمَا أَنَّ أَهْلَ الْفُجُورِ وَالْعِصْيَانِ يُكْتَبُ عَلَيْهِمْ مَا يَعْمَلُونَ مِنْ سَيِّئَاتٍ، رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[١].

فَأَخْبَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ المَوْتَ هُوَ قَاطِعُ الْعَمَلِ، وَلَيْسَ انْتِهَاءُ شَهْرِ رَمَضَانَ كَمَا يَفْعَلُهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، يَهْجُرُونَ الْقُرْآنَ وَالمَسَاجِدَ بَعْدَ رَمَضَانَ.

وَلِأَجْلِ أَنَّ عَمَلَ الْإِنْسَانِ لَا يَنْقَطِعُ إِلَّا بِمَوْتِهِ كَانَ طُولُ عُمْرِ المُؤْمِنِ خَيْرًا لَهُ لِتَزَوُّدِهِ مِنَ الطَّاعَاتِ، وَاكْتِسَابِهِ الْحَسَنَاتِ، فَكُرِهَ فِي حَقِّهِ أَنْ يَتَمَنَّى المَوْتَ أَوْ يَدْعُوَ عَلَى نَفْسِهِ بِهِ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَا يَتَمَنَّى أَحَدُكُمُ المَوْتَ، وَلَا يَدْعُ بِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُ؛ إِنَّهُ إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ، وَإِنَّهُ لَا يَزِيدُ المُؤْمِنَ عُمْرُهُ إِلَّا خَيْرًا**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[٢].

وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنَ المُسْلِمِينَ فِي غَفْلَةٍ عَنْ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الْعَظِيمَةِ، وَمَا تَحْوِيهِ

---

(١) أخرجه مسلم في الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته (١٦٣١)، وأبو داود في الوصايا، باب ما جاء في الصدقة عن الميت (٣٨٨٠)، والترمذي في الأحكام، باب في الوقف (١٣٧٦)، والنسائي في الوصايا، باب فضل الصدقة عن الميت (٦/ ٢٥١)، وأحمد (٢/ ٣٧٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٨).

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة، باب كراهة تمني الموت لضر نزل به (٢٦٨٢)، وأحمد (٢/ ٣١٦)، وابن حبان (٣٠١٥)، والبيهقي (٣/ ٣٧٧)، والبغوي في شرح السنة (١٤٤٦).

مِنْ مَعَانٍ جَلِيلَةٍ، فَلَا يَعْرِفُونَ مِنْ نِعْمَةِ بَقَائِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَمَدِّ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ فِي أَعْمَارِهِمْ إِلَّا أَنَّهُمْ بَقُوا لِلتَّمَتُّعِ بِالشَّهَوَاتِ، وَجَمْعِ الْحُطَامِ، وَالتَّكَاثُرِ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، وَالْعَمَلِ لِلدُّنْيَا وَهِيَ تَفْنَى، وَهُمْ عَنْهَا زَائِلُونَ، مَعَ تَفْرِيطِهِمْ فِي عَمَلِ الْآخِرَةِ وَهِيَ تَبْقَى، وَهُمْ فِيهَا مُخَلَّدُونَ؛ فَاجْتَهَدُوا فِيمَا كُفُوا، وَغَفَلُوا عَمَّا كُلِّفُوا.

إِنَّ اللهَ ﷻ لَا تَنْفَعُهُ طَاعَتُنَا، وَلَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَتُنَا، كَيْفَ وَهُوَ الْغَنِيُّ عَنَّا؟! وَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «**يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[٣]. وَفِي التَّنْزِيلِ: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ﴾ [الزُّمَر: ٧].

وَهُوَ ﷻ غَنِيٌّ عَنْ تَعْذِيبِنَا وَإِرْهَاقِنَا؛ وَلِذَا اخْتَارَ لَنَا مِنَ الدِّينِ أَحْكَمَهُ وَأَحْسَنَهُ وَأَيْسَرَهُ ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المَائِدَة: ٦]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ﴾ [الْحَجّ: ٧٨].

وَلَمْ يُكَلِّفْنَا ﷻ مِنَ الْأَعْمَالِ مَا لَمْ نُطِقْ، دَعَاهُ الْمُؤْمِنُونَ فَقَالُوا: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٨٦]، فَقَالَ ﷻ: «**قَدْ فَعَلْتُ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[٤].

وَقَالَ نَبِيُّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ خُذُوا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ؛ فَإِنَّ اللهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا، وَإِنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ مَا دَامَ وَإِنْ قَلَّ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رضي الله عنها[٥].

وَكَمَا أَنَّهُ ﷻ لَمْ يُعَذِّبِ الْبَشَرَ فِي الدُّنْيَا إِلَّا بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيهِمْ، وَمَا يَعْفُو عَنْهُ

---

(٣) أخرجه من حديث أبي ذر رضي الله عنه: مسلم في البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٢٧٥٥).

(٤) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: مسلم في الإيمان، باب بيان أنه ﷻ لم يكلف إلا ما يطاق (١٢٦)، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة البقرة (٢٩٩٢)، وأحمد (١/ ٢٣٣).

(٥) أخرجه البخاري في الصوم، باب صوم شعبان (١٩٧٠)، ومسلم في الصيام، باب صيام النبي ﷺ في غير رمضان (٧٨٢).

أَكْثَرُ مِمَّا يُؤَاخِذُهُمْ بِهِ؛ فَكَذَلِكَ لَا يُعَذِّبُهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا بِمَا اقْتَرَفُوا، وَمَا يَتَجَاوَزُ عَنْهُ أَكْثَرُ مِمَّا يُؤَاخِذُ بِهِ: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النِّسَاء: ١٤٧].

وَلِذَا كَانَ ﷻ شَدِيدَ الْفَرَحِ بِتَوْبَةِ مَنْ يَتُوبُ مِنْ عِبَادِهِ؛ لِغِنَاهُ عَنْ تَعْذِيبِهِمْ، وَإِرَادَتِهِ الْخَيْرَ وَالْفَلَاحَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ فِي أَرْضٍ دَوِّيَّةٍ مَهْلِكَةٍ، مَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَنَامَ فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ، فَطَلَبَهَا حَتَّى أَدْرَكَهُ الْعَطَشُ، ثُمَّ قَالَ: أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِي الَّذِي كُنْتُ فِيهِ فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ، وَعَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَاللهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٦).

وَهُوَ سُبْحَانَهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَأَسْرَعُ إِلَى عِبَادِهِ إِذَا أَقْبَلُوا عَلَيْهِ مِنْ سُرْعَتِهِمْ إِلَيْهِ، وَقَدْ كَتَبَ ﷻ أَنَّ رَحْمَتَهُ تَسْبِقُ غَضَبَهُ، رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا**

---

(٦) أخرجه مسلم في التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها (٢٧٤٤).
قال الحميدي: الأرض الدوية: المستوية إلى الدو، وهي المفازة والقفر التي يخاف فيها الهلاك لبعدها عن العمران. تفسير غريب ما في الصحيحين (٦٥) ومثله في كشف المشكل لابن الجوزي (١/ ٢٨٧).
وقال البغوي في شرح السنة: الدوية والداوية: اسم للمفازة الملساء التي يسمع فيها الدوي وهو الصوت. (٥/ ٨٥).
وقال النووي في شرح مسلم: قال أهل اللغة: الدوية: الأرض القفر والفلاة الخالية، قال الخليل: هي المفازة، قالوا: ويقال: دوية وداوية، فأما الدوية فمنسوب إلى الدوّ -بتشديد الواو- وهي البرية التي لا نبات بها، وأما الداوية فهي على إبدال إحدى الواوين ألفًا كما قيل في النسب إلى طي طائي (١٧/ ٦١).

ذَكَرَنِي؛ فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ. وَفِي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ: «**إِنَّ اللهَ قَالَ: إِذَا تَلَقَّانِي عَبْدِي بِشِبْرٍ تَلَقَّيْتُهُ بِذِرَاعٍ، وَإِذَا تَلَقَّانِي بِذِرَاعٍ تَلَقَّيْتُهُ بِبَاعٍ، وَإِذَا تَلَقَّانِي بِبَاعٍ جِئْتُهُ -أَوْ قَالَ: أَتَيْتُهُ- بِأَسْرَعَ**»[٧].

فَلِمَاذَا لَا نُقْبِلُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَهُوَ يُرِيدُنَا؟! وَلِمَاذَا نَفِرُّ مِنْ عِبَادَتِهِ بَعْدَ رَمَضَانَ وَلَا مَفَرَّ لَنَا مِنْهُ إِلَّا إِلَيْهِ؟!

لَقَدْ أَقْبَلْنَا عَلَيْهِ فِي رَمَضَانَ بِقُلُوبِنَا، وَاجْتَهَدْنَا فِي أَعْمَالِنَا، وَلَازَمْنَا مَسَاجِدَنَا، وَلَمْ تُفَارِقْنَا مَصَاحِفُنَا، وَرَأَيْنَا صَلَاحًا فِي قُلُوبِنَا، وَوَجَدْنَا لَذَّةً عَظِيمَةً لَمْ نَجِدْهَا فِي أَيِّ شَيْءٍ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا، أَتُرَانَا بَعْدَ رَمَضَانَ نُفَارِقُ ذَلِكَ، وَنَبْتَعِدُ عَنْهُ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ رَبَّنَا أَسْرَعُ إِلَيْنَا مِنْ سُرْعَتِنَا إِلَيْهِ؟! وَنَحْرِمُ أَنْفُسَنَا لَذَّةَ عِبَادَتِهِ وَطَاعَتِهِ، وَالِانْكِسَارِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَالِافْتِقَارِ إِلَيْهِ، وَنَحْنُ الْفُقَرَاءُ إِلَيْهِ وَهُوَ الْغَنِيُّ عَنَّا؟!

قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ لِأَبِي يُوسُفَ الْغَسُولِيِّ: «يَا أَبَا يُوسُفَ، لَوْ عَلِمَ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ مَا نَحْنُ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ وَالسُّرُورِ لَجَالَدُونَا بِالسُّيُوفِ أَيَّامَ الْحَيَاةِ عَلَى مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ لَذِيذِ الْعَيْشِ وَقِلَّةِ التَّعَبِ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا إِسْحَاقَ، طَلَبَ الْقَوْمُ الرَّاحَةَ وَالنَّعِيمَ فَأَخْطَئُوا الطَّرِيقَ الْمُسْتَقِيمَ»[٨].

وَمَنْ تَأَمَّلَ حَالَنَا، وَقَارَنَهُ بِحَالِ سَلَفِنَا الصَّالِحِ عَجِبَ مِنْ ذَلِكَ؛ إِذْ نُعْجَبُ بِقَلِيلِ عَمَلِنَا، وَتَزْهُو نُفُوسُنَا، وَلَا نَخَافُ الرَّدَّ وَعَدَمَ الْقَبُولِ!!

---

(٧) أخرجه البخاري في التوحيد، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨] (٧٤٠٥) ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة، باب الحث على ذكر الله تعالى (٢٦٧٥).

(٨) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٧/ ٣٧١)، والبيهقي في الزهد الكبير (٨٠)، والخطيب في الزهد والرقائق (١١٥)، وابن عساكر (٦/ ٣٦٦).

أَمَّا سَلَفُنَا الصَّالِحُ؛ فَمَعَ كَثْرَةِ عَمَلِهِمْ، وَشِدَّةِ اجْتِهَادِهِمْ يَخَافُونَ مِنْ عَدَمِ الْقَبُولِ، وَيَدْعُونَ اللهَ تَعَالَى سِتَّةَ أَشْهُرٍ أَنْ يُبَلِّغَهُمْ رَمَضَانَ، فَإِذَا بَلَّغَهُمْ إِيَّاهُ دَعَوْهُ سِتَّةَ أَشْهُرٍ أَنْ يَتَقَبَّلَهُ مِنْهُمْ[٩]، وَحَقَّ فِيهِمْ وَفِي أَمْثَالِهِمْ وَصْفُ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المُؤْمِنُون: ٥٧-٦١].

وَرِضَا الْعَبْدِ بِطَاعَتِهِ دَلِيلٌ عَلَى حُسْنِ ظَنِّهِ بِنَفْسِهِ، وَجَهْلِهِ بِحُقُوقِ الْعُبُودِيَّةِ، وَعَدَمِ عِلْمِهِ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ وَبِمَا يَلِيقُ أَنْ يُعَامَلَ بِهِ.

يَقُولُ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «الرِّضَا بِالطَّاعَةِ مِنْ رُعُونَاتِ النَّفْسِ وَحَمَاقَتِهَا، وَأَرْبَابُ الْعَزَائِمِ وَالْبَصَائِرِ أَشَدُّ مَا يَكُونُونَ اسْتِغْفَارًا عُقَيبَ الطَّاعَاتِ؛ لِشُهُودِهِمْ تَقْصِيرَهُمْ فِيهَا، وَتَرْكِ الْقِيَامِ لِلَّهِ بِهَا كَمَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَكِبْرِيَائِهِ»[١٠].

فَحَذَارِ -يَا عِبَادَ اللَّهِ- أَنْ تَغْتَرُّوا بِعَمَلِكُمْ فِي رَمَضَانَ، وَتَتْرُكُوا الْعَمَلَ بَعْدَهُ؛ فَحَرِيٌّ بِالطَّاعَةِ الْمُتَقَبَّلَةِ أَنْ تَقُودَ إِلَى طَاعَةٍ أُخْرَى، وَيُخْشَى مِنَ الْمَعْصِيَةِ أَنْ تُوَلِّدَ مَعْصِيَةً أُخْرَى.

جَعَلَنَا اللهُ تَعَالَى مِنْ أَهْلِ الطَّاعَةِ وَالِاسْتِقَامَةِ، وَخَلَفَ عَلَيْنَا رَمَضَانَ بِخَيْرٍ، وَتَقَبَّلَ مِنَّا الصِّيَامَ وَالْقِيَامَ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ ....



---

(٩) قال معلى بن الفضل: «كانوا يدعون الله تعالى ستة أشهر أن يبلغهم رمضان، ويدعونه ستة أشهر أن يتقبل منهم» لطائف المعارف (١٤٨).

(١٠) مدارج السالكين (١/ ١٧٥).

الخُطبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [الْحَشْر: ١٨، ١٩].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: اشْكُرُوا اللهَ تَعَالَى عَلَى مَا مَنَّ بِهِ عَلَيْكُمْ مِنْ صِيَامِ رَمَضَانَ وَقِيَامِهِ، وَالْهَجُوا بِدُعَائِهِ أَنْ يَتَقَبَّلَ أَعْمَالَكُمْ، وَأَنْ يُصْلِحَ قُلُوبَكُمْ؛ فَإِنَّ اللهَ ﷻ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَجْسَامِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ.

وَاشْكُرُوهُ ﷻ إِذْ هَدَاكُمْ لِلْعِيدَيْنِ الشَّرْعِيَّيْنِ، وَقَدْ ضَلَّ عَنْهُمَا أَكْثَرُ الْبَشَرِ، وَمِنْ شُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ الِاقْتِصَارُ عَلَى الْعِيدَيْنِ الشَّرْعِيَّيْنِ: الْفِطْرِ وَالْأَضْحَى، مَعَ عِيدِ الْجُمْعَةِ الْأُسْبُوعِيِّ، وَعَدَمُ إِحْدَاثِ أَعْيَادٍ أُخْرَى، أَوِ الْمُشَارَكَةِ فِيهَا، مَهْمَا كَانَتْ مُنَاسَبَتُهَا، وَمَهْمَا زَيَّنَهَا الْمُزَخْرِفُونَ، وَسَوَّغَهَا الْمُسَوِّغُونَ؛ فَإِنَّ الْأَعْيَادَ مِنَ الشَّرَائِعِ، وَلَا يَحِلُّ لِلنَّاسِ أَنْ يَبْتَدِعُوا الشَّرَائِعَ، وَإِنَّمَا تُؤْخَذُ الشَّرَائِعُ مِنْ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى: مِنْ كِتَابِهِ ﷻ، أَوْ مِنْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَإِلَّا كَانَ ذَلِكَ افْتِيَاتًا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي شَرْعِ شَيْءٍ لَمْ يَأْذَنْ بِهِ.

وَقَدْ ذَمَّ اللهُ تَعَالَى الْمُشْرِكِينَ بِمَا يُشَرِّعُونَ لِأَنْفُسِهِمْ وَأَتْبَاعِهِمْ مِنَ الشَّرَائِعِ وَالْمَنَاسِكِ: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [الشُّورَى: ٢١]، وَأَخْبَرَ ﷻ أَنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ شَرِيعَتَهَا وَمَنْهَجَهَا: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا

مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المَائِدَة: ٤٨].

وَشَرِيعَةُ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَأَتْبَاعِهِ هِيَ شَرِيعَةُ الْإِسْلَامِ، وَالْإِسْلَامُ فِي بَابِ الْأَعْيَادِ قَدْ فَرَضَ الْعِيدَيْنِ الشَّرْعِيَّيْنِ، مَعَ عِيدِ الْجُمُعَةِ، وَأَبْطَلَ مَا سِوَاهَا مِنَ الْأَعْيَادِ؛ فَلَا يَحِلُّ أَنْ يَتَّخِذَ الْمُسْلِمُونَ أَعْيَادًا غَيْرَهُمَا، وَلَا أَنْ يَسْتَبْدِلُوا بِهِمَا سِوَاهُمَا، وَإِلَّا كَانَ ذَلِكَ مِنْ كُفْرِ نِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى مَا هَدَانَا لِلْعِيدَيْنِ الْكَبِيرَيْنِ، وَهُوَ مِنَ اسْتِبْدَالِ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَذَلِكَ سَبَبُ انْدِرَاسِ الشَّرِيعَةِ، وَغُرْبَةِ الدِّينِ، وَسِيَادَةِ الْجَهْلِ، وَتَحَكُّمِ الْهَوَى، كَمَا هُوَ وَاقِعٌ فِي كَثِيرٍ مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ تَهَاوَنُوا فِي مَسْأَلَةِ الِابْتِدَاعِ فِي الدِّينِ؛ حَتَّى حَلَّتِ الْبِدْعَةُ مَحَلَّ السُّنَّةِ، وَالضَّلَالُ مَكَانَ الْهُدَى، وَالْجَهْلُ بَدَلَ الْعِلْمِ، نَسَالُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يُبَصِّرَنَا بِالْحَقِّ، وَأَنْ يُعِينَنَا عَلَى الْتِزَامِهِ.

وَمِنْ شُكْرِ نِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْعِيدِ: اجْتِنَابُ الْمُنْكَرَاتِ مِنَ الْغِنَاءِ وَالمَعَازِفِ وَالِاخْتِلَاطِ، وَتَبَرُّجِ النِّسَاءِ وَسُفُورِهِنَّ، وَبُرُوزِهِنَّ فِي الْأَمَاكِنِ الْعَامَّةِ بِأَبْهَى حُلَّةٍ، فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ فِتْنَةٌ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ، قَدْ تَنْتِجُ عَنْهُ الْفَوَاحِشُ الَّتِي عُذِّبَتْ بِهَا بَعْضُ الْأُمَمِ قَبْلَنَا.

وَقَدْ أَمَرَنَا اللهُ تَعَالَى بِشُكْرِهِ فِي هَذَا الْيَوْمِ الْعَظِيمِ ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٨٥]، وَكَيْفَ يُشْكَرُ اللهُ تَعَالَى بِمُخَالَفَةِ أَمْرِهِ، وَإِتْيَانِ نَهْيِهِ فِي هَذَا الْيَوْمِ الَّذِي شَرَعَهُ لَنَا عِيدًا، وَأَمَرَنَا بِشُكْرِهِ ﷻ فِيهِ.

وَإِنَّ مِنْ تَمَامِ الْعَهْدِ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى: الْمُحَافَظَةَ عَلَى فَرَائِضِهِ بَعْدَ رَمَضَانَ، وَعَدَمَ التَّفْرِيطِ فِيهَا، وَإِتْبَاعَهَا بِالنَّوَافِلِ الَّتِي تُكْمِلُ نَقْصَهَا، وَتُرَقِّعُ خُرُوقَهَا، وَذَلِكَ مِنْ عَلَامَاتِ الْقَبُولِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى، وَمَا صَامَ الْمُؤْمِنُ وَقَامَ لِلَّهِ تَعَالَى إِلَّا وَهُوَ يَرْجُو الْقَبُولَ، فَلْيَأْخُذْ بِأَسْبَابِهِ، وَلَا يَنْكُصْ عَلَى عَقِبَيْهِ.

وَقَدْ حَثَّنَا نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى صِيَام سِتَّةِ أَيَّام مِنْ شَوَّالٍ عَقِبَ رَمَضَانَ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ صَامَ رَمَضَانَ ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ كَانَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(١١)].

وَعَنْ ثَوْبَانَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ صَامَ رَمَضَانَ فَشَهْرٌ بِعَشَرَةِ أَشْهُرٍ، وَصِيَامُ سِتَّةِ أَيَّامٍ بَعْدَ الْفِطْرِ فَذَلِكَ تَمَامُ صِيَامِ السَّنَةِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ[(١٢)].

فَاحْرِصُوا -رَحِمَكُمُ اللهُ تَعَالَى- عَلَى صِيَامِهَا مُجْتَمِعَةً أَوْ مُتَفَرِّقَةً، فِي أَوَّلِ الشَّهْرِ أَوْ وَسْطِهِ أَوْ آخِرِهِ، فَأَيًّا مَا فَعَلَ الْمُسْلِمُ مِنْ ذَلِكَ أَجْزَأَهُ، وَاسْتَحَقَّ الْأَجْرَ الْمُرَتَّبَ عَلَيْهَا إِنْ قَبِلَ اللهُ تَعَالَى مِنْهُ.

وَمَنْ كَانَ عَلَيْهِ قَضَاءُ أَيَّام مِنْ رَمَضَانَ فَلَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَصُومَهَا حَتَّى يَقْضِيَ مَا عَلَيْهِ، وَيُبْرِئَ ذِمَّتَهُ مِنْ فَرِيضَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْفَرَائِضُ تُقَدَّمُ عَلَى النَّوَافِلِ.

وَاخْتِمُوا شَهْرَكُمْ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَكْثِرُوا مِنَ الِاسْتِغْفَارِ، وَسَلُوا اللهَ تَعَالَى الْقَبُولَ؛ فَإِنَّ الْمُعَوَّلَ عَلَيْهِ فِي الْأَعْمَالِ قَبُولُهَا، وَلَا تَغْتَرُّوا بِعَمَلِكُمْ، وَلَا تُسِيئُوا الظَّنَّ بِرَبِّكُمْ، وَكُونُوا بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، تَرْجُونَ رَبَّكُمْ، وَتَخَافُونَ تَقْصِيرَكُمْ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . .

❁ ❁ ❁

---

(١١) أخرجه مسلم في الصيام، باب استحباب صوم ستة أيام من شوال إتباعًا لرمضان (١١٦٤).

(١٢) أخرجه ابن ماجه في الصيام، باب صيام ستة أيام من شوال (١٧١٥)، والنسائي في الكبرى (٢٨٦٠-٢٨٦١)، وأحمد (٥/ ٢٨٠)، والدارمي (١٧٥٥)، وصححه ابن خزيمة (٢١١٥) وابن حبان (٣٦٣٥).

٢٦٤- العشر والحج والأضحية

٣/ ١٢/ ١٤١٤هـ

الْحَمْدُ للَّهِ، جَعَلَ الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا، وَافْتَرَضَ فِي الْعُمْرِ إِلَيْهِ عُمْرَةً وَحَجًّا، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ يُجِيبُ الدَّعَوَاتِ، وَيَمْحُو السَّيِّئَاتِ، وَيَرْفَعُ الدَّرَجَاتِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَفْضَلُ مَنْ طَافَ بِالْبَيْتِ وَسَكَبَ الْعَبَرَاتِ، وَبَاتَ بِمِنًى وَوَقَفَ بِعَرَفَاتٍ، وَنَحَرَ الْهَدْيَ وَرَمَى الْجَمَرَاتِ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى جَاهَدُوا فِي كُلِّ فَجٍّ، وَأَقَامُوا شَعَائِرَ الْمَنَاسِكِ وَالْحَجِّ، وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ.

أَمَّا بَعْدُ: فَيَا أَيُّهَا النَّاسُ: اتَّقُوا اللهَ ﷻ، فَنُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مُتَضَافِرَةٌ عَلَى وُجُوبِ التَّقْوَى، وَالْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ وَالْأُضْحِيَّةُ مِنْ سُبُلِ التَّقْوَى ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: دِينُ الْإِسْلَامِ دِينٌ يُحِبُّ الْأُلْفَةَ وَالِاجْتِمَاعَ، وَيَكْرَهُ التَّفَرُّقَ وَالِاخْتِلَافَ، يَحْرِصُ عَلَى تَوْطِيدِ الْعَلَاقَاتِ، وَتَوْثِيقِ الصِّلَاتِ، وَيَقْطَعُ كُلَّ طَرِيقٍ يُؤَدِّي إِلَى التَّنَاحُرِ وَالتَّبَاغُضِ.

يَتَجَلَّى ذَلِكَ وَيَظْهَرُ فِي الِاجْتِمَاعَاتِ الْمُصَغَّرَةِ وَالْمُكَبَّرَةِ، وَالْقَصِيرَةِ وَالْمُطَوَّلَةِ الَّتِي أَسَّسَهَا الْإِسْلَامُ وَدَعَا إِلَيْهَا، وَجَعَلَهَا عِبَادَةً يَتَقَرَّبُ النَّاسُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِهَا؛ فَالصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ اجْتِمَاعٌ لِأَصْحَابِ الْحَيِّ الْوَاحِدِ، يَتَعَارَفُونَ وَيَتَآلَفُونَ، وَعَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى يَجْتَمِعُونَ، فَيَجْمَعُهُمْ مَسْجِدُهُمْ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ فِي دَقَائِقَ مَعْدُودَةٍ، وَشَعَائِرَ مِنَ الدِّينِ مَعْلُومَةٍ، تُخْتَمُ هَذِهِ الِاجْتِمَاعَاتُ الْمُبَارَكَةُ

بِيَوْمٍ عَظِيمٍ مُبَارَكٍ هُوَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، حَيْثُ تَجْتَمِعُ جَمَاعَاتُ المَسَاجِدِ فِي المَسْجِدِ الْجَامِعِ، فَتُلْقَى فِيهِ خُطْبَةٌ، وَتُسْمَعُ مَوْعِظَةٌ، وَتُذْكَرُ وَصِيَّةٌ، وَفِي آخِرِهِ سَاعَةُ إِجَابَةٍ، يُجَابُ فِيهَا دَاعٍ، وَيُغْفَرُ لِمُسْتَغْفِرٍ، وَهَكَذَا فِي كُلِّ أُسْبُوعٍ، حَتَّى يَجْتَمِعَ أَهْلُ الْبَلَدِ كُلُّهُمْ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ مَرَّةً فِي الْفِطْرِ وَأُخْرَى فِي الْأَضْحَى، يَتَفَقَّدُونَ أَحْوَالَهُمْ، وَيَسْتَمِعُونَ إِلَى تَوْجِيهَاتِ أَئِمَّتِهِمْ وَعُلَمَائِهِمْ، فَيُغَادِرُونَ مُصَلَّاهُمْ وَقَدْ صَفَتْ نُفُوسُهُمْ، وَطَهُرَتْ قُلُوبُهُمْ، وَأُزِيلَتِ الشَّحْنَاءُ وَالْبَغْضَاءُ، وَحَلَّ الْوُدُّ وَالْإِخَاءُ.

ثُمَّ يَحْضُرُ المُسْلِمُونَ مِنْ كُلِّ أَقْطَارِ الْأَرْضِ بِلِبَاسٍ وَاحِدٍ، وَإِلَى وِجْهَةٍ وَاحِدَةٍ، وَمَنَاسِكَ وَاحِدَةٍ، قَدْ زَالَتْ عَنْهُمُ الطَّبَقِيَّاتُ وَالْحِزْبِيَّاتُ، وَتَلَاشَى التَّعَالِي وَالتَّفَاضُلُ إِلَّا بِالتَّقْوَى، أَعْلَنَ ذَلِكَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ فَقَالَ: **«يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى»**[1].

فِي الْحَجِّ -أَيُّهَا الْإِخْوَةُ- تَتَجَلَّى المُسَاوَاةُ، وَتَزُولُ الْفَوَارِقُ، لَيْسَ لِلْمُلُوكِ

(١) أخرجه عن أبي نضرة العبدي عن رجل من الصحابة ﷺ: أحمد (٥/ ٤١١)، وابن المبارك في مسنده (٢٣٩)، وصححه ابن تيمية في الاقتضاء (١/ ٤١٢)، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٧٠٠) وقال عن رواية أحمد: وهذا إسناد صحيح، رجاله كلهم ثقات رجال مسلم غير من سمع خطبته ﷺ، فإنه لم يسم، وذلك مما لا يضر؛ لأنه صحابي، والصحابة كلهم عدول كما هو مقرر في علم مصطلح الحديث. اهـ.

وأخرجه عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أبو الشيخ الأصبهاني في التوبيخ والتنبيه (٢٥٠).

وأخرجه عن أبي نضرة عن جابر رضي الله عنه: أبو نعيم في الحلية (٣/ ١٠٠)، والبيهقي في الشعب (٥١٣٧).

وَالْأُمَرَاءِ، وَلَا لِلشُّرَفَاءِ وَالْأَغْنِيَاءِ مَنَاسِكُ غَيْرَ مَنَاسِكِ النَّاسِ، وَلَا لِبَاسُهُمْ يَخْتَلِفُ عَنْ لِبَاسِ غَيْرِهِمْ، الْكُلُّ سَوَاسِيَةٌ، وَالدَّرَجَاتُ الْعُلَى وَالْفَوْزُ الْعَظِيمُ لِأَخْلَصِهِمْ وَأَتْقَاهُمْ لِلَّهِ ﷻ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: يَنْبَغِي لِمَنْ أَرَادَ الْحَجَّ أَنْ يَتُوبَ إِلَى اللَّهِ ﷻ مِنْ جَمِيعِ الذُّنُوبِ، فَلَعَلَّهُ لَا يَرْجِعُ بَعْدَ حَجِّهِ، وَيَجِبُ أَنْ يَخْتَارَ مِنْ مَالِهِ الْحَلَالِ مَا يَكُونُ زَادًا وَمَعُونَةً لَهُ فِي حَجِّهِ، وَلَا يَجُوزُ الْحَجُّ بِالمَالِ الْحَرَامِ، فَاللهُ تَعَالَى طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَخْتَارَ الرُّفْقَةَ الطَّيِّبَةَ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَطَلَبَةِ الْعِلْمِ، وَأَنْ يُجَاهِدَ نَفْسَهُ عَلَى الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَإِذَا وَصَلَ المِيقَاتَ أَحْرَمَ وَسَمَّى نُسُكَهُ الَّذِي يُرِيدُ، وَإِنْ نَسِيَ فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ النِّيَّةَ تَكْفِيهِ، ثُمَّ يُكْثِرُ مِنَ التَّلْبِيَةِ حَتَّى يَصِلَ إِلَى الْبَيْتِ، فَيَطُوفُ طَوَافَ الْقُدُومِ، وَيَسْعَى الْمُتَمَتِّعُ لِلْعُمْرَةِ ثُمَّ يُقَصِّرُ شَعْرَهُ وَيُحِلُّ إِحْرَامَهُ. أَمَّا المُفْرِدُ وَالْقَارِنُ فَيَبْقَيَانِ عَلَى إِحْرَامِهِمَا.

ثُمَّ إِذَا كَانَ يَوْمُ التَّرْوِيَةِ، وَهُوَ الْيَوْمُ الثَّامِنُ، أَحْرَمَ الْمُتَمَتِّعُ بِالْحَجِّ مِنْ مَكَانِهِ الَّذِي هُوَ فِيهِ، وَذَهَبَ إِلَى مِنًى فَيَبِيتُ بِهَا لَيْلَةَ التَّاسِعِ، وَكَذَا الْمُفْرِدُ وَالْقَارِنُ، يَقْصُرُ الرُّبَاعِيَّةَ وَلَا يَجْمَعُ، فَإِذَا أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ يَوْمَ التَّاسِعِ يَذْهَبُ الْحُجَّاجُ إِلَى عَرَفَاتٍ فَيُصَلُّونَ بِهَا الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ قَصْرًا وَجَمْعَ تَقْدِيمٍ بَعْدَ الزَّوَالِ، وَيَتَفَرَّغُونَ لِلذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ وَالِانْكِسَارِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ ﷻ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَرِيبٌ مِنْهُمْ، رَوَتْ عَائِشَةُ ﵂ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُعْتِقَ اللهُ فِيهِ عَبْدًا مِنَ النَّارِ، مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَإِنَّهُ لَيَدْنُو، ثُمَّ يُبَاهِي بِهِمُ المَلَائِكَةَ، فَيَقُولُ: مَا أَرَادَ هَؤُلَاءِ؟**»[٢].

وَفِي حَدِيثٍ مُرْسَلٍ: «**أَفْضَلُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَأَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا**

(٢) أخرجه مسلم في الحج، باب في فضل الحج والعمرة، ويوم عرفة (١٣٤٨).

وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ»[٣].

(٣) أخرجه مرسلًا من حديث طلحة بن عبد الله بن كريز: مالك (٥٠٠)، وعبد الرزاق (٨١٢٥)، والبيهقي في الدعوات الكبير، وقال عقبه: وقد روي من حديث مالك بإسناد آخر موصولًا، وهو ضعيف، والمرسل هو المحفوظ (٤٦٨).
وأخرجه موصولًا من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: الترمذي في الدعوات، باب في دعاء يوم عرفة، وضعفه الترمذي، فقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه، وحماد بن أبي حميد هو: محمد بن أبي حميد، وهو أبو إبراهيم الأنصاري المديني، وليس هو بالقوي عند أهل الحديث (٣٥٨٥).
وجاء من طريق أخرى موصولة عن أبي هريرة ﷺ عند البيهقي في الشعب، وقال البيهقي: هكذا رواه أبو عبد الرحمن بن يحيى، وغلط فيه، إنما رواه مالك في الموطأ مرسلًا (٤٠٧٢).
قال ابن عبد البر: لا خلاف عن مالك في إرسال هذا الحديث كما رأيت، ولا أحفظه بهذا الإسناد مسندًا من وجه يحتج بمثله. وقد جاء مسندًا من حديث علي بن أبي طالب وعبد الله بن عمرو بن العاص؛ فأما حديث علي فإنه يدور على دينار أبي عمرو عن ابن الحنفية، وليس دينار ممن يحتج به، وحديث عبد الله بن عمرو من حديث عمرو بن شعيب وليس دون عمرو من يحتج به فيه. التمهيد (٦/ ٣٩).
وأورده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، وذكر شواهده، ثم قال: وجملة القول: أن الحديث ثابت بمجموع هذه الشواهد، والله أعلم (١٥٠٣)، وحسنه في صحيح الجامع الصغير (١١٠٢).
قال ابن عبد البر: وفيه من الفقه: إن دعاء يوم عرفة أفضل من غيره، وفي ذلك دليل على فضل يوم عرفة على غيره، وفي فضل يوم عرفة دليل أن للأيام بعضها فضلًا على بعض، إلا أن ذلك لا يدرك إلا بالتوقيف، والذي أدركنا من ذلك بالتوقيف الصحيح: فضل يوم الجمعة ويوم عاشوراء ويوم عرفة، وجاء في يوم الاثنين ويوم الخميس ما جاء، وليس شيء من هذا يدرك بقياس ولا فيه للنظر مدخل، وفي الحديث أيضًا دليل على أن دعاء يوم عرفة مجاب كله في الأغلب، وفيه أيضًا أن أفضل الذكر لا إله إلا الله. اهـ التمهيد (٦/ ٤١).
وقال ابن تيمية: فجمع في هذا الحديث بين أفضل الدعاء وأفضل الثناء، فإن الذكر نوعان: دعاء وثناء، فقال «أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة وأفضل ما قلت. . .» هذا الكلام، ولم يقل: أفضل ما قلت يوم عرفة هذا الكلام، وإنما هو أفضل ما قلت مطلقًا. مجموع الفتاوى (٢٤/ ٢٣٤).

فَإِذَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ نَفَرَ الْحُجَّاجُ إِلَى مُزْدَلِفَةَ، وَصَلَّوْا بِهَا المَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ جَمْعًا وَقَصْرًا، وَلَا يُحْيِي الْحُجَّاجُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ لَا بِصَلَاةٍ وَلَا ذِكْرٍ؛ فَالمَنْقُولُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ نَامَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، وَمَنْ أَدْرَكَ الْوُقُوفَ بِعَرَفَةَ، وَلَوْ فِي اللَّيْلِ قَبْلَ فَجْرِ يَوْمِ النَّحْرِ فَقَدْ أَدْرَكَ الْحَجَّ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**الحَجُّ عَرَفَةُ، مَنْ جَاءَ قَبْلَ طُلُوعِ الفَجْرِ مِنْ لَيْلَةِ جَمْعٍ فَقَدْ أَدْرَكَ الحَجَّ**»(٤).

فَإِذَا طَلَعَ فَجْرُ يَوْمِ النَّحْرِ أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى يُسْفِرَ جِدًّا، ثُمَّ يَذْهَبُ إِلَى مِنًى فَيَرْمِي جَمْرَةَ الْعَقَبَةِ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ يُكَبِّرُ مَعَ كُلِّ حَصَاةٍ، فَإِنْ كَانَ مُتَمَتِّعًا أَوْ قَارِنًا يَذْبَحُ هَدْيَهُ، ثُمَّ يَحْلِقُ رَأْسَهُ أَوْ يُقَصِّرُهُ، وَالْحَلْقُ أَفْضَلُ، وَيُحِلُّ إِحْرَامَهُ، ثُمَّ يَذْهَبُ إِلَى مَكَّةَ فَيَطُوفُ طَوَافَ الْإِفَاضَةِ، وَيَسْعَى الْمُتَمَتِّعُ سَعْيَ الْحَجِّ، وَأَمَّا الْقَارِنُ وَالْمُفْرِدُ فَيَسْعَيَانِ إِنْ لَمْ يَكُونَا سَعَيَا مَعَ طَوَافِ الْقُدُومِ، وَحِينَئِذٍ يَتَحَلَّلُ الْحَاجُّ التَّحَلُّلَ الْأَكْبَرَ، وَيَحِلُّ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ حَرُمَ عَلَيْهِ بِالْإِحْرَامِ.

---

(٤) أخرجه من حديث عبد الرحمن بن يعمر الديلي ﷺ: أبو داود في المناسك، باب من لم يدرك عرفة (١٩٤٩)، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة البقرة، وقال: حسن صحيح (٢٩٧٥)، والنسائي في مناسك الحج، باب فيمن لم يدرك صلاة الصبح مع الإمام بالمزدلفة (٥/ ١٦٤-١٦٥)، وابن ماجه في الحج، باب من أتى عرفة قبل الفجر من جمع (٣٠١٥)، والطيالسي (١٣٠٩-١٣١٠)، وأحمد (٤/ ٣٠٩-٣١٠)، وصححه ابن خزيمة (٢٨٢٢)، وابن حبان (٢٨٩٢)، والحاكم وقال: على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي(٢/ ٢٧٨).

وأخرجه الترمذي في الحج، باب ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج (٨٩٠)، وقال عقبه: «والعمل على حديث عبد الرحمن بن يعمر عند أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم أنه من لم يقف بعرفات قبل طلوع الفجر فقد فاته الحج، ولا يجزئ عنه إن جاء بعد طلوع الفجر، ويجعلها عمرة، وعليه الحج من قابل وهو قول الثوري، والشافعي، وأحمد، وإسحاق» .ثم نقل عن وكيع أنه ذكر هذا الحديث، فقال: «هذا الحديث أم المناسك».

ثُمَّ يَبِيتُ بِمِنًى لَيْلَةَ الْحَادِي عَشَرَ وَالثَّانِيَ عَشَرَ وَالثَّالِثَ عَشَرَ إِنْ لَمْ يَتَعَجَّلْ، يَقْصُرُ الرُّبَاعِيَّةَ وَلَا يَجْمَعُ، وَيَرْمِي الْجَمَرَاتِ الثَّلَاثَ: الصُّغْرَى ثُمَّ الْوُسْطَى ثُمَّ الْعَقَبَةَ بَعْدَ الزَّوَالِ كُلَّ يَوْمٍ، وَيَرْمِي كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ، وَيَجُوزُ الرَّمْيُ لَيْلًا، وَلَا يَجُوزُ التَّوْكِيلُ إِلَّا لِلضَّرُورَةِ الْقُصْوَى، وَلِلْأَسَفِ فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ تَسَاهَلُوا فِي التَّوْكِيلِ فِي الرَّمْيِ.

وَفِي الْيَوْمِ الثَّانِيَ عَشَرَ لِمَنْ تَعَجَّلَ يَرْمِي الْحَاجُّ الْجَمَرَاتِ، ثُمَّ يُبَادِرُ بِالِانْصِرَافِ مِنْ مِنًى، فَإِنْ غَرَبَتِ الشَّمْسُ وَهُوَ لَمْ يَنْصَرِفْ مِنْ مِنًى بَاتَ لَيْلَةَ الثَّالِثَ عَشَرَ وَرَمَى الْجَمَرَاتِ، إِلَّا إِذَا بَاشَرَ الرَّحِيلَ قَبْلَ الْغُرُوبِ، لَكِنَّ الزِّحَامَ أَعَاقَهُ عَنِ الْخُرُوجِ مِنْ مِنًى قَبْلَ الْغُرُوبِ، فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ أَنْ يَخْرُجَ، حَتَّى لَوْ أَدْرَكَهُ اللَّيْلُ فِي مِنًى؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُفَرِّطْ، وَالْبَقَاءُ إِلَى الْيَوْمِ الثَّالِثَ عَشَرَ فِي مِنًى أَفْضَلُ، ثُمَّ إِذَا انْصَرَفَ مِنْ مِنًى طَافَ طَوَافَ الْوَدَاعِ، وَرَحَلَ إِلَى بَلَدِهِ، وَالْمَرْأَةُ إِذَا حَاضَتْ أَوْ نَفِسَتْ قَبْلَ أَنْ تَطُوفَ سَقَطَ عَنْهَا طَوَافُ الْوَدَاعِ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: مَنْ لَمْ يَحُجَّ فَرْضَهُ فَلْيُبَادِرْ بِالْحَجِّ، وَلَا يُؤَخِّرْهُ؛ فَهُوَ فَرِيضَةٌ مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ ﷻ، وَمَنْ لَمْ يَحُجَّ وَهُوَ قَادِرٌ فَقَدِ ارْتَكَبَ إِثْمًا عَظِيمًا، وَخَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا، وَلَعَلَّهُ يُرِيدُ الْحَجَّ يَوْمًا فَلَا يَسْتَطِيعُهُ، فَلْيُعَجِّلْ مَا دَامَ قَادِرًا، وَمَنْ كَانَ حَجَّ فَرْضَهُ فَلْيَتَزَوَّدْ إِلَى اللَّهِ ﷻ، وَيُكْثِرْ مِنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ؛ فَفَضْلُهُمَا عَظِيمٌ، وَثَوَابُهُمَا جَزِيلٌ، وَإِلَيْكُمْ طَرْفًا مِنْ أَقْوَالِ الْمُصْطَفَى ﷺ فِي ذَلِكَ:

فِي الصَّحِيحَيْنِ: «**مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ**»[٥]، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «**الْحُجَّاجُ وَالْعُمَّارُ وَفْدُ اللَّهِ؛ دَعَاهُمْ فَأَجَابُوهُ، وَسَأَلُوهُ**

---

(٥) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: البخاري في الحج، باب فضل الحج المبرور (١٥٢١)، ومسلم في الحج، باب في فضل الحج والعمرة، ويوم عرفة (١٣٥٠).

فَأَعْطَاهُمْ»(٦)، وَقَالَ ﷺ: «**تَابِعُوا بَيْنَ الحَجِّ وَالعُمْرَةِ؛ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ وَالذَّهَبِ وَالفِضَّةِ، وَلَيْسَ لِلْحَجَّةِ المَبْرُورَةِ ثَوَابٌ إِلَّا الجَنَّةُ**»(٧)، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «**الحَجُّ جِهَادُ كُلِّ ضَعِيفٍ**»(٨)، وَقَالَ ﷺ: «**أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ: الإِيمَانُ بِاللَّهِ وَحْدَهُ، ثُمَّ الْجِهَادُ، ثُمَّ حَجَّةٌ بَرَّةٌ تَفْضُلُ سَائِرَ الْعَمَلِ، كَمَا بَيْنَ مَطْلَعِ الشَّمْسِ إِلَى مَغْرِبِهَا**»(٩)، وَعَنْهُ ﷺ أَنَّهُ

---

(٦) أخرجه مرفوعًا من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: ابن ماجه في المناسك، باب فضل دعاء الحاج (٢٨٩٣)، وذكر البيهقي في الشعب أنه موقوف (٤١٠٨).
وجاء من حديث جابر رضي الله عنه عند: البزار (١١٥٣)، وذكر البيهقي أيضًا أنه موقوف (٤١٠٧).
وجاء مرفوعًا عن أبي هريرة رضي الله عنه: عند ابن ماجه في المناسك، باب فضل دعاء الحاج (٢٨٩٢)، والبيهقي في الشعب وضعفه (٤١٠٦).
وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة (١٨٢٠) وساق طريقين له، ثم قال: حسن بمجموع طريقيه. وحسنه في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٣١٧٣).

(٧) أخرجه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه: الترمذي في الحج، باب ما جاء في ثواب الحج والعمرة، وقال: حديث حسن صحيح غريب من حديث ابن مسعود (٨١٠)، والنسائي في مناسك الحج، باب فضل المتابعة بين الحج والعمرة (٥/ ١١٥)، وأحمد (١/ ٣٨٧)، وصححه ابن خزيمة (٢٥١٢)، وابن حبان (٣٦٩٣).

(٨) أخرجه من حديث أم سلمة رضي الله عنها: ابن ماجه في المناسك، باب الحج جهاد النساء (٢٩٠٢)، وأحمد (٦/ ٣١٤)، وأبو يعلى (٦٩١٦)، ونقل الترمذي في العلل عن البخاري قوله: هو حديث مرسل، لم يدرك محمد بن علي أم سلمة (٢٢٠).
لكن يشهد له حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: استأذنت النبي ﷺ في الجهاد، فقال: «**جِهَادُكُنَّ الحَجُّ**» أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب جهاد النساء (٢٨٧٥).

(٩) أخرجه من حديث ماعز رضي الله عنه: أحمد (٤/ ٣٤٢)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ٣٤٤) رقم (٨٠٩)، وقال المنذري والهيثمي: ورجال أحمد رجال الصحيح، ينظر: الترغيب والترهيب (٢/ ١٠٦)، ومجمع الزوائد (٣/ ٢٠٧)، وقال المناوي في التيسير بشرح الجامع الصغير: رواه أحمد وإسناده جيد (١/ ١٨١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٠٩١). =

قَالَ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: إِنَّ عَبْدًا صَحَّحْتُ لَهُ جِسْمَهُ، وَوَسَّعْتُ عَلَيْهِ فِي مَعِيشَتِهِ تَمْضِي عَلَيْهِ خَمْسَةُ أَعْوَامٍ لَا يَفِدُ إِلَيَّ لَمَحْرُومٌ»(١٠). وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُلَبِّي إِلَّا لَبَّى مَنْ عَنْ يَمِينِهِ، أَوْ عَنْ شِمَالِهِ مِنْ حَجَرٍ، أَوْ شَجَرٍ، أَوْ مَدَرٍ، حَتَّى تَنْقَطِعَ الأَرْضُ مِنْ هَاهُنَا وَهَاهُنَا»(١١).

أَيُّهَا المُسْلِمُ: لَعَلَّ هَذِهِ النُّصُوصَ حَافِزَةٌ لَكَ عَلَى تَكْرَارِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ وَتَتَابُعِهِمَا، وَعَدَمِ التَّقَاعُسِ وَالتَّكَاسُلِ، أَوْ عَلَى الْأَقَلِّ إِمْسَاكُ لِسَانِكَ عَنْ تَخْذِيلِ مَنْ يُكْثِرُ مِنْهُمَا يُرِيدُ الْخَيْرَ، فَيُخْشَى أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنَ الصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى وَالمَسْجِدِ الْحَرَامِ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

أَقُولُ قَوْلِي هَذَا، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ . .

❁ ❁ ❁

= وماعز راوي الحديث ذكر الطبراني أنه التميمي، وتبعه ابن منده، وقال: سكن البصرة، وقال ابن عبد البر: لا أقف على نسبه، وقال المنذري: وماعز هذا صحابي مشهور غير منسوب، وقال المناوي: ماعز في الصحابة متعدد، فكان اللائق تمييزه، وقيل: إن هذا غير منسوب. فيض القدير (٢/ ٢٧).

(١٠) أخرجه من حديث أبي سعيد ﷺ: أبو يعلى (١٠٣١)، والخطيب في تاريخه (٨/ ٣٢٨)، والبيهقي (٥/ ٢٦٢)، وصححه ابن حبان (٣٧٠٣)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد وقال: رواه أبو يعلى والطبراني في الأوسط، ورجال الجميع رجال الصحيح (٣/ ٢٠٦)، وأورده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، وساق له طرقًا عدة، ثم قال: وجملة القول: إن الحديث صحيح قطعًا بمجموع هذه الطرق. والله أعلم (١٦٦٢).

(١١) أخرجه من حديث سهل بن سعد ﷺ: الترمذي في الحج، باب ما جاء في فضل التلبية والنحر (٨٢٨)، وصححه المناوي في التيسير (٢/ ٣٦٨)، والألباني في صحيح الجامع (٥٧٧٠).

الْخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: هَذِهِ الْأَيَّامُ -أَيَّامُ الْعَشْرِ- أَفْضَلُ أَيَّامِ السَّنَةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، أَقْسَمَ اللهُ بِهَا فِي كِتَابِهِ ﴿وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر: ١، ٢]، وَقَالَ عَنْهَا النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ**» يَعْنِي: الْعَشْرَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: «**وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ**»(١٢).

فَيَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ خَاصَّةً أَنْ يُحَافِظَ عَلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَهِيَ التَّكْبِيرُ وَالتَّهْلِيلُ وَالتَّحْمِيدُ، فَقَدْ ثَبَتَتْ بِذَلِكَ الْأَحَادِيثُ، «وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ وَأَبُو هُرَيْرَةَ يَخْرُجَانِ إِلَى السُّوقِ فِي أَيَّامِ الْعَشْرِ يُكَبِّرَانِ، فَيُكَبِّرُ النَّاسُ بِتَكْبِيرِهِمَا»(١٣).

---

(١٢) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أبو داود في الصوم، باب في صوم العشر (٢٤٣٨)، والترمذي في الصوم، باب ما جاء في العمل في أيام العشر (٧٥٧)، وابن ماجه في الصيام، باب صيام العشر (١٧٢٧)، وصححه ابن حبان (٣٢٤).

وجاء بلفظ آخر عند: البخاري في العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق (٩٦٩).

(١٣) أخرجه البخاري معلقًا مجزومًا به في العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق (٢/ ٢٠)، ووصله عبد بن حميد كما في فتح الباري لابن حجر (٢/ ٣٨١)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٦٥١).

قال الحافظ ابن رجب -رحمه الله تعالى-: «وأما ما ذكره البخاري عن ابن عمر وأبي هريرة، فهو من رواية سلام أبي المنذر، عن حميد الأعرج، عن مجاهد، أن ابن عمر وأبا هريرة كانا يخرجان في العشر إلى السوق يكبران، لا يخرجان إلّا لذلك. خرجه أبو بكر عبد العزيز بن جعفر في كتاب الشافي، وأبو بكر المروزي القاضي في كتاب العيدين. =

وَيُسَنُّ صِيَامُ تِسْعِ ذِي الْحِجَّةِ؛ فَصِيَامُهَا مِنْ جُمْلَةِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ المَأْمُورِ بِهِ فِيهَا، وَخَاصَّةً يَوْمَ عَرَفَةَ؛ لِمَا ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ عَرَفَةَ: «**يُكَفِّرُ السَّنَةَ المَاضِيَةَ وَالسَّنَةَ الْبَاقِيَةَ**»(١٤).

وَمَنْ وَقَفَ بِعَرَفَةَ فَلَا يَصُومُهُ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَقَفَ بِعَرَفَةَ مُفْطِرًا(١٥).

كَذَلِكَ تُسَنُّ الْأُضْحِيَةُ فِي يَوْمِ النَّحْرِ، وَمَا عَمِلَ ابْنُ آدَمَ يَوْمَ النَّحْرِ عَمَلًا أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ إِرَاقَةِ الدَّمِ؛ تَقَرُّبًا إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ(١٦)، وَهَذِهِ الْأَضَاحِيُّ سُنَّةُ أَبِينَا

= ورواه عفان، نا سلام أبو المنذر -فذكره- ولفظه: كان أبو هريرة وابن عمر يأتيان السوق أيام العشر، فيكبران، ويكبر الناس معهما، ولا يأتيان لشيء إلا لذلك.
وروى جعفر الفريابي، من رواية يزيد بن أبي زياد، قال: رأيت سعيد بن جبير وعبد الرحمن بن أبي ليلى ومجاهدًا -أو اثنين من هؤلاء الثلاثة- ومن رَأينا مِنْ فقهاء الناس يقولون في أَيَّام العَشْر: الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، والله أكبر الله أكبر ولله الحمد.
وروى المروزي، عن ميمون بن مهران، قال: أدركت الناس وإنهم ليكبرون في العشر، حتى كنت أشبهه بالأمواج من كثرتها، ويقول: إن الناس قد نقصوا في تركهم التكبير. اهـ من فتح الباري لابن رجب (٦/ ١١٢).

(١٤) أخرجه من حديث أبي قتادة رضي الله عنه: مسلم في الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والاثنين والخميس (١١٦٢).

(١٥) كما في حديث عمير مولى أم الفضل، عن أم الفضل قالت: «شك الناس يوم عرفة في صوم النبي ﷺ فَبَعَثْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِشَرَابٍ فَشَرِبَهُ» أخرجه البخاري في الحج، باب صوم يوم عرفة (١٦٥٨)، ومسلم في الصيام، باب استحباب الفطر للحاج يوم عرفة (١١٢٣).
قلت: لو لم يقف بعرفة إلا ليلة النحر فإنه يشرع في حقه صوم يوم عرفة، بل هو سنة في حقه كغيره.

(١٦) عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**مَا عَمِلَ آدَمِيٌّ مِنْ عَمَلٍ يَوْمَ النَّحْرِ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنْ إِهْرَاقِ الدَّمِ، إِنَّهُ لَيَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ بِقُرُونِهَا وَأَشْعَارِهَا وَأَظْلَافِهَا، وَإِنَّ الدَّمَ لَيَقَعُ مِنَ اللَّهِ بِمَكَانٍ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ مِنَ الأَرْضِ، فَطِيبُوا بِهَا نَفْسًا**» أخرجه الترمذي في الأضاحي، باب ما جاء في فضل الأضحية، وقال: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه من حديث هشام بن عروة إلا من هذا الوجه (١٤٩٣)، وصححه الحاكم (٤/ ٣٤٧)، لكن ضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٥١١٢).

إِبْرَاهِيمَ وَنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَإِنَّ ذَبْحَهَا خَيْرٌ مِنَ التَّصَدُّقِ بِثَمَنِهَا، ثَبَتَتْ بِذَلِكَ الْأَخْبَارُ مِنْ لَدُنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وَلِلْأُضْحِيَّةِ شُرُوطٌ لَا بُدَّ مِنْ مُرَاعَاتِهَا، وَهِيَ: أَنْ تَبْلُغَ السِّنَّ الْمُعْتَبَرَةَ، وَهِيَ خَمْسٌ لِلْإِبِلِ، وَسَنَتَانِ لِلْبَقَرِ، وَسَنَةٌ لِلْمَعْزِ، وَنِصْفُهَا لِلضَّأْنِ، وَأَنْ تَكُونَ سَلِيمَةً مِنَ الْعُيُوبِ الَّتِي تَمْنَعُ الْإِجْزَاءَ، وَهِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ﵁ قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «**أَرْبَعٌ لَا تَجُوزُ فِي الضَّحَايَا: الْعَوْرَاءُ الْبَيِّنُ عَوَرُهَا، وَالْمَرِيضَةُ الْبَيِّنُ مَرَضُهَا، وَالْعَرْجَاءُ الْبَيِّنُ ظَلْعُهَا، وَالْكَسِيرَةُ الَّتِي لَا تُنْقِي**» أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ(١٧).

وَالسُّنَّةُ أَنْ يَخْتَارَ السَّمِينَةَ الطَّيِّبَةَ؛ لِأَنَّهَا قُرْبَانٌ لِلَّهِ ﷻ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: تَعْظِيمُهَا: اسْتِسْمَانُهَا وَاسْتِعْظَامُهَا وَاسْتِحْسَانُهَا(١٨). وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أُمَامَةَ بْنِ سَهْلٍ قَالَ: «كُنَّا نُسَمِّنُ الْأُضْحِيَّةَ بِالْمَدِينَةِ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يُسَمِّنُونَ»(١٩).

---

(١٧) أخرجه أبو داود في الضحايا، باب ما يكره في الضحايا (٢٨٠٢)، والنسائي في الضحايا، باب العجفاء (٧/ ٢١٥ - ٢١٦)، والترمذي في الأضاحي، باب ما لا يجوز من الأضاحي، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، لا نعرفه إلا من حديث عبيد بن فيروز عن البراء، والعمل على هذا الحديث عند أهل العلم (١٤٩٧)، وأحمد (٤/ ٢٨٤ و٢٨٩)، والطيالسي (٧٤٩)، وصححه ابن خزيمة (٢٩١٢)، وابن حبان (٥٩١٩).

(١٨) ينظر: أحكام القرآن للجصاص (٥/ ٧٨)، والمغني لابن قدامة (٩/ ٣٤٨).

(١٩) أخرجه البخاري معلقًا مجزومًا به في الأضاحي، باب في أضحية النبي ﷺ بكبشين أقرنين، ويذكر سمينين (٧/ ١٠٠). قال ابن حجر: «وصله أبو نعيم في المستخرج من طريق أحمد بن حنبل عن عباد بن العوام أخبرني يحيى بن سعيد وهو الأنصاري ولفظه: «كان المسلمون يشتري أحدهم الأضحية فيسمنها ويذبحها في آخر ذي الحجة». قال أحمد: هذا الحديث عجيب» فتح الباري (١٠/ ١٠). =

وَمِنْ شُرُوطِ الْأُضْحِيَّةِ: أَنْ تَقَعَ فِي الْوَقْتِ الْمُحَدَّدِ، وَهُوَ مِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِيدِ إِلَى غُرُوبِ شَمْسِ يَوْمِ الثَّالِثَ عَشَرَ، وَالذَّبْحُ فِي النَّهَارِ أَفْضَلُ مِنَ اللَّيْلِ، وَمَنْ كَانَ يَسْتَطِيعُ الذَّبْحَ فَذَبْحُهَا بِيَدِهِ أَفْضَلُ، وَيُسَمِّي وَيُكَبِّرُ عِنْدَ الذَّبْحِ، وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنَّ هَذَا لَكَ وَمِنْكَ، اللَّهُمَّ عَنْ فُلَانٍ أَوْ فُلَانَةٍ، وَإِذَا لَمْ يُسَمِّ أَشْخَاصًا أَجْزَأَتِ النِّيَّةُ فِي تَحْدِيدِهِمْ.

وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُضَحِّيَ فَلَا يَأْخُذْ مِنْ شَعْرِهِ وَلَا أَظْفَارِهِ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**إِذَا رَأَيْتُمْ هِلَالَ ذِي الحِجَّةِ وَأَرَادَ أَحَدُكُمْ أَنْ يُضَحِّيَ فَلْيُمْسِكْ عَنْ شَعْرِهِ وَأَظْفَارِهِ**»[٢٠]، وَالسُّنَّةُ أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا، وَيَتَصَدَّقَ وَيُهْدِيَ، وَلَا يُعْطِي الْجَزَّارَ أُجْرَتَهُ مِنْهَا، إِلَّا أَنْ يُهْدِيَ إِلَيْهِ أَوْ يَتَصَدَّقَ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ فَقِيرًا.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: اتَّقُوا اللهَ ﷻ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الْعَظِيمَةِ، وَعَظِّمُوهَا كَمَا عَظَّمَهَا رَبُّكُمْ جَلَّ وَعَلَا، وَعَظِّمُوا حُرُمَاتِ اللَّهِ ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [**الحج**: ٣٠].

أَلَا صَلُّوا وَسَلِّمُوا.

= قال القاضي عياض: «ظاهره يعلفونها، وقد يحتمل أن يختاروا سمنها» مشارق الأنوار (٢/ ٢٢٠).

فائدة: نقل القرافي أثر أبي العالية: «كنا نسمن الأضحية بالمدينة، وكان المسلمون يسمنون» ثم نقل عن ابن القوطي المالكي أنه يكره؛ لأنه سنة اليهود» الذخيرة (٤/ ١٤٦).

وتعقبه النووي فقال: «وحكى القاضي عياض عن بعض أصحاب مالك كراهة ذلك؛ لئلا يتشبه باليهود، وهذا قول باطل» شرح مسلم (١٣/ ١١٨).

وقال ابن التين: «كان بعض المالكية يكره تسمين الأضحية؛ لئلا يتشبه باليهود، وقول أبي أمامة أحق. قاله الداودي» فتح الباري لابن حجر (١٠/ ١٠).

(٢٠) أخرجه من حديث أم سلمة ﵂: مسلم في الأضاحي، باب نهي من دخل عليه عشر ذي الحجة وهو مريد التضحية أن يأخذ من شعره، أو أظفاره شيئًا (١٩٧٧).

٢٦٥- حجة الوداع (١)
خطب النبي ﷺ فيها

١/ ١٢/ ١٤٢٤هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: فَضْلُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ لَيْسَ يُحْصِيهِ الْعَدُّ؛ خَلَقَهُمْ وَرَزَقَهُمْ، وَعَافَاهُمْ وَاجْتَبَاهُمْ، وَكَلَّفَهُمْ وَهَدَاهُمْ، وَفَتَحَ لَهُمْ أَبْوَابَ التَّوْبَةِ، وَنَوَّعَ لَهُمْ سُبُلَ الْخَيْرِ، وَجَعَلَ لَهُمْ مَوَاسِمَ وَأَيَّامًا يُفَضَّلُ الْعَمَلُ فِيهَا عَلَى غَيْرِهَا؛ فَضْلًا مِنْهُ عَلَى عِبَادِهِ، وَرَحْمَةً بِهِمْ، وَزِيَادَةً فِي ثَوَابِهِمْ إِذَا هُمْ عَمَرُوا هَذِهِ الْأَيَّامَ الْفَاضِلَةَ بِطَاعَةِ اللَّهِ ﷻ.

وَإِنَّ أَفْضَلَ أَيَّامٍ يُعْمَلُ فِيهَا بِالصَّالِحَاتِ هِيَ أَيَّامُ عَشْرِ ذِي الْحِجَّةِ، كَمَا قَالَ

النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا الْعَمَلُ فِي أَيَّامِ الْعَشْرِ أَفْضَلَ مِنَ الْعَمَلِ فِي هَذِهِ**. قَالُوا: وَلَا الْجِهَادُ؟ قَالَ: **وَلَا الْجِهَادُ، إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ يُخَاطِرُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ بِشَيْءٍ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١).

وَإِذَا كَانَتْ عَشْرُ رَمَضَانَ الْأَخِيرَةُ فُضِّلَتْ لَيَالِيهَا بِلَيْلَةِ الْقَدْرِ، فَإِنَّ أَيَّامَ عَشْرِ ذِي الْحِجَّةِ فُضِّلَتْ بِيَوْمِ عَرَفَةَ، وَالْعَمَلُ فِيهَا أَفْضَلُ مِنَ الْعَمَلِ فِي أَيَّامِ عَشْرِ رَمَضَانَ كَمَا هُوَ نَصُّ الْحَدِيثِ.

وَمِنَ الْعَمَلِ فِيهَا صِيَامُهَا، وَخَاصَّةً صَوْمَ يَوْمِ عَرَفَةَ لِغَيْرِ حَاجٍّ، وَهُوَ يُكَفِّرُ السَّنَةَ الْمَاضِيَةَ وَالسَّنَةَ الْبَاقِيَةَ، كَمَا صَحَّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ حَدِيثِ أَبِي قَتَادَةَ ﵁(٢).

وَالذِّكْرُ فِيهَا مَأْمُورٌ بِهِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾ [الْحَجّ: ٢٧]، وَفِي قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**فَأَكْثِرُوا فِيهِنَّ مِنَ التَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ وَالتَّحْمِيدِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(٣).

وَشُرِعَتْ فِيهَا الْأُضْحِيَّةُ يَوْمَ النَّحْرِ، وَأَعْظَمُ عِبَادَةٍ يُتَقَرَّبُ بِهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ هِيَ إِهْرَاقُ الدَّمِ عَقِبَ الصَّلَاةِ، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُضَحِّيَ فَلَا يَأْخُذْ مِنْ

---

(١) أخرجه البخاري في العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق واللفظ له (٩٢٦)، وأبو داود في الصيام، باب صوم العشر (٢٤٣٨)، والترمذي في الصوم، باب ما جاء في العمل أيام العشر (٧٥٧)، وابن ماجه في الصيام، باب صيام العشر (١٧٢٧).

(٢) أخرجه مسلم في الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة (١١٦٢)، وأبو داود في الصوم، باب في صوم الدهر تطوعًا (٢٤٢٥)، والترمذي في الصوم، باب ما جاء في فضل صوم يوم عرفة (٧٤٩)، وابن ماجه في الصيام، باب صيام يوم عرفة (١٧٣٠).

(٣) أخرجه من حديث ابن عمر ﵄ أحمد (٢/ ٧٥)، وأبو عوانة (٣٠٢٤)، وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرح المسند (٥٤٤٦).

شَعْرِهِ وَلَا مِنْ أَظْفَارِهِ مُنْذُ دُخُولِ الشَّهْرِ، كَمَا أَمَرَ بِذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ(٤)، وَأَكْبَرُ عِبَادَةٍ فِي هَذَا المَوْسِمِ الْعَظِيمِ: حَجُّ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ، وَزِيَارَةُ مَشَاعِرِهِ، وَتَعْظِيمُ شَعَائِرِهِ.

إِنَّ الْحَجَّ رُكْنُ الْإِسْلَامِ الْخَامِسُ، وَفِيهِ عِبَادَاتٌ مُتَنَوِّعَةٌ، وَشَعَائِرُ مُعَظَّمَةٌ؛ تَعْظُمُ بِهَا الْأُجُورُ، وَتَكْثُرُ فِيهَا المَنَافِعُ ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴿٢٧﴾ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ﴾ [الحَجّ: ٢٧، ٢٨].

حَجَّ النَّبِيُّ ﷺ حَجَّةً وَاحِدَةً، كَانَتْ أَعْظَمَ حَجَّةٍ فِي التَّارِيخِ وَأَفْضَلَهَا، أَقَامَ فِيهَا شَعَائِرَ اللَّهِ تَعَالَى، وَعَظَّمَ حُرُمَاتِهِ، وَصَدَعَ بِدِينِهِ، وَبَيَّنَ لِلنَّاسِ مَنَاسِكَهُمْ، وَخَطَبَ فِيهِمْ يُعَلِّمُهُمْ وَيُبَشِّرُهُمْ وَيُنْذِرُهُمْ.

لَمَّا عَزَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى الْحَجِّ أَذَّنَ فِي النَّاسِ بِهِ؛ فَتَجَهَّزُوا لِلْخُرُوجِ مَعَهُ، وَسَمِعَ ذَلِكَ مَنْ حَوْلَ المَدِينَةِ، فَقَدِمُوا يُرِيدُونَ الْحَجَّ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَوَافَاهُ فِي الطَّرِيقِ خَلَائِقُ لَا يُحْصَوْنَ، فَكَانُوا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، وَمِنْ خَلْفِهِ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ مَدَّ الْبَصَرِ(٥).

---

(٤) وذلك في حديث أم سلمة رضي الله عنها عند: مسلم في الأضاحي، باب نهي من دخل عليه عشر ذي الحجة وهو يريد أن يضحي أن يأخذ من شعره وأظفاره شيئًا (١٩٧٧)، وأبي داود في الضحايا، باب الرجل يأخذ من شعره في العشر وهو يريد أن يضحي (٢٧٩١)، والترمذي في الأضاحي، باب ترك أخذ الشعر لمن أراد أن يضحي (١٥٢٣)، وابن ماجه في الأضاحي، باب من أراد أن يضحي فلا يأخذ في العشر من شعره وأظفاره (٣١٤٩).

(٥) جاء ذلك في حديث جابر رضي الله عنه في وصف حجة النبي ﷺ قال: «إن رسول الله ﷺ مكث تسع سنين لم يحج ثم أذن في الناس في العاشرة أن رسول الله ﷺ حاج، فقدم المدينة بشر كثير، كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ﷺ، ويعمل مثل عمله، فخرجنا معه...» أخرجه مطولًا مسلم في الحج، باب حجة النبي ﷺ (١٩٠٥-١٩٠٧-١٩٠٨-١٩٠٩)، وابن ماجه في المناسك، باب حجة رسول الله ﷺ (٣٠٧٤).

كُلُّهُمْ شَرُفُوا بِالْحَجِّ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهَلْ حَجَّةٌ أَفْضَلُ مِنْ حَجَّةٍ يَؤُمُّهُمْ فِيهَا أَفْضَلُ الْبَشَرِ، وَخَاتَمُ الرُّسُلِ، يَهْتَدُونَ بِهَدْيِهِ، وَيَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِهِ، وَيُقَلِّدُونَهُ فِي أَفْعَالِهِ، وَيَنْعَمُونَ بِرُؤْيَتِهِ، وَيَسْتَمِعُونَ إِلَى خِطَابِهِ، وَيَأْخُذُونَ عَنْهُ مَنَاسِكَهُمْ، وَيُشَارِكُونَهُ فِي تَعْظِيمِ اللَّهِ تَعَالَى وَذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ؟!

فَيَا لَلَّهِ الْعَظِيمِ! مَا أَعْظَمَ تِلْكَ الْحَجَّةَ! وَيَا لَسَعَادَةِ مَنْ حَضَرَهَا!

إِنَّ مَنْ حَضَرَهَا طَافَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْبَيْتِ، وَوَقَفَ مَعَهُ فِي عَرَفَةَ، وَفِي الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ فِي مُزْدَلِفَةَ، وَشَارَكَهُ فِي الْهَدْيِ، وَفِي الْجِمَارِ، وَبَاتَ مَعَهُ فِي مِنًى، وَاسْتَمَعَ إِلَيْهِ وَهُوَ يَخْطُبُ فِي النَّاسِ يُعَلِّمُهُمْ مَنَاسِكَهُمْ وَدِينَهُمْ، وَيَحُضُّهُمْ عَلَى مَا فِيهِ فَلَاحُهُمْ، وَيَنْهَاهُمْ عَمَّا يَضُرُّهُمْ، فَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ بِالِاخْتِيَارِ لَاخْتَارَ كُلُّ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَحُجُّوا مَعَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ وَلَكِنَّ ذَلِكَ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.

وَقَفَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِي عَرَفَةَ، وَخَطَبَ النَّاسَ خُطْبَةً عَظِيمَةً بَلِيغَةً بَيَّنَ فِيهَا الْحُقُوقَ وَالْحُرُمَاتِ، وَوَضَعَ فِيهَا مَآثِرَ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيْهِ، وَأَوْصَى بِالنِّسَاءِ، وَدَلَّهُمْ عَلَى سَبِيلِ الْعِصْمَةِ مِنَ الضَّلَالِ.

ثُمَّ أَشْهَدَهُمْ عَلَى بَلَاغِهِ، فَشَهِدُوا فِي ذَلِكَ الْجَمْعِ الْعَظِيمِ شَهَادَةً مَا اجْتَمَعَ حَشْدٌ مِثْلُهُ يَشْهَدُونَ عَلَى مِثْلِ مَا شَهِدُوا عَلَيْهِ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي تِلْكَ الْجُمُوعِ الْعَظِيمَةِ: «**إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ، وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ، وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ كَانَ مُسْتَرْضِعًا فِي بَنِي سَعْدٍ فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ، وَرِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُ رِبَانَا، رِبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ.**

فَاتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللَّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالمَعْرُوفِ.

وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ: كِتَابَ اللَّهِ، وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟» قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغت وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ»(٦).

وَخَطَبَهُمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَوْمَ النَّحْرِ خُطْبَةً عَظِيمَةً، قَالَ فِيهَا: «إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ثَلَاثٌ مُتَوَالِيَاتٌ: ذُو الْقِعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالمُحَرَّمُ، وَرَجَبٌ شَهْرُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ».

ثُمَّ قَالَ: «أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟» قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، فَقَالَ: «أَلَيْسَ ذُو الْحِجَّةِ؟» قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: «فَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟» قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: «أَلَيْسَ الْبَلْدَةَ؟»، قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: «فَأَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟»، قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: «أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟» قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ، فَلَا تَرْجِعُنَّ بَعْدِي ضُلَّالًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ، وَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَلَعَلَّ بَعْضَ مَنْ يُبَلَّغُهُ يَكُونُ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضِ مَنْ سَمِعَهُ»، ثُمَّ

(٦) هذه الخطبة جاءت في حديث جابر رضي الله عنه المخرج في حاشية (٥).

قَالَ: «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٧).

وَخَطَبَهُمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي أَوْسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ خُطْبَةً عَلَّمَهُمْ فِيهَا مَنَاسِكَهُمْ، وَكَانَتْ خُطَبُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَبْلُغُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ وَخِيَامِهِمْ أَيْنَمَا كَانُوا، يُبَلِّغُهَا رَبُّ الْعَالَمِينَ جَلَّ جَلَالُهُ، فَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُعَاذٍ التَّمِيمِيِّ ﷺ قَالَ: «خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمِنًى فَفَتَحَ اللهُ أَسْمَاعَنَا، حَتَّى إِنْ كُنَّا لَنَسْمَعُ مَا يَقُولُ وَنَحْنُ فِي مَنَازِلِنَا، فَطَفِقَ النَّبِيُّ ﷺ يُعَلِّمُهُمْ مَنَاسِكَهُمْ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ وَاللَّفْظُ لَهُ(٨).

وَسُمِّيَتْ حَجَّتُهُ تِلْكَ حَجَّةَ الْوَدَاعِ؛ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَدَّعَ أَصْحَابَهُ فِيهَا، وَبَيَّنَ لَهُمْ مَنَاسِكَهُمْ وَهُوَ يَقُولُ: «**لَعَلِّي لَا أَرَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا**»، وَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ؛ فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ**» أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ(٩).

قَالَ النَّوَوِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى تَوْدِيعِهِمْ، وَإِعْلَامِهِمْ بِقُرْبِ وَفَاتِهِ ﷺ، وَحَثِّهِمْ عَلَى الِاعْتِنَاءِ بِالْأَخْذِ عَنْهُ، وَانْتِهَازِ الْفُرْصَةِ مِنْ مُلَازَمَتِهِ،

---

(٧) أخرجه من حديث أبي بكرة ﷺ: البخاري في الحج، باب الخطبة أيام منى (١٧٤١)، ومسلم في القسامة، باب تحريم الدماء والأعراض والأموال (١٦٥٤)، وأبو داود في المناسك، باب الأشهر الحرم (١٩٤٨)، وابن ماجه في المقدمة، باب من بلغ علمًا (٢٣٣)، وأحمد (٥/ ٣٧-٣٩-٤٥-٤٩).

(٨) أخرجه أحمد (٤/ ١٦-٥/ ٣٧٤)، وأبو داود في المناسك، باب النزول بمنى (١٩٥١)، والنسائي في الحج، باب ما ذكر في منى (٥/ ٢٤٩)، والبيهقي (٥/ ١٢٧-١٣٨)، وابن سعد في الطبقات (٢/ ١٨٥).

(٩) أخرجه من حديث جابر ﷺ: مسلم في الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر (١٢٩٧)، وأبو داود في المناسك، باب في رمي الجمار (١٩٧٠)، والترمذي في الحج، باب ما جاء في الإفاضة من عرفات (٨٨٦) والرواية الأولى للترمذي والثانية

وَتَعَلُّمِ أُمُورِ الدِّينِ، وَبِهَذَا سُمِّيَتْ حَجَّةَ الْوَدَاعِ»(١٠).

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَقْبَلَ مِنَّا وَمِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ يَسْتَعْمِلَنَا فِي طَاعَتِهِ، وَأَنْ يَحْشُرَنَا فِي زُمْرَةِ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ فَاسْتَغْفِرُوهُ . . .

❀ ❀ ❀

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَاعْمُرُوا أَوْقَاتَكُمْ بِذِكْرِهِ، وَعَظِّمُوا شَعَائِرَهُ، ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

أَيُّهَا النَّاسُ: كَانَتْ خُطَبُ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَجَّتِهِ الَّتِي وَدَّعَ النَّاسَ فِيهَا مُتَضَمِّنَةً لِمَعَانٍ عَظِيمَةٍ، وَجَامِعَةً مَا يَحْتَاجُهُ الْمُسْلِمُونَ أَفْرَادًا وَجَمَاعَاتٍ؛ فَفِيهَا بَيَانُ حُرْمَةِ الدَّمِ وَالْمَالِ وَالْعِرْضِ، وَالتَّحْذِيرُ مِنَ الِاخْتِلَافِ وَالْفِتْنَةِ، وَوَضْعُ مَآثِرِ الْجَاهِلِيَّةِ وَأَعْرَافِهَا وَأَخْلَاقِهَا، وَالْوَصِيَّةُ بِالنِّسَاءِ وَبَيَانِ حَقِّهِنَّ وَمَا عَلَيْهِنَّ، وَالْحَثُّ عَلَى الِاعْتِصَامِ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى؛ فَمَنِ اعْتَصَمَ بِهَدْيِهِ فَلَنْ يَضِلَّ.

إِنَّ هَذِهِ الْخُطَبَ الْجَامِعَةَ لِمَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُ تَعْظُمُ أَهَمِّيَّةُ تَدَبُّرِهَا، وَالْأَخْذِ بِمَا فِيهَا فِي هَذَا الزَّمَنِ الَّذِي اخْتَلَطَ فِيهِ الْأَمْرُ، وَعَظُمَ الشَّرُّ، وَكَثُرَ

لمسلم.

الْهَرْجُ، وَانْفَتَحَتْ أَبْوَابُ الْفِتَنِ، وَخَاصَّةً مَا يَنْفُثُهُ الْمُنَافِقُونَ، وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ الْكَافِرُونَ مِنَ التَّخَلِّي عَنِ الدِّينِ، وَنَبْذِ أَحْكَامِهِ؛ بِحُجَّةِ أَنَّهَا رَجْعِيَّةٌ لَا تُنَاسِبُ هَذَا الْعَصْرَ. وَالنَّبِيُّ ﷺ فِي حَجَّتِهِ قَدْ أَوْضَحَ لِلْأُمَّةِ أَنَّ مَنِ اعْتَصَمَ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَخَذَ بِمَا فِيهِ فَلَنْ يَضِلَّ، وَلَكِنَّ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ يَقْهَرُونَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى التَّخَلِّي عَنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَرْكِ الْعَمَلِ بِمَا فِيهِ؛ لِيُورِدُوهُمْ مَوَارِدَ الضَّلَالِ وَالْإِثْمِ وَالْهَلَاكِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَقَدْ بَلَغَ مِنْ سُخْرِيَتِهِمْ بِنَا وَبِدِينِنَا أَنَّهُمْ يَجْتَمِعُونَ فِي بِلَادِنَا، يَتَآمَرُونَ عَلَى دِينِنَا وَأَخْلَاقِنَا، وَيَبْحَثُونَ شَأْنَنَا الِاقْتِصَادِيَّ(١١)، فِي ثُلَّةٍ مِمَّنْ يُسَمُّونَهُنَّ سَيِّدَاتِ الْمُجْتَمَعِ، سَافِرَاتٍ مُتَبَرِّجَاتٍ، قَدِ اخْتَلَطْنَ بِالرِّجَالِ، فِيهِنَّ الْعَجُوزُ الْمُتَصَابِيَةُ، وَفِيهِنَّ الْمُرَاهِقَةُ الْجَاهِلَةُ، وَقَدِ اسْتَضَافُوا فِي مُؤْتَمَرِهِمْ مَنْ تَلَطَّخَتْ أَيْدِيهِمْ بِدِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ، وَمَنْ نَهَبُوا ثَرَوَاتِهِمْ؛ لِيَحُلُّوا لَهُمْ مَشَاكِلَهُمُ الِاقْتِصَادِيَّةَ.

وَالْحَدِيثُ فِي الْمُؤْتَمَرِ كَانَ بِلُغَةٍ غَيْرِ لُغَتِنَا، وَلِبَاسُ أَصْحَابِهِ كَانَ اللِّبَاسَ الْإِفْرِنْجِيَّ، وَكَبِيرُهُمْ مِنَ الرَّأْسِمَالِيِّينَ الَّذِينَ نَهَبُوا ثَرَوَاتِ الْعَالَمِ صَارَ يُفْتِي فِي دِينِنَا، وَيُعَلِّمُنَا كَيْفَ يُفَكِّرُ رَسُولُنَا مُحَمَّدٌ ﷺ، وَبَنُو دِينِهِ وَقَوْمُهُ كَانُوا بِالْأَمْسِ وَإِلَى الْيَوْمِ يَسُبُّونَ النَّبِيَّ ﷺ، وَيَتَّهِمُونَهُ بِالتَّطَرُّفِ وَالْإِرْهَابِ!!

وَبَعْضُ النِّسَاءِ الْمُخْتَارَاتِ لِهَذَا الْمُؤْتَمَرِ لَسْنَ يَعْرِفْنَ مِنْ مَشَاكِلِنَا وَبِلَادِنَا شَيْئًا،

---

(١٠) شرح النووي على مسلم (٩/ ٦٥).

(١١) هذا إشارة إلى المنتدى الاقتصادي الذي عقد في جدة الأسبوع الماضي، وقد دعي إليه الرئيس الأمريكي السابق كلينتون، وحضره عدد من النساء السافرات منهن: لبنى العليان التي ألقت ورقتها باللغة الإنجليزية وهي متزوجة من أمريكي نصراني، والبرنامج كله كان باللغة الإنجليزية، ولباس الرجال كان اللباس الإفرنجي، وكان برنامجًا مختلطًا، والنساء فيه سافرات الوجوه حاسرات الرؤوس متبرجات. نسأل الله لهن الهداية، وأن يكفي المسلمين شرهن.

وَنِسْبَتُهُنَّ إِلَيْهَا تَنْحَصِرُ فِي أَنَّ لَهُنَّ أَجْدَادًا كَانُوا يَوْمًا مَا مِنْ بِلَادِنَا، فَلُغَتُهُنَّ هِيَ لُغَةُ الْبِلَادِ الَّتِي عِشْنَ فِيهَا، وَتَزَوَّجْنَ فِيهَا، وَأَخْلَاقُهُنَّ هِيَ أَخْلَاقُهُمْ، حَتَّى أَمْوَالُهُنَّ وَأَمْوَالُ آبَائِهِنَّ شُغِّلَتْ فِي الْبِلَادِ الَّتِي عِشْنَ فِيهَا، وَلَمْ يَنْتَفِعْ بِهَا الْمُسْلِمُونَ.

ثُمَّ تَقُومُ الصَّحَافَةُ الْمُنْحَرِفَةُ، وَالْإِعْلَامُ الْمَأْفُونُ بِتَصْوِيرِ هَؤُلَاءِ السَّافِرَاتِ عَلَى أَنَّهُنَّ سَيِّدَاتُ الْمُجْتَمَعِ، وَالْمُمَثِّلَاتُ لِنِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ، وَيُصَادَرُ حَقُّ الْمَلَايِينِ مِنَ النِّسَاءِ الْعَفِيفَاتِ، وَالْفَتَيَاتِ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ، وَلَا يُعْرَضُ رَأْيُهُنَّ فِي الْحِجَابِ وَفِي الِاخْتِلَاطِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ قَضَايَا النِّسَاءِ، مِنْ أَجْلِ هَذِهِ الشِّرْذِمَةِ الْقَلِيلَةِ مِنَ السَّافِرَاتِ الْمُتَبَرِّجَاتِ، اللَّائِي يَعْرِضْنَ رَأْيَهُنَّ الْمُنْحَرِفَ فِي ذَلِكَ بِأَقْوَالِهِنَّ وَسُلُوكِهِنَّ، ثُمَّ يُعَمَّمُ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ رَأْيُ الْجَمِيعِ، فَأَيْنَ هِيَ الْمَوْضُوعِيَّةُ الَّتِي يَتَشَدَّقُ بِهَا مَنْ يُسَمَّوْنَ بِالْمُفَكِّرِينَ وَالصَّحَفِيِّينَ؟! وَأَيْنَ الْعَدْلُ؟ أَيْنَ الْعَدْلُ؟!

إِنَّهُمْ يُرِيدُونَ فَرْضَ رُؤْيَتِهِمُ الْفِكْرِيَّةِ عَلَى النَّاسِ بِالْقُوَّةِ، فِي إِرْهَابٍ فِكْرِيٍّ وَإِعْلَامِيٍّ لَا مَثِيلَ لَهُ. وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي يَشْتَكُونَ فِيهِ مِنَ الِاسْتِبْدَادِ وَالتَّسَلُّطِ السِّيَاسِيِّ وَالدِّينِيِّ؛ فَإِنَّهُمْ يُمَارِسُونَ أَبْشَعَ صُوَرِ الِاسْتِبْدَادِ وَالتَّسَلُّطِ عَلَى دِينِنَا وَأَخْلَاقِنَا وَأَعْرَافِنَا، وَعَلَى حَقِّ نِسَائِنَا فِي حِجَابِهِنَّ وَعِفَّتِهِنَّ وَحِفْظِهِنَّ، وَهُمْ وَهُنَّ ثُلَّةٌ مِنَ الْمُنْحَرِفِينَ وَالْمُنْحَرِفَاتِ لَا تُمَثِّلُ إِلَّا نَفْسَهَا، بَلْ وَتُمَثِّلُ مَنْ يَدْفَعُهَا إِلَى ذَلِكَ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ الْخَيْرَ بِالْمُسْلِمِينَ، وَيُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا.

إِنَّ هَذَا الْمُنْكَرَ الْعَظِيمَ يَجِبُ إِنْكَارُهُ بِالْوَسَائِلِ الْمَأْذُونِ فِيهَا شَرْعًا(١٢)، وَحَسَبَ

---

(١٢) قد أصدر مفتي عام المملكة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ بيانًا يستنكر فيه ما حدث في هذا المؤتمر من الاختلاط، وما تم بعده من إبراز لأحداثه، وللنساء المشاركات فيه، ودعا إلى الإنكار حسب الاستطاعة.

الْقُدْرَةِ وَالِاسْتِطَاعَةِ، وَكُلٌّ بِحَسَبِهِ، كَمَا يَجِبُ فَضْحُ الْأُطْرُوحَاتِ الْفِكْرِيَّةِ الْمُنْحَرِفَةِ الَّتِي تُغَلَّفُ بِأَغْلِفَةٍ تُخَالِفُ مَضْمُونَهَا كَالْإِصْلَاحِ، وَالتَّقَدُّمِ، وَالتَّطَوُّرِ، وَحُرِّيَّةِ الْمَرْأَةِ، وَإِعْطَائِهَا حُقُوقَهَا، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الشِّعَارَاتِ.

وَقَدْ رَأَيْنَا بِلَادًا حَوْلَنَا كَثِيرَةً أُخْرِجَتْ فِيهَا الْمَرْأَةُ مِنْ بَيْتِهَا، وَنَبَذَتْ حِجَابَهَا، وَخَالَطَتِ الرِّجَالَ، وَنَافَسَتْهُمْ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَصَارَعَتْهُمْ فِي مَيَادِينِهِمْ، فَمَا رَأَيْنَا بِلَادَهُمْ تَقَدَّمَتْ؛ بَلِ ازْدَادَتْ جَهْلًا إِلَى جَهْلِهَا، وَفَقْرًا إِلَى فَقْرِهَا، وَتَخَلُّفًا إِلَى تَخَلُّفِهَا، وَتَفَكَّكَتْ كَثِيرٌ مِنْ أُسَرِهِمْ، وَضَاعَ كَثِيرٌ مِنْ أَوْلَادِهِمْ، وَعَمَّ الْجَهْلُ بِالدِّينِ وَأَحْكَامِهِ أَرْجَاءَ بِلَادِهِمْ، وَلَا حَصَّلُوا الدُّنْيَا الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا نَبَذُوا الدِّينَ، وَأَفْسَدُوا الْمَرْأَةَ وَالْأُسْرَةَ، فَصَارُوا كَالْمُنْبَتِّ، لَا ظَهْرًا أَبْقَى، وَلَا أَرْضًا قَطَعَ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ خُسْرَانِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَاسْتَمْسِكُوا بِدِينِكُمْ، وَاحْفَظُوا بُيُوتَكُمْ، وَخُذُوا عَلَى أَيْدِي السُّفَهَاءِ مِنْكُمْ؛ فَإِنَّ الْعُقُوبَةَ إِذَا نَزَلَتْ عَمَّتْ، وَلَا تَخُصُّ الْمُفْسِدِينَ وَحْدَهُمْ؛ بَلْ تَعُمُّ الْجَمِيعَ ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

وَإِنَّ مِنْ أَعْظَمِ مَا يَدْرَأُ الْعُقُوبَاتِ، وَيَرْفَعُ الْبَلَاءَ: الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالسَّعْيَ بِالصَّلَاحِ وَالْإِصْلَاحِ: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٦، ١١٧].

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ أَنْ يُصْلِحَ أَحْوَالَنَا وَأَحْوَالَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ يَكْفِيَنَا شَرَّ أَنْفُسِنَا، وَشَرَّ كُلِّ مُفْسِدٍ وَمُفْسِدَةٍ، وَأَنْ يُجَنِّبَنَا وَالْمُسْلِمِينَ الْفِتَنَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا

وَمَا بَطَنَ، وَأَنْ يَحْفَظَ بِلَادَنَا وَبِلَادَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ كَيْدِ الْكَائِدِينَ، وَشَرِّ الْمُتَرَبِّصِينَ، وَحَسَدِ الْحَاسِدِينَ، وَأَنْ يَرُدَّ كَيْدَهُمْ إِلَى نُحُورِهِمْ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ.



٢٦٦- حجة الوداع (٢)
تحذير أمته من الفتن

٤/ ١٢/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: فَضْلُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى أُمَّتِهِ كَبِيرٌ، وَحَقُّهُ عَلَيْهِم عَظِيمٌ؛ امْتَنَّ اللهُ تَعَالَى بِبَعْثَتِهِ إِلَى البَشَرِ هَادِيًا مَهْدِيًّا، وَمُزَكِّيًا وَمُعَلِّمًا؛ فَكَانَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، دَالًّا عَلَى صِرَاطِ رَبِّهِ المُسْتَقِيمِ ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

بَشَّرَ وَأَنْذَرَ، وَحَذَّرَ وَأَعْذَرَ، اجْتَهَدَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي بَيَانِ الحَقِّ لِأُمَّتِهِ، وَمَا تَرَكَ النُّصْحَ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ مَوْتِهِ.

وَفِي حَجَّتِهِ العَظِيمَةِ الَّتِي وَدَّعَ النَّاسَ فِيهَا؛ حَثَّهُمْ عَلَى مَا يَنْفَعُهُمْ، وَحَذَّرَهُمْ مِمَّا يَضُرُّهُمْ، وَكَرَّرَ النُّصحَ لَهُمْ، وَأَعَادَ الْكَلَامَ عَلَيْهِمْ فِي أَيَّامٍ مُتَتَابِعَةٍ، وَأَمَاكِنَ عِدَّةٍ، وَأَحْوَالٍ مُتَنَوِّعَةٍ.

حَذَّرَهُمْ مِنْ عَظِيمَاتِ الْفِتَنِ، وَكَبَائِرِ الْإِثْمِ، وَبَيَّنَ لَهُمْ أَسْبَابَهَا وَمَا يَعْصِمُ مِنْهَا، وَكَانَ فِي خَاتِمَةِ كُلِّ خُطْبَةٍ يُلْقِيهَا، أَوْ نَصِيحَةٍ يُؤَدِّيهَا؛ يُشْهِدُهُمْ عَلَى بَلَاغِهِ، فَيَشْهَدُونَ، فَيُشْهِدُ اللهَ تَعَالَى عَلَى شَهَادَتِهِمْ.

وَقَعَ ذَلِكَ مِنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَوْمَ عَرَفَةَ بِعَرَفَةَ، وَيَوْمَ النَّحْرِ بِمِنًى، وَأَيَّامَ التَّشْرِيقِ عِنْدَ الجَمَرَاتِ.

كَرَّرَ فِي خُطَبِهِ المُتَوَالِيَةِ تَقْرِيرَ أُصُولِ الشَّرِيعَةِ، وَالتَّأْكِيدَ عَلَى المَعَانِي العَظِيمَةِ؛ لِأَنَّهُ عَلِمَ أَنَّهُ مُفَارِقٌ أَصْحَابَهُ، مُوَدِّعٌ أُمَّتَهُ.

حَذَّرَهُمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ أَكْبَرِ فِتْنَةٍ فِي الْبَشَرِ وَهِيَ فِتْنَةُ المَسِيحِ الدَّجَّالِ، كَمَا حَذَّرَهُمْ مِنْ صَغِيرَاتِ الْفِتَنِ الَّتِي تَقُودُ إِلَى كُبْرَيَاتِهَا، وَبَيَّنَ أَسْبَابَ الْفِتَنِ لِيَجْتَنِبُوهَا، كَمَا دَلَّهُمْ عَلَى مَا يَعْصِمُهُمْ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ.

قَالَ ابنُ عُمَرَ رضي الله عنهما: «كُنَّا نَتَحَدَّثُ بِحَجَّةِ الْوَدَاعِ وَالنَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا وَلَا نَدْرِي مَا حَجَّةُ الْوَدَاعِ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ ذَكَرَ المَسِيحَ الدَّجَّالَ وَأَطْنَبَ فِي ذِكْرِهِ، وَقَالَ: **مَا بَعَثَ اللهُ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَنْذَرَهُ أُمَّتَهُ، أَنْذَرَهُ نُوحٌ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ بَعْدِهِ، وَإِنَّهُ يَخْرُجُ فِيكُمْ، فَمَا خَفِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ شَأْنِهِ فَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْكُمْ أَنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ عَلَى مَا يَخْفَى عَلَيْكُمْ ثَلَاثًا، إِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، وَإِنَّهُ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُمْنَى كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ** ...» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[1].

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب حجة الوداع (٤١٤١)، وأبو عوانة (٦١٧٦)، وأحمد (٢/ ١٣٥)، وأبو يعلى (٥٥٨٦).

وَحَذَّرَهُمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ فِتَنِ الِاعْتِدَاءِ وَالظُّلْمِ، وَأَكَّدَ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ عَلَى حُرْمَةِ المُسْلِمِ عَلَى أَخِيهِ المُسْلِمِ؛ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَلَا إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟! قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ -ثَلَاثًا- وَيْلَكُمْ -أَوْ وَيْحَكُمْ!- انْظُرُوا، لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ**»(٢).

وَلَمَّا كَانَتِ العَصَبِيَّةُ الجَاهِلِيَّةُ لِعِرْقٍ أَوْ لَوْنٍ أَوْ تُرَابٍ مِنْ أَهَمِّ أَسْبَابِ الفُرْقَةِ وَالِاخْتِلَافِ وَالِاقْتِتَالِ بَيْنَ المُسْلِمِينَ؛ نَهَاهُمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَنْهَا، وَبَيَّنَ أَنَّ أَصْلَ النَّاسِ وَاحِدٌ؛ فَخَطَبَهُمْ فِي وَسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ: أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(٣).

وَاجْتِمَاعُ المُسْلِمِينَ خَيْرٌ مِنْ تَفَرُّقِهِمْ، وَالنَّصِيحَةُ لِوُلَاتِهِمْ سَبَبٌ لِاجْتِنَابِ

---

(٢) هذه قطعة من حديث ابن عمر رضي الله عنهما المخرج في الحاشية السابقة.

(٣) أخرجه من حديث أبي نضرة المنذر بن مالك العبدي عن رجل من الصحابة: ابن المبارك في مسنده (٢٣٩)، وأحمد (٥/ ٤١١)، والحارث بن أبي أسامة كما في زوائد مسنده للهيثمي (١/ ١٩٣)، وجهالة صحابيه لا تضر، قال الهيثمي: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح» ينظر: مجمع الزوائد (٣/ ٢٦٦).
وأخرجه من حديث أبي نضرة عن جابر رضي الله عنه: أبو نعيم في الحلية (٣/ ١٠٠)، والبيهقي في الشعب (٥١٣٧)، وقال البيهقي: في إسناده بعض من يجهل.
وأخرجه من طريق أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: البزار كما في مختصر زوائده لابن حجر (١٧٤٥)، والطبراني في الأوسط (٤٧٤٩)، وقال البزار: «لا نعلمه يروى عن أبي سعيد إلا من هذا الوجه» وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد وقال: «ورجال البزار رجال الصحيح» (٨/ ٨٤).

الفِتْنَةِ، وَاجْتِمَاعِ الكَلِمَةِ، كَمَا أَنَّ طَاعَةَ الوَالِي المُسْلِمِ سَبَبٌ لِجَمْعِ القُلُوبِ عَلَيْهِ؛ وَلِأَجْلِ ذَلِكَ أَكَّدَ عَلَى هَذِهِ المَعَانِي فِي حَجَّتِهِ، قَالَتْ أُمُّ حُصَيْنٍ رضي الله عنها: «حَجَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَجَّةَ الوَدَاعِ، فَرَأَيْتُهُ حِينَ رَمَى جَمْرَةَ العَقَبَةِ، وَانْصَرَفَ وَهُوَ عَلَى رَاحِلَتِهِ، وَمَعَهُ بِلَالٌ وَأُسَامَةُ، أَحَدُهُمَا يَقُودُ بِهِ رَاحِلَتَهُ وَالآخَرُ رَافِعٌ ثَوْبَهُ عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الشَّمْسِ، قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَوْلًا كَثِيرًا، ثُمَّ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: **إِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ مُجَدَّعٌ -حَسِبْتُهَا قَالَتْ- أَسْوَدُ، يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٤).

وَقَالَ جُبَيْرُ بنُ مُطْعِمٍ رضي الله عنه: «قَامَ رَسُولُ اللَّهِ بِالخَيْفِ مِنْ مِنًى فَقَالَ: ... **ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُؤْمِنٍ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَالنَّصِيحَةُ لِوُلَاةِ المُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ**»(٥).

وَمِنْ أَعْظَمِ النَّصِيحَةِ لَهُمْ: أَمْرُهُمْ بِالمَعْرُوفِ، وَنَهْيُهُمْ عَنِ المُنْكَرِ، وَدَعْوَتُهُمْ إِلَى الحَقِّ.

---

(٤) أخرجه أحمد (٦/ ٤٠٢)، ومسلم في الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة راكبًا (١٢٩٨)، والترمذي في الجهاد، باب ما جاء في طاعة الإمام وقال: حسن صحيح (١٧٠٦)، والنسائي في البيعة، باب الحض على طاعة الإمام (٧/ ١٥٤)، وابن ماجه، في الجهاد باب طاعة الإمام (١٨٦١).

(٥) أخرجه أحمد (٤/ ٨٢)، وابن ماجه في المناسك، باب الخطبة يوم النحر (٣٠٥٦)، والدارمي (٢٢٨)، وأبو يعلى (٧٤١٣)، والبزار (٣٤١٧)، والطبراني في الكبير (١/ ١٦٢) رقم (١٥٤١)، والحاكم وصححه وقال: على شرط الشيخين (١/ ١٦٢)، والقضاعي في مسند الشهاب (١٤٢١)، وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٦٢) برقم (١٥٣).
وقد جاء هذا الحديث بألفاظ متقاربة عن عدد من الصحابه منهم: عمر وعثمان وعلي ومعاذ وابن مسعود وزيد بن ثابت وابن عمر وابن عباس وأبو هريرة وأنس والنعمان بن بشير وغيرهم رضي الله عنهم. ونقل العجلوني في كشف الخفاء أن السيوطي ذكره في الأحاديث المتواترة (٢/ ٤٢٣).

وَلمَّا كَانَ الظُّلْمُ سَبَبًا لِلْفِتَنِ، وَالْغِيبَةُ سَبِيلًا لِلْوَقِيعَةِ بَيْنَ المُؤْمِنِينَ؛ حَذَّرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي حَجَّتِهِ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، فَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ الَّتِي بِمِنًى أَوْسَطَ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ: «... **اسْمَعُوا مِنِّي تَعِيشُوا، أَلَا لَا تَظْلِمُوا، أَلَا لَا تَظْلِمُوا، أَلَا لَا تَظْلِمُوا، إِنَّهُ لَا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ إِلَّا بِطِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ ... أَلَا إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ المُصَلُّونَ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَكُمْ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(٦).

وَكَانَ النَّاسُ يَأْتُونَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَمِنْ قَائِلٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: سَعَيْتُ قَبْلَ أَنْ أَطُوفَ، أَوْ قَدَّمْتُ شَيْئًا أَوْ أَخَّرْتُ شَيْئًا، فَكَانَ يَقُولُ: «**لَا حَرَجَ، لَا حَرَجَ، إِلَّا عَلَى رَجُلٍ اقْتَرَضَ عِرْضَ رَجُلٍ مُسْلِمٍ وَهُوَ ظَالِمٌ فَذَلِكَ الَّذِي حَرِجَ وَهَلَكَ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(٧). وَالمَعْنَى: أَنَّهُ عَابَهُ وَنَالَ مِنْهُ، وَقَطَعَهُ بِالْغِيبَةِ(٨).

حَذَّرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ غُلُوِّ أُمَّتِهِ فِي الْعِبَادَةِ؛ لِمَا فِي الغُلُوِّ مِنْ تَبْدِيلِ الدِّينِ، وَالِانْحِرَافِ عَنِ الهَدْيِ المُسْتَقِيمِ، قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَدَاةَ العَقَبَةِ وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ: «**الْقُطْ لِي حَصًى. فَلَقَطْتُ لَهُ سَبْعَ حَصَيَاتٍ هُنَّ**

---

(٦) أخرجه من حديث أبي حرة الرقاشي عن عمه: أحمد (٥/ ٧٢-٧٣)، وفي سنده علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف، لكن للحديث شواهد أخرى، وهي أحاديث خطب النبي ﷺ في حجته.
وأخرجه أيضًا من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: الروياني في مسنده (١٤١٦).

(٧) أخرجه من حديث أسامة بن شريك رضي الله عنه: أبو داود في المناسك، باب فيمن قدم شيئًا قبل شيء في حجه (٢٠١٥)، وأحمد (٤/ ٢٧٨)، والحميدي (٨٢٤)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٧٧٩)، والطبراني في الكبير (١/ ١٨٤) برقم (٤٨٣)، وأبو القاسم البغوى في مسند ابن الجعد (٢٥٨٦)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٩١)، والبيهقي (٥/ ١٩٦)، وصححه ابن خزيمة (٢٧٧٤)، وابن حبان (٤٨٦)، والحاكم وقال: هذا حديث أسانيده صحيحة كلها على شرط الشيخين ولم يخرجاه (٤/ ٢٢٠).

(٨) عون المعبود (٥/ ٣٤٤).

حَصَى الْخَذْفِ، فَجَعَلَ يَنْفُضُهُنَّ فِي كَفِّهِ وَيَقُولُ: **أَمْثَالَ هَؤُلَاءِ فَارْمُوا**، ثُمَّ قَالَ: **يَا أَيُّهَا النَّاسُ: إِيَّاكُمْ وَالغُلُوَّ فِي الدِّينِ؛ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الغُلُوُّ فِي الدِّينِ**» رَوَاهُ النَّسَائِيُّ(٩).

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «قَوْلُهُ: «**إِيَّاكُمْ وَالغُلُوَّ فِي الدِّينِ**» عَامٌّ فِي جَمِيعِ أَنْوَاعِ الغُلُوِّ فِي الِاعْتِقَادَاتِ وَالأَعْمَالِ، وَالغُلُوُّ: مُجَاوَزَةُ الحَدِّ بِأَنْ يُزَادَ فِي حَمْدِ الشَّيْءِ أَوْ ذَمِّهِ عَلَى مَا يَسْتَحِقُّ، وَنَحْوُ ذَلِكَ، وَالنَّصَارَى أَكْثَرُ غُلُوًّا فِي الِاعْتِقَادَاتِ مِنَ الأَعْمَالِ مِنْ سَائِرِ الطَّوَائِفِ، وَإِيَّاهُمْ نَهَى اللهُ تَعَالَى عَنِ الغُلُوِّ فِي القُرْآنِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء: ١٧١]. وَسَبَبُ هَذَا اللَّفْظِ العَامِّ: رَمْيُ الجِمَارِ، وَهُوَ دَاخِلٌ فِيهِ، وَالغُلُوُّ فِيهِ مِثْلُ رَمْيِ الحِجَارَةِ الكِبَارِ وَنَحْوُ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ أَبْلَغُ مِنَ الصِّغَارِ، ثُمَّ عَلَّلَ ذَلِكَ بِمَا يَقْتَضِي أَنَّ مُجَانَبَةَ هَدْيِهِمْ مُطْلَقًا -يَعْنِي: النَّصَارَى- أَبْعَدُ عَنِ الوُقُوعِ فِيمَا بِهِ هَلَكُوا، وَأَنَّ المُشَارِكَ لَهُمْ فِي بَعْضِ هَدْيِهِمْ يُخَافُ عَلَيْهِ الهَلَاكُ»(١٠).

وَيُقَابِلُ الغُلُوَّ فِي الدِّينِ، وَالتَّشَدُّدَ بِلَا دَلِيلٍ: التَّفَلُّتُ مِنَ الدِّينِ، وَتَحْرِيفُ الشَّرِيعَةِ، وَتَبْدِيلُ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى لِيُوَافِقَ أَهْوَاءَ البَشَرِ، بَلْ وَالكَذِبُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَعَلَى رَسُولِهِ ﷺ؛ إِرْضَاءً لِلأَهْوَاءِ، وَمُسَايَرَةً لِلْوَاقِعِ، وَقَدْ عَلِمَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ ذَلِكَ وَاقِعٌ فِي أُمَّتِهِ، فَحَذَّرَهُمْ مِنْهُ فِي حَجَّتِهِ.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ

---

(٩) أخرجه أحمد (١/ ٢١٥)، والنسائي في مناسك الحج، باب التقاط الحصى (٥/ ٢٦٨)، وابن ماجه في المناسك، باب قدر حصى الرمي (٣٠٢٩)، والبيهقي (٥/ ١٢٧)، وأبو يعلى (٢٤٢٧)، وابن أبي شيبة (٣/ ٢٠٣)، وصححه ابن حبان (٣٨٧١)، والحاكم وقال: على شرط الشيخين ولم يخرجاه (١/ ٦٣٧).

(١٠) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٩٤).

الْمُخَضْرَمَةِ بِعَرَفَاتٍ: «**أَتَدْرُونَ أَيَّ يَوْمٍ هَذَا؟! ...**»، إِلَى أَنْ قَالَ: «**أَلَا وَإِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الحَوْضِ، وَأُكَاثِرُ بِكُمُ الأُمَمَ، فَلَا تُسَوِّدُوا وَجْهِي، أَلَا وَإِنِّي مُسْتَنْقِذٌ أُنَاسًا، وَمُسْتَنْقَذٌ مِنِّي أُنَاسٌ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ: أُصَيْحَابِي، فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**» رَوَاهُ ابنُ مَاجَه[١١].

وَفِي رِوَايَةٍ لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ: «**أَلَا وَإِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الحَوْضِ أَنْظُرُكُمْ، وَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الأُمَمَ فَلَا تُسَوِّدُوا وَجْهِي، أَلَا وَقَدْ رَأَيْتُمُونِي وَسَمِعْتُمْ مِنِّي، وَسَتُسْأَلُونَ عَنِّي؛ فَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، أَلَا وَإِنِّي مُسْتَنْقِذٌ رِجَالًا أَوْ نَاسًا، وَمُسْتَنْقَذٌ مِنِّي آخَرُونَ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ: أَصْحَابِي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**»[١٢].

إِنَّهَا مَعَانٍ عَظِيمَةٌ، وَأُصُولٌ كَبِيرَةٌ، أَكَّدَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ فِي حَجَّتِهِ، وَكَرَّرَهَا عَلَى أَصْحَابِهِ؛ نُصْحًا لَهُمْ، وَرَأْفَةً بِأُمَّتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وَكَانَ الصَّحَابَةُ ﷺ يَعْجَبُونَ مِنْ تَأْكِيدِهِ هَذِهِ المَعَانِيَ فِي تِلْكَ المَوَاطِنِ

---

(١١) أخرجه ابن ماجه في المناسك، باب الخطبة يوم النحر (٣٠٥٧) من حديث عمرو بن مرة عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ.
وأخرجه من حديث عمرو بن مرة عن رجل من أصحاب النبي ﷺ -ولم يسمه-: النسائي في الكبرى (٤٠٩٩)، وابن أبي شيبة (٧/ ٤٥٥)، وأحمد (٥/ ٤١٢)، والظاهر أن الصحابي المبهم هو عبدالله بن مسعود رضي الله عنه كما في رواية ابن ماجه.
وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٣/ ٢٠٧): «هذا إسناد صحيح رواه مسدد في مسنده عن يحيى بن سعيد عن شعبة عن عمرو بن مرة عن مرة عن رجل من أصحاب النبي ﷺ عن النبي ﷺ فذكره، وسياقه أتم...».
وجاء نحوه من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه عند: الديلمي في مسند الفردوس (١٢٨) وهو حديث ضعيف كما في لسان الميزان (٦/ ١٢٥) ترجمة موسى بن عثمان عن الحكم ابن عتيبة (٤٣٣).
(١٢) هذه الرواية للإمام أحمد (٥/ ٤١٢).

وَتكْرَارِهَا، وَيَتَكَلَّمُونَ عَنْ حَجَّةِ الوَدَاعِ وَلَا يَدْرُونَ مَا هِيَ: أَهِيَ وَدَاعُ النَّبِيِّ ﷺ أَمْ غَيرُهُ؟! حَتَّى تُوُفِّيَ النَّبِيُّ ﷺ فَعَلِمُوا عِنْدَ ذَلِكَ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلَامُ وَدَّعَ النَّاسَ بِالْوَصَايَا الَّتِي أَوْصَاهُمْ بِهَا قُرْبَ أَيَّامِ مَوْتِهِ(١٣).

فَهَنِيئًا لِمَنْ فَهِمَ تِلْكَ الوَصَايَا؛ فَأَخَذَ بِهَا، وَيَا شَقَاءَ مَنْ أَغْفَلَهَا أَوْ أَعْرَضَ عَنْهَا!

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي القُرْآنِ العَظِيمِ.

❀ ❀ ❀

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ.

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: هَذِهِ العَشْرُ المُبَارَكَةُ هِيَ خَيْرُ أَيَّامِ السَّنَةِ، وَالعَمَلُ فِيهَا أَفْضَلُ مِنَ العَمَلِ فِي غَيْرِهَا، بِنَصِّ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**مَا مِنْ أَيَّامٍ العَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الأَيَّامِ**. يَعْنِي: أَيَّامَ العَشْرِ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ: وَلَا الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟! قَالَ: **وَلَا الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ**

(١٣) ينظر: فتح الباري لابن حجر (٨/ ١٠٧)، وعمدة القاري (١٨/ ٤٠).

وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ»(١٤).

وَمِنَ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فِي هَذِهِ العَشْرِ: ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ فِيهَا أَفْضَلُ مِنْهُ فِي غَيْرِهَا؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾ [الحج: ٢٧]، فَإِنَّ الأَيَّامَ المَعْلُومَاتِ هِيَ أَيَّامُ العَشْرِ عِنْدَ جُمْهُورِ العُلَمَاءِ(١٥).

وَرَوَى ابنُ عُمَرَ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَا مِنْ أَيَّامٍ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ وَلَا أَحَبُّ إِلَيْهِ العَمَلُ فِيهِنَّ مِنْ هَذِهِ الأَيَّامِ العَشْرِ، فَأَكْثِرُوا فِيهِنَّ مِنَ التَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ وَالتَّحْمِيدِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(١٦).

وَذَكَرَ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ أَنَّ ابنَ عُمَرَ وَأَبَا هُرَيْرَةَ رضي الله عنهما كَانَا يَخْرُجَانِ إِلَى السُّوقِ فِي أَيَّامِ العَشْرِ يُكَبِّرَانِ وَيُكَبِّرُ النَّاسُ بِتَكْبِيرِهِمَا(١٧).

فَمِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ تَعَالَى فِي هَذِهِ العَشْرِ: كَثْرَةُ الذِّكْرِ، وَآكَدُهُ التَّكْبِيرُ، فَيَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ الإِكْثَارُ مِنَ التَّكْبِيرِ المُطْلَقِ فِي هَذِهِ الأَيَّامِ العَظِيمَةِ، وَالجَهْرُ بِهِ، ابْتِدَاءً مِنْ دُخُولِ هَذِهِ العَشْرِ فِي الصَّبَاحِ وَالمَسَاءِ وَفِي كُلِّ وَقْتٍ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ﴾ [الحج: ٣٤].

---

(١٤) أخرجه البخاري في العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق (٩٢٦)، وأبو داود واللفظ له في الصوم، باب في صوم العشر (٢٤٣٨)، والترمذي في الصوم، باب ما جاء في العمل في أيام العشر (٧٥٧)، وابن ماجه في الصيام، باب صيام العشر (١٧٢٧)، والدارمي (١٧٧٣)، وأحمد (١/ ٢٢٤).

(١٥) ينظر: تفسير الطبري (١٧/ ١٤٨) وعلَّق البخاري في صحيحه في كتاب العيدين باب فضل العمل في أيام التشريق قول ابن عباس رضي الله عنهما: «الأيام المعلومات: أيام العشر، والأيام المعدودات: أيام التشريق» (١/ ٣٢٩).

(١٦) أخرجه أحمد (٢/ ٧٥)، وعبد بن حميد (٨٠٧)، وابن أبي شيبة (٣/ ٢٥٠).

وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما عند: الطبراني في الكبير (١١/ ٨٢) برقم (١١١١٦).

(١٧) أخرجه البخاري معلقًا مجزومًا به في العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق (١/ ٣٢٩).

فَإِذَا صَلَّى غَيْرُ الحُجَّاجِ فَجْرَ يَوْمِ عَرَفَةَ شُرِعَ التَّكْبِيرُ المُقَيَّدُ مَعَ المُطْلَقِ إِلَى آخِرِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ؛ لِفَضْلِ تِلْكَ الأَيَّامِ، وَلِمَزِيَّةِ التَّكْبِيرِ فِيهَا عَلَى غَيْرِهَا، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «هِيَ أَيَّامُ التَّشْرِيقِ»(١٨).

وَجَاءَ فِي حَدِيثِ نُبَيْشَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**أَيَّامُ التَّشْرِيقِ أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ وَذِكْرٍ لِلَّهِ** عز وجل» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٩).

وَمِنْ أَعْظَمِ القُرَبِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى- فِي يَوْمِ النَّحْرِ: الأُضْحِيَّةُ، وَهِيَ فِعْلُ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ، وَفِدَاءُ أَبِينَا إِسْمَاعِيلَ، وَسُنَّةُ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ فَقَدْ قَالَ أَنَسُ بنُ مَالِكٍ رضي الله عنه: «ضَحَّى النَّبِيُّ ﷺ بِكَبْشَيْنِ أَمْلَحَيْنِ أَقْرَنَيْنِ ذَبَحَهُمَا بِيَدِهِ، وَسَمَّى وَكَبَّرَ وَوَضَعَ رِجْلَهُ عَلَى صِفَاحِهِمَا» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٢٠).

وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُضَحِّيَ فَلْيُمْسِكْ عَنْ شَعَرِهِ وَأَظْفَارِهِ مُنْذُ إِهْلَالِ ذِي الحِجَّةِ حَتَّى

---

(١٨) ينظر: حاشية (١٥).

(١٩) أخرجه مسلم في الصيام، باب تحريم صوم أيام التشريق (١١٤١)، وأبو داود في الضحايا، باب في حبس لحوم الضحايا (٢٨١٣)، والنسائي في الفرع والعتيرة، باب تفسير العتيرة (٧/ ١٧٠)، وأحمد (٥/ ٧٥).

وجاء نحوه من حديث علي رضي الله عنه عند: أحمد (١/ ٩٢).

ومن حديث كعب بن مالك رضي الله عنه عند: مسلم في الصيام، باب تحريم صوم أيام التشريق (١١٤٢).

ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند: أحمد (٢/ ٢٢٩)، وابن ماجه (١٧١٩).

ومن حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عند: أحمد (١/ ١٦٩).

وعن غيرهم من الصحابة رضي الله عنهم.

(٢٠) أخرجه البخاري في الأضاحي، باب من ذبح الأضاحي بيده (٥٢٣٨)، ومسلم في الأضاحي، باب استحباب الضحية وذبحها مباشرة بلا توكيل والتسمية والتكبير (١٩٦٦).

يَذْبَحَ أُضْحِيَّتَهُ؛ كَمَا أَمَرَ بِذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها[٢١].

وَمَنْ لَمْ يَحُجَّ فَيُشْرَعُ لَهُ صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَصِيَامُهُ سُنَّةٌ مُؤَكَّدَةٌ، رَتَّبَ الشَّارِعُ الحَكِيمُ عَلَيْهَا تَكْفِيرَ ذُنُوبِ سَنَتَيْنِ كَامِلَتَيْنِ، السَّنَةَ البَاقِيَةَ وَالسَّنَةَ المَاضِيَةَ؛ كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ[٢٢].

فَلَا يُفَرِّطُ فِي ذَلِكَ إِلَّا مَنْ حَرَمَ نَفْسَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، فَأَرُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- مِنْ أَنْفُسِكُمْ خَيْرًا، وَأَكْثِرُوا مِنَ العَمَلِ الصَّالِحِ فِي هَذِهِ العَشْرِ المُبَارَكَةِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى خَيْرِ خَلْقِ اللَّهِ، مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ اللَّهِ؛ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ . . .



(٢١) روت أم سلمة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «**إذا رأيتم هلال ذي الحجة وأراد أحدكم أن يضحي فليمسك عن شعره وأظفاره**» أخرجه مسلم في الأضاحي، باب نهي من دخل عليه عشر ذي الحجة وهو مريد التضحية أن يأخذ من شعره أو أظفاره شيئًا (١٩٧٧)، وأحمد (١٢/ ٣٤١).

(٢٢) روى أبو قتادة الأنصاري رضي الله عنه أن النبي ﷺ سئل عن يوم عرفة فقال: «**يكفر السنة الماضية والباقية . .**» أخرجه مسلم في الصوم، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة. .(١١٦٢)، والنسائي في الكبرى (٢٨١٣)، وأحمد (٥/ ٢٩٦).



٢٦٧- حجة الوداع (٣)
مخالفة المشركين

٦/ ١٢/ ١٤٢٦هـ

الحَمْدُ لِلَّهِ؛ رَبِّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكِهِ، خَلَقَ الإِنْسَ وَالجِنَّ لِعِبَادَتِهِ، وَكَلَّفَهُمْ بِحَمْلِ أَمَانَتِهِ، أَحْمَدُهُ فَهُوَ أَهْلُ الْحَمْدِ، وَأَشْكُرُهُ فَلَا أَحَدَ أَحَقُّ مِنْهُ بِالشُّكْرِ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ شَرَعَ الشَّرَائِعَ، وَفَرَضَ المَنَاسِكَ؛ سَبِيلًا إِلَى مَرْضَاتِهِ، وَطَرِيقًا يُبَلِّغُ الْعِبَادَ جَنَّاتِهِ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ لَا طَرِيقَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا طَرِيقُهُ، وَلَا سُنَّةَ يَجِبُ لُزُومُهَا إِلَّا سُنَّتُهُ؛ تَحَمَّلَ رِسَالَةَ رَبِّهِ فَبَلَّغَهَا، وَنَصَحَ لِأُمَّتِهِ فَبَشَّرَهَا وَأَنْذَرَهَا، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاحْذَرُوهُ فَلَا تَعْصُوهُ؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ مُطَّلِعٌ عَلَى أَعْمَالِكُمْ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ مِنْكُمْ ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

أَيُّهَا النَّاسُ: يَفْضُلُ الزَّمَانُ بِمَا فِيهِ مِنْ شَعَائِرَ، وَيَفْضُلُ المَكَانُ بِمَا يَحْوِيهِ مِنْ مَشَاعِرَ، وَيَتَفَاضَلُ البَشَرُ بِتَعْظِيمِ الحُرُمَاتِ، وَالتَّقَرُّبِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِالطَّاعَاتِ، فَكَيْفَ إِذَا اجْتَمَعَتْ فَضِيلَةُ الزَّمَانِ وَالمَكَانِ وَالأَشْخَاصِ وَالأَعْمَالِ؛ كَمَا وَقَعَ فِي أَفْضَلِ حَجَّةٍ عَلَى الإِطْلَاقِ، فِي أَيَّامٍ مِنْ أَيَّامِ اللَّهِ تَعَالَى، وَفِي أَقْدَسِ البِقَاعِ عِنْدَهُ، يَؤُمُّ النَّاسَ فِيهَا خَاتَمُ الرُّسُلِ، وَأَفْضَلُ البَشَرِ، فِي جُمُوعٍ غَفِيرَةٍ مِنْ خِيرَةِ هَذِهِ الأُمَّةِ، قَدْ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ.

لَقَدْ كَانَتْ حَجَّةُ الوَدَاعِ حَدَثًا مُهِمًّا فِي تَارِيخِ الإِسْلَامِ، خَطَبَ فِيهَا الرَّسُولُ ﷺ، وَذَكَرَ أُصُولَ الإِسْلَامِ، وَأَوْصَى النَّاسَ، وَبَلَّغَهُمْ وَأَنْذَرَهُمْ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى بَلَاغِهِ فَشَهِدُوا، فَكَانَ ذَلِكَ تَوْدِيعًا مِنْهُ لِأُمَّتِهِ؛ إِذْ مَا لَبِثَ بَعْدَ حَجَّتِهِ إِلَّا ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ أَوْ أَقَلَّ فَلَحِقَ بِالرَّفِيقِ الأَعْلَى[١]، فَعَلِمَ النَّاسُ أَنَّهُ فِي حَجِّهِ كَانَ يُوَدِّعُهُمْ. وَرَغْمَ أَنَّ حَجَّتَهُ ﷺ كَانَتْ أَيَّامًا مَعْدُودَةً فَإِنَّهَا حَوَتْ مِنَ البَلَاغِ وَالدَّعْوَةِ، وَالعِلْمِ وَالتَّرْبِيَةِ فُصُولًا كَثِيرَةً، أُلِّفَتْ فِيهَا كُتُبٌ، وَأُفْرِدَتْ لَهَا أَبْوَابٌ.

وَمِنْ أَبْرَزِ المَظَاهِرِ وَالشَّعَائِرِ فِي حَجَّتِهِ ﷺ تَعَمُّدُ مُخَالَفَةِ المُشْرِكِينَ فِي هَدْيِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ وَحَجِّهِمْ، وَوَقَعَ ذَلِكَ مِنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِعْلًا فِي مَوَاطِنَ عِدَّةٍ؛ وَصَدَعَ بِهِ قَوْلًا فِي خُطْبَةِ عَرَفَةَ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ، وَدِمَاءُ الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ، وَرِبَا الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُ رِبَانَا رِبَا عَبَّاسِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ؛ فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[٢]. وَفِي رِوَايَةِ أَحْمَدَ: «**وَإِنَّ كُلَّ دَمٍ وَمَالٍ وَمَأْثُرَةٍ كَانَتْ فِي الجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمِي هَذِهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ**»[٣].

كَيْفَ؟ وَهُوَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَنْ أَبْطَلَ التَّلْبِيَةَ الشِّرْكِيَّةَ الَّتِي كَانَتْ شِعَارَ أَهْلِ الجَاهِلِيَّةِ؛ وَأَبْدَلَ بِهَا التَّوْحِيدَ الخَالِصَ لِلَّهِ تَعَالَى؛ كَمَا رَوَى مُسْلِمٌ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «كَانَ المُشْرِكُونَ يَقُولُونَ: لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، قَالَ: فَيَقُولُ

---

(١) تراوحت المدة بين حجته ووفاته من ثمانين يومًا إلى واحد وتسعين يومًا، على خلاف بين العلماء وأهل السير في ذلك. ينظر تفصيله في فتح الباري لابن حجر (٨/ ١٢٩-١٣٠).

(٢) أخرجه من حديث جابر رضي الله عنه: مسلم في الحج، باب حجة النبي ﷺ (١٢١٨)، وأبو داود في المناسك، باب حجة النبي ﷺ (١٩٠٥)، والنسائي في الكبرى (٤٠٠١)، وابن ماجه في المناسك، باب حجة الرسول ﷺ (٣٠٧٤).

(٣) هذه الرواية من حديث أبي حرة الرقاشي عن عمه عند: أحمد (٥/ ٧٢).

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **وَيْلَكُمْ قَدْ قَدْ** -أَيْ: يَكْفِيكُمْ هَذَا عَنْ بَاقِي تَلْبِيَتِكُمْ- فَيَقُولُونَ: إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ، يَقُولُونَ هَذَا وَهُمْ يَطُوفُونَ بِالبَيْتِ»(٤).

فَأَبْطَلَ تَلْبِيَتَهُمْ تِلْكَ بِالتَّلْبِيَةِ الشَّرْعِيَةِ المَعْرُوفَةِ، وَأَعَادَ الحَجَّ عَلَى أُصُولِهِ الَّتِي أَذَّنَ بِهَا خَلِيلُ الرَّحْمَنِ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام؛ كَمَا رَوَى أَبُو دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ عَمْرِو ابنِ عَبْدِ اللَّهِ بنِ صَفْوَانَ عَنْ يَزِيدَ بنِ شَيْبَانَ قَالَ: «أَتَانَا ابنُ مِرْبَعٍ الأَنْصَارِيُّ وَنَحْنُ بِعَرَفَةَ فِي مَكَانٍ يُبَاعِدُهُ عَمْرٌو عَنِ الإِمَامِ فَقَالَ: أَمَا إِنِّي رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَيْكُمْ، يَقُولُ لَكُمْ: **قِفُوا عَلَى مَشَاعِرِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ عَلَى إِرْثٍ مِنْ إِرْثِ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ**»(٥).

وَذَكَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَتَابُعَ الأَنْبِيَاءِ عليهم السلام لِإِحْيَاءِ الشَّعَائِرِ العَظِيمَةِ فِي المَشَاعِرِ المُقَدَّسَةِ فَذَكَرَ مُوسَى وَعِيسَى وَيُونُسَ؛ كَمَا رَوَى ابنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِوَادِي الأَزْرَقِ -وَيَبْعُدُ عَنْ مَكَّةَ مِيلَيْنِ- فَقَالَ: «**أَيُّ وَادٍ هَذَا؟** فَقَالُوا: هَذَا وَادِي الأَزْرَقِ، قَالَ: **كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مُوسَى عليه السلام هَابِطًا مِنَ الثَّنِيَّةِ وَلَهُ جُؤَارٌ إِلَى اللَّهِ بِالتَّلْبِيَةِ**، ثُمَّ أَتَى عَلَى ثَنِيَّةِ هَرْشَى فَقَالَ: أَيُّ ثَنِيَّةٍ هَذِهِ؟ قَالُوا: ثَنِيَّةُ هَرْشَى، قَالَ: **كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى يُونُسَ بنِ مَتَّى عليه السلام عَلَى نَاقَةٍ حَمْرَاءَ جَعْدَةٍ، عَلَيْهِ جُبَّةٌ مِنْ صُوفٍ، خُطَامُ نَاقَتِهِ خُلْبَةٌ، وَهُوَ يُلَبِّي**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٦).

---

(٤) أخرجه مسلم في الحج، باب التلبية وصفتها ووقتها (١١٨٥)، وما بين المعترضتين ليس من الحديث، وإنما هو مني بيانًا للمعنى.

(٥) أخرجه أبو داود في المناسك، باب موضع الوقوف بعرفة (١٩١٩)، والنسائي في مناسك الحج، باب رفع اليدين في الدعاء بعرفة (٥/ ١٥٤).

(٦) أخرجه مسلم في الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات (١٦٦)، وابن ماجه في المناسك، باب الحج على الرحل (٢٨٩١)، وأحمد (١/ ٢١٥).
وقوله: وادي الأزرق: خلف أمج، إلى مكة بميل.. قاله البكري في معجمه (١/ ١٤٦).
وقوله: «ثنيه هرشى» -بفتح الهاء وسكون الراء وألف مقصورة بعد الشين المعجمة-: جبل على طريق الشام والمدينة قريب من الجحفة. ذكره السيوطي في الديباج (١/ ٢١٢). =

وَفِي حَجِّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُهِلَّنَّ ابنُ مَرْيَمَ بِفَجِّ الرَّوْحَاءِ حَاجًّا أَوْ مُعْتَمِرًا أَوْ لَيَثْنِيَنَّهُمَا**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٧).

لَقَدْ أَبْطَلَ النَّبِيُّ ﷺ دِينَ المُشْرِكِينَ فِي الحَجِّ؛ وَأَعَادَ مَنَاسِكَهُ عَلَى مُقْتَضَى أَذَانِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَسُنَنِ الأَنْبِيَاءِ بَعْدَهُ، وَظَهَرَ ذَلِكَ فِي مَوَاطِنَ عِدَّةٍ؛ فَفِي العُمْرَةِ كَانَ المُشْرِكُونَ يُحَرِّمُونَ العُمْرَةَ فِي أَشْهُرِ الحَجِّ(٨)، وَالنَّبِيُّ ﷺ اعْتَمَرَ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ كُلُّهُنَّ فِي ذِي القِعْدَةِ وَهُوَ مِنْ أَشْهُرِ الحَجِّ، بَلْ فِي حَجَّتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَمَرَ النَّاسَ أَنْ يُحَوِّلُوا نُسُكَهُمْ إِلَى عُمْرَةٍ، ثُمَّ يُحْرِمُوا بِالحَجِّ بَعْدَ ذَلِكَ؛ كَمَا رَوَى مُسْلِمٌ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ العُمْرَةَ فِي أَشْهُرِ الحَجِّ مِنْ أَفْجَرِ الْفُجُورِ فِي الأَرْضِ، وَيَجْعَلُونَ المُحَرَّمَ صَفَرًا، وَيَقُولُونَ: إِذَا بَرَأَ الدَّبَرْ، وَعَفَا الأَثَرْ، وَانْسَلَخَ صَفَرْ حَلَّتِ العُمْرَةُ لِمَنِ اعْتَمَرْ، فَقَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ صَبِيحَةَ رَابِعَةٍ مُهِلِّينَ بِالحَجِّ، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوهَا عُمْرَةً، فَتَعَاظَمَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الحِلِّ؟ قَالَ: **الحِلُّ كُلُّهُ**»(٩).

= وقوله: «جعدة» أي: مكتنزة اللحم .
وقوله: «خُلبة» -بضم الخاء والتنوين في آخره-: هو الحبل من الليف الصلب الرقيق. ينظر: الديباج (١/ ٢٠٨) ويكون من ليف النخل. كما ذكر القاضي عياض في مشارق الأنوار (١/ ٢٣٦).

(٧) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مسلم في الحج، باب إهلال النبي ﷺ وهديه (١٢٥٢).

(٨) روى أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ: «اعتمر أربع عمر في ذي القعدة إلا التي اعتمر مع حجته» رواه البخاري (١٦٨٨)، ومسلم (١٢٥٣). ولما حكى ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ اعتمر في رجب خطأته عائشة رضي الله عنها كما في البخاري (١٦٨٥)، ومسلم (١٢٥٥).

(٩) أخرجه البخاري في الحج، باب التمتع والإقران والإفراد بالحج وفسخ الحج لمن لم يكن معه هدي (١٤٨٩)، ومسلم في الحج، باب جواز العمرة في أشهر الحج (١٢٤٠)، والنسائي في مناسك الحج، باب إباحة فسخ الحج بعمرة لمن لم يسق الهدي (٥/ ١٧٧)، وأحمد (١/ ٢٥٢). =

وَلَمَّا حَاضَتْ عَائِشَةُ ﵂ فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ فَجَعَلَتْ نُسُكَهَا حَجًّا، وَقَالَتْ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، كُلُّ أَصْحَابِكَ يَرْجِعُ بِحَجٍّ وَعُمْرَةٍ غَيْرِي»[١٠]، أَمَرَهَا بِالْعُمْرَةِ بَعْدَ حَجِّهَا، وَكَانَ ذَلِكَ عَظِيمًا فِي دِينِ المُشْرِكِينَ، حَتَّى قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ ﵄: «وَاللَّهِ مَا أَعْمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَائِشَةَ فِي ذِي الحِجَّةِ إِلَّا لِيَقْطَعَ بِذَلِكَ أَمْرَ أَهْلِ الشِّرْكِ؛ فَإِنَّ هَذَا الحَيَّ مِنْ قُرَيْشٍ وَمَنْ دَانَ دِينَهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ: إِذَا عَفَا الوَبَرْ، وَبَرَأَ الدَّبَرْ، وَدَخَلَ صَفَرْ فَقَدْ حَلَّتِ العُمْرَةُ لِمَنِ اعْتَمَرَ، فَكَانُوا يُحَرِّمُونَ العُمْرَةَ حَتَّى يَنْسَلِخَ ذُو الحِجَّةِ وَالمُحَرَّمُ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[١١].

وَفِي الطَّوَافِ كَانَتِ الْعَرَبُ تَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرَاةً إِلَّا الحُمْسَ -وَالحُمْسُ: قُرَيْشٌ وَمَا وَلَدَتْ- سُمُّوا بِذَلِكَ لِأَنَّهُمْ شَدَّدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَكَانُوا إِذَا أَهَلُّوا بِحَجٍّ أَوْ عُمْرَةٍ لَا يَأْكُلُونَ لَحْمًا، وَلَا يَضْرِبُونَ وَبَرًا وَلَا شَعَرًا، وَإِذَا قَدِمُوا مَكَّةَ وَضَعُوا ثِيَابَهُمُ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ، وَكَانَ النَّاسُ غَيْرُهُمْ يَطُوفُونَ بِالبَيْتِ عُرَاةً إِلَّا أَنْ يُعْطِيَهُمْ أَحَدٌ مِنْ قُرَيْشٍ ثِيَابًا، فَيُعْطِي الرِّجَالُ الرِّجَالَ وَالنِّسَاءُ النِّسَاءَ؛ فَأَبْطَلَ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ.

وَفِي الوُقُوفِ بِعَرَفَةَ كَانَتِ الحُمْسُ لَا يَخْرُجُونَ مِنَ المُزْدَلِفَةِ، وَكَانَ النَّاسُ

= وقولهم «إذا برأ الدبر» بفتح الدال، وهو ما كان يحصل لظهور الإبل جراء الحمل عليها للحج، فإنه يبرأ بعد انصرافهم من الحج.

وقولهم «وعفا الأثر» أي: اندرس أثر الإبل وغيرها في سيرها إلى الحج، ويحتمل: أثر الدبر المذكور آنفًا.

وقولهم «وعفا الوبر» أي: كثر وبر الإبل الذي حلق أو سقط بالرحال. ينظر: فتح الباري (٣/ ٤٢٦)، وشرح النووي على مسلم (٨/ ٢٢٥).

(١٠) أخرجه البخاري في الحج، باب إذا حاضت المرأة بعدما أفاضت (١٦٧٣)، ومسلم في الحج، باب بيان وجوه الإحرام (١٢١١).

(١١) أخرجه أبو داود في المناسك، باب العمرة (١٩٨٧) وصححه ابن حبان (٣٧٦٥).

كُلُّهُمْ يَبْلُغُونَ عَرَفَاتٍ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ فِيهِمْ: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩].

قَالَتْ عَائِشَةُ ﵂: «كَانَ النَّاسُ يُفِيضُونَ مِنْ عَرَفَاتٍ، وَكَانَ الحُمْسُ يُفِيضُونَ مِنَ المُزْدَلِفَةِ يَقُولُونَ: لَا نُفِيضُ إِلَّا مِنَ الحَرَمِ، فَلَمَّا نَزَلَتْ: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩] رَجَعُوا إِلَى عَرَفَاتٍ»(١٢).

وَسَبَبُ فِعْلِهِمْ هَذَا: «أَنَّ الشَّيْطَانَ قَدِ اسْتَهْوَاهُمْ فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّكُمْ إِنْ عَظَّمْتُمْ غَيْرَ حَرَمِكُمُ اسْتَخَفَّ النَّاسُ بِحَرَمِكُمْ؛ فَكَانُوا لَا يَخْرُجُونَ مِنَ الحَرَمِ، وَيَقُولُونَ: نَحْنُ أَهْلُ اللَّهِ لَا نَخْرُجُ مِنَ الحَرَمِ، وَكَانَ سَائِرُ النَّاسِ يَقِفُ بِعَرَفَةَ»(١٣).

وَخَالَفَهُمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي النَّفْرَةِ مِنْ عَرَفَةَ، وَفِي الدَّفْعِ مِنْ مُزْدَلِفَةَ؛ إِذْ كَانُوا يَنْفِرُونَ مِنْ عَرَفَةَ قَبْلَ الغُرُوبِ، وَيَدْفَعُونَ مِنْ مُزْدَلِفَةَ بَعْدَ الشُّرُوقِ؛ فَنَفَرَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ عَرَفَةَ بَعْدَ الغُرُوبِ، وَدَفَعَ مِنْ مُزْدَلِفَةَ قُبَيْلَ الشُّرُوقِ؛ كَمَا رَوَى المِسْوَرُ ابنُ مَخْرَمَةَ ﵁ فَقَالَ: «خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِعَرَفَةَ؛ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: **أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ أَهْلَ الشِّرْكِ وَالأَوْثَانِ كَانُوا يَدْفَعُونَ مِنْ هَاهُنَا عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ حِينَ تَكُونُ الشَّمْسُ عَلَى رُؤُوسِ الجِبَالِ مِثْلَ عَمَائِمِ الرِّجَالِ عَلَى رُؤُوسِهَا، فَهَدْيُنَا مُخَالِفٌ لِهَدْيِهِمْ، وَكَانُوا يَدْفَعُونَ مِنَ المَشْعَرِ الحَرَامِ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ عَلَى رُؤُوسِ الجِبَالِ مِثْلَ عَمَائِمِ الرِّجَالِ عَلَى رُؤُوسِهَا فَهَدْيُنَا مُخَالِفٌ لِهَدْيِهِمْ**» رَوَاهُ الحَاكِمُ، وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ(١٤).

وَرَوَى عَمْرُو بنُ مَيْمُونٍ ﵁ فَقَالَ: «شَهِدْتُ عُمَرَ ﵁ صَلَّى بِجَمْعٍ الصُّبْحَ ثُمَّ

---

(١٢) أخرجه البخاري في الحج، باب الوقوف بعرفة (١٥٨٢)، ومسلم في الحج، باب في الوقوف (١٢١٩).

(١٣) ينظر: فتح الباري (٣/ ٥١٦).

(١٤) أخرجه البيهقي (٥/ ١٢٥)، والحاكم وصححه، وقال: على شرط الشيخين (٢/ ٣٠٤).

وَقَفَ فَقَالَ: إِنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا لَا يُفِيضُونَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ وَيَقُولُونَ: أَشْرِقْ ثَبِيرُ، وَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَالَفَهُمْ ثُمَّ أَفَاضَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١٥).

وَكَانَ مِنْ مُبَالَغَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي مُخَالَفَةِ الْمُشْرِكِينَ وَمُرَاغَمَتِهِمْ، وَإِبْطَالِ دِينِهِمْ: أَنَّهُ كَانَ يَقْصِدُ الأَمَاكِنَ الَّتِي تَوَاصَوْا فِيهَا عَلَى الشِّرْكِ وَمُحَارَبَةِ الدَّعْوَةِ، وَيُقِيمُ فِيهَا مَعَالِمَ التَّوْحِيدِ، وَيَشْكُرُ اللهَ تَعَالَى عَلَى مَا مَنَّ بِهِ عَلَيْهِ مِنْ ظُهُورِ دِينِهِ، وَإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ، وَدَحْرِ الكُفْرِ وَأَهْلِهِ.

وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ جَمَعَ قُرَيْشًا إِبَّانَ صَدْعِهِ بِدَعْوَتِهِ، وَصَعِدَ الصَّفَا، وَقَالَ: «**إِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**»، فَقَالَ: أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ، أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟!(١٦) وَبَعْدَ سَنَوَاتٍ مِنْ هَذِهِ الحَادِثَةِ يَصْعَدُ النَّبِيُّ ﷺ الصَّفَا فِي حَجَّتِهِ حَتَّى رَأَى البَيْتَ فَاسْتَقْبَلَ القِبْلَةَ فَوَحَّدَ اللهَ وَكَبَّرَهُ، وَقَالَ: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، أَنْجَزَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٧).

وَنَزَلَ فِي حَجَّتِهِ فِي المَكَانِ الَّذِي تَقَاسَمَ فِيهِ المُشْرِكُونَ وَتَعَاهَدُوا عَلَى مُقَاطَعَةِ قَرَابَةِ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا لَمْ يُسْلِمُوهُ لِلْمُشْرِكِينَ؛ كَمَا رَوَى البُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الغَدِ يَوْمَ النَّحْرِ وَهُوَ بِمِنًى: «**نَحْنُ نَازِلُونَ غَدًا بِخَيْفِ بَنِي**

---

(١٥) أخرجه البخاري في الحج، باب متى يدفع من جمع (١٦٠٠)، وأبو داود في المناسك، باب الصلاة بجمع (١٩٣٨)، والترمذي في الحج، باب ما جاء أن الإفاضة من جمع قبل طلوع الشمس (٨٩٦)، وابن ماجه في المناسك، باب الوقوف بجمع (٣٠٢٣).

(١٦) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: البخاري في التفسير باب ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] (٤٤٩٢)، ومسلم في الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] (٢٠٨).

(١٧) هذا جزء من حديث جابر رضي الله عنه المخرج في حاشية (٢).

كِنَانَةَ حَيْثُ تَقَاسَمُوا عَلَى الكُفْرِ، وَذَلِكَ أَنَّ قُرَيْشًا وَكِنَانَةَ تَحَالَفَتْ عَلَى بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي المُطَّلِبِ أَنْ لَا يُنَاكِحُوهُمْ وَلَا يُبَايِعُوهُمْ حَتَّى يُسْلِمُوا إِلَيْهِمُ النَّبِيَّ ﷺ»(١٨).

قَالَ الحَافِظُ ابنُ حَجَرٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «قِيلَ إِنَّمَا اخْتَارَ النَّبِيُّ ﷺ النُّزُولَ فِي ذَلِكَ المَوْضِعِ لِيَتَذَكَّرَ مَا كَانُوا فِيهِ؛ فَيَشْكُرَ اللهَ تَعَالَى عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ مِنَ الفَتْحِ العَظِيمِ، وَتَمَكُّنِهِ مِنْ دُخُولِ مَكَّةَ ظَاهِرًا عَلَى رَغْمِ أَنْفِ مَنْ سَعَى فِي إِخْرَاجِهِ مِنْهَا، وَمُبَالَغَةً فِي الصَّفْحِ عَنِ الَّذِينَ أَسَاءُوا، وَمُقَابَلَتِهِمْ بِالمَنِّ وَالإِحْسَانِ، وَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ»(١٩).

وَصَدَقَ اللهُ العَظِيمُ إِذْ يَقُولُ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٢، ٣٣].

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَسْتَعْمِلَنَا فِيمَا يُرْضِيهِ، وَأَنْ يُعِينَنَا عَلَى ذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ؛ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ . . .



الخُطبَةُ الثَّانِيَةُ

الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ

(١٨) أخرجه البخاري في الحج، باب نزول النبي ﷺ إلى مكة (١٥١٣)، ومسلم في الحج، باب استحباب النزول بالمحصب يوم النفر والصلاة به (١٣١٤).

(١٩) فتح الباري (٨/ ١٥) وعنه: سبل الهدى والرشاد (٥/ ٢٦٧).

مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي أَوَّلِ الأَمْرِ يُحِبُّ مُوَافَقَةَ أَهْلِ الكِتَابِ، لِمَا مَعَهُمْ مِنَ الْكِتَابِ، وَيَقْصِدُ مُخَالَفَةَ الْمُشْرِكِينَ؛ لِأَنَّهُمْ عُبَّادُ أَوْثَانٍ. فَأَهْلُ الكِتَابِ أَقْرَبُ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ؛ وَلِذَا كَانُوا يَفْرَحُونَ بِانْتِصَارِ الرُّومِ عَلَى فَارِسَ، وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَفْرَحُونَ بِانْتِصَارِ فَارِسَ عَلَى الرُّومِ؛ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ وَثَنِيَّةٍ مِثْلُهُمْ.

فَلَمَّا كَمُلَتْ أَحْكَامُ الإِسْلَامِ، وَاسْتَقَرَّتْ شَرَائِعُهُ؛ قَصَدَ النَّبِيُّ ﷺ مُخَالَفَةَ عُمُومِ الكُفَّارِ، وَحَذَّرَ مِنْ تَوَلِّيهِمْ، وَمِنَ التَّشَبُّهِ بِهِمْ، سَوَاءٌ كَانُوا أَهْلَ كِتَابٍ أَمْ عُبَّادَ أَوْثَانٍ.

إِنَّ مِنْ طَبِيعَةِ الخُرَافَةِ سُرْعَةَ سَرَيَانِهَا فِي النَّاسِ، وَمِنْ طَبَائِعِ البَشَرِ تَنَاقُلَ العَادَاتِ وَالأَخْلَاقِ وَالشَّعَائِرِ بَيْنَهُمْ، وَالدِّينُ لَا يَكُونُ دِينًا صَحِيحًا يُقَرِّبُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا بِحِفْظِهِ مِنْ عَبَثِ العَابِثِينَ، وَتَحْرِيفِ المُحَرِّفِينَ؛ وَلِذَا جَاءَتِ الشَّرِيعَةُ شَدِيدَةً وَحَاسِمَةً فِي أَمْرَيْنِ عَظِيمَيْنِ: الاِبْتِدَاعِ فِي الدِّينِ، وَالتَّشَبُّهِ بِالكَافِرِينَ، فَمَنَعَتْهُمَا، وَأَوْصَدَتِ السُّبُلَ إِلَيْهِمَا؛ لِأَنَّ مِنْ شَأْنِ البِدْعَةِ أَنْ تُغَيِّرَ مَعَالِمَ المِلَّةِ، وَمِنْ أَثَرِ التَّشَبُّهِ مُتَابَعَةُ المُتَشَبَّهِ بِهِ فِي هَدْيِهِ وَسَمْتِهِ، وَأَخْلَاقِهِ وَعَادَاتِهِ، إِلَى أَنْ يَصِلَ إِلَى التَّشَبُّهِ بِهِ فِي شَعَائِرِ دِينِهِ؛ كَالأَعْيَادِ، وَالِانْحِنَاءِ عِنْدَ التَّحِيَّةِ، وَاتِّخَاذِ الصُّلْبَانِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَالهَجْمَةُ الشَّرِسَةُ عَلَى الإِسْلَامِ الحَقِّ وَأَهْلِهِ مِنْ قِبَلِ الكُفَّارِ وَالمُنَافِقِينَ تَسْلُكُ

هَذَيْنِ المَسَارَيْنِ: نَشْرَ البِدْعَةِ، وَالدَّعْوَةَ إِلَى التَّشَبُّهِ؛ أَمَّا نَشْرُ البِدْعَةِ فَبِالسَّمَاحِ لِلْمُبْتَدِعَةِ بِإِظْهَارِ شَعَائِرِهِمْ لِتُضَاهِيَ الشَّعَائِرَ المُحَمَّدِيَّةَ، وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهَا تَحْتَ شِعَارِ الحُرِّيَّةِ الدِّينِيَّةِ.

وَأَمَّا الدَّعْوَةُ إِلَى التَّشَبُّهِ فَتَأْخُذُ أَشْكَالًا عِدَّةً مِنْ مُوَافَقَةِ الكَافِرِينَ فِي طَرَائِقِهِمُ السِّيَاسِيَّةِ وَالِاقْتِصَادِيَّةِ -وَلَوْ كَانَ فِيهَا مَا فِيهَا مِنْ تَقْدِيمِ المَصَالِحِ الدُّنْيَوِيَّةِ عَلَى الأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ- إِلَى اسْتِنْسَاخِ مَوَادِّهِمُ الإِعْلَامِيَّةِ المَوْبُوءَةِ بِمَا لَا يَعْرِفُهُ العَرَبُ لَا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ، حَتَّى يَبْلُغَ أَحْقَرَ الأَشْيَاءِ وَأَتْفَهَهَا؛ كَتَقْلِيدِهِمْ فِي أَزْيَائِهِمْ، وَتَسْرِيحَاتِ شُعُورِهِمْ، وَتَرْبِيَتِهِمْ كِلَابَهُمْ.

وَلَوْ أَنَّ مَنْ وَقَعُوا فِي هَذَا الضَّلَالِ الَّذِي يُلْغِي الشَّرِيعَةَ الرَّبَّانِيَّةَ، وَيُخَالِفُ الهَدْيَ النَّبَوِيَّ قَصَرُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَكَانَ إِثْمُهُ عَلَيْهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ يُجَاهِرُونَ بِهِ أَمَامَ النَّاسِ، وَيَدْعُونَهُمْ إِلَيْهِ، وَيُحَارِبُونَ مَنْ يُحَذِّرُ مِنَ اتِّبَاعِهِمْ فِي طَرِيقِهِمُ الخَاطِئَةِ، بَلْ بَلَغُوا مَبْلَغًا شَنِيعًا حِينَ طَالَبُوا بِتَبْدِيلِ شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، أَوْ إِجْرَاءِ تَعْدِيلَاتٍ عَلَيْهَا؛ لِتُوَافِقَ أَهْوَاءَهُمْ وَأَهْوَاءَ الكَافِرِينَ مِنْ وَرَائِهِمْ؛ حَتَّى قَالَ القَائِلُونَ مِنْهُمْ: «إِنَّ بِاسْتِطَاعَتِهِمْ جَمْعَ الشُّذُوذَاتِ الفِقْهِيَّةِ لِيُشَكِّلَ مِنْهَا إِسْلَامٌ لِيبْرَالِيٌّ لَا وُجُودَ فِيهِ لِمُحَرَّمَاتٍ البَتَّةَ سِوَى المُحَرَّمَاتِ اللِّيبْرَالِيَّةِ، وَلَا وَاجِبَاتٍ مَفْرُوضَةٍ غَيْرِ الحُرِّيَّةِ»[٢٠].

إِنَّهُ ضَلَالٌ عَظِيمٌ، وَإِثْمٌ مُبِينٌ، وَحَيْدَةٌ عَنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي ارْتَضَاهَا لِعِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ، وَلَيْسَ الإِسْلَامُ مُتَضَرِّرًا مِنْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ مَحْفُوظٌ بِأَمْرِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَلَنْ تَزَالَ طَائِفَةٌ مِنَ المُسْلِمِينَ عَلَى الحَقِّ ظَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ

---

(٢٠) سمعت هذا الضلال في برنامج حواري استضيف فيه أحد الليبراليين اللبنانيين في قناة الحرة الأمريكية.

خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ إِلَى أَنْ يَنْزِلَ المَسِيحُ ابنُ مَرْيَمَ عليه السلام، وَلَكِنَّ الضَّرَرَ العَظِيمَ عَلَى أَغْرَارِ المُسْلِمِينَ وَجَهَلَتِهِمْ مِنْ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ وَأَطْفَالٍ، زُيِّنَ فِي نُفُوسِهِمْ هَذَا الِانْحِلَالُ مِنَ الشَّرِيعَةِ، وَسُوِّغَ بِمُسَوِّغَاتِ الشُّذُوذِ الفِقْهِيِّ، عَلَى أَيْدِي المَفْتُونِينَ فِي دِينِهِمْ!

وَإِنَّ الوَاجِبَ عَلَى كُلِّ مَنْ آتَاهُ اللهُ تَعَالَى أَثَرَةً مِنْ عِلْمٍ، وَحَظًّا مِنْ فِقْهٍ وَدَعْوَةٍ؛ حِمَايَةُ النَّاسِ مِنْ هَذَا الضَّلَالِ الَّذِي يُنْشَرُ فِي أَوْسَاطِهِمْ بِفَضْحِهِ وَبَيَانِ بُطْلَانِهِ، وَالتَّحْذِيرِ مِنْ دُعَاتِهِ وَأَزْلَامِهِ، كَمَا يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَلَّا يُسْلِمَ عَقْلَهُ لِكُلِّ مُتَكَلِّمٍ وَكَاتِبٍ؛ بِحُجَّةِ أَنَّهُ يُمَيِّزُ الحَقَّ مِنَ البَاطِلِ؛ فَإِنَّ الشُّبُهَاتِ تَرِدُ عَلَى القُلُوبِ شَيْئًا شَيْئًا حَتَّى تَفْتِكَ بِهَا، وَالَّذِينَ أَلْحَدُوا مِنْ أَبْنَاءِ المُسْلِمِينَ مَا كَانَ إِلْحَادُ الوَاحِدِ مِنْهُمْ فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، وَإِنَّمَا بَعْدَ كَمٍّ كَبِيرٍ مِنَ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ الَّتِي تَشَرَّبُوهَا، وَاسْتَسْلَمُوا لَهَا فَآلَتْ بِهِمْ إِلَى الخُرُوجِ عَنِ الإِسْلَامِ إِلَى الإِلْحَادِ، نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى العِصْمَةَ وَالسَّلَامَةَ.

كَمَا يَجِبُ عَلَى الآبَاءِ وَالأُمَّهَاتِ تَرْبِيَةُ أَوْلَادِهِمْ عَلَى التَّسْلِيمِ لِأَوَامِرِ الشَّرِيعَةِ، وَالإِذْعَانِ لَهَا دُونَ جِدَالٍ وَمُنَاقَشَةٍ؛ لِأَنَّ الجَدَلَ فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَى مَنْهِيٌّ عَنْهُ، وَذَلِكَ خِلَافُ مَا يُقَرِّرُهُ أَهْلُ الشَّكِّ وَالِارْتِيَابِ وَالإِلْحَادِ مِنْ تَقْرِيرِهِمُ الشَّكَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَمِنْ ثَمَّ مُنَاقَشَتُهُ وَالتَّحَاوُرُ فِيهِ، حَتَّى قَالُوا بِلُزُومِ الشَّكِّ فِي وُجُودِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَفَتْحِ أَبْوَابِ المُنَاقَشَةِ وَالحِوَارِ فِي ذَلِكَ، عَلَى طَرِيقَةِ المُتَزَنْدِقِينَ مِنْ قُدَمَاءِ الفَلَاسِفَةِ. نَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنْهُمْ وَمِنْ مَنَاهِجِهِمُ المُنْحَرِفَةِ، وَنَسْأَلُهُ العِصْمَةَ مِنَ الزَّيْغِ وَالضَّلَالِ، كَمَا نَسْأَلُهُ الثَّبَاتَ عَلَى الحَقِّ إِلَى المَمَاتِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى خَيْرِ خَلْقِ اللَّهِ ....

٢٦٨- مظاهر التوحيد في الحج (١) بناء البيت على التوحيد

١/ ١٢/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ خَلَقَ الْخَلْقَ تَفَضُّلًا مِنْهُ وَإِنْعَامًا، وَكَلَّفَهُمْ بِعِبَادَتِهِ ابْتِلَاءً مِنْهُ وَامْتِحَانًا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذَّارِيَات: ٥٦]. نَحْمَدُهُ عَلَى مَا وَفَّقَ وَهَدَى، وَنَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَعْطَى وَأَسْدَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ شَرَعَ الْحَجَّ رُكْنًا مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ، وَفُرْقَانًا بَيْنَ أَهْلِ الشِّرْكِ وَأَهْلِ الْإِيمَانِ، وَرَاغَمَ بِمَنَاسِكِهِ وَشَعَائِرِهِ عُبَّادَ الْأَوْثَانِ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَصَفِيُّهُ وَخَلِيلُهُ؛ حَجَّ حَجَّةً وَاحِدَةً، أَقَامَ فِيهَا التَّوْحِيدَ، وَأَبَانَ الْمَنَاسِكَ، وَوَدَّعَ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ: «**لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ؛ فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ**»، فَسُمِّيَتْ حَجَّةَ الْوَدَاعِ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ، وَتَعْظِيمِ شَعَائِرِهِ، وَالْوُقُوفِ عِنْدَ حُدُودِهِ ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الْحَجّ: ٣٢].

أَيُّهَا النَّاسُ: الْحَجُّ تَوْحِيدٌ لِلَّهِ تَعَالَى فِي زَمَانِهِ وَمَكَانِهِ وَمَنَاسِكِهِ؛ فَزَمَانُهُ هُوَ الزَّمَانُ الَّذِي اخْتَارَهُ اللهُ تَعَالَى لِتَكُونَ مَنَاسِكُ الْحَجِّ فِيهِ ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ [الْبَقَرَة: ١٩٧]، وَمَنَاسِكُهُ قَدْ جَمَعَتْ بَيْنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لَهُ، وَخَلْعِ مَا سِوَاهُ مِنَ الشُّرَكَاءِ وَالْأَنْدَادِ، فَقُلُوبُ الْحَجِيجِ مُتَّجِهَةٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى تُلَبِّي لَهُ وَتُكَبِّرُهُ، وَتَذْكُرُهُ وَتَشْكُرُهُ، وَتَسْتَغْفِرُهُ وَتَسْأَلُهُ،

فَسُبْحَانَ مَنْ جَمَعَ قُلُوبَ الْحَجِيجِ عَلَى تَوْحِيدِهِ تَعَالَى وَذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ، وَتَعْظِيمِ شَعَائِرِهِ!

وَأَمَّا مَكَانُ المَنَاسِكِ فَلَهُ قِصَّةٌ فِي تَارِيخِ الْبَشَرِ عَظِيمَةٌ، وَالْبَيْتُ الْعَظِيمُ شَيَّدَتْهُ أُسْرَةٌ نَبَعَ مِنْهَا التَّوْحِيدُ بَعْدَ انْتِشَارِ الشِّرْكِ فِي الْبَشَرِ، وَأَنْجَبَتِ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ عليهم السلام عَقِبَ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَانْقِطَاعِ الْوَحْيِ.

إِنَّهَا أُسْرَةُ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام، مُمَثَّلَةٌ فِي شَخْصِهِ الْكَرِيمِ، وَابْنِهِ إِسْمَاعِيلَ الَّذِي أَنْجَبَتْهُ أُمُّكُمُ الصَّالِحَةُ هَاجَرُ عليها السلام، وَهِيَ أُسْرَةُ تَوْحِيدٍ وَإِيمَانٍ، أَخْلَصَتْ دِينَهَا لِلَّهِ تَعَالَى، وَنَابَذَتِ الشِّرْكَ وَالْأَوْثَانَ، وَتَحَمَّلَتْ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ الْعَنَتَ وَالمَشَقَّةَ، وَالْهِجْرَةَ وَالْوَحْدَةَ، فَكَانَتْ عَاقِبَتُهَا حَمِيدَةً؛ إِذْ شَرَّفَهَا اللهُ تَعَالَى -بَعْدَ مَوْجَاتٍ مِنَ الِابْتِلَاءِ وَالِامْتِحَانِ- بِأَنْ تَكُونَ بَانِيَةَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، وَالمُؤَذِّنَةَ بِالْحَجِّ فِي النَّاسِ، وَبَارَكَ فِي عَقِبِ الْخَلِيلِ إِبْرَاهِيمَ، فَكَانَ أَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، مِنْهُمْ أُولُو الْعَزْمِ الثَّلَاثَةُ: مُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدٌ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وَإِبْرَاهِيمُ عليه السلام هُوَ إِبْرَاهِيمُ، وَكَيْفَ لَا يَعْرِفُ إِبْرَاهِيمَ مَنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ!! هُوَ أَبُو المُوَحِّدِينَ بَعْدَ آدَمَ وَنُوحٍ عليهما السلام، وَهُوَ الْإِمَامُ الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ تَعَالَى أُمَّةً، وَحَمَلَ رَايَةَ التَّوْحِيدِ وَحْدَهُ، وَوَاجَهَ الشِّرْكَ وَالْوَثَنِيَّةَ بِمُفْرَدِهِ، بِالْجِهَادِ وَالمُفَاصَلَةِ، وَبِالْحِجَاجِ وَالمُنَاظَرَةِ.

إِنَّهُ الْخَلِيلُ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام الَّذِي نَاظَرَ النُّمْرُودَ بْنَ كَنْعَانَ فِي الرُّبُوبِيَّةِ، فَثَبَتَ أَمَامَهُ بِلَا خَوْفٍ وَلَا وَجَلٍ، وَبَرْهَنَ لَهُ أَنَّهُ الْعَبْدُ الْحَقِيرُ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الرَّبُّ الْكَبِيرُ ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٥٨].

وَتَنَزَّلَ فِي مُنَاظَرَتِهِ مَعَ الصَّابِئَةِ مِنْ قَوْمِهِ فَحَجَّهُمْ بِأُفُولِ الْكَوْكَبِ وَالْقَمَرِ وَالشَّمْسِ، وَأَعْلَنَ تَوْحِيدَهُ لِلَّهِ تَعَالَى، وَبَرَاءَتَهُ مِنْ شِرْكِ قَوْمِهِ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨-٨١].

إِنَّهُ الْخَلِيلُ الَّذِي كَسَّرَ الْأَصْنَامَ بِيَدِهِ الشَّرِيفَةِ؛ دَحْرًا لِلشِّرْكِ وَإِقَامَةً لِلتَّوْحِيدِ ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨]، ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصَّافَّات: ٩١-٩٦]، فَأَلْقَاهُ قَوْمُهُ فِي النَّارِ عِقَابًا لَهُ، بَعْدَ أَنْ أَقَامَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ، وَأَبَانَ لَهُمُ المَحَجَّةَ، وَأَثْبَتَ بُطْلَانَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الشِّرْكِ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى نَجَّاهُ مِنْهَا ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٦-٧٠].

فَلَمَّا لَمْ يَرَ اسْتِجَابَتَهُمْ لِدَعْوَتِهِ لِلتَّوْحِيدِ، وَأَيْقَنَ بِإِصْرَارِهِمْ عَلَى الشِّرْكِ، هَجَرَهُمْ فِي اللَّهِ تَعَالَى، وَهَاجَرَ مِنْ بِلَادِهِمْ لِيُقِيمَ التَّوْحِيدَ فِي بِلَادٍ أُخْرَى ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مَرْيَم: ٤٨]، فَرَزَقَهُ اللهُ تَعَالَى ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً بِإِيمَانِهِ وَدَعْوَتِهِ، وَصِدْقِهِ وَيَقِينِهِ، وَصَبْرِهِ وَإِخْلَاصِهِ، فَدَعَا أَنْ يَحْفَظَهُ رَبُّهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَذُرِّيَّتَهُ مِنَ الشِّرْكِ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱجْنُبْنِي

وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبْرَاهِيم: ٣٥، ٣٦].

تِلْكَ هِيَ أَجْزَاءٌ مِنْ سِيرَةِ بَانِي الْبَيْتِ، وَهِيَ سِيرَةُ مُوَحِّدٍ لِلَّهِ تَعَالَى، مَنَابِذٍ لِلشِّرْكِ وَالْمُشْرِكِينَ، وَقَدْ تَحَمَّلَ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ أَلْوَانًا مِنَ المَشَقَّةِ وَالْأَذَى، وَشَارَكَهُ فِي بِنَاءِ الْبَيْتِ ابْنُهُ إِسْمَاعِيلُ عليه السلام وَهُوَ عَلَى التَّوْحِيدِ الَّذِي دَعَا وَالِدُهُ النَّاسَ إِلَيْهِ، وَقَدْ عَدَّهُ اللهُ تَعَالَى مِنَ الصَّابِرِينَ الْأَخْيَارِ ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأَنْبِيَاء: ٨٥]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [سورة ص: ٤٨]، وَقَدْ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ بِإِيمَانِهِ وَصَلَاحِهِ ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ [مَرْيَم: ٥٤، ٥٥].

وَابْتُلِيَ هُوَ وَوَالِدُهُ عليهما السلام بِأَعْظَمِ مَا يُبْتَلَى بِهِ ابْنٌ وَأَبُوهُ؛ إِذْ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى إِبْرَاهِيمَ أَنْ يَنْحَرَ إِسْمَاعِيلَ بِيَدِهِ، فَبَادَرَ إِبْرَاهِيمُ وَاضْطَجَعَ إِسْمَاعِيلُ، بِلَا تَرَدُّدٍ وَلَا تَفْكِيرٍ، طَائِعِينَ أَمْرَ رَبِّهِمَا، مُسْتَسْلِمِينَ لَهُ، فَأَيُّ تَوْحِيدٍ وَإِيمَانٍ وَيَقِينٍ قَدْ مَلَأَ قَلْبَيْهِمَا، فَمَا طَلَبَ إِبْرَاهِيمُ أَنْ يُخَفِّفَ اللهُ عَنْهُ فِي هَذَا الْبَلَاءِ، وَلَا امْتَنَعَ إِسْمَاعِيلُ عَنْ تَنْفِيذِهِ، بَلْ بَادَرَ يَحُثُّ أَبَاهُ عَلَى الِاسْتِسْلَامِ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ [الصَّافَّات: ١٠٢-١٠٦].

وَأُمُّ هَذَا النَّبِيِّ الْكَرِيمِ الَّذِي شَارَكَ فِي بِنَاءِ الْبَيْتِ هِيَ هَاجَرُ عليها السلام، الَّتِي ابْتُلِيَتْ أَعْظَمَ الْبَلَاءِ بِتَوْطِينِهَا وَرَضِيعِهَا فِي وَادِي مَكَّةَ، وَهُوَ الْوَادِي الْمُقْفِرُ مِنْ أَسْبَابِ

الْحَيَاةِ، فَسَلَّمَتْ أَمْرَهَا لِلَّهِ تَعَالَى، وَرَضِيَتْ بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُرْضِعُهُ حَتَّى وَضَعَهَا عِنْدَ الْبَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ، وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ قَفَّى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ؟! فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا، وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: آللهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا؟! قَالَ: نَعَمْ، قَالَتْ: إِذَنْ لَا يُضَيِّعُنَا».

وَفِي رِوَايَةٍ: «نَادَتْهُ مِنْ وَرَائِهِ: يَا إِبْرَاهِيمُ: إِلَى مَنْ تَتْرُكُنَا؟! قَالَ: إِلَى اللَّهِ، قَالَتْ: رَضِيتُ بِاللَّهِ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[1].

فَتَأَمَّلُوا -رَحِمَكُمُ اللهُ تَعَالَى- كَيْفَ بَلَغَ رِضَاهَا بِاللَّهِ عز وجل، وَيَقِينُهَا بِهِ سُبْحَانَهُ، وَتَوَكُّلُهَا عَلَيْهِ وَحْدَهُ دُونَ سِوَاهُ، حَتَّى رَضِيَتْ أَنْ تَبْقَى فِي ذَلِكَ الْوَادِي الْمَهْجُورِ الْمُقْفِرِ لَمَّا كَانَ الْأَمْرُ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَيْقَنَتْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَنْ يُضَيِّعَهَا وَرَضِيعَهَا، فَكَانَ مَا كَانَ مِنْ مَدَدِ اللَّهِ تَعَالَى لَهَا بِمَاءِ زَمْزَمَ، وَقُدُومِ قَبِيلَةِ جُرْهُمَ؛ حَتَّى عُمِرَتْ مَكَّةُ بَعْدَ إِقْفَارِهَا، وَاسْتُوْطِنَتْ بَعْدَ هِجْرَانِهَا، وَأَوَّلُ مَنِ اسْتَوْطَنَهَا هِيَ وَابْنُهَا عليهما السلام.

لَقَدْ عَلِمَتْ أُمُّكُمْ هَاجَرُ عليها السلام أَنَّ حَالَ مَكَّةَ سَيَتَغَيَّرُ، وَسَتَكُونُ مَهْوَى الْأَفْئِدَةِ، وَمَقْصِدَ الْحُجَّاجِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهَا لَمَّا كَانَتْ تَسْعَى بَحْثًا عَنِ الْمَاءِ، وَجَاءَ الْمَلَكُ فَنَبَعَ زَمْزَمُ؛ قَالَ لَهَا عليه السلام: «لَا تَخَافِي الضَّيْعَةَ؛ فَإِنَّ هَا هُنَا بَيْتًا لِلَّهِ عز وجل يَبْنِيهِ هَذَا الْغُلَامُ

(١) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مطولًا موقوفًا: البخاري في: الأنبياء، باب يزفون النسلان في المشي (٣١٨٤)، والنسائي في الكبرى (٨٣٧٩)، وعبد الرزاق (٩١٠٧)، والبيهقي (٥/ ٩٨). والرواية الثانية للبخاري (٣١٨٥).

وَأَبُوهُ، وَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَهْلَهُ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٢).

تِلْكَ هِيَ الْأُسْرَةُ الْمُبَارَكَةُ الَّتِي شَرُفَتْ بِاسْتِيطَانِ مَكَّةَ، وَبِنَاءِ الْبَيْتِ، وَهِيَ أُسْرَةُ تَوْحِيدٍ وَعِلْمٍ، وَتَوَكُّلٍ وَيَقِينٍ، ظَهَرَ ذَلِكَ مِنْ مَوَاقِفِ الِابْنِ وَأَبِيهِ وَأُمِّهِ عليهم السلام.

بَلْ إِنَّ الْمَقْصِدَ الْأَعْظَمَ الَّذِي تَرَكَ مِنْ أَجْلِهِ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام زَوْجَهُ وَوَلَدَهُ فِي مَكَّةَ إِنَّمَا كَانَ إِقَامَةَ الدِّينِ لِلَّهِ تَعَالَى، وَيَظْهَرُ ذَلِكَ بِجَلَاءٍ فِي دَعْوَةِ الْخَلِيلِ حِينَ فَارَقَهُمْ مُتَّجِهًا إِلَى الشَّامِ؛ إِذْ لَهِجَ لِلَّهِ تَعَالَى دَاعِيًا ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيۡرِ ذِى زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِىٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وَمَرَّتِ السِّنُونَ، وَأَزْهَرَتْ مَكَّةُ بِسَاكِنِيهَا، فَجَاءَ الْأَمْرُ الرَّبَّانِيُّ لِإِبْرَاهِيمَ عليه السلام بِبِنَاءِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، فَسَافَرَ مِنَ الشَّامِ إِلَى مَكَّةَ لِهَذِهِ الْغَايَةِ الْجَلِيلَةِ، وَالْتَقَى الِابْنُ بِأَبِيهِ فِي مَكَّةَ بَعْدَ طُولِ الْفِرَاقِ، فَجَرَى بَيْنَهُمَا مَا يَجْرِي بَيْنَ الْأَبِ وَابْنِهِ مِنَ الْمُصَافَحَةِ وَالْعِنَاقِ، فَقَالَ: «يَا إِسْمَاعِيلُ: إِنَّ رَبَّكَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ لَهُ بَيْتًا، قَالَ: أَطِعْ رَبَّكَ، قَالَ: إِنَّهُ قَدْ أَمَرَنِي أَنْ تُعِينَنِي عَلَيْهِ، قَالَ: إِذَنْ أَفْعَلَ، فَقَامَا فَجَعَلَ إِبْرَاهِيمُ يَبْنِي وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ وَيَقُولَانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الْبَقَرَة: ١٢٧]، حَتَّى ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ وَضَعُفَ الشَّيْخُ عَنْ نَقْلِ الْحِجَارَةِ، فَقَامَ عَلَى حَجَرِ الْمَقَامِ، فَجَعَلَ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ وَيَقُولَانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٣).

وَهَذَا الدُّعَاءُ مِنْهُمَا عليهما السلام وَهُمَا يَبْنِيَانِ الْبَيْتَ مِنْ أَدَلِّ الدَّلَائِلِ عَلَى تَوْحِيدِهِمَا،

(٢) قطعة من حديث ابن عباس رضي الله عنهما المخرج في حاشية (١).

(٣) قطعه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما المخرج في حاشية (١)

وَرَجَائِهِمَا فِي اللَّهِ تَعَالَى، وَخَوْفِهِمَا أَنْ لَا يُقْبَلَ عَمَلُهُمَا، وَكَانَ وُهَيْبُ بْنُ الْوَرْدِ يَبْكِي إِذَا قَرَأَ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾، ثُمَّ يَقُولُ: «يَا خَلِيلَ الرَّحْمَنِ: تَرْفَعُ قَوَائِمَ بَيْتِ الرَّحْمَنِ وَأَنْتَ مُشْفِقٌ أَنْ لَا يُتَقَبَّلَ مِنْكَ!!»[(٤)].

وَمِنْ أَبْيَنِ دَلَائِلِ بِنَاءِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام الْبَيْتَ عَلَى التَّوْحِيدِ أَنَّهُ دَعَا حَالَ بِنَائِهِ لَهُ وَلِوَلَدِهِ إِسْمَاعِيلَ بِدِينِ الْإِسْلَامِ، وَأَنْ يَكُونَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا، كَمَا دَعَا بِبَعْثَةِ إِمَامِ الْمُوَحِّدِينَ، فَاسْتَجَابَ اللهُ تَعَالَى دَعْوَتَهُ، وَبَعَثَ سَيِّدَ الْبَشَرِ، وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ مِنْ مَكَّةَ؛ لِيُقَرِّرَ التَّوْحِيدَ، وَيَمْحُوَ الشِّرْكَ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام وَهُوَ يَرْفَعُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨، ١٢٩]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنِّي عِنْدَ اللَّهِ مَكْتُوبٌ بِخَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ، وَسَأُخْبِرُكُمْ بِأَوَّلِ ذَلِكَ: دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبِشَارَةُ عِيسَى، وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ حِينَ وَضَعَتْنِي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَها مِنْهُ قُصُورُ الشَّامِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ[(٥)].

---

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٢٤٠)، وأورده ابن كثير في تفسيره (١/ ١٧٦).

(٥) أخرجه من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه: أحمد (٤/ ١٢٧-١٢٨)، وابن شبة في أخبار المدينة (١٠٣٥)، ويعقوب بن سفيان في المعرفة والتاريخ (٢/ ٢٠١)، والبخاري في التاريخ الكبير (١٧٣٦) وفي الأوسط (٣٣)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٨٩)، وابن عساكر في تاريخه (١/ ١٦٨)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٢٥٢) رقم (٦٢٩) وفي مسند الشامين (١٤٥٥)، والطبري في تفسيره (٢٨/ ٨٧)، وصححه ابن حبان (٤٦٠٤) والحاكم (٢/ ٤٥٣)، وحسنه ابن تيمية في الفتاوى (١٠/ ٧٢٨)، والذهبي في تاريخ الإسلام (١/ ٤٢).
وأخرجه من حديث أبي أمامة رضي الله عنه: أحمد (٥/ ٢٦٢)، والطيالسي (١١٤٠)، والروياني =

وَأَرَادَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يَكُونَ هَذَا الْبَيْتُ الَّذِي بَنَاهُ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ عليهما السلام مَوْضِعَ الْمَنَاسِكِ، وَمَكَانَ الطَّوَافِ، وَأَمَرَ سُبْحَانَهُ بِتَطْهِيرِهِ مِنْ كُلِّ مَا يُعَارِضُ التَّوْحِيدَ ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الْبَقَرَة: ١٢٥].

= (١٢٦٧)، وأبو القاسم البغوي في مسند ابن الجعد (٣٤٢٨)، والطبراني في الكبير (٨/ ١٧٥) رقم (٧٧٢٦) وفي مسند الشاميين (١٥٨٢)، وابن عساكر (١/ ١٦٧)، والحارث بن أبي أسامة في مسنده كما في زوائده للهيثمي (٩٢٧).

وأخرجه من حديث خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ: ابن عساكر (١/ ١٧٠)، وصححه الحاكم (٢/ ٦٥٦)، وجود إسناده ابن كثير في تفسيره (٤/ ٣٦١).

قال البغوي -رحمه الله تعالى-: «قوله: «لمنجدل» أي: مطروح على وجه الأرض صورة من طين، لم يجر فيه الروح بعد. ودعوة إبراهيم عليه السلام قوله ﷻ: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وبشارة عيسى عليه السلام قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]» شرح السنة (١٣/ ٢٠٧).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى-: «وأما ما يَرْوِيه هؤلاء الجهال: كابن عربي في الفصوص وغيره من جهال العامة «كنت نبيًّا وآدم بين الماء والطين، كنت نبيًّا وآدم لا ماء ولا طين» فهذا لا أصل له، ولم يروه أحد من أهل العلم الصادقين ولا هو في شيء من كتب العلم المعتمدة بهذا اللفظ، بل هو باطل؛ فإن آدم لم يكن بين الماء والطين قط؛ فإن الله خلقه من تراب، وخلط التراب بالماء حتى صار طينًا، وأيبس الطين حتى صار صلصالًا كالفخار، فلم يكن له حال بين الماء والطين مركب من الماء والطين، ولو قيل بين الماء والتراب لكان أبعد عن المحال، مع أن هذه الحال لا اختصاص لها وإنما قال: «بين الروح والجسد»، وقال: «وإن آدم لمنجدل في طينته»؛ لأن جسد آدم بقي أربعين سنة قبل نفخ الروح فيه، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ﴾ الآيتين. والأحاديث في خلق آدم ونفخ الروح فيه مشهورة في كتب الحديث والتفسير وغيرهما. فأخبر ﷺ أنه كان نبيًّا؛ أي: كُتِبَ نَبِيًّا وآدم بين الروح والجسد. وهذا -والله أعلم- لأن هذه الحالة فيها يقدر التقدير الذي يكون بأيدي ملائكة الخلق، فيقدر لهم، ويظهر لهم، ويكتب ما يكون من المخلوق قبل نفخ الروح فيه» مجموع الفتاوى (٢/ ١٤٧-١٤٨).

وَلمَّا اكْتَمَلَ بِناءُ الْبَيْتِ عَلَى التَّوْحِيدِ، وَبَنَاهُ إِمَامُ المُوَحِّدِينَ فِي وَقْتِهِ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى أَنْ يُنَادِيَ فِي النَّاسِ بِأَنْ يَقْصِدُوا هَذَا الْبَيْتَ لِتَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى وَعِبَادَتِهِ وَذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ [الْحَجّ: ٢٧، ٢٨]، فَأَذَّنَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام يَدْعُو الْمُوَحِّدِينَ مِنَ الْبَشَرِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ لِيَثُوبُوا إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ، فَاسْتَجَابَ لِدَعْوَتِهِ أَهْلُ التَّوْحِيدِ، وَنَكَلَ عَنْهَا الْمُشْرِكُونَ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «لَمَّا فَرَغَ إِبْرَاهِيمُ مِنْ بِنَاءِ الْبَيْتِ؛ قِيلَ لَهُ: أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ. قَالَ: يَا رَبِّ، وَمَا يَبْلُغُ صَوْتِي؟! قَالَ: أَذِّنْ وَعَلَيَّ الْبَلَاغُ. فَنَادَى إِبْرَاهِيمُ: أَيُّهَا النَّاسُ، كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْحَجُّ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ فَحُجُّوا. قَالَ: فَسَمِعَهُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؛ أَفَلَا تَرَى النَّاسَ يَجِيئُونَ مِنْ أَقْصَى الْأَرْضِ يُلَبُّونَ؟!»[٦]. وَفِي لَفْظٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «قَامَ إِبْرَاهِيمُ عَلَى الْحَجَرِ، فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْحَجُّ، فَأَسْمَعَ مَنْ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ وَأَرْحَامِ النِّسَاءِ، فَأَجَابَهُ مَنْ آمَنَ وَمَنْ كَانَ سَبَقَ فِي عِلْمِ اللَّهِ أَنَّهُ يَحُجُّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ»[٧].

وَتَوَارَثَ هَذَا التَّعْظِيمَ لِبَيْتِ اللَّهِ تَعَالَى الْمُوَحِّدُونَ مِنْ ذُرِّيَّةِ الْخَلِيلِ عليه السلام،

---

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ٣٢٩)، والبيهقي (٥/ ١٧٦)، والطبري في تفسيره (١٧/ ١٤٤)، وصححه الحاكم(٢/ ٤٢١)، والضياء في المختارة (١٠/ ٢٠).

(٧) هذه الرواية أخرجها الطبري في التفسير (١٧/ ١٤٤)، وصححها الحافظ ابن حجر في الفتح بعد أن عزاها للفاكهي (٦/ ٤٠٦) والذي وقفت عليه عند الفاكهي في أخبار مكة عن مجاهد من قوله ولم يسنده لابن عباس(٩٧٤).

وجاء أيضًا مرفوعًا من رواية مجاهد عن أبي هريرة رضي الله عنه عند الفاكهي (٩٧٣).

وَأَقَامُوا المَنَاسِكَ، وَعَظَّمُوا الشَّعَائِرَ، وَمَا زَالُوا كَذَلِكَ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا، وَسَيَبْقَى مَنْ يُقِيمُ ذَلِكَ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ، وَبَعْدَ نُزُولِ عِيسَى ﷺ وَقَتْلِهِ الدَّجَّالَ سَيُهِلُّ بِالْحَجِّ قَاصِدًا الْبَيْتَ الْحَرَامَ؛ طَاعَةً لِلَّهِ تَعَالَى، وَإِجَابَةً لِدَعْوَةِ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ.

وَأَعْرَضَ عَنِ الْحَجِّ أَهْلُ الشِّرْكِ وَالْأَوْثَانِ؛ لِيَتَّخِذُوا مِنْ أَوْثَانِهِمْ وَقُبُورِ سَادَتِهِمْ مَحَجًّا لَهُمْ عَنِ الْحَجِّ الشَّرْعِيِّ الَّذِي رَضِيَهُ اللهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ، فَنَحْمَدُ اللهَ تَعَالَى أَنْ جَعَلَنَا مِمَّنْ أَجَابُوا دَعْوَةَ الْخَلِيلِ ﷺ، وَنَسْأَلُهُ أَنْ يَرْزُقَنَا الثَّبَاتَ عَلَى الْحَقِّ إِلَى المَمَاتِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ۗ فَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحَجّ: ٣٤، ٣٥].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ ...

❀ ❀ ❀

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا هَدَانَا، وَنَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَعْطَانَا، وَنَسْتَغْفِرُهُ لِذُنُوبِنَا وَخَطَايَانَا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ؛ فَإِنَّكُمْ فِي أَيَّامٍ عَظِيمَةٍ هِيَ خَيْرُ أَيَّامِ السَّنَةِ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَفْضَلُ مِنْهُ فِي غَيْرِهَا: ﴿وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾

[الْفَجْر: ١، ٢]، قِيلَ: هِيَ عَشْرُ ذِي الْحِجَّةِ[(٨)]، وَرَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَا مِنْ عَمَلٍ أَزْكَى عِنْدَ اللَّهِ ﷻ وَلَا أَعْظَمَ أَجْرًا مِنْ خَيْرٍ يَعْمَلُهُ فِي عَشْرِ الْأَضْحَى**، قِيلَ: وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟! قَالَ: **وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَالدَّارِمِيُّ وَاللَّفْظُ لَهُ[(٩)].

فَأَرُوا اللهَ تَعَالَى فِيهَا مِنْ أَنْفُسِكُمْ خَيْرًا، وَاجْتَهِدُوا فِي الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ كَمَا تَجْتَهِدُونَ فِي عَشْرِ رَمَضَانَ أَوْ أَشَدَّ اجْتِهَادًا؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْعَشْرَ الْمُبَارَكَاتِ لَا تَقِلُّ فَضْلًا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ عَشْرِ رَمَضَانَ الْأَخِيرَةِ، وَظَاهِرُ الْحَدِيثِ أَنَّهَا أَفْضَلُ مِنْهَا.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَقَدْ بَنَى إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ بَيْتَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى التَّوْحِيدِ، بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمَا بِذَلِكَ، وَفِي الْمَكَانِ الَّذِي اخْتَارَهُ؛ لِإِقَامَةِ التَّوْحِيدِ، وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لِلَّهِ تَعَالَى، فَالْمُوَحِّدُونَ مِنَ الْبَشَرِ هُمْ أَوْلَى بِبَيْتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَبِالْوَلَاءِ لِبَانِيهِ عليه السلام مِنْ أَيَّةِ أُمَّةٍ أُخْرَى؛ وَلَمَّا زَعَمَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى أَنَّ

---

(٨) اختلف المفسرون في ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ على أقوال:
١- أنها عشر ذي الحجة وهو ما روي عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما، ورجحه ابن كثير.
٢- أنها عشر رمضان.
٣- أنها العشر الأولى من محرم.
وجاء في حديث جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**العشر عشر الأضحى، والوتر يوم عرفة، والشفع النحر**» أخرجه النسائي في الكبرى (١١٦٧١)، وأحمد (٣/ ٣٢٧)، وصححه الحاكم وقال: على شرط مسلم (٤/ ٢٤٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه البزار وأحمد ورجالهما رجال الصحيح غير عياش بن عقبة وهو ثقة (٧/ ١٣٧)، وقال ابن كثير في تفسيره: وهذا إسناد رجاله لا باس بهم، وعندي أن المتن في رفعه نكارة (٤/ ٥٠٦).
قلت: ولو صح هذا الحديث لكان نصًا في المسألة.

(٩) أخرجه البخاري في العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق (٩٢٦)، والدارمي (١٧٧٤).

الْخَلِيلَ عليه السلام عَلَى يَهُودِيَّتِهِمْ وَنَصْرَانِيَّتِهِمْ، وَأَنَّهُمْ هُمْ أَتْبَاعُهُ كَذَّبَهُمُ اللهُ تَعَالَى فِيمَا زَعَمُوا، وَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّ أَتْبَاعَهُ هُمْ مَنْ كَانُوا عَلَى دِينِهِ، وَهُمْ مَنْ لَبَّوْا نِدَاءَهُ بِالْحَجِّ، وَهُمُ الْمُسْلِمُونَ ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عِمْرَان: ٦٧، ٦٨].

وَكَثِيرٌ مِنْ كُتَّابِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي هَذَا الْعَصْرِ يَزْعُمُونَ أَنَّ الْحَجَّ وَمَنَاسِكَهُ مِنْ شَعَائِرِ الْوَثَنِيَّةِ الَّتِي تَسَرَّبَتْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَيُرِيدُونَ بِهَذَا الطَّعْنِ ادِّعَاءَ تَحْرِيفِ الْإِسْلَامِ بَعْدَ أَنْ عَجَزُوا عَنِ التَّشْكِيكِ فِي كَوْنِهِ رِسَالَةً رَبَّانِيَّةً أَنْزَلَهَا اللهُ تَعَالَى لِهِدَايَةِ الْبَشَرِ، وَيَسْتَدِلُّونَ عَلَى إِفْكِهِمُ الْمُبِينِ بِمَا جَاءَ فِي التَّارِيخِ مِنْ حَجِّ قَبَائِلِ الْعَرَبِ وَهِيَ عَلَى الشِّرْكِ.

وَقَدْ تَلَقَّفَ عَنْهُمْ هَذِهِ الْفِرْيَةَ بَعْضُ زَنَادِقَةِ هَذَا الْعَصْرِ مِمَّنْ يُسَمُّونَ أَنْفُسَهُمْ بِالْمُفَكِّرِينَ وَالْمُثَقَّفِينَ، وَهُمْ فِي وَاقِعِ الْأَمْرِ مَلَاحِدَةٌ لَا يُؤْمِنُونَ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلَا يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ، وَبَعْضُهُمْ يَتَبَاكَى عَلَى هَذَا التَّسَابُقِ إِلَى الْحَجِّ وَالِازْدِحَامِ عَلَيْهِ، وَهُوَ لَا يَعْدُو أَنْ يَكُونَ مِنْ بَقَايَا الْجَاهِلِيَّةِ حَسَبَ قَوْلِهِمْ[١٠].

---

(١٠) ممن نقل عنهم ذلك حسن حنفي، ونوال السعداوي التي تقول ساخرة من شعائر الإسلام: «الله يرحم رابعة العدوية.. لم تكن تحج أو تصلي وكانت ضد الشعائر.. وكانت تقول: الله هو الحب إنما (مش الله) أروح الكعبة وأبوس الحجر الأسود.. إيه ده.. أنا عقلي لا يسمح أن ألبس الحجاب وأطوف، هذه وثنية.. الحج هو بقايا الوثنية؟!».

يقول د. نصر فريد واصل.. مفتي مصر لما سئل عن كلام السعداوي: «والرسول ﷺ يقول: «**أيها الناس، إن الله كتب عليكم الحج فحجوا**»... والحج كما يعلم المسلمون جميعًا منذ فرضه الله من أركان الإسلام الخمسة، ثم تأتي منكرة زمانها لتقول بأنه عبادة وثنية، فكيف تطوف حول حجر وتقبل حجرًا وترمي حجرًا بحجر، ويقيني أن مثلها =

. . . .

= لا يتذوق حلاوة الإيمان . . فنحن نطوف حول البيت خضوعًا لله وتسليمًا وتسبيحًا وتكبيرًا . . . وتنفيذًا لقوله وأمره: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ فنحن مع منهج الله في افعل ولا تفعل، ونحن نُقَبِّل حَجَرًا قَبَّلَه رسول الله ﷺ اقتداء به مع اعتقادنا أنه لا يضر ولا ينفع . . . كما نرمي حجرًا بحجر رمزًا للرفض والتمرّد على الشيطان، وخروجًا على وساوسه التي يأمرنا بها بالسوء ويعدنا بها الفقر. والله يعدنا فضلًا منه ورحمة. . فهل مثل الدكتورة يتذوق حلاوة هذا الإيمان؟!».
وفي مقابلة مع هذه المنحرفة قال المذيع: وماذا عن إنكارك لفريضة الحج يا دكتورة؟
- أنا لم أنكره ، لقد قلت نصًا أن (الحج) و(تقبيل الحجر الأسود) عادة وثنية.
ولكنه ركن خامس؟
- أبدًا . . هو (اختياري) (لمن استطاع إليه سبيلا)، أبي توفي ولم يحج، وهذا لا يعني أن إسلامه ناقص، هناك من يصلي دون أن تنفعه صلاته، وهذا ينطبق على الذي يذهب إلى الحج ليقوم بعمل، أو يقبل الحجر الأسود!! إنني أسأل: هل تقبيل الحجر الأسود من الإسلام؟ هذه وثنية!!! الإسلام أتى ليقضي على الوثنية وأنا أحارب عبادة الأوثان.
وهل يمثلها الحج؟
- بالطريقة التي يقومون بها، نعم. وأنا أيضًا ضد الطريقة التي يصلون بها، لقد ذهب جمع من الصحابة لرسول الله وقالوا له: فلان يصلي الليل والنهار، فقال لهم: ومن يعول أسرته، قالوا: كلنا يا رسول الله، فقال: أنتم خير منه. يا أخي رعاية الأولاد صلاة وعبادة، الصدق صلاة وعبادة، التعامل الإنساني صلاة وعبادة، ليس أن يذهب إلى الحج ليسرق أو يتاجر أو يصلي وهو أفسق خلق الله، أنا مع المفهوم الصحيح للإسلام، الصلاة ليست مجرد حركة رياضية كما أصبحت حالًا، الصلاة هي إحياء الضمير، الحج كذلك ليس زيارة لقبر أو تقبيل لحجر؛ لأن الإسلام حارب الوثنية، الحج هو التأمل، اسمع الكلام الجميل لرابعة العدوية التي حاربت مع الصوفية (الطقوسية): «لا أعبد الله لأنني أخاف النار أو أطمع في الجنة فأكون أمة أو جارية، إنما أعبده لأنني أحبه»، انظر إلى هذا الجمال.
وهذا ما يفسر غضبتك حين يقول أحدهم لك: يا حجة؟
- نعم . . لا أحب أن يناديني أحد بهذا اللقب؛ لأنني لم أحج ولن أحج، بإمكاني أن أحج وأنا في شرفة بيتي، وعملي وكتبي هي صلاتي، تقربي لله هو تقربي للعدل والحرية، =

وَتَاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْ أَجْهَلِ النَّاسِ، وَأَشَدِّهِمْ تَكْذِيبًا بِالْقُرْآنِ؛ لِأَنَّ الْحَجَّ وَمَنَاسِكَهُ مِنَ الطَّوَافِ وَالسَّعْيِ وَالْوُقُوفِ بِعَرَفَةَ، وَالمَبِيتِ بِمُزْدَلِفَةَ وَغَيْرِ ذَلِكَ جَاءَ ذِكْرُهُ فِي الْقُرْآنِ، فَمَاذَا سَيَقُولُونَ؟!

ثُمَّ إِنَّهُمْ مِنْ أَجْهَلِ النَّاسِ بِالتَّارِيخِ وَبِمَا يُسَمَّى بِعُلُومِ الِاجْتِمَاعِ وَتَنَاقُلِ الْحَضَارَاتِ؛ وَذَلِكَ بِنِسْبَتِهِمْ شَعَائِرَ الْحَجِّ لِلْمُشْرِكِينَ؛ إِذْ مِنَ الثَّابِتِ فِي التَّارِيخِ أَنَّ الْمُؤَذِّنَ بِالْحَجِّ إِبْرَاهِيمُ ﷺ، ثُمَّ انْحَرَفَ النَّاسُ فِي مَكَّةَ بَعْدَ دَعْوَتِهِ وَدَعْوَةِ ابْنِهِ إِسْمَاعِيلَ، وَبَقِيَتْ بَقَايَا مِنْ دِينِهِمَا يَتَوَارَثُهَا النَّاسُ، وَدَاخَلَهَا شَيْءٌ كَثِيرٌ مِنَ التَّحْرِيفِ وَالشِّرْكِ، كَالِاعْتِقَادِ فِي الْأَصْنَامِ، وَعِبَادَتِهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَلْءِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ بِهَا، وَالتَّمْيِيزِ فِي الْحَجِّ بَيْنَ الْحُمْسِ وَغَيْرِهِمْ، وَالطَّوَافِ بِالْبَيْتِ عُرَاةً، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

= وليس بالنصوص والتفسيرات، هذه سياسة.

وهذه النماذج المنحرفة هي التي تصدر في الإعلام! عاملها الله تعالى ومن كان مثلها ومن رفع شأنها بما يستحقون، وحسبنا الله تعالى عليهم.

وهم على جادة الزنادقة السابقين؛ فقد نقل وصف الحج بالوثنية عن أبي العلاء المعرّي وابن الراوندي. يقول المعري كما في ديوانه (٥٢):

أَرَى عَالماً يرجونَ عَفْوًا مليكهم ... بتقبيلِ ركنٍ واتخاذِ صليبِ

وينظر كلام المؤرخين فيه: ابن الجوزي في المنتظم (١٦/ ٢٥)، والذهبي في السير (١٨/ ٢٨)، وابن كثير في البداية والنهاية (١٢/ ٧٤).

وقال ابن الراوندي: «إن الرسول أتى بما كان منافرًا للعقول، مثال الصلاة، وغسل الجنابة، ورمي الحجارة، والطواف حول بيت لا يسمع ولا يبصر، والعدْو بين حجرين لا ينفعان ولا يضران، وهذا كله مما لا يقتضيه عقل، فما الفرق بين الصفا والمروة إلا كالفرق بين أبي قبيس وحرى، وما الطواف على البيت إلا كالطواف على غيره من البيوت» ينظر: من تاريخ الإلحاد في الإسلام، د. عبد الرحمن بدوي (ص٩٩) سيناء للنشر، القاهرة، ط٢، ١٩٩٣م.

فَبَعَثَ اللهُ تَعَالَى مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي الْمَكَانِ الَّذِي أَذَّنَ فِيهِ إِبْرَاهِيمُ ﷺ بِالْحَجِّ؛ لِيُزِيلَ مَا زَادَهُ النَّاسُ فِي دِينِهِ، وَلِيَقْضِيَ عَلَى أَوْضَارِ الشِّرْكِ، وَيُعِيدَ النَّاسَ إِلَى التَّوْحِيدِ الَّذِي دَعَاهُمْ إِلَيْهِ إِبْرَاهِيمُ ﷺ، وَتَمَّ ذَلِكَ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى، وَحَجَّ النَّاسُ بَعْدَ بَعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى وَفْقِ التَّوْحِيدِ الَّذِي أَذَّنَ بِهِ إِبْرَاهِيمُ ﷺ لَمَّا بَنَى الْبَيْتَ.

أَفَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ يَأْتِي جَاهِلٌ أَخْرَقُ قَدِ اسْوَدَّ قَلْبُهُ بِالْحِقْدِ، وَأَعْمَى الضَّلَالُ بَصِيرَتَهُ، لِيَقْرَأَ صَفَحَاتٍ مِنَ التَّارِيخِ فَيَرَى أَنَّ قُرَيْشًا كَانُوا يَحُجُّونَ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ، فَيَطِيرَ فَرَحًا بِمَا اكْتَشَفَ، وَيَصِيحَ فِي النَّاسِ أَنَّ الْحَجَّ مِنْ بَقَايَا الْوَثَنِيَّةِ، وَهُوَ مِنْ جَهْلِهِ لَا يَعْلَمُ أَنَّ عَوَامَّ الْمُسْلِمِينَ فِي طُولِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ وَعَرْضِهِ يَعْلَمُونَ أَنَّ قُرَيْشًا وَرِثَتِ الْحَجَّ عَنْ إِبْرَاهِيمَ ﷺ، وَبَقِيَ فِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ مَنَاسِكِهِ وَشَعَائِرِهِ مَعَ مَا دَاخَلَهَا مِنَ التَّحْرِيفِ وَالشِّرْكِ الَّذِي أَزَالَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِدَعْوَتِهِ إِلَى الْإِسْلَامِ.

وَهَؤُلَاءِ الْمُنْحَرِفُونَ يُصَدَّرُونَ فِي الْإِعْلَامِ الْفَاسِدِ، وَيُشَارُ إِلَيْهِمْ بِالْبَنَانِ، وَيُفْرَضُونَ عَلَى النَّاسِ صَبَاحًا وَمَسَاءً، بِدَعْوَى أَنَّهُمْ مُفَكِّرُونَ وَبَاحِثُونَ، وَقَدْ بَلَغَ جَهْلُهُمْ بِالشَّرِيعَةِ وَالتَّارِيخِ وَالتَّوَارُثِ الْحَضَارِيِّ مَا قَدْ سَمِعْتُمْ وَعَلِمْتُمْ، فَإِلَى اللَّهِ تَعَالَى الْمُشْتَكَى مِنْ زَمَنٍ صُدِّرَ فِيهِ الْأَرَاذِلُ، وَأُخْفِيَتِ الْحَقَائِقُ، وَتَكَلَّمَ الرُّوَيْبِضَةُ.

وَنَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَكْبِتَ كُلَّ مُنَافِقٍ وَمُنَافِقَةٍ، وَأَنْ يَنْصُرَ دِينَهُ، وَيُعْلِيَ كَلِمَتَهُ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا . .

❁ ❁ ❁

٢٦٩- مظاهر التوحيد في الحج (٢)
التوحيد في التلبية والطواف

٥/ ١٢/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ مَالِكِ الْمُلْكِ، وَمُدَبِّرِ الْأَمْرِ؛ فَرَضَ عَلَى عِبَادِهِ تَوْحِيدَهُ وَطَاعَتَهُ، وَحَذَّرَهُمْ مِنَ الْإِشْرَاكِ بِهِ وَمِنْ مَعْصِيَتِهِ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الْأَنْبِيَاء: ٢٥]. نَحْمَدُهُ فَهُوَ أَهْلُ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ، وَأَحَقُّ مَنْ حَمِدَهُ الْحَامِدُونَ، وَشَكَرَهُ الشَّاكِرُونَ ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الْجَاثِيَة: ٣٦، ٣٧].

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ؛ لَا رَبَّ لَنَا سِوَاهُ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ بَعَثَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَانْقِطَاعٍ مِنَ الْوَحْيِ؛ فَأَصْلَحَ بِهِ الْقُلُوبَ، وَزَكَّى النُّفُوسَ، وَأَعَادَ الْحَنِيفِيَّةَ، وَقَضَى عَلَى مَظَاهِرِ الْوَثَنِيَّةِ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التَّوْبَة: ٣٣] صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاعْرِفُوا لَهُ ﷻ حَقَّهُ، وَاقْدُرُوهُ سُبْحَانَهُ قَدْرَهُ؛ فَإِنَّهُ خَالِقُكُمْ وَرَازِقُكُمْ، وَمُحْيِيكُمْ وَمُمِيتُكُمْ، وَبَاعِثُكُمْ وَمُحَاسِبُكُمْ عَلَى أَعْمَالِكُمْ، يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِكُمْ، وَلَا يُرِيدُ مِنْكُمْ إِلَّا تَوْحِيدَهُ وَطَاعَتَهُ، وَمُجَانَبَةَ الْإِشْرَاكِ بِهِ، وَتَرْكَ مَعْصِيَتِهِ، لَمْ يَخْلُقْكُمْ لِيَسْتَقْوِيَ بِكُمْ مِنْ ضَعْفٍ، وَلَا لِيُكَاثِرَ بِكُمْ مِنْ قِلَّةٍ، وَلَا لِيَقْدِرَ بِكُمْ مِنْ عَجْزٍ، بَلْ

هُوَ الْقَادِرُ الْقَوِيُّ الْغَنِيُّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذَّارِيَات: ٥٦-٥٨].

أَيُّهَا النَّاسُ: الْحَجُّ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ، وَمَبْنًى مِنْ مَبَانِيهِ الْعِظَامِ، شَرَعَهُ اللهُ تَعَالَى لِمَصَالِحِ عِبَادِهِ وَمَنَافِعِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَالْحَجُّ فِي زَمَانِهِ وَمَكَانِهِ وَأَعْمَالِهِ شَعِيرَةٌ مِنَ الشَّعَائِرِ الْكُبْرَى، وَمَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى، وَنَبْذِ الشِّرْكِ وَالْوَثَنِيَّةِ؛ فَزَمَانُهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَلَيْسَ مِنَ الْبَشَرِ ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ [الْبَقَرَة: ١٩٧]، وَمَكَانُهُ بُقْعَةٌ مُبَارَكَةٌ مُقَدَّسَةٌ بَارَكَهَا اللهُ تَعَالَى، وَفَضَّلَهَا عَلَى سَائِرِ الْبِقَاعِ، وَأَمَرَ عِبَادَهُ بِأَنْ يَفِدُوا إِلَيْهَا مِنْ فِجَاجِ الْأَرْضِ حُجَّاجًا وَمُعْتَمِرِينَ وَزَائِرِينَ ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الْحَجّ: ٢٧].

هَكَذَا أَرَادَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يَكُونَ زَمَانُ الْحَجِّ وَمَكَانُهُ، وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَيْسَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا الْقَبُولُ وَالْإِذْعَانُ وَالِامْتِثَالُ؛ فَلَبَّى النِّدَاءَ مَنْ أَرَادَ اللهُ تَعَالَى بِهِمْ خَيْرًا مِنْ عِبَادِهِ -وَلَا زَالُوا وَإِلَى آخِرِ الزَّمَانِ-، وَاسْتَنْكَفَ عَنْهُ أَهْلُ الْجَهْلِ وَالشِّرْكِ وَالِاسْتِكْبَارِ.

وَالْحَجُّ فِي أَعْمَالِهِ وَشَعَائِرِهِ مَبْنِيٌّ عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى وَطَاعَتِهِ؛ فَالْحَاجُّ يَخْرُجُ مِنْ بَلَدِهِ، وَيُفَارِقُ أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ وَحِبَّهُ، وَلَا يَدْرِي أَيَرْجِعُ إِلَيْهِمْ أَمْ يَمُوتُ بَعِيدًا عَنْهُمْ، وَيَتَحَمَّلُ مَشَقَّةَ السَّفَرِ وَمَخَاطِرَهُ، وَيَبْذُلُ نَفِيسَ الْمَالِ، لَا لِشَيْءٍ إِلَّا لِمَرْضَاةِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَلْبِيَةً لِنِدَاءِ الْخَلِيلِ عليه السلام حِينَ أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى أَنْ يَبْتَنِيَ بَيْتًا، وَيُنَادِيَ فِي النَّاسِ بِأَنْ يَحُجُّوا إِلَيْهِ. مُسْلِمُونَ يَفِدُونَ إِلَى مَكَّةَ لِلْحَجِّ مِنْ أَقَاصِي الْبُلْدَانِ .. شِيبٌ وَعَجَائِزُ أَخَذَتِ السُّنُونَ مِنْهُمْ حَظَّهَا، فَهَزَلَتْ أَجْسَامُهُمْ،

وَضَعُفَتْ حَرَكَتُهُمْ، وَأَحَاطَتْ بِهِمُ الْأَسْقَامُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، مَا إِنْ يُبَشَّرُوا بِأَنَّهُمْ سَيَحُجُّونَ حَتَّى تَنْهَضَ بِهِمْ هِمَمٌ عَالِيَةٌ دُونَهَا هِمَمُ الشَّبَابِ وَقُوَّتُهُمْ . .

مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ هَذِهِ الْبُشْرَى مُنْذُ عِشْرِينَ سَنَةً وَثَلَاثِينَ وَأَرْبَعِينَ . . وَمِنْهُمْ مَنْ بَذَلَ كُلَّ ثَرْوَتِهِ فِي هَذَا السَّبِيلِ . . وَمِنْهُمْ مَنْ بَاعَ بَيْتَهُ لِأَجْلِ الْحَجِّ . . فَهَلْ تَرَوْنَ يَا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَدِمُوا إِلَى مَكَّةَ يُرِيدُونَ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، وَقَدْ بَذَلُوا كُلَّ دُنْيَاهُمْ لِأَجْلِ الْحَجِّ؟!

مَا إِنْ تَطَأُ أَقْدَامُهُمْ أَرْضَ الْحَرَمِ، فَيَرَوُا الْكَعْبَةَ الشَّرِيفَةَ حَتَّى تَقْشَعِرَّ جُلُودُهُمْ، وَتَفِيضَ بِالدَّمْعِ عُيُونُهُمْ؛ شَاكِرِينَ اللهَ تَعَالَى بُلُوغَ الْهَدَفِ، وَتَحَقُّقَ الْأُمْنِيَةِ، وَأَدَاءَ الْفَرِيضَةِ!! وَتَاللَّهِ الَّذِي لَا يُحْلَفُ إِلَّا بِهِ؛ إِنَّ خُرُوجَهُمْ مِنْ بِلَادِهِمْ إِلَى مَكَّةَ مَظْهَرٌ عَظِيمٌ مِنْ مَظَاهِرِ التَّوْحِيدِ، وَإِنَّ فِي خُرُوجِهِمْ بِهَذِهِ الْأَعْدَادِ الْهَائِلَةِ فِي كُلِّ عَامٍ، وَمِنْ مُخْتَلَفِ الْبُلْدَانِ حَتَّى لَا تَكَادُ تُوجَدُ بِلَادٌ لَا يَفِدُ مِنْهَا حُجَّاجٌ، إِنَّ فِيهِ دَعْوَةً إِلَى التَّوْحِيدِ؛ فَكَمْ مِنْ مُلْحِدٍ وَمُشْرِكٍ وَضَالٍّ هَدَاهُ اللهُ تَعَالَى إِلَى الْإِسْلَامِ، وَكَانَ الْحَجُّ سَبَبَ هِدَايَتِهِ حِينَ رَأَى أَهْلَ بَلَدِهِ يَحُجُّونَ، أَوْ رَأَى جُمُوعَ الْحَجِيجِ فِي الْمَشَاعِرِ عَلَى شَاشَاتِ التَّلْفَزَةِ، فَسَأَلَ نَفْسَهُ مَاذَا يَفْعَلُ هَؤُلَاءِ؟ وَمَاذَا يُرِيدُونَ؟ وَلِمَاذَا كَانَ لِبَاسُهُمْ هَكَذَا؟ وَلِمَاذَا كَانَ لِبَاسًا وَاحِدًا؛ غَنِيُّهُمْ وَفَقِيرُهُمْ، شَرِيفُهُمْ وَوَضِيعُهُمْ؟ مَا طَوَافُهُمْ وَوُقُوفُهُمْ وَبُكَاؤُهُمْ؟ فَكَانَتْ هَذِهِ الْأَسْئِلَةُ وَبَحْثُهُ عَنْ أَجْوِبَتِهَا سَبَبَ هِدَايَتِهِ، وَكَانَ سَبَبُ تِلْكَ الْأَسْئِلَةِ سَفَرَ الْحَجِيجِ وَاجْتِمَاعَهُمْ وَمَشْهَدَهُمْ!! فَمَا أَعْظَمَ الْحَجَّ وَشَعَائِرَهُ! وَمَا أَدَلَّهُ عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَعْظِيمِهِ!

وَالْحَاجُّ حِينَ يَبْلُغُ الْمِيقَاتَ يَتَجَرَّدُ مِنْ لِبَاسِهِ الْمُعْتَادِ، وَيَلْبَسُ مَا لَا يَعْتَادُ وَلَوْ كَانَ فِيهِ مَشَقَّةٌ؛ فَإِنَّ مُفَارَقَةَ الْمَأْلُوفِ شَاقٌّ عَلَى النُّفُوسِ. وَهُوَ كَذَلِكَ يَجْتَنِبُ

مَحْظُورَاتِ الْإِحْرَامِ، لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ لِمَصْلَحَةٍ مَالِيَّةٍ، أَوْ مُرَاعَاةٍ طِبِّيَّةٍ، أَوْ غَيْرِهَا، بَلْ يَفْعَلُهُ طَاعَةً لِلَّهِ تَعَالَى، وَإِيمَانًا بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ فَرَضَ الْحَجَّ، وَأَوْجَبَ عَلَى الْحَاجِّ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ، وَهَذِهِ الطَّاعَةُ فِي تَرْكِ مَا هُوَ مَأْلُوفٌ، وَفِعْلِ غَيْرِ المَأْلُوفِ، وَاجْتِنَابِ المَحْبُوبِ مَا هِيَ إِلَّا مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْإِيمَانِ بِهِ.

وَأَوَّلُ جُمْلَةٍ يَنْطِقُ بِهَا الْحَاجُّ حَالَ دُخُولِهِ النُّسُكَ هِيَ التَّلْبِيَةُ، وَالتَّلْبِيَةُ إِعْلَانٌ لِلتَّوْحِيدِ وَنَبْذٌ لِلشِّرْكِ؛ رَوَى ابْنُ عُمَرَ ﵄: «أَنَّ تَلْبِيَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: **لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالمُلْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ**»، وَفِي رِوَايَةٍ: «لَا يَزِيدُ عَلَى هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[1].

وَهَذِهِ التَّلْبِيَةُ الْعَظِيمَةُ هِيَ إِهْلَالٌ بِالتَّوْحِيدِ كَمَا قَالَ جَابِرٌ ﵁ وَهُوَ يَحْكِي حَجَّةَ النَّبِيِّ ﷺ وَيَصِفُ حَالَهُمْ مَعَهُ: «وَمَا عَمِلَ بِهِ مِنْ شَيْءٍ عَمِلْنَا بِهِ فَأَهَلَّ بِالتَّوْحِيدِ: **لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالمُلْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ**. وَأَهَلَّ النَّاسُ بِهَذَا الَّذِي يُهِلُّونَ بِهِ، فَلَمْ يَرُدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيْهِمْ شَيْئًا مِنْهُ، وَلَزِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَلْبِيَتَهُ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[2].

فَكَانَتْ هَذِهِ التَّلْبِيَةُ المُبَارَكَةُ هِيَ أَفْضَلُ صِيَغِ التَّلْبِيَةِ؛ لِالْتِزَامِ النَّبِيِّ ﷺ بِهَا، وَعَدَمِ زِيَادَتِهِ عَلَيْهَا؛ وَلِمَا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ مَعَانِي التَّوْحِيدِ، وَالْبَرَاءَةِ مِنَ الشِّرْكِ؛ وَلِمَا فِيهَا مِنَ الِاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ الْخَلِيلِ ﵇ حِينَ أَذَّنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ؛ فَإِنَّ

---

(١) أخرجه البخاري في الحج، باب التلبية (١٤٧٤)، ومسلم في الحج، باب التلبية وصفتها ووقتها (١١٨٤)، والرواية الثانية للبخاري في اللباس، باب التلبيد (٥٥٧١)، ومسلم (١١٨٤).

(٢) أخرجه مسلم في الحج، باب حجة النبي ﷺ (١٢١٨)، وابن أبي شيبة (٣/ ٣٣٤)، وابن الجارود (٤٦٩)، وابن حبان (٣٩٤٤).

مَعْنَاهَا: إِجَابَةٌ لَكَ بَعْدَ إِجَابَةٍ، إِجَابَةٌ خَالِصَةٌ لَا شِرْكَ فِيهَا[٣].

وَتَضَمَّنَتِ التَّلْبِيَةُ كَذَلِكَ حَمْدَ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْإِقْرَارَ بِنِعَمِهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَبِأَنَّهُ ﷻ مَالِكُ الْمُلْكِ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ مَظَاهِرِ تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى فِي تِلْكَ التَّلْبِيَةِ الْمُبَارَكَةِ.

وَهِيَ رَدٌّ عَلَى تَلْبِيَةِ الْمُشْرِكِينَ حِينَ كَانُوا يُلَبُّونَ فَيَقُولُونَ: «لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ» فَكَانَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُنْكِرُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَيَقُولُ: «**وَيْلَكُمْ قَدٍ قَدٍ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[٤].

أَيْ: تَكْفِيكُمْ تَلْبِيَةُ التَّوْحِيدِ عَنْ هَذِهِ الزِّيَادَةِ الشِّرْكِيَّةِ فِي التَّلْبِيَةِ.

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي شَرَعَ الْحَجَّ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا الدِّينِ الْحَنِيفِ ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٣].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ...

❁ ❁ ❁

---

(٣) ينظر: شرح النووي (١/ ٢٣١) و(٨/ ٨٧)، ومرقاة المفاتيح (٢/ ٢٦٠)، وفيض القدير (٢/ ٣١١)، وذكر ابن القيم في تهذيب السنن ثمانية أقوال في معناها (٥/ ١٧٥).

(٤) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: مسلم في الحج، باب التلبية وصفتها ووقتها (١١٨٥)، وأبو عوانة (٣٧٢٦)، والضياء في المختارة (٤٤٨).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ فِي أَيَّامٍ عَظِيمَةٍ، الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْعَمَلِ فِي غَيْرِهَا؛ كَمَا رَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ** -يَعْنِي أَيَّامَ الْعَشْرِ-، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: **وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ وَاللَّفْظُ لَهُ(٥).

فَاعْمُرُوهَا -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَطَاعَتِهِ، وَتَعْظِيمِ شَعَائِرِهِ ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الْحَجّ: ٣٢].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِذَا تَأَمَّلَ الْمُتَأَمِّلُ مَنَاسِكَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ بِأَقْوَالِهَا وَأَفْعَالِهَا وَجَدَ أَنَّ لَهَا ارْتِبَاطًا وَثِيقًا بِتَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى؛ فَهِيَ أَعْمَالٌ يَعْمَلُهَا الْمُسْلِمُ انْطِلَاقًا مِنْ إِيمَانِهِ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَتَوْحِيدِهِ ﷻ، مُنْذُ خُرُوجِهِ مِنْ بَلَدِهِ لِأَدَاءِ هَذَا النُّسُكِ الْعَظِيمِ إِلَى رُجُوعِهِ بَعْدَ أَدَاءِ الْمَنَاسِكِ.

وَإِذَا مَا بَلَغَ الْحَاجُّ الْبَيْتَ الْحَرَامَ اسْتَحْضَرَ وَهُوَ يَرَى الْكَعْبَةَ أَنَّ بَانِيَ الْبَيْتِ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ عليه السلام، الَّذِي كَانَ إِمَامًا فِي دَعْوَتِهِ إِلَى الْحَنِيفِيَّةِ الَّتِي هِيَ التَّوْحِيدُ حَتَّى نُسِبَتْ إِلَيْهِ ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ

(٥) أخرجه البخاري في العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق (٩٢٦)، وأبو داود في الصوم، باب صوم العشر (٢٤٣٨).

ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النَّحل: ١٢٠]، وَأَمَرَ اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ بِاتِّبَاعِهَا فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عِمْرَان: ٩٥].

كَمَا يَسْتَحْضِرُ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام قَدْ شَيَّدَ الْبَيْتَ عَلَى التَّوْحِيدِ؛ كَيْفَ وَهُوَ مَنْ دَعَا اللهَ تَعَالَى قَائِلًا: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إِبْرَاهِيم: ٣٥]؟!

فَإِذَا اسْتَحْضَرَ الْمُسْلِمُ هَذَا المَعْنَى الْعَظِيمَ وَهُوَ يَرَى الْبَيْتَ الْحَرَامَ، لَمْ يُشْرِكْ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى آلِهَةً أُخْرَى؛ وَلِذَا فَإِنَّهُ يَبْتَدِئُ طَوَافَهُ بِالْبَيْتِ بِذِكْرِ اسْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَكْبِيرِهِ، وَهَذَا مِنْ إِعْلَانِ التَّوْحِيدِ فِي بِدَايَةِ الطَّوَافِ. وَهُوَ يَطُوفُ حِينَ يَطُوفُ تَعْظِيمًا لِلَّهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَ الطَّوَافَ بِالْكَعْبَةِ عِبَادَةً وَقُرْبَةً يَتَقَرَّبُ بِهَا الْمُؤْمِنُونَ إِلَيْهِ.

إِنَّ الْحُجَّاجَ لَا يَطُوفُونَ بِالْكَعْبَةِ؛ لِأَنَّهَا بِنَاءٌ جَمِيلٌ، أَوْ لِأَنَّهَا أَقْدَمُ بِنَاءٍ عَلَى الْأَرْضِ فَهِيَ مِنَ التُّرَاثِ، أَوْ لِأَنَّ أَبَوَيْهِمْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ قَدْ بَنَيَاهَا، أَوْ لِاعْتِقَادِهِمْ أَنَّهَا تَنْفَعُ وَتَضُرُّ وَهِيَ أَكْوَامُ حِجَارَةٍ كَغَيْرِهَا؛ بَلْ يَطُوفُونَ بِهَا لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى أَمَرَهُمْ بِذَلِكَ، وَقَضَى سُبْحَانَهُ بِأَنَّ الطَّوَافَ بِهَا مِنْ شَعَائِرِهِ تعالى، وَمِنْ مَنَاسِكِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ الَّتِي كَتَبَهَا عَلَى عِبَادِهِ، ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الْحَجّ: ٢٩] وَلِذَا كَانَ الطَّوَافُ بِهَا قُرْبَةً إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَكَانَ الطَّوَافُ بِأَيِّ بِنَاءٍ عَلَى وَجْهِ التَّعَبُّدِ شِرْكًا بِاللَّهِ تَعَالَى، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا المَعْنَى مِنْ مَعَانِي التَّوْحِيدِ وَقَدْ غَفَلَ عَنْهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ!!

وَإِنْ تَيَسَّرَ لِلطَّائِفِ أَنْ يَسْتَلِمَ الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ وَيُقَبِّلَهُ فَإِنَّهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى شَرَعَ ذَلِكَ وَجَعَلَهُ عِبَادَةً لَهُ سُبْحَانَهُ، لَا لِأَنَّهُ يَعْبُدُ الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ، أَوْ يَعْتَقِدُ فِيهِ النَّفْعَ وَالضُّرَّ، وَفِي هَذَا المَعْنَى ثَبَتَ عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّهُ جَاءَ إِلَى الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ فَقَبَّلَهُ، فَقَالَ: «إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ

النَّبِيَّ ﷺ يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[٦].

وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا قَبَّلَ حَجَرًا غَيْرَ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ عَلَى وَجْهِ التَّعَبُّدِ لَكَانَ مُشْرِكًا؛ فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ الطَّوَافَ بِالْبَيْتِ عِبَادَةً، وَجَعَلَ الطَّوَافَ بِغَيْرِهِ شِرْكًا! وَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ تَقْبِيلَ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ عِبَادَةً، وَجَعَلَ تَقْبِيلَ غَيْرِهِ شِرْكًا!!

وَهَلِ التَّوْحِيدُ إِلَّا الْتِزَامُ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْعَمَلُ بِشَرِيعَتِهِ، وَالْوُقُوفُ عِنْدَهَا، وَالْحَذَرُ مِمَّا أَحْدَثَهُ الْمُحْدِثُونَ مِنْ أَنْوَاعِ الشِّرْكِ وَالْبِدَعِ وَالضَّلَالِ؟!

عَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّمَا جُعِلَ الطَّوَافُ بِالْبَيْتِ، وَبَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَرَمْيُ الْجِمَارِ؛ لِإِقَامَةِ ذِكْرِ اللَّهِ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[٧].

وَلَوْ فَقِهَ الْمُسْلِمُونَ هَذَا الْمَعْنَى الْعَظِيمَ فِي الْحَجِّ لَمَا كَانَ فِي كَثِيرٍ مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ قُبُورٌ وَأَضْرِحَةٌ تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى؛ فَيُطَافُ بِهَا، وَيُنْذَرُ لَهَا، وَيُدْعَى عِنْدَهَا، وَيُصْرَفُ لَهَا مَا لَا يَجُوزُ صَرْفُهُ إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَى مِنَ الْمَحَبَّةِ وَالتَّعْظِيمِ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، فَمَا أَشَدَّ غُرْبَةَ التَّوْحِيدِ فِي كَثِيرٍ مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ؟!

وَمَا أَحْوَجَنَا إِلَى مَعْرِفَةِ ارْتِبَاطِ الْعِبَادَاتِ مِنْ صَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَصَدَقَةٍ وَحَجٍّ وَغَيْرِهَا بِتَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى! وَأَنَّ الدَّافِعَ الَّذِي يَدْفَعُ الْمُسْلِمَ إِلَى هَذِهِ الْعِبَادَاتِ مَعَ مَا فِيهَا مِنْ مَشَقَّةٍ هُوَ تَوْحِيدُهُ لِلَّهِ تَعَالَى، وَلَوْ فَقِهَ الْمُسْلِمُونَ ذَلِكَ حَقَّ الْفِقْهِ لَمَا انْقَلَبَتِ الْعِبَادَاتُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ إِلَى مَا يُشْبِهُ الْعَادَاتِ، فَلَا تَتَحَرَّكُ بِهَا

---

(٦) أخرجه البخاري في الحج، باب ما ذكر في الحجر الأسود (١٥٢٠)، ومسلم في الحج، باب استحباب تقبيل الحجر الأسود في الطواف (١٢٧٠).

(٧) أخرجه أبو داود في المناسك، باب في الرمل (١٨٨٨)، والترمذي في الحج، باب ما جاء في كراهية طرد الناس عند رمي الجمار، وقال: حسن صحيح (٩٠٣)، وأحمد (٦/ ٦٤)، وإسحاق ابن راهويه (٩٢٨)، وابن الجارود (٤٥٧)، وصححه ابن خزيمة (٢٨٨٢)، والحاكم (١/ ٦٣٠).

قُلُوبُهُمْ، وَلَا تَزْكُو بِهَا أَعْمَالُهُمْ وَأَخْلَاقُهُمْ.

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَاسْتَشْعِرُوا فِي كُلِّ عِبَادَةٍ تُؤَدُّونَهَا حَقَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَيْكُمْ، وَاسْتَحْضِرُوا عَظَمَتَهُ وَقُدْرَتَهُ، وَأَنَّهُ ﷻ رَبُّكُمْ وَإِلَهُكُمْ وَأَنْتُمْ عَبِيدُهُ، وَأَنَّهُ تَعَالَى غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُفْتَقِرُونَ إِلَيْهِ فِي كُلِّ أَحْوَالِكُمْ وَأَحْيَانِكُمْ وَشُئُونِكُمْ، فَمَنِ اسْتَحْضَرَ ذَلِكَ فِي كُلِّ عِبَادَةٍ يُؤَدِّيهَا وَجَدَ فِي قَلْبِهِ لَذَّةً لَا يَجِدُهَا فِي أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .





٢٧٠- خطبة عيد الأضحى المبارك ظاهرتا الإرجاء والتكفير

الْأَرْبَعَاء ١٠/ ١٢/ ١٤٢٨هـ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ خَالِقِ الْخَلْقِ، وَقَاسِمِ الرِّزْقِ، وَمُدَبِّرِ الْأَمْرِ، لَا رَادَّ لِأَمْرِهِ، وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ [الإسراء: ١١١].

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الحَمْدُ.

اللهُ أَكْبَرُ مَا هَلَّ هِلَالٌ وَأَدْبَرَ، اللهُ أَكْبَرُ مَا حَجَّ حَاجٌّ وَاعْتَمَرَ، اللهُ أَكْبَرُ مَا لَبَّى مُلَبٍّ وَكَبَّرَ.

اللهُ أَكْبَرُ عَدَدَ مَنْ وَقَفُوا بِعَرَفَاتٍ، اللهُ أَكْبَرُ عَدَدَ مَا رُفِعَ لِلَّهِ تَعَالَى مِنَ الدَّعَوَاتِ، اللهُ أَكْبَرُ عَدَدَ مَا قَضَى سُبْحَانَهُ مِنَ الْحَاجَاتِ.

اللهُ أَكْبَرُ، كَمْ مِنْ قُلُوبٍ لِلَّهِ تَعَالَى خَشَعَتْ! وَكَمْ مِنْ أَعْيُنٍ مِنْ خَشْيَتِهِ دَمَعَتْ! وَكَمْ مِنْ دَعَوَاتٍ إِلَيْهِ رُفِعَتْ!

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ حَجَّ حَجَّةً وَاحِدَةً سُمِّيَتْ حَجَّةَ الْوَدَاعِ. سَارَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي جُمُوعٍ غَفِيرَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُرِيدُونَ الِائْتِمَامَ بِهِ، وَمَعْرِفَةَ الْمَنَاسِكِ مِنْهُ، فَكَانُوا مَدَّ الْبَصَرِ رِجَالًا وَرُكْبَانًا، بَيْنَ يَدَيْهِ وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ يَسَارِهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، فَحَجَّ بِهِمْ،

وَعَلَّمَهُمْ مَنَاسِكَهُمْ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ أَتْقَى هَذِهِ الْأُمَّةِ قُلُوبًا؟ وَأَزْكَاهُمْ أَعْمَالًا، أَثْنَى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَرَضِيَ عَنْهُمْ وَإِنْ رَغِمَتْ أُنُوفُ مُبْغِضِيهِمْ مِنْ أَهْلِ الرَّفْضِ وَالشِّرْكِ وَالنِّفَاقِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاحْمَدُوهُ عَلَى مَا هَدَاكُمْ، وَاشْكُرُوهُ عَلَى مَا أَعْطَاكُمْ؛ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ، وَعَلَّمَكُمُ الشَّرَائِعَ وَالْأَحْكَامَ، وَفَرَضَ عَلَيْكُمْ مَا يُصْلِحُكُمْ فِي الْحَالِ وَالمَعَادِ، وَمِنْ عَظِيمِ نِعْمَتِهِ عَلَيْكُمْ، وَكَبِيرِ إِحْسَانِهِ إِلَيْكُمْ أَنْ بَلَّغَكُمْ هَذِهِ الْعَشْرَ الْمُبَارَكَةَ، وَخَاتِمَتُهَا هَذَا الْيَوْمُ الْأَغَرُّ الَّذِي سُمِّيَ فِي الْقُرْآنِ: يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ، وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ أَعْظَمُ الْأَيَّامِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى(١).

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الحَمْدُ.

أَيُّهَا النَّاسُ: فِي مَكَّةَ وَالمَشَاعِرِ المُقَدَّسَةِ ضُيُوفُ الرَّحْمَنِ، وَحُجَّاجُ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، قَدْ وَقَفُوا بِالْأَمْسِ فِي عَرَفَاتٍ، يَعْبُدُونَ رَبًّا وَاحِدًا، وَيَلْبَسُونَ لِبَاسًا وَاحِدًا، وَيُلَبُّونَ تَلْبِيَةً وَاحِدَةً.

قَدْ تَبَاعَدَتْ بُلْدَانُهُمْ، وَلَكِنْ تَقَارَبَتْ فِي المَنَاسِكِ قُلُوبُهُمْ، اخْتَلَفَتْ لُغَاتُهُمْ وَأَلْوَانُهُمْ وَأَجْنَاسُهُمْ فَجَمَعَتْهُمْ رَابِطَةُ الْإِيمَانِ؛ فَجَاءُوا مِنْ شَتَّى بُلْدَانِهِمْ لِهَدَفٍ وَاحِدٍ، وَغَايَةٍ وَاحِدَةٍ هِيَ: تَعْظِيمُ شَعَائِرِ اللَّهِ تَعَالَى فِي المَشَاعِرِ المُقَدَّسَةِ، وَأَدَاءُ مَنَاسِكِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، فَمَا ظَنُّكُمْ -يَا عِبَادَ اللَّهِ- بِرَبٍّ جَوَادٍ كَرِيمٍ يُعْطِي الْعَطَاءَ

---

(١) كما في حديث عبد الله بن قرط ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إن أعظم الأيام عند الله تبارك وتعالى يوم النحر ثم يوم القر» رواه أبو داود في المناسك، باب في الهدي إذا عطب قبل أن يبلغ (١٧٦٥)، وصححه ابن خزيمة (٢٨٦٦)، والحاكم (٤/ ٢٤٦).

الْجَزِيلَ عَلَى الْعَمَلِ الْقَلِيلِ، وَيَغْفِرُ الذَّنْبَ الْعَظِيمَ؟!

مَا ظَنُّكُمْ بِهِ سُبْحَانَهُ وَقَدْ وَقَفَ الْحَجِيجُ فِي عَرَفَاتٍ شُعْثًا غُبْرًا، تَجَرَّدُوا مِنْ لِبَاسِهِمْ، وَحَسَرُوا رُؤُوسَهُمْ ذُلًّا لَهُ وَتَعْظِيمًا، وَرَفَعُوا أَيْدِيَهُمْ يَسْأَلُونَهُ بَاكِينَ رَاجِينَ مُتَضَرِّعِينَ، أَتَرَوْنَهُ يَرُدُّهُمْ وَهَذِهِ حَالُهُمْ، وَهُوَ الْجَوَادُ الْكَرِيمُ؟!

كَمْ مِنْ عَبْدٍ طَرَحَ بِالْأَمْسِ نَفْسَهُ عَلَى بَابِ رَبِّهِ، يَتَذَكَّرُ ذُنُوبَهُ فَيَخَافُ وَيُشْفِقُ، ثُمَّ يَتَذَكَّرُ كَرَمَ رَبِّهِ ﷻ وَعَفْوَهُ وَرَحْمَتَهُ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَيَرْجُو وَيَرْغَبُ؟!

كَمْ مِنْ عَبْدٍ أَظْهَرَ بِعَرَفَةَ مِنَ الذُّلِّ لِلَّهِ تَعَالَى، وَالنَّدَمِ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْ ذُنُوبِهِ، وَالْبُكَاءِ عَلَى خَطِيئَتِهِ مَا كَانَ سَبَبًا فِي مَغْفِرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ؟!

كَمْ مِنْ عَبْدٍ رَفَعَ يَدَيْهِ لِلَّهِ تَعَالَى فِي عَرَفَةَ فَكَانَ عَفْوُ اللَّهِ تَعَالَى وَرَحْمَتُهُ أَسْرَعَ إِلَيْهِ مِنْ إِرْسَالِ يَدَيْهِ حِينَ أَرْسَلَهَا؟!

كَمْ مِنْ عَبِيدٍ لِلَّهِ تَعَالَى مَا غَرَبَتْ عَلَيْهِمْ شَمْسُ الْأَمْسِ إِلَّا وَقَدْ غُفِرَتْ ذُنُوبُهُمْ، وَحُطَّتْ خَطَايَاهُمْ، وَاسْتُجِيبَتْ دَعَوَاتُهُمْ، وَقَبِلَ اللهُ تَعَالَى تَوْبَهُمْ؛ فَغَسَلَ حَوْبَهُمْ.

جَاءَ فِي حَدِيثِ جَابِرٍ ﵁ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَا مِنْ يَوْمٍ أَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ، يَنْزِلُ اللهُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيُبَاهِي بِأَهْلِ الْأَرْضِ أَهْلَ السَّمَاءِ، فَيَقُولُ: انْظُرُوا إِلَى عِبَادِي شُعْثًا غُبْرًا ضَاحِينَ جَاءُوا مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، لَمْ يَرَوْا رَحْمَتِي، وَلَمْ يَرَوْا عَذَابِي، فَلَمْ أَرَ يَوْمًا أَكْثَرَ عِتْقًا مِنَ النَّارِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ**» رَوَاهُ أَبُو يَعْلَى وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ[٢].

---

(٢) أخرجه أبو يعلى (٢٠٩٠)، والبغوي في شرح السنة (١٩٣١)، والبزار (١١٢٨)، وصححه ابن خزيمة (٢٨٤٠)، وابن حبان (٣٨٥٣)، وضعفه الألباني بعنعنة أبي الزبير فقال: قلت: إنما علة الحديث أبو الزبير، فإنه مدلس، وقد عنعنه في جميع الطرق عنه. سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (٦٧٩).

كَمْ مِنْ عَبِيدٍ مَا خَرَجُوا بِالْأَمْسِ مِنْ عَرَفَةَ إِلَّا وَقَدْ نَالُوا مِنَ الرَّحْمَنِ مُرَادَهُمْ، وَالْبَارِحَةَ بَاتُوا لَيْلَتَهُمْ فِي مَشْعَرِ مُزْدَلِفَةَ، وَوَقَفُوا فَجْرَ هَذَا الْيَوْمِ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ يَذْكُرُونَ اللهَ تَعَالَى وَيُعَظِّمُونَهُ، وَيَسْأَلُونَهُ وَيَرْجُونَهُ، وَهُمُ الْآنَ فِي طَرِيقِهِمْ إِلَى الْجَمَرَاتِ؛ لِيَرْمُوهَا مُكَبِّرِينَ اللهَ تَعَالَى وَمُعَظِّمِينَ، ثُمَّ يَتَقَرَّبُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِهَدَايَاهُمْ كَمَا تَتَقَرَّبُونَ أَنْتُمُ الْيَوْمَ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ بِضَحَايَاكُمْ، ثُمَّ يُحِلُّوا إِحْرَامَهُمْ، وَيَطُوفُوا بِالْكَعْبَةِ الشَّرِيفَةِ ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الْحَجّ: ٢٩].

فَمَا أَجَلَّهَا مِنْ شَعَائِرَ! وَمَا أَعْظَمَهَا مِنْ مَنَاسِكَ!! فَاللَّهُمَّ اقْبَلْ مِنَّا وَمِنَ الْحُجَّاجِ وَمِنْ سَائِرِ عِبَادِكَ الْمُؤْمِنِينَ.

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: فِي هَذَا الْيَوْمِ الْعَظِيمِ تُرَاقُ الدِّمَاءُ شُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى مَا سَخَّرَ لَنَا مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [الْحَجّ: ٣٤].

أَنْعَامٌ وَهَبَنَا اللهُ تَعَالَى إِيَّاهَا، وَسَخَّرَهَا لَنَا، وَرَزَقَنَا أَثْمَانَهَا، وَهَدَانَا إِلَى التَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِهَا، ثُمَّ نَنْتَفِعُ بِلَحْمِهَا، وَهِيَ لَنَا، وَلَا يَأْخُذُ رَبُّنَا مِنْهَا شَيْئًا، ثُمَّ يَأْجُرُنَا عَلَيْهَا، فَمَا أَوْسَعَ كَرَمَ رَبِّنَا عَلَيْنَا! وَمَا أَكْثَرَ إِحْسَانَهُ إِلَيْنَا! وَمَا أَشَدَّ رَحْمَتَهُ بِنَا! ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ۗ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الْحَجّ: ٣٦، ٣٧].

وَقَدْ أَمَرَنَا ﷺ بِنَحْرِهَا فِي هَذَا الْيَوْمِ الْعَظِيمِ عَقِبَ الصَّلَاةِ فَقَالَ ﷻ: ﴿فَصَلِّ

لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الْكَوْثَر: ٢]، وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ بِوُجُوبِهَا لِمَنْ قَدَرَ عَلَيْهَا(٣)، فَامْتَثِلُوا أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى، وَاحْمَدُوهُ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ، وَاشْكُرُوهُ عَلَيْهَا، وَكَبِّرُوهُ كَمَا أَمَرَكُمْ، وَطِيبُوا بِهَا نَفْسًا، وَاخْتَارُوا أَطْيَبَهَا وَأَسْمَنَهَا وَأَنْفَسَهَا؛ فَإِنَّهَا قُرْبَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى، ثُمَّ هِيَ عَائِدَةٌ إِلَيْكُمْ.

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الحَمْدُ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الْعَظِيمَةِ قَدْ جَمَعَ اللهُ تَعَالَى الْحُجَّاجَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَبِمَنْسَكٍ وَاحِدٍ، وَلِبَاسٍ وَاحِدٍ، وَإِنْ تَبَاعَدَتْ بُلْدَانُهُمْ، وَاخْتَلَفَتْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَلْوَانُهُمْ، وَتَبَايَنَتْ ثَقَافَاتُهُمْ وَعَادَاتُهُمْ، وَهَذَا الِاجْتِمَاعُ فِي الْمَشَاعِرِ؛ لِأَدَاءِ الشَّعَائِرِ وَالْمَنَاسِكِ، وَعَلَى هَذِهِ الْهَيْئَةِ الْوَاحِدَةِ مُشْعِرٌ بِلُزُومِ اجْتِمَاعِ كَلِمَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَدَالٌّ عَلَى وُجُوبِ تَآلُفِهِمْ وَتَكَاتُفِهِمْ؛ فَإِنَّ رَابِطَةَ الْإِيمَانِ أَقْوَى رَابِطَةٍ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الْحُجُرَات: ١٠].

كَيْفَ؟! وَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِذَلِكَ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عِمْرَان: ١٠٣]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الْأَنْفَال: ٤٦].

إِنَّ اجْتِمَاعَ كَلِمَةِ الْمُسْلِمِينَ مَطْلَبٌ دِينِيٌّ، وَوَاجِبٌ شَرْعِيٌّ، وَهُوَ سَبَبُ الْعِزِّ وَالنَّصْرِ وَالْقُوَّةِ، فَوَاجِبٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَسْعَوْا إِلَيْهِ، وَيَعْمَلُوا بِهِ، وَيَجْتَنِبُوا أَسْبَابَ الْفُرْقَةِ وَالِاخْتِلَافِ وَالتَّنَافُرِ وَالْبَغْضَاءِ، وَإِنَّ أَعْدَاءَ الْإِسْلَامِ فِي الْقَدِيمِ

---

(٣) ذهب إلى القول بوجوبها أبو حنيفة وربيعة ومالك والثوري والأوزاعي والليث؛ لحديث: «من كان له سعة ولم يضح فلا يقربنّ مصلانا»، وقال بأنها سنة مؤكدة: سعيد بن المسيب وعلقمة والأسود وعطاء والشافعي وأحمد وإسحاق وأبو ثور وابن المنذر، وهو مروي عن أبي بكر وعمر وبلال وأبي مسعود البدري ﷺ. ينظر: المغني (٩/ ٣٤٥)، واختار القول بالوجوب مع القدرة عليها شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٢٣/ ١٦٢).

وَالْحَدِيثِ مَا نَالُوا مِنَ المُسْلِمِينَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ دَسُّوا الدَّسَائِسَ فِيهِمْ، وَسَعَوْا بِالْوِشَايَةِ بَيْنَهُمْ، وَأَشْعَلُوا فَتِيلَ الْفِتْنَةِ فِي أَوْسَاطِهِمْ، فَكَانَ التَّفَرُّقُ وَالِاخْتِلَافُ، وَنَتَجَ عَنْهُ تَبَاغُضُ الْقُلُوبِ وَتَنَافُرُهَا، وَمِنْ ثَمَّ الِاحْتِرَابُ وَالِاقْتِتَالُ.

وَنَتِيجَةً لِهَذَا التَّفَرُّقِ وَالِاخْتِلَافِ بَلَغَ ضَعْفُ المُسْلِمِينَ مَدَاهُ، وَقَرُبَ عَجْزُهُمْ مِنْ مُنْتَهَاهُ؛ حَتَّى سَبَّ الْكَافِرُونَ دِينَهُمْ، وَدَنَّسُوا قُرْآنَهُمْ، وَسَخِرُوا مِنْ أَحْكَامِ شَرِيعَتِهِمْ، وَاعْتَدَوْا عَلَى نَبِيِّهِمْ مُحَمَّدٍ ﷺ بِالتَّنَقُّصِ وَالِازْدِرَاءِ وَالِاتِّهَامِ، وَالمُسْلِمُونَ لَا يَمْلِكُونَ حِيَالَ ذَلِكَ أَكْثَرَ مِنَ الشَّجْبِ وَالِاسْتِنْكَارِ.

لَقَدِ احْتَلَّ الْغَاصِبُونَ أَرَاضِيَهُمْ، وَعَبَثُوا بِأَعْرَاضِهِمْ، وَنَهَبُوا ثَرَوَاتِهِمْ، وَأَهَانُوا إِخْوَانَهُمْ، وَتَطَاوَلُوا عَلَى مُقَدَّسَاتِهِمْ، وَلَهُمْ مَشْرُوعَاتٌ إِجْرَامِيَّةٌ خَبِيثَةٌ فِي تَمْزِيقِ بِلَادِ المُسْلِمِينَ وَالِاسْتِيلَاءِ عَلَيْهَا، تُعْرَفُ بِالشَّرْقِ أَوْسَطِيَّةِ وَالشَّرْقِ الْأَوْسَطِ الْكَبِيرِ ثُمَّ الْجَدِيدِ، وَلَا يَمْلِكُ أَكْثَرُ المُسْلِمِينَ إِزَاءَ ذَلِكَ إِلَّا الِانْتِظَارَ وَالتَّرَقُّبَ عَمَّا تُسْفِرُ عَنْهُ الْأَحْدَاثُ، وَهَذَا مُنْتَهَى الضَّعْفِ وَغَايَةُ الْعَجْزِ.

وَقَدْ نَتَجَ عَنْ هَذِهِ الْمِحْنَةِ الْعَظِيمَةِ فِتْنَتَانِ كَبِيرَتَانِ هُمَا: فِتْنَةُ الْإِرْجَاءِ، وَفِتْنَةُ التَّكْفِيرِ.

أَمَّا فِتْنَةُ الْإِرْجَاءِ فَحَمَلَ لِوَاءَهَا مُبْتَدِعَةٌ اسْتَهَانُوا بِحُرُمَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَعَظَّمُوا الْبَشَرَ أَكْثَرَ مِنْ تَعْظِيمِهِمْ لِلرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، وَقَدَّمُوا أَقْوَالَهُمْ عَلَى نُصُوصِ الشَّرِيعَةِ، وَحَرَّفُوا المُحْكَمَاتِ لِإِشْبَاعِ أَهْوَائِهِمْ، وَإِرْضَاءِ غَيْرِهِمْ.

يَقْتَاتُونَ بِأَعْرَاضِ الصَّالِحِينَ وَالمُصْلِحِينَ، وَيَرْتَزِقُونَ بِأَذِيَّتِهِمْ، وَيُحَاوِلُونَ الصُّعُودَ عَلَى أَكْتَافِ غَيْرِهِمْ.

فِيهِمْ مِنَ الْحُمْقِ وَالْغَفْلَةِ وَالْحِقْدِ وَالضَّغِينَةِ مَا اسْوَدَّتْ بِهِ قُلُوبُهُمْ، وَغَشَى عَلَى أَبْصَارِهِمْ، وَغَطَّى عُقُولَهُمْ فَلَمْ يُمَيِّزُوا صَدِيقًا مِنْ عَدُوٍّ، وَلَا نَاصِحًا مِنْ مُخَادِعٍ،

نَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْحُمْقِ وَالْغَفْلَةِ وَالضَّلَالِ وَالْهَوَى.

وَاسْتَغَلَّهُمْ مُنَافِقُونَ حَاقِدُونَ لَهُمْ مَشْرُوعَاتٌ تَخْرِيبِيَّةٌ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَيَسْعَوْنَ لِتَبْدِيلِ دِينِهِمْ، وَإِبْطَالِ شَرِيعَتِهِمْ، وَإِفْسَادِ نِسَائِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ، وَلَهُمْ حِبَالٌ مُمْتَدَّةٌ مَعَ أَعْدَاءِ الْخَارِجِ.

قَدِ اجْتَرَأُوا فِي هَذَا الْعَصْرِ عَلَى حِمَى الشَّرِيعَةِ فَتَطَاوَلُوا عَلَيْهَا، وَسَخِرُوا مِنْهَا وَمِنْ حَمَلَتِهَا، وَطَعَنُوا فِيمَا لَا يُوَافِقُ أَهْوَاءَهُمُ الْفَاسِدَةَ، وَآرَاءَهُمُ الْكَاسِدَةَ، فَسَلَّطُوا أَلْسِنَتَهُمْ وَأَقْلَامَهُمْ عَلَى الْقَضَاءِ الشَّرْعِيِّ، وَعَلَى الِاحْتِسَابِ عَلَى النَّاسِ بِأَمْرِهِمْ بِالمَعْرُوفِ وَنَهْيِهِمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَمْ تَسْلَمْ مِنْ شَرِّهِمُ الْجَمْعِيَّاتُ الْخَيْرِيَّةُ، وَلَا حَلَقَاتُ تَحْفِيظِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَلَا الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا المَنَابِرُ، وَلَا حِجَابُ الْمَرْأَةِ وَعَدَمُ اخْتِلَاطِهَا بِالرِّجَالِ.

إِنَّهُ تَحَالُفٌ شَيْطَانِيٌّ، وَتَآزُرٌ نَكِدٌ، تَوَاصَى فِيهِ أَهْلُ الْإِثْمِ وَالْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ بِالْمُنْكَرِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَتَعَاوَنُوا فِيهِ عَلَى أَهْلِ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ وَالْإِصْلَاحِ، وَلَنْ يَجِدُوا عَاقِبَةَ أَمْرِهِمْ إِلَّا خُسْرًا، وَدِينُ اللَّهِ تَعَالَى عَزِيزٌ مَنْصُورٌ وَلَوْ تَخَلَّوْا عَنْهُ، أَوْ تَأَكَّلُوا بِهِ، أَوْ حَارَبُوهُ؛ فَإِنَّهُمُ الْأَذَلُّونَ، وَإِنَّ الْمُصْلِحِينَ مَنْصُورُونَ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ [المُجَادَلَة: ٢٠].

وَرَوَى أَبُو عِنَبَةَ الْخَوْلَانِيُّ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**لَا يَزَالُ اللهُ يَغْرِسُ فِي هَذَا الدِّينِ غَرْسًا يَسْتَعْمِلُهُمْ فِي طَاعَتِهِ**» رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ[٤].

فَلْيَمُوتُوا بِغَيْظِهِمْ؛ فَإِنَّ مَا يَسُوؤُهُمْ بَاقٍ لَهُمْ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى.

---

(٤) أخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب اتباع سنة رسول الله ﷺ (٨)، وأحمد (٤/ ٢٠٠)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٤٩٧)، والخطيب في شرف أصحاب الحديث (٦٥)، والدولابي في الكنى والأسماء (٢٧٧)، وصححه ابن حبان (٣٢٦)، والبوصيري في مصباح الزجاجة (١/ ٥).

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الحَمْدُ.

أَمَّا الْفِتْنَةُ الثَّانِيَةُ: وَهِيَ فِتْنَةُ التَّكْفِيرِ فَقَدْ حَمَلَ لِوَاءَهَا قَوْمٌ لَمْ يَأْخُذُوا مِنَ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ حَظَّهُمْ، وَكَانَ فِيهِمْ مِنْ حَمَاسِ الشَّبَابِ وَتَهَوُّرِهِمْ مَا أَدْخَلَهُمُ المَضَايِقَ، وَانْتَهَى بِكَثِيرٍ مِنْهُمْ إِلَى المَهَالِكِ، فَكَفَّرُوا الْحُكُومَاتِ، وَلَمْ يُصْغُوا إِلَى الْعُلَمَاءِ، وَلَا رَاعَوُا المَصَالِحَ وَالمَفَاسِدَ، ثُمَّ أَتْبَعُوا التَّكْفِيرَ بِالتَّفْجِيرِ، فَعَمَدُوا إِلَى بُلْدَانِ المُسْلِمِينَ الْآمِنَةِ فَأَفْسَدُوا فِيهَا وَفَجَّرُوا، وَرَاحَ ضَحِيَّةً لِأَعْمَالِهِمُ الْخَاطِئَةِ، وَآرَائِهِمُ الْفَاسِدَةِ أُنَاسٌ لَا ذَنْبَ لَهُمْ! فِيهِمْ رِجَالٌ وَأَطْفَالٌ وَنِسَاءٌ قَدْ عَصَمَ اللهُ تَعَالَى دِمَاءَهُمْ بِالْإِسْلَامِ، فَأَهْدَرُوهَا هُمْ بَلَا حَقٍّ.

وَكَانُوا مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ عَوْنًا لِأَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ مِنَ الْكُفَّارِ وَالمُنَافِقِينَ عَلَى الطَّعْنِ فِيهِ، وَالنَّيْلِ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، وَمَا تَكَادُ تَقَعُ بَلِيَّةٌ مِنْهُمْ فِي بُقْعَةٍ مِنَ الْبِقَاعِ المُسْلِمَةِ الْآمِنَةِ إِلَّا طَارَ بِهَا فَرَحًا الْكُفَّارُ وَالمُنَافِقُونَ، وَوَجِلَ مِنْهَا المُؤْمِنُونَ وَالمُصْلِحُونَ.

وَقَدْ نَتَجَ عَنْ تَخْرِيبِهِمْ فِي بِلَادِ المُسْلِمِينَ مَفَاسِدُ جَمَّةٌ، وَتَعَطَّلَتْ بِهِ مَصَالِحُ عُظْمَى، وَمَنْ لَهُ عِلْمٌ بِالشَّرِيعَةِ يَرْفُضُ ذَلِكَ وَيَأْبَاهُ؛ لِأَنَّ الشَّرِيعَةَ جَاءَتْ بِرِعَايَةِ المَصَالِحِ وَتَحْصِيلِهَا، وَدَرْءِ المَفَاسِدِ وَتَعْطِيلِهَا.

وَوَاجِبٌ عَلَى المُسْلِمِ طَاعَةُ إِمَامِهِ الَّذِي بَايَعَهُ فِي المَعْرُوفِ، وَالنُّصْحُ لَهُ، وَأَمْرُهُ بِالمَعْرُوفِ وَنَهْيُهُ عَنِ المُنْكَرِ، وَالتَّعَاوُنُ مَعَهُ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَالصَّبْرُ عَلَى الْأَذَى فِي ذَلِكَ.

وَحَرَامٌ عَلَيْهِ أَنْ يَشُقَّ عَصَى الطَّاعَةِ، أَوْ يُفَارِقَ الْجَمَاعَةَ، رَوَى ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ لَقِيَ اللهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**

لَا حُجَّةَ لَهُ، وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٥).

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الحَمْدُ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: هَاتَانِ الْفِتْنَتَانِ الْعَظِيمَتَانِ -أَعْنِي: فِتْنَتَي الْإِرْجَاءِ وَالتَّكْفِيرِ- مُتَقَابِلَتَانِ، فَلَا تُوجَدُ إِحْدَاهُمَا فِي بَلَدٍ مِنَ الْبُلْدَانِ إِلَّا وُجِدَتِ الْأُخْرَى فِي إِثْرِهَا، وَوَاجِبٌ عَلَى المُسْلِمِينَ أَنْ يَسْعَوْا فِي الْقَضَاءِ عَلَيْهِمَا جَمِيعًا.

إِنَّ التَّكْفِيرَ لَا يُعَالَجُ بِالْإِرْجَاءِ كَمَا يَظُنُّ ذَلِكَ المُبْتَدِعَةُ وَالْجَهَلَةُ وَمَنْ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ، وَلَا يُقْضَى عَلَيْهِ بِتَسْوِيغِ المُوبِقَاتِ، وَالتَّشْرِيعِ لِلْمُنْكَرَاتِ، وَإِيجَادِ المَعَاذِيرِ الْبَاهِتَةِ لِلْمُخَالَفَاتِ، بَلْ إِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَزِيدُ نَارَ التَّكْفِيرِ اشْتِعَالًا إِلَى اشْتِعَالِهَا.

وَكَذَلِكَ لَا يُعَالَجُ الْإِرْجَاءُ بِالتَّكْفِيرِ؛ فَإِنَّ مَا يَقَعُ مِنْ مُخَالَفَاتٍ، وَمَا يُجَاهِرُ بِهِ أَهْلُ السُّوءِ مِنْ مُنْكَرَاتٍ، وَمَا يُظْهِرُهُ أَهْلُ النِّفَاقِ؛ يُعَالَجُ بِالْأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، وَالصَّبْرِ عَلَى ذَلِكَ.

إِنَّ هَاتَيْنِ الْفِتْنَتَيْنِ الْعَظِيمَتَيْنِ: التَّكْفِيرَ وَالْإِرْجَاءَ تُعَالَجَانِ بِتَعْظِيمِ الشَّرِيعَةِ وَتَحْكِيمِهَا، وَحِمَايَةِ جَنَابِهَا مِنْ عَبَثِ الْعَابِثِينَ، وَفَتَاوَى النَّفْعِيِّينَ المُضِلِّينَ، وَمِنْ سُخْرِيَةِ الْأَرَاذِلِ وَالمُنَافِقِينَ، وَالْأَخْذِ بِنُصُوصِهَا جَمِيعًا بِلَا اجْتِزَاءٍ وَلَا انْتِقَائِيَّةٍ.

إِنَّهُمَا تُعَالَجَانِ بِاجْتِنَابِ الْهَوَى، وَاتِّبَاعِ الْحَقِّ، وَسُلُوكِ سَبِيلِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْعَدْلِ، وَاجْتِنَابِ آرَاءِ أَهْلِ الْجَهْلِ وَالْهَوَى ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ

---

(٥) أخرجه مسلم في الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن (١٨٥١)، وأبو عوانة (١٧٥٣)، والبيهقي (٨/ ١٥٦).

لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [سورة ص: ٢٦]

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الحَمْدُ.

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: بَعْدَ صَلَاتِكُمْ تَتَقَرَّبُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِضَحَايَاكُمْ، فَاشْكُرُوا اللهَ تَعَالَى عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَأَعْطَاكُمْ، وَأَخْلِصُوا لَهُ فِي أَعْمَالِكُمْ، وَاعْلَمُوا أَنَّ مَشْرُوعِيَّةَ ذَبْحِ الْأَضَاحِيِّ تَسْتَمِرُّ إِلَى غُرُوبِ شَمْسِ يَوْمِ الثَّالِثَ عَشَرَ، وَهُوَ آخِرُ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ.

وَأَيَّامُ التَّشْرِيقِ أَيَّامٌ عَظِيمَةٌ جَاءَ ذِكْرُهَا فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٠٣]، وَخُصَّتْ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ نُبَيْشَةَ الْهُذَلِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَيَّامُ التَّشْرِيقِ أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ وَذِكْرٍ لِلَّهِ تَعَالَى**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٦).

فَاعْرِفُوا لَهَا فَضْلَهَا، وَاقْدُرُوهَا حَقَّ قَدْرِهَا، وَاعْمُرُوهَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى.

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الحَمْدُ.

عِبَادَ اللَّهِ: افْرَحُوا بِعِيدِكُمْ، وَأَطِيعُوا فِيهِ رَبَّكُمْ، وَطَهِّرُوا قُلُوبَكُمْ، وَاحْذَرُوا الْمُنْكَرَاتِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الْعَظِيمَةِ، فَلَيْسَ مِنْ شُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى نِعَمِهِ وَفَضْلِهِ أَنْ يُعْصَى فِي أَيَّامِ ذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ.

بَرُّوا وَالِدِيكُمْ، وَصِلُوا أَرْحَامَكُمْ، وَأَكْرِمُوا جِيرَانَكُمْ، وَلِينُوا لِإِخْوَانِكُمْ، وَلَا تَنْسَوُا الْمُجَاهِدِينَ وَالْمُرَابِطِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ مِنْ صَالِحِ دُعَائِكُمْ؛ فَإِنَّهُمْ أَحْوَجُ مَا يَكُونُونَ إِلَيْهِ.

---

(٦) أخرجه مسلم في الصيام، باب تحريم صوم أيام التشريق (١١٤١)، وأبو داود في الضحايا، باب في حبس لحوم الأضاحي (٢٨١٣)، والنسائي في الفرع والعتيرة، باب العتيرة (٧/ ١٧٠)، وأحمد (٥/ ٧٥).

أَعَادَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْنَا وَعَلَيْكُمْ وَعَلَى المُسْلِمِينَ جَمِيعًا بِالْيُمْنِ وَالْإِيمَانِ، وَالسَّلَامَةِ وَالْإِسْلَامِ، وَتَقَبَّلَ اللهُ تَعَالَى مِنَّا وَمِنْكُمْ صَالِحَ الْأَعْمَالِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٥٦].





٢٧١- التكبير في أيام التشريق

١٢/ ١٢/ ١٤٢٨هـ

الحَمْدُ لِلَّهِ الْكَبِيرِ المُتَعَالِ؛ دَلَّ خَلْقُهُ عَلَى عَظَمَتِهِ وَكِبْرِيَائِهِ، وَبَرْهَنَ عَطَاؤُهُ وَإِمْهَالُهُ عَلَى حِلْمِهِ وَعَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]، نَحْمَدُهُ حَمْدَ الشَّاكِرِينَ، وَنَسْتَغْفِرُهُ اسْتِغْفَارَ المُذْنِبِينَ، وَنَسْأَلُهُ مِنْ فَضْلِهِ العَظِيمِ؛ فَهُوَ الجَوَادُ الكَرِيمُ، الْغَنِيُّ عَنِ الْعَالَمِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الأَرْضِ وَرَبُّ العَرْشِ الْعَظِيمِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ خَيْرُ مَنْ صَلَّى وَصَامَ وَحَجَّ وَذَكَرَ اللهَ تَعَالَى، أَخْبَرَتْ عَنْهُ زَوْجُهُ عَائِشَةُ ﵂ فَقَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَذْكُرُ اللهَ عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ[1]، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ، وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَعَظِّمُوا حُرُمَاتِهِ، وَالْتَزِمُوا شَرِيعَتَهُ، وَلَا تَتَعَدَّوْا حُدُودَهُ ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨].

أَيُّهَا النَّاسُ: عَظَمَةُ المَخْلُوقِ دَلِيلٌ عَلَى عَظَمَةِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ، وَمَنْ نَظَرَ إِلَى الْأَرْضِ وَمَا عَلَيْهَا رَأَى مِنْ عَجَائِبِ المَخْلُوقَاتِ مَا لَا يَعُدُّهُ العَادُّونَ، وَلَا يُحْصِيهِ المُحْصُونَ، وَفِي السَّمَاءِ عَجَائِبُ نَعْلَمُ قَلِيلًا مِنْهَا، وَيَخْفَى عَلَيْنَا أَكْثَرُهَا، وَكُلُّ

---

(١) رواه البخاري معلقًا مجزومًا به في الحيض، باب: تقضي الحائض المناسك كلها إلا الطواف بالبيت (١/ ٦٨)، ورواه مسلم موصولًا في الحيض، باب ذكر الله تعالى في حال الجنابة وغيرها (٣٧٣).

ذَلِكَ مِنَ الأَدِلَّةِ عَلَى عَظَمَةِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ؛ فَاسْتَحَقَّ سُبْحَانَهُ أَنْ يُعَظَّمَ وَيُكَبَّرَ، وَيُفْرَدَ بِالْعَظَمَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩].

وَلِذَا كَانَ تَكْبِيرُ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ أَعْظَمِ أَنْوَاعِ الذِّكْرِ وَأَجَلِّهَا، وَأُمِرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ فِي أَوَّلِ خِطَابَاتِ الْقُرْآنِ إِلَيْهِ بَعْدَ أَنْ بَعَثَهُ اللهُ تَعَالَى رَسُولًا، وَاقْتَرَنَ الأَمْرُ بِهِ مَعَ الأَمْرِ بِالنِّذَارَةِ، وَهَذَا مُشْعِرٌ بِشَرَفِ مُهِمَّتِهِ، وَثِقَلِ رِسَالَتِهِ، وَفِيهِ تَقْوِيَةٌ لِقَلْبِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي مُقَابَلَةِ صُدُودِ الْمُشْرِكِينَ وَمُعَارَضَتِهِمْ وَأَذَاهُمْ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدَّثر: ١-٣].

وَلِعَظِيمِ شَأْنِ التَّكْبِيرِ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى شَرَعَهُ فِي أَشْرَفِ الْمَوَاضِعِ وَأَعْلَاهَا؛ كَالصَّلَاةِ، وَالصِّيَامِ، وَالحَجِّ، وَالأَعْيَادِ، وَالجِهَادِ، وَغَيْرِهَا؛ فَالصَّلَاةُ يُنَادَى لَهَا بِالتَّكْبِيرِ؛ إِشْعَارًا بِأَنَّ الإِقْبَالَ عَلَيْهَا إِقْبَالٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ سُبْحَانَهُ أَكْبَرُ وَأَجَلُّ مِمَّا يَشْتَغِلُ بِهِ المُسْلِمُ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا مَهْمَا كَانَ، فَوَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَتْرُكَ كُلَّ شُغْلٍ، وَيُقْبِلَ عَلَى الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

وَكَذَلِكَ الصَّلَاةُ تُقَامُ بِالتَّكْبِيرِ، وَتُفْتَتَحُ بِالتَّكْبِيرِ، وَيَنْتَقِلُ الْمُسْلِمُ بَيْنَ أَرْكَانِهَا بِالتَّكْبِيرِ، وَمَنْ حَافَظَ عَلَى الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ فَإِنَّهُ يُكَرِّرُ التَّكْبِيرَ فِيهَا أَرْبَعًا وَتِسْعِينَ مَرَّةً، هَذَا عَدَا السُّنَنِ الرَّوَاتِبِ، وَصَلَاةِ الضُّحَى وَالوِتْرِ وَالنَّفْلِ المُطْلَقِ، وَمُتَابَعَةِ المُؤَذِّنِ، وَالتَّكْبِيرِ عَقِبَ الصَّلَاةِ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً، مَعَ التَّحْمِيدِ وَالتَّسْبِيحِ، وَتَكْبِيرِهِ إِنْ رَأَى مَا يُعْجِبُهُ أَوْ يَعْجَبُ مِنْهُ، وَتَكْبِيرِهِ إِنْ عَلَا مُرْتَفَعًا، وَتَكْبِيرِهِ فِي أَذْكَارِهِ المُطْلَقَةِ.

وَلَوْ قِيلَ: إِنَّ أَكْثَرَ جُمْلَةٍ يُرَدِّدُهَا المُسْلِمُ فِي حَيَاتِهِ كُلِّهَا هِيَ التَّكْبِيرُ لَمَا كَانَ ذَلِكَ بَعِيدًا.

وَمَا شُرِعَ التَّكْبِيرُ فِي فَرِيضَةٍ عَظِيمَةٍ تَتَكَرَّرُ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ خَمْسَ مَرَّاتٍ إِلَّا

لِعَظِيمِ مَنْزِلَةِ التَّكْبِيرِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى.

وَبَعْدَ أَدَاءِ فَرِيضَةِ الصِّيَامِ شُرِعَ لِلْمُسْلِمِ التَّكْبِيرُ لَيْلَةَ الْعِيدِ إِلَى صَلَاةِ الْعِيدِ؛ ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وَالحَجُّ مِنْ أَعْظَمِ الشَّعَائِرِ وَأَظْهَرِهَا؛ فَشُرِعَ فِيهِ التَّكْبِيرُ فِي مَوَاضِعَ عِدَّةٍ، مِثْلُ التَّكْبِيرِ فِي الطَّوَافِ عِنْدَ اسْتِلَامِ الحَجَرِ الأَسْوَدِ، أَوِ الإِشَارَةِ إِلَيْهِ، وَالتَّكْبِيرِ عَلَى الصَّفَا وَعَلَى المَرْوَةِ، وَالتَّكْبِيرِ مَعَ رَمْيِ الجِمَارِ، وَالتَّكْبِيرِ فِي أَيَّامِ التَّشْرِيقِ ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، فَالأَيَّامُ المَعْدُودَاتُ هِيَ أَيَّامُ التَّشْرِيقِ(٢)، وَأَشْهَرُ الذِّكْرِ فِيهَا هُوَ التَّكْبِيرُ المُطْلَقُ فِي كُلِّ وَقْتٍ، وَالمُقَيَّدُ عَقِبَ الصَّلَوَاتِ.

وَالهَدَايَا وَالأَضَاحِي مِنَ الشَّعَائِرِ العَظِيمَةِ وَالمَنَاسِكِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي يَتَقَرَّبُ بِهَا المُسْلِمُونَ لِرَبِّهِمْ، وَشُرِعَ التَّكْبِيرُ عِنْدَ تَقْرِيبِهَا لِلَّهِ تَعَالَى، فَلَا تُذْبَحُ وَلَا تُنْحَرُ إِلَّا بِذِكْرِ اسْمِهِ ﷻ وَتَكْبِيرِهِ عَلَيْهَا ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٧].

وَالجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى ذِرْوَةُ سَنَامِ الإِسْلَامِ، وَهُوَ أَفْضَلُ الأَعْمَالِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، فَشُرِعَ فِيهِ التَّكْبِيرُ وَلَا سِيَّمَا عِنْدَ مُلَاقَاةِ الْعَدُوِّ، وَلَهُ تَأْثِيرٌ عَجِيبٌ فِي ثَبَاتِ الْقُلُوبِ وَقُوَّتِهَا وَجَسَارَتِهَا، وَإِقْدَامِ الجُنْدِ وَحَمَاسَتِهِمْ وَتَضْحِيَّتِهِمْ، وَلَهُ تَأْثِيرٌ أَعْجَبُ فِي زَعْزَعَةِ الأَعْدَاءِ، وَبَعْثَرَةِ جُمُوعِهِمْ، وَإِلْقَاءِ الرُّعْبِ فِي قُلُوبِهِمْ، وَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ مَدِينَةٍ تُفْتَحُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ بِلَا قِتَالٍ، وَإِنَّمَا بِالتَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ؛ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **«فَإِذَا جَاؤُوهَا نَزَلُوا فَلَمْ يُقَاتِلُوا بِسِلَاحٍ، وَلَمْ يَرْمُوا**

---

(٢) كما هو قول ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم، وبه قال عطاء والحسن ومجاهد وقتادة عليهم رحمة الله تعالى، ورجحه الطبري في تفسيره (٢/ ٣٠٣)، وينظر: زاد المسير (١/ ٢١٧)، وهو قول أكثر أهل العلم فيما نقله البغوي في تفسيره (١/ ١٧٨).

بِسَهْمٍ، قَالُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ؛ فَيَسْقُطُ أَحَدُ جَانِبَيْهَا، ثُمَّ يَقُولُوا الثَّانِيَةَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ؛ فَيَسْقُطُ جَانِبُهَا الْآخَرُ، ثُمَّ يَقُولُوا الثَّالِثَةَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، فَيُفَرَّجُ لَهُمْ فَيَدْخُلُوهَا فَيَغْنَمُوا» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٣).

وَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِتَكْبِيرِهِ بَعْدَ أَنْ أَمَرَ بِحَمْدِهِ، وَنَفَى الشَّرِيكَ وَالْوَلَدَ وَالْوَلِيَّ عَنْهُ ﷻ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ [الإسراء: ١١١].

فَمَلِكُ الْمُلُوكِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى شَرِيكٍ أَوْ وَلِيٍّ، وَلَا يَفْتَقِرُ إِلَى صَاحِبَةٍ أَوْ وَلَدٍ، وَإِنَّمَا يَحْتَاجُ إِلَى ذَلِكَ الضُّعَفَاءُ الْمُفْتَقِرُونَ إِلَى غَيْرِهِمْ، فَنَاسَبَ أَنْ يُكَبَّرَ اللهُ تَعَالَى بَعْدَ أَنْ نَفَى عَنْ ذَاتِهِ الْمُقَدَّسَةِ الحَاجَةَ إِلَى أَحَدٍ.

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «قَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾؛ أَيْ: عَظِّمْهُ عَظَمَةً تَامَّةً، وَيُقَالُ: أَبْلَغُ لَفْظَةٍ لِلْعَرَبِ فِي مَعْنَى التَّعْظِيمِ وَالإِجْلَالِ: «**اللهُ أَكْبَرُ**»؛ أَيْ: صِفْهُ بِأَنَّهُ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، ثُمَّ نَقَلَ الْقُرْطُبِيُّ عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه قَوْلَهُ: قَوْلُ الْعَبْدِ: (اللهُ أَكْبَرُ)، خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»(٤).

وَفِي هَذَا الأَمْرِ الرَّبَّانِيِّ بِتَكْبِيرِهِ ﷻ تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّ الْعَبْدَ وَإِنْ بَالَغَ فِي التَّنْزِيهِ وَالتَّمْجِيدِ، وَاجْتَهَدَ فِي الطَّاعَةِ وَالتَّحْمِيدِ، يَنْبَغِي أَنْ يَعْتَرِفَ بِالْقُصُورِ فِي ذَلِكَ، وَأَنْ يَعْلَمَ أَنَّ شَأْنَ اللَّهِ تَعَالَى أَكْبَرُ وَأَجَلُّ وَأَعْظَمُ مِمَّا يَظُنُّهُ الْبَشَرُ، وَأَنَّ الصَّالِحِينَ مِنَ الْبَشَرِ مَهْمَا تَعَبَّدُوا لِلَّهِ تَعَالَى، فَلَنْ يُوَفُّوهُ حَقَّهُ، وَلَنْ يُكَافِئُوا نِعَمَهُ.

وَبِهَذَا تَتَبَيَّنُ مَكَانَةُ التَّكْبِيرِ، وَجَلَالَةُ قَدْرِهِ، وَعِظَمُ شَأْنِهِ، وَمَقَامُهُ مِنَ الدِّينِ،

---

(٣) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: مسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل، فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء (٢٩٢٠).

(٤) تفسير القرطبي (١٠/ ٣٤٥).

فَلَيْسَ التَّكْبِيرُ كَلِمَةً لَا مَعْنَى لَهَا، أَوْ لَفْظَةً لَا مَضْمُونَ فِيهَا، بَلْ هِيَ كَلِمَةٌ عَظِيمَةٌ تَتَضَمَّنُ مَعَانِيَ جَلِيلَةً، وَمَقَاصِدَ كَبِيرَةً[٥].

وَمِمَّا يُبَيِّنُ عَظَمَةَ التَّكْبِيرِ، وَجَلَالَةَ قَدْرِهِ: أَنَّ الدِّينَ كُلَّهُ يُعَدُّ تَفْصِيلًا لِكَلِمَةِ (اللهُ أَكْبَرُ)، فَالمُسْلِمُ يَقُومُ بِالطَّاعَاتِ جَمِيعِهَا، وَيَجْتَنِبُ المُحَرَّمَاتِ كُلَّهَا؛ تَكْبِيرًا لِلَّهِ تَعَالَى، وَتَعْظِيمًا لِشَأْنِهِ ﷻ وَقِيَامًا بِحَقِّهِ سُبْحَانَهُ[٦].

إِنَّ التَّكْبِيرَ هُوَ تَعْظِيمُ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَإِجْلَالُهُ، وَاعْتِقَادُ أَنَّهُ لَا شَيْءَ أَكْبَرُ وَلَا أَعْظَمُ مِنْهُ؛ فَيَصْغُرُ دُونَ جَلَالِهِ كُلُّ كَبِيرٍ، وَيَتَضَاءَلُ أَمَامَ جَلَالِهِ كُلُّ جَلِيلٍ؛ فَهُوَ الَّذِي خَضَعَتْ لَهُ الرِّقَابُ، وَلَانَتْ لَهُ الشِّدَادُ، وَدَانَتْ لَهُ الخَلَائِقُ، وَذَلَّتْ لَهُ الجَبَابِرَةُ، وَعَنَتْ لَهُ الوُجُوهُ، وَقَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ، وَتَوَاضَعَتْ لِجَلَالِهِ وَكِبْرِيَائِهِ وَعَظَمَتِهِ وَعُلُوِّهِ وَقُدْرَتِهِ المَوْجُودَاتُ، وَاسْتَكَانَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَحْتَ حُكْمِهِ وَقَهْرِهِ كُلُّ المَخْلُوقَاتِ[٧].

وَالتَّكْبِيرُ لَيْسَ مَعْنَاهُ: أَنَّ اللهَ تَعَالَى كَبِيرٌ فَحَسْبُ، وَإِنَّمَا يُرَادُ بِهِ أَنْ يَكُونَ اللهُ تَعَالَى عِنْدَ الْعَبْدِ أَكْبَرَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رضي الله عنه وَهُوَ يَدْعُوهُ إِلَى الإِسْلَامِ: «**يَا عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ، مَا أَفَرَّكَ أَنْ يُقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَهَلْ مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ؟ مَا أَفَرَّكَ أَنْ يُقَالَ: اللهُ أَكْبَرُ، فَهَلْ شَيْءٌ هُوَ أَكْبَرُ مِنَ اللَّهِ ﷻ؟ قَالَ عَدِيٌّ: فَأَسْلَمْتُ فَرَأَيْتُ وَجْهَهُ اسْتَبْشَرَ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ[٨].

---

(٥) ينظر: فقه الأدعية والأذكار، د.عبد الرزاق البدر (١/ ٢٤٩).

(٦) المصدر السابق (١/ ٢٤٩).

(٧) المصدر السابق (١/ ٢٥٠).

(٨) أخرجه أحمد (٤/ ٣٧٨-٣٧٩)، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة فاتحة الكتاب، وقال: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث سماك بن حرب (٢٩٥٤)، وصححه ابن حبان (٧٢٠٦).

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَفِي قَوْلِهِ: (اللهُ أَكْبَرُ) إِثْبَاتُ عَظَمَتِهِ؛ فَإِنَّ الْكِبْرِيَاءَ تَتَضَمَّنُ الْعَظَمَةَ، وَلَكِنَّ الْكِبْرِيَاءَ أَكْمَلُ؛ وَلِهَذَا جَاءَتِ الْأَلْفَاظُ الْمَشْرُوعَةُ فِي الصَّلَاةِ وَالْأَذَانِ بِقَوْلِ: (اللهُ أَكْبَرُ)، فَإِنَّ ذَلِكَ أَكْمَلُ مِنْ قَوْلِ: (اللهُ أَعْظَمُ)؛ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا عَذَّبْتُهُ**»(٩)، فَجَعَلَ الْعَظَمَةَ كَالْإِزَارِ، وَالْكِبْرِيَاءَ كَالرِّدَاءِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الرِّدَاءَ أَشْرَفُ، فَلَمَّا كَانَ التَّكْبِيرُ أَبْلَغَ مِنَ التَّعْظِيمِ صَرَّحَ بِلَفْظِهِ، وَتَضَمَّنَ ذَلِكَ التَّعْظِيمَ» اهـ(١٠).

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الحَمْدُ، اللهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، اللهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، اللهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، وَالحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا، وَسُبْحَانَ اللَّهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ العَظِيمَ ...

❁ ❁ ❁

---

(٩) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أبو داود في اللباس، باب ما جاء في الكبر (٤٠٩٠)، وابن ماجه في الزهد، باب البراءة من الكبر والتواضع (٤١٧٤)، والطيالسي (٢٣٨٧)، والحميدي (١١٤٩)، وأحمد (٢/ ٢٤٨ و٣٧٦)، والبغوي في شرح السُّنة (٣٥٩٢)، وصححه ابن حبان (٣٢٨).
وأخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: ابن ماجه في الزهد، باب البراءة من الكبر والتواضع (٤١٧٥)، وصححه ابن حبان (٥٦٧٢).

(١٠) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٥٣).

الخُطبَةُ الثّانِيَةُ

الحَمْدُ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا أَمَرَ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى نِعَمِهِ وَآلَائِهِ؛ فَقَدْ تَأَذَّنَ بِالزِّيَادَةِ لِمَنْ شَكَرَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَه إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ إِرْغَامًا لِمَنْ جَحَدَهُ وَكَفَرَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الشَّافِعُ المُشَفَّعُ فِي المَحْشَرِ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ السَّادَةِ الغُرَرِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الْعَرْضِ الأَكْبَرِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَانْتَهُوا عِنْدَ حُدُودِهِ، وَعَظِّمُوا شَعَائِرَهُ؛ ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [**الحج**: ٣٢].

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: تَكْبِيرُ اللَّهِ تَعَالَى فَضِيلَةٌ فُضِّلَتْ بِهَا هَذِهِ الأُمَّةُ عَلَى سَائِرِ الأُمَمِ، وَمِيزَةٍ تَمَيَّزَتْ بِهَا، وَوَصْفٌ وُصِفَتْ بِهِ فِي الْكُتُبِ المُتَقَدِّمَةِ؛ كَمَا نَقَلَ أَصْحَابُ السِّيَرِ وَدَلَائِلِ النُّبُوَّةِ عَنْ زَبُورِ دَاوُدَ عليه السلام فِي وَصْفِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُمْ «يُسَبِّحُونَ اللهَ تَعَالَى عَلَى مَضَاجِعِهِمْ، وَيُكَبِّرُونَهُ سُبْحَانَهُ بِأَصْوَاتٍ مُرْتَفِعَةٍ»[١١].

يَقُولُ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَهَذِهِ الصِّفَاتُ إِنَّمَا تَنْطَبِقُ عَلَى صِفَاتِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأُمَّتِهِ؛ فَهُمْ يُكَبِّرُونَ اللهَ بِأَصْوَاتٍ مُرْتَفِعَةٍ؛ فِي أَذَانِهِمْ لِلصَّلَوَاتِ الخَمْسِ، وَهَذَا التَّكْبِيرُ يَمْلَأُ الدُّنْيَا مِنْ شَرْقِهَا إِلَى غَرْبِهَا»[١٢].

وَكَانَ النَّصَارَى فِي وَقْتِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- يُسَمُّونَ عِيدَ

---

(١١) ينظر: أعلام النبوة للماوردي (٢١٠)، والوفا لابن الجوزي (٥٩)، وهداية الحيارى (١٩٣).

(١٢) الجواب الصحيح (٥/٢٢٦)، وينظر: الفروسية لابن القيم (١٦٠).

المُسْلِمِينَ: «عِيدَ اللَّهِ الأَكْبَرِ»؛ لِظُهُورِ التَّكْبِيرِ فِيهِ، فَهُمْ يُوَافِقُونَ المُسْلِمِينَ عَلَى تَسْمِيَتِهِ بِالْعِيدِ الأَكْبَرِ، أَوْ عِيدِ اللَّهِ الأَكْبَرِ(١٣).

قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: «وَلَيْسَ هَذَا لِأَحَدٍ مِنَ الأُمَمِ -لَا أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا غَيْرِهِمْ- غَيْرَ المُسْلِمِينَ، وَإِنَّمَا كَانَ مُوسَى يَجْمَعُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالبُوقِ، وَالنَّصَارَى شِعَارُهُمُ النَّاقُوسُ»(١٤).

أَيُّهَا الإِخْوَةُ: لَقَدْ بَانَ بِمَا سَبَقَ مَا لِلتَّكْبِيرِ مِنْ فَضِيلَةٍ عَظِيمَةٍ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ أَنْعَمَ بِهِ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ المُبَارَكَةِ، فَلَا يَحْسُنُ بِالمُسْلِمِينَ أَنْ يُفَرِّطُوا فِيهِ، أَوْ يُشْغَلُوا عَنْهُ، وَهُوَ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى هُدُوا إِلَيْهَا، وَيَتَأَكَّدُ ذَلِكَ فِي المَوَاسِمِ العَظِيمَةِ كَالأَعْيَادِ.

وَأَيَّامُ التَّشْرِيقِ مِنَ الأَعْيَادِ، بَلْ هِيَ مُتَّصِلَةٌ بِالْعِيدِ الْكَبِيرِ عِيدِ النَّحْرِ، وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثِ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**يَوْمُ عَرَفَةَ وَيَوْمُ النَّحْرِ وَأَيَّامُ التَّشْرِيقِ عِيدُنَا أَهْلَ الإِسْلَامِ، وَهِيَ أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(١٥).

وَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِذِكْرِهِ فِي هَذِهِ الأَيَّامِ المُبَارَكَةِ، وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهَا أَيَّامٌ يَنْبَغِي أَنْ يُكْثَرَ فِيهَا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى؛ كَمَا فِي حَدِيثِ نُبَيْشَةَ الْهُذَلِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَيَّامُ التَّشْرِيقِ أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ وَذِكْرٍ**

---

(١٣) الجواب الصحيح (٥/ ٢٣٢).

(١٤) الجواب الصحيح (٥/ ٢٣٢).

(١٥) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٢)، وأبو داود في الصوم، باب صيام أيام التشريق (٢٤١٩) والترمذي في الصوم، باب ما جاء في كراهية الصوم في أيام التشريق وقال: حديث حسن صحيح (٧٧٣) والنسائي في مناسك الحج، باب النهي عن صوم يوم عرفة (٥/ ٢٥٢)، وصححه ابن خزيمة (٢١٠٠) وابن حبان (٣٦٠٣) والحاكم وقال: على شرط مسلم، ووافقه الذهبي(١/ ٤٣٤).

لِلَّهِ تَعَالَى» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(١٦)].

وَمِنْ أَعْظَمِ الذِّكْرِ: التَّكْبِيرُ فِي هَذِهِ الأَيَّامِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي خُصَّتْ بِالتَّكْبِيرِ الْمُطْلَقِ فِي سَائِرِ الأَوْقَاتِ، وَبِالتَّكْبِيرِ الْمُقَيَّدِ بِأَدْبَارِ الصَّلَوَاتِ.

فَاحْرِصُوا -رَحِمَكُمُ اللهُ تَعَالَى- عَلَى التَّكْبِيرِ، وَذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى فِيمَا بَقِيَ مِنْهَا، وَاشْكُرُوهُ سُبْحَانَهُ عَلَى آلَائِهِ وَنِعَمِهِ، وَاجْتَنِبُوا الْمُنْكَرَاتِ؛ فَإِنَّهَا جَالِبَةُ النِّقَمِ، رَافِعَةُ النِّعَمِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ ...



(١٦) أخرجه مسلم في الصيام، باب تحريم صوم أيام التشريق (١١٤١).



التربية والآداب



٢٧٢- الخلال النبوية (١)
وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين (أ)

١٨/ ١/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ رَحِمَ هَذِهِ الْأُمَّةَ الْخَاتِمَةَ فَأَكْرَمَهَا بِأَفْضَلِ خَلْقِهِ، وَبَعَثَ فِيهَا خَاتَمَ رُسُلِهِ، نَحْمَدُهُ عَلَى عَظِيمِ نِعَمِهِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى تَعَدُّدِ مِنَنِهِ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الْأَنْعَام: ١٢].

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، الرَّحْمَةُ الْمُهْدَاةُ، وَالنِّعْمَةُ الْمُسْدَاةُ؛ كَانَ أَرْحَمَ نَبِيٍّ لِأُمَّتِهِ، وَأَشَدَّهُمْ شَفَقَةً وَنُصْحًا، وَأَكْثَرَهُمْ عَفْوًا وَصَفْحًا، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ؛ فَلَا مَنْجَاةَ لِلْعِبَادِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا بِهَا ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزُّمَر: ٦١].

أَيُّهَا النَّاسُ: رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى بِعِبَادِهِ عَظِيمَةٌ، وَمِنَّتُهُ عَلَيْهِمْ كَبِيرَةٌ، وَهُوَ ﷻ ذُو الرَّحْمَةِ الْكَامِلَةِ الَّتِي لَا يَعْتَرِيهَا نَقْصٌ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ، وَلَيْسَ الْعَجْزُ وَالضَّعْفُ بَاعِثًا عَلَيْهَا بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ؛ وَإِنَّمَا هِيَ رَحْمَةُ الرَّحِيمِ الرَّحْمَنِ الَّذِي وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا.

وَأَعْظَمُ رَحْمَةٍ حَظِيَتْ بِهَا هَذِهِ الْأُمَّةُ مِنَ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ: اخْتِصَاصُهَا بِنَبِيِّ الرَّحْمَةِ الَّذِي خَتَمَ اللهُ تَعَالَى بِهِ النُّبُوَّاتِ، وَأَخْرَجَ الْعِبَادَ بِهِ مِنَ الظُّلُمَاتِ، وَأَنْزَلَ بِبَرَكَتِهِ أَنْوَاعَ الرَّحَمَاتِ، فَأَهْلُ الْأَرْضِ يَتَرَاحَمُونَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَصَدَقَ

اللهُ الْكَرِيمُ إِذْ يَقُولُ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأَنْبِيَاء: ١٠٧].

فَرِسَالَتُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الَّتِي بَلَّغَهَا عَنْ رَبِّهِ جَلَّ فِي عُلَاهُ قَدْ أَفَاضَتْ عَلَى الْعِبَادِ بِأَنْوَاعِ الرَّحَمَاتِ، وَشَمِلَتِ الرَّحْمَةُ بِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ، وَالطَّيْرَ وَالْحَيَوَانَ، وَالْمُؤْمِنَ وَالْكَافِرَ، وَالْبَرَّ وَالْفَاجِرَ، وَمَا مِنْ أَحَدٍ عَلَى الْأَرْضِ مُنْذُ بَعْثَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا وَإِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَّا أَصَابَهُ شَيْءٌ مِنْ تِلْكَ الرَّحْمَةِ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ تَعَالَى وَاصِلَةً لِلْعَالَمِينَ كُلِّهِمْ؛ وَلِذَلِكَ جَاءَ فِي حَدِيثٍ مُرْسَلٍ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ**» رَوَاهُ الدَّارِمِيُّ وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ(١).

وَأَخَصُّ الْعَالِمِينَ بِتِلْكَ الرَّحْمَةِ، وَأَكْثَرُهُمْ حَظًّا مِنْهَا: مَنْ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَفَلَاحُهُمْ يَكُونُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَكَمَا جَاءَ النَّصُّ الْقُرْآنِيُّ بِأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ رَحْمَةٌ لِلْعَالَمِينَ جَاءَ كَذَلِكَ بِالنَّصِّ عَلَى أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ [التَّوْبَة: ٦١].

وَمِنْ رَحْمَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِمَنْ آمَنَ بِهِ، وَدَانَ بِدِينِهِ: دُعَاؤُهُ لَهُمْ؛

---

(١) أخرجه من حديث أبي صالح ذكوان السمان -رحمه الله تعالى- قال: «كان النبي ﷺ يناديهم . . .» فذكره: الدارمي (١٥)، وابن أبي شيبة (٦/ ٣٢٥)، والبيهقي في الشعب (١٤٠٤)، وابن سعد في الطبقات (١/ ١٩٢).
ووصله من حديث أبي صالح عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ به: الطبراني في الأوسط (٢٩٨١) والصغير (٢٦٤)، والقضاعي في مسند الشهاب (١١٦٠-١١٦١)، والبيهقي في الشعب (١٤٠٤-١٠٤٦)، وصححه الحاكم وقال: على شرطهما (١/ ٩١) وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد للبزار، وقال: ورجاله رجال الصحيح (٨/ ٢٥٧).
ورجح إرساله البخاري كما في علل الترمذي (٦٨٥)، والدارقطني في العلل، وذكر أن وصله وهم (١٠/ ١٠٥).

إِذْ كَانَ يُكْثِرُ مِنْ ذَلِكَ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا تَذَكَّرَ حَالَ الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ مَعَ أُمَمِهِمْ، فَتَغْلِبُهُ رَحْمَتُهُ لِأُمَّتِهِ فَيَدْعُو لَهُمْ؛ كَمَا رَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَلَا قَوْلَ اللَّهِ عز وجل فِي إِبْرَاهِيمَ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ [إِبْرَاهِيم: مِنَ الْآيَةِ ٣٦]. وَقَالَ عِيسَى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المَائِدَة: ١١٨]. فَرَفَعَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَدَيْهِ وَقَالَ: **اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي، وَبَكَى، فَقَالَ اللهُ عز وجل: يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ -وَرَبُّكَ أَعْلَمُ- فَسَلْهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام فَسَأَلَهُ، فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَا قَالَ -وَهُوَ أَعْلَمُ- فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوءُكَ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٢).

وَخَطَبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَوْمًا فَقَالَ: «**أَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي سَبَبْتُهُ سَبَّةً فِي غَضَبِي، أَوْ لَعَنْتُهُ لَعْنَةً فَإِنَّمَا أَنَا مِنْ وَلَدِ آدَمَ أَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُونَ، وَإِنَّمَا بَعَثَنِي رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، فَاجْعَلْهَا صَلَاةً عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(٣).

وَبَلَغَ مِنْ رَحْمَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِأُمَّتِهِ أَنَّهُ قَدَّمَهُمْ عَلَى نَفْسِهِ فِي دَعْوَةِ

---

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان، باب دعاء النبي ﷺ لأمته وبكائه شفقة عليهم (٢٠٢)، والنسائي في الكبرى (١١٢٦٩)، وابن حبان (٧٢٣٤).

(٣) أخرجه من حديث سلمان رضي الله عنه: أبو داود في السنة، باب في النهي عن سب أصحاب رسول الله ﷺ (٤٦٥٩)، وأحمد (٥/ ٤٣٧)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.
وله شواهد عدة منها:
١- حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند البخاري في الدعوات، باب قول النبي ﷺ: «من آذيته فاجعله له زكاة ورحمة» (٦٠٠٠)، ومسلم في البر والصلة والآداب، باب من لعنه النبي ﷺ أو سبه أو دعا عليه وليس هو أهلاً لذلك كان له زكاة وأجرًا ورحمة (٢٦٠١).
٢- حديث عائشة رضي الله عنها: عند مسلم (٢٦٠٠)، وأحمد (٦/ ٤٥).
٣- حديث جابر رضي الله عنه عند: مسلم (٢٦٠٢)، وأحمد (٣/ ٣٨٤).
٤- حديث انس رضي الله عنه عند: مسلم (٢٦٠٣).

مُجابَةٍ أَعْطَاهُ اللهُ تَعَالَى إِيَّاهَا كَمَا أَعْطَى الْأَنْبِيَاءَ قَبْلَهُ، فَلَمْ يَخُصَّهَا لِنَفْسِهِ بَلِ ادَّخَرَهَا لِأُمَّتِهِ؛ كَمَا رَوَى أَنَسٌ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ قَدْ دَعَا بِهَا فَاسْتُجِيبَ، فَجَعَلْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ، وَفِي رِوَايَةٍ لَهُمَا وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا**»(٤).

صَلَوَاتُ رَبِّي وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، مَا أَعْظَمَ رَحْمَتَهُ بِنَا! وَمَا أَشَدَّ حِرْصَهُ عَلَيْنَا!

أَيُلَامُ الْمُؤْمِنُونَ بِهِ أَنْ أَحَبُّوهُ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ، وَقَدْ آثَرَهُمْ عَلَى نَفْسِهِ، وَخَصَّهُمْ بِدَعْوَتِهِ فِي مَوْقِفٍ يَا لَهُ مِنْ مَوْقِفٍ؟! وَاللَّهِ لَا يَلُومُهُمْ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا كَافِرٌ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ، أَوْ مُنَافِقٌ يُخْفِي كُفْرَهُ، أَوْ جَاهِلٌ لَمْ يَعْرِفْ فَضْلَ الرَّسُولِ ﷺ.

وَمَا أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَحْمَةٌ لِلْعَالَمِينَ إِلَّا وَقَدْ شَمِلَتْ رَحْمَتُهُ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ(٥)، وَبَيَانُ ذَلِكَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ دَعَوْا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْعَذَابِ فَقَالُوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ

---

(٤) حديث أنس ﷺ أخرجه البخاري في الدعوات، باب لكل نبي دعوة مستجابه (٥٩٤٦)، ومسلم في الإيمان، باب اختباء النبي ﷺ دعوة الشفاعة لأمته (٢٠٠).
وحديث أبي هريرة أخرجه البخاري (٥٩٤٥)، ومسلم (١٩٩).
وجاء من حديث جابر ﷺ عند مسلم (٢٠١)

(٥) قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: «وأصح القولين في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] أنه على عمومه، وفيه على هذا التقدير وجهان:
أحدهما: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته؛ أما أتباعه فنالوا به كرامة الدنيا والآخرة.
وأما أعداؤه فالمحاربون له عجل قتلهم وموتهم خير لهم من حياتهم؛ لأن حياتهم زيادة لهم في تغليظ العذاب عليهم في الدار الآخرة وهم قد كتب عليهم الشقاء، فتعجيل موتهم خير لهم من طول أعمارهم في الكفر. =

ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الْأَنْفَال: ٣٢]. فَرَفَعَهُ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ بِبَرَكَةِ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَيَاتِهِ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ﴾ [الْأَنْفَال: مِنَ الْآيَةِ ٣٣].

وَأَمَّا بَعْدَ مَوْتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَبِالِاسْتِغْفَارِ الَّذِي شَرَعَهُ لَهُمْ، وَدَلَّهُمْ عَلَيْهِ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الْأَنْفَال: مِنَ الْآيَةِ ٣٣].

وَلَمَّا اشْتَدَّ بِهِ أَذَى الْمُشْرِكِينَ، وَصَدُّوا عَنْ دَعْوَتِهِ، وَعَذَّبُوا أَصْحَابَهُ، وَلَحِقَهُ مِنَ الْهَمِّ مَا لَحِقَهُ؛ اسْتَأْذَنَهُ مَلَكُ الْجِبَالِ أَنْ يُهْلِكَ الْمُشْرِكِينَ، وَيَسْحَقَهُمْ بَيْنَ جَبَلَيْنِ عَظِيمَيْنِ؛ فَرَحِمَهُمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رَغْمَ شِدَّةِ أَذَاهُمْ لَهُ، وَأَمْهَلَهُمْ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، وَلَمْ يَنْتَصِرْ لِنَفْسِهِ لَمَّا جَاءَهُ النَّصِيرُ، بَلْ غَلَبَتْ رَحْمَتُهُ لِقَوْمِهِ انْتِقَامَهُ لِنَفْسِهِ؛ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِمَلَكِ الْجِبَالِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[٦].

وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّهُ مَا أَرَادَ عَذَابَ أُمَّتِهِ، بَلِ ابْتَغَى أَنْ يَكُونَ ذُخْرًا لَهُمْ، وَخَيْرًا

= وأما المعاهدون له فعاشوا في الدنيا تحت ظله وعهده وذمته، وهم أقل شرًّا بذلك العهد من المحاربين له.

وأما المنافقون فحصل لهم بإظهار الإيمان به حقن دمائهم وأموالهم وأهلهم واحترامها، وجريان أحكام المسلمين عليهم في التوارث وغيره.

وأما الأمم النائية عنه فإن الله سبحانه رفع برسالته العذاب العام عن أهل الأرض فأصاب كل العالمين النفع برسالته.

الوجه الثاني: أنه رحمة لكل أحد، لكن المؤمنون قبلوا هذه الرحمة فانتفعوا بها دنيا وأخرى، والكفار ردوها فلم يخرج بذلك عن أن يكون رحمة لهم لكن لم يقبلوها، كما يقال: هذا دواء لهذا المرض، فإذا لم يستعمله المريض لم يخرج عن أن يكون دواء لذلك المرض» جلاء الأفهام (١/ ١٨١).

(٦) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها: البخاري في بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء آمين فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه (٣٠٥٩)، ومسلم في الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين (١٧٩٥).

مُتَقَدِّمًا يَجِدُونَهُ أَمَامَهُمْ بَعْدَ وَفَاتِهِمْ؛ كَمَا رَوَى أَبُو مُوسَى ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ ﷻ إِذَا أَرَادَ رَحْمَةَ أُمَّةٍ مِنْ عِبَادِهِ قَبَضَ نَبِيَّهَا قَبْلَهَا، فَجَعَلَهُ لَهَا فَرَطًا وَسَلَفًا بَيْنَ يَدَيْهَا، وَإِذَا أَرَادَ هَلَكَةَ أُمَّةٍ عَذَّبَهَا وَنَبِيُّهَا حَيٌّ فَأَهْلَكَهَا وَهُوَ يَنْظُرُ فَأَقَرَّ عَيْنَهُ بِهَلَكَتِهَا حِينَ كَذَّبُوهُ وَعَصَوْا أَمْرَهُ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٧).

وَلَمَّا دَعَا عَلَى الْمُشْرِكِينَ بِالْجُوعِ فَأَصَابَهُمْ شَكَوْا إِلَيْهِ مَا وَجَدُوا، فَرَحِمَهُمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَعَادَ يَدْعُو لَهُمْ بِالْغَيْثِ فَسُقُوا؛ كَمَا رَوَى ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ: «أَنَّ قُرَيْشًا أَبْطَؤُوا عَنِ الْإِسْلَامِ، فَدَعَا عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: **اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ**، فَأَخَذَتْهُمْ سَنَةٌ حَتَّى هَلَكُوا فِيهَا وَأَكَلُوا الْمَيْتَةَ وَالْعِظَامَ، وَيَرَى الرَّجُلُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ، فَجَاءَهُ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، جِئْتَ تَأْمُرُنَا بِصِلَةِ الرَّحِمِ وَإِنَّ قَوْمَكَ قَدْ هَلَكُوا، فَادْعُ اللهَ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ، وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبَيْهَقِيِّ: «فَجَاءَهُ أَبُو سُفْيَانَ وَنَاسٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ إِنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّكَ بُعِثْتَ رَحْمَةً وَإِنَّ قَوْمَكَ قَدْ هَلَكُوا، فَادْعُ اللهَ لَهُمْ، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَسُقُوا الْغَيْثَ»(٨).

وَلَمَّا قَالَ لَهُ أَحَدُ أَصْحَابِهِ ﷺ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، قَالَ: **إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٩).

وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ شَدِيدَ الْأَسَى، كَثِيرَ الْحُزْنِ عَلَى مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ مِنْ

---

(٧) أخرجه مسلم في الفضائل، باب إذا أراد الله رحمة أمة قبض نبيها قبلها (٢٢٨٨)، وابن حبان (٦٦٤٧).

(٨) أخرجه البخاري في التفسير، باب تفسير سورة الروم (٤٤٩٦)، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار، باب الدخان (٢٧٩٨) والرواية الثانية للبيهقي (٣/ ٣٥٢)

(٩) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: مسلم في البر والصلة والآداب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها (٢٥٩٩)، وأبو يعلى (٦١٧٤).

قَوْمِهِ، لَا يَهْنَأُ بِعَيْشٍ وَهُوَ يَرَاهُمْ عَلَى الْكُفْرِ؛ رَحْمَةً بِهِمْ، وَشَفَقَةً عَلَيْهِمْ، فَعَاتَبَهُ اللهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الْكَهْف: ٦].

أَيْ: لَعَلَّكَ مُهْلِكٌ نَفْسَكَ أَوْ قَاتِلُهَا أَسَفًا عَلَيْهِمْ إِذْ لَمْ يُؤْمِنُوا، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٣].

وَاشْتَدَّتْ بِهِ الْحَسْرَةُ عَلَيْهِمْ حَتَّى خَاطَبَهُ اللهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فَاطِر: ٨]. وَسَلَّاهُ رَبُّهُ ﷻ فِي حُزْنِهِ هَذَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الْأَنْعَام: ٣٣].

إِنَّهَا وَاللَّهِ لَرَحْمَةٌ عَجِيبَةٌ مِنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِقَوْمٍ كَذَّبُوهُ وَاسْتَهْزَءُوا بِهِ وَبِدِينِهِ، وَآذَوْا أَتْبَاعَهُ، وَاضْطَرُّوهُ إِلَى الْهِجْرَةِ عَنْ بَلَدِهِ، وَقَتَلُوا أَصْحَابَهُ، وَحَاوَلُوا قَتْلَهُ غَيْرَ مَرَّةٍ، وَجَمَعُوا الْجُمُوعَ لِحَرْبِهِ، وَجَرَحُوهُ فِي أُحُدٍ، وَكَسَرُوا رَبَاعِيَتَهُ، وَهَشَّمُوا الْبَيْضَةَ عَلَى رَأْسِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ يَرْحَمُهُمْ وَيَأْسَى عَلَيْهِمْ، وَيَحْزَنُ لِأَجْلِهِمْ، وَيَسْتَغْفِرُ لَهُمْ قَبْلَ أَنْ يُنْهَى عَنْ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**»(١٠)، وَلَمْ يَكُنْ أَشَدَّ فَرَحًا بِشَيْءٍ فَرَحُهُ بِوَاحِدٍ مِنْهُمْ يَدْخُلُ الْإِسْلَامَ؛ رَوَى أَنَسٌ ؓ فَقَالَ: «كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدِمُ النَّبِيَّ ﷺ فَمَرِضَ فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَقَالَ لَهُ: **أَسْلِمْ**، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ ﷺ، فَأَسْلَمَ فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: **الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي**

(١٠) أخرجه من حديث سهل بن سعد ؓ: الطبراني في الكبير (٦/ ١٢٠) رقم ٥٦٩٤)، وصححه ابن حبان (٩٧٣)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح (٦/ ١١٧)، وذكر ابن حبان في صحيحه عقب إخراجه له أن النبي ﷺ قال ذلك في أحد لما شجوا وجهه.

أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[١١].

إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ رَحِمَ بِالنَّبِيِّ ﷺ الْمُشْرِكِينَ فَرَفَعَ عَنْهُمُ الْعَذَابَ بِحِلْمِهِ عَلَيْهِمْ، وَعَفْوِهِ عَنْهُمْ، وَطَلَبِهِ إِمْهَالَهُمْ، وَاسْتِسْقَائِهِ لَهُمْ، وَرَحِمَ بِهِ الْمُنَافِقِينَ بِقَبُولِ مَعَاذِيرِهِمْ إِذَا اعْتَذَرُوا، وَتَصْدِيقِهِمْ إِذَا حَلَفُوا، وَحَقْنِ دِمَائِهِمْ، وَمُعَامَلَتِهِمْ بِظَاهِرِ حَالِهِمْ، وَرَدِّ سَرَائِرِهِمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَاشْتُهِرَ ذَلِكَ عَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَتَّى لَمَزَهُ بِهِ الْمُنَافِقُونَ ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ [التَّوْبَة: ٦١]. أَيْ: يَسْتَمِعُ لَنَا، وَيَقْبَلُ أَعْذَارَنَا، وَسَنَقُولُ مَا شِئْنَا ثُمَّ نَحْلِفُ لَهُ فَيُصَدِّقُنَا، فَكَانَ رَدُّ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ [التَّوْبَة: ٦١]. يَعْنِي: أَنْ يَسْمَعَ مِنْكُمْ وَيُصَدِّقَكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ يُكَذِّبَكُمْ وَلَا يَقْبَلَ قَوْلَكُمْ[١٢].

وَفِي قَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأَنْبِيَاء: ١٠٧]. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ كُتِبَ لَهُ الرَّحْمَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ عُوفِيَ مِمَّا أَصَابَ الْأُمَمَ مِنَ الْخَسْفِ وَالْقَذْفِ»[١٣].

وَمَظَاهِرُ رَحْمَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ، بَلْ حَتَّى لِلْحَيَوَانِ لَا يَتَّسِعُ هَذَا الْمَقَامُ لِعَدِّهَا كُلِّهَا، فَضْلًا عَنْ عَرْضِهَا بِحَوَادِثِهَا وَتَفْصِيلَاتِهَا.

---

(١١) أخرجه البخاري في الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه؟ وهل يعرض على الصبي الإسلام؟ (١٢٩٠)، وأبو داود في الجنائز، باب في عيادة الذمي (٣٠٩٥)، والنسائي في الكبرى (٨٥٨٨)، وأحمد (٣/ ٢٢٧)، وأبو يعلى (٣٣٥٠)، وابن حبان (٢٩٦٠).

(١٢) ينظر: معالم التنزيل للبغوي (٢/ ٣٠٦)، وزاد المسير (٣/ ٤٦١).

(١٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٧/ ١٠٦)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٢٣) رقم (١٢٣٥٨)، وعزاه ابن كثير لابن أبي حاتم (٣/ ٢٠٣)، وإسناد الطبري فيه مجهول، وإسناد الطبراني فيه أيوب بن سويد ضعيف جدًا كما قال الهيثمي في الزوائد (٧/ ٦٩).

وَمِنَ الْمُعْجِزَاتِ النَّبَوِيَّةِ أَنَّ بَعْضَ الْحَيَوَانِ كَانَ يُحِسُّ بِرَحْمَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَيَلْجَأُ إِلَيْهِ يَشْتَكِي رَهَقَ مَالِكِهِ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: «دَخَلَ حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ فَإِذَا جَمَلٌ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ فَسَكَتَ، فَقَالَ: **مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ؟ لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ؟** فَجَاءَ فَتًى مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: **أَفَلَا تَتَّقِي اللهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللهُ إِيَّاهَا؟! فَإِنَّهُ شَكَى إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ**» أَيْ: تُرْهِقُهُ فِي الْعَمَلِ. رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ(١٤).

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التَّوْبَة: ١٢٨].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ....



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ.

---

(١٤) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم (٢٥٤٩)، وأحمد (١/ ٢٠٤)، وأبو عوانة (٤٩٧)، وابن أبي شيبة (٦/ ٣٢١)، وأبو يعلى (٦٧٨٧)، والبيهقي (٨/ ١٣)، وصححه الحاكم (٢/ ١٠٩)، والضياء في المختارة (٩/ ١٥٩-١٦٠) رقم (١٣٥)، وأصل الحديث في صحيح مسلم دون قصة الجمل (٢٤٢٩).

أَيُّهَا النَّاسُ: كَمَا حَفِظَتْ سِيرَةُ النَّبِيِّ ﷺ مَوَاقِفَ كَثِيرَةً أَظْهَرَتْ رَحْمَتَهُ بِالْعَالِمِينَ؛ فَإِنَّهَا حَفِظَتْ كَذَلِكَ مَوَاقِفَ أُخْرَى أَوْقَعَ فِيهَا الْعُقُوبَةَ الشَّدِيدَةَ عَلَى مَنْ يَسْتَحِقُّهَا، وَلَيْسَ ذَلِكَ مِمَّا يَتَعَارَضُ مَعَ صِفَةِ الرَّحْمَةِ الَّتِي امْتَلأَ قَلْبُهُ بِهَا، بَلْ إِنَّ وَضْعَ الرَّحْمَةِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا مِمَّا يُذَمُّ وَلَا يُحْمَدُ؛ وَذَلِكَ كَتَعْطِيلِ الْحُدُودِ وَالتَّعْزِيرَاتِ رَحْمَةً بِالْمُجْرِمِينَ، وَلَازِمُ ذَلِكَ سَلْبُ الرَّحْمَةِ عَنْ عُمُومِ النَّاسِ لِحِسَابِ أَهْلِ الْفَسَادِ وَالْإِجْرَامِ.

وَكَمَا دَعَا النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِبَعْضِ الْمُشْرِكِينَ بِالْهِدَايَةِ، وَاسْتَسْقَى لَهُمْ؛ دَعَا كَذَلِكَ عَلَى آخَرِينَ بِالْعَذَابِ وَالزَّلْزَلَةِ وَالنَّارِ، فَعُلِمَ أَنَّ الدُّعَاءَ لِلْمُشْرِكِينَ بِالْهِدَايَةِ جَائِزٌ، كَمَا أَنَّ الدُّعَاءَ عَلَيْهِمْ بِالْعَذَابِ جَائِزٌ كَذَلِكَ(١٥).

وَلَمَّا عَدَا يَهُودِيٌّ عَلَى جَارِيَةٍ فَأَخَذَ ذَهَبَهَا، وَرَضَخَ رَأْسَهَا بِالْحِجَارَةِ؛ رَضَخَ النَّبِيُّ ﷺ رَأْسَ الْيَهُودِيِّ بَيْنَ حَجَرَيْنِ(١٦).

وَأَسْلَمَ نَاسٌ مِنَ الْعُرَنِيِّينَ فَأَلْحَقَهُمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِإِبِلِ الصَّدَقَةِ لِيَشْرَبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا، وَيَتَدَاوَوْا بِأَبْوَالِهَا، فَلَمَّا صَحُّوا وَتَعَافَوْا؛ ارْتَدُّوا عَنِ الْإِسْلَامِ، وَقَتَلُوا الرَّاعِيَ، وَسَاقُوا الْإِبِلَ، فَبَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ فِي آثَارِهِمْ «فَأُتِيَ بِهِمْ، فَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، وَسَمَلَ أَعْيُنَهُمْ، ثُمَّ لَمْ يَحْسِمْهُمْ حَتَّى مَاتُوا». وَفِي رِوَايَةٍ: «فَأَمَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِمَسَامِيرَ فَأُحْمِيَتْ فَكَحَلَهُمْ، وَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، وَمَا حَسَمَهُمْ، ثُمَّ أُلْقُوا فِي الْحَرَّةِ يَسْتَسْقُونَ فَمَا سُقُوا حَتَّى مَاتُوا». قَالَ أَنَسٌ رضي الله عنه: «فَرَأَيْتُ الرَّجُلَ مِنْهُمْ يَكْدِمُ الْأَرْضَ بِلِسَانِهِ حَتَّى يَمُوتَ»، وَفِي رِوَايَةٍ

---

(١٥) ينظر تفصيل ذلك في خطبة «سرية بئر معونة» مجلد (٣) خطبة رقم (١٢٩).

(١٦) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه: البخاري في الخصومات، باب ما يذكر في الخصومات والملازمة والخصومة بين المسلم واليهودي (٢٢٨٢)، ومسلم في القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب ثبوت القصاص في القتل بالحجر .. (١٦٧٢).

قَالَ أَنَسٌ ﷺ: «فَلَقَدْ رَأَيْتُ أَحَدَهُمْ فَاغِرًا فَاهُ يَعَضُّ الْأَرْضَ لِيَجِدَ مِنْ بَرْدِهَا مِمَّا يَجِدُ مِنَ الْحَرِّ وَالشِّدَّةِ» وَقِصَّتُهُمْ مُخَرَّجَةٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ(١٧).

وَنَقَضَ يَهُودُ قُرَيْظَةَ الْعَهْدَ، وَحَكَّمَ فِيهِمُ النَّبِيُّ ﷺ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ ﷺ فَحَكَمَ

(١٧) أخرجها من حديث أنس ﷺ: البخاري في فاتحة كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة (٦٤١٧)، ومسلم في القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب حكم المحاربين والمرتدين (١٦٧١).

وقد بوب البخاري على حديثهم أبوابًا عدة فقال: باب لم يحسم النبي ﷺ المحاربين من أهل الردة حتى هلكوا، وباب لم يُسق المرتدون حتى ماتوا، وباب سمر النبي ﷺ أعين المحاربين، وساق تحت تلك الأبواب حديث أنس بألفاظه (٦٤١٨-٦٤١٩-٦٤٢٠).

والرواية الثانية للبخاري في (٦٤١٩) ومثلها في (٢٨٥٥).

والرواية الثالثة للبخاري في الطب، باب الدواء بألبان الإبل (٥٣٦١)، وهي عند أحمد وأهل السنن إلا ابن ماجه.

والرواية الرابعة لأبي عوانة (٦١١١)، وساقها الحافظ في الفتح (١/ ٣٤٠).

قوله: «وسمل أعينهم» قال النووي -رحمه الله تعالى-: «هكذا هو في معظم النسخ «سمل» باللام، وفي بعضها «سمر» بالراء والميم مخففة، وضبطناه في بعض المواضع في البخاري «سمّر» بتشديد الميم، ومعنى «سمل» باللام: نقاها وأذهب ما فيها، ومعنى «سمر» بالراء: كحلها بمسامير محمية، وقيل: هما بمعنى» انتهى من شرح مسلم (١١/ ١٥٥).

قوله: «ولم يحسمهم»؛ أي: ولم يكوهم، والحسم في اللغة: كي العرق بالنار لينقطع الدم.

قال ابن بطال -رحمه الله تعالى-: «إنما ترك حسمهم لأنه أراد إهلاكهم، فأما من قطع في سرقة مثلًا فإنه يجب حسمه؛ لأنه لا يؤمن معه التلف غالبًا بنزف الدم» ينظر: شرح النووي على مسلم (١١/ ١٥٦)، وفتح الباري (١٢/ ١١١).

مسألة: هل ما فعله النبي ﷺ بالعرنيين كان قصاصًا منهم، وأنهم فعلوا ذلك بالراعي، أم هو عقوبة على فعلتهم الشنيعة، ومقابلتهم أعظم الإحسان بأبلغ الإساءة، من ردتهم عن الإسلام، وحرابتهم لأهله بقتل الراعي وسوق ذوده بعد أن أمنوا وأنعم عليهم بالانتفاع بإبل الصدقة؟!

قال الحافظ ابن رجب -رحمه الله تعالى-: «قد اختلف العلماء في وجه عقوبة هؤلاء: فمنهم من قال: من فعل مثل فعلهم؛ فمن ارتد وحارب وأخذ المال صُنِعَ به كما صُنِعَ =

فِيهِمْ أَنْ تُقْتَلَ مُقَاتِلَتُهُمْ، وَتُسْبَى ذَرَارِيُّهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قَضَيْتَ بِحُكْمِ اللَّهِ» فَخُدَّتْ لَهُمْ خَنَادِقُ فِي الْأَرْضِ، وَضُرِبَتْ أَعْنَاقُ رِجَالِهِمْ فِيهَا، وَكَانُوا يُقَارِبُونَ

= بهؤلاء، وروي هذا عن طائفة، منهم أبو قلابة، وهو رواية عن أحمد.
ومنهم من قال: بل هذا يدل على جواز التمثيل ممن تغلظت جرائمه في الجملة، وإنما نهى عن التمثيل في القصاص، وهو قول ابن عقيل من أصحابنا.
ومنهم من قال: نُسخ ما فعل بالعُرنيين بالنهي عن المُثْلَة.
ومنهم من قال: كان قبل نزول الحدود وآية المحاربة، ثم نسخ بذلك، وهذا قول جماعة منهم الأوزاعي وأبو عبيدة.
ومنهم من قال: بل ما فعله النبي ﷺ بهم إنما كان من باب المحاربة، ولم ينسخ شيء من ذلك وقالوا: إنما قتلهم النبي ﷺ وقطع أيديهم؛ لأنهم أخذوا المال، ومن أخذ المال وقتل قطع وقتل وصلب حتمًا؛ فيقتل لقتله، ويقطع لأخذه المال يده ورجله من خلاف، ويصلب لجمعه بين الجنايتين وهما القتل وأخذ المال، وهذا قول الحسن ورواية عن أحمد. وإنما سمل أعينهم؛ لأنهم سملوا أعين الرعاة، كذا خرجه مسلم من حديث أنس، وذكر ابن شهاب أنهم قتلوا الراعي ومثلوا به، وذكر ابن سعد أنهم قطعوا يده ورجله، وغرسوا الشوك في لسانه وعينيه حتى مات، وحينئذ فقد يكون قطعهم وسمل أعينهم وتعطيشهم قصاصًا.
وهذا يتخرج على قول من يقول: إن المحارب إذا جنى جناية توجب القصاص استوفاه منه قبل قتله، وهو مذهب أحمد، لكن هل يستوفى منه تحتمًا كقتله أم على وجه القصاص فيسقط بعفو الولي؟
على روايتين عنه، ولكن رواية الترمذي أن قطعهم من خلاف يدل على أن قطعهم للمحاربة، إلا أن يكونوا قد قطعوا يد الراعي ورجله من خلاف، والله أعلم» انتهى من جامع العلوم والحكم (١/ ١٥٤-١٥٥).
وقال الحافظ ابن حجر -رحمه الله تعالى-: «وحكى ابن بطال عن المهلب أن الحكمة في ترك سقيهم: كفرهم نعمة السقي التي أنعشتهم من المرض الذي كان بهم، قال: وفيه وجه آخر يؤخذ مما أخرجه ابن وهب من مرسل سعيد بن المسيب أن النبي ﷺ قال لما بلغه ما صنعوا: «**عَطَّشَ الله مَنْ عطش آل محمد الليلة**»، قال: فكان ترك سقيهم إجابة لدعوته ﷺ، قلت: وهذا لا ينافي أنه عاقبهم بذلك، كما ثبت أنه سملهم؛ لكونهم سملوا أعين الرعاة، وإنما تركهم حتى ماتوا لأنه أراد إهلاكهم كما مضى في الحسم، وأبعد من قال: إن تركهم بلا سقي لم يكن بعلم النبي ﷺ» انتهى من الفتح (١٢/ ١١١).

سِتَّمِائَةِ رَجُلٍ، وَسُبِيَتْ نِسَاؤُهُمْ وَذَرَارِيُّهُمْ، وَغُنِمَتْ أَمْوَالُهُمْ.

وَكَانَ هَذَا الْجَزَاءُ الْعَادِلُ حُكْمَ اللَّهِ تَعَالَى فِيمَنْ نَقَضُوا الْعَهْدَ، وَأَرَادُوا السُّوءَ بِالْمُسْلِمِينَ، وَقِصَّتُهُمْ أَيْضًا مُخَرَّجَةٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ(١٨).

كُلُّ هَذِهِ الْحَوَادِثِ وَمَثِيلَاتُهَا تَشْرِيعٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، أَوْحَى بِهِ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ، أَوْ حَكَمَ النَّبِيُّ ﷺ فِي هَؤُلَاءِ الْمُجْرِمِينَ بِمَا سَمِعْتُمْ، وَأَقَرَّ اللهُ تَعَالَى حُكْمَهُ، فَكَانَ ذَلِكَ تَشْرِيعًا، وَرَسُولُنَا ﷺ لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى، فَعُلِمَ أَنَّ هَذِهِ الْأَحْكَامَ مِنْهُ ﷺ -وَإِنْ بَدَتْ لِلْبَعْضِ قَاسِيَةً- حَقٌّ لَا بَاطِلَ فِيهِ أَبَدًا.

وَإِزَاءَ هَذِهِ الْحَوَادِثِ وَمَثِيلَاتِهَا فِي السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ اخْتَلَفَتْ مَوَاقِفُ النَّاسِ فِي هَذَا الْعَصْرِ، وَضَلَّ فِيهَا طَائِفَتَانِ مِنَ النَّاسِ؛ فَالْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ، وَمَنْ فِي قُلُوبِهِمْ حِقْدٌ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ أَبْرَزُوهَا دَلِيلًا عَلَى دَمَوِيَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَالْقَدْحِ بِهَا فِي النَّبِيِّ ﷺ، وَاخْتَزَلُوا السِّيرَةَ النَّبَوِيَّةَ فِي ذَلِكَ، مَعَ تَعَامِيهِمْ عَنِ الْجُرْمِ الَّذِي ارْتَكَبَهُ مَنِ اسْتَحَقُّوا تِلْكَ الْعُقُوبَاتِ، وَإِخْفَائِهِمُ الْحَوَادِثَ الْكَثِيرَةَ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى الْعَفْوِ وَالصَّفْحِ وَالرَّحْمَةِ مِنْ سِيرَةِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَالطَّائِفَةُ الْأُخْرَى: قَوْمٌ قَابَلُوا هَؤُلَاءِ، فَجَدُّوا وَاجْتَهَدُوا فِي الذَّبِّ عَنِ الْإِسْلَامِ، لَكِنَّهُمْ أَخْطَئُوا الطَّرِيقَ، وَلَمْ يُوَفَّقُوا فِي الْمُعَالَجَةِ؛ إِذْ حَرِجُوا مِنْ مِثْلِ تِلْكَ الْمَوَاقِفِ، فَرَاحَ بَعْضُهُمْ يُنْكِرُهَا وَلَوْ كَانَتْ ثَابِتَةً، أَوْ يَتَكَلَّفُ فِي تَأْوِيلِهَا

(١٨) أخرجها من حديث أبي سعيد ﷺ: البخاري في المغازي، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة ومحاصرته إياهم (٣٨٩٥)، ومسلم في الجهاد والسير، باب جواز قتل من نقض العهد، وجواز إنزال أهل الحصن على حكم حاكم عدل أهل للحكم (١٧٦٨).

وأخرجها من حديث عائشة ﷺ: البخاري (٣٨٩٦)، ومسلم (١٧٦٩).

بِمَا يُضْعِفُ حُجَّتَهُ، وَيُنْقِصُ عَقْلَهُ.

وَكَثِيرٌ مِمَّنْ سَلَكُوا تِلْكَ الطَّرِيقَ الْوَعِرَةَ هُمْ مِمَّنْ سَلَّمُوا بِبَعْضِ المَبَادِئِ الْغَرْبِيَّةِ الْإِلْحَادِيَّةِ، وَيَدْعُونَ إِلَى حُرِّيَّةِ الرَّأْيِ وَحُرِّيَّةِ التَّدَيُّنِ الَّتِي مِنْهَا جَوَازُ تَغْيِيرِ الدِّينِ حَسَبَ المَنْهَجِ الْغَرْبِيِّ، فَيَضْطَرُّونَ لِأَجْلِ ذَلِكَ إِلَى إِلْغَاءِ حَدِّ الرِّدَّةِ . . . وَإِذَا تَحَدَّثُوا عَنِ الْإِسْلَامِ اخْتَزَلُوهُ فِي صُوَرِ السَّمَاحَةِ وَالْعَفْوِ، وَلَا يَعْرِضُونَ الْعُقُوبَاتِ فِي الْإِسْلَامِ إِلَّا عَلَى اسْتِحْيَاءٍ وَبِخَفْضِ صَوْتٍ، وَيُعَلِّلُونَهَا بِتَعْلِيلَاتٍ سَامِجَةٍ بَارِدَةٍ.

وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ هَؤُلَاءِ -هَدَانَا اللهُ وَإِيَّاهُمْ- قَدْ بُهِرُوا بِمَا فِي الْقَوَانِينِ الدَّوْلِيَّةِ مِنْ مَوَادِّ حِفْظِ حُقُوقِ الْإِنْسَانِ، وَجَعَلُوهَا حَقًّا لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، ثُمَّ حَاكَمُوا شَرِيعَةَ الْإِسْلَامِ إِلَيْهَا، فَمَا وَافَقَهَا رَفَعُوا عَقِيرَتَهُمْ مُثْبِتِينَ أَنَّ الْإِسْلَامَ سَبَقَ إِلَيْهَا، وَمَا خَالَفَهَا أَخْفَوْهُ أَوْ سَكَتُوا عَنْهُ، فَإِنْ جُوبِهُوا بِهِ مِنْ قِبَلِ الْأَعْدَاءِ أَنْكَرُوهُ، أَوْ تَأَوَّلُوهُ، أَوِ اسْتَخْرَجُوا لَهُ مَذْهَبًا شَاذًّا، أَوْ قَوْلًا مَهْجُورًا لَيْسَ لَهُ مِنَ الدَّلِيلِ إِلَّا أَنَّهُ مُوَافِقٌ لِلْقَانُونِ الطَّاغُوتِيِّ الْوَضْعِيِّ، فَهُمْ قَاسُوا شَرِيعَةَ اللَّهِ تَعَالَى الْمُحْكَمَةَ بِشَرَائِعِ الْبَشَرِ الْفَاسِدَةِ، وَحَاكَمُوهَا إِلَى مَا يُعَارِضُهَا وَيُنَاقِضُهَا وَهِيَ الْحَاكِمَةُ، وَهَذَا أُسُّ الْخَطَإِ، وَسَبَبُ الضَّلَالِ وَالِانْحِرَافِ.

وَمَا عَلِمَ هَؤُلَاءِ المَفْتُونُونَ أَنَّنَا لَسْنَا مُلْزَمِينَ بِإِقْنَاعِ أَعْدَائِنَا بِأَحْكَامِ دِينِنَا، فَإِنْ آمَنُوا فَلَهُمْ، وَإِنْ كَفَرُوا فَعَلَيْهِمْ. لَكِنَّنَا مُلْزَمُونَ بِتَعْظِيمِ شَرِيعَةِ رَبِّنَا، وَالْأَخْذِ بِجَمِيعِ أَحْكَامِهَا، وَعَدَمِ الْحَرَجِ مِنْ شَيْءٍ مِنْهَا، وَلَوْ كَانَ يُزْعِجُ الْأَعْدَاءَ، وَيُخَالِفُ قَوَانِينَهُمُ الْوَضْعِيَّةَ.

وَلْيَعْلَمْ كُلُّ مَنْ يُزَوِّرُ شَرِيعَةَ اللَّهِ تَعَالَى لِأَجْلِهِمْ أَنَّهُمْ لَنْ يَرْضَوْا عَنْهُ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ دِينِهِ، وَيَتَّبِعَهُمْ فِي إِلْحَادِهِمْ؛ فَأَوْلَى لَهُ سَلَامَةُ دِينِهِ مِنْ مُرَاعَاةِ أَعْدَائِهِ، وَشَرِيعَةُ

اللَّهِ تَعَالَى فَوْقَ نَقْدِ النَّاقِدِينَ، وَيَجِبُ أَلَّا تُضَاهَى بِتَخَبُّطَاتِ الْقَانُونِيِّينَ، وَهِيَ شَرِيعَةٌ خَالِدَةٌ بَاقِيَةٌ عَلَى رَغْمِ أُنُوفِ الْحَاقِدِينَ وَالْكَارِهِينَ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ؛ فَمَنْ رَضِيَهَا وَسَلَّمَ بِهَا فَهُوَ يَنْفَعُ نَفْسَهُ، وَمَنْ رَدَّهَا أَوْ عَارَضَهَا فَهُوَ يَضُرُّ نَفْسَهُ، وَلَنْ يَضُرَّ اللهَ تَعَالَى شَيْئًا ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يُونُس: ٩٩، ١٠٠].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ ...



٢٧٣- الخلال النبوية (٢)
وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين (ب)

١٤/ ٤/ ١٤٢٧هـ

الحَمْدُ لِلَّهِ؛ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، وَأَتَمَّ عَلَى عِبَادِهِ النِّعْمَةَ، فَبَعَثَ فِيهِمْ أَرْحَمَ الخَلْقِ بِهِمْ، وَأَحْرَصَهُمْ عَلَيْهِمْ ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

أَحْمَدُهُ سُبْحَانَهُ عَلَى نِعَمِهِ المُتَوَاتِرَةِ، وَأَشْكُرُهُ عَلَى مِنَنِهِ المُتَكَاثِرَةِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، رَحِمَ عِبَادَهُ بِالدِّينِ وَالشَّرَائِعِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى الخَيْرِ وَالمَصَالِحِ، وَتَرْفَعُ الشَّرَّ وَالمَفَاسِدَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ اصْطَفَاهُ عَلَى العَالَمِينَ، وَجَعَلَهُ حُجَّةً عَلَى الخَلْقِ أَجْمَعِينَ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَاسْتَمْسِكُوا بِدِينِكُمْ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ أَحْسَنَهُ، وَفَرَضَ عَلَيْكُمْ مِنَ الشَّرِيعَةِ أَكْمَلَهَا ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وَلَا يَرْضَى لَكُمْ رَبُّكُمْ إِلَّا مَا هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ؛ فَهُوَ الرَّحِيمُ بِكُمُ الَّذِي وَسِعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ، فَاقْبَلُوا عَنِ اللَّهِ تَعَالَى دِينَهُ، وَافْرَحُوا بِشَرِيعَتِهِ، وَاحْمَدُوهُ إِذْ هَدَاكُمْ وَقَدْ ضَلَّ غَيْرُكُمْ ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧].

أَيُّهَا النَّاسُ: الرَّحْمَةُ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ ﷻ، اتَّصَفَ بِهَا، فَهُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، وَمِنْ رَحْمَتِهِ بِالْبَشَرِ أَنْ أَرْسَلَ إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الكُتُبَ، وَمَا

ذَاكَ إِلَّا رَحْمَةً بِهِمْ، وَهِدَايَةً لَهُمْ، وَقَدْ خَاطَبَ سُبْحَانَهُ خَاتَمَ رُسُلِهِ فَقَالَ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وَمَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الهُدَى وَالشَّرِيعَةِ، وَمَا اتَّصَفَ بِهِ مِنَ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ مَا هُوَ إِلَّا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي أَرْسَلَهُ بِهَا، وَحَضَّهُ عَلَيْهَا؛ وَلِذَلِكَ يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[١].

وَمَظَاهِرُ رَحْمَةِ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ حَفَلَتْ بِهَا سِيرَتُهُ وَامْتَلأَتْ بِهَا شَرِيعَتُهُ، فَرَحِمَ الصَّغِيرَ وَالكَبِيرَ، وَالْقَرِيبَ وَالْبَعِيدَ، وَالمَرْأَةَ وَالضَّعِيفَ، بَلْ شَمِلَتْ رَحْمَتُهُ الحَيَوَانَ وَالجَمَادَ، وَجَاءَ بِشَرِيعَةٍ كُلُّهَا خَيْرٌ وَرَحْمَةٌ لِلْعِبَادِ، وَمَا مِنْ سَبِيلٍ يُوَصِّلُ إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا جَلَّاهُ لِأُمَّتِهِ، وَحَضَّهُمْ عَلَى سُلُوكِهِ، وَمَا مِنْ طَرِيقٍ تُبْعِدُهُمْ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا زَجَرَهُمْ عَنْهَا، وَحَذَّرَهُمْ مِنْهَا؛ رَحْمَةً بِهِمْ، وَشَفَقَةً عَلَيْهِمْ.

وَكَانَ مِنْ رَحْمَتِهِ ﷺ بِأُمَّتِهِ أَنِ اخْتَارَ لَهُمْ مِنَ الشَّرِيعَةِ أَيْسَرَهَا وَأَكْمَلَهَا، وَمِنَ الأَحْكَامِ أَخَفَّهَا وَأَحْكَمَهَا، وَوَصَفَتْهُ عَائِشَةُ رضي الله عنها وَهِيَ أَلْصَقُ النَّاسِ بِهِ، فَقَالَتْ: «**مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[٢].

وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَتْرُكُ العَمَلَ وَهُوَ يُطِيقُهُ، وَيَوَدُّ العَمَلَ بِهِ، مَا يَتْرُكُهُ إِلَّا رَحْمَةً بِأُمَّتِهِ؛ خَشْيَةَ أَنْ يُفْرَضَ عَلَيْهِمْ فَلَا يُطِيقُهُ أَكْثَرُهُمْ، وَمَنْ نَظَرَ فِي سُنَّتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَبَيَّنَ لَهُ ذَلِكَ، وَكَمْ مِنْ مَرَّةٍ قَالَ: لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي

---

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: مسلم في البر والصلة والآداب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها (٢٥٩٩).

(٢) أخرجه البخاري في المناقب، باب صفة النبي ﷺ (٣٣٦٧)، ومسلم في الفضائل، باب مباعدته ﷺ للآثام... (٢٣٢٧).

لَأَمَرْتُهُمْ بِكَذَا وَكَذَا، أَوْ لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى النَّاسِ لَأَمَرْتُهُمْ بِكَذَا، قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**إِنْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيَدَعُ الْعَمَلَ وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ خَشْيَةَ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ النَّاسُ فَيُفْرَضَ عَلَيْهِمْ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٣).

وَفِي قِيَامِ رَمَضَانَ صَلَّى بِأَصْحَابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ثَلَاثَ لَيَالٍ فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الرَّابِعَةُ عَجَزَ المَسْجِدُ عَنْ أَهْلِهِ، فَلَمْ يَخْرُجْ إِلَيْهِمْ حَتَّى خَرَجَ لِصَلَاةِ الصُّبْحِ، فَلَمَّا قَضَى الفَجرَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَتَشَهَّدَ ثُمَّ قَالَ: «**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَخْفَ عَلَيَّ مَكَانُكُمْ، لَكِنِّي خَشِيتُ أَنْ تُفْرَضَ عَلَيْكُمْ فَتَعْجَزُوا عَنْهَا**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٤).

وَكَانَ مِنْ رَحْمَتِهِ بِأُمَّتِهِ أَنَّهُ يَغْضَبُ مِنَ المَسَائِلِ الَّتِي قَدْ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا تَشْرِيعٌ يَشُقُّ عَلَى النَّاسِ، وَيُنْكِرُ عَلَى مَنْ يَسْأَلُهُ مِثْلَ تِلْكَ الأَسْئِلَةِ؛ كَمَا رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: **أَيُّهَا النَّاسُ، قَدْ فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمُ الحَجَّ فَحُجُّوا**، فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ، لَوَجَبَتْ، وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ**، ثُمَّ قَالَ: **ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ، وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٥).

---

(٣) أخرجه البخاري في التهجد، باب تحريض النبي ﷺ على صلاة الليل والنوافل من غير إيجاب (١٠٧٦)، ومسلم في صلاة المسافرين، باب استحباب صلاة الضحى (٧١٨).

(٤) أخرجه من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: البخاري في الجمعة، باب من قال في الخطبة بعد الثناء: أما بعد (٨٨٢)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح (٧٦١).

(٥) أخرجه مسلم في الحج، باب فرض الحج مرة في العمر (١٣٣٧)، والترمذي في العلم، باب في الانتهاء عما نهى عنه رسول الله ﷺ (٢٦٧٩)، والنسائي في مناسك الحج، باب وجوب الحج (٥/ ١١)، وأحمد (٢/ ٢٤٧)، وابن خزيمة (٢٥٠٨)، وابن حبان (٣٧٠٤).

وَبَلَغَ مِنْ شِدَّتِهِ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: «**إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَحُرِّمَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٦).

وَمَا كَانَتْ رَحْمَتُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِأُمَّتِهِ خَاصَّةً بِالدُّنْيَا، بَلْ شَمِلَتْهُمْ فِي الآخِرَةِ، فَأَجَّلَ دَعْوَتَهُ الْمُسْتَجَابَةَ لِأُمَّتِهِ فِي الآخِرَةِ، وَلَمْ يُعَجِّلْهَا لِنَفْسِهِ فِي الدُّنْيَا، كَمَا رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ فَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ دَعَا بِهَا فِي أُمَّتِهِ، فَاسْتُجِيبَ لَهُ، وَإِنِّي أُرِيدُ إِنْ شَاءَ اللهُ أَنْ أُؤَخِّرَ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٧).

قَالَ النَّوَوِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَفِي هَذَا الحَدِيثِ بَيَانُ كَمَالِ شَفَقَةِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى أُمَّتِهِ، وَرَأْفَتِهِ بِهِمْ، وَاعْتِنَائِهِ بِالنَّظَرِ فِي مَصَالِحِهِمُ الْمُهِمَّةِ، فَأَخَّرَ النَّبِيُّ ﷺ دَعْوَتَهُ لِأُمَّتِهِ إِلَى أَهَمِّ أَوْقَاتِ حَاجَاتِهِمْ»(٨).

كَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ شَدِيدَ الرَّحْمَةِ بِالأَطْفَالِ، حَتَّى قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ: «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَرْحَمَ بِالْعِيَالِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٩).

---

(٦) أخرجه من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ: البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه (٦٨٥٩)، ومسلم في الفضائل، باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه أو لا يتعلق به تكليف وما لا يقع، ونحو ذلك (٢٣٥٨).

(٧) أخرجه البخاري في الدعوات، باب لكل نبي دعوة مستجابة (٥٩٤٥)، ومسلم في الإيمان، باب اختباء النبي ﷺ دعوة الشفاعة لأمته (١٩٩).

(٨) شرح النووي على مسلم (٣/ ٧٥).

(٩) أخرجه مسلم في الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك (٢٣١٦)، وأحمد (٣/ ١١٢)، وأبو يعلى (٧/ ٢٠٢)، وابن حبان (٦٩٥٠).

وَلَمَّا نَازَعَتْ ابْنَهُ إِبْرَاهِيمَ رضي الله عنه رُوحُهُ «جَعَلَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَذْرِفَانِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رضي الله عنه: وَأَنْتَ يا رَسُولَ اللَّهِ؟! فَقَالَ: **يَا بنَ عَوْفٍ، إِنَّهَا رَحْمَةٌ.** ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى، فَقَالَ ﷺ: **إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا ما يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٠).

وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «قَدِمَ نَاسٌ مِنَ الْأَعْرَابِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: أَتُقَبِّلُونَ صِبْيَانَكُمْ، فَقَالُوا: نَعَمْ، فَقَالُوا لَكِنَّا وَاللَّهِ مَا نُقَبِّلُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **وَأَمْلِكُ إِنْ كَانَ اللهُ نَزَعَ مِنْكُمْ الرَّحْمَةَ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١١).

وَكَانَ مِنْ رَحْمَتِهِ ﷺ بِالأَطْفَالِ أَنَّهُ يَحْمِلُهُمْ وَيُحَنِّكُهُمْ، وَيُقَبِّلُهُمْ وَيُدَاعِبُهُمْ، وَيَضَعُهُمْ فِي حِجْرِهِ، وَلَا يَتَرَفَّعُ عَنْ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَلَرُبَّمَا بَالَ الصَّبِيُّ فِي حِجْرِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَلَوَّثَ ثِيَابَهُ، فَلَمْ يَغْضَبْ عَلَى مَنْ أَتَى بِهِ، وَلَمْ يَتَبَرَّمْ مِنْ ذَلِكَ، بَلْ يَكْتَفِي بِنَضْحِ ثَوْبِهِ بِالمَاءِ. وَكَانَتْ رَحْمَتُهُ بِالأَطْفَالِ لَا تُفَارِقُهُ حَتَّى وَهُوَ فِي عِبَادَتِهِ، وَمُنَاجَاتِهِ لِرَبِّهِ ﷻ، فَصَلَّى ذَاتَ مَرَّةٍ وَهُوَ حَامِلٌ أُمَامَةَ بِنْتَ زَيْنَبَ ابْنَتِهِ «فَإِذَا سَجَدَ وَضَعَهَا وَإِذَا قَامَ حَمَلَهَا» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١٢).

وَرَوَى شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ رضي الله عنه فَقَالَ: «خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي إِحْدَى

---

(١٠) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه: البخاري في الجنائز، باب قول النبي ﷺ: إنا بك لمحزونون (١٢٤١)، ومسلم في الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك (٢٣١٥)، واللفظ للبخاري.

(١١) أخرجه مسلم في الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك (٢٣١٧)، وابن ماجه في الأدب، باب بر الوالد والإحسان إلى البنات (٣٦٦٥)، وأحمد (٦/ ٧٠)، وابن حبان (٥٥٩٥).

(١٢) أخرجه من حديث أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه: البخاري في سترة المصلي، باب إذا حمل جارية صغيرة على عنقه في الصلاة (٤٩٤)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب جواز حمل الصبيان في الصلاة (٥٤٣).

صَلَاتَي الْعِشَاءِ، وَهُوَ حَامِلٌ حَسَنًا أَوْ حُسَيْنًا، فَتَقَدَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَوَضَعَهُ، ثُمَّ كَبَّرَ لِلصَّلَاةِ فَصَلَّى، فَسَجَدَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ صَلَاتِهِ سَجْدَةً أَطَالَهَا. قَالَ أَبِي: فَرَفَعْتُ رَأْسِي، وَإِذَا الصَّبِيُّ عَلَى ظَهْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَرَجَعْتُ إِلَى سُجُودِي، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الصَّلَاةَ قَالَ النَّاسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ سَجَدْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ صَلَاتِكَ سَجْدَةً أَطَلْتَهَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ قَدْ حَدَثَ أَمْرٌ، أَوْ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْكَ، قَالَ: **كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ، وَلَكِنَّ ابْنِي ارْتَحَلَنِي فَكَرِهْتُ أَنْ أُعَجِّلَهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ**» رَوَاهُ النَّسَائِيُّ(١٣).

وَمِنْ رَحْمَتِهِ بِالنِّسَاءِ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَرَّجَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ حَقَّ الضَّعِيفَيْنِ: الْيَتِيمِ وَالْمَرْأَةِ، وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنِّي لَأَدْخُلُ فِي الصَّلَاةِ وَأَنَا أُرِيدُ إِطَالَتَهَا، فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلَاتِي مِمَّا أَعْلَمُ مِنْ شِدَّةِ وَجْدِ أُمِّهِ مِنْ بُكَائِهِ**»(١٤).

وَكَانَ يَرْحَمُ ضُعَفَاءَ الْمُسْلِمِينَ وَيَزُورُهُمْ وَيَعُودُ مَرْضَاهُمْ وَيَشْهَدُ جَنَائِزَهُمْ.

وَشَمِلَتْ رَحْمَتُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَهْلَ الْحَرْبِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَأَمَرَ

---

(١٣) أخرجه النسائي في التطبيق، باب هل يجوز أن تكون سجدة أطول من سجدة (٢/ ٢٢٩)، وأحمد (٣/ ٤٩٣)، وابن أبي شيبة (٦/ ٣٧٩-٣٨٠)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٩٣٤)، والطبراني في الكبير (٧/ ٢٧٠) رقم (٧١٠٧)، والطحاوي في شرح المشكل (٥٥٨٠)، والبيهقي (٢/ ٢٦٣)، وصححه الحاكم وقال: على شرط الشيخين ولم يخرجاه (٣/ ١٨١).

(١٤) أخرجه من حديث أنس بن مالك ﷺ: البخاري في الجماعة والإمامة، باب من أخف الصلاة عند بكاء الصبي (٦٧٧-٦٧٨)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب الإمام يخفف الصلاة إذا حدث أمر (٩٨٩)، وأبو يعلى (٣١٤٤).
وجاء من حديث أبي قتادة ﷺ عند البخاري في الصلاة، باب إذا حمل جارية صغيرة على عنقه في الصلاة (٤٩٤) وأبي داود في الصلاة، باب تخفيف الصلاة للأمر يحدث (٧٨٩) وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب الإمام يخفف الصلاة إذا حدث أمر (٩٩١).

أَصْحَابَهُ ﷺ فِي مَغَازِيهِمْ أَلَّا يَغُلُّوا وَلَا يَغْدِرُوا وَلَا يَمْثُلُوا وَلَا يَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَأَلَّا يُعَذِّبُوا الأَسْرَى بَلْ يَرْفُقُوا بِهِمْ، وَيُحْسِنُوا إِلَيْهِمْ، وَأَنْ يُحْسِنُوا القِتْلَةَ إِذَا قَتَلُوا.

وَمِنْ صُوَرِ الرَّحْمَةِ الَّتِي طَبَّقَهَا الصَّحَابَةُ ﷺ بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ: مَا رَوَاهُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ الحُبُلِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- فَقَالَ: «كُنَّا فِي البَحْرِ وَعَلَيْنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ قَيْسٍ الفَزَارِيُّ وَمَعَنَا أَبُو أَيُّوبَ الأَنْصَارِيُّ، فَمَرَّ بِصَاحِبِ المَقَاسِمِ وَقَدْ أَقَامَ السَّبْيَ، فَإِذَا امْرَأَةٌ تَبْكِي، فَقَالَ: مَا شَأْنُ هَذِهِ؟ قَالُوا: فَرَّقُوا بَيْنَهَا وَبَيْنَ وَلَدِهَا، قَالَ: فَأَخَذَ بِيَدِ وَلَدِهَا حَتَّى وَضَعَهُ فِي يَدِهَا، فَانْطَلَقَ صَاحِبُ المَقَاسِمِ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ فَأَخْبَرَهُ، فَأَرْسَلَ إِلَى أَبِي أَيُّوبَ فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ وَالِدَةٍ وَوَلَدِهَا فَرَّقَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الأَحِبَّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(١٥).

وَتَعَدَّتْ رَحْمَتُهُ ﷺ بَنِي آدَمَ إِلَى الْحَيَوَانِ، فَنَهَى عَنْ تَصْبِيرِ الْبَهَائِمِ، وَهُوَ أَنْ تُحْبَسَ وَتُتَّخَذَ هَدَفًا يُرْمَى إِلَيْهِ حَتَّى تَمُوتَ؛ فَفِيهِ تَعْذِيبٌ لَهَا(١٦).

وَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي لَأَذْبَحُ الشَّاةَ وَأَنَا أَرْحَمُهَا، أَوْ قَالَ: إِنِّي لَأَرْحَمُ الشَّاةَ أَنْ أَذْبَحَهَا، فَقَالَ: «**وَالشَّاةُ إِنْ رَحِمْتَهَا رَحِمَكَ اللهُ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(١٧).

---

(١٥) أخرجه أحمد واللفظ له (٥/ ٤١٢)، والترمذي في البيوع، باب في كراهية التفريق بين السبي وقال: حسن غريب (١٥٦٦)، والبيهقي (٩/ ١٢٦)، والطبراني في الكبير (٤/ ١٨٢) رقم (٤٠٨٠)، وصححه الحاكم وقال: على شرط مسلم (٢/ ٦٣).

(١٦) كما في حديث أنس ﷺ قال: «نهى النبي ﷺ أن تصبر البهائم» أخرجه البخاري في الذبائح والصيد، باب ما يكره من المثلة والمصبورة والمجثَّمة (٥١٩٤)، ومسلم في الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب النهي عن صبر البهائم (١٩٥٦).
وجاءت أحاديث أخرى في هذا المعنى عن ابن عباس وابن عمر وجابر ﷺ.

(١٧) أخرجه من حديث قرة بن إياس المزني ﷺ: أحمد (٣/ ٤٣٦)، والبخاري في الأدب =

وَمَرَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِحُمَّرَةٍ قَدْ أَخَذُوا وَلَدَهَا، وَهِيَ تُفَرِّشُ بِجَنَاحَيْهَا فِي الأَرْضِ وَجْدًا عَلَيْهِ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بِوَلَدِهَا؟ رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا**»[١٨].

وَمَرَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِبَعِيرٍ قَدْ لَحِقَ ظَهْرُهُ بِبَطْنِهِ فَقَالَ: «**اتَّقُوا اللهَ فِي هَذِهِ البَهَائِمِ المُعْجَمَةِ؛ فَارْكَبُوهَا صَالِحَةً وَكُلُوهَا صَالِحَةً**»[١٩].

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِيَّاكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا ظُهُورَ دَوَابِّكُمْ مَنَابِرَ**»[٢٠].

= المفرد (٣٧٣)، والبزار (٣٣١٩)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١١٠٠)، وابن أبي شيبة (٥/ ٢١٤)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٢٢) رقم (٤٤)، والأوسط (٢٧٣)، وابن أبي الدنيا في العيال (٢٦٠)، وصححه الحاكم (٤/ ٢٥٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: ورجاله ثقات (٤/ ٣٣).

(١٨) أخرجه من حديث عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه ﷺ: أبو داود في الجهاد، باب كراهية حرق العدو بالنار (٢٦٧٥)، وصححه النووي في رياض الصالحين (١٦١٠) وعزاه ابن مفلح في الآداب الشرعية للبخاري في الأدب المفرد، والبيهقي في الدلائل والحاكم والطبراني، ثم قال: وسنده صحيح إن ثبت سماع عبد الرحمن لهذا الحديث من أبيه عبدالله بن مسعود (٣/ ٣٥٤). ونقل الزيلعي عن المنذري قوله: «ذكر البخاري وابن أبي حاتم أن عبد الرحمن بن عبد الله سمع من أبيه، وصحح الترمذي حديثه عنه في جامعه» اهـ من نصب الراية (٣/ ٤٠٧).

(١٩) أخرجه من حديث سهل بن الحنظلية ﷺ: أبو داود في الجهاد، باب ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم (٢٥٤٨)، وأحمد (٤/ ١٨٠، ١٨١)، وصححه ابن خزيمة (٢٥٤٥)، وابن حبان (٥٤٥)، والنووي في رياض الصالحين (٩٦٦)، والألباني في السلسلة الصحيحة (٢٣).

(٢٠) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: أبو داود في الجهاد، باب الوقوف على الدابة (٢٥٦٧)، والبيهقي (٥/ ٢٥٥)، والطبراني في مسند الشاميين (٨٦٧)، والطحاوي في شرح المشكل (٣٨)، وجوّد إسناده النووي في المجموع (٤/ ٣٣١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٢).

قال الخطابي -رحمه الله تعالى-: «قد ثبت عن النبي ﷺ أنه خطب على راحلته واقفًا =

وَمِنْ رَحْمَتِهِ ﷺ بِالجَمَادِ أَنَّهُ كَانَ يَقُومُ يَوْمَ الجُمُعَةِ إِلَى نَخْلَةٍ، فَقَالَ أَحَدُ الأَنْصَارِ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا نَجْعَلُ لَكَ مِنْبَرًا؟ قَالَ: إِنْ شِئْتُمْ، فَجَعَلُوا لَهُ مِنْبَرًا، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الجُمُعَةِ دُفِعَ إِلَى المِنْبَرِ، فَصَاحَتِ النَّخْلَةُ صِيَاحَ الصَّبِيِّ، ثُمَّ نَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَضَمَّهَا إِلَيْهِ تَئِنُّ أَنِينَ الصَّبِيِّ الَّذِي يُسَكَّنُ، قَالَ: **كَانَتْ تَبْكِي عَلَى مَا كَانَتْ تَسْمَعُ مِنَ الذِّكْرِ عِنْدَهَا**»، وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ﵄: «كَانَ المَسْجِدُ مَسْقُوفًا عَلَى جُذُوعٍ مِنْ نَخْلٍ فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا خَطَبَ يَقُومُ إِلَى جِذْعٍ مِنْهَا، فَلَمَّا صُنِعَ لَهُ المِنْبَرُ وَكَانَ عَلَيْهِ، فَسَمِعْنَا لِذَلِكَ الْجِذْعِ صَوْتًا كَصَوْتِ الْعِشَارِ، حَتَّى جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا فَسَكَنَتْ» رَوَاهُ البُخَارِيُّ[(٢١)].

وَمَا نُزُولُ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ المِنْبَرِ، وَإِتْيَانُهُ الجِذْعَ، وَضَمُّهُ وَوَضْعُ يَدَيْهِ عَلَيْهِ حَتَى سَكَنَ إِلَّا رَحْمَةٌ مِنْهُ ﷺ لَهُ.

فَشَمِلَتْ رَحْمَتُهُ ﷺ العَالَمِينَ، فَكَانَ رَحْمَةً لَهُمْ عَلَى مَا أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وَعَلَى مَا وَصَفَهُ بِهِ سُبْحَانَهُ مِنْ أَنَّهُ ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، فَجَزَاهُ اللهُ تَعَالَى عَنْ أُمَّتِهِ خَيْرَ مَا جَزَى نَبِيًّا عَنْ أُمَّتِهِ، وَنَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يُؤْتِيَهُ الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ، وَالدَّرَجَةَ الْعَالِيَةَ الرَّفِيعَةَ، وَأَنْ يَبْعَثَهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدَهُ، كَمَا نَسْأَلُهُ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ أَحْبَابِهِ

= عليها، فدل ذلك على أن الوقوف على ظهورها إذا كان لأرب أو بلوغ وطر لا يدرك مع النزول إلى الأرض مباح جائز، وأن النهي إنما انصرف في ذلك إلى الوقوف عليها لا لمعنى يوجبه، لكن بأن يستوطنه الإنسان ويتخذه مقعدًا فيتعب الدابة ويضر بها من غير طائل» معالم السنن (٢/ ٢٥٣).

(٢١) أخرجه البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٣٩٢)، والبيهقي (٣/ ١٩٥).

وَأَنْصَارِهِ، وَأَنْ يَحْشُرَنَا فِي زُمْرَتِهِ، وَيُدْخِلَنَا الجَنَّةَ مَعَهُ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ تَعَالَى لِي وَلَكُمْ . . .

❁ ❁ ❁

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، نَحْمَدُهُ عَلَى مَا أَنْعَمَ وَأَوْلَى، وَنَشْكُرُهُ عَلَى مَا هَدَى وَأَسْدَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، الْعَبْدُ الْمُصْطَفَى، وَالنَّبِيُّ الْمُجْتَبَى، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- وَأَطِيعُوهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَيُّهَا النَّاسُ: مَعَ كَوْنِ النَّبِيِّ ﷺ رَؤُوفًا رَحِيمًا، وَقَدْ جَعَلَهُ اللهُ تَعَالَى رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ؛ فَإِنَّهُ كَانَ يَضَعُ الرَّحْمَةَ فِي مَوْضِعِهَا اللَّائِقِ بِهَا؛ لِئَلَّا تَتَحَوَّلَ إِلَى ضَعْفٍ وَعَجْزٍ، أَوْ يُفْهَمَ مِنَ التَّخَلُّقِ بِهَا ذَلِكَ، فَلَقَدْ قَاتَلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَنِ اسْتَحَقَّ القِتَالَ مِنَ الْيَهُودِ وَالْمُشْرِكِينَ، وَضَرَبَ بِسَيْفِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَتَلَ أُبَيَّ بْنَ خَلَفٍ بِيَدِهِ، وَأَمَرَ بِقَتْلِ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَمِنَ الْيَهُودِ، وَأَقَامَ الحُدُودَ عَلَى مَنِ انْتَهَكَهَا؛ فَرَجَمَ مَاعِزًا وَالْغَامِدِيَّةَ لَمَّا زَنَيَا، وَقَطَعَ السَّارِقَ، وَقَتَلَ الْمُحَارِبِينَ الْمُرْتَدِّينَ بَعْدَ أَنْ قَطَّعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ مِنْ خِلَافٍ.

وَأَخْبَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ الحُدُودَ إِذَا بَلَغَتِ الْإِمَامَ أَوْ نَائِبَهُ وَجَبَ إِقَامَتُهَا، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**تَعَافُوا الحُدُودَ فِيمَا بَيْنَكُمْ؛ فَمَا بَلَغَنِي مِنْ**

حَدٍّ فَقَدْ وَجَبَ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[٢٢].

وَمَعْنَى الحَدِيثِ: تَجَاوَزُوا عَنْهَا، وَلَا تَرْفَعُوهَا إِلَيَّ؛ فَإِنِّي مَتَى عَلِمْتُهَا أَقَمْتُهَا.

وَرَوَى صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ ﵁ قَالَ: «كُنْتُ نَائِمًا فِي المَسْجِدِ عَلَى خَمِيصَةٍ لِي ثَمَنُ ثَلَاثِينَ دِرْهَمًا، فَجَاءَ رَجُلٌ فَاخْتَلَسَهَا مِنِّي فَأُخِذَ الرَّجُلُ، فَأُتِيَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَمَرَ بِهِ لِيُقْطَعَ، قَالَ: فَأَتَيْتُهُ، فَقُلْتُ: أَتَقْطَعُهُ مِنْ أَجْلِ ثَلَاثِينَ دِرْهَمًا، أَنَا أَبِيعُهُ وَأُنْسِئُهُ ثَمَنَهَا قَالَ: **فَهَلَّا كَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَنِي بِهِ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[٢٣].

وَجَاءَ فِي القُرْآنِ فِي شَأْنِ جَلْدِ الزَّانِيَيْنِ: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور: ٢].

فَعُلِمَ بِهَذِهِ النُّصُوصِ الكَثِيرَةِ أَنَّ الجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَا يَنْتِجُ عَنْهُ مِنْ قَتْلِ المُشْرِكِينَ لَيْسَ مِمَّا يُنَافِي الرَّحْمَةَ، وَأَنَّ إِقَامَةَ الحُدُودِ لَا تُنَافِي الرَّحْمَةَ كَذَلِكَ، بَلْ هِيَ مِنَ الرَّحْمَةِ لِعُمُومِ الْبَشَرِ، وَأَمَّا المَنَاهِجُ الْوَضْعِيَّةُ الْإِلْحَادِيَّةُ الَّتِي سَادَتْ فِي هَذَا الْعَصْرِ فَمَا هِيَ إِلَّا عِقَابٌ لِلضَّحَايَا وَالْأَبْرِيَاءِ، وَعَوْنٌ لِلْمُجْرِمِينَ عَلَى إِجْرَامِهِمْ، وَمُكَافَأَةٌ لِلْمُفْسِدِينَ عَلَى إِفْسَادِهِمْ، وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الخَوْفِ وَالجُوعِ، كَمَا أَنَّ إِقَامَةَ الحُدُودِ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الأَمْنِ وَالرَّخَاءِ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**حَدٌّ يُعْمَلُ فِي الأَرْضِ خَيْرٌ لِأَهْلِ الْأَرْضِ مِنْ أَنْ يُمْطَرُوا أَرْبَعِينَ**

---

(٢٢) أخرجه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﵄: أبو داود في الحدود، باب العفو عن الحدود ما لم تبلغ السلطان (٤٣٧٦)، والنسائي في قطع السارق، باب ما يكون حرزًا أو ما لا يكون (٨/ ٧٠)، والبيهقي (٨/ ٣٣١)، والطبراني في الأوسط (٦٢١٢)، وصححه الحاكم (٤/ ٤٢٤).

(٢٣) أخرجه أبو داود في الحدود، باب من سرق من حرز (٤٣٩٤)، والنسائي في قطع السارق، باب ما يكون حرزًا وما لا يكون (٨/ ٩٦)، والبيهقي (٨/ ٢٦٥)، والطحاوي في شرح المشكل (٦/ ١٦١)، والحاكم (٤/ ٤٢٢)، والضياء المقدسي في المختارة (٨/ ٢٠)، وابن الجارود في المنتقى (٨٢٨)، والدارقطني (٣/ ٢٠٤) رقم (٣٦٢).

صَبَاحًا»، وَفِي رِوَايَةٍ: «**إِقَامَةُ حَدٍّ بِأَرْضٍ خَيْرٌ لِأَهْلِهَا مِنْ مَطَرِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً**» رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ(٢٤).

وَلَا يَجُوزُ لِمُؤْمِنٍ بِاللَّهِ تَعَالَى أَنْ يُعَارِضَ شَرِيعَةَ اللَّهِ تَعَالَى، أَوْ يَدْعُوَ لِتَعْطِيلِ حُدُودِهِ بِدَعْوَى أَنَّ الزَّمَنَ تَغَيَّرَ، أَوْ أَنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُعَارِضُ حُقُوقَ الإِنْسَانِ الَّتِي تَوَاضَعَ الْبَشَرُ عَلَيْهَا فِي هَذَا الْعَصْرِ، فَكُلُّ هَذِهِ الدَّعَاوَى إِثْمٌ وَضَلَالٌ تُوصِلُ أَصْحَابَهَا إِلَى الكُفْرِ بِاللَّهِ تَعَالَى؛ إِذْ فِيهَا مُنَازَعَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى فِي الحُكْمِ وَالتَّشْرِيعِ، وَاللهُ تَعَالَى لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ، وَفِيهَا مُشَاقَّةٌ لِلرَّسُولِ ﷺ فِيمَا قَضَى وَحَكَمَ ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وَكَيْفَ يَزْعُمُ زَاعِمٌ أَنَّ الحُدُودَ الشَّرْعِيَّةَ فِيهَا قَسْوَةٌ وَوَحْشِيَّةٌ لَا تَتَنَاسَبُ مَعَ هَذَا العَصْرِ، وَقَدْ شَرَعَهَا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، وَأَحْكَمُ الحَاكِمِينَ، وَقَضَى بِهَا مَنْ أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ؟! ﴿سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦].

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ، وَاقْبَلُوا عَنِ اللَّهِ تَعَالَى شَرِيعَتَهُ، وَلَا تَلْتَفِتُوا لِأَقْوَالِ الْكَافِرِينَ وَالمُنَافِقِينَ فِيهَا، فَهِيَ الخَيْرُ وَالصَّلَاحُ لِلْعِبَادِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا . . .

❋ ❋ ❋

(٢٤) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: النسائي في قطع السارق، باب الترغيب في إقامة الحد (٨/ ٧٥)، وابن ماجه في الحدود، باب إقامة الحدود (٢٥٣٨)، وأحمد (٢/ ٤٠٢)، وابن المبارك في مسنده (١٥٧)، وصححه ابن حبان (٤٣٩٧)، وابن الجارود (٨٠١)، والرواية الثانية لابن حبان، وقد رواه النسائي موقوفًا ومرفوعًا.

٢٧٤- الخلال النبوية (٣)
واخفض جناحك للمؤمنين

١٠/ ٤/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ، أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِكَمَالِ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنِهَا، وَنَهَاهُ عَنْ سَفَاسِفِهَا وَرَذَائِلِهَا، نَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا، وَنَشْكُرُهُ عَلَى مَا اجْتَبَانَا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ الْعِزُّ إِزَارُهُ، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ، فَمَنْ نَازَعَهُ فِيهِمَا عَذَّبَهُ[١]، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ كَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ: «**سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ**»[٢]، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٢٣].

أَيُّهَا النَّاسُ: تُعْرَفُ أَقْدَارُ الرِّجَالِ بِأَعْمَالِهِمْ، وَيُقَاسُ كِبَارُ النَّاسِ بِأَوْصَافِهِمْ، فَقُوَّةُ الْجَسَدِ يَعْقُبُهَا الْمَرَضُ أَوِ الْهَرَمُ، وَقُوَّةُ الْمَالِ وَالْجَاهِ يَخْلُفُهَا الْمَوْتُ، وَلَا يَبْقَى لِلْعَبْدِ عِنْدَ رَبِّهِ إِلَّا عَمَلُهُ، وَلَا يَذْكُرُهُ النَّاسُ إِلَّا بِوَصْفِهِ، فَإِنْ كَانَ ذَا عَمَلٍ جَلِيلٍ، وَوَصْفٍ نَبِيلٍ؛ أَثْنَى النَّاسُ عَلَيْهِ بِمَا عَلِمُوا مِنْ حَالِهِ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ

(١) كما في حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عند: مسلم في البر والصلة والآداب، باب تحريم الكبر (٢٦٢٠).

(٢) أخرجه من حديث عوف بن مالك رضي الله عنه: أبو داود في الصلاة، باب ما يقرأ الرجل في ركوعه وسجوده (٨٧٣)، والنسائي في التطبيق، باب نوع آخر من الذكر في الركوع (٢/ ١٩١)، والترمذي في الشمائل (٣١٤)، وأحمد (٦/ ٢٤)، وصححه النووي في الأذكار (١٣٣)، وفي خلاصة الأحكام (١٢٥٤)، والألباني في صحيح أبي داود (الأم ٨١٧).

ذَكَرُوهُ بِمَا يَسْتَحِقُّ، وَالْمُؤْمِنُونَ شُهَدَاءُ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْأَرْضِ؛ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ(٣).

وَنَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَدْ كُلِّفَ مِنَ الْأَعْمَالِ أَشَقَّهَا وَأَشْرَفَهَا، وَحَازَ مِنَ الْأَخْلَاقِ أَعْلَاهَا وَأَكْمَلَهَا، حُمِّلَ أَعْظَمَ رِسَالَةٍ وَكُلِّفَ بِتَبْلِيغِهَا، فَحَمَلَهَا وَبَلَّغَهَا، وَأُوذِيَ فِي سَبِيلِهَا؛ فَمَا وَهَنَتْ عَزِيمَتُهُ، وَلَا لَانَتْ عَرِيكَتُهُ.

وَأَمَّا الْأَخْلَاقُ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى وَصْفِ خُلُقِهِ، وَقَدْ كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ؟! وَمَهْمَا تَكَلَّمَ الْمُتَكَلِّمُونَ، وَوَصَفَ الْوَاصِفُونَ فِي خُلُقِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَلَنْ يَفُوهُ حَقَّهُ، وَلَنْ يُدْرِكُوا وَصْفَهُ.

وَالتَّوَاضُعُ، وَخَفْضُ الْجَنَاحِ، وَلِينُ الْجَانِبِ؛ كَانَتْ أَوْصَافًا لَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، تَخَلَّقَ بِهَا امْتِثَالًا لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى حِينَ خَاطَبَهُ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الْحِجْر: ٨٨]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٢١٤، ٢١٥]، وَفِي آيَةٍ ثَالِثَةٍ: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الْإِسْرَاء: ٣٧].

وَأَوْصَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالتَّوَاضُعِ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «جَلَسَ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا مَلَكٌ يَنْزِلُ فَقَالَ جِبْرِيلُ: **إِنَّ هَذَا الْمَلَكَ مَا نَزَلَ مُنْذُ يَوْمِ خُلِقَ قَبْلَ السَّاعَةِ، فَلَمَّا نَزَلَ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ رَبُّكَ، قَالَ: أَفَمَلِكًا نَبِيًّا يَجْعَلُكَ أَوْ عَبْدًا رَسُولًا؟ قَالَ**

---

(٣) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه: البخاري في الشهادات، باب تعديل كم يجوز؟ (٢٤٩٩)، ومسلم في الجنائز، باب فيمن يثنى عليه خير أو شر من الموتى (٩٤٩).

جِبْرِيلُ: **تَوَاضَعْ لِرَبِّكَ يَا مُحَمَّدُ، قَالَ: بَلْ عَبْدًا رَسُولًا»** رَوَاهُ أَحْمَدُ وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ(٤).

فَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَكْثَرَ النَّاسِ تَوَاضُعًا، وَأَخْفَضَهُمْ جَنَاحًا، وَأَلْيَنَهُمْ جَانِبًا، وَسِيرَتُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَلِيئَةٌ بِالمَوَاقِفِ وَالْعِبَرِ فِي هَذَا الْخُلُقِ الْعَظِيمِ.

لَقَدْ أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ بِمَنْزِلَةٍ مَا بَلَغَهَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، فَكَانَ سَيِّدَ الْبَشَرِ، وَأَفْضَلَ الْخَلْقِ، وَخَاتَمَ الرُّسُلِ، وَكَانَ إِذَا أَخْبَرَ عَنْ مَنْزِلَتِهِ تِلْكَ يَقْرِنُ إِخْبَارَهُ بِهَا بِنَفْيِ الْفَخْرِ؛ تَوَاضُعًا لِلَّهِ تَعَالَى، وَإِزْرَاءً بِنَفْسِهِ الشَّرِيفَةِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الحَمْدِ وَلَا فَخْرَ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ آدَمُ فَمَنْ سِوَاهُ إِلَّا تَحْتَ لِوَائِي، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ وَلَا فَخْرَ»** رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ(٥).

وَمِنْ تَوَاضُعِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ كَرِهَ أَنْ يُفَضَّلَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام مَعَ أَنَّهُ سَيِّدُهُمْ وَخَاتَمُهُمْ وَأَفْضَلُهُمْ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **«لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى»** رَوَاهُ الشَّيْخَانِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما(٦).

---

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٢٣١)، وأبو يعلى (٦١٠٥)، وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (١٢٥)، وابن عساكر في تاريخه (٤/ ٧٢)، وصححه ابن حبان (٦٣٦٥).

(٥) أخرجه الترمذي في المناقب، باب في فضل النبي ﷺ، وقال: حسن صحيح (٣٦١٥)، وابن ماجه في الزهد، باب ذكر الشفاعة (٤٣٠٨).
وجاء بنحوه من طرق أخرى عن أبي بكر وجابر وابن عباس وواثلة الليثي رضي الله عنهم.

(٦) أخرجه البخاري في التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصَّفات: ١٣٩]. (٣٢٣١)، ومسلم في الفضائل، باب في ذكر يونس عليه السلام (٢٣٧٧).
وجاء أيضًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند: البخاري في التفسير، باب قوله تعالى: =

وَلمَّا قَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا خَيْرَ الْبَرِيَّهِ، قَالَ ﷺ: «**ذَاكَ إِبْرَاهِيمُ** عليه السلام» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٧).

وَمَا كَانَ يَقْبَلُ حَمِيَّةَ أَحَدٍ لَهُ فِي تَفْضِيلِهِ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْمُرْسَلِينَ عليهم السلام، رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه فَقَالَ: «اسْتَبَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَرَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ، فَقَالَ الْمُسْلِمُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُحَمَّدًا ﷺ عَلَى الْعَالَمِينَ، فِي قَسَمٍ يُقْسِمُ بِهِ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْعَالَمِينَ، فَرَفَعَ الْمُسْلِمُ عِنْدَ ذَلِكَ يَدَهُ فَلَطَمَ الْيَهُودِيَّ، فَذَهَبَ الْيَهُودِيُّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ الَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِهِ وَأَمْرِ الْمُسْلِمِ فَقَالَ: **لَا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٨).

كَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُتَوَاضِعًا فِي لِبَاسِهِ وَمَرْكَبِهِ؛ فَيَلْبَسُ مَا تَيَسَّرَ مِنَ اللِّبَاسِ، وَلَا يَأْنَفُ مِنْ رُكُوبِ الْبِغَالِ وَالْحَمِيرِ، وَلَوْ شَاءَ ﷺ لَلَبِسَ الدِّيبَاجَ وَالْحَرِيرَ، وَلَمَا رَكِبَ إِلَّا أَصِيلَاتِ الْخَيْلِ، كَيْفَ وَأَغْنِيَاءُ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم يَفْدُونَهُ بِأَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ!! كَيْفَ وَقَدْ مَنَّ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ بِالْفُتُوحِ وَسَاقَ إِلَيْهِ أَمْوَالَ الْيَهُودِ وَالْمُشْرِكِينَ!! وَلَكِنَّ تَوَاضُعَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَأْبَى عَلَيْهِ أَنْ يَسِيرَ سِيرَةَ الْمُلُوكِ، أَوْ يَتَخَلَّقَ خُلُقَ الْأَغْنِيَاءِ، أَوْ يَتَزَيَّا بِزِيِّ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَهُوَ الَّذِي اخْتَارَ أَنْ

= ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصَّفات: ١٣٩] (٣٢٣٤)، ومسلم في الفضائل، باب في ذكر يونس عليه السلام (٢٣٧٦).

(٧) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه: مسلم في الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل ﷺ (٢٣٦٩)، وأبو داود في السنة، باب في التخيير بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام (٤٦٧٢)، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة: لم يكن (٣٣٥٢)، والنسائي في الكبرى (١١٦٩٢)، وأحمد (٣/ ١٧٨)، وأبو يعلى (٣٩٤٨).

(٨) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء عليهم السلام، باب ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧] (٣٢٢٧)، ومسلم في الفضائل، باب من فضائل موسى ﷺ (٢٣٧٣).

يَكُونَ عَبْدًا رَسُولًا . رَوَى أَبُو بُرْدَةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- فَقَالَ: «دَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ فَأَخْرَجَتْ إِلَيْنَا إِزَارًا غَلِيظًا مِمَّا يُصْنَعُ بِالْيَمَنِ، وَكِسَاءً مِنَ الَّتِي يُسَمُّونَهَا المُلَبَّدَةَ، قَالَ: فَأَقْسَمَتْ بِاللَّهِ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قُبِضَ فِي هَذَيْنَ الثَّوْبَيْنِ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٩).

قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «كَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَلْبَسُ مَا وَجَدَهُ، فَيَلْبَسُ فِي الْغَالِبِ الشَّمْلَةَ، وَالْكِسَاءَ الْخَشِنَ، وَالْبُرْدَ الْغَلِيظَ»(١٠).

وَرَوَى أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ رضي الله عنهما: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَكِبَ عَلَى حِمَارٍ، عَلَى إِكَافٍ عَلَى قَطِيفَةٍ فَدَكِيَّةٍ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١١).

وَرُبَّمَا أَرْدَفَ بَعْضَ أَزْوَاجِهِ أَوْ أَصْحَابِهِ خَلْفَهُ، وَإِذَا تَلَقَّاهُ الصِّبْيَانُ أَرْدَفَهُمْ مَعَهُ عَلَى دَابَّتِهِ، وَهَذَا مِنْ أَبْيَنِ الدَّلَائِلِ عَلَى تَوَاضُعِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، رَوَى عَبْدُاللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ رضي الله عنهما فَقَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ تُلُقِّيَ بِصِبْيَانِ أَهْلِ بَيْتِهِ، قَالَ: وَإِنَّهُ قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ فَسُبِقَ بِي إِلَيْهِ فَحَمَلَنِي بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ جِيءَ بِأَحَدِ ابْنَيْ فَاطِمَةَ فَأَرْدَفَهُ خَلْفَهُ، قَالَ: فَأُدْخِلْنَا المَدِينَةَ ثَلَاثَةً عَلَى دَابَّةٍ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٢).

وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُتَوَاضِعًا مَعَ أُسْرَتِهِ وَفِي دَاخِلِ بَيْتِهِ، وَيَعْمَلُ أَعْمَالًا يَأْنَفُ مِنْهَا كَثِيرٌ مِنَ الرِّجَالِ، سُئِلَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: «مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَصْنَعُ

---

(٩) أخرجه البخاري في الخمس، باب ما ذكر من ورع النبي ﷺ وعصاه وسيفه وقدحه وخاتمه .... (٢٩٤١)، ومسلم واللفظ له في اللباس والزينه، باب التواضع في اللباس ... (٢٠٨٠).

(١٠) الشفاء في حقوق المصطفى (١/ ٩٥).

(١١) أخرجه البخاري في اللباس، باب الارتداف على الدابة (٥٦١٩)، ومسلم في الجهاد والسير، باب في دعاء النبي ﷺ وصبره على أذى المنافقين (١٧٩٨).

(١٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب فضائل عبد الله بن جعفر رضي الله عنه (٢٤٢٨).

فِي الْبَيْتِ؟ قَالَتْ: كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ، فَإِذَا سَمِعَ الْأَذَانَ خَرَجَ»[١٣]. وَسَأَلَ رَجُلٌ عَائِشَةَ: هَلْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ شَيْئًا؟ قَالَتْ: «نَعَمْ، كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيَخِيطُ ثَوْبَهُ، وَيَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ كَمَا يَعْمَلُ أَحَدُكُمْ فِي بَيْتِهِ» رَوَاهُ أَحْمَدُ[١٤]. وَفِي رِوَايَةٍ قَالَتْ رضي الله عنها: «كَانَ بَشَرًا مِنَ الْبَشَرِ: يَفْلِي ثَوْبَهُ، وَيَحْلُبُ شَاتَهُ، وَيَخْدُمُ نَفْسَهُ»[١٥].

وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُتَوَاضِعًا مَعَ النَّاسِ، وَمِنْ شِدَّةِ تَوَاضُعِهِ أَنَّهُ لَا يُعْرَفُ مِنْ بَيْنِ أَصْحَابِهِ رضي الله عنهم، فَلَا يَتَمَيَّزُ عَلَيْهِمْ بِمَلْبَسٍ أَوْ مَرْكَبٍ أَوْ مَجْلِسٍ، كَمَا هِيَ عَادَةُ الْكُبَرَاءِ وَالْأَغْنِيَاءِ، وَإِذَا جَاءَ الْغَرِيبُ مَا عَرَفَهُ مِنْ بَيْنِهِمْ حَتَّى يَسْأَلَ عَنْهُ؛ كَمَا رَوَى أَبُو ذَرٍّ وَأَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنهما فَقَالَا: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَجْلِسُ بَيْنَ ظَهْرَيْ أَصْحَابِهِ، فَيَجِيءُ الْغَرِيبُ فَلَا يَدْرِي أَيُّهُمْ هُوَ حَتَّى يَسْأَلَ، فَطَلَبْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَجْعَلَ لَهُ مَجْلِسًا يَعْرِفُهُ الْغَرِيبُ إِذَا أَتَاهُ، قَالَ: فَبَنَيْنَا لَهُ دُكَّانًا مِنْ طِينٍ، - وَالدُّكَّان: الدِّكَّةُ الْمَبْنِيَّةُ لِلْجُلُوسِ عَلَيْهَا - فَجَلَسَ عَلَيْهِ، وَكُنَّا نَجْلِسُ بِجَنْبَتَيْهِ . . .» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[١٦].

---

(١٣) أخرجه البخاري في النفقات، باب خدمة الرجل في أهله (٥٠٤٨)، والترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع، باب (٤٥) (٢٤٨٩)، والطيالسي (١٣٨٣)، وأحمد (٦/ ١٢٦).

(١٤) هذه الرواية لأحمد (٦/ ١٠٦)، وعبد الرزاق (٢٠٤٩٢)، وعبد بن حميد (١٤٨٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٥٣٩)، وصححها ابن حبان (٦٤٤٠) .

(١٥) هذه الرواية لأحمد (٦/ ٢٥٦)، وأبي يعلى (٤٨٧٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٥٤١)، والترمذي في الشمائل (٣٤٣)، والطبراني في مسند الشاميين (٢٠٧٨)، وصححها ابن حبان (٥٦٧٥).

(١٦) أخرجه أبو داود في السنة، باب في القدر (٤٦٩٨)، والنسائي في الإيمان وشرائعه، باب صفة الإيمان والإسلام (٨/ ١٠١)، وإسحاق بن راهويه (١٦٥)، وابن منده في الإيمان (١٦٠)، ومحمد بن نصر في تعظيم قدر الصلاة (٣٧٨)، والبزار (٤٠٢٥)، وما بين الحاصرتين في تفسير الدكان ليس من الحديث، وإنما هو مني، وهو في اللسان =

وَمِنْ تَوَاضُعِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ يَكْرَهُ أَنْ يَقُومَ النَّاسُ لَهُ كَمَا هُوَ شَأْنُ أَهْلِ الدُّنْيَا، قَالَ أَنَسٌ ﷺ: «مَا كَانَ شَخْصٌ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ رُؤْيَةً مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانُوا إِذَا رَأَوْهُ لَمْ يَقُومُوا لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ كَرَاهِيَتِهِ لِذَلِكَ» رَوَاهُ أَحْمَدُ(١٧).

وَمِنْ تَوَاضُعِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ يُجِيبُ دَعْوَةَ مَنْ دَعَاهُ وَلَوْ كَانَ فَقِيرًا، وَيَقْبَلُ مِنَ الطَّعَامِ مَا كَانَ يَسِيرًا، وَلَا يَشْتَرِطُ فِي ذَلِكَ، أَوْ يَغْضَبُ مِنْ دَعْوَةٍ يَرَاهَا أَقَلَّ مِنْ حَقِّهِ، كَمَا هُوَ حَالُ كَثِيرٍ مِنَ الْكُبَرَاءِ وَالْأَغْنِيَاءِ، وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقُولُ: «**لَوْ دُعِيتُ إِلَى ذِرَاعٍ أَوْ كُرَاعٍ لَأَجَبْتُ، وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ ذِرَاعٌ أَوْ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١٨).

وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُرَبِّي أَصْحَابَهُ ﷺ عَلَى ذَلِكَ، فَيَقُولُ لَهُمْ: «إِذَا

= (١٢/ ١٥٧) والنهاية لابن الأثير (٢/ ١٢٨).

وهذا كان منه عليه الصلاة والسلام في أول الأمر، فلما احتاج الناس إلى بروزه عليه الصلاة والسلام برز إليهم، ويرى القرطبي استحباب جلوس العالم بمكان يختص به، ويكون مرتفعًا إذا احتاج لذلك لضرورة تعليم ونحوه، ينظر: فتح الباري لابن حجر (١/ ١١٦).

(١٧) أخرجه الترمذي في الأدب، باب ما جاء كراهية قيام الرجل للرجل، وقال: حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه (٢٧٥٤)، وأحمد (٣/ ١٣٢)، وأبو يعلى (٣٧٨٤)، وابن أبي شيبة (٥/ ٢٣٤)، والطبري في تهذيب الآثار (٨٣٤)، والبخاري في الأدب المفرد (٩٤٦)، والضياء في المختارة (١٩٦٠).

(١٨) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: البخاري في الهبة وفضلها، باب القليل من الهبة (٢٤٢٩)، والنسائي في الكبرى (٦٦٠٩)، وأحمد (٢/ ٤٢٤)، وإسحاق بن راهويه (٢٠٤)، وابن حبان (٥٢٩١).

وجاء بنحوه من حديث أنس ﷺ عند: الترمذي في الأحكام، باب ما جاء في قبول الهدية وإجابة الدعوة، وقال: حسن صحيح (١٣٣٨)، وأحمد (٣/ ٢٠٩)، وصححه ابن حبان (٥٢٩٢).

دُعِيتُمْ إِلَى كُرَاعٍ فَأَجِيبُوا» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(١٩)]. وَالْكُرَاعُ مِنَ الدَّابَّةِ: مَا دُونَ الْكَعْبِ[(٢٠)]. وَقَالَ أَنَسٌ رضي الله عنه: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُدْعَى إِلَى خُبْزِ الشَّعِيرِ وَالْإِهَالَةِ السَّنِخَةِ فَيُجِيبُ» رَوَاهُ أَبُو يَعْلَى[(٢١)].

وَلَا يَأْنَفُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنَ الضَّعَفَةِ وَالمَسَاكِينِ، وَلَا يَتَبَرَّمُ مِنْ ذَوِي الْحَاجَاتِ، بَلْ يَسْتَمِعُ إِلَيْهِمْ، وَيَقْضِي حَاجَاتِهِمْ، فَيُجِيبُ السَّائِلَ، وَيُعَلِّمُ الْجَاهِلَ، وَيَدُلُّ التَّائِهَ، وَيَتَصَدَّقُ عَلَى الْفَقِيرِ، وَمَا يَرُدُّ أَحَدًا قَصَدَهُ فِي حَاجَةٍ، وَكَانَ أَصْحَابُهُ رضي الله عنهم يَتَبَرَّكُونَ بِالمَاءِ يَغْمِسُ يَدَهُ الشَّرِيفَةَ فِيهِ، فَمَا يَرُدُّهُمْ، وَلَا يَنْزَعِجُ مِنْ كَثْرَةِ طَلَبِهِمْ، قَالَ أَنَسٌ رضي الله عنه: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا صَلَّى الْغَدَاةَ جَاءَ خَدَمُ المَدِينَةِ بِآنِيَتِهِمْ فِيهَا المَاءُ فَمَا يُؤْتَى بِإِنَاءٍ إِلَّا غَمَسَ يَدَهُ فِيهَا، فَرُبَّمَا جَاءُوهُ فِي الْغَدَاةِ الْبَارِدَةِ فَيَغْمِسُ يَدَهُ فِيهَا» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(٢٢)].

وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه: «أَنَّ امْرَأَةً كَانَ فِي عَقْلِهَا شَيْءٌ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً، فَقَالَ: **يَا أُمَّ فُلَانٍ، انْظُرِي أَيَّ السِّكَكِ شِئْتِ حَتَّى أَقْضِيَ لَكِ حَاجَتَكِ.** فَخَلَا مَعَهَا فِي بَعْضِ الطُّرُقِ حَتَّى فَرَغَتْ مِنْ حَاجَتِهَا» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(٢٣)].

---

(١٩) أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: مسلم في النكاح، باب الأمر بإجابة الداعي إلى الدعوة (١٤٢٩)، وابن حبان (٥٢٩٠).

(٢٠) فتح الباري (٥/ ١٩٩) قال الحافظ: وخص الذراع والكراع بالذكر؛ ليجمع بين الحقير والخطير؛ لأن الذراع كانت أحب إليه من غيرها، والكراع لا قيمه له، وفي المثل: اعط العبد كراعًا يطلب منك ذراعًا.

(٢١) أخرجه أحمد (٣/ ١٠٢)، وأبو يعلى واللفظ له (٤٠١٥)، والبيهقي (٦/ ٣٦).

(٢٢) أخرجه مسلم في الفضائل، باب قرب النبي ﷺ من الناس وتبركهم به (٢٣٢٤)، وعبد بن حميد (١٢٧٤)، والبيهقي في الشعب (١٤٢٩).

(٢٣) أخرجه مسلم في الفضائل، باب قرب النبي ﷺ من الناس وتبركهم به (٢٣٢٦)، وأبو داود في الأدب، باب في الجلوس في الطرقات (٤٨١٨)، وأحمد (٣/ ١١٩).

وَأَخْبَارُ تَوَاضُعِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَثِيرَةٌ، وَسِيرَتُهُ الْعَطِرَةُ مَلِيئَةٌ بِهَا، وَمَا حُفِظَ عَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ تَكَبَّرَ عَلَى أَحَدٍ، أَوْ فَاخَرَ بِنَفْسِهِ أَوْ مَكَانَتِهِ، وَقَدْ نَالَ أَعْلَى المَنَازِلِ، وَحَظِيَ عِنْدَ رَبِّهِ بِأَكْبَرِ المَقَامَاتِ، فَهُوَ صَاحِبُ الْحَوْضِ المَوْرُودِ، وَاللِّوَاءِ المَعْقُودِ، وَالمَقَامِ المَحْمُودِ، وَأُسْرِيَ بِهِ إِلَى السَّمَوَاتِ الْعُلَى حَتَّى بَلَغَ سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى، وبَلَغَ مَقَامًا لَمْ يَبْلُغْهُ مَخْلُوقٌ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ، وَكَلَّمَهُ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ بِلَا وَاسِطَةٍ، وَأَنْعَمَ عَلَيْهِ بِالمُعْجِزَاتِ، وَأَيَّدَهُ بِالْآيَاتِ. وَمَا حَكَا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ الْفَخْرِ أَوِ المَدْحِ لِنَفْسِهِ ﷺ، وَلَا تَعَالَى بِهِ عَلَى النَّاسِ، بَلْ كَانَ التَّوَاضُعُ صِفَتَهُ، وَخَفْضُ الْجَنَاحِ سِمَتَهُ، فَصَلَوَاتُ رَبِّي وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ صَلَاةً وَسَلَامًا دَائِمَيْنِ مَا تَعَاقَبَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ ....

❁ ❁ ❁

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَاعْرِفُوا هَدْيَ نَبِيِّكُمْ ﷺ، وَتَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِهِ؛ فَإِنَّهُ قُدْوَتُكُمْ وَأُسْوَتُكُمْ ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: كَانَ التَّوَاضُعُ سَجِيَّةً لِلنَّبِيِّ ﷺ، مَا كَانَ يَتَكَلَّفُ التَّخَلُّقَ بِهِ، أَوْ يَتَصَنَّعُهُ أَمَامَ النَّاسِ، وَإِلَّا فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ ذَوِي الشَّرَفِ وَالرِّيَاسَةِ يُظْهِرُونَ

التَّوَاضُعَ وَقُلُوبُهُمْ مُتَكَبِّرَةٌ، وَفِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥].

وَفِي أَكْبَرِ المَجَامِعِ الَّتِي تَسْتَخِفُّ النَّفْسَ الْبَشَرِيَّةَ، وَقَدْ تَدْفَعُهَا إِلَى نَوْعٍ مِنَ الْكِبْرِ وَالتَّمَيُّزِ عَلَى النَّاسِ كَانَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا يَزْدَادُ فِيهَا إِلَّا تَوَاضُعًا إِلَى تَوَاضُعِهِ، وَأَعْظَمُ جَمْعٍ حَضَرَهُ فِي حَيَاتِهِ وَخَطَبَ النَّاسَ فِيهِ كَانَ يَوْمَ عَرَفَةَ، وَمَعَ ذَلِكَ بَرَزَ لِلنَّاسِ عَلَى نَاقَتِهِ، وَقَدْ تَوَجَّهَتْ إِلَيْهِ جُمُوعُ الْحَجِيجِ!!

وَانْظُرُوا إِلَى زُعَمَاءِ الدُّنْيَا، وَقَادَةِ النَّاسِ إِذَا وَقَفُوا يَخْطُبُونَ فِي الْجُمُوعِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي تَهْتِفُ لَهُمْ، أَيْنَ يَقِفُونَ؟ وَكَيْفَ يَقِفُونَ؟ وَقَارِنُوا ذَلِكَ بِوُقُوفِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي عَرَفَةَ عَلَى نَاقَتِهِ بِكُلِّ تَوَاضُعٍ وَذُلٍّ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وَمَوَاقِفُ النَّصْرِ وَالْفُتُوحِ تَسْتَبِدُّ بِالْقَادَةِ وَالْفَاتِحِينَ، وَتَسْتَخِفُّ عُقُولَهُمْ، وَتَسْتَوْلِي عَلَى نُفُوسِهِمْ، فَيَكُونُ فِيهَا فَخْرُهُمْ وَعُلُوُّهُمْ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى التَّوَاضُعِ فِيهَا إِلَّا أَقَلُّ الرِّجَالِ، وَمَا حُفِظَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ -رَغْمَ كَثْرَةِ فُتُوحِهِ وَانْتِصَارَاتِهِ- أَنَّهُ تَعَالَى بِنَصْرٍ، وَلَا اسْتَبَدَّ بِهِ فَتْحٌ، بَلْ يَزْدَادُ تَوَاضُعًا إِلَى تَوَاضُعِهِ. وَيَوْمَ الْفَتْحِ الْأَكْبَرِ حِينَ دَخَلَ مَكَّةَ مَنْصُورًا مُؤَزَّرًا دَخَلَهَا وَهُوَ مُطَأْطِئٌ رَأْسَهُ تَوَاضُعًا لِلَّهِ تَعَالَى، حَتَّى إِنَّ رَأْسَهُ لَيَمَسَّ رَحْلَهُ مِنْ شِدَّةِ طَأْطَأَتِهِ، وَلَمَّا هَابَتْهُ الرِّجَالُ فَارْتَعَدُوا أَمَامَهُ هَوَّنَ عَلَيْهِمْ، وَسَكَّنَ مِنْ رَوْعِهِمْ، وَأَزَالَ هَيْبَتَهُ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَأَزْرَى بِنَفْسِهِ الشَّرِيفَةِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

رَوَى أَبُو مَسْعُودٍ الْبَدْرِيُّ رضي الله عنه: «أَنَّ رَجُلًا كَلَّمَ النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ الْفَتْحِ فَأَخَذَتْهُ الرِّعْدَةُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **هَوِّنْ عَلَيْكَ فَإِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ كَانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ**»، وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: «أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ، فَقَالَ لَهُ: **هَوِّنْ عَلَيْكَ؛ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ**

تَأْكُلُ الْقَدِيدَ» رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ(٢٤).

هَكَذَا كَانَ تَوَاضُعُ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَلَا يَمْلِكُ مَنْ يَقْرَأُ سِيرَتَهُ، وَيَطَّلِعُ عَلَى صِفَاتِهِ إِلَّا أَنْ يَمْتَلِئَ قَلْبُهُ بِمَحَبَّتِهِ؛ وَلِذَلِكَ أَحَبَّهُ كَثِيرٌ مِنَ الْكُفَّارِ وَإِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ؛ لِمَا رَأَوْا مِنْ حُسْنِ أَخْلَاقِهِ، وَجَمِيلِ صِفَاتِهِ.

وَالنَّاسُ مَفْطُورُونَ عَلَى مَحَبَّةِ الْمُتَوَاضِعِينَ، وَعَلَى بُغْضِ الْمُتَكَبِّرِينَ، فَإِنْ تَكَبَّرَ عَائِلٌ ضَعِيفٌ؛ ازْدَادَ النَّاسُ لَهُ بُغْضًا وَاحْتِقَارًا وَكَرَاهِيَةً، كَمَا أَنَّهُ إِذَا تَوَاضَعَ سَيِّدٌ كَبِيرٌ؛ عَظُمَ فِي قُلُوبِ النَّاسِ وَأَحَبُّوهُ.

وَنَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ هُوَ سَيِّدُ الْخَلْقِ، وَخَاتَمُ الرُّسُلِ، وَأَعْلَى النَّاسِ مَكَانَةً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَهُوَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَشَدُّ النَّاسِ تَوَاضُعًا لِلَّهِ تَعَالَى، فَحَرِيٌّ أَنْ يَمْلِكَ الْقُلُوبَ، وَأَنْ يُحِبَّهُ كُلُّ الْبَشَرِ إِلَّا الْمُسْتَكْبِرِينَ.

وَحَرِيٌّ بِأَتْبَاعِهِ ﷺ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُتَوَاضِعِينَ؛ اتِّبَاعًا لِهَدْيِهِ، وَتَمَسُّكًا بِسُنَّتِهِ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانُوا مِنْ سَرَاةِ النَّاسِ وَسَادَتِهِمْ.

وَوَاجِبٌ عَلَى مَنْ أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِنِعْمَةِ الْجَاهِ أَوِ المَالِ، فَجَعَلَ حَاجَةَ النَّاسِ إِلَيْهِمْ أَنْ يَقْرَؤُوا مِنَ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ مَا يَتَعَلَّقُ بِجَوَانِبِ التَّوَاضُعِ، وَخَفْضِ

---

(٢٤) أخرجه من حديث قيس بن أبي حازم عن أبي مسعود رضي الله عنه: ابن ماجه في الأطعمة، باب القديد (٣٣١٢)، والخطيب في تاريخه (٦/ ٢٧٧)، وابن عساكر في تاريخه (٤/ ٨٣) وصححه الحاكم وقال: على شرط الشيخين (٣/ ٥٠)، وصححه البوصيري في مصباح الزجاجة (٤/ ١٩).

وأخرجه من حديث قيس بن أبي حازم عن جرير رضي الله عنه: الطبراني في الأوسط (١٢٦٠)، وابن عساكر في تاريخه (٤/ ٨٢)، وصححه الحاكم وقال: على شرط الشيخين (٢/ ٦٠٥).

وأخرجه من حديث قيس بن أبي حازم -رحمه الله تعالى- مرسلًا: ابن سعد في الطبقات (١/ ٢٣)، وهناد في الزهد (٨٠٢)، والخطيب في تاريخه (٦/ ٢٧٨)، وابن عساكر في تاريخه (٤/ ٤٨٥-٨٦)، ورجح الدارقطني في العلل إرساله (٦/ ١٩٥) رقم (١٠٦٣).

الْجَنَاحِ، وَلِينِ الْجَانِبِ؛ لِيَتَعَلَّمُوا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ، وَكَيْفِيَّةَ التَّعَامُلِ مَعَ النَّاسِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ وَاجِبَاتِ الْإِيمَانِ، وَمِنْ شُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْهِمْ.

وَلَا يَحِلُّ لِذِي جَاهٍ أَنْ يَتَكَبَّرَ عَلَى النَّاسِ بِجَاهِهِ وَقَدْ أَعْطَاهُ اللهُ تَعَالَى إِيَّاهُ، وَلَا لِذِي مَالٍ أَنْ يَرَى فِي نَفْسِهِ مَا لَا يَرَى لِلنَّاسِ وَهُوَ لَا يَرْزُقُ نَفْسَهُ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَرْزُقَ غَيْرَهُ، فَإِنْ تَخَلَّقَ بِالْكِبْرِ مَنْ آتَاهُ اللهُ تَعَالَى عُلُومَ الشَّرِيعَةِ فَهُوَ مِنْ أَقْبَحِ النَّاسِ؛ إِذْ لَمْ يَنْفَعْهُ عِلْمُهُ فِي ذَلِكَ، وَكَانَ كَالْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا.

وَمَنْ آتَاهُ اللهُ تَعَالَى نِعْمَةً فَتَرَفَّعُ بِهَا عَلَى النَّاسِ فَقَدْ أَوْبَقَ نَفْسَهُ، وَكَفَرَ نِعْمَةَ رَبِّهِ، وَاللهُ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَسْلُبَهُ مَا أَعْطَاهُ، فَيَصِيرَ بَعْدَ الْعِزِّ إِلَى الذُّلِّ، وَبَعْدَ الْغِنَى إِلَى الْفَقْرِ، مَعَ مَا يَنَالُهُ مِنْ فَرَحِ النَّاسِ عَلَيْهِ، وَشَمَاتَتِهِمْ بِهِ، وَسُخْرِيَتِهِمْ مِنْهُ، وَيَبْقَى لَهُ مَا يَسْتَحِقُّ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ.

فَتَوَاضَعُوا لِلَّهِ تَعَالَى رَبِّكُمْ، وَاخْفِضُوا لِإِخْوَانِكُمْ جَنَاحَكُمْ، وَاحْذَرُوا الْكِبْرَ وَالْمُتَكَبِّرِينَ، وَاسْتَعِيذُوا بِاللَّهِ تَعَالَى مِنْ كِبْرِهِمْ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .

❁ ❁ ❁

٢٧٥- الحسبة والمحتسبون (١)
احتساب الأنبياء عليهم السلام

٢١/١/١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيمِ الْخَبِيرِ؛ أَمَرَ بِالْإِصْلَاحِ وَأَثْنَى عَلَى الْمُصْلِحِينَ، وَنَهَى عَنِ الْفَسَادِ وَذَمَّ الْمُفْسِدِينَ، نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى فَضْلِهِ وَامْتِنَانِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ أَرْسَلَ الرُّسُلَ مُبَشِّرِينَ بِدِينِهِ سُبْحَانَهُ وَبِرَحْمَتِهِ وَثَوَابِهِ، وَمُنْذِرِينَ عَنْ مُخَالَفَةِ أَمْرِهِ، وَالْوُقُوعِ فِي نَهْيِهِ، وَمُحَذِّرِينَ مِنْ شِدَّةِ انْتِقَامِهِ، وَأَلِيمِ عِقَابِهِ ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النِّسَاء: ١٦٥]، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَرْسَلَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى؛ فَاتَّقُوهُ حَقَّ التَّقْوَى، وَاسْتَمْسِكُوا بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى؛ فَتِلْكَ وَصِيَّةُ الرُّسُلِ عليهم السلام إِلَيْكُمْ ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ١٣٢].

أَيُّهَا النَّاسُ: لَمَّا خَلَقَ اللهُ تَعَالَى الْبَشَرَ قَسَمَهُمْ إِلَى فَرِيقَيْنِ: فَرِيقٍ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٍ فِي السَّعِيرِ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [التَّغَابُن: ٢]، وَلَا وُجُودَ لِفَرِيقٍ آخَرَ غَيْرِ هَذَيْنِ الْفَرِيقَيْنِ.

وَفَرِيقُ الْجَنَّةِ هُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَأَتْبَاعُهُمُ الْمُؤْمِنُونَ، وَفَرِيقُ السَّعِيرِ هُمُ الشَّيْطَانُ وَأَتْبَاعُهُ الْكَافِرُونَ، وَفَرِيقُ الْجَنَّةِ يَسْعَى فِي الْأَرْضِ بِالصَّلَاحِ وَالْإِصْلَاحِ، وَفَرِيقُ

السَّعِيرِ يَسْعَى فِيهَا بِالْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ؛ وَلِذَا كَانَ أَكْثَرُ النَّاسِ صَلَاحًا وَإِصْلَاحًا الرُّسُلَ ﷺ؛ لِأَنَّهُمْ أَفْنَوْا أَعْمَارَهُمْ فِي السَّعْيِ بِالصَّلَاحِ، وَمُقَاوَمَةِ الْفَسَادِ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى عَنِ الصَّالِحِينَ مِنْ آلِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٣]، وَقَالَ شُعَيْبٌ وَهُوَ يَحْتَسِبُ عَلَى قَوْمِهِ: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]، وَهَؤُلَاءِ الصَّالِحُونَ مِنَ الْبَشَرِ الَّذِينَ يَحْتَسِبُونَ عَلَى النَّاسِ بِأَمْرِهِمْ بِالمَعْرُوفِ، وَنَهْيِهِمْ عَنِ المُنْكَرِ، وَفَضْحِ المُفْسِدِينَ، وَبَيَانِ فَسَادِهِمْ؛ قَدْ أُمِرْنَا بِالنَّظَرِ فِي سِيَرِهِمْ، وَاتِّبَاعِ هَدْيِهِمْ، وَاقْتِفَاءِ أَثَرِهِمْ فِي الِاحْتِسَابِ عَلَى النَّاسِ، وَالسَّعْيِ بِالْإِصْلَاحِ، وَالْأَخْذِ عَلَى أَيْدِي المُفْسِدِينَ وَالمُفْسِدَاتِ؛ وَذَلِكَ حِينَ ذَكَرَهُمُ اللهُ تَعَالَى مُبَيِّنًا فَضْلَهُمْ وَصَلَاحَهُمْ، وَمَا اخْتُصُّوا بِهِ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ، ثُمَّ ذَيَّلَ سُبْحَانَهُ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وَمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ بِتَدَبُّرٍ، وَاسْتَقْرَأَ أَحْوَالَ الْأَنْبِيَاءِ فِيهِ؛ عَلِمَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ ﷺ إِنَّمَا بُعِثُوا لِلِاحْتِسَابِ عَلَى النَّاسِ، وَمُرَاقَبَةِ أَحْوَالِهِمْ، وَتَقْوِيمِ سُلُوكِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ، وَالْأَخْذِ بِأَيْدِيهِمْ إِلَى مَا يُحِبُّهُ اللهُ تَعَالَى وَيَرْضَاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ، وَرَدِّهِمْ عَمَّا يَضُرُّهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَالمَوْضُوعَاتُ الَّتِي احْتَسَبَ فِيهَا الرُّسُلُ ﷺ عَلَى أَقْوَامِهِمْ شَامِلَةٌ لِمَا يُصْلِحُ الدِّينَ وَالدُّنْيَا، ابْتِدَاءً بِتَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى وَنَبْذِ الشِّرْكِ، وَانْتِهَاءً بِتَقْوِيمِ سُلُوكِ النَّاسِ، وَتَصْحِيحِ مُعَامَلَاتِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ.

لَقَدْ أَمَرُوهُمْ بِكُلِّ مَعْرُوفٍ فِيهِ صَلَاحُ أَحْوَالِهِمْ فِي الدَّارَيْنِ، وَنَهَوْهُمْ عَنْ كُلِّ مُنْكَرٍ يَضُرُّهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

لَقَدِ احْتَسَبَ الرُّسُلُ عَلَى أَقْوَامِهِمْ فِي مَسْأَلَةِ التَّوْحِيدِ، وَهِيَ أَعْظَمُ مَسْأَلَةٍ

وَأَجَلُّهَا، وَحَذَّرُوهُمْ مِنَ الشِّرْكِ وَعَاقِبَتِهِ، وَهُوَ أَخْطَرُ مَعْصِيَةٍ وَأَكْبَرُهَا، وَمَا مِنْ رَسُولٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وَكَانَ احْتِسَابُهُمْ شَامِلًا لِكُبَرَاءِ الْقَوْمِ وَمَلَئِهِمْ، كَمَا شَمِلَ عَامَّةَ النَّاسِ وَضَعَفَتَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ صَلَاحَ النَّاسِ كُلِّهِمْ، وَمِثَالُ ذَلِكَ مِنْ سِيرَتِهِمْ: إِنْكَارُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام عَلَى النُّمْرُودِ بْنِ كَنْعَانَ، وَمُنَاظَرَتُهُ إِيَّاهُ فِي الرُّبُوبِيَّةِ وَالْأُلُوهِيَّةِ، وَإِنْكَارُ مُوسَى عليه السلام عَلَى فِرْعَوْنَ ظُلْمَهُ وَتَعْبِيدَهُ النَّاسَ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَتَحَمَّلَ هَذَانِ النَّبِيَّانِ الْكَرِيمَانِ عليهما السلام فِي سَبِيلِ إِنْكَارِهِمَا عَلَى الطَّاغِيَتَيْنِ مَا تَحَمَّلَا مِنَ الْأَذَى فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى مِمَّا قَصَّهُ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ.

وَأَنْكَرَ مُوسَى عليه السلام عَلَى قَوْمِ فِرْعَوْنَ تَزْوِيرَ الْحَقَائِقِ، وَتَزْوِيقَ الْبَاطِلِ، وَالدَّجَلَ عَلَى النَّاسِ، وَإِضْلَالَ الْعَامَّةِ فَقَالَ لَهُمْ: ﴿أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ [يونس: ٧٧]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾ [طه: ٦١]، فَكَانَ مُوسَى عليه السلام قُدْوَةً لِمَنْ يَتَصَدَّوْنَ لِعُلَمَاءِ السُّوءِ الَّذِينَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ لِإِرْضَاءِ الْبَشَرِ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى، كَمَا كَانَ قُدْوَةً صَالِحَةً لِمَنْ يَفْضَحُونَ الْكُتَّابَ وَالمُفَكِّرِينَ وَالْإِعْلَامِيِّينَ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ الْكَذِبَ، وَيَنْشُرُونَ الضَّلَالَ، وَيَبُثُّونَ الشُّبُهَاتِ، وَيَدْعُونَ إِلَى الشَّهَوَاتِ.

وَكَمْ يُفْتَرَى فِي هَذَا الْعَصْرِ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَتُؤَوَّلُ نُصُوصُهُ لَا لِشَيْءٍ إِلَّا لِمُوَافَقَةِ مَنَاهِجِ الْمُنْحَرِفِينَ الْمُسْتَكْبِرِينَ!! وَكَمْ يُفْتَرَى عَلَى الْمُصْلِحِينَ الْمُحْتَسِبِينَ مِنْ أَكَاذِيبَ كَمَا افْتُرِيَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلُ؟!

وَكَمَا احْتَسَبَ الرُّسُلُ عَلَى كُبَرَاءِ النَّاسِ وَرُؤُوسِهِمْ فَإِنَّهُمْ قَدِ احْتَسَبُوا عَلَى أَهْلِ بُيُوتِهِمْ وَقَرَابَتِهِمْ، فَأَمَرُوهُمْ بِالمَعْرُوفِ، وَنَهَوْهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَمَا كَانُوا عليهم السلام

لِيَحْتَسِبُوا عَلَى النَّاسِ وَيَتْرُكُوا الْمُقَرَّبِينَ مِنْهُمْ!!

هَذَا نُوحٌ عليه السلام يُخَاطِبُ ابْنَهُ وَقَدْ بَدَتْ بَوَادِرُ الْعَذَابِ لِيُنْقِذَهُ مِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ فَيَقُولُ لَهُ: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [هُود: ٤٢].

وَاحْتَسَبَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام عَلَى أَبِيهِ فَخَصَّهُ بِالْخِطَابِ، وَأَكْثَرَ الْقَوْلَ عَلَيْهِ، حَتَّى غَضِبَ أَبُوهُ مِنْهُ وَهَمَّ بِرَجْمِهِ، وَأَمَرَ بِهَجْرِهِ ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ [مَرْيَم: ٤١-٤٦].

وَاحْتَسَبَ إِسْمَاعِيلُ عليه السلام عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، كَمَا ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ [مَرْيَم: ٥٥].

وَاحْتَسَبَ الرُّسُلُ كَذَلِكَ عَلَى عَامَّةِ النَّاسِ، وَأَنْكَرُوا عَلَيْهِمْ مَا سَادَ فِيهِمْ مِنَ الشِّرْكِ وَالمَعَاصِي؛ فَنُوحٌ عليه السلام أَنْكَرَ عَلَى قَوْمِهِ شِرْكَهُمْ، وَإِبْرَاهِيمُ عليه السلام أَنْكَرَ عَلَى قَوْمِهِ اعْتِقَادَهُمْ فِي النُّجُومِ وَفِي أَصْنَامِهِمْ، وَنَاظَرَهُمْ فِي ذَلِكَ، فَأَبْطَلَ حُجَّتَهُمْ، وَبَيَّنَ ضَلَالَهُمْ وَضَلَالَ آبَائِهِمْ، وَأَتْبَعَ الْإِنْكَارَ بِالْقَوْلِ الْإِنْكَارَ بِالْفِعْلِ، فَكَسَّرَ أَصْنَامَهُمْ، وَسَفَّهَ أَحْلَامَهُمْ، وَهَدَمَ مَذَاهِبَهُمْ ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأَنْبِيَاء: ٥٨]. وَلَمَّا جَادَلُوهُ فِي ذَلِكَ أَغْلَظَ فِي الْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ وَقَالَ لَهُمْ: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأَنْبِيَاء: ٦٧].

وَهُودٌ عليه السلام احْتَسَبَ عَلَى قَوْمِهِ، فَأَنْكَرَ عَلَيْهِمُ الشِّرْكَ، كَمَا أَنْكَرَ عَلَيْهِمُ اغْتِرَارَهُمْ بِقُوَّتِهِمْ، وَمُفَاخَرَتَهُمْ بِعُمْرَانِهِمْ، وَتَبَاهِيهِمْ بِأَمْوَالِهِمْ، وَهُمُ الْقَائِلُونَ: ﴿مَنْ

أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فُصِّلَتْ: ١٥]؟ فبيَّنَ لَهُمْ عليه السلام أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَقْوَى مِنْهُمْ، وَحَذَّرَهُمْ مِنْ مَغَبَّةِ عَبَثِهِمْ، وَقَالَ مُنْكِرًا عَلَيْهِمْ: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٢٨-١٣١].

وَاحْتَسَبَ صَالِحٌ عليه السلام عَلَى قَوْمِهِ؛ فَأَنْكَرَ عَلَيْهِمْ شِرْكَهُمْ، وَسَرَفَهُمْ فِي الْعُمْرَانِ عَلَى سَبِيلِ الْأَشَرِ وَالْبَطَرِ وَالرَّفَاهِيَةِ وَالْمُفَاخَرَةِ، فَقَالَ عليه السلام لَهُمْ: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٤٩، ١٥٠]، كَمَا أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ طَاعَةَ أَهْلِ الْفَسَادِ وَالِانْحِرَافِ، فَقَالَ لَهُمْ: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٥١، ١٥٢].

وَأَمَّا قَوْمُ لُوطٍ عليه السلام فَانْتَشَرَتْ فِيهِمُ الْفَوَاحِشُ، وَأَعْلَنُوا بِهَا فِي النَّاسِ، وَأَظْهَرُوهَا فِي مَجَالِسِهِمْ وَنَوَادِيهِمْ، مَعَ شِرْكِهِمْ بِاللَّهِ تَعَالَى؛ فَاحْتَسَبَ لُوطٌ عَلَيْهِمْ، وَأَنْكَرَ شِرْكَهُمْ، وَمَا يَأْتُونَهُ مِنَ الْفَوَاحِشِ ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النَّمْل: ٥٤، ٥٥]، وَكَانُوا يَقْطَعُونَ الطَّرِيقَ عَلَى النَّاسِ لِنَهْبِهِمْ، وَلِفِعْلِ الْفَاحِشَةِ بِهِمْ، فَأَنْكَرَ لُوطٌ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ عليه السلام: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ [الْعَنْكَبُوت: ٢٨، ٢٩].

وَأَمَّا شُعَيْبٌ عليه السلام فَمَعَ إِنْكَارِهِ شِرْكَ قَوْمِهِ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ كَذَلِكَ غِشَّهُمْ فِي الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ، وَبَخْسِ النَّاسِ حُقُوقَهُمْ، فَقَالَ عليه السلام لَهُمْ: ﴿۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٨١-١٨٣]، كَمَا أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ قَطْعَ الطَّرِيقِ لِأَخْذِ أَمْوَالِ

المُسَافِرِينَ بِالْقُوَّةِ، فَقَالَ عليه السلام لَهُمْ: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الْعَنْكَبُوت: ٣٦]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾ [الْأَعْرَاف: ٨٦].

وَكَمَا احْتَسَبَتِ الرُّسُلُ عليهم السلام عَلَى أَقْوَامِهِمْ فَنَهَوْهُمْ عَنْ هَذِهِ المُوبِقَاتِ؛ فَإِنَّهُمُ احْتَسَبُوا عَلَيْهِمْ فِي المَعْرُوفِ فَأَمَرُوهُمْ بِكُلِّ مَا يُرْضِي اللهَ تَعَالَى، وَيُوصِلُ إِلَى جَنَّتِهِ، فَأَمَرُوهُمْ بِشُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى نِعَمِهِ، وَالْإِقْرَارِ بِفَضْلِهِ، وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لَهُ، فَهَذَا هُودٌ وَصَالِحٌ عليهما السلام يَقُولَانِ لِأَقْوَامِهِمَا: ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ [الْأَعْرَاف: ٧٤].

وَمُوسَى عليه السلام قَالَ ذَلِكَ أَيْضًا: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [إِبْرَاهِيم: ٦].

وَأَمَرُوا أَقْوَامَهُمْ بِالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ؛ فَهُودٌ وَصَالِحٌ عليهما السلام قَالَا لِأَقْوَامِهِمَا: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هُود: ٦١]، وَقَالَ شُعَيْبٌ عليه السلام لِقَوْمِهِ: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هُود: ٩٠].

وَمِنِ احْتِسَابِ الرُّسُلِ عَلَى أَقْوَامِهِمْ أَنَّهُمْ نَهَوْهُمْ عَنْ مُتَابَعَةِ المُفْسِدِينَ فِي فَسَادِهِمْ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٤٢].

وَمَا أَشَدَّ غَضَبَ الرُّسُلِ عليهم السلام حِينَ تُنْتَهَكُ حُرُمَاتُ اللَّهِ تَعَالَى! يَغْضَبُونَ غَيْرَةً عَلَى دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا يَغْضَبُونَ لِأَنْفُسِهِمْ أَوْ دُنْيَاهُمْ، فَكَمْ عُذِّبُوا وَأُوذُوا فَلَمْ يَغْضَبُوا، فَإِذَا رَأَوُا المُنْكَرَ فِي أَقْوَامِهِمْ ظَهَرَتْ غَيْرَتُهُمْ عَلَى حُرُمَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُمْ لَهُ سُبْحَانَهُ.

وَلَمَّا أَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَى نُوحٍ عليه السلام أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِهِ إِلَّا الْقَلِيلُ الَّذِي آمَنَ

مَعَهُ دَعَا عَلَيْهِمْ بِالْهَلَاكِ؛ غَيْرَةً لِلَّهِ تَعَالَى، وَانْتِصَارًا لِدِينِهِ ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، وَلَمْ يَكُنْ دُعَاؤُهُ عَلَيْهِمْ بِالْهَلَاكِ انْتِصَارًا لِنَفْسِهِ، أَوِ انْتِقَامًا مِنْهُمْ لمَّا لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ، بِدَلِيلِ أَنَّهُ عَلَّلَ دُعَاءَهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ عليه السلام: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧].

وَلمَّا رَجَعَ مُوسَى عليه السلام مِنْ مِيقَاتِ رَبِّهِ، وَتَكْلِيمِهِ إِيَّاهُ وَجَدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ عَبَدُوا الْعِجْلَ، فَاحْتَمَلَتْهُ الْغَيْرَةُ عَلَى التَّوْحِيدِ حَتَّى رَمَى الْأَلْوَاحَ وَفِيهَا كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى؛ غَضَبًا لِلَّهِ تَعَالَى أَنْ يَخْلُفَهُ هَذَا الْمُنْكَرُ الْعَظِيمُ فِي قَوْمِهِ: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: ١٥٠]، هَكَذَا غَضِبَ كَلِيمُ الرَّحْمَنِ لمَّا رَأَى الْمُنْكَرَ فِي قَوْمِهِ، وَكَمْ مِنْ مُنْكَرَاتٍ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ لَا تُحَرِّكُ قُلُوبَ أَكْثَرِ النَّاسِ!! فَاللهُ الْمُسْتَعَانُ.

وَالرُّسُلُ عليهم السلام قَضَوْا أَعْمَارَهُمْ كُلَّهَا فِي وَظِيفَةِ الِاحْتِسَابِ وَالْإِصْلَاحِ، وَمُقَاوَمَةِ الْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ، حَتَّى مَكَثَ نُوحٌ عليه السلام مُحْتَسِبًا عَلَى قَوْمِهِ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، وَلمَّا أَهْلَكَ اللهُ تَعَالَى الْمُكَذِّبِينَ مَكَثَ مُحْتَسِبًا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مَا شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

وَلْيَعْلَمْ مَنِ احْتَسَبَ عَلَى النَّاسِ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ، أَوْ سَنَةً أَوْ سَنَتَيْنِ ثُمَّ كَفَّ عَنْ ذَلِكَ أَنَّ الرُّسُلَ عليهم السلام مَا تَوَقَّفُوا عَنِ الِاحْتِسَابِ عَلَى النَّاسِ حَتَّى فَارَقُوا الدُّنْيَا.

وَلَقِيَ الرُّسُلُ عليهم السلام فِي سَبِيلِ احْتِسَابِهِمْ أَنْوَاعَ الصُّدُودِ وَالْأَذَى؛ فَنُوحٌ عليه السلام سَخِرَ مِنْهُ قَوْمُهُ، وَنَبَذُوا أَتْبَاعَهُ، وَإِبْرَاهِيمُ عليه السلام أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرُمِيَ هُودٌ عليه السلام بِالْجُنُونِ، وَاتُّهِمَ مُوسَى عليه السلام بِالسِّحْرِ، وَطَارَدَهُ فِرْعَوْنُ وَجُنْدُهُ، وَكَادَ شُعَيْبٌ عليه السلام أَنْ يُرْجَمَ لَوْلَا مَنَعَةُ رَهْطِهِ، وَقُتِلَ زَكَرِيَّا وَيَحْيَى عليهما السلام، وَطُورِدَ الرُّسُلُ وَأَتْبَاعُهُمْ

بِسَبَبِ احْتِسَابِهِمْ عَلَى أَقْوَامِهِمْ، فَتِلْكَ سُنَّةُ اللَّهِ تعَالَى فِي المُحْتَسِبِينَ أَنْ يَنَالَهُمْ مِنَ الْأَذَى عَلَى أَيْدِي المُفْسِدِينَ وَالمُسْتَكْبِرِينَ مَا يَنَالُهُمْ.

وَمِنْ عَادَةِ المُسْتَكْبِرِينَ وَالمُفْسِدِينَ مُحاوَلَةُ إِغْرَاءِ المُحْتَسِبِينَ بِدُنْيَا يَبْذُلُونَهَا لَهُمْ مُقَابِلَ إِيقَافِ احْتِسَابِهِمْ عَلَيْهِمْ، وَإِخْرَاسِ أَصْوَاتِهِمْ، وَشِرَاءِ أَقْلَامِهِمْ. وَمَا كَانَ الرُّسُلُ ﷺ لِيَقْبَلُوا المُسَاوَمَةَ فِي دِينِهِمْ، وَلَا تَرَكُوا الِاحْتِسَابَ لِكَمَالِ دُنْيَاهُمْ بِنَقْصِ دِينِهِمْ، وَكَانَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ ﷺ قُدْوَةً لِلْمُحْتَسِبِينَ فِي ذَلِكَ؛ إِذْ رَفَضَ مُصَانَعَةَ مَلِكَةِ سَبَإٍ لَهُ بِالْهَدِيَّةِ مُقَابِلَ الْكَفِّ عَنِ الِاحْتِسَابِ عَلَيْهَا وَقَوْمِهَا ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ۝٣٦ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [النَّمل: ٣٦، ٣٧].

جَعَلَنَا اللهُ تَعَالَى مِنْ أَتْبَاعِ الرُّسُلِ ﷺ، وَوَفَّقَنَا لِلصَّلَاحِ وَالْإِصْلَاحِ، وَرَزَقَنَا الْإِخْلَاصَ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ تَعَالَى لِي وَلَكُمْ ....

❋ ❋ ❋

الخُطبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البَقَرة: ٢٨١].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: أَنْصَحُ النَّاسِ لِلنَّاسِ هُمْ أَهْلُ الْحِسْبَةِ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيَأْخُذُونَ عَلَى أَيْدِي السُّفَهَاءِ؛ لِأَنَّهُمْ يَحْفَظُونَ الْمُجْتَمَعَاتِ مِنَ الضَّلَالِ وَالِانْحِرَافِ، وَيَمْنَعُونَ تَنَزُّلَ الْعَذَابِ وَالْعُقُوبَاتِ.

وَمَنْ نَظَرَ فِي سِيَرِ الْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام ظَهَرَتْ لَهُ تِلْكَ الْحَقِيقَةُ؛ إِذْ إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ عليهم السلام وَهُمْ يَحْتَسِبُونَ عَلَى أَقْوَامِهِمْ كَانُوا يُعْلِنُونَ فِيهِمْ أَنَّ الدَّافِعَ إِلَى احْتِسَابِهِمْ عَلَيْهِمْ هُوَ النُّصْحُ لَهُمْ لَيْسَ غَيْرَ.

قَالَ نُوحٌ عليه السلام وَهُوَ يَدْعُو قَوْمَهُ: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ [الْأَعْرَاف: ٦٢]، وَقَالَ هُودٌ عليه السلام: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الْأَعْرَاف: ٦٨]، وَقَالَ صَالِحٌ وَشُعَيْبٌ عليهما السلام: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ [الْأَعْرَاف: ٧٩].

وَأَغَشُّ النَّاسِ لِلنَّاسِ، وَأَخْطَرُهُمْ عَلَيْهِمْ: هُمْ مَنْ يَقِفُونَ فِي وَجْهِ أَهْلِ الْحِسْبَةِ، وَيُحِبُّونَ نَشْرَ الْفَاحِشَةِ؛ لِأَنَّهُمْ سَبَبُ انْحِرَافِ النَّاسِ وَضَلَالِهِمْ، وَبِسَبَبِهِمْ تَتَنَزَّلُ الْعُقُوبَاتُ مِنَ السَّمَاءِ، وَكُلُّ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ الَّتِي أُهْلِكَتْ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ وَقَوْمِ هُودٍ وَقَوْمِ صَالِحٍ وَقَوْمِ لُوطٍ وَقَوْمِ شُعَيْبٍ إِنَّمَا أُهْلِكُوا بِسَبَبِ إِصْرَارِ الْمُفْسِدِينَ عَلَى إِفْسَادِهِمْ، وَالْحَيْلُولَةِ بَيْنَ الرُّسُلِ وَبَيْنَ النَّاسِ، وَتَضْيِيقِ مَنَافِذِ الْإِصْلَاحِ وَإِغْلَاقِهَا، مَعَ فَتْحِ أَبْوَابِ الْفَسَادِ عَلَى مَصَارِعِهَا.

وَالْحُجَّةُ الَّتِي يَحْتَجُّ بِهَا أَهْلُ الْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ عَلَى أَفْعَالِهِمُ الْقَبِيحَةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ هِيَ تَوْسِيعُ دَائِرَةِ الْحُرِّيَّاتِ، وَاحْتِرَامُ خُصُوصِيَّاتِ النَّاسِ، وَزَعْمُهُمْ أَنَّ الْحِسْبَةَ تَدَخُّلٌ فِيمَا لَا يَعْنِي، سُبْحَانَ اللَّهِ!! مَا أَضْعَفَ عُقُولَهُمْ! وَمَا أَشَدَّ ضَلَالَهُمْ وَانْحِرَافَهُمْ! إِذْ كَيْفَ تَكُونُ الْحِسْبَةُ تَدَخُّلًا فِيمَا لَا يَعْنِي وَبِسَبَبِهَا يُحْفَظُ الْمُجْتَمَعُ، وَبِزَوَالِهَا يَهْلِكُ النَّاسُ؟!

وَالْحُرِّيَّاتُ الَّتِي يُرِيدُهَا الْمُفْسِدُونَ هِيَ الْحُرِّيَّاتُ الَّتِي تَضْمَنُ لَهُمْ إِلْغَاءَ

الشَّرِيعَةِ، وَتَعْطِيلَ أَحْكَامِهَا، وَالتَّسَلُّط عَلَى عُقُولِ النَّاسِ وَقُلُوبِهِمْ بِأَنْوَاعِ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ؛ لِنَقْلِهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَى الْإِلْحَادِ، وَمِنَ الطُّهْرِ وَالْعَفَافِ إِلَى الْخَنَا وَالِانْحِرَافِ وَالشَّهَوَاتِ، وَمِنْ دَرَجَاتِ الْخَيْرِ وَالْإِحْسَانِ، إِلَى دَرَكَاتِ الشَّرِّ وَالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ.

وَتِلْكَ الْحُجَّةُ السَّمِجَةُ الَّتِي يَحْتَجُّ بِهَا الْمُفْسِدُونَ فِي هَذَا الْعَصْرِ قَدِ احْتَجَّ بِهَا قَبْلَهُمُ الْمُعَذَّبُونَ مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ، فَزَعَمُوا أَنَّ الرُّسُلَ ﷺ يَتَدَخَّلُونَ فِيمَا لَا يَعْنِيهِمْ، وَأَنَّهُمْ يَحُدُّونَ مِنْ حُرِّيَّاتِهِمْ، وَيَنْتَهِكُونَ خُصُوصِيَّاتِهِمْ، فَقَالَ قَوْمُ شُعَيْبٍ لَهُ: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾ [هُود: ٨٧]؛ أَيْ: نُرِيدُ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ، وَنَحْنُ أَحْرَارٌ فِيهَا، فَلِمَاذَا تَأْمُرُنَا وَتَنْهَانَا؟ وَالْمُفْسِدُونَ فِي هَذَا الْعَصْرِ يُكَرِّرُونَ تِلْكَ الْمَقُولَةَ بِهَذِهِ الصُّورَةِ أَوْ بِأُخْرَى، وَيُرِيدُونَ أَنْ يَفْعَلَ النَّاسُ مَا يَشَاءُونَ دُونَ قُيُودٍ أَوْ ضَوَابِطَ دِينِيَّةٍ أَوْ أَخْلَاقِيَّةٍ!!

إِنَّهَا نَفْسُ الْحُجَّةِ الَّتِي احْتَجَّ بِهَا الْأَقْدَمُونَ فَكَانَتْ سَبَبًا فِي هَلَاكِهِمْ، وَهَلَاكِ النَّاسِ مَعَهُمْ.

إِنَّ مَنْ نَظَرَ فِي سِيَرِ الْأَنْبِيَاءِ ﷺ، وَالْمَعَاصِي الَّتِي احْتَسَبُوا عَلَى النَّاسِ فِيهَا، وَنَهَوْهُمْ عَنْهَا، يَجِدُ أَنَّهَا مَعَاصٍ مُتَنَوِّعَةٌ، وَإِنْ كَانَ الشِّرْكُ مَوْجُودًا فِي كُلِّ الْأُمَمِ الَّتِي عُذِّبَتْ؛ وَلِذَا أَمَرَ الرُّسُلُ كُلُّهُمْ بِالتَّوْحِيدِ وَنَهَوْا عَنِ الشِّرْكِ.

وَكُلُّ الْمَعَاصِي الَّتِي سَلَفَتْ فِي الْأُمَمِ الْغَابِرَةِ قَدِ اجْتَمَعَتْ فِي الْحَضَارَةِ الْمُعَاصِرَةِ، وَهِيَ حَرِيَّةٌ بِالْهَلَاكِ وَالْعَذَابِ، مِمَّا يَجْعَلُ التَّبِعَاتِ عَلَى أَهْلِ الْإِيمَانِ كَبِيرَةً فِي إِنْكَارِ هَذِهِ الْمُنْكَرَاتِ الْمُجْتَمِعَةِ؛ رَفْعًا لِلْعَذَابِ، وَإِصْلَاحًا لِلنَّاسِ، وَإِلَّا لَهَلَكُوا بِبَعْضِ هَذِهِ الْمُوبِقَاتِ، فَكَيْفَ إِذَنْ بِجَمِيعِهَا؟!

وَنَجِدُ أَنَّ كُلَّ مَجَالٍ مِنْ مَجَالَاتِ الْمُنْكَرَاتِ قَدِ انْتَشَرَ فِي أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ دُونَ الْأُخْرَى، فَتَصَدَّى لَهُ نَبِيٌّ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى مُنْكِرًا لَهُ، وَمُحْتَسِبًا عَلَى قَوْمِهِ فِيهِ: فَمَثَّلَ احْتِسَابُ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى عليهما السلام عَلَى الطَّاغِيَتَيْنِ الْمُسْتَكْبِرَيْنَ مُقَاوَمَةَ الْفَسَادِ السِّيَاسِيِّ، وَمُكَافَحَةَ الظُّلْمِ وَالطُّغْيَانِ، وَالْوُقُوفَ فِي وُجُوهِ الطُّغَاةِ الْمُتَجَبِّرِينَ، سَوَاءً كَانُوا أَفْرَادًا أَمْ دُوَلًا.

وَمَثَّلَ احْتِسَابُ هُودٍ وَصَالِحٍ عليهما السلام مُقَاوَمَةَ الْفَسَادِ الْعُمْرَانِيِّ وَالْحَضَارِيِّ، وَالنَّهْيَ عَنِ الرَّفَاهِيَةِ وَالسَّرَفِ فِي الْبُنْيَانِ، وَالتَّبَاهِي بِالْقُوَّةِ، وَالْبَطْشِ بِالنَّاسِ.

وَمَثَّلَ احْتِسَابُ لُوطٍ عليه السلام مُقَاوَمَةَ الْفَسَادِ الْأَخْلَاقِيِّ وَالِاجْتِمَاعِيِّ، وَالْمُحَافَظَةَ عَلَى طُهْرِ النَّاسِ وَعَفَافِهِمْ.

وَمَثَّلَ احْتِسَابُ شُعَيْبٍ عليه السلام مُقَاوَمَةَ الْفَسَادِ الِاقْتِصَادِيِّ، وَمُكَافَحَةَ الْغِشِّ فِي الْمُعَامَلَاتِ وَالسَّرِقَةِ بِأَيِّ سَبِيلٍ كَانَ.

كَمَا مَثَّلَ احْتِسَابُ لُوطٍ وَشُعَيْبٍ عليهما السلام مُقَاوَمَةَ الْفَسَادِ الْأَمْنِيِّ الَّذِي هُوَ سَبَبٌ لِلْخَوْفِ وَالْجُوعِ.

فَمَنْ قَاوَمَ فِي هَذَا الْعَصْرِ مَجَالَاتِ الْمُفْسِدِينَ كُلَّهَا، فَأَنْكَرَ عَلَى الْكُفَّارِ كُفْرَهُمْ وَدَعَاهُمْ لِلْإِسْلَامِ، وَأَنْكَرَ عَلَى الْعَاصِينَ مَعْصِيَتَهُمْ وَأَمَرَهُمْ بِالطَّاعَةِ، وَأَنْكَرَ عَلَى الظَّلَمَةِ ظُلْمَهُمْ وَأَمَرَهُمْ بِالْعَدْلِ، وَأَنْكَرَ عَلَى الْمُسْرِفِينَ إِسْرَافَهُمْ، وَعَلَى أَهْلِ الْفَسَادِ الْمَالِيِّ فَسَادَهُمْ، وَعَلَى أَصْحَابِ الْفَوَاحِشِ وَالْمُرَوِّجِينَ لَهَا فُحْشَهُمْ وَفُجُورَهُمْ -وَمَا مِنْ فَسَادٍ إِلَّا وَلَهُ فِيهِ إِنْكَارٌ بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ- فَقَدِ اقْتَدَى بِالْأَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ، وَسَارَ سِيرَتَهُمْ، وَامْتَثَلَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وَكَفَى بِذَلِكَ شَرَفًا وَفَضْلًا.

وَمَنِ اخْتَارَ مَجَالًا مِنْ مَجَالَاتِ الْفَسَادِ، وَاحْتَسَبَ عَلَى النَّاسِ فِيهِ، وَوَقَفَ فِي

وَجْهِ الْمُفْسِدِينَ، وَتَحَمَّلَ السُّخْرِيَةَ وَالْأَذَى فِي سَبِيلِ ذَلِكَ، فَقَدِ اقْتَدَى بِرَسُولٍ مِنْ رُسُلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَشَارَكَ فِي حِفْظِ الْمُجْتَمَعِ مِنَ الِانْحِرَافِ وَالْعَذَابِ.

وَمَنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا وَلَا ذَاكَ، وَلَيْسَ لَهُ فِي مُقَاوَمَةِ الْفَسَادِ وَالْمُفْسِدِينَ أَيُّ نَصِيبٍ، فَقَدْ حُرِمَ خَيْرًا كَثِيرًا، وَسَيُسْأَلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ تَقْصِيرِهِ وَخِذْلَانِهِ.

وَأَقْبَحُ مِنْهُ مَنْ سَلَّ قَلَمَهُ، وَأَطَالَ لِسَانَهُ بِالْكَذِبِ وَالتَّجَنِّي، وَالِافْتِرَاءِ وَالتَّشَفِّي مِنْ أَهْلِ الِاحْتِسَابِ، وَاخْتَلَقَ الْقَصَصَ عَلَيْهِمْ، أَوْ سَمِعَهَا ثُمَّ رَوَّجَهَا فِي الْمَجَالِسِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ صِدْقَهَا، وَلَرُبَّمَا زَادَ عَلَيْهَا مِنْ نَفْسِهِ لِلْإِثَارَةِ وَشَدِّ النَّاسِ إِلَيْهِ، وَكَمْ مِنْ فِرْيَةٍ سُوِّدَتْ بِهَا الصُّحُفُ، وَضَجَّتْ بِهَا الْقَنَوَاتُ وَالْإِذَاعَاتُ عَلَى أَهْلِ الْخَيْرِ وَالِاحْتِسَابِ، وَعِنْدَ التَّتَبُّعِ وَالتَّحْقِيقِ بَانَ أَنَّهَا مَحْضُ افْتِرَاءٍ وَاخْتِلَاقٍ، أَرَادَ مِنْهُ الْمُفْسِدُونَ تَأْلِيبَ الْعَامَّةِ عَلَى أَهْلِ الصَّلَاحِ وَالْإِصْلَاحِ!!

وَمَنْ رَوَّجَ الشَّائِعَاتِ عَلَى أَهْلِ الْحِسْبَةِ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مُشَارِكٌ فِي نَشْرِ الْفَسَادِ وَإِعَانَةِ الْمُفْسِدِينَ، وَأَنَّهُ قَدْ سَارَ مِنْ حَيْثُ يَشْعُرُ أَوْ لَا يَشْعُرُ سِيرَةَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ، وَانْحَازَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَوْ لَا يَعْلَمُ إِلَى صَفِّ الْمُنَافِقِينَ وَالشَّهْوَانِيِّينَ، وَيُخْشَى عَلَى دِينِهِ وَلَوْ كَانَ فِي عِدَادِ الْمُصَلِّينَ.

فَاعْرِفُوا رَحِمَكُمُ اللهُ تَعَالَى مَقَامَ الْحِسْبَةِ مِنَ الدِّينِ، وَاعْلَمُوا أَنَّهَا وَظِيفَةُ الْمُرْسَلِينَ، فَقُومُوا بِهَا، وَأَعِينُوا أَهْلَهَا، وَخُذُوا عَلَى أَيْدِي الْمُفْسِدِينَ؛ طَاعَةً لِلَّهِ تَعَالَى، وَحِفْظًا لِمُجْتَمَعَاتِكُمْ مِنَ الْبَلَاءِ وَالْعُقُوبَةِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا . . .

❁ ❁ ❁

٢٧٦- الحسبة والمحتسبون (٢)
الحسبة فيصل بين الحق والباطل

٢٩/ ٥/ ١٤٢٨هـ

الحَمْدُ لِلَّهِ العَلِيمِ الحَكِيمِ؛ ابْتَلَى عِبَادَهُ فَجَعَلَ لِلْحَقِّ مِنْهُمْ أَنْصَارًا، وَجَعَلَ لِلْبَاطِلِ مِنْهُمْ أَعْوَانًا، وَكَتَبَ الصِّرَاعَ بَيْنَهُمْ فِتْنَةً لَهُمْ وَاخْتِبَارًا ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠]، نَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا، وَنَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَعْطَانَا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ كَتَبَ الْعِزَّ لِمَنْ نَصَرَ دِينَهُ، وَقَضَى بِالذُّلِّ عَلَى مَنْ حَارَبَ شَرِيعَتَهُ ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر: ٥١]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ خَتَمَ اللهُ تَعَالَى بِهِ الرِّسَالَاتِ، فَلَا دِينَ إِلَّا دِينُهُ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ، وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِهِ عَلَى الحَقِّ ظَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ؛ فَإِنَّهَا الأَنِيسُ فِي الغُرْبَةِ، وَالنَّجَاةُ مِنَ الْكُرْبَةِ، وَالجَلِيسُ فِي الْقَبْرِ حِينَ الْوَحْشَةِ ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطَّلاق: ٢، ٣].

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْبَشَرِ تَكْلِيفُهُمْ بِالشَّرَائِعِ، وَمِنْ رَحْمَتِهِ تَعَالَى بِهِمْ هِدَايَتُهُمْ لَهَا، وَدَلَالَتُهُمْ عَلَيْهَا بِمَا أَرْسَلَ لَهُمْ مِنَ الرُّسُلِ، وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْكُتُبِ، فَأَقَامَ بِهَا حُجَّتَهُ عَلَيْهِمْ، وَقَطَعَ أَعْذَارَهُمْ ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ

وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وَالرُّسُلُ ﷺ جَاءُوا أَقْوَامَهُمْ بِمَا لَمْ يَعْهَدُوا، وَنَهَوْهُمْ عَمَّا تَعَوَّدُوا؛ وَلِذَا أَنْكَرَ المُشْرِكُونَ مَا جَاءَتْهُمْ بِهِ رُسُلُهُمْ، وَقَالَ قَائِلُهُمْ: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠]، وَأَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ أَنَّهُمْ قَدَّمُوا مَا تَوَارَثُوهُ عَنْ آبَائِهِمْ عَلَى مَا جَاءَتْهُمْ بِهِ رُسُلُهُمْ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [المائدة: ١٠٤].

إِنَّ الظَّاهِرَ مِنْ أَحْوَالِ المُشْرِكِينَ فِي كُلِّ الأُمَمِ السَّالِفَةِ أَنَّهُمْ مَا رَفَضُوا تَنَسُّكَ الأَنْبِيَاءِ وَتَعَبُّدَهُمْ، وَلَا أَنْكَرُوا عَلَيْهِمْ عَدَمَ مُشَارَكَتِهِمْ فِي شِرْكِهِمْ، وَلَا أَلْزَمُوهُمْ بِعِبَادَةِ أَصْنَامِهِمْ، وَإِنَّمَا أَنْكَرُوا عَلَيْهِمْ أَمْرَهُمْ بِالمَعْرُوفِ الَّذِي رَأْسُهُ تَوْحِيدُ اللَّهِ تَعَالَى، وَنَهْيَهُمْ عَنِ المُنْكَرِ الَّذِي غَايَتُهُ شِرْكُهُمْ بِاللَّهِ تَعَالَى؛ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَا يُسَمَّى فِي الْعَصْرِ الحَاضِرِ بِالحُرِّيَّةِ الدِّينِيَّةِ كَانَ مَوْجُودًا عِنْدَ المُشْرِكِينَ، وَهَذَا مَا لَا يَفْهَمُهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فَيَسْتَغْرِبُونَهُ وَقَدْ يُنْكِرُونَهُ.

إِنَّ الرُّسُلَ ﷺ مَا نَزَلُوا مِنَ السَّمَاءِ، وَلَا جَاءُوا إِلَى الأَرْضِ مِنْ غَيْرِهَا، وَلَا نَزَحُوا إِلَى قَبَائِلِهِمْ مِنْ خَارِجِهَا، بَلْ هُمْ مَنْ صَلِيبَةِ أَقْوَامِهِمْ: وُلِدُوا فِيهِمْ، وَعَاشُوا بَيْنَهُمْ، حَتَّى أَرْسَلَهُمُ اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِمْ، وَقَبْلَ بَعْثِهِمْ أَنْبِيَاءَ كَانُوا يَرَوْنَ أَقْوَامَهُمْ عَلَى الشِّرْكِ، وَمَا كَانَتِ الرُّسُلِ لِتُشْرِكَ بِاللَّهِ تَعَالَى شَيْئًا، وَلَم يُنْقَلْ وُقُوعُ الشِّرْكِ مِنْهُمْ لَا قَبْلَ بَعْثَتِهِمْ وَلَا بَعْدَهَا، وَلَوْ وَقَعَ الشِّرْكِ مِنْهُمْ لَاحْتَجَّ بِهِ المُشْرِكُونَ عَلَيْهِمْ لَمَّا دَعَتْهُمْ رُسُلُهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ، وَلَقَالُوا لَهُمْ: أَتَنْهَوْنَنَا أَنْ نَعْبُدَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مَعَنَا؟ وَلَمَا احْتَاجَ المُشْرِكُونَ إِلَى إِحَالَتِهِمْ عَلَى مَا كَانَ يَعْبُدُ الآبَاءُ[1].

(١) أجمع العلماء على عصمتهم في التبليغ:

قال القاضي عياض -رحمه الله تعالى-: «لا خلاف أنهم معصومون من كتمان الرسالة =

. . . .

= والتقصير في التبليغ» الشفا (٢/ ١٢٦).
وقال الشنقيطي -رحمه الله تعالى-: «واعلم أن جميع العلماء أجمعوا على عصمة الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم- في كل ما يتعلق بالتبليغ» أضواء البيان (٤/ ١٠٥).
ومعصومون أيضًا من الفواحش بالإجماع:
قال القاضي عياض -رحمه الله تعالى-: «أجمع المسلمون على عصمة الأنبياء من الفواحش والكبائر الموبقات» الشفا (٢/ ١٢٦).
وقال الجويني -رحمه الله تعالى-: «وقد اتفقت الأمة على وجوب عصمة الرسل عن الكبائر الواضعة من أقدارهم نحو السرقة والزنا ونحوهما، وهذا أثبت إجماعًا» التلخيص (٢/ ٢٢٧).
وأما عصمتهم من الشرك قبل بعثتهم فهذه المسألة من عويصات المسائل، وهي محل خلاف لا إجماع، على قولين:
القول الأول: أن الرسل ﷺ ليسوا معصومين من الشرك قبل بعثتهم، وأنهم من سائر أقوامهم.
قال أبو بكر بن الطيب -رحمه الله تعالى-: «وقال كثير منهم ومن أصحابنا وأهل الحق: إنه لا تمتنع بعثة من كان كافرًا أو مصيبًا للكبائر قبل بعثته. قال: ولا شيء عندنا يمنع من ذلك على ما نبين القول فيه» تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء (١/ ١٨٦).
وقال الزركشي -رحمه الله تعالى-: «أما قبل النبوة، فقال المازري: لا تشترط العصمة، ولكن لم يرد في السمع وقوعها. وقال القاضي عياض: الصواب عصمتهم قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته، والتشكيك في شيء من ذلك، وقد تعاضدت الأخبار عن الأنبياء بتبرئتهم عن هذه النقيصة منذ ولدوا، ونشأتهم على التوحيد والإيمان. ونقل ابن الحاجب عن الأكثرين عدم امتناعها عقلًا، وأن الروافض ذهبوا إلى امتناعها، ونقله غيره عن المعتزلة؛ لأن ذلك يوجب هضمه واحتقاره، وهو خلاف الحكمة، والأصح قول الأكثرين، ومنهم القاضي؛ لأن السمع لا دلالة له على العصمة قبل البعثة، وأما دلالة العقل فمبنية على فاسد أصلهم في التحسين والتقبيح العقلي ووجوب رعاية الأصلح والمصلحة» البحر المحيط (٦/ ١٣).
وبهذا القول قال شيخ الإسلام ابن تيمية، وانتصر له في تفسير آيات أشكلت (١/ ١٦٠-٢٣٨)، وهو يرى أنه لا مانع من وقوع ذلك، ولا يقدح في نبوتهم، لكنه لم يذكر وقائع =

. . . .

= لذلك، فهو يجوزه عقلًا، ولا يقول بوقوعه منهم ويستدل له بالقرآن.
قال شيخ الإسلام -رحمه الله تعالى-: «وأما العقل: ففيه نزاع، والذي عليه نظار أهل السنة أنه ليس في العقل ما يمنع ذلك، وهذه المسألة تنازع فيها المتأخرون من المنتسبين إلى السنة والحديث، والمعتزلة».
وقال بعد أن ساق الخلاف والأدلة: «المقصود بما ذكر خلاف الناس في هذا الأصل، وأما تحقيق القول فيه: فالله سبحانه إنما يصطفي لرسالته من كان خيار قومه، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ وقال: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ بل قد يبعث النبي من أهل بيت ذي نسب طاهر، كما قال هرقل لأبي سفيان: «كيف نسبه فيكم؟ قال: هو فينا ذو نسب. قال: وكذلك الرسل تبعث في أنساب قومها»، وقد قالوا لشعيب -مع استضعافهم له-: ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾ ومن نشأ بين قوم مشركين جُهَّال لم يكن عليه منهم نقص ولا بغض ولا غضاضة إذا كان على مثل دينهم، إذا كان عندهم معروفًا بالصدق والأمانة، وفعل ما يعرفون وجوبه، واجتناب ما يعرفون قبحه، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾؛ فلم يكن هؤلاء مستوجبين العذاب قبل الرسالة، وإن كان لا هو ولا هم يعلمون ما أرسل به. وفَرْق بين مَنْ يَرْتَكِب ما علم قبحه، وبين مَنْ يفعل ما لم يعرف، فإن هذا الثاني لا يذمونه ولا يعيبونه عليه، ولا يكون ما فعله مما هم عليه منفرًا عنه، بخلاف الأول» اهـ تفسير آيات أشكلت (١/ ١٩٢-١٩٣).
ومن أدلة هذا القول:
١- قوله تعالى: ﴿۞ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨].
٢- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم: ١٣].
قلت: جمع من المفسرين فسروا العود في الآيتين بمعنى الصيرورة، ولو لم يكن النبي على دينهم من قبل، أو قالوا: خطاب للنبي والمراد به قومه الذين أسلموا. وأحسن من ذلك أن يفسر بأن دينهم ترك الأمر والنهي الشرعيين بحيث يعبد من يشاء ما شاء بلا نكير. والرسل قبل البعثة ما كانوا ينكرون الشرك على أقوامهم. ينظر: تفسير البغوي (٣/ ٢٥٨)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٢٦٢)، وتفسير السمعاني (٢/ ١٩٨)، وتفسير ابن عطية (٢/ ٤٢٧)، وتفسير ابن الجوزي (٢/ ١٣٨)، وتفسير العز بن عبد السلام (١/ ٤٩٢)، وتفسير القرطبي =

. . . .

= (٧/ ٢٥٠)، وتفسير البيضاوي (٣/ ٢٤)، وتفسير ابن كثير (٣/ ٤٤٨).
قال ابن عطية: «وعاد: تجيء في كلام العرب على وجهين. أحدهما: عاد الشيء إلى حال قد كان فيها قبل ذلك، وهي على هذه الجهة لا تتعدى فإن عديت فبحرف... والوجه الثاني: أن تكون بمعنى صار وعاملة عملها، ولا تتضمن أن الحال قد كانت متقدمة... فقوله في الآية: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ﴾ وشُعَيْبٌ عليه السلام لم يكن قط كافرًا يقتضي أنها بمعنى صار، وأما في جهة المؤمنين بعد كفرهم فيترتب المعنى الآخر ويخرج عنه شعيب، إلا أن يريدوا عودته إلى حال سكوته قبل أن يبعث» المحرر الوجيز (٢/ ٤٢٧-٤٢٨).
٣- قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشُّورى: ٥٢].
٤- قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضُّحى: ٧]. قال السدي: كان على دين قومه أربعين سنة. تفسير الرازي (٣١/ ١٩٥).
٥- قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].
٦- حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: «رأيت رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه، وإنه لواقف على بعير له بعرفات مع الناس حتى يدفع معهم منها، توفيقًا من الله له» أخرجه أحمد (٤/ ٨٢)، وصححه ابن خزيمة (٣٠٥٧) وفي رواية للبيهقي في الدلائل (٢/ ٣٧): «لقد رأيت رسول الله وهو على دين قومه وهو يقف على بعير له بعرفات... » الحديث.
وهذا الدليل يصلح أن يستدل به أصحاب القولين، فقوله: «وهو على دين قومه» دليل لمن قال بجواز الشرك عليه قبل البعثة، وهذا ضعيف؛ لأنه لم ينقل وقوع ذلك منه، ولا أعلم أحدًا قال بوقوعه منه عليه الصلاة والسلام؛ ولذا قال البيهقي بعد روايته: قلت: قوله: «على دين قومه» معناه: على ما كان قد بقي فيهم من إرث إبراهيم وإسماعيل في حجهم ومناكحهم وبيوعهم دون الشرك؛ فإنه لم يشرك بالله قط. دلائل النبوة (٢/ ٣٧). وكونه لم يقف معهم وجاوز الحرم إلى عرفة وهو من أهل مكة (الحمس) دليل على مخالفته دين المشركين قبل أن يوحى إليه.
على أن هذا الدليل محتمل وليس حجة قاطعة؛ للاحتمال في قوله: «قبل أن ينزل عليه». قال ابن خزيمة في صحيحه: قوله: «قبل أن ينزل عليه» يشبه أن يكون أراد قبل أن ينزل عليه ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ أو من قبل أن ينزل عليه جميع القرآن (٤/ ٣٥٣). =

. . . .

= القول الثاني: أن الرسل معصومون من الشرك قبل البعثة، ونقل الإجماع عليه السيوطي فقال: والأنبياء معصومون من الشرك قبل النبوة وبعدها إجماعًا. الإتقان (١/ ٢٤٠).

ومن الأدلة على عصمتهم:

١- عدم نقل وقوع شيء من الشرك منهم، على كثرة ما حكى الله تعالى عنهم في القرآن، وفيما حكى أحوالهم، ومناظرات أقوامهم معهم، وليس فيها ما يشير إلى وقوع الشرك منهم أو من بعضهم قبل بعثتهم.

٢- قول الله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩] ولا يُصنع موسى على عين الله تعالى ويقع في الشرك، والكلام عنه في طفولته.

٣- قول يوسف عليه السلام: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [يوسف: ٣٨]. والنفي هنا عام.

٤- قوله تعالى ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧٠﴾ [الأعراف: ٧٠]، ولم يقولوا: أتنهوننا أن نعبد ما كنتم تعبدون معنا، مع حاجة المشركين إلى الاحتجاج على الرسل، فلو وقع منهم الشرك لاحتجوا به عليهم.

٥- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧]. فكيف يتصور وقوع الشرك منهم وقد أخذ الميثاق عليهم؟!

٦- حادثة شق الصدر، عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل ﷺ وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه. . .» أخرجه مسلم في الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ (١٦٢).

٧- ما وقع من نهي النبي ﷺ عن الشرك قبل البعثة، عن زيد بن حارثة رضي الله عنه قال: «. . . وكان صنمًا من نحاس يقال له: إساف ونائلة، يتمسح به المشركون إذا طافوا، فطاف رسول الله ﷺ وطفت معه، فلما مَرَرْت مسحت به، فقال رسول الله ﷺ: لا تمسّه، قال زيد: فطفنا، فقلت في نفسي: لأمسنه حتى أنظر ما يقول، فمسحته، فقال رسول الله ﷺ: «ألم تنه؟» قال زيد: فو الذي أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما استلمت صنمًا حتى أكرمه الله بالذي أكرمه، وأنزل عليه الكتاب» أخرجه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم (٣/ ٢٥٩). =

إِنَّ الْمُشْرِكِينَ مَا كَانَوا يُجْبِرُونَ الرُّسُلَ قَبْلَ مَبْعَثِهِمْ عَلَى عِبَادَةِ أَصْنَامِهِمْ وَإِلَّا لَوُجِدَتِ الْعَدَاوَةُ بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ وَبَيْنَ الرُّسُلِ قَبْلَ أَنْ يُبْعَثُوا، وَلَنُقِلَ ذَلِكَ. بَلْ مَا

= قال الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله تعالى-: «من زعم أن النبي ﷺ كان على دين قومه فهو قول سوء، أليس كان لا يأكل ما ذبح على النصب؟!» زاد المسير (٧/ ٢٩٨).
قلت: هذا لا يتناول ما قرره شيخ الإسلام؛ لأنه لا يقول بوقوعه، وإنما يقول بجوازه. وكلام الإمام أحمد فيمن يقول بوقوعه.
قال القاضي عياض: «ولم ينقل أحد من أهل الأخبار أن أحدًا نُبِّئَ واصْطُفِيَ ممن عرف بكفر وإشراك قبل ذلك، ومستند هذا الباب النقل، وقد استدل بعضهم بأن القلوب تنفر عَمَّن كانت هذه سبيله، وأنا أقول: إن قريشًا قد رمت نبيَّنا بكل ما افترته، وعَيَّرَ كفارُ الأمم أنبياءَهَا بكل ما أمكنها واختلقته، مما نص الله تعالى عليه، أو نقلته إلينا الرواة، ولم نجد في شيء من ذلك تعييرًا لواحد منهم برفضه آلهته، وتقريعه بذمه بترك ما كان قد جامعهم عليه، ولو كان هذا لكانوا بذلك مبادرين، ويتلونه في معبوده محتجّين، ولكان توبيخهم له بنهيهم عما كان يعبد قبل أفظع وأقطع في الحجة من توبيخه بنهيهم عن تركهم آلهتهم وما كان يعبد آباؤهم من قبل، ففي إطباقهم على الإعراض عنه دليل على أنهم لم يجدوا سبيلًا إليه؛ إذ لو كان لنقل وما سكتوا عنه كما لم يسكتوا عند تحويل القبلة وقالوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢] كما حكاه الله عنهم» الشفا (٢/ ٢٠٩-٢١٠)، وعنه القرطبي في تفسيره (١٦/ ٥٦).
وقال الذهبي -رحمه الله تعالى-: «والذي لا ريب فيه أنه كان معصومًا قبل الوحي وبعده وقبل التشريع من الزنى قطعًا، ومن الخيانة والغدر والكذب والسكر والسجود لوثن والاستقسام بالأزلام، ومن الرذائل والسفه وبذاء اللسان وكشف العورة، فلم يكن يطوف عريانًا، ولا كان يقف يوم عرفة مع قومه بمزدلفة. بل كان يقف بعرفة. وبكل حال لو بدا منه شيء من ذلك لما كان عليه تبعة؛ لأنه كان لا يعرف، ولكن رتبة الكمال تأبى وقوع ذلك منه ﷺ تسليمًا» سير أعلام النبلاء (١/ ١٣١).
وقال الشنقيطي: «فإن كان كُفرًا فقد أجمعت الأُمَّة على عِصْمَتِهم منه قبل النبُوَّة وبعدها، وإن كان غيره فالجمهور على عِصْمَتهم مِن الكبائر عَمدًا» أضواء البيان (٤/ ١١٨).
والنفس تميل إلى القول الثاني، وتطمئن إليه، وهو أن الرسل ﷺ عُصِمُوا من الشرك قبل البعثة وبعدها، خلافًا لقول أبي بكر بن الطيب والمازري وابن تيمية رحمهم الله تعالى. والله أعلم.

حَكَاهُ القُرْآنُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الرُّسُلَ كَانُوا عَلَى وِفَاقٍ مَعَ أَقْوَامِهِمْ قَبْلَ أَنْ يَأْمُرُوهُمْ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْهُمْ عَنِ المُنْكَرِ، وَمِنْ أَدِلَّةِ ذَلِكَ قَوْلُ قَوْمِ صَالِحٍ عليه السلام: ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦٢].

فَهَذِهِ تَزْكِيَةٌ مِنْهُمْ لِصَالِحٍ عليه السلام، وَثَنَاءٌ عَلَيْهِ إِلَى أَنْ أَمَرَهُمْ وَنَهَاهُمْ، فَرَفَضُوهُ، وَتَنَكَّرُوا لَهُ، وَانْقَلَبُوا عَلَيْهِ.

وَنَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَحْكِي سِيرَتُهُ الخَالِدَةُ أَنَّهُ اجْتَنَبَ المُشْرِكِينَ وَمَا يَعْبُدُونَ، وَكَانَ يَتَعَبَّدُ لِلَّهِ تَعَالَى فِي غَارِ حِرَاءٍ، وَمَا نُقِلَ أَنَّ المُشْرِكِينَ أَنْكَرُوا ذَلِكَ عَلَيْهِ، أَوْ ضَايَقُوهُ فِي عِبَادَتِهِ، أَوْ أَلْزَمُوهُ بِشِرْكِهِمْ. بَلْ كَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَحَلَّ إِعْجَابِهِمْ وَثَنَائِهِمْ، وَمَوْضِعَ تَقْدِيرِهِمْ وَثِقَتِهِمْ؛ حَتَّى إِنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَوْدِعُونَهُ أَمَانَاتِهِمْ، وَيُحَكِّمُونَهُ بَيْنَهُمْ، وَلَقَّبُوهُ بِالأَمِينِ.

وَكَانَ فِي مَكَّةَ قَبْلَ المَبْعَثِ بَعْضُ الحُنَفَاءِ الَّذِينَ بَقُوا عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام، وَمِنْهُمْ مَنْ تَنَصَّرَ وَقَرَأَ الإِنْجِيلَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ كَوَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ(٢)، وَمَا عُرِفَ أَنَّ أَهْلَ الشِّرْكِ مِنْ كِبَارِ قُرَيْشٍ كَانُوا يُؤْذُونَهُمْ، أَوْ يُجْبِرُونَهُمْ عَلَى الشِّرْكِ، أَوْ يَحُولُونَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عِبَادَتِهِمْ.

كُلُّ هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ المُشْرِكِينَ كَانُوا يَتَحَلَّوْنَ بِمَا يُسَمَّى فِي هَذَا العَصْرِ بِالحُرِّيَّةِ الدِّينِيَّةِ، وَمَا نَقَمُوا عَلَى مَنْ يُوَحِّدُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يُوَحِّدَهُ إِذَا لَمْ يَأْمُرْهُمْ أَوْ يَنْهَهُمْ، كَمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الَّذِي نَقَمَهُ المُشْرِكُونَ مِنْ رُسُلِهِمْ، وَعَارَضُوهُمْ فِيهِ، وَآذَوْهُمْ مِنْ أَجْلِهِ هُوَ مَا يُسَمَّى فِي هَذَا العَصْرِ بِالتَّدَخُّلِ فِي الخُصُوصِيَّاتِ، وَهِيَ

(٢) جاء ذلك في حديث عائشة رضي الله عنها عند: البخاري في بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣).

الَّتِي أَمَرَ الشَّارِعُ الحَكِيمُ رُسُلَهُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أَنْ يَتَدَخَّلُوا فِيهَا بِالأَمْرِ وَالنَّهْيِ، فَيَأْمُرُوهُمْ بِكُلِّ مَعْرُوفٍ، وَيَنْهَوْهُمْ عَنْ كُلِّ مُنْكَرٍ، وَقَدْ أَنْكَرَ المُشْرِكُونَ هَذَا الأَمْرَ وَالنَّهْيَ بِشِدَّةٍ، وَحَارَبُوا رُسُلَهُمْ مِنْ أَجْلِهِ، قَالَ قَوْمُ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُ: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾ [هود: ٨٧].

فَهُمْ مَا نَقَمُوا عَلَيْهِ إِلَّا تَدَخُّلَهُ فِي خُصُوصِيَّاتِهِمْ، وَتَقْيِيدَهُ لِحُرِّيَّاتِهِمْ فِي عِبَادَاتِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَهَذَا مَا يَرَى المُشْرِكُونَ أَنَّهُ عَيْنُ الإِفْسَادِ لِأَقْوَامِهِمْ، كَمَا قَالَ فِرْعَوْنُ أَخْزَاهُ اللهُ تَعَالَى: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

إِنَّ الاِحْتِسَابَ عَلَى النَّاسِ، وَأَمْرَهُمْ بِالمَعْرُوفِ، وَنَهْيَهُمْ عَنِ المُنْكَرِ، هُوَ دِينُ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَهُوَ سَبَبُ الْعَدَاوَةِ بَيْنَ أَهْلِ الْحَقِّ وَأَهْلِ الْبَاطِلِ مُنْذُ أَنْ وُجِدَ عَلَى الأَرْضِ حَقٌّ وَبَاطِلٌ، وَأَهْلُ الْحِسْبَةِ مِنَ الْآمِرِينَ بِالمَعْرُوفِ النَّاهِينَ عَنِ المُنْكَرِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ هُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ، وَالمُعَارِضُونَ لِلْحِسْبَةِ وَالأَمْرِ وَالنَّهْيِ الشَّرْعِيَّيْنِ هُمْ أَتْبَاعُ المُشْرِكِينَ، أَعْدَاءُ المُرْسَلِينَ، أَوْ فِيهِمْ شَبَهٌ بِهِمْ.

وَمَنْ نَظَرَ فِي سِيرَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَاطَّلَعَ عَلَى أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ عَلِمَ أَنَّهُ إِنَّمَا جَاءَ بِالِاحْتِسَابِ عَلَى النَّاسِ، وَغَرَضُ احْتِسَابِهِ عَلَيْهِمْ إِصْلَاحُ أَحْوَالِ مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ؛ وَذَلِكَ بِإِصْلَاحِ عَقَائِدِهِمْ وَتَطْهِيرِهَا مِنْ أَدْرَانِ الشِّرْكِ إِلَى التَّوْحِيدِ، وَإِصْلَاحِ عِبَادَاتِهِمْ بِتَنْقِيَتِهَا مِنْ أَوْضَارِ الْبِدَعِ وَالخُرَافَاتِ، وَإِصْلَاحِ مُعَامَلَاتِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ بِتَخْلِيصِهَا مِنْ كُلِّ مَا يُوجِبُ الظُّلْمَ وَالْفَسَادَ.

وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِأَمْرٍ وَنَهْيٍ وَتَدَخُّلٍ فِيمَا يُسَمَّى بِالخُصُوصِيَّاتِ، وَذَلِكَ هُوَ مُقْتَضَى كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ، وَلَازِمُ شَهَادَةِ الحَقِّ بِأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ

اللَّهِ، وَلَا يَكُونُ اللهُ تَعَالَى مَعْبُودًا لِلنَّاسِ لَا شَرِيكَ لَهُ حَتَّى يَخْضَعُوا لِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَلَا يَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَتْبُوعًا إِلَّا بِطَاعَتِهِ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ.

وَرَسُولُنَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمْ يَجْعَلِ الِاحْتِسَابَ عَلَى النَّاسِ مِنَ انْتِهَاكِ الخُصُوصِيَّاتِ، أَوْ مِنَ التَّدَخُّلِ فِيمَا لَا يَعْنِي، بَلْ جَعَلَهُ مِنَ الدِّينِ وَمِنَ التَّدَخُّلِ فِيمَا يَعْنِي، وَأَخْبَرَنَا بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ أَنَّ الِاحْتِسَابَ عَلَى النَّاسِ، وَأَمْرَهُمْ بِالمَعْرُوفِ، وَنَهْيَهُمْ عَنِ المُنْكَرِ، هُوَ مِنَ الخَيْرِيَّةِ الَّتِي فُضِّلَتْ بِهَا هَذِهِ الأُمَّةُ ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وَأَمَرَنَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِذَلِكَ فَقَالَ: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه(٣).

وَعَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- قَالَ: قَرَأَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، قَالَ: «إِنَّ النَّاسَ يَضَعُونَ هَذِهِ الآيَةَ عَلَى غَيْرِ مَوْضِعِهَا، **أَلَا وَإِنِّي** سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ - أَوْ قَالَ: المُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ- عَمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابِهِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ(٤).

---

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان، باب كون النهي عن المنكر من الإيمان (٤٩)، وأبو داود في الصلاة، باب الخطبة يوم العيد (١١٤٠)، والنسائي في الإيمان وشرائعه، باب تفاضل أهل الإيمان (٨/ ١١)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في صلاة العيدين (١٢٧٥)، وأحمد (٣/ ١٠).

(٤) أخرجه أبو داود في الملاحم، باب الأمر والنهي (٤٣٣٨)، والترمذي في الفتن، باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر، وقال: حديث صحيح (٢١٦٨)، وابن ماجه في الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤٠٠٥)، وأحمد (١/ ٥)، وأبو يعلى =

وَفِي حَدِيثِ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَا مِنْ رَجُلٍ يَكُونُ فِي قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالمَعَاصِي، يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يُغَيِّرُوا عَلَيْهِ فَلَا يُغَيِّرُوا، إِلَّا أَصَابَهُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَمُوتُوا**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(٥).

فَهَلْ نُطِيعُ فِي هَذَا الأَمْرِ الْعَظِيمِ رَبَّنَا جَلَّ جَلَالُهُ، وَنُطِيعُ رَسُولَنَا الَّذِي أُمِرْنَا بِاتِّبَاعِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أَمْ نُطِيعُ ثُلَّةً مِنْ مُنْحَرِفِي الْإِعْلَامِ وَالصَّحَافَةِ، تَارِيخُهُمْ حَافِلٌ بِتَرْوِيجِ التَّخَلُّفِ وَالِانْحِلَالِ وَالضَّيَاعِ، وَمُحَارَبَةِ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ ﷺ مِنَ الهُدَى وَالنُّورِ وَالرَّشَادِ؟! نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَكْفِيَ الْمُسْلِمِينَ شَرَّهُمْ، وَأَنْ يَشْغَلَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٤، ١٠٥].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ . . .

❋ ❋ ❋

= (١٣١)، وعبد بن حميد (١) وصححه ابن حبان (٣٠٥)، والنووي في رياض الصالحين (٧٠).
ونقل ابن أبي حاتم في العلل عن أبي زرعة الرزاي -رحمه الله تعالى- قوله: «وقد وقفه ابن عيينة ووكيع ويحيى بن سعيد والقطان وإسماعيل ويونس بن أبي إسحاق، ورواه يونس عن طارق بن بيان بن بشر عن قيس عن أبي بكر، موقوف، ورواه الحكم عن قيس عن أبي بكر، موقوف، قال أبو زرعة: وأحسب إسماعيل بن أبي خالد كان يرفعه مرة ويوقفه مرة» (٢/ ٩٨)، وأطال الخطيب البغدادي في ذكر طرقه، وبيان من وقفه ومن رفعه في الفصل للوصل المدرج (١/ ١٣٩-١٤٥).

(٥) أخرجه أبو داود في الملاحم، باب الأمر والنهي (٤٣٣٩)، وابن ماجه في الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤٠٠٩)، وأحمد (٤/ ٣٦٤)، وسعيد بن منصور (٨٤١)، والبيهقي (١٠/ ٩١) وصححه ابن حبان (٣٠٢).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ؛ وَفَّقَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ لِفِعْلِ الخَيْرَاتِ وَتَرْكِ المُنْكَرَاتِ، فَكَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا، وَعَمَلُهُمْ مَأْجُورًا، نَحْمَدُهُ حَمْدَ الشَّاكِرِينَ، وَنَسْتَغْفِرُهُ اسْتِغْفَارَ المُذْنِبِينَ، وَنَسْأَلُهُ مِنْ فَضْلِهِ الْعَظِيمِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَرْسَلَهُ بِالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَأَخْلِصُوا لَهُ دِينَكُمْ، وَاسْتَسْلِمُوا لِأَمْرِهِ، وَاجْتَنِبُوا نَهْيَهُ، وَاحْذَرُوا عِقَابَهُ ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: لَا يُسْتَغْرَبُ عَلَى دُعَاةِ الْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ وَالِانْحِلَالِ، وَخَفَافِيشِ التَّخَلُّفِ وَالظَّلَامِ وَالضَّيَاعِ فِي هَذَا الْعَصْرِ مِنَ المُنَافِقِينَ وَالشَّهْوَانِيِّينَ؛ حَمْلَتُهُمُ المَسْعُورَةُ عَلَى الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، وَمُحَاوَلَةُ إِبْطَالِهِ فِي الأُمَّةِ، وَتَقْرِيرُ مَذْهَبِ أَئِمَّةِ الشِّرْكِ المُتَقَدِّمِينَ وَالمُتَأَخِّرِينَ فِي الحُرِّيَّةِ الدِّينِيَّةِ، وَمُطَالَبَتُهُمْ بِعَدَمِ التَّدَخُّلِ فِيمَا يُسَمُّونَهُ الخُصُوصِيَّاتِ، مَعَ سَعْيِهِمُ الجَادِّ فِي نَشْرِ المُنْكَرَاتِ بِكُلِّ وَسِيلَةٍ، وَالأَمْرِ بِهَا، وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهَا، وَالنَّهْيِ عَنِ المَعْرُوفِ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ عليهم السلام مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَا هُمْ إِلَّا المَذْكُورُونَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].

إِنَّ الْوَاحِدَ مِنَ المُؤْمِنِينَ لَوْ أَمَرَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ لَزَلَقُوهُ بِأَبْصَارِهِمْ،

وَسَلَقُوهُ بِأَلْسِنَتِهِمْ، وَرَمَوْهُ بِالتَّدَخُّلِ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ، وَاحْتَجُّوا عَلَيْهِ بِأَنَّ لِهَذِهِ المُهِمَّةِ جِهَةً مَسْئُولَةً وَهُوَ يَنْتَهِكُ تَخَصُّصَهَا، وَيَتَدَخَّلُ فِي عَمَلِهَا.

ثُمَّ إِذَا هُمْ لَا يَحْتَرِمُونَ هَذِهِ الجِهَةَ المَسْئُولَةَ، وَلَا يَتْرُكُونَهَا لِتَقُومَ بِعَمَلِهَا، بَلْ يُحَارِبُونَهَا سِرًّا وَعَلَانِيَةً، وَيُنَفِّرُونَ النَّاسَ مِنْهَا، وَيَفْتَرُونَ الْكَذِبَ عَلَيْهَا، وَيُضَخِّمُونَ أَخْطَاءَهَا، وَيُظْهِرُونَ مَعَايِبَهَا، وَيُخْفُونَ مَحَاسِنَهَا، وَفِي النِّهَايَةِ يُطَالِبُونَ بِإِلْغَائِهَا، فَبِذَلِكَ عُلِمَ مَاذَا يُرِيدُونَ؟ وَإِلَى أَيِّ مَدًى سَيَنْتَهُونَ؟

إِنَّهُمْ يَسْعَوْنَ جَادِّينَ لِإِبْطَالِ الْأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، كَمَا حَاوَلَ إِبْطَالَهُ أَعْدَاءُ الرُّسُلِ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَمَطْلُوبُهُمُ الأَكْبَرُ مِنْ هَذِهِ الحَمْلَةِ الصَّلِيبِيَّةِ اللِّيبْرَالِيَّةِ رَأْسُ هَيْئَاتِ الْأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، حَتَّى امْتَدَّتْ رَأْفَتُهُمْ وَشَفَقَتُهُمْ إِلَى قَتَلَةِ الشَّبَابِ مِنْ مُرَوِّجِي المُخَدِّرَاتِ، وَلَمْ يَرْحَمُوا ضَحَايَا هَؤُلَاءِ المُجْرِمِينَ، فَمَنْ هُوَ المُفْسِدُ؟ وَمَنْ هُوَ المُصْلِحُ؟

إِنَّهَا حَمْلَةٌ إِعْلَامِيَّةٌ فَاجِرَةٌ تُرَكِّزُ عَلَى بَعْضِ الْأَخْطَاءِ الَّتِي هِيَ مَحَلُّ البَحْثِ وَالنَّظَرِ لَدَى جِهَاتِ التَّحْقِيقِ، وَتَتَعَامَى عَنْ سَيْلٍ مِنَ المُنْجَزَاتِ وَالْإِبْدَاعَاتِ، فِي كَشْفِ شَبَكَاتِ تَرْوِيجِ الخُمُورِ وَالمُخَدِّرَاتِ وَالتَّزْوِيرِ وَالدَّعَارَةِ وَغَيْرِهَا[٦].

وَيَا لَيْتَ أَنَّ هَذَا التَّرْكِيزَ عَلَى الأَخْطَاءِ القَلِيلَةِ المُحْتَمَلَةِ كَانَ بِدَافِعِ الإِصْلَاحِ، وَرَفْعِ الضَّرَرِ، وَإِحْقَاقِ الحَقِّ، وَمُحَاسَبَةِ المُخْطِئِينَ وَالمُقَصِّرِينَ، وَلَوْ كَانَ الأَمْرُ كَذَلِكَ لَكَانُوا مَحَلَّ الشُّكْرِ وَالثَّنَاءِ وَالتَّأْيِيدِ وَالمَعُونَةِ، وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ لَا خَلَاقَ لَهُمْ،

---

(٦) هذه الحملة بدأت قبل أيام على إثر اكتشاف وكر لكبار مروجي المخدرات في الرياض، واقتحمت الهيئة هذا الوكر بإذن من إمارة الرياض، فهرب هذا المروج، وسقط أثناء هروبه ومات، فاستغل الصحفيون هذا الحدث للتشهير بالهيئة وادعاء أنها تقتل الناس، حتى كتبوا: هيئة الأمر بالموت والنهي عن الحياة. ثم ثبت طبيًّا أن المروج أصيب بسكتة قلبية، ويبدو أنه فزع من ملاحقة الهيئة له.

قَدْ تَسَلَّقُوا عَلَى هَذِهِ الأَخْطَاءِ المُحْتَمَلَةِ الَّتِي يَقَعُ مَا هُوَ أَكْثَرُ وَأَكْبَرُ مِنْهَا فِي جِهَاتٍ أُخْرَى؛ لِتَحْقِيقِ مَآرِبَ خَسِيسَةٍ، مِنْ نُفُوسٍ خَبِيثَةٍ، تُرِيدُ وَأْدَ الفَضِيلَةِ، وَنَشْرَ الرَّذِيلَةِ، وَإِغْرَاقَ النَّاسِ فِي لُجَجٍ مِنَ الفَسَادِ وَالانْحِلَالِ وَالضَّيَاعِ!!

وَالعَجَبُ كُلُّ العَجَبِ مِنْ صَفَاقَتِهِمْ وَوَقَاحَتِهِمْ حِينَ جَعَلُوا الأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ مَجَالًا لِتَصْوِيتِ النَّاسِ عَلَيْهِ، وَأَخْذِ رَأْيِهِمْ فِيهِ، وَهُوَ شَعِيرَةٌ كُبْرَى مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَرَأْسٌ فِي دِينِهِ ﷺ!! يُصَوِّتُونَ عَلَيْهِ فِي قَنَوَاتٍ لَوْ صُوِّتَ عَلَيْهَا فِي بِلَادِ المُسْلِمِينَ لَأُغْلِقَتْ فِي لَحْظَتِهَا؛ لِأَنَّهَا لَا تُمَثِّلُهُمْ وَإِنَّمَا تُمَثِّلُ أَعْدَاءَهُم، وَتُرَوِّجُ لِكُلِّ دِينٍ وَنِحْلَةٍ خَلَا الإِسْلَامِ، وَتُدَافِعُ عَنْ جَرَائِمِ الأَعْدَاءِ أَكْثَرَ مِنْ دِفَاعِهَا عَنْ حُقُوقِ مَنْ تَنْطِقُ بِلِسَانِهِمْ، وَتَتَسَمَّى بِاسْمِهِمْ(٧).

يَا لَهُ مِنْ فَسَادٍ فِي الْعُقُولِ، وَخَلَلٍ فِي التَّفْكِيرِ، وَانْحِرَافٍ فِي الْفِطَرِ مِنْ قَوْمٍ مَا عُرِفَ عَنْهُمْ إِلَّا أَنَّهُمُ الْآمِرُونَ بِالْمُنْكَرِ، النَّاهُونَ عَنِ المَعْرُوفِ! وَمَا لِسَانُهُمْ إِلَّا لِسَانُ قَوْمِ لُوطٍ حِينَ قَالُوا: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

العُهْرُ عِنْدَهُمْ فَضِيلَةٌ، وَالْآمِرُونَ بِهِ مُطَاعُونَ وَمُقَدَّسُونَ، وَالطُّهْرُ فِي مَذْهَبِهِمْ رَذِيلَةٌ، وَالْآمِرُونَ بِالطُّهْرِ المُحَافِظُونَ عَلَيْهِ غَيْرُ مَرْغُوبٍ فِيهِمْ؛ وَلِذَا يُرِيدُونَ إِغْلَاقَ مُؤَسَّسَتِهِمْ، كَمَا نَادَى قَوْمُ لُوطٍ بِإِخْرَاجِهِ ﵇ مِنْ قَرْيَتِهِمْ.

إِنَّ حِقْدَهُمْ عَلَى الْفَضِيلَةِ، وَضَغِينَتَهُمْ عَلَى الْآمِرِينَ بِهَا قَدْ بَلَغَ بِهِمْ حَدًّا أَغْلَقَ عُقُولَهُمْ وَأَسْمَاعَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ، فَجَعَلَهُمْ يَنْطِقُونَ بِمَا لَا يَعْقِلُونَ، وَيَهْرِفُونَ بِمَا لَا

---

(٧) هي قناة العربية فتحت مجال التصويت لإلغاء الهيئة، وخذلهم الله تعالى؛ إذ كانت أصوات المطالبين ببقائها أكثر من أصوات المطالبين بإلغائها والحمد لله كثيرًا، على أننا لا نرضى بأن نصوت على أجهزة تقيم شعائر الله تعالى في الناس بوجوب بقائها وليست محل اختيار ونظر.

يَعْرِفُونَ، وَإِلَّا هَلْ يُنَادِي عَاقِلٌ بِإِغْلَاقِ جِهَازِ الحِسْبَةِ لِأَنَّ أَخْطَاءً مُحْتَمَلَةً وَقَعَتْ مِنْ بَعْضِ أَفْرَادِهِ، لَوْلَا أَنَّ مَطْلُوبَهُمُ الأَكْبَرَ شَعِيرَةُ الْأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ!!

مَاذَا لَوْ أَنَّ بَعْضَ الْأَطِبَّاءِ أَخْطَئُوا فَقَتَلُوا بَعْضَ المَرْضَى فَكَتَبَ بَعْضُ النَّاسِ أَنْ تُغْلَقَ المُسْتَشْفَيَاتُ، وَتُلْغَى كُلِّيَّاتُ الطِّبِّ وَوَزَارَةُ الصِّحَّةِ؟ أَلَيْسَ حَقُّ المُطَالِبِ بِذَلِكَ أَنْ يُحْجَرَ عَلَيْهِ وَيُعَالَجَ فِي مُسْتَشْفَيَاتِ الصِّحَّةِ النَّفْسِيَّةِ، لَا أَنْ يُصَدَّرَ فِي وَسَائِلِ الإِعْلَامِ المُخْتَلِفَةِ؟! وَقُلْ مِثْلَ ذَلِكَ فِي كُلِّ الدَّوَائِرِ وَالمُؤَسَّسَاتِ وَالوَزَارَاتِ، تُلْغَى لِأَجْلِ مَا فِيهَا مِنَ الْأَخْطَاءِ وَالتَّجَاوُزَاتِ، أَيَقُولُ عُقَلَاءُ مِنَ الْبَشَرِ بِذَلِكَ؟! فَالحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى نِعْمَةِ الْعَقْلِ.

إِنَّهَا -يَا عِبَادَ اللَّهِ- مُوَاجَهَةٌ بَيْنَ أَتْبَاعِ الرُّسُلِ الَّذِينَ يُنَادُونَ بِالطُّهْرِ وَالْعَفَافِ، وَيُحَافِظُونَ عَلَى نَقَاءِ المُجْتَمَعِ وَتَمَاسُكِهِ وَبَيْنَ أَعْدَاءِ الرُّسُلِ الَّذِينَ يُرَوِّجُونَ لِلْخَنَا وَالمَوَاخِيرِ، وَيُحَاوِلُونَ جَرَّ النَّاسِ إِلَى الرَّذَائِلِ وَالمُوبِقَاتِ، وَلْيَخْتَرْ كُلُّ مُسْلِمٍ مَعَ أَيِّ الْفَرِيقَيْنِ يَكُونُ، وَإِلَى أَيِّ الطَّائِفَتَيْنِ يَنْحَازُ، أَإِلَى أَتْبَاعِ الرُّسُلِ، وَأَنْصَارِ الْفَضِيلَةِ أَمْ إِلَى أَتْبَاعِ المُشْرِكِينَ، وَأَنْصَارِ الرَّذِيلَةِ؟!

حَمَى اللهُ بِلَادَنَا وَبِلَادَ المُسْلِمِينَ مِنْ شَرِّ الْفَاسِدِينَ المُفْسِدِينَ، وَرَدَّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ خَاسِرِينَ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ . . .

❁ ❁ ❁

٢٧٧- احتساب النبي ﷺ (١) تقرير الحسبة بأقواله (أ)

٤/٨/١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا؛ مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: أَرْسَلَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ؛ لِيُخْرِجَ بِهِ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَمِنَ الضَّلَالِ إِلَى الْهُدَى، وَمِنَ الْجَوْرِ إِلَى الْعَدْلِ، وَمِنَ الْجَهْلِ إِلَى الْعِلْمِ، وَمِنَ الْإِسَاءَةِ إِلَى الْإِحْسَانِ، وَمِنْ دَرَكَاتِ الْإِثْمِ وَالشَّرِّ وَالذُّلِّ وَالضَّعْفِ إِلَى دَرَجَاتِ الْبِرِّ وَالْخَيْرِ، وَالْعِزِّ وَالْقُوَّةِ، ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عِمْرَان: ١٦٤]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿رَّسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ [الطَّلَاق: ١١].

وَكَانَتْ رِسَالَتُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَرِسَالَاتِ مَنْ سَبَقُوهُ مِنْ إِخْوَانِهِ الْمُرْسَلِينَ مُتَضَمِّنَةً الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ؛ الْأَمْرَ بِكُلِّ مَعْرُوفٍ يُحِبُّهُ اللهُ تَعَالَى وَيَرْضَاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ وَالمَقَاصِدِ، وَالنَّهْيَ عَنْ كُلِّ مُنْكَرٍ يُبْغِضُهُ اللهُ تَعَالَى مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ وَالمَقَاصِدِ.

وَالمُشْرِكُونَ كَانُوا يَعْرِفُونَ أَنَّ كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ تَعْنِي الْخُضُوعَ وَالتَّسْلِيمَ وَالِانْقِيَادَ لِلْأَمْرِ وَالنَّهْيِ الشَّرْعِيَّيْنِ؛ وَلِذَلِكَ عَارَضُوهَا، وَقَالُوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [سورة ص: ٥].

وَسِيرَةُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُنْذُ بَعْثَتِهِ وَحَتَّى وَفَاتِهِ، تَدُلُّ عَلَى أَنَّ حَيَاتَهُ كُلَّهَا كَانَتِ احْتِسَابًا عَلَى النَّاسِ؛ لِإِصْلَاحِ عَقَائِدِهِم وَعِبَادَاتِهِم، وَمُعَامَلَاتِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ، كَمَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ هُوَ الرُّكْنُ الْأَسَاسُ لِتَبْلِيغِ هَذَا الدِّينِ، وَالْحُكْمِ بِشَرِيعَتِهِ بَيْنَ النَّاسِ، وَقَدْ أُمِرَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالْبَلَاغِ فِي كَثِيرٍ مِنْ آيِ الْقُرْآنِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥۚ﴾ [المَائِدَة: ٦٧]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النَّحل: ٨٢].

وَمَا الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي بُعِثَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ إِلَّا أَمْرٌ بِمَعْرُوفٍ، أَوْ نَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ؛ لِأَنَّ المُبَاحَاتِ لَا أَمْرَ فِيهَا وَلَا نَهْيَ، بَلْ سُكِتَ عَنْهَا؛ تَخْفِيفًا عَلَى الْعِبَادِ.

وَمَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي هُوَ ذِرْوَةُ سَنَامِ الْإِسْلَامِ إِلَّا وَسِيلَةٌ مِنْ وَسَائِلِ الْأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ؛ لِبَسْطِ سُلْطَانِ الْإِسْلَامِ عَلَى النَّاسِ، وَتَخْلِيصِهِمْ مِنْ أَنْظِمَةِ الْجَوْرِ وَالْعُبُودِيَّةِ لِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَالْحَدِيثُ عَنِ احْتِسَابِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى أُمَّتِهِ هُوَ الْحَدِيثُ عَنْ سِيرَتِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ مُنْذُ أَنْ بَعَثَهُ اللهُ تَعَالَى رَسُولًا لِلْعَالَمِينَ إِلَى أَنْ قَبَضَهُ إِلَيْهِ ﷺ، وَأَنَّى لِمَقَامٍ كَهَذَا أَنْ يَأْتِيَ عَلَى ذَلِكَ؟! بَيْدَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ حَثَّ أُمَّتَهُ عَلَى إِحْيَاءِ شَعِيرَةِ الِاحْتِسَابِ بَيْنَهُمْ، وَرَغَّبَهُمْ فِي ذَلِكَ، وَبَيَّنَ لَهُمْ مَخَاطِرَ تَعْطِيلِ الْأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ عَلَى الْأَفْرَادِ وَالْأُمَمِ، وَقَدْ كَثُرَتْ أَقْوَالُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي هَذَا الْبَابِ الْعَظِيمِ مِنْ أَبْوَابِ الشَّرِيعَةِ.

فَأَمَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِإِنْكَارِ المُنْكَرِ، وَبَيَّنَ أَنَّ مَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ أَدَّى مَا عَلَيْهِ، وَبَرِئَتْ ذِمَّتُهُ، وَمَنْ رَضِيَ بِالمُنْكَرِ أَوْ وَافَقَ أَهْلَهُ فَهُوَ الْآثِمُ؛ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ[(١)]، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ﷺ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِئَ، وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(٢)].

وَلِأَهَمِّيَّةِ هَذِهِ الشَّعِيرَةِ الْعَظِيمَةِ فِي إِصْلَاحِ النَّاسِ، وَلِمَكَانَتِهَا مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ، فَإِنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَايَعَ أَصْحَابَهُ ﷺ عَلَى قَوْلِ الْحَقِّ، وَأَوْصَاهُمْ بِذَلِكَ.

أَمَّا الْبَيْعَةُ عَلَى قَوْلِ الْحَقِّ، فَفِي حَدِيثِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ﷺ قَالَ: «بَايَعْنَا

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، باب كون النهي عن المنكر من الإيمان. . . (٤٩)، وأبو داود في الصلاة، باب الخطبة يوم العيد (١١٤٠)، وابن ماجه في الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤٠١٣)، وأحمد (٣/ ١٠).

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة، باب وجوب الإنكار على الأمراء فيما يخالف الشرع وترك قتالهم ما صلوا (١٨٥٤)، وأبو داود في السنن، باب في قتل الخوارج (٤٧٦٠)، والترمذي في باب (٧٨) (٢٢٦٥).

وجاء من حديث أبي هريرة ﷺ عند ابن حبان (٦٦٥٨).

رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي المَنْشَطِ وَالمَكْرَهِ، وَأَلَّا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، وَأَنْ نَقُومَ -أَوْ نَقُولَ- بِالْحَقِّ حَيْثُمَا كُنَّا، لَا نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٣).

وَالصَّدْعُ بِالْحَقِّ؛ إِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي مَعْرُوفٍ قَدْ عُطِّلَ، أَوْ فِي مُنْكَرٍ قَدْ أُظْهِرَ.

قَالَ النَّوَوِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: قَوْلُهُ: «وَأَنْ نَقُومَ أَوْ نَقُولَ بِالْحَقِّ حَيْثُمَا كُنَّا، لَا نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ»، مَعْنَاهُ: «نَأْمُرُ بِالمَعْرُوفِ، وَنَنْهَى عَنِ المُنْكَرِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ؛ الْكِبَارَ وَالصِّغَارَ، لَا نُدَاهِنُ فِيهِ أَحَدًا، وَلَا نَخَافُهُ هُوَ، وَلَا نَلْتَفِتُ إِلَى الْأَئِمَّةِ، فَفِيهِ الْقِيَامُ بِالْأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، وَأَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّهُ فَرْضُ كِفَايَةٍ، فَإِنْ خَافَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ مَالِهِ، أَوْ عَلَى غَيْرِهِ، سَقَطَ الْإِنْكَارُ بِيَدِهِ وَلِسَانِهِ، وَوَجَبَتْ كَرَاهَتُهُ بِقَلْبِهِ» اهـ(٤).

وَأَمَا وَصِيَّتُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِهَذَا الْأَمْرِ الْعَظِيمِ بِهِ، فَقَدْ جَاءَتْ فِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: «أَوْصَانِي خَلِيلِي ﷺ بِخِصَالٍ مِنَ الْخَيْرِ . . .، وَذَكَرَ مِنْهَا: وَأَوْصَانِي أَنْ أَقُولَ الْحَقَّ - وَإِنْ كَانَ مُرًّا» رَوَاهُ أَحْمَدُ(٥).

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْبَيْعَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا عَلَى الْأَمْرِ الْعَظِيمِ الْكَبِيرِ، وَكَذَا الْوَصِيَّةُ لَا تَكُونُ إِلَّا بِمَا هُوَ مُهِمٌّ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى مَكَانَةِ قَوْلِ الْحَقِّ، وَالْأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ فِي شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى؛ إِذْ أَوْصَى النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِهِ، وَبَايَعَهُ الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم عَلَيْهِ.

---

(٣) أخرجه البخاري في الأحكام، باب كيف يبايع الناس الإمام (٦٧٧٤)، ومسلم في الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية ... (١٧٠٩).

(٤) شرح النووي على مسلم (١٢/ ٢٣٠).

(٥) أخرجه أحمد (٥/ ١٧٣)، والطبراني في الكبير (٢/ ١٥٦) رقم (١٦٤٨)، والبيهقي (١٠/ ٩١)، وصححه ابن حبان (٤٤٩).

وَكَانَتْ هَذِهِ الْبَيْعَةُ مَعَ الْبَيْعَةِ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ؛ مِمَّا يَنْقُضُ رَأْيَ مَنْ يَرَى أَنَّ الصَّدْعَ بِالْحَقِّ وَالْأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ فِيهِ خُرُوجٌ عَلَى السَّلَاطِينِ، أَوْ يُؤَدِّي إِلَى الْخُرُوجِ عَلَيْهِمْ، وَلَازِمُ هَذَا الْقَوْلِ تَعْطِيلُ هَذِهِ الشَّعِيرَةِ الْعَظِيمَةِ، وَهَذَا الْحَدِيثُ يَنْقُضُ هَذَا الرَّأْيَ الْفَاسِدَ.

بَلْ إِنَّ الِاحْتِسَابَ عَلَى كِبَارِ الْقَوْمِ، وَرُؤُوسِ النَّاسِ، وَالصَّدْعَ بِالْحَقِّ أَمَامَهُمْ مِمَّا يَنْفَعُهُمْ؛ لِئَلَّا يَتْرُكُوا مَعْرُوفًا، أَوْ يَتَمَادَوْا فِي مُنْكَرٍ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ النُّصْحِ لَهُمُ الَّذِي جَاءَ الْأَمْرُ الشَّرْعِيُّ بِهِ فِي حَدِيثِ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ ؓ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**»، قُلْنَا: لِمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَامَّتِهِمْ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٦).

وَمِنْ أَعْظَمِ الْغِشِّ لِكِبَارِ الْقَوْمِ، وَسَرَاةِ النَّاسِ تَرْكُ مُنَاصَحَتِهِمْ، وَعَدَمُ الصَّدْعِ بِالْحَقِّ أَمَامَهُمْ، وَالتَّهَاوُنُ فِي أَمْرِهِمْ بِالمَعْرُوفِ، وَنَهْيِهِمْ عَنِ الْمُنْكَرِ.

وَقَدْ فَهِمَ كِبَارُ الْعُلَمَاءِ فِي مُخْتَلَفِ الْعُصُورِ ذَلِكَ، فَأَنْكَرُوا عَلَى السَّلَاطِينِ مُخَالَفَاتِهِمْ، وَلَمْ يَخْرُجُوا عَلَيْهِمْ، وَلَا رَأَوْا أَنَّ الْإِنْكَارَ يُؤَدِّي إِلَى الْخُرُوجِ عَلَيْهِمْ؛ كَمَا يَزْعُمُهُ مَنْ يُعَطِّلُونَ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ الشَّرْعِيَّيْنِ، وَلَا جَعَلُوا ظُهُورَ الْمُنْكَرَاتِ مُسَوِّغًا لِلْخُرُوجِ، وَكَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- مِنْ أَشْهَرِ أَهْلِ عَصْرِهِ فِي شِدَّةِ الْإِنْكَارِ عَلَى بَنِي الْعَبَّاسِ؛ حَتَّى إِنَّهُ لَيَبُولُ الدَّمَ إِذَا رَأَى مُنْكَرًا، فَلَمْ يَسْتَطِعْ إِنْكَارَهُ؛ كَمَا قَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-(٧)، وَمَعَ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئَ الْقَوْلِ فِي الْحَسَنِ بْنِ صَالِحِ بْنِ حَيٍّ، مَعَ أَنَّ الْحَسَنَ مِنَ الْأَئِمَّةِ الْكِبَارِ فِي الْعِلْمِ وَالزُّهْدِ، وَمَا سَبَبُ ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّ الْحَسَنَ كَانَ يَرَى الْخُرُوجَ؛ وَلِذَا قَالَ الثَّوْرِيُّ

---

(٦) بوب به البخاري في الإيمان، باب (٤٠) فقال: باب قول النبي ﷺ: «**الدين النصيحة . . .**»، وأخرجه مسلم في الإيمان، باب بيان الدين النصيحة (٥٥).

(٧) سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٥٩).

فِيهِ: «ذَاكَ رَجُلٌ يَرَى السَّيْفَ عَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ»(٨).

فَكَانَ مَنْهَجُ الْإِمَامِ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- الْإِنْكَارَ عَلَى مَنْ وَقَعَ فِي الْمُنْكَرِ؛ صَغِيرًا كَانَ أَمْ كَبِيرًا، وَأَمْرَهُ بِالمَعْرُوفِ، وَالنُّصْحَ لَهُ، مَعَ الْتِزَامِ الطَّاعَةِ، وَلُزُومِ الْجَمَاعَةِ، وَهَكَذَا كَانَ دَأْبُ السَّلَفِ الصَّالِحِ -عَلَيْهِمْ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى- إِلَى أَنْ نَبَتَ فِي الْمُسْلِمِينَ طَائِفَتَانِ مُخْطِئَتَانِ، إِحْدَاهُمَا عَطَّلَتِ الْأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ؛ بِحُجَّةِ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَلِكَيْلَا يَكُونَ الِاحْتِسَابُ عَلَى الْوُلَاةِ ذَرِيعَةً لِلْخُرُوجِ عَلَيْهِمْ، وَطَائِفَةٌ أُخْرَى اسْتَحَلَّتِ الْخُرُوجَ عَلَيْهِمْ لِمُجَرَّدِ ظُهُورِ الْمُنْكَرَاتِ فِي دُوَلِهِمْ، وَكَانَ الصَّوَابُ وَسَطًا بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ.

وَمِنْ أَبْيَنِ الْأَدِلَّةِ عَلَى أَهَمِّيَّةِ إِحْيَاءِ شَعِيرَةِ الْحِسْبَةِ بَيْنَ النَّاسِ: أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَيَّنَ أَنَّ قَوْلَ الْحَقِّ أَعْظَمُ الْجِهَادِ، وَأَنَّ سَيِّدَ الشُّهَدَاءِ مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ كَلِمَةِ الْحَقِّ؛ كَمَا رَوَى أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«أَفْضَلُ الْجِهَادِ: كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ»** رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(٩)، وَعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **«سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ: حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَرَجُلٌ قَامَ إِلَى إِمَامٍ**

---

(٨) أخرجه أبو القاسم البغوي في مسند ابن الجعد (٢٠٥٢)، وينظر: تهذيب الكمال (٦/ ١٨١) ترجمة (١٢٣٨).

(٩) أخرجه أبو داود في الملاحم، باب الأمر والنهي (٤٣٤٤)، والترمذي في الفتن، باب ما جاء أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر، وقال: حسن غريب من هذا الوجه (٢١٧٤)، وابن ماجه في الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤٠١١)، وأحمد مطولًا (٣/١٩)، وأبو يعلى (١١٠١).

وله شاهد مرسل من حديث طارق بن شهاب البجلي الأحمسي -رحمه الله تعالى- عند: النسائي في البيعة، باب فضل مَنْ تكلَّم بالحق عند إمام جائر (٧/ ١٦١)، وأحمد (٤/ ٣١٥).

وطارق بن شهاب له رؤية، وليست له صحبة، كما قال أبو حاتم الرازي. ينظر: المراسيل لابن أبي حاتم (٣٥١)، ونقل الحافظ ابن حجر عن أبي داود قوله: رأى النبي ﷺ ولم يسمع منه، ينظر: التقريب (٤٦١) رقم (٣٠١٧)، وفي جامع التحصيل للعلائي: قال =

جَائِرٍ، فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ، فَقَتَلَهُ» رَوَاهُ الْحَاكِمُ، وَصَحَّحَهُ(١٠).

جَعَلَنَا اللهُ تَعَالَى مِنْ أَهْلِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ، وَكَفَانَا شُرُورَ أَنْفُسِنَا، وَشُرُورَ أَعْدَائِنَا؛ ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التَّوْبَة: ٧١].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.

❁ ❁ ❁

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الَحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ، كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ وَأَتُوبُ إِلِيهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ،

= أبو زرعة وأبو داود وغيرهما: طارق ابن شهاب له رؤية وليست له صحبة، قال العلائي: يلحق حديثه بمراسيل الصحابة. ينظر: جامع التحصيل (٣٠٥)، وصححه النووي في رياض الصالحين (١٩٥) والألباني في صحيح النسائي.

وجاء أيضًا من حديث أبي أمامة رضي الله عنه عند ابن ماجه في الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤٠١٢)، والروياني في مسنده (١١٧٩)، والقضاعي في مسند الشهاب (١٢٨٨)، وأبو القاسم البغوي في مسند ابن الجعد (٣٣٢٦)، والطبراني في الكبير (٨/ ٢٨٢) رقم (٨٠٨١)، وفي الأوسط (٦٨٢٤)، والصغير (١٥١).

(١٠) أخرجه الحاكم وصححه (٣/ ٢١٥)، والديلمي في مسند الفردوس (٣٤٧٢)، وضعفه الذهبي في السير (١/ ١٧٣)، وصححه السيوطي في الجامع الصغير (٤٧٤٨)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٦٧٥).

وجاء أيضًا من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند: الطبراني في الأوسط (٤٠٧٩)، وأبو نعيم في مسند أبي حنيفة (ص١٨٧)، وضعفه الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٢٦٦)، وعزاه الهيثمي للطبراني من حديث علي رضي الله عنه، قال: وفيه علي بن الحزور وهو متروك (٩/ ٢٦٨).

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ، وَاعْمَلُوا لِآخِرَتِكُمْ، وَلَا تَغُرَّنَّكُمْ دُنْيَاكُمْ؛ ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النِّسَاء: ٧٧].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: مَنْ قَرَأَ سِيرَةَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَوَقَفَ عَلَى أَحَادِيثِهِ فِي شَعِيرَةِ الِاحْتِسَابِ، عَلِمَ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَدْ أَوْلَى هَذَا الْجَانِبَ مِنَ الدِّينِ أَهَمِّيَّةً كُبْرَى، وَكَيْفَ لَا يَكُونُ ذَلِكَ وَأَوَّلُ وَصْفٍ وُصِفَ بِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي الْكُتُبِ السَّابِقَةِ كَوْنُهُ مُحْتَسِبًا عَلَى النَّاسِ، يَأْمُرُهُمْ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ؟! ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعْرَاف: ١٥٧].

فَمِنْ أَسْبَابِ الْفَلَاحِ المَذْكُورِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ اتِّبَاعُ النُّورِ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَمِنْ أَعْظَمِ أَفْرَادِ هَذَا النُّورِ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الِاحْتِسَابِ عَلَى النَّاسِ بِأَمْرِهِمْ بِالمَعْرُوفِ، وَنَهْيِهِمْ عَنِ الْمُنْكَرِ.

كَمَا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الْعَظِيمَةَ تُفِيدُ بِوَجْهِ الْمُخَالَفَةِ أَنَّ تَرْكَ هَذَا النُّورِ سَبَبٌ لِلْخُسْرَانِ وَالْبَوَارِ لِلْأَفْرَادِ وَالْأُمَمِ، وَتَعْطِيلَ الْحِسْبَةِ سَبَبٌ لِتَرْكِ هَذَا النُّورِ الَّذِي أُوصِينَا بِاتِّبَاعِهِ.

وَمَا كَانَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُحْيِيًا لِشَعِيرَةِ الْحِسْبَةِ، مُعْتَنِيًا بِهَا، دَاعِيًا إِلَيْهَا، نَاهِيًا عَنْ تَعْطِيلِهَا، مُحَذِّرًا مِنْ تَرْكِهَا؛ إِلَّا لِأَنَّهَا مِنْ أَسْبَابِ بَقَاءِ دِينِ

الْإِسْلَامِ الَّذِي قَضَى اللهُ تَعَالَى قَدَرًا أَنْ يَبْقَى إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ، فَأَمَرَ شَرْعًا بِمَا يَكُونُ سَبَبًا لِذَلِكَ، وَهُوَ الْأَمْرُ بِالِاحْتِسَابِ عَلَى النَّاسِ بِأَمْرِهِمْ بِالمَعْرُوفِ، وَنَهْيِهِمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَدَعْوَتِهِمْ إِلَى الْخَيْرِ الَّذِي جَاءَ بِهِ الْإِسْلَامُ.

فَكَانَ مِنْ خَيْرِيَّةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَنْ تُحْيَا هَذِهِ الشَّعِيرَةُ الْعَظِيمَةُ فِيهِمْ، وَأَنْ يَتَوَاصَوْا بِهَا فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَيَتَعَاوَنُوا عَلَى أَدَائِهَا، وَيُحَارِبُوا مَنْ حَارَبَهَا مِنَ الْكُفَّارِ وَالمُنَافِقِينَ وَالشَّهْوَانِيِّينَ ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عِمْرَان: ١١٠].

إِنَّ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ الْحِسْبَةَ وَالمُحْتَسِبِينَ، وَيَرَوْنَ أَنَّ الْأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ تَدَخُّلٌ فِي الْخُصُوصِيَّاتِ، وَيَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى رَفْضِ ذَلِكَ، إِنَّمَا هُمْ يُرِيدُونَ نَزْعَ الْخَيْرِيَّةِ عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ لِتَكُونَ كَأُمَمِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَالْوَثَنِيَّةِ وَالمَادِّيَّةِ الَّتِي ضَلَّتْ طَرِيقَهَا، وَأَفْسَدَتْ أَخْلَاقَهَا، وَأَضَاعَتْ دِينَهَا، وَأَسْخَطَتْ رَبَّهَا، فَسُلِبَتْ مِنْهَا الْخَيْرِيَّةُ إِلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ المُبَارَكَةِ.

إِنَّ هَذِهِ الْفِئَةَ المُنْحَرِفَةَ تُرِيدُ تَعْطِيلَ أَعْظَمِ وَصْفٍ وُصِفَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَأَجَلِّهِ وَأَكْبَرِهِ؛ فَقَدْ نَوَّهَ اللهُ تَعَالَى بِذِكْرِهِ فِي الْقُرْآنِ، وَقَدَّمَهُ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْأَوْصَافِ؛ ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٥٧].

يُرِيدُونَ تَعْطِيلَهُ بِحُجَّةِ أَنَّ الِاحْتِسَابَ تَدَخُّلٌ فِي الْخُصُوصِيَّاتِ، وَهُوَ كَذَلِكَ؛ لِأَنَّ دِينَ الْإِسْلَامِ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الدِّينِ وَالدُّنْيَا، وَلَا يَفْصِلُهُمَا عَنْ بَعْضٍ، كَمَا فِي دِيَانَاتِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْوَثَنِيِّينَ، وَيُنَظِّمُ عَلَاقَاتِ الْإِنْسَانِ كُلَّهَا، وَيَتَدَخَّلُ فِي خُصُوصِيَّاتِهِ، وَيَأْمُرُ أَفْرَادَ المُجْتَمَعِ أَنْ يَأْخُذُوا عَلَى أَيْدِي المُفْسِدِينَ، وَيَأْطُرُوهُمْ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا، وَيَقْصُرُوهُمْ عَلَى

الْحَقِّ قَصْرًا، فَمَنْ رَفَضَ ذَلِكَ، فَهُوَ يَرْفُضُ دِينَ الْإِسْلَامِ.

وَلَيْسَ الْإِسْلَامُ أَجْزَاءً يَسُوغُ لِلنَّاسِ أَنْ يَأْخُذُوا مِنْهُ مَا يَشْتَهُونَ، وَيَتْرُكُوا مَا لَا يُرِيدُونَ، بَلْ هُوَ كُلٌّ مُتَكَامِلٌ، مَنْ رَفَضَ شَعِيرَةً مُحْكَمَةً مِنْ شَعَائِرِهِ، فَهُوَ يَرْفُضُهُ كُلَّهُ، وَلَا يَنْفَعُهُ مَا أَخَذَ مِنْ بَعْضِهِ؛ إِذْ رَفْضُ بَعْضِهِ كَرَفْضِ جَمِيعِهِ.

وَمَا الَّذِي أَضَلَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، وَقَدْ كَانُوا عَلَى الْحَقِّ، وَأُوتُوا الْكِتَابَ قَبْلَنَا، إِلَّا أَنَّهُمْ كَانُوا يَأْخُذُونَ مِنْ دِينِهِمْ مَا يَشْتَهُونَ، وَيَتْرُكُونَ مَا لَا يُرِيدُونَ، وَكَانَ أَحْبَارُ السُّوءِ وَرُهْبَانُ الضَّلَالَةِ يُحَرِّفُونَ كُتُبَهُمْ لِأَجْلِ ذَلِكَ، فَأَنْكَرَ اللهُ تَعَالَى ذَلِكَ مِنْهُمْ، وَغَضِبَ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ، وَخَاطَبَهُمْ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ٨٥، ٨٦].

فَالْمُحَارِبُونَ لِلْحِسْبَةِ وَالْمُحْتَسِبِينَ، الدَّاعُونَ إِلَى إِبْطَالِهَا، لَا يُرِيدُونَ إِلَّا أَنْ يَسْلُكُوا بِنَا مَسَالِكَ مَنْ غَضِبَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَتَوَعَّدَهُمْ بِنَارِ جَهَنَّمَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الَّذِينَ تَرَكُوا دِينَهُمْ، وَحَرَّفُوا كُتُبَهُمْ، فَهَلْ يُعَطِّلُ الْمُؤْمِنُونَ شَعِيرَةَ الْأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ؛ طَاعَةً لِلْمُنَافِقِينَ وَالْمُرْجِفِينَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ، فَيُحْرَمُوا الْخَيْرِيَّةَ الَّتِي خُصَّتْ بِهَا هَذِهِ الْأُمَّةُ؟!

لَيْسَ هَذَا الظَّنُّ بِمَنْ أَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ تَعَالَى وَقَرَؤُوا كِتَابَهُ، وَقَبِلُوا عَنْهُ شَرِيعَتَهُ، كَيْفَ وَاللهُ تَعَالَى قَدْ أَمَرَنَا بِاتِّبَاعِ شَرِيعَتِهِ، وَنَهَانَا عَنِ اتِّبَاعِ أَهْوَائِهِمْ، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ

لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الْجَاثِيَة: ١٨، ١٩].

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَأَحْيُوا شَعِيرَةَ الْحِسْبَةِ فِيكُمْ، وَأَعِينُوا عَلَيْهَا مَنْ قَامَ بِهَا مِنْ إِخْوَانِكُمْ؛ فَإِنَّهَا مِنْ أَسْبَابِ الْفَلَاحِ وَالنَّجَاةِ لِلْأَفْرَادِ وَلِلْأُمَّةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ.



٢٧٨- احتساب النبي ﷺ (٢)
تقرير الحسبة بأقواله (ب)

١١/٨/١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، خَلَقَ خَلْقَهُ فَدَبَّرَهُمْ، وَشَرَعَ لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا يُصْلِحُهُمْ ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨]، نَحْمَدُهُ عَلَى هِدَايَتِهِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى رِعَايَتِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَصَفِيُّهُ وَخَلِيلُهُ، اصْطَفَاهُ اللهُ تَعَالَى لِلْعَالَمِينَ رَسُولًا، وَزَادَهُ رِفْعَةً وَتَفْضِيلًا، فَهُوَ صَاحِبُ الْحَوْضِ وَالْفَضِيلَةِ وَالشَّفَاعَةِ وَالْوَسِيلَةِ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، خَيْرِ صَحْبٍ وَآلٍ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥].

أَيُّهَا النَّاسُ: دِينُ الْإِسْلَامِ دِينٌ لَهُ حُدُودٌ، وَفِيهِ حَلَالٌ وَحَرَامٌ، وَحُقُوقٌ وَوَاجِبَاتٌ ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وَفِي ثَالِثَةٍ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [النساء: ١٣، ١٤].

وَهَذِهِ الْحُدُودُ الَّتِي يَجِبُ الْوُقُوفُ عِنْدَهَا -وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَتَعَدَّاهَا- مِنْهَا

مَا هُوَ لِحَقِّ اللَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ؛ كَالْعِبَادَاتِ الْمَحْضَةِ، وَمِنْهَا مَا هُوَ لِحَقِّ اللَّهِ تَعَالَى، وَلِحَقِّ الْبَشَرِ، وَهُوَ مَا يَتَعَلَّقُ بِأَنْوَاعِ الْمُعَامَلَاتِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْقِصَاصِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَلَمَّا كَانَ الْعِصْيَانُ مِنْ طَبِيعَةِ الْبَشَرِ، وَالْخَطَأُ مِنْ سَجَايَاهُمْ؛ كَانَ لَا بُدَّ مِنَ الِاحْتِسَابِ عَلَيْهِمْ، وَرَدِّ الظَّالِمِ عَنْ ظُلْمِهِ، وَالْعَاصِي عَنْ عِصْيَانِهِ؛ طَاعَةً لِلَّهِ تَعَالَى، وَغَيْرَةً عَلَى حُرُمَاتِهِ، وَحِفْظًا لِلْأَفْرَادِ وَالْأُمَمِ مِنْ كُلِّ أَسْبَابِ الْهَلَاكِ وَالْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَبِهَذَا كَانَ الِاحْتِسَابُ عَلَى النَّاسِ وَاجِبًا عَلَى آحَادِهِمْ، كُلٌّ بِحَسَبِ مَوْقِعِهِ وَقُدْرَتِهِ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ يَعْنِيهِمْ وَاحِدًا وَاحِدًا؛ وَلِأَنَّ الْعَذَابَ إِنْ وَقَعَ بِسَبَبِ أَهْلِ الْمَعَاصِي لَا يَسْتَثْنِي مِنْهُمْ أَحَدًا، وَتِلْكَ سُنَّةُ اللَّهِ الْمَاضِيَةُ فِي الْأُمَمِ الْغَابِرَةِ، وَهَذَا مَا قَرَّرَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِأُمَّتِهِ، وَأَوْجَبَهُ عَلَيْهِمْ، وَحَذَّرَهُمْ مِنَ التَّهَاوُنِ بِهِ، وَأَكْثَرَ الْقَوْلَ فِيهِ؛ فَتَارَةً يَأْمُرُهُمْ بِالِاحْتِسَابِ عَلَى النَّاسِ، بِأَمْرِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهْيِهِمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، بَلْ وَيُوصِيهِمْ بِذَلِكَ، وَيُبَايِعُهُ أَصْحَابُهُ ﭬ عَلَيْهِ، وَتَارَةً أُخْرَى يُخْبِرُ أَنَّ سَيِّدَ الشُّهَدَاءِ مَنْ قُتِلَ بِسَبَبِ احْتِسَابِهِ وَقَوْلِهِ لِلْحَقِّ، كَمَا يُخْبِرُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ كَلِمَةَ الْحَقِّ عِنْدَ السُّلْطَانِ الْجَائِرِ مِنْ أَعْظَمِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى.

بَلْ إِنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَدَّ الِاحْتِسَابَ عَلَى النَّاسِ مِنَ الصَّدَقَاتِ، وَذَلِكَ فِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ ﭬ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ** . . . ، وَذَكَرَ مِنْهَا: **وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ** . . .» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[1].

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة الضحى (٧٢٠)، =

وَجَعَلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ حَقِّ الطَّرِيقِ لِمَنْ جَلَسَ فِيهِ أَنْ يَحْتَسِبَ عَلَى النَّاسِ، وَلَا يَسْكُتَ إِذَا رَأَى الْمُنْكَرَاتِ، وَإِلَّا لَمْ يَكُنْ مُؤَدِّيًا لِحَقِّ الطَّرِيقِ، وَذَلِكَ فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ عَلَى الطُّرُقَاتِ**، فَقَالُوا: مَا لَنَا بُدٌّ، إِنَّمَا هِيَ مَجَالِسُنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا. قَالَ: **فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا الْمَجَالِسَ، فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهَا**. قَالُوا: وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ؟ قَالَ: **غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الْأَذَى، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٢).

وَالْأَسْوَاقُ كَالطُّرُقَاتِ؛ تَكْثُرُ فِيهَا الْمُنْكَرَاتُ، وَيَرْتَادُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، وَقَلَّ فِيهِمْ مَنْ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، وَهَذَا مِنْ تَقْصِيرِهِمْ فِي هَذَا الْبَابِ الْعَظِيمِ مِنَ الدِّينِ.

وَمِنْ أَسَالِيبِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي تَقْرِيرِ الْحِسْبَةِ: أَنَّهُ ضَرَبَ مَثَلًا عَظِيمًا بَيَّنَ فِيهِ ضَرَرَ الْمُفْسِدِينَ عَلَى الْمُجْتَمَعِ، وَنَفْعَ الْمُصْلِحِينَ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ عَلَى أَيْدِيهِمْ؛ لِيَدُلَّ النَّاسَ عَلَى أَهَمِّيَّةِ الْحِسْبَةِ فِي نَجَاتِهِمْ، وَرَفْعِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ، فَلَا يَتَهَاوَنُوا بِهَا، أَوْ يَقْعُدُوا عَنِ الْأَخْذِ عَلَى أَيْدِي الْمُفْسِدِينَ وَالسُّفَهَاءِ مِنْهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ إِنْ لَمْ يَأْخُذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ أَهْلَكُوهُمْ مَعَهُمْ؛ كَمَا رَوَى النُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا**

= وأبو داود في الصلاة، باب صلاة الضحى (١٢٨٥)، وأحمد (٥/ ٢٦٧).
وجاء عن أبي هريرة عند: أحمد (٢/ ٣٢٨).
وعن ابن عباس ﷺ عند: ابن حبان (٢٩٩).

(٢) أخرجه البخاري في المظالم، باب أفنية الدور والجلوس فيها والجلوس على الصعدات (٢٣٣٣)، ومسلم في اللباس والزينة، باب النهي عن الجلوس في الطرقات وإعطاء الطريق حقه (٢١٢١).

عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا» رَوَاهُ البُخَارِيُّ[٣].

وَبَيَّنَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ الْهَلَاكَ الَّذِي يُصِيبُ مَنْ تَرَكُوا الِاحْتِسَابَ، وَعَطَّلُوا الْأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ، يَكُونُ خَاصًّا وَعَامًّا؛ فَالْخَاصُّ يَكُونُ لِلْأَفْرَادِ بِإِلْفِهِمُ المُنْكَرَاتِ، وَاعْتِيَادِهِمْ مُشَاهَدَتَهَا، وَعَدَمِ إِنْكَارِ قُلُوبِهِمْ لَهَا، وَهَذَا هُوَ مَوْتُ الْقُلُوبِ، وَمَنْ مَاتَ قَلْبُهُ هَلَكَ!

وَجَاءَ مَعْنَى ذَلِكَ فِي حَدِيثِ حُذَيْفَةَ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **«تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا، فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»** رَوَاهُ مُسْلِمٌ[٤].

فَذَكَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ مِنْ صِفَاتِ الْقَلْبِ السَّلِيمِ إِنْكَارَ الْفِتَنِ. وَالْإِعْلَانُ بِالمَعَاصِي مِنْ أَعْظَمِ الْفِتَنِ، كَمَا ذَكَرَ أَنَّ مِنْ صِفَاتِ الْقَلْبِ الْفَاسِدِ تَشَرُّبَ الْفِتَنِ الَّتِي مِنْ أَعْظَمِهَا ظُهُورُ المُنْكَرَاتِ، فَعَدَمُ الِاحْتِسَابِ عَلَى أَصْحَابِهَا، وَعَدَمُ إِنْكَارِ الْقَلْبِ لَهَا هُوَ الْإِصَابَةُ بِمَوْتِ الْقُلُوبِ وَفِتْنَتِهَا، فَلَا تَعْرِفُ

---

(٣) أخرجه البخاري في الشركة، باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه؟ (٣٢٦١)، وأحمد (٤/ ٢٦٩).

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا، وإنه يأرز بين المسجدين (١٤٤)، وأحمد (٥/ ٣٨٦).

مَعْرُوفًا وَلَا تُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَتْ مِنْ هَوَاهَا.

وَأَمَّا الْعِقَابُ الْعَامُّ، وَالْعَذَابُ الشَّامِلُ إِذَا قَدَّرَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ قَدِ اسْتَوْجَبَتْ ذَلِكَ بِانْتِهَاكِ حُرُمَاتِهِ جَلَّ وَعَلَا فَإِنَّهُ لَا يَخُصُّ أَهْلَ الْمَعْصِيَةِ وَحْدَهُمْ، بَلْ يَكُونُ عَامًّا عَلَيْهِمْ وَعَلَى غَيْرِهِمْ؛ كَمَا فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

وَسَبَبُ ذَلِكَ انْتِشَارُ الْمُنْكَرَاتِ وَظُهُورُهَا، مَعَ عَدَمِ النَّكِيرِ عَلَى أَصْحَابِهَا؛ لِضَعْفِ أَهْلِ الْحَقِّ وَاسْتِكَانَتِهِمْ وَتَقْصِيرِهِمْ، وَقُوَّةِ أَهْلِ الْبَاطِلِ وَعُتُوِّهِمْ وَعِنَادِهِمْ، وَقَدْ جَاءَ مَعْنَى ذَلِكَ فِي حَدِيثِ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا فَزِعًا يَقُولُ: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ**. وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا، قَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: **نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٥).

وَالْخَبَثُ لَا يَكْثُرُ إِلَّا بِتَوَافُرِ أَسْبَابِهِ وَدَوَاعِيهِ الَّتِي مِنْهَا: جَلَدُ الْمُفْسِدِينَ فِي نَشْرِ فَسَادِهِمْ، وَقُوَّةُ نُفُوذِهِمْ، مَعَ تَقَاعُسِ الْمُصْلِحِينَ عَنْ مُدَافَعَةِ الْمُفْسِدِينَ، وَرَدِّ إِفْسَادِهِمْ عَنِ النَّاسِ.

وَإِذَا وَقَعَ ذَلِكَ فِي أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ كَانَتْ حَرِيَّةً بِعُقُوبَةِ اللَّهِ تَعَالَى كَمَا فِي حَدِيثِ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ، ثُمَّ تَدْعُونَهُ**

---

(٥) أخرجه البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٤٠٣)، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج (٢٨٨٠).

فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ(٦).

وَفِي حَدِيثِ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **«مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالمَعَاصِي يَقْدِرُونَ أَنْ يُغَيِّرُوا وَلَا يُغَيِّرُوا، إِلَّا أَصَابَهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ قَبْلَ أَنْ يَمُوتُوا»** رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ(٧).

وَالمُتَأَمِّلُ لِلنُّصُوصِ الْوَارِدَةِ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي تَقْرِيرِ الْحِسْبَةِ، وَأَنَّهَا مِنْ شَعَائِرِ الدِّينِ يَجِدُ أَنَّهَا مُتَنَوِّعَةٌ؛ فَتَارَةً يَأْمُرُهُمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالِاحْتِسَابِ عَلَى النَّاسِ، وَيُوصِيهِمْ بِذَلِكَ، وَيُبَايِعُهُمْ عَلَيْهِ، وَيَعُدُّهُ فِي الصَّدَقَاتِ، وَيَذْكُرُ أَنَّهُ مِنَ الْجِهَادِ، وَأَنَّهُ نَجَاةٌ لِلْمُجْتَمَعِ، وَيَضْرِبُ الْأَمْثِلَةَ عَلَى ذَلِكَ.

وَتَارَةً أُخْرَى يُرَهِّبُهُمْ مِنَ التَّفْرِيطِ فِيهِ، وَيَذْكُرُ لَهُمْ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَى تَرْكِ الِاحْتِسَابِ مِنْ فَسَادِ الْقُلُوبِ، وَحُلُولِ الْعِقَابِ وَالْهَلَاكِ.

وَكُلُّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى مَا لِلِاحْتِسَابِ عَلَى النَّاسِ مِنْ أَهَمِّيَّةٍ كُبْرَى فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهَذِهِ الْأُمَّةُ الْخَاتِمَةُ تُلَازِمُهَا الْخَيْرِيَّةُ مَا قَامَتْ فِيهَا هَذِهِ الشَّعِيرَةُ الْعَظِيمَةُ، فَإِذَا مَاتَتْ فِيهَا لَمْ تَكُنْ أَحْسَنَ حَالًا مِنَ الْأُمَمِ الَّتِي عُذِّبَتْ مِنْ قَبْلُ ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُم . . .

❁ ❁ ❁

---

(٦) أخرجه الترمذي في الفتن، باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقال: حديث حسن (٢١٦٩)، وأحمد (٥/ ٣٨٨) وحسنه الألباني في صحيح الترمذي.

(٧) أخرجه أبو داود في الملاحم، باب الأمر والنهي (٤٣٣٩)، وابن ماجه في الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤٠٠٩)، وأحمد (٤/ ٣٦٤)، وسعيد بن منصور (٨٤١)، والطبراني في الكبير (٢/ ٣٣٢) رقم (٢٣٨٢)، وصححه ابن حبان (٣٠٠) وحسنه الألباني في صحيح أبي داود.

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا أَمَرَ، وَالشُّكْرُ لَهُ عَلَى نِعَمِهِ فَقَدْ تَأَذَّنَ بِالزِّيَادَةِ لِمَنْ شَكَرَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ إِرْغَامًا لِمَنْ جَحَدَ بِهِ وَكَفَرَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الشَّافِعُ الْمُشَفَّعُ فِي الْمَحْشَرِ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَأَقِيمُوا عَلَى طَاعَتِهِ دَهْرَكُمْ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٨، ٩٩].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: مَنْ يُحَارِبُونَ الْحِسْبَةَ وَالْمُحْتَسِبِينَ مِنَ الصَّحَفِيِّينَ وَالإِعْلَامِيِّينَ وَمَنْ يُسَمُّونَ أَنْفُسَهُمْ بِالْمُفَكِّرِينَ وَالْمُثَقَّفِينَ يَبْنُونَ فِكْرَتَهُمْ فِي مُحَارَبَةِ الْحِسْبَةِ وَالْمُحْتَسِبِينَ عَلَى مَذْهَبٍ غَرْبِيٍّ مَفَادُهُ: أَنَّ الْبَشَرِيَّةَ بَعْدَ الثَّوْرَتَيْنِ الصِّنَاعِيَّةِ وَالتِّجَارِيَّةِ قَدْ بَلَغَتْ سِنَّ الرُّشْدِ، وَآنَ لِلإِنْسَانِ أَنْ يَتَحَرَّرَ مِنْ أَيِّ وِصَايَةٍ عَلَيْهِ، وَبِالأَخَصِّ وِصَايَةُ الدِّينِ؛ فَلَهُ الْحُرِّيَّةُ فِي أَنْ يَقُولَ مَا يَشَاءُ، وَيَفْعَلَ مَا يَشَاءُ، وَلَا رَقِيبَ عَلَيْهِ وَلَا حَسِيبَ إِلَّا نَفْسُهُ وَضَمِيرُهُ كَمَا يَقُولُونَ!

ثُمَّ بَعْدَ ثَوْرَةِ الاتِّصَالَاتِ وَالْمَعْلُومَاتِ الَّتِي نَتَجَ عَنْهَا مِئَاتُ الْقَنَوَاتِ الْمَرْئِيَّةِ الْفَضَائِيَّةِ، وَمَلَايِينُ الْمَوَاقِعِ الإِلِكْتُرُونِيَّةِ عَلَى الشَّبَكَةِ الْعَالَمِيَّةِ زَادَ إِلْحَاحُ الْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ؛ مُطَالِبِينَ بِإِلْغَاءِ الْحِسْبَةِ، وَنَشِطُوا فِي مُحَارَبَةِ الْمُحْتَسِبِينَ عَبْرَ وَسَائِلِ الإِعْلَامِ؛ بِحُجَّةِ أَنَّ الْعَالَمَ قَدْ أَصْبَحَ قَرْيَةً وَاحِدَةً، وَأَنَّ مَنْعَ الْفَسَادِ أَوْ تَحْجِيمَهُ لَنْ يُغْنِيَ شَيْئًا أَمَامَ طُوفَانِ عَوْلَمَةِ الاتِّصَالَاتِ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ مِنَ الْخَيْرِ لِلنَّاسِ أَنْ يَتَعَايَشُوا مَعَ الانْفِتَاحِ الَّذِي مِنْهُ الْفَسَادُ الْعَقَائِدِيُّ وَالأَخْلَاقِيُّ، وَيَعْتَادُوا عَلَيْهِ، وَيُسَارِعُوا إِلَيْهِ، قَبْلَ أَنْ يُفَاجَأُوا بِهِ.

وَكُلُّ هَذِهِ المُسَوِّغَاتِ الَّتِي يَذْكُرُونَهَا مَا هِيَ إِلَّا مِنْ حِيَلِ المُفْسِدِينَ، وَوَحْيِ الشَّيْطَانِ لَهُمْ، وَصَدَقَ اللهُ تَعَالَى إِذْ يَقُولُ: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

أَمَّا دَعْوَى أَنَّ الْبَشَرِيَّةَ قَدْ بَلَغَتْ سِنَّ الرُّشْدِ، وَيَجِبُ أَنْ تُرْفَعَ الْوِصَايَةُ عَنْ أَفْرَادِهَا، فَهِيَ كِذْبَةٌ صَدَّقُوهَا وَلَمْ يُطَبِّقُوهَا لَا فِي الشَّرْقِ وَلَا فِي الْغَرْبِ؛ إِذْ يُوجَدُ فِي كُلِّ دُوَلِ الْعَالَمِ قَوَانِينُ وَأَنْظِمَةٌ، وَعُقُوبَاتٌ لِمَنْ يَنْتَهِكُهَا، وَمُقْتَضَى بُلُوغِ الْبَشَرِيَّةِ سِنَّ الرُّشْدِ أَنْ تُلْغَى جَمِيعُ الْأَنْظِمَةِ وَالْقَوَانِينِ وَالْعُقُوبَاتِ؛ لأَنَّهَا وِصَايَةٌ عَلَى الْبَشَرِ، وَلَا وِصَايَةَ عَلَى مَنْ بَلَغُوا سِنَّ الرُّشْدِ، وَلَا يَقُولُ بِهَذَا عَاقِلٌ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ بَعْضِ مُنَظِّرِي مَا يُسَمَّى بِـ: المَذَاهِبِ الْفَوْضَوِيَّةِ، الَّتِي ظَلَّتْ كِتَابَاتُهُمْ نَظَرِيَّاتٍ غَيْرَ قَابِلَةٍ لِلتَّطْبِيقِ الْعَمَلِيِّ.

وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَلِمَاذَا يَقْبَلُ المُحَارِبُونَ لِلْحِسْبَةِ وِصَايَةَ بَشَرٍ مِثْلِهِمْ عَلَيْهِمْ فِي سَائِرِ الْأَنْظِمَةِ وَالْقَوَانِينِ، وَلَا يَقْبَلُونَ وِصَايَةَ شَرْعِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمُ المُتَمَثِّلِ فِي شَعِيرَةِ الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ؟ وَهَلْ هُمْ يَعْبُدُونَ بَشَرًا مِثْلَهُمْ وَيَسْتَنْكِفُونَ مِنَ عُبُودِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى؟ وَيُطَالِبُونَ النَّاسَ بِرَفْضِهَا وَالتَّمَرُّدِ عَلَيْهَا؟!

وَأَمَّا دَعْوَى المُسَارَعَةِ إِلَى الانْفِتَاحِ، وَقَبُولِ مَا عِنْدَ الْآخَرِينَ وَلَوْ كَانَ فَسَادًا؛ لِئَلَّا نُفَاجَأَ بِهِ، فَهِيَ دَعْوَى مَرْدُودَةٌ بِشَرْعِ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي أَمَرَنَا بِمُدَافَعَةِ الْفَسَادِ، وَمُحَارَبَةِ أَزْلَامِهِ، وَتَحْذِيرِ النَّاسِ مِنْهُمْ؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

هَذَا، وَالْأُمَمُ الْأُخْرَى مِنْ كِتَابِيَّةٍ وَوَثَنِيَّةٍ تُدَافِعُ عَنْ أَفْكَارِهَا وَأَدْيَانِهَا وَثَقَافَاتِهَا

أَمَامَ غَزْوِ الْأُمَمِ الْأُخْرَى لَهَا، وَتَفْرِضُ وِصَايَةً عَلَى أَفْرَادِهَا فِي هَذَا السَّبِيلِ، فَمَا بَالُ أَقْوَامِنَا يَرْفُضُونَ الْحَقَّ الَّذِي لَدَيْهِمْ، وَيُسَارِعُونَ فِي بَاطِلِ غَيْرِهِمْ، بَلْ وَيَفْرِضُونَ وِصَايَتَهُمْ عَلَيْنَا بِقَسْرِنَا عَلَى بَاطِلِهِمْ؟!

إِنَّ الَّذِينَ يَرْفُضُونَ شَعِيرَةَ الْحِسْبَةِ مَا هُمْ إِلَّا مُنْحَرِفُونَ مُتَسَلِّطُونَ، يُرِيدُونَ فَرْضَ وِصَايَتِهِمْ عَلَى النَّاسِ، وَيَحُولُونَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ دِينِهِمْ وَشَعَائِرِهِ، وَيَسْعَوْنَ فِي نَقْلِهِمْ مِنْ أَشْرَفِ المَقَامَاتِ، وَهُوَ مَقَامُ عُبُودِيَّتِهِمْ لِلَّهِ تَعَالَى، وَالرِّضَا بِدِينِهِ، وَالْتِزَامِ أَحْكَامِهِ إِلَى عُبُودِيَّةِ أَفْكَارِهِمُ الضَّالَّةِ، وَمَذَاهِبِهِمُ الْمُنْحَرِفَةِ، كَفَى اللهُ تَعَالَى الْمُسْلِمِينَ شَرَّهُمْ، وَرَدَّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ خَاسِرِينَ، آمِينَ.

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٧، ٦٨].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ.



٢٧٩- إصلاح ذات البين (١) فضله وفقهه وآدابه

٢٦/٢/١٤٢٨هـ

الحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا؛ مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ هِدَايَةِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ، وَرَحْمَتِهِ بِهِمْ، أَنْ وَحَّدَ كَلِمَتَهُمْ بِالْإِسْلَامِ، وَجَمَعَ قُلُوبَهُمْ بِالْإِيمَانِ، فَلَمَّ بِهِ شَعَثَهُمْ، وَأَزَالَ ضَغَائِنَهُمْ، وَشَفَى صُدُورَهُمْ، فَكَانُوا إِخْوَةً فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَى مُتَحَابِّينَ مُتَجَالِسِينَ مُتَبَاذِلِينَ؛ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وَفِي الْآيَةِ الأُخْرَى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣].

وَمَا مِنْ سَبِيلٍ يَزِيدُ مِنْ لُحْمَةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيُؤَدِّي إِلَى تَرَابُطِهِمْ وَتَآلُفِهِمْ إِلَّا جَاءَتْ بِهِ الشَّرِيعَةُ؛ وُجُوبًا أَوْ نَدْبًا، وَمَا مِنْ طَرِيقٍ تُؤَدِّي إِلَى التَّفَرُّقِ وَالِاخْتِلَافِ، وَالضَّغِينَةِ وَالشَّحْنَاءِ، وَالْقَطِيعَةِ وَالْبَغْضَاءِ، إِلَّا حَرَّمَتْهَا الشَّرِيعَةُ، وَأَوْصَدَتْ طُرُقَهَا، وَسَدَّتْ سُبُلَهَا؛ وَلِذَلِكَ أَمَرَتِ الشَّرِيعَةُ بِالْبِرِّ وَالصِّلَةِ، وَحَرَّمَتِ الْعُقُوقَ وَالْقَطِيعَةَ، وَأَمَرَتْ بِإِفْشَاءِ السَّلَامِ، وَإِطْعَامِ الطَّعَامِ، وَالْحُبِّ فِي اللَّهِ تَعَالَى، وَالزِّيَارَةِ فِيهِ، وَإِجَابَةِ الدَّعْوَةِ، وَتَشْمِيتِ الْعَاطِسِ، وَعِيَادَةِ الْمَرِيضِ، وَاتِّبَاعِ الْجِنَازَةِ، وَحِفْظِ حُقُوقِ الأَهْلِ وَالْقَرَابَةِ وَالْجِيرَانِ، وَجَعَلَتْ لِلْمُسْلِمِ عَلَى أَخِيهِ الْمُسْلِمِ حُقُوقًا يَحْفَظُهَا لَهُ؛ فَيُؤْجَرُ عَلَيْهَا، وَأَرْشَدَتْ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْآدَابِ وَالْأَخْلَاقِ الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُقَوِّيَ الرَّوَابِطَ، وَتُدِيمَ الْأُلْفَةَ، وَتَزِيدَ فِي الْمَوَدَّةِ وَالْمَحَبَّةِ بَيْنَ النَّاسِ.

وَحَرَّمَتِ الشَّرِيعَةُ الهَمْزَ واللَّمْزَ وَالسُّخْرِيَةَ، وَالْغِيبَةَ وَالنَّمِيمَةَ، وَالْقَذْفَ وَالْبُهْتَانَ، وَالشَّتْمَ وَالسِّبَابَ، وَالْكَذِبَ وَالمِرَاءَ، وَالْفُجُورَ وَالجِدَالَ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُسَبِّبَ الضَّغَائِنَ وَالْخُصُومَاتِ، وَتُؤَجِّجَ نِيرَانَ الْأَحْقَادِ وَالْعَدَاوَاتِ.

وَمَعَ كُلِّ هَذِهِ الِاحْتِرَازَاتِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي يُرَبِّي الإِسْلَامُ أَهْلَهُ عَلَيْهَا، فَإِنَّ الإِنْسَانَ -وَهُوَ يَعِيشُ صَخَبَ الحَيَاةِ وَمُشْكِلَاتِهَا- لَا بُدَّ أَنْ يَعْتَرِيَهُ غَضَبٌ وَسَهْوٌ وَغَفْلَةٌ، فَيَعْتَدِيَ عَلَى أَخِيهِ بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ فِي حَالِ ضَعْفٍ مِنْهُ عَنْ كَبْحِ جِمَاحِ نَفْسِهِ، وَتَسْكِينِ سَوْرَةِ غَضَبِهِ، وَحَتَّى لَا يَتَسَبَّبَ هَذَا الخَطَأُ مِنْهُ فِي الخُصُومَةِ وَالْقَطِيعَةِ الَّتِي يُغَذِّيهَا الشَّيْطَانُ، وَيَنْفُخُ نَارَهَا؛ رَتَّبَ الإِسْلَامُ أُجُورًا عَظِيمَةً عَلَى الحِلْمِ وَكَظْمِ الْغَيْظِ، وَالْعَفْوِ عَنِ النَّاسِ، وَوَعَدَ اللهُ ﷻ الْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ جَنَّةً عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ، وَأَمَرَ الْمُعْتَدِي بِرَفْعِ ظُلْمِهِ،

وَالرُّجُوعِ عَنْ خَطَئِهِ، وَالِاعْتِذَارِ لِمَنْ وَقَعَ عَلَيْهِ اعْتِدَاؤُهُ.

إِنَّهَا تَشْرِيعَاتٌ رَبَّانِيَّةٌ عَظِيمَةٌ جَلِيلَةٌ، لَوْ أَخَذَ النَّاسُ بِهَا، لَمَا وَجَدَ الشَّيْطَانُ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا، وَلَمَا حَلَّتْ فِي أَوْسَاطِهِمُ الْقَطِيعَةُ وَالْخُصُومَةُ، وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ -وَإِنْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ- فَإِنَّهُ لَمْ يَيْئَسْ مِنَ التَّحْرِيشِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَبَثِّ الْفُرْقَةِ وَالِاخْتِلَافِ فِيهِمْ، وَالنَّيْلِ مِنْهُمْ بِالْعَدَاوَةِ وَالْخُصُومَةِ؛ وَلِذَا فَهُوَ يُزَيِّنُ لِلْمُعْتَدِي سُوءَ عَمَلِهِ، وَإِصْرَارَهُ عَلَى خَطَئِهِ، وَتَمَادِيَهِ فِي جَهْلِهِ، وَيُحَرِّضُ الْمُعْتَدَى عَلَيْهِ عَلَى الِانْتِصَارِ لِنَفْسِهِ، وَأَخْذِ حَقِّهِ، وَالنَّيْلِ مِمَّنِ اعْتَدَى عَلَيْهِ، وَعَدَمِ الْعَفْوِ عَنْهُ، وَحِينَئِذٍ تَدُبُّ الْخُصُومَةُ وَالْفُرْقَةُ الَّتِي تَتَوَلَّدُ عَنْهَا الضَّغِينَةُ وَالْقَطِيعَةُ، وَقَدْ يَصِلُ ذَلِكَ إِلَى الِاعْتِدَاءِ وَالِاقْتِتَالِ.

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ شَرَعَ الْإِسْلَامُ إِصْلَاحَ ذَاتِ الْبَيْنِ، وَأَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِهِ، وَأَبَاحَ لِلْمُصْلِحِينَ مَا حَرَّمَ عَلَى غَيْرِهِمْ، وَرَتَّبَ أَعْظَمَ الْأُجُورِ عَلَى هَذِهِ الْمُهِمَّةِ الْعَظِيمَةِ.

وَالْأَمْرُ بِإِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]، وَفِي آيَةٍ ثَالِثَةٍ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨].

وَالِاشْتِغَالُ بِالصُّلْحِ بَيْنَ الْمُتَخَاصِمِينَ أَفْضَلُ مِنَ الِاشْتِغَالِ بِنَوَافِلِ الْعِبَادَاتِ؛ لِمَا فِي الْإِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ مِنَ النَّفْعِ الْمُتَعَدِّي الَّذِي يَكُونُ سَبَبًا فِي وَصْلِ أَرْحَامٍ قُطِعَتْ، وَزِيَارَةِ إِخْوَانٍ هُجِرُوا، وَنَظَافَةِ الْقُلُوبِ مِمَّا عَلِقَ بِهَا مِنْ أَدْرَانِ الْحِقْدِ وَالْكَرَاهِيَةِ، وَذَلِكَ يُؤَدِّي إِلَى مَتَانَةِ الْمُجْتَمَعِ وَقُوَّتِهِ بِتَآلُفِ أَفْرَادِهِ وَتَمَاسُكِهِمْ؛ رَوَى أَبُو الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه فَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ**

الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ؟ قَالُوا: بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: **إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ الحَالِقَةُ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ(١).

وَالإِصْلَاحُ بَيْنَ النَّاسِ مَعْدُودٌ فِي الصَّدَقَاتِ بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**كُلُّ سُلَامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ يَعْدِلُ بَيْنَ النَّاسِ صَدَقَةٌ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٢)، قَالَ النَّوَوِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَمَعْنَى يَعْدِلُ بَيْنَ الِاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ: أَيْ يُصْلِحُ بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ»(٣).

وَلِعَظِيمِ أَمْرِ الإِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ أُبِيحَ لِلْمُصْلِحِينَ مَا حَرُمَ عَلَى غَيْرِهِمْ؛ فَلَا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ الثَّالِثِ، إِلَّا إِذَا كَانَ غَرَضُ المُنَاجِي لأَحَدِهِمَا الإِصْلَاحَ بَيْنَهُمَا، وَقَدْ ذَمَّ اللهُ تَعَالَى كَثِيرًا مِنَ التَّنَاجِي، إِلَّا مَا كَانَ لِلإِصْلَاحِ ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]، وَفِي الآيَةِ الأُخْرَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المجادلة: ٩]، وَمِنْ أَعْظَمِ التَّنَاجِي بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى مَا كَانَ لِلإِصْلَاحِ بَيْنَ مُسْلِمَيْنِ قَدْ فَسَدَ مَا بَيْنَهُمَا.

وَقَدْ يَحْتَاجُ المُصْلِحُ إِلَى بَعْضِ الْكَذِبِ؛ لِيُقَرِّبَ بَيْنَ المُتَخَاصِمَيْنِ، وَيُزِيلَ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ الضَّغِينَةِ، وَيُهَيِّئَ قَلْبَيْهِمَا لِقَبُولِ الصُّلْحِ وَالْعَفْوِ؛ وَذَلِكَ كَأَنْ يُخْبِرَ أَحَدَ الخَصْمَيْنِ بِأَنَّ صَاحِبَهُ لَا يَذْكُرُهُ إِلَّا بِخَيْرٍ، وَأَنَّهُ مُتَشَوِّفٌ لِمُصَالَحَتِهِ، حَرِيصٌ عَلَى

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب، باب إصلاح ذات البين (٤٩١٩)، والترمذي في صفة الجنة، باب سوء ذات البين هي الحالقة، وقال: حديث حسن صحيح (٢٥٠٩)، وأحمد (٦/ ٤٤٤-٤٤٥)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٩١)، وصححه ابن حبان (٥٠٩٢).

(٢) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في الصلح، باب فضل الإصلاح بين الناس (٢٧٠٧)، ومسلم في الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (١٠٠٩).

(٣) رياض الصالحين (٢٤٨).

قُرْبِهِ وَمَوَدَّتِهِ، مَعَ عَدَمِ حَقِيقَةِ ذَلِكَ، أَوْ يَسَأَلُهُ أَحَدُ الخَصْمَيْنِ إِنْ كَانَ خَصْمُهُ ذَكَرَهُ بِسُوءٍ عِنْدَهُ، فَيَنْفِي ذَلِكَ مَعَ وُقُوعِهِ مِنْهُ، وَمَا قَصَدَ بِكَذِبِهِ إِلَّا إِطْفَاءَ نَارِ الخُصُومَةِ، وَإِزَالَةَ أَسْبَابِ الشَّحْنَاءِ، فَرُخِّصَ لَهُ فِي ذَلِكَ مَعَ قُبْحِ الْكَذِبِ، وَعُمُومِ المَنْعِ مِنْهُ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أُمِّ كُلْثُوم بِنْتِ عُقْبَةَ: أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**لَيْسَ الكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ، فَيَنْمِي خَيْرًا، أَوْ يَقُولُ خَيْرًا**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[٤].

وَقَالَ نُعَيْمُ بْنُ حَمَّادٍ: «قُلْتُ لِسُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ: أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْتَذِرُ إِلَيَّ مِنَ الشَّيْءِ، عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدْ فَعَلَهُ، وَيُحَرِّفُ فِيهِ الْقَوْلَ لِيُرْضِيَهُ، أَعَلَيْهِ فِيهِ حَرَجٌ؟ قَالَ: لَا، أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَهُ: «**لَيْسَ بِكَاذِبٍ مَنْ قَالَ خَيْرًا أَوْ أَصْلَحَ بَيْنَ النَّاسِ**»، وَقَدْ قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]، فَإِصْلَاحُهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ أَفْضَلُ، إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ لِلَّهِ وَكَرَاهَةِ أَذَى المُسْلِمِينَ، وَهُوَ أَوْلَى بِهِ مِنْ أَنْ يَتَعَرَّضَ لِعَدَاوَةِ صَاحِبِهِ وَبُغْضَتِهِ، فَإِنَّ الْبُغْضَةَ حَالِقَةُ الدِّينِ، قُلْتُ: أَلَيْسَ مَنْ قَالَ مَا لَمْ يَكُنْ فَقَدْ كَذَبَ؟ قَالَ: لَا، إِنَّمَا الْكَاذِبُ الْآثِمُ، فَأَمَّا المَأْجُورُ، فَلَا، أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَى قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ ﵇: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصَّافات: ٨٩]، و﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]؟ وَقَالَ يُوسُفُ لِإِخْوَتِهِ: ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠]، وَمَا سَرَقُوا وَمَا أَثِمَ يُوسُفُ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُرِدْ إِلَّا خَيْرًا، قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٧٦]، وَقَالَ المَلَكَانِ لِدَاوُدَ ﵇: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [سورة ص: ٢٢]، وَلَمْ يَكُونَا خَصْمَيْنِ، وَإِنَّمَا أَرَادَا الْخَيْرَ وَالمَعْنَى الْحَسَنَ . . .»[٥].

بَلْ إِنَّ المُصْلِحَ بَيْنَ الخَصْمَيْنِ مَنْهِيٌّ عَنِ الصِّدْقِ، إِذَا كَانَ صِدْقُهُ يُشْعِلُ نَارَ

---

(٤) أخرجه البخاري في الصلح، باب ليس الكاذب الذي يصلح بين الناس (٢٦٩٢)، ومسلم في البر والصلة، باب تحريم الكذب وبيان المباح منه (٢٦٠٥).

(٥) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد (١٦/ ٢٤٩-٢٥٠).

الفِتْنَةِ بَيْنَهُمَا، وَيَزِيدُ فُرْقَتَهُمَا، وَالَّذِي يَنْقُلُ الْكَلَامَ بَيْنَ النَّاسِ عَلَى وَجْهِ الإِفْسَادِ يُسَمَّى نَمَّامًا، وَلَوْ كَانَ صَادِقًا فِيمَا يَنْقُلُ، وَالنَّمِيمَةُ مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ، وَلَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ نَمَّامٌ؛ كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ المُتَّفَقِ عَلَيْهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ[٦]، فَلَرُبَّمَا نُهِيَ المُصْلِحُ عَنِ الصِّدْقِ، إِنْ كَانَ يَضُرُّ بِمُهِمَّتِهِ فِي الصُّلْحِ، وَيُرَخَّصُ لَهُ فِي الكَذِبِ، إِنْ كَانَ الكَذِبُ يُؤَدِّي إِلَى إِصْلَاحِ ذَاتِ البَيْنِ.

وَالمُتَصَدِّي لِفَضِّ الخُصُومَاتِ، وَقَطْعِ النِّزَاعَاتِ، وَالْإِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ، قَدْ يَحْتَاجُ إِلَى مَالٍ لِيَدْفَعَهُ تَعْوِيضًا أَوْ دِيَةً، أَوْ إِرْضَاءً لأَحَدِ الخَصْمَيْنِ، فَيَغْرَمُ بِسَبَبِ ذَلِكَ مِنْ مَالِهِ، فَأُبِيحَ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ مَا غَرِمَ مِنَ الزَّكَاةِ؛ إِذْ إِنَّ مِنْ أَهْلِ الزَّكَاةِ المَنْصُوصِ عَلَيْهِمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى الغَارِمِينَ، سَوَاءٌ غَرِمُوا لِحَظِّ أَنْفُسِهِمْ، أَمْ لِحَظِّ غَيْرِهِمْ.

إِنَّ الإِصْلَاحَ بَيْنَ المُتَخَاصِمَيْنَ مُهِمَّةٌ جَلِيلَةٌ قَدْ فَرَّطَ فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ مَعَ قُدْرَتِهِمْ عَلَيْهَا، وَكَثِيرٌ مِنَ الخُصُومَاتِ تَكُونُ أَسْبَابُهَا تَافِهَةً، وَإِزَالَتُهَا يَسِيرَةً، وَقَدْ تُوجَدُ رَغْبَةُ الصُّلْحِ عِنْدَ كِلَا الخَصْمَيْنِ، وَلَكِنْ تَمْنَعُهُمَا الأَنَفَةُ وَالْعِزَّةُ مِنَ التَّنَازُلِ مُبَاشَرَةً، أَوْ المُبَادَرَةِ إِلَى الصُّلْحِ بِلَا وَسِيطٍ، فَإِذَا مَا جَاءَ الْوَسِيطُ سَهُلَ الْإِصْلَاحُ بَيْنَهُمَا؛ لِرَغْبَةِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فِي ذَلِكَ، فَيَنَالُ الوَسِيطُ أَجْرًا عَظِيمًا عَلَى عَمَلٍ قَلِيلٍ، وَيُؤَلِّفُ بَيْنَ قَلْبَيْنِ مُتَنَافِرَيْنَ. وَمَا مِنْ أُسْرَةٍ أَوْ قَبِيلَةٍ بَيْنَ بَعْضِ رِجَالِهَا خِلَافٌ وَقَطِيعَةٌ، إِلَّا وَفِيهَا رِجَالٌ عُقَلَاءُ، يَسْتَطِيعُونَ السَّعْيَ فِي إِزَالَةِ الْخِلَافِ وَالقَطِيعَةِ، وَلَكِنَّ التَّقْصِيرَ وَالغَفْلَةَ تَحُولُ دُونَ ذَلِكَ.

وَمَا مِنْ حَارَةٍ أَوْ دَائِرَةٍ حُكُومِيَّةٍ، أَوْ شَرِكَةٍ أَوْ مُؤَسَّسَةٍ بَيْنَ بَعْضِ أَفْرَادِهَا

---

(٦) أخرجه من حديث حذيفة رضي الله عنه: البخاري في الأدب، باب ما يكره من النميمة (٦٠٥٦)، ومسلم في الإيمان، باب بيان غلظ تحريم النميمة (١٠٥).

خُصُومَةٌ، إِلَّا وَفِيهَا مِنَ الرِّجَالِ الأَكْفَاءِ مَنْ هُوَ قَادِرٌ عَلَى الإِصْلَاحِ بَيْنَ المُتَخَاصِمِينَ، وَلَا سِيَّمَا ذَوِي الجَاهِ وَالْغِنَى وَالمَنَاصِبِ، وَلَكِنَّهُمْ يُقَصِّرونَ فِي ذَلِكَ مِنْ بَابِ عَدَمِ التَّدَخُّلِ فِيمَا لَا يَعْنِي حَسَبَ ظَنِّهِمْ، وَقَدْ صَلَحَتْ لَهُمْ دُنْيَاهُمْ، فَمَا عَلَيْهِمْ لَوِ اخْتَصَمَ النَّاسُ، وَأَكَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا! وَهَذِهِ فَرْدِيَّةٌ مُفْرَطَةٌ، وَأَثَرَةٌ بَغِيضَةٌ، وَحِرْمَانٌ مِنْ خَيْرٍ عَظِيمٍ، قَدْ رَتَّبَهُ الشَّارِعُ الحَكِيمُ عَلَى إِصْلَاحِ ذَاتِ البَيْنِ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي القُرْآنِ الْعَظِيمِ.



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: مَنْ تَصَدَّى لِلإِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ، فَعَلَيْهِ أَنْ يُخْلِصَ نِيَّتَهِ لِلَّهِ تَعَالَى وَلَا يَنْشُدَ ثَنَاءَ النَّاسِ وَشُكْرَهُمْ؛ فَإِنَّ هَذِهِ المُهِمَّةَ الجَلِيلَةَ مَظِنَّةٌ لِلسُّؤْدُدِ وَالرِّفْعَةِ وَالثَّنَاءِ، وَقَدْ يَدْخُلُ الشَّيْطَانُ مِنْ خِلَالِهَا عَلَى العَبْدِ، فَيُفْسِدُ نِيَّتَهُ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ فِي الإِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

وَعَلَيْهِ أَنْ يَسْتَعِينَ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَى مُهِمَّتِهِ، وَيَسْأَلَهُ تَأْلِيفَ قَلْبَيْ صَاحِبَيْهِ، وَإِلَانتَهُمَا لِقَبُولِ مُبَادَرَتِهِ؛ فَإِنَّ القُلُوبَ بِيَدِهِ ﷻ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ، وَهُوَ يُقَرِّبُهَا وَيُبَاعِدُهَا، وَلَا عَوْنَ لَهُ فِي صُلْحِهِ إِلَّا بِاللَّهِ تَعَالَى.

وَعَلَى السَّاعِي بَالْإِصْلَاحِ أَنْ يَتَحَرَّى الْعَدْلَ فِي صُلْحِهِ؛ فَلَا يَمِيلَ لأَحَدِ الْخَصْمِينِ لِقُوَّتِهِ وَنُفُوذِهِ، أَوْ لِإِلْحَاحِهِ وَعِنَادِهِ، فَيَظْلِمَ الآخَرَ لِحِسَابِهِ، فَيَتَحَوَّلَ مِنْ مُصْلِحٍ إِلَى ظَالِمٍ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا ارْتَضَاهُ الخَصْمَانِ حَكَمًا بَيْنَهُمَا، فَمَالَ إِلَى أَحَدِهِمَا، وَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِالْعَدْلِ بَيْنَ الْخُصُومِ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

وَلْيَتَسَلَّحْ فِي إِصْلَاحِهِ بِالْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ، أَوْ سُؤَالِ أَهْلِ الْعِلْمِ مَا يَحْتَاجُ إِلَى سُؤَالٍ؛ فَإِنْ كَانَ الْخِلَافُ عَلَى مَالٍ أَوْ إِرْثٍ أَوْ أَرْضٍ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَعْرِفَ حُكْمَ الشَّرِيعَةِ فِي ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُقْدِمَ عَلَى الصُّلْحِ، وَلَهُ أَنْ يُقَرِّبَ بَيْنَ الخَصْمَيْنِ، وَيُقْنِعَهُمَا بِالصُّلْحِ، ثُمَّ يَخْتَارَ لَهُمَا حَكَمًا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ يَرْضَيَانِهِ، وَإِنْ كَانَ الخِلَافُ بَيْنَ زَوْجَيْنِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَعْلَمَ بِالحُقُوقِ الشَّرْعِيَّةِ لِلزَّوْجَيْنِ؛ لِيَتَبَيَّنَ الظَّالِمَ مِنَ المَظْلُومِ، وَالمُخْطِئَ مِنَ المُصِيبِ، فَيُنَبِّهَ الظَّالِمَ عَلَى ظُلْمِهِ، وَيَدُلَّ المُخْطِئَ عَلَى خَطَئِهِ.

وَمِنْ فِقْهِ المُصْلِحِ أَنْ يَخْتَارَ الوَقْتَ المُنَاسِبَ لِلصُّلْحِ، فَلَا يُبَادِرُ إِلَى الصُّلْحِ عَقِبَ التَّشَاتُمِ وَالتَّعَارُكِ وَالتَّقَاتُلِ، بَلْ يَتَرَبَّصُ بِقَدْرِ مَا يَسْكُنُ الخَصْمَانِ، وَيَعُودَانِ إِلَى رُشْدِهِمَا، وَتَذْهَبُ سَوْرَةُ الغَضَبِ، وَتَضْعُفُ دَوَاعِي الِانْتِقَامِ، فَيُلْقِي بِمُبَادَرَتِهِ إِلَيْهِمَا.

وَعَلَى المُصْلِحِ أَنْ يَجِدَّ فِي قَطْعِ الطَّرِيقِ عَلَى النَّمَّامِينَ، وَنَقَلَةِ الْكَلَامِ الَّذِينَ يُعْجِبُهُمْ أَنْ تَسُودَ الْبَغْضَاءُ بَيْنَ النَّاسِ؛ فَإِنَّهُمْ يَنْشَطُونَ فِي الأَزَمَاتِ؛ لِبَثِّ

الشَّائِعَاتِ، وَنَقْلِ الْكَلَامِ، فَيُحَذِّرُ الْخَصْمَيْنِ مِنَ الاسْتِمَاعِ إِلَى أَرَاجِيفِهِمْ، وَيُثْبِتُ لَهُمَا كَذِبَهُمْ، وَمَا يُرِيدُونَهُ مِنَ الْإِفْسَادِ وَالْوَقِيعَةِ بَيْنَهُمَا.

وَعَلَيْهِ أَنْ يَخْتَارَ مِنَ الْكَلَامِ أَحْسَنَهُ، وَيُرَقِّقَ قَلْبَيْهِمَا، وَيُبَيِّنَ لَهُمَا حَقَارَةَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، فَلَا تَسْتَحِقُّ أَنْ يَتَعَادَى الْإِخْوَانُ مِنْ أَجْلِهَا، وَلَا أَنْ تُقْطَعَ الْقَرَابَةُ بِسَبَبِهَا، وَيُذَكِّرَهُمَا بِالمَوْتِ وَمَا بَعْدَهُ مِنَ الْحِسَابِ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَعِظَهُمَا بِنُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَإِنَّهُمَا أَعْظَمُ زَاجِرٍ لِلْمُؤْمِنِ، فَيُخْبِرُهُمَا بِأَنَّ أَعْمَالَهُمَا الصَّالِحَةَ مَوْقُوفَةٌ عَنِ الْعَرْضِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ يُنْظِرُهُمَا إِلَى أَنْ يَصْطَلِحَا؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**تُفْتَحُ أَبْوَابُ الجَنَّةِ يَوْمَ الاِثْنَيْنِ، وَيَوْمَ الخَمِيسِ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا، إِلَّا رَجُلًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ، فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٧).

فَإِنْ كَانَتِ الخُصُومَةُ بَيْنَهُمَا قَدْ أَدَّتْ إِلَى قَطِيعَةِ رَحِمٍ، بَيَّنَ لَهُمَا عَظِيمَ مَا وَقَعَا فِيهِ مِنَ الْقَطِيعَةِ، وَأَنَّ الجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا قَاطِعٌ، وَأَنَّ الرَّحِمَ شِجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللهُ تَعَالَى، وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللهُ ﷻ، كَمَا جَاءَ فِي الأَحَادِيثِ(٨).

---

(٧) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب، باب النهي عن الشحناء والتهاجر (٢٥٦٥).

(٨) كما في حديث جبير بن مطعم ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**لا يدخل الجنة قاطع**» أخرجه البخاري في الأدب، باب إثم القاطع (٥٩٨٤)، ومسلم في البر والصلة، باب صلة الرحم وتحريم قطعها (٢٥٥٦).

وحديث أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**إن الرحم شجنة من الرحمن، فقال الله: من وصلَكِ وصَلْتُهُ، ومَنْ قَطَعَكِ قَطَعْتُهُ**» أخرجه البخاري في الأدب، باب من وصل وصله الله (٥٩٨٨).

وَإِنْ تَهَاجَرَا بِسَبَبِ خُصُومَتِهِمَا، ذَكَّرَهُمَا بِخَطَرِ هَجْرِ الْمُسْلِمِ، وَأَنَّهُ لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ(٩).

وَإِنْ كَانَتِ الْخُصُومَةُ بَيْنَ زَوْجَيْنِ، بَيَّنَ لِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حُقُوقَ الْآخَرِ عَلَيْهِ، وَذَكَّرَهُمَا بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ [النساء: ٣٥].

فَإِنِ احْتَجَّ أَحَدُ الْخَصْمَيْنِ بِأَنَّهُ نَذَر أَلَّا يَتَنَازَلَ، أَوْ حَلَفَ عَلَى أَلَّا يُصَالِحَ، وَهَذَا يَقَعُ كَثِيرًا بَيْنَ الْغُرَمَاءِ وَالْمُتَخَاصِمِينَ، فَيَدْعُوهُ إِلَى أَنْ يُكَفِّرَ عَنْ يَمِينِهِ، وَيُصَالِحَ أَخَاهُ، وَيَحْتَجَّ عَلَيْهِ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٤].

قَالَ ابْنُ عَبَّاس رضي الله عنهما: «هُوَ الرَّجُلُ يَحْلِفُ أَلَّا يَصِلَ قَرَابَتَهُ، فَجَعَلَ اللهُ لَهُ مَخْرَجًا فِي التَّكْفِيرِ، وَأَمَرَهُ أَلَّا يَعْتَلَّ بِاللَّهِ، وَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ»(١٠).

وَرَوَى أَبُو هُرَيرَةَ رضي الله عنه فَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ، فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، فَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ**» رَوَاهُ مُسْلِم(١١).

وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ الصُّلْحَ خَيْرٌ مِنَ الشِّقَاقِ، وَالصِّلَةَ أَفْضَلُ مِنَ الْقَطِيعَةِ، وَالمَوَدَّةَ أَوْلَى مِنَ الْكَرَاهِيَةِ.

---

(٩) كما في حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يحل لِرَجُلٍ أن يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثلاث ليال، يلتقيان: فيُعْرِض هذا ويُعْرِض هذا، وخَيْرُهُمَا الذي يَبْدَأُ بالسَّلام**» أخرجه البخاري في الأدب، باب الهجرة (٦٠٧٧) ومسلم في البر والصلة، باب تحريم الهجر (٢٥٦٠).

(١٠) شرح ابن بطال على البخاري (٦/ ١٣٤)، وتفسير القرطبي (٦/ ٢٦٨). ولم أقف عليه مسندًا عن ابن عباس رضي الله عنهما بهذا المعنى. لكن جاء نحوه عن إبراهيم النخعي كما أخرجه عنه سعيد بن منصور في سننه (٣٧١)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٢٣٢).

(١١) أخرجه مسلم في الأيمان، باب ندب من حلف يمينًا فرأى غيرها خيرًا منها أن يأتي الذي هو خير، ويكفر عن يمينه (١٦٥٠).

وَمَنْ سَعَى فِي إِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ، فَإِنَّه يَجِبُ عَلَى النَّاسِ تَأْيِيدُهُ وَتَشْجِيعُهُ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، وَمَعُونَتُهُ بِمَا يَحْتَاجُ مِنَ الْجَاهِ وَالمَالِ؛ فَإِنَّ إِصْلَاحَ ذَاتِ الْبَيْنِ يَعُودُ عَلَى الْجَمِيعِ بِالْخَيْرِ وَالمَحَبَّةِ وَالأُلْفَةِ، كَمَا أَنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ يَضُرُّ المُجْتَمَعَ عَامَّةً، بِمَا يَسُودُ فِيهِ مِنَ الْأَحْقَادِ وَالضَّغَائِنِ، وَالْجَرَائِمِ وَالِانْتِقَامِ.

وَمَنْ سَعَى إِلَيْهِ أَخُوهُ بِالإِصْلَاحِ، فَلْيَقْبَلْ مِنْهُ، وَلْيُعِنْهُ عَلَيْهِ، وَلْيَكُنْ خَيْرَ الخَصْمَيْنِ، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ.

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ، كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ.





٢٨٠- إصلاح ذات البين (٢)
مجالات الصلح

١٣/ ١١/ ١٤٢٨هـ

الحَمْدُ لِلَّهِ؛ شَرَحَ قُلُوبَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ بِالإِسْلَامِ، وَأَلَّفَ بَيْنَهُمْ بِالإِيمَانِ؛ فَكَانُوا إِخْوَةً فِي اللَّهِ تَعَالَى ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

نَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا، وَنَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَعْطَانَا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ امْتَنَّ عَلَى رَسُولِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِإِزَالَةِ الشَّحْنَاءِ مِنْ قُلُوبِ أَصْحَابِهِ، وَمَلَأَهَا مَحَبَّةً وَمَوَدَّةً وَوِئَامًا؛ ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣].

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَمَرَ بِالصُّلْحِ بَيْنَ النَّاسِ، وَدَعَا إِلَيْهِ، وَرَغَّبَ فِيهِ، وَبَيَّنَ مَا رُتِّبَ عَلَيْهِ مِنْ عَظِيمِ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ؛ حَتَّى أَخْبَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ السَّعْيَ فِي إِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ أَفْضَلُ مِنْ نَوَافِلِ الصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ وَالصِّيَامِ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَطَيِّبُوا قُلُوبَكُمْ عَلَى إِخْوَانِكُمْ، وَلِينُوا لَهُمْ، وَاحْذَرُوا الْخُصُومَةَ وَالشَّحْنَاءَ؛ فَإِنَّهَا الْحَالِقَةُ الَّتِي تَحْلِقُ الدِّينَ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

أَيُّهَا النَّاسُ: الِاخْتِلَافُ مِنْ سَجَايَا الْبَشَرِ، وَالتَّنَازُعُ مِنْ عَادَاتِهِمْ؛ وَذَلِكَ

لِاخْتِلَافِ أَخْلَاقِهِمْ وَطِبَاعِهِمْ؛ وَلِتَنَافُسِهِمْ فِي حُظُوظِ الدُّنْيَا مِنَ المَالِ وَالشَّرَفِ وَغَيْرِهِمَا؛ ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَغْضَبُونَ لِأَجْلِ الدُّنْيَا، وَلَا يَغْضَبُونَ لِلدِّينِ، وَتُنْتَهَكُ حُرُمَاتُ اللَّهِ تَعَالَى فَلَا يَتَحَرَّكُ قَلْبُ أَحَدِهِمْ! وَلَكِنَّهُ يَغْضَبُ أَشَدَّ الْغَضَبِ إِذَا انْتُقِصَ شَيْءٌ مِنْ دُنْيَاهُ، أَوِ اعْتُدِيَ عَلَى كَرَامَتِهِ، وَلِأَجْلِ ذَلِكَ تَكْثُرُ الْخُصُومَةُ فِيمَا بَيْنَهُمْ. بَلْ قَدْ تَكُونُ الْخُصُومَةُ عَلَى أُمُورٍ حَقِيرَةٍ، وَأَسْبَابُهَا تَافِهَةٌ، وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفُخُ فِيهَا حَتَّى تَعْظُمَ فِي نُفُوسِ الْمُتَخَاصِمِينَ، وَقَدِيمًا اشْتَعَلَتْ حَرْبُ الْبَسُوسِ بَيْنَ بَكْرٍ وَتَغْلِبَ، فَدَامَتْ أَرْبَعِينَ سَنَةً أَكَلَتِ الْقَبِيلَتَيْنِ مِنْ أَجْلِ نَاقَةٍ عُقِرَتْ!! وَاشْتَعَلَتْ حَرْبُ دَاحِسَ وَالْغَبْرَاءِ فِي خَيْلٍ سُبِقَتْ! وَلَيْسَ ثَمَنُ النَّاقَةِ أَوِ الخَيْلِ أَغْلَى مِنْ ثَمَنِ الرِّجَالِ وَالقَبَائِلِ، حَتَّى تُسَعَّرَ الحُرُوبُ فِي سَبِيلِهَا، وَلَكِنَّهُ الشَّيْطَانُ الَّذِي يُشْعِلُ الْفِتَنَ الْكَبِيرَةَ مِنْ مُسْتَصْغَرِ شَرَرِهَا، فَإِنْ قُضِيَ عَلَى أَسْبَابِهَا فِي بَادِئِهَا وَإِلَّا نَفَخَ الشَّيْطَانُ فِي نَارِهَا، حَتَّى تَفْنَى قَبَائِلُ فِيهَا، وَكَمْ مِنْ قَتِيلٍ ذَهَبَتْ رُوحُهُ فِي خُصُومَةٍ بَدَأَتْ صَغِيرَةً فَكَبُرَتْ حَتَّى فَقَدَتْهُ أُسْرَتُهُ؟! وَكَمْ مِنْ رَحِمٍ قُطِعَتْ سَنَوَاتٍ طَوِيلَةً بِسَبَبِ كَلَامٍ قِيلَ فِيهِ أَوْ نُقِلَ عَنْهُ؟! وَكَمْ مِنْ إِخْوَانٍ تَهَاجَرُوا فِي وِشَايَةٍ سَرَتْ بَيْنَهُمْ؟!

إِنَّ الإِسْلَامَ جَاءَ بِإِصْلَاحِ ذَاتِ البَيْنِ، وَأَوْصَدَ الطُّرُقَ المُؤَدِّيَةَ إِلَى فَسَادِهَا، وَأَمَرَ المُسْلِمِينَ بِالإِصْلَاحِ بَيْنَ المُتَخَاصِمِينَ، كَمَا حَثَّ المُتَخَاصِمِينَ عَلَى قَبُولِ أَيِّ مُبَادَرَةٍ لِلصُّلْحِ وَفَضِّ النِّزَاعِ وَالشِّقَاقِ، وَإِنْهَاءِ الْقَطِيعَةِ.

وَالخُصُومَةُ قَدْ تَقَعُ بَيْنَ زُعَمَاءِ الدُّوَلِ حَتَّى تَصِلَ إِلَى حُرُوبٍ يَكْتَوِي بِنَارِهَا شُعُوبٌ لَا ذَنْبَ لَهَا، وَقَدْ تَقَعُ الخُصُومَةُ بَيْنَ طَائِفَتَيْنِ مِنَ المُسْلِمِينَ: قَبِيلَتَيْنِ، أَوْ أُسْرَتَيْنِ، أَوْ جَمَاعَتَيْنِ، أَوْ حِزْبَيْنِ، فَتُفَرِّقُ أَفْرَادَهُمَا الخُصُومَةُ وَقَدْ جَمَعَهُمُ

الإِسْلَامُ، وَقَدْ يُوَالُونَ أَعْدَاءَ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الكُفَّارِ وَالمُنَافِقِينَ فِي سَبِيلِ النَّيْلِ مِنْ خُصُومِهِمْ وَهُمْ مُسْلِمُونَ مِثْلُهُمْ، وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ كَثِيرًا فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ، وَيَعْظُمُ الْإِثْمُ إِنْ قُطِعَتْ أَرْحَامٌ بِسَبَبِ ذَلِكَ، فَإِنْ نَتَجَ عَنِ الخُصُومَةِ اقْتِتَالٌ فَالأَمْرُ أَشَدُّ؛ لِأَنَّهُ عَوْدٌ إِلَى أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ الَّتِي أَنْقَذَنَا اللهُ تَعَالَى مِنْهَا بِالإِسْلَامِ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلنَّاسِ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: «**لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١).

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ جَاءَ الأَمْرُ الرَّبَّانِيُّ بِقَطْعِ دَابِرِ الخُصُومَةِ، وَالسَّعْيِ بَيْنَ المُتَقَاتِلِينَ مِنَ المُسْلِمِينَ بِالإِصْلَاحِ، وَرَدْعِ الْفِئَةِ الْبَاغِيَةِ حَتَّى تَسْتَكِينَ إِلَى الصُّلْحِ ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

رَوَى أَنَسٌ رضي الله عنه قَالَ: «قِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: لَوْ أَتَيْتَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ، فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَرَكِبَ حِمَارًا، فَانْطَلَقَ المُسْلِمُونَ يَمْشُونَ مَعَهُ وَهِيَ أَرْضٌ سَبِخَةٌ، فَلَمَّا أَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: إِلَيْكَ عَنِّي، وَاللَّهِ لَقَدْ آذَانِي نَتْنُ حِمَارِكَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْهُمْ: وَاللَّهِ لَحِمَارُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَطْيَبُ رِيحًا مِنْكَ؛ فَغَضِبَ لِعَبْدِاللَّهِ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ فَشَتَمَهُ، فَغَضِبَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَصْحَابُهُ، فَكَانَ بَيْنَهُمَا ضَرْبٌ بِالْجَرِيدِ وَالْأَيْدِي وَالنِّعَالِ، فَبَلَغَنَا أَنَّهَا أُنْزِلَتْ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ﴾» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٢).

---

(١) أخرجه من حديث جرير رضي الله عنه: البخاري في العلم، باب الإنصات للعلماء (١٢١)، ومسلم في الإيمان، باب بيان معنى قول النبي ﷺ: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا . . .**» (٦٥).

(٢) أخرجه البخاري في الصلح، باب ما جاء في الإصلاح بين الناس (٢٥٤٥)، ومسلم في الجهاد والسير، باب في دعاء النبي ﷺ وصبره على أذى المنافقين (١٧٩٩).

وَحَازَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ ﷺ فَضِيلَةَ حَقْنِ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَخْمَدَ اللهُ تَعَالَى نَارَ الْفِتْنَةِ عَلَى يَدَيْهِ، حِينَ صَالَحَ مُعَاوِيَةَ ﷺ، وَتَنَازَلَ عَنِ الخِلَافَةِ لَهُ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِيهِ: «**إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٣).

وَوَقَعَتْ خُصُومَةٌ بَيْنَ حَيَّيْنِ مِنَ الأَنْصَارِ؛ فَسَعَى النَّبِيُّ ﷺ لِلصُّلْحِ بَيْنَهُمَا؛ كَمَا رَوَى سَهْلُ بنُ سَعْدٍ ﷺ: «أَنَّ أَهْلَ قُبَاءٍ اقْتَتَلُوا حَتَّى تَرَامَوْا بِالْحِجَارَةِ، فَأُخْبِرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِذَلِكَ، فَقَالَ: **اذْهَبُوا بِنَا نُصْلِحْ بَيْنَهُمْ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ. وَفِي رِوَايَةٍ لِأَبِي دَاوُدَ: فَقَالَ لِبِلَالٍ: «**إِنْ حَضَرَتْ صَلَاةُ الْعَصْرِ وَلَمْ آتِكَ فَمُرْ أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ**»(٤).

فَهَمَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِتَرْكِ إِمَامَةِ النَّاسِ فِي الصَّلَاةِ، مَعَ عَظِيمِ شَأْنِهَا مِنْ أَجْلِ الإِصْلَاحِ بَيْنَ الْمُتَخَاصِمِينَ.

وَقَدْ تَقَعُ الخُصُومَةُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ، وَتَشْتَدُّ حَتَّى يَكُونَ الطَّلَاقُ نَتِيجَتَهَا، وَيَكُونَ الأَوْلَادُ ضَحِيَّتَهَا، وَلِئَلَّا تَبْلُغَ الخُصُومَةُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ هَذَا المَبْلَغَ فَإِنَّ الشَّارِعَ الْحَكِيمَ سُبْحَانَهُ شَرَعَ الصُّلْحَ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ، وَأَمَرَ بِتَحْكِيمِ حَكَمَيْنِ مِنْ أَهْلِهِمَا؛ لِلْقَضَاءِ عَلَى الخُصُومَةِ، وَإِزَالَةِ أَسْبَابِ التَّوَتُّرِ وَالشِّقَاقِ، وَالحِفَاظِ عَلَى اسْتِقْرَارِ

---

(٣) أخرجه من حديث الحسن البصري عن أبي بكرة ﷺ: البخاري في الصلح، باب قول النبي ﷺ للحسن بن علي ﷺ: «ابني هذا سيد ...» (٢٥٥٧)، وأحمد (٥/ ٤٩) ونقل البخاري عقبه عن علي بن المديني -رحمه الله تعالى- قوله: «إنما ثبت لنا سماع الحسن من أبي بكرة بهذا الحديث» اهـ (٢/ ٩٦٢).

(٤) أخرجه البخاري في الصلح، باب قول الإمام لأصحابه: اذهبوا بنا نصلح (٢٥٤٧)، والنسائي في آداب القضاة، باب مسير الحاكم إلى رعيته للصلح بينهم (٨/ ٢٤٣)، وأبو داود في الصلاة، باب التصفيق في الصلاة (٩٤١)، وأبو يعلى (٧٥٢٤)، وابن حبان (٢٢٦١).

الأُسْرَةِ، وَسَلَامَةِ الأَوْلَادِ؛ ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٥].

وَرَوَى سَهْلُ بْنُ سَعْدٍ رضي الله عنه قَالَ: «جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْتَ فَاطِمَةَ، فَلَمْ يَجِدْ عَلِيًّا فِي الْبَيْتِ، فَقَالَ: **أَيْنَ ابْنُ عَمِّكِ؟** قَالَتْ: كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ شَيْءٌ فَغَاضَبَنِي، فَخَرَجَ فَلَمْ يَقِلْ عِنْدِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِإِنْسَانٍ: **انْظُرْ أَيْنَ هُوَ؟** فَجَاءَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هُوَ فِي المَسْجِدِ رَاقِدٌ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ قَدْ سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ شِقِّهِ وَأَصَابَهُ تُرَابٌ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَمْسَحُهُ عَنْهُ، وَيَقُولُ: **قُمْ أَبَا تُرَابٍ، قُمْ أَبَا تُرَابٍ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[٥].

لَاحِظُوا -أَيُّهَا الإِخْوَةُ- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِفَاطِمَةَ: «**أَيْنَ ابْنُ عَمِّكِ؟**» وَلَمْ يَقُلْ: أَيْنَ ابْنُ عَمِّي؟ أَوْ أَيْنَ زَوْجُكِ؟ أَوْ أَيْنَ عَلِيٌّ؟ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَهِمَ أَنَّهُ جَرَى بَيْنَهُمَا خُصُومَةٌ، فَأَرَادَ اسْتِعْطَافَهَا عَلَيْهِ بِذِكْرِ الْقَرَابَةِ النَّسَبِيَّةِ الَّتِي بَيْنَهُمَا[٦]، ثُمَّ تَلَطَّفَ النَّبِيُّ ﷺ مَعَ عَلِيٍّ، وَمَسَحَ التُّرَابَ عَنْهُ، وَمَازَحَهُ؛ لِيُطَيِّبَ خَاطِرَهُ، وَيُلَيِّنَ قَلْبَهُ عَلَى زَوْجِهِ، فَلْنَتَعَلَّمْ مِنَ هَذَا الأُسْلُوبِ الْحَسَنِ فِي الإِصْلَاحِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ.

وَقَدْ تَكُونُ الْخُصُومَةُ بِسَبَبِ الأَمْوَالِ -وَهِيَ أَكْثَرُ أَنْوَاعِ الخُصُومَةِ وُقُوعًا- إِمَّا فِي دَيْنٍ لَمْ يَقْضِهِ صَاحِبُهُ، أَوْ فِي شَرِكَةٍ اخْتَصَمَ الشُّرَكَاءُ بِسَبَبِهَا، أَوْ فِي إِرْثٍ تَأَخَّرَ الْوَرَثَةُ فِي قِسْمَتِهِ، أَوْ وَقْفٍ اخْتَلَفُوا فِي فَهْمِ مُرَادِ الْوَاقِفِ فِيهِ، أَوْ وَصِيَّةٍ لِوَارِثٍ أَخْطَأَ فِيهَا المُوصِي، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ.

---

(٥) أخرجه البخاري في المساجد، باب نوم الرجال في المسجد (٤٣٠)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٢٤٠٩).

(٦) ينظر: عمدة القاري (٤/ ١٩٩).

وَحَرِيٌّ بِمَنْ هُوَ قَرِيبٌ مِنَ المُتَخَاصِمِينَ أَنْ يَسْعَى بِالصُّلْحِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَلَوْ أَنْ يَقْتَرِحَ وَضْعَ بَعْضِ الدَّيْنِ أَوْ تَأْجِيلَهُ أَوْ تَقْسِيطَهُ، فَإِنْ كَانَتِ الخُصُومَةُ بَيْنَ شُرَكَاءَ أَزَالَ أَسْبَابَهَا، أَوْ سَعَى فِي فَضِّ شَرَاكَتِهِمَا بِالْعَدْلِ، فَإِنْ كَانَتِ الْخُصُومَةُ بِسَبَبِ إِرْثٍ سَعَى فِي قِسْمَتِهِ وَفْقَ شَرْعِ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِنْ كَانَتْ بِسَبَبِ وَصِيَّةِ جَوْرٍ رَفَعَ الظُّلْمَ وَصَحَّحَ الخَطأَ؛ ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٨٢]، وَمَا مِنْ خُصُومَةٍ إِلَّا لَهَا أَسْبَابٌ إِنْ سَعَى المُصْلِحُ فِي إِزَالَتِهَا زَالَ الشِّقَاقُ، وَحَلَّ مَكَانَهُ الوِفَاقُ.

رَوَى كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه: «أَنَّهُ تَقَاضَى ابْنَ أَبِي حَدْرَدٍ دَيْنًا لَهُ عَلَيْهِ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي المَسْجِدِ، فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا حَتَّى سَمِعَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي بَيْتِهِ؛ فَخَرَجَ إِلَيْهِمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى كَشَفَ سِجْفَ حُجْرَتِهِ، وَنَادَى: **يا كَعْبُ بْنَ مَالِكٍ، يَا كَعْبُ**، قَالَ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَشَارَ بِيَدِهِ أَنْ ضَعِ الشَّطْرَ مِنْ دَيْنِكَ، قَالَ كَعْبٌ: قَدْ فَعَلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **قُمْ فَاقْضِهِ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٧).

وَرَوَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَمِعَ صَوْتَ خُصُومٍ بِالْبَابِ عَالِيَةٍ أَصْوَاتُهُمَا، وَإِذَا أَحَدُهُمَا يَسْتَوْضِعُ الْآخَرَ وَيَسْتَرْفِقُهُ فِي شَيْءٍ -أَيْ: دَيْنٍ- وَهُوَ يَقُولُ: وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: **أَيْنَ المُتَأَلِّي عَلَى اللَّهِ لَا يَفْعَلُ المَعْرُوفَ؟** فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَهُ أَيُّ ذَلِكَ أَحَبَّ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٨).

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَهْدِيَنَا صِرَاطَهُ المُسْتَقِيمَ، وَأَنْ يَجْعَلَنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ،

---

(٧) أخرجه البخاري في المساجد، باب التقاضي والملازمة في المسجد (٤٤٥)، ومسلم في المساقاة، باب استحباب الوضع من الدين (١٥٥٨).

(٨) أخرجه البخاري في الصلح، باب هل يشير الإمام بالصلح (٢٥٥٨)، ومسلم في المساقاة، باب استحباب الوضع من الدين (١٥٥٧).

صَالِحِينَ مُصْلِحِينَ، لَا ضَالِّينَ وَلَا مُضِلِّينَ، إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ . . . .

❁ ❁ ❁

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ، كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَاعْمَلُوا صَالِحًا تَجِدُوهُ أَمَامَكُمْ؛ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزَّلزلة: ٧، ٨].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: مِنْ أَشَدِّ أَنْوَاعِ الْخُصُومَةِ ضَرَرًا وَإِثْمًا مَا يَكُونُ بَيْنَ الْقَرَابَةِ فَتُقْطَعُ بِسَبَبِهِ الْأَرْحَامُ، وَيَتَهَاجَرُ الْإِخْوَانُ وَالْأَعْمَامُ وَالْأَخْوَالُ وَالْأَصْهَارُ، وَرُبَّمَا مَكَثُوا سَنَوَاتٍ عِدَّةً عَلَى حَالٍ لَا تُرْضِي اللهَ ﷻ، وَلَا تُرْضِيهِمْ وَهُمْ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَيَعْلَمُونَ عَظِيمَ حَقِّ الرَّحِمِ عَلَيْهِمْ، وَلَكِنَّهُ الشَّيْطَانُ الَّذِي يَئِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ، فَيُوهِمَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْخَصْمَيْنِ أَنَّ كَرَامَتَهُ تَقْتَضِي الْإِصْرَارَ عَلَى رَأْيِهِ، وَالْبَقَاءَ عَلَى قَطِيعَةِ رَحِمِهِ، وَهِجْرَانِ قَرِيبِهِ، وَهَذِهِ نُقْطَةُ الضَّعْفِ الَّتِي يَتَسَلَّلُ الشَّيْطَانُ مِنْهَا إِلَى قُلُوبِ الْمُتَخَاصِمِينَ.

أَلَا وَإِنَّ الْقُوَّةَ كُلَّ الْقُوَّةِ، وَإِنَّ مُنْتَهَى الشَّجَاعَةِ وَالْجُرْأَةِ فِي دَحْرِ الشَّيْطَانِ، وَالِانْتِصَارِ عَلَى النَّفْسِ، وَالْمُبَادَرَةِ إِلَى الصُّلْحِ، وَالسَّابِقُ مِنَ الْخَصْمَيْنِ هُوَ الْمُنْتَصِرُ، وَالْمَسْبُوقُ مِنْهُمَا يَوَدُّ بَعْدَ الصُّلْحِ لَوْ كَانَ هُوَ السَّابِقَ، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ.

وَوَاجِبٌ عَلَى كُبَرَاءِ الأُسَرِ وَوُجَهَاءِ الْقَبَائِلِ وَمُدِيرِي الدَّوَائِرِ أَنْ يُصْلِحُوا بَيْنَ الْمُتَخَاصِمِينَ فِي أُسَرِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ وَإِدَارَاتِهِمْ، وَكُلُّ ذِي مَالٍ وَجَاهٍ يَقْبَلُ الْمُتَخَاصِمُونَ مِنْهُ مَا لَا يَقْبَلُونَ مِنْ غَيْرِهِ؛ فَلْيُزَكِّ مَا أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَى بِهِ عَلَيْهِ مِنَ الْمَالِ وَالْجَاهِ بِالصُّلْحِ بَيْنَ النَّاسِ؛ فَيَنَالَ رِضْوَانَ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَحَبَّةَ النَّاسِ لَهُ.

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها حُدِّثَتْ: «أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ قَالَ فِي بَيْعٍ أَوْ عَطَاءٍ أَعْطَتْهُ عَائِشَةُ: وَاللَّهِ لَتَنْتَهِيَنَّ عَائِشَةُ، أَوْ لَأَحْجُرَنَّ عَلَيْهَا، فَقَالَتْ: أَهُوَ قَالَ هَذَا؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَتْ: هُوَ لِلَّهِ عَلَيَّ نَذْرٌ أَلَّا أُكَلِّمَ ابْنَ الزُّبَيْرِ أَبَدًا -وَكَانَتْ خَالَتَهُ رضي الله عنها- فَاسْتَشْفَعَ ابْنُ الزُّبَيْرِ إِلَيْهَا حِينَ طَالَتِ الْهِجْرَةُ، فَقَالَتْ: لَا وَاللَّهِ، لَا أُشَفِّعُ فِيهِ أَبَدًا، وَلَا أَتَحَنَّثُ إِلَى نَذْرِي، فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ عَلَى ابْنِ الزُّبَيْرِ كَلَّمَ الْمِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْأَسْوَدِ بْنِ عَبْدِ يَغُوثَ، وَهُمَا مِنْ بَنِي زُهْرَةَ، وَقَالَ لَهُمَا: أَنْشُدُكُمَا بِاللَّهِ لَمَا أَدْخَلْتُمَانِي عَلَى عَائِشَةَ، فَإِنَّهَا لَا يَحِلُّ لَهَا أَنْ تَنْذِرَ قَطِيعَتِي، فَأَقْبَلَ بِهِ الْمِسْوَرُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ مُشْتَمِلَيْنِ بِأَرْدِيَتِهِمَا حَتَّى اسْتَأْذَنَا عَلَى عَائِشَةَ، فَقَالَا: السَّلَامُ عَلَيْكِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، أَنَدْخُلُ؟ قَالَتْ عَائِشَةُ: ادْخُلُوا، قَالُوا: كُلُّنَا؟ قَالَتْ: نَعَمْ، ادْخُلُوا كُلُّكُمْ. وَلَا تَعْلَمُ أَنَّ مَعَهُمَا ابْنَ الزُّبَيْرِ، فَلَمَّا دَخَلُوا دَخَلَ ابْنُ الزُّبَيْرِ الْحِجَابَ فَاعْتَنَقَ عَائِشَةَ وَطَفِقَ يُنَاشِدُهَا وَيَبْكِي، وَطَفِقَ الْمِسْوَرُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ يُنَاشِدَانِهَا إِلَّا مَا كَلَّمَتْهُ وَقَبِلَتْ مِنْهُ، وَيَقُولَانِ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَمَّا قَدْ عَلِمْتِ مِنَ الْهِجْرَةِ، فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ، فَلَمَّا أَكْثَرُوا عَلَى عَائِشَةَ مِنَ التَّذْكِرَةِ وَالتَّحْرِيجِ طَفِقَتْ تُذَكِّرُهُمَا وَتَبْكِي وَتَقُولُ: إِنِّي نَذَرْتُ وَالنَّذْرُ شَدِيدٌ، فَلَمْ يَزَالَا بِهَا حَتَّى كَلَّمَتِ ابْنَ الزُّبَيْرِ، وَأَعْتَقَتْ فِي نَذْرِهَا ذَلِكَ أَرْبَعِينَ رَقَبَةً، وَكَانَتْ تَذْكُرُ نَذْرَهَا بَعْدَ ذَلِكَ فَتَبْكِي حَتَّى تَبُلَّ

دُمُوعُهَا خِمَارَهَا» رَوَاهُ البُخَارِيُّ(٩).

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا المُسْلِمُونَ- وَاسْعُوا فِي الصُّلْحِ بَيْنَ المُتَخَاصِمِينَ مِنْ إِخْوَانِكُمْ وَقَرَابَتِكُمْ وَجِيرَانِكُمْ وَزُمَلَائِكُمْ؛ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ خَيْرًا عَظِيمًا؛ ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

وَلْيَعْلَمْ كُلُّ مُخَاصِمٍ لِأَخِيهِ المُسْلِمِ أَنَّ عَمَلَهُ الصَّالِحَ وَعَمَلَ خَصْمِهِ لَا يُرْفَعُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى يَصْفُوَ قَلْبَاهُمَا عَلَى بَعْضٍ، وَيُزِيلَا الشَّحْنَاءَ بَيْنَهُمَا؛ كَمَا رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**تُفْتَحُ أَبْوَابُ الجَنَّةِ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَيَوْمَ الخَمِيسِ؛ فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا، إِلَّا رَجُلًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ، فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٠).

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا . . .

❀ ❀ ❀

(٩) أخرجه البخاري في الأدب، باب الهجرة (٥٧٢٥)، وعبد الرزاق (١٥٨٥١)، وأحمد (٤/ ٣٢٧)، وابن حبان (٥٦٦٢).

(١٠) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب، باب النهي عن الشحناء والتهاجر (٢٥٦٥).



٢٨١- العلم والتعليم (١)
فضل العلم والعلماء

١٢/٨/١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: خَلَقَ اللهُ تَعَالَى الْخَلْقَ لِيَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ الطَّرِيقَ الْمُوصِلَةَ إِلَيْهِ بِمَا أَرْسَلَ مِنَ الرُّسُلِ، وَأَنْزَلَ مِنَ الْكُتُبِ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وَلَا سَبِيلَ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا بِمَعْرِفَةِ مُرَادِهِ، وَلَا يُمْكِنُ الْوُصُولُ إِلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ إِلَّا بِقِرَاءَةِ كِتَابِهِ، وَالتَّلَقِّي عَنْ رَسُولِهِ ﷺ، وَطَرِيقُ ذَلِكَ هُوَ الْعِلْمُ بِالْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ؛ وَلِذَا كَانَتِ الْعُلُومُ الشَّرْعِيَّةُ أَفْضَلَ الْعُلُومِ وَأَجَلَّهَا؛ لِأَنَّهَا تُوصِلُ

إِلَى الْعِلْمِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، وَثَوَابِهِ وَعِقَابِهِ. وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المُجَادَلَة: ١١]، وَرَوَى عَامِرُ بْنُ وَاثِلَةَ: «أَنَّ نَافِعَ بْنَ عَبْدِ الْحَارِثِ لَقِيَ عُمَرَ بِعُسْفَانَ -وَكَانَ عُمَرُ يَسْتَعْمِلُهُ عَلَى مَكَّةَ- فَقَالَ: مَنِ اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي؟ فَقَالَ: ابْنَ أَبْزَى، قَالَ: وَمَنِ ابْنُ أَبْزَى؟ قَالَ: مَوْلًى مِنْ مَوَالِينَا، قَالَ: فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلًى؟ قَالَ: إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللَّهِ ﷻ، وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ، قَالَ عُمَرُ: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ ﷺ قَدْ قَالَ: **إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[١].

وَمِنْ فَضِيلَةِ الْعِلْمِ: أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَشْهَدَ أَهْلَهُ عَلَى أَجَلِّ مَشْهُودٍ عَلَيْهِ وَأَصْدَقِهِ وَأَفْضَلِهِ، وَهُوَ تَوْحِيدُهُ ﷻ، وَقَرَنَ شَهَادَةَ أَهْلِ الْعِلْمِ بِشَهَادَتِهِ ﷻ وَبِشَهَادَةِ المَلَائِكَةِ الْكِرَامِ ﵈ ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عِمْرَان: ١٨].

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «اسْتَشْهَدَ بِهِمْ عَلَى أَجَلِّ مَشْهُودٍ بِهِ وَأَعْظَمِهِ وَأَكْبَرِهِ وَهُوَ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَالْعَظِيمُ الْقَدْرِ إِنَّمَا يَسْتَشْهِدُ عَلَى الْأَمْرِ الْعَظِيمِ أَكَابِرَ الْخَلْقِ وَسَادَاتِهِمْ»[٢].

وَقَدْ نَفَى اللهُ تَعَالَى التَّسْوِيَةَ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ وَبَيْنَ غَيْرِهِمْ كَمَا نَفَى التَّسْوِيَةَ بَيْنَ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَأَصْحَابِ النَّارِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزُّمَر: ٩]. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه (٧/ ٨)، وابن ماجه في المقدمة، باب فضل من تعلم القرآن وعلمه (٨/ ٢)، والدارمي (٣٣٦٥)، وأحمد (١/ ٣٥).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٤٩).

ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ﴾ [الحَشْر: ٢٠]، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى غَايَةِ فَضْلِهِمْ وَشَرَفِهِمْ.

وَجَعَلَ ﷻ صَاحِبَ الْجَهْلِ بِمَنْزِلَةِ الأَعْمَى الَّذِينَ لَا يُبْصِرُ، فَقَالَ ﷻ: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓۚ﴾ [الرَّعْد: ١٩]، فَمَا ثَمَّ إِلَّا مُبْصِرٌ أَوْ أَعْمَى، وَقَدْ وَصَفَ سُبْحَانَهُ أَهْلَ الْجَهْلِ بِأَنَّهُمْ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ.

وَأَهْلُ الْعِلْمِ هُمْ مَنْ يَعْرِفُ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى، وَكَلَامَ رَسُولِهِ ﷺ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ دُونَ سَائِرِ النَّاسِ ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سَبَأ: ٦]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [الأَنْعَام: ١١٤].

وَتَشْتَدُّ حَاجَةُ النَّاسِ لِأَهْلِ الْعِلْمِ؛ لِأَنَّهُمْ يُبَصِّرُونَهُمْ وَيُرْشِدُونَهُمْ وَيُفْتُونَهُمْ فِي أُمُورِ دِينِهِمْ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النَّحْل: ٤٣]، وَأَهْلُ الذِّكْرِ هُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام.

وَأَهْلُ الْعِلْمِ هُمْ أَهْلُ الْخَشْيَةِ، خَصَّهُمُ اللهُ تَعَالَى بِهَا مِنْ بَيْنِ سَائِرِ النَّاسِ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ۗ﴾ [فَاطِر: ٢٨]، وَهَذَا حَصْرٌ لِخَشْيَتِهِ فِي أُولِي الْعِلْمِ، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [الْبَيِّنَة: ٨]، وَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّ أَهْلَ خَشْيَتِهِ هُمُ الْعُلَمَاءُ، فَدَلَّ ذَلِكَ -بِمَجْمُوعِ الْآيَتَيْنِ- عَلَى أَنَّ هَذَا الْجَزَاءَ الْمَذْكُورَ هُوَ لِلْعُلَمَاءِ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «كَفَى بِخَشْيَةِ اللَّهِ عِلْمًا، وَكَفَى بِالِاغْتِرَارِ بِاللَّهِ جَهْلًا»[٣].

وَأَهْلُ الْعِلْمِ هُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ خُشُوعًا إِذَا سَمِعُوا آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى تُتْلَى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ١٠٤)، وابن المبارك في الزهد (١٥)، وأحمد في الزهد (١٥٨)، والطبراني في الكبير (٩/ ١٨٩) رقم (٨٩٢٧)، والبيهقي في الشعب (٧٤٦).

أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإِسْرَاء: ١٠٧، ١٠٩].

وَكَيْفَ لَا يَكُونُونَ كَذَلِكَ؟ وَقُلُوبُهُمْ مُسْتَوْدَعُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَيُعْمِلُونَ عُقُولَهُمْ فِي نُصُوصِهِمَا تَدَبُّرًا وَفَهْمًا وَاسْتِنْبَاطًا ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ [الْعَنْكَبُوت: ٤٩]. وَلِمَكَانَةِ أَهْلِ الْعِلْمِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّهُمْ يَشْهَدُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الرُّوم: ٥٦].

وَالْأَمْثَالُ الَّتِي ضَرَبَهَا اللهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ يَدُلُّهُمْ بِهَا عَلَى صِحَّةِ مَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ فِي كِتَابِهِ، وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ لَا يَفْهَمُهَا حَقَّ الْفَهْمِ إِلَّا أَهْلُ الْعِلْمِ ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [الْعَنْكَبُوت: ٤٣]. وَفِي الْقُرْآنِ بِضْعَةٌ وَأَرْبَعُونَ مَثَلًا، وَقَدْ كَانَ بَعْضُ السَّلَفِ إِذَا مَرَّ بِمَثَلٍ لَا يَفْهَمُهُ يَبْكِي وَيَقُولُ: «لَسْتُ مِنَ الْعَالِمِينَ»(٤).

وَالْخَيْرُ كُلُّ الْخَيْرِ يَنَالُهُ أَهْلُ الْعِلْمِ بِمُقْتَضَى قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [الْبَقَرَة: ٢٦٩]. وَبِمُقْتَضَى قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»، رَوَاهُ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ رضي الله عنهما. وَفِي لَفْظٍ لِلطَّبَرَانِيِّ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، تَعَلَّمُوا؛ إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَالْفِقْهُ بِالتَّفَقُّهِ، وَمَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»(٥).

---

(٤) مفتاح دار السعادة (٢/ ٥١).

(٥) أخرجه البخاري في العلم، باب من يرد الله به خيرًا يفقه في الدين (٧١)، ومسلم في الزكاة، باب النهي عن المسألة (١٠٣٧).

والرواية الثانية للطبراني في الكبير (١٩/ ٣٩٥) رقم (٩٢٩)، وفي مسند الشاميين (٧٥٨)، وقال الحافظ في الفتح بعد أن عزاه لابن أبي عاصم والطبراني (١/ ١٦١): إسناده حسن، إلا أن فيه مبهمًا اعتضد بمجيئه من وجه آخر.

وَالمُرَادُ بِالْفِقْهِ هُنَا: مَعْرِفَةُ مَا يَجِبُ لِلَّهِ ﷻ، وَفَهْمُ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ، وَمَعْرِفَةُ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَالْعَمَلُ بِمُقْتَضَى الْعِلْمِ بِذَلِكَ، قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَنْ لَمْ يُفَقِّهْهُ فِي دِينِهِ لَمْ يُرِدْ بِهِ خَيْرًا، كَمَا أَنَّ مَنْ أَرَادَ بِهِ خَيْرًا فَقَّهَهُ فِي دِينِهِ»(٦).

وَيَكْفِي فِي فَضْلِ الْعِلْمِ أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يَأْمُرْ نَبِيَّهُ ﷺ بِطَلَبِ الِازْدِيَادِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا الِازْدِيَادَ مِنَ الْعِلْمِ فَأَمَرَهُ بِهِ ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وَالْعِلْمُ طَرِيقٌ يُوصِلُ إِلَى الْجَنَّةِ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه(٧).

وَأَصْحَابُ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ تَنْقَطِعُ أَعْمَالُهُمْ بِوَفَاتِهِمْ إِلَّا مَنْ وَرَّثَ عِلْمًا يُنْتَفَعُ بِهِ، فَإِنَّ عِلْمَهُ يَجْرِي عَلَيْهِ فِي قَبْرِهِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ؛ كَمَا رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٨).

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ جُمْلَةً مِنْ فَضَائِلِ الْعِلْمِ وَالْعُلَمَاءِ: «وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ، وَقَدْ ذَكَرْنَا مِائَتَيْ دَلِيلٍ عَلَى فَضْلِ الْعِلْمِ وَأَهْلِهِ فِي كِتَابٍ مُفْرَدٍ، فَيَا لَهَا مِنْ مَرْتَبَةٍ مَا أَعْلَاهَا، وَمَنْقَبَةٍ مَا أَجَلَّهَا وَأَسْنَاهَا: أَنْ يَكُونَ الْمَرْءُ فِي حَيَاتِهِ مَشْغُولًا بِبَعْضِ أَشْغَالِهِ، أَوْ فِي قَبْرِهِ قَدْ صَارَ أَشْلَاءً مُتَمَزِّقَةً،

---

(٦) مفتاح دار السعادة (١/ ٦٠).

(٧) أخرجه مسلم في الذكر و الدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع في تلاوة القرآن والذكر (٢٦٩٩)، والترمذي في العلم، باب فضل طلب العلم (٢٦٤٦)، وابن ماجه في المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم (٢٢٥)، وأحمد (٢/ ٢٥٢).

(٨) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب كراهة تمني الموت لضر نزل به (٢٦٨٢)، والترمذي في الأحكام، باب في الوقف (١٣٧٦)، والنسائي في الوصايا، باب فضل الصدقة عن الميت (٣٦٥١).

وَأَوْصَالًا مُتَفَرِّقَةً، وَصُحُفُ حَسَنَاتِهِ مُتَزَايِدَةٌ يُمْلَى فِيهَا الْحَسَنَاتُ كُلَّ وَقْتٍ، وَأَعْمَالُ الْخَيْرِ مُهْدَاةٌ إِلَيْهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ! تِلْكَ وَاللَّهِ المَكَارِمُ وَالْغَنَائِمُ، وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ المُتَنَافِسُونَ، وَعَلَيْهِ يَحْسُدُ الْحَاسِدُونَ، وَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ، وَحَقِيقٌ بِمَرْتَبَةٍ هَذَا شَأْنُهَا أَنْ تُنْفَقَ نَفَائِسُ الْأَنْفَاسِ عَلَيْهَا، وَيَسْبِقَ السَّابِقُونَ إِلَيْهَا، وَتُوَفَّرَ عَلَيْهَا الْأَوْقَاتُ، وَتَتَوَجَّهَ نَحْوَهَا الطَّلَبَاتُ، فَنَسْأَلُ اللهَ الَّذِي بِيَدِهِ مَفَاتِيحُ كُلِّ خَيْرٍ أَنْ يَفْتَحَ عَلَيْنَا خَزَائِنَ رَحْمَتِهِ، وَيَجْعَلَنَا مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الصِّفَةِ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ، وَأَصْحَابُ هَذِهِ المَرْتَبَةِ يُدْعَوْنَ عُظَمَاءَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاءِ؛ كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَنْ عَلِمَ وَعَمِلَ وَعَلَّمَ فَذَلِكَ يُدْعَى عَظِيمًا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاءِ» انْتَهَى كَلَامُهُ[٩].

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: وَفَضَائِلُ الْعِلْمِ كَثِيرَةٌ، وَمَزَايَاهُ عَدِيدَةٌ، لَا يُحِيطُ بِهَا كِتَابٌ، وَلَا يُحْصِيهَا مَقَامٌ، وَكُلُّ الْبَشَرِ يُحِبُّونَ الِانْتِسَابَ إِلَى الْعِلْمِ، وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ، وَكُلُّ النَّاسِ يَتَبَرَّؤُونَ مِنَ الْجَهْلِ وَإِنْ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مِنْ أَهْلِهِ، فَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْجَهْلِ، وَمِنْ عَمَى الْبَصَائِرِ، وَنَسْأَلُهُ أَنْ يُعَلِّمَنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَأَنْ يَرْزُقَنَا الْعَمَلَ بِمَا عَلَّمَنَا، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [الْعَلَق: ١-٥].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.

❁ ❁ ❁

(٩) طريق الهجرتين (٥٢١-٥٢٢).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٨٢].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِذَا أُطْلِقَ الْعِلْمُ فِي الْكِتَابِ أَوِ السُّنَّةِ فَالْمُرَادُ بِهِ الْعِلْمُ الشَّرْعِيُّ، قَالَ الطَّحَاوِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «اسْمُ الْعَالِمِ يُسْتَحَقُّ بِشَيْئَيْنِ: بِعِلْمِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَشَرَائِعِ الدِّينِ فَهُوَ الْعَالِمُ الْفَقِيهُ، وَالْآخَرُ بِخَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فَاطِر: ٢٨] فَالْمُرَادُ بِالْعَالِمِ: هُوَ الْعَالِمُ الْفَقِيهُ؛ لِأَنَّ آبَاطَ الْإِبِلِ لَا تُضْرَبُ إِلَّا فِي طَلَبِ الْعِلْمِ الَّذِي هُوَ الْفِقْهُ، لَا فِي طَلَبِ الْعِلْمِ الَّذِي هُوَ الْخَشْيَةُ، فَمَنْ كَانَ مَعَهُ مِنَ الْفُقَهَاءِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى مَا لَيْسَ مَعَ غَيْرِهِ مِنْهُمْ فَهُوَ فِي أَرْفَعِ مَرَاتِبِ الْعُلَمَاءِ»[١٠].

وَقَالَ الْحَافِظُ ابنُ حَجَرٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَالْمُرَادُ بِالْعِلْمِ الْعِلْمُ الشَّرْعِيُّ الَّذِي يُفِيدُ مَعْرِفَةَ مَا يَجِبُ عَلَى الْمُكَلَّفِ مِنْ أَمْرِ دِينِهِ فِي عِبَادَاتِهِ وَمُعَامَلَاتِهِ، وَالْعِلْمُ بِاللَّهِ وَصِفَاتِهِ وَمَا يَجِبُ لَهُ مِنَ الْقِيَامِ بِأَمْرِهِ وَتَنْزِيهِهِ عَنِ النَّقَائِصِ» اهـ[١١].

وَعُلُومُ الدُّنْيَا كَالطِّبِّ وَالْهَنْدَسَةِ وَالْفَلَكِ وَغَيْرِهَا مِمَّا يَنْفَعُ النَّاسَ، لِصَاحِبِهَا مِنَ الثَّوَابِ وَالْأَجْرِ بِقَدْرِ نِيَّتِهِ الصَّالِحَةِ فِي نَفْعِ النَّاسِ، وَالِارْتِقَاءِ بِمُجْتَمَعِهِ وَأُمَّتِهِ حَتَّى

---

(١٠) المعتصر من المختصر من مشكل الآثار لأبي المحاسن الملطي (٢/ ٣٤٠).

(١١) فتح الباري (١/ ٤١٤).

لَا تكُونَ عَالَةً عَلَى غَيْرِهَا مِنَ الْأُمَمِ، وَهَذِهِ الْعُلُومُ النَّافِعَةُ هِيَ مِنْ فُرُوضِ الْكِفَايَاتِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ يَنْفِرَ لَهَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ؛ لِيُغْنُوا مُجْتَمَعَاتِهِمْ عَنِ الْحَاجَةِ إِلَى غَيْرِهِمْ، وَمَنْ نَفَرَ إِلَيْهَا مُخْلِصًا لِلَّهِ تَعَالَى فَهُوَ مُشَارِكٌ فِي رَفْعِ الْحَرَجِ عَنْ عُمُومِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَهُ مِنَ الْأَجْرِ بِقَدْرِ نِيَّتِهِ الصَّالِحَةِ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: يَجِبُ أَنْ يُرَاجِعَ كُلُّ مُدَرِّسٍ وَمُدَرِّسَةٍ، وَطَالِبٍ وَطَالِبَةٍ، نَوَايَاهُمْ تُجَاهَ بَذْلِ الْعِلْمِ وَطَلَبِهِ؛ إِذْ إِنَّ مِنْ أَهَمِّ أَسْبَابِ تَأَخُّرِ الْمُسْلِمِينَ فِي شَتَّى الْعُلُومِ ضَعْفَ الْإِخْلَاصِ فِي التَّعْلِيمِ وَالتَّحْصِيلِ، وَتَقْدِيمَ حُظُوظِ الدُّنْيَا عَلَى حُقُوقِ الْآخِرَةِ، وَإِلَّا فَالْمُخْلِصُونَ لِلَّهِ تَعَالَى مُوَفَّقُونَ فِي كُلِّ أَعْمَالِهِمْ، وَيَظْهَرُ إِنْتَاجُ الْوَاحِدِ مِنْهُمْ كَمَا لَوْ كَانَ أُمَّةً وَحْدَهُ.

لَقَدْ أَدَّى إِخْلَاصُ الْمُعَلِّمِ وَالْمُتَعَلِّمِ فِيمَا مَضَى مِنْ تَارِيخِنَا إِلَى نَهْضَةٍ حَضَارِيَّةٍ شَامِلَةٍ، تَبِعَ الْمُسْلِمِينَ فِيهَا غَيْرُهُمْ، فَكَانَتِ الطَّوَائِفُ الْأُخْرَى مِنْ يَهُودٍ وَنَصَارَى وَغَيْرِهِمْ يَرَوْنَ أَنَّ الشَّرَفَ كُلَّ الشَّرَفِ فِي أَنْ يُتْقِنُوا اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ وَآدَابَهَا وَفُنُونَهَا، يَبُزُّونَ بِذَلِكَ أَقْرَانَهُمْ، وَيُفَاخِرُونَ بِهِ فِي مُجْتَمَعَاتِهِمْ؛ وَذَلِكَ إِبَّانَ الْحَضَارَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي الْأَنْدَلُسِ، حَتَّى كَتَبَ أَحَدُ الْمُؤَرِّخِينَ الْقَسَاوِسَةِ مِنَ الْأُورُبِّيِّينَ يَصِفُ الْأَحْوَالَ آنَذَاكَ، فَمِمَّا كَتَبَ قَوْلُهُ: «كَثِيرُونَ مِنْ أَبْنَاءِ دِينِي يَقْرَؤُونَ أَشْعَارَ الْعَرَبِ وَأَسَاطِيرَهُمْ، وَيَدْرُسُونَ مَا كَتَبَهُ عُلَمَاءُ الدِّينِ، لَا لِيَخْرُجُوا عَنْ دِينِهِمْ، وَإِنَّمَا لِيَتَعَلَّمُوا كَيْفَ يَكْتُبُونَ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ مُسْتَخْدِمِينَ الْأَسَالِيبَ الْبَلَاغِيَّةَ.

ثُمَّ يَقُولُ: أَيْنَ نَجِدُ الْيَوْمَ مَسِيحِيًّا عَادِيًّا يَقْرَأُ النُّصُوصَ الْمُقَدَّسَةَ بِاللُّغَةِ اللَّاتِينِيَّةِ؟ مَنْ مِنْكُمْ يَدْرُسُ الْيَوْمَ الْكِتَابَ الْمُقَدَّسَ أَوْ مَا قَالَهُ الرُّسُلُ؟

إِنَّ كُلَّ الشَّبَابِ النَّابِهِ مُنْصَرِفٌ الْآنَ إِلَى تَعَلُّمِ اللُّغَةِ وَالْأَدَبِ الْعَرَبِيَّيْنِ، فَهُمْ يَقْرَؤُونَ وَيَدْرُسُونَ بِحَمَاسَةٍ بَالِغَةٍ الْكُتُبَ الْعَرَبِيَّةَ، وَيَدْفَعُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي اقْتِنَاءِ

المَكْتَبَاتِ، وَيَتَحَدَّثُونَ فِي كُلِّ مَكَانٍ بِأَنَّ الْأَدَبَ الْعَرَبِيَّ جَدِيرٌ بِالدِّرَاسَةِ وَالِاهْتِمَامِ، وَإِذَا حَدَّثَهُمْ أَحَدٌ عَنِ الْكُتُبِ المَسِيحِيَّةِ أَجَابُوهُ بِلَا اكْتِرَاثٍ: بِأَنَّ هَذِهِ الْكُتُبَ تَافِهَةٌ وَلَا تَسْتَحِقُّ اهْتِمَامَهُمْ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا لَلْهَوْلِ! نَسِيَ المَسِيحِيُّونَ حَتَّى لُغَتَهُمْ، وَلَنْ تَجِدَ بَيْنَ الْأَلْفِ مِنْهُمْ وَاحِدًا يَسْتَطِيعُ كِتَابَةَ خِطَابٍ بِاللُّغَةِ اللَّاتِينِيَّةِ، بَيْنَمَا تَجِدُ بَيْنَهُمْ عَدَدًا كَبِيرًا لَا يُحْصَى يَتَكَلَّمُ الْعَرَبِيَّةَ بِطَلَاقَةٍ، وَيَقْرِضُ الشِّعْرَ أَحْسَنَ مِنَ الْعَرَبِ أَنْفُسِهِمْ» انْتَهَى كَلَامُهُ[١٢].

وَذَكَرَتْ مُسْتَشْرِقَةٌ أَلمَانِيَّةٌ أَنَّ الْأُسْقُفَ وَالْقَاضِيَ الْأُورُبِّيَّيْنِ آنَذَاكَ يَلْبَسَانِ زِيًّا عَرَبِيًّا، وَيَحْمِلَانِ اسْمَيْنِ عَرَبِيَّيْنِ، وَيَتْلُوَانِ كَغَيْرِهِمَا مِنَ النَّصَارَى الْإِنْجِيلَ بِالْعَرَبِيَّةِ[١٣].

وَلَيْسَ يَعْنِينَا فِي هَذَا المَقَامِ التَّذْكِيرُ بِالْأَمْجَادِ السَّالِفَةِ قَدْرَ أَنْ نَأْخُذَ الْعِبْرَةَ مِنَ التَّارِيخِ، وَأَنْ لَا نُفَرِّطَ فِيمَا خَطَّهُ الْأَجْدَادُ بِمِدَادٍ مِنْ ذَهَبٍ فِي صَفَحَاتِ التَّارِيخِ الْأُورُبِّيِّ، وَمَا أَحْوَجَ النَّاسَ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا إِلَى الْأَخْذِ بِأَيْدِيهِمْ إِلَى حَظِيرَةِ هَذَا الدِّينِ الْعَظِيمِ! وَلَا يَتَأَتَّى ذَلِكَ إِلَّا بِالْعِلْمِ وَالتَّعْلِيمِ، وَالدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى عَلَى بَصِيرَةٍ، وَلَا بَصِيرَةَ بِلَا عِلْمٍ صَحِيحٍ.

فَاتَّقُوا اللهَ -أَيُّهَا المُسْلِمُونَ- فِي أَنْفُسِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ وَأُمَّتِكُمْ، وَتَعَلَّمُوا الْعِلْمَ النَّافِعَ وَعَلِّمُوهُ، وَاغْرِسُوا فِي نُفُوسِ أَوْلَادِكُمْ وَطُلَّابِكُمُ الْإِخْلَاصَ فِي الْعَمَلِ، وَالْجِدَّ فِي الطَّلَبِ، وَالِابْتِعَادَ عَنِ المُلْهِيَاتِ الَّتِي فَتَكَتْ بِعُقُولِ الشَّبَابِ، وَدَمَّرَتْ

---

(١٢) قائل ذلك هو الفارو أسقف قرطبة، كما ذكرته المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه في كتابها: «شمس العرب تسطع على الغرب» (٥٢٩)، تعريب: فاروق بيضون، وكمال دسوقي، دار الجيل، بيروت، ودار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثامنة، ١٤١٣.

(١٣) شمس العرب تسطع على الغرب (٥٢٩).

كَثِيرًا مِنْ أَخْلَاقِهِمْ، وَأَوْهَنَتْ عَزَائِمَهُمْ، وَأَضْعَفَتْ قُوَّتَهُمْ عَنْ تَحَمُّلِ الْمَسْؤُولِيَّاتِ. عَسَى اللهُ تَعَالَى أَنْ يُصْلِحَ شَبَابَ الْمُسْلِمِينَ وَفَتَيَاتِهِمْ، وَأَنْ يَجْعَلَهُمْ قُرَّةَ أَعْيُنٍ لِوَالِدِيهِمْ وَلِمُجْتَمَعَاتِهِمْ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .



٢٨٢- العلم والتعليم (٢)
ذم الجهل وأهله

١٨/٨/١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [الْعَلَق: ٤-٥]، نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى آلَائِهِ وَمِنَنِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ عَظِيمٌ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَأُلُوهِيَّتِهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الْأَنْعَام: ١٠٢، ١٠٣].

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ نَقَلَ اللهُ تَعَالَى بِهِ هَذِهِ الْأُمَّةَ الْخَاتِمَةَ مِنَ الْجَهْلِ إِلَى الْعِلْمِ، وَمِنَ الضَّلَالِ إِلَى الْهُدَى، وَمِنْ دَرَكَاتِ الشَّرِّ إِلَى دَرَجَاتِ الْخَيْرِ ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عِمْرَان: ١٦٤]، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ٤٨].

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمَّا خَلَقَهُمْ عَلَّمَهُمْ مَا يَنْفَعُهُمْ وَمَا يَضُرُّهُمْ، فَكُلُّ مَخْلُوقٍ مِنْهُمْ يَجْلِبُ لِنَفْسِهِ النَّفْعَ، وَيَدْفَعُ عَنْهَا الضُّرَّ؛ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِهِمْ، وَهِدَايَةً مِنْهُ ﷻ لَهُمْ، وَلَمَّا قَالَ فِرْعَوْنُ فِي مُنَاظَرَتِهِ

لِمُوسَى عليه السلام: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩، ٥٠].

وَفَضَّلَ تبارك وتعالى الْبَشَرَ عَلَى سَائِرِ الْحَيَوَانِ بِمَا وَهَبَهُمْ مِنَ الْعُقُولِ الَّتِي فَتَحَتْ لَهُمْ مَغَالِيقَ الْعُلُومِ، وَسُخِّرَتْ لَهُمْ بِهَا كُنُوزُ الْأَرْضِ وَدَوَابُّهَا ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسْرَاء: ٧٠].

وَالْبَشَرُ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَعْلَمُوا شَيْئًا، لَوْلَا أَنَّ اللهَ تَعَالَى رَكَّبَ فِيهِمُ الْأَسْمَاعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ الَّتِي هِيَ وَسَائِلُ تَحْصِيلِ الْعُلُومِ وَالمَعَارِفِ ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النَّحل: ٧٨].

وَأَعْظَمُ عِلْمٍ يَنْفَعُ الْإِنْسَانَ فِي عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ هُوَ الْعِلْمُ بِاللَّهِ تَعَالَى وَبِمَا يُرْضِيهِ، وَذَلِكَ بِتَعَلُّمِ كِتَابِهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَالْفِقْهِ فِيهِمَا؛ لِيَعْبُدَ رَبَّهُ عز وجل عَلَى عِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ، ثُمَّ الْعِلْمُ بِمَا يُصْلِحُ لِلْعَبْدِ دُنْيَاهُ؛ فَإِنَّ الدُّنْيَا مَطِيَّةُ الْآخِرَةِ.

وَأَعْظَمُ الْجَهْلِ وَأَشَدُّهُ وَأَشْنَعُهُ الْجَهْلُ بِاللَّهِ تَعَالَى وَبِدِينِهِ الَّذِي ارْتَضَاهُ لِعِبَادِهِ، وَمَنْ عَطَّلَ عَقْلَهُ عَنْ تَحْصِيلِ مَا يَنْفَعُهُ مِنَ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي بِهَا يُقِيمُ دِينَهُ، وَيَعْبُدُ رَبَّهُ فَهُوَ مِنَ الْجَاهِلِينَ، وَلَوْ كَانَ مُبَرَّزًا فِي عُلُومِ الدُّنْيَا. وَالْأُمَّةُ الَّتِي لَيْسَ لَهَا مِنْ عُلُومِ الشَّرِيعَةِ أَيُّ حَظٍّ هِيَ أُمَّةٌ جَاهِلَةٌ هَالِكَةٌ وَلَوِ اكْتَشَفَتِ الذَّرَّةَ، وَشَيَّدَتِ الْعُمْرَانَ وَالْحَضَارَةَ، وَصَعِدَتْ إِلَى الْفَضَاءِ حَتَّى بَلَغَتِ الْقَمَرَ؛ إِذْ إِنَّ أَضَرَّ شَيْءٍ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَجْهَلُوا مَا يَنْفَعُهُمْ وَمَا يَضُرُّهُمْ، وَمَا يُقَرِّبُهُمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَهُوَ الْإِيمَانُ بِهِ وَطَاعَتُهُ، وَاتِّبَاعُ رُسُلِهِ؛ وَلِذَلِكَ امْتَدَحَ اللهُ تَعَالَى الْعِلْمَ وَالْعُلَمَاءَ، وَذَمَّ الْجَهْلَ وَأَهْلَهُ، وَأَخْبَرَ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ وَأَهْلَ الْجَهْلِ لَا يَسْتَوِيَانِ أَبَدًا ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى

ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزُّمَر: ٩].

وَكُلُّ حَمْدٍ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ لِلْعِلْمِ وَالْعُلَمَاءِ فَإِنَّهُ يَنْصَرِفُ إِلَى الْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ الَّذِي يُتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالَى، وَكُلُّ ذَمٍّ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ لِلْجَهْلِ وَأَهْلِهِ فَهُوَ مُنْصَرِفٌ إِلَى الْجَهْلِ بِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَقَدْ أَخْبَرَ ﷻ عَنِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ بِسَبَبِ جَهْلِهِمْ ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الْأَنْعَام: ١١١].

وَالْجَهْلُ سَبَبٌ لِلْإِعْرَاضِ عَنِ الْحَقِّ وَمُحَارَبَتِهِ، وَمُنَابَذَةِ أَهْلِهِ بِالْعَدَاءِ، وَهُوَ أَكْثَرُ دَاءٍ فِي أَهْلِ الْبَاطِلِ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الْأَنْبِيَاء: ٢٤].

وَالْجَهْلُ بِاللَّهِ تَعَالَى وَبِدِينِهِ يُؤَدِّي إِلَى الشِّرْكِ بِهِ؛ وَلِذَا وَصَفَ بِهِ نُوحٌ وَهُودٌ وَلُوطٌ ﷺ أَقْوَامَهُمْ لَمَّا رَفَضُوا دَعَوَاتِهِمْ، وَأَصَرُّوا عَلَى شِرْكِهِمْ وَمَعْصِيَتِهِمْ لِلَّهِ تَعَالَى، فَقَالَ نُوحٌ عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [هُود: ٢٩].

وَقَالَ هُودٌ عليه السلام لِقَوْمِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [الْأَحْقَاف: ٢٣].

وَقَالَ لُوطٌ عليه السلام لِقَوْمِهِ: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النَّمْل: ٥٥].

وَلَمَّا طَلَبَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ مُوسَى عليه السلام أَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ مِثْلَ مَا لِلْمُشْرِكِينَ مِنَ الْأَصْنَامِ أَنْكَرَ مُوسَى عَلَيْهِمْ، وَبَيَّنَ أَنَّ الْحَامِلَ لَهُمْ عَلَى طَلَبِهِمْ هَذَا هُوَ جَهْلُهُمْ بِاللَّهِ تَعَالَى ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٣٨].

وَمَعَ أَنَّ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ تَعَالَى قَدْ عُصِمُوا مِنَ الْجَهْلِ؛ لِكَمَالِ عُقُولِهِمْ بِالْوَحْيِ

الرَّبَّانِيِّ، وَمَعْرِفَتِهِمْ بِاللَّهِ تَعَالَى؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى وَعَظَهُمْ أَنْ يَكُونُوا فِي عِدَادِ الْجَاهِلِينَ، وَهُمْ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ قَدْ تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْجَهْلِ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا هِدَايَةً لِلْبَشَرِ أَنْ يَقْتَفُوا أَثَرَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

سَأَلَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُنَجِّيَ ابْنَهُ الْمُشْرِكَ مِنَ الطُّوفَانِ، فَكَانَ وَحْيُ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هُود: ٤٦]، فَقَبِلَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَوْعِظَةَ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ، وَاسْتَعَاذَ بِهِ سُبْحَانَهُ مِنْ سُلُوكِ سُبُلِ أَهْلِ الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هُود: ٤٧].

وَقَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الْبَقَرَة: ٦٧].

وَنَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لمَّا أَعْرَضَ أَهْلُ الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ عَنْ دَعْوَتِهِ، وَطَالَبُوهُ بِالْآيَاتِ ثُمَّ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَا، وَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ؛ وَعَظَهُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ الْهِدَايَةَ مِنْهُ سُبْحَانَهُ وَلَيْسَتْ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، وَحَذَّرَهُ مِنَ الْجَهْلِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الْأَنْعَام: ٣٥].

وَأَمَرَهُ عَزَّ وَجَلَّ بِتَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ، وَالْإِعْرَاضِ عَنْ أَهْلِ الضَّلَالِ وَالْجَهْلِ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٩٩].

وَأَهْلُ الْعِلْمِ وَالْهُدَى لَا يُطَاوِلُونَ أَهْلَ الْجَهْلِ فِي جَهَالَاتِهِمْ، وَلَا يُشَارِكُونَهُمْ فِي مِرَائِهِمْ وَمُجَادَلَاتِهِمْ، وَلَا يُجْتَرُّونَ إِلَى مَعَارِكِهِمْ وَخُصُومَاتِهِمْ، وَهِيَ مَعَارِكُ جَانِبِيَّةٌ تَشْغَلُ عَنِ المَعَارِكِ الْكُبْرَى لِلْأُمَّةِ، وَغَالِبُ أَهْدَافِهَا الِانْتِصَارُ لِلنَّفْسِ

فَحَسْبُ؛ وَأَهْلُ الْعِلْمِ لَا يُجَارُونَ أَهْلَ السَّفَهِ وَالْجَهْلِ فِي ذَلِكَ؛ لِأَنَّ هِمَّتَهُمْ أَعْلَى مِنْ مُجَرَّدِ انْتِصَارِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ، وَإِثْبَاتِ ذَوَاتِهِمْ؛ وَلِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ أَهْلَ الْجَهْلِ بِجَهَالَاتِهِمْ وَمُجَادَلَاتِهِمْ إِنَّمَا يَسْتَنْزِفُونَ جُهْدَهُمْ، وَيُضَيِّعُونَ أَوْقَاتَهُمْ فِيمَا لَا طَائِلَ مِنْهُ، فَيُعْرِضُونَ عَنْهُمْ لِاشْتِغَالِهِمْ بِمَا هُوَ أَهَمُّ وَأَعْلَى، وَقَدِ امْتَدَحَ اللهُ تَعَالَى هَذَا الْأُسْلُوبَ مِنْهُمْ فِي التَّعَامُلِ مَعَ الْجَاهِلِينَ ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الْقَصَص: ٥٥]، وَجَعَلَ مِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُفْلِحِينَ تَجَنُّبَ مُجَادَلَةِ أَهْلِ الْجَهْلِ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [الْمُؤْمِنُون: ٣]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الْفُرْقَان: ٦٣].

وَمَنْ حَالَ جَهْلُهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ بُلُوغِ الْحَقِّ وَهُوَ دِينُ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي ارْتَضَاهُ لِعِبَادِهِ، فَقَدْ عَطَّلَ مَا وَهَبَهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ وَسَائِلِ تَحْصِيلِ الْعِلْمِ وَالمَعْرِفَةِ؛ وَلِذَا وَصَفَ اللهُ تَعَالَى مَنْ هَذِهِ حَالُهُمْ بِالْعَمَى وَالصَّمَمِ وَنَفَى عَنْهُمْ صِفَةَ الْعَقْلِ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَعْقِلُوا الْحَقَّ وَلَمْ يُبْصِرُوهُ وَلَمْ يَسْمَعُوهُ، فَهُمْ شَرُّ الْخَلِيقَةِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ الْوَارِدَةُ فِي ذَلِكَ لَا يَتَّسِعُ مَقَامٌ كَهَذَا لِعَرْضِهَا كُلِّهَا، فَفِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ١٧١]، وَفِي الْمَائِدَةِ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المَائِدَة: ١٠٣]، وَفِي الْأَنْعَام: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الْأَنْعَام: ٣٩]، وَفِي الْأَنْفَالِ: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الْأَنْفَال: ٢٢]، وَفِي يُونُسَ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يُونُس: ١٠٠]، وَفِي الْحَجِّ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن

تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الْحَجّ: ٤٦].

وَلِأَنَّهُمْ عَطَّلُوا مَا رَزَقَهُمُ اللهُ تَعَالَى مِنْ وَسَائِلِ تَحْصِيلِ الْعُلُوم فكَفَرُوا بِهِ سُبْحَانَهُ وَقَدْ كَانَ أَوْلَى بِهِمْ أَنْ يَعْرِفُوا رَبَّهُمْ فَلَا يَجْحَدُوهُ، وَيُوَحِّدُوهُ فَلَا يَكْفُرُوهُ؛ فَإِنَّهُ ﷻ قَدْ حَكَمَ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ شَرُّ خَلْقِهِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ [الْبَيِّنَة: ٦].

وَقَدْرُهُمْ فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَى أَقَلُّ مِنْ قَدْرِ الْأَنْعَامِ الَّتِي لَا تَعْقِلُ: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٧٩]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الْفُرْقَان: ٤٤].

فَحَرِيٌّ بِكُلِّ مُؤْمِنٍ أَنْ يُدْرِكَ قَدْرَ نِعْمَةِ الْعِلْمِ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَالْإِيمَانِ بِهِ، وَأَنْ يَشْكُرَ اللهَ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ وَيَسْأَلَهُ الثَّبَاتَ، فَكَمْ مِنَ الْبَشَرِ مَنْ أَعْرَضُوا عَنِ الْحَقِّ جَهْلًا أَوِ اسْتِكْبَارًا؟! ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الْحُجُرَات: ١٧].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.



الخُطبَة الثَّانِيَة

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فِي هَذَا الْعَصْرِ قَدْ فُتِنُوا بِحَضَارَةِ الْغَرْبِ، وَمَا قَدَّمَتْهُ لِلْبَشَرِيَّةِ مِنْ إِنْجَازَاتٍ عَظِيمَةٍ فِي أَنْوَاعِ الْعُلُومِ وَالمَعَارِفِ الدُّنْيَوِيَّةِ حَتَّى سَمَّوْهَا حَضَارَةَ النُّورِ وَالْعِلْمِ وَالمَعْرِفَةِ، وَوَسَمُوا دُوَلَهَا بِدُوَلِ الْعَالَمِ الْأَوَّلِ، وَوَصَمُوا غَيْرَهَا بِالدُّوَلِ النَّامِيَةِ وَدُوَلِ الْعَالَمِ الثَّالِثِ، وَالدُّوَلِ الْجَاهِلَةِ وَالمُتَخَلِّفَةِ، وَاسْتَقَرَّتْ هَذِهِ التَّسْمِيَاتُ فِي عُقُولِ النَّاسِ، وَسَلَّمُوا بِهَا لِلْغَرْبِيِّينَ.

وَلَئِنْ صَحَّ ذَلِكَ فِي عُلُومِ الدُّنْيَا فَلَا يَصِحُّ فِي عُلُومِ الدِّينِ الَّتِي نَفْعُهَا أَعْظَمُ مِنْ نَفْعِ عُلُومِ الدُّنْيَا وَأَبْقَى، وَهِيَ الَّتِي يَجِبُ أَنْ تُقَدَّمَ عَلَيْهَا فِي التَّصْنِيفِ وَالتَّفْضِيلِ، فَمَا قِيمَةُ عُلُومِ الدُّنْيَا مَهْمَا بَلَغَتْ مَعَ الْجَهْلِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَبِدِينِهِ الْحَنِيفِ، وَبِالدَّارِ الْآخِرَةِ؟! وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ فِي شَأْنِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الْقَصَص: ٦٠]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الْأَعْلَى: ١٧].

وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُسَلِّمَ لِلْحَضَارَةِ الْغَرْبِيَّةِ بِهَذِهِ الْأَوْصَافِ المُطْلَقَةِ مِنَ النُّورِ وَالْعِلْمِ وَالمَعْرِفَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ تُقَيَّدَ هَذِهِ الْأَوْصَافُ فِيهِمْ بِعُلُومِ الدُّنْيَا؛ لِأَنَّ حَضَارَةَ الْغَرْبِ وَإِنْ أَبْدَعَتْ فِي عُلُومِ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا جَهِلَتْ عُلُومَ الدِّينِ، وَهِيَ مِنْ شَرِّ الْأُمَمِ انْحِطَاطًا فِي هَذَا الْجَانِبِ، وَمِنْ أَشَدِّهَا كُفْرًا بِاللَّهِ تَعَالَى، وَمَا زَادَتْهُمْ عُلُومُهُمُ الدُّنْيَوِيَّةُ إِلَّا اسْتِكْبَارًا عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ، وَاسْتِنْكَافًا عَنِ الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ تَعَالَى، وَاتِّبَاعِ رُسُلِهِ، وَتَصْدِيقِ كُتُبِهِ، وَيَصْدُقُ فِيهِمْ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْأَخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الرُّوم: ٧].

وَالْعِلْمُ بِالْوَحْيِ الرَّبَّانِيِّ المُتَضَمِّنِ الْعِلْمَ بِاللَّهِ تَعَالَى وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ هُوَ الْعِلْمُ الْحَقِيقِيُّ، وَهُوَ الرُّوحُ لِلْإِنْسَانِ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ

مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشُّورَى: ٥٢].

وَمَنْ جَهِلَ بِهِ فَهُوَ مَيِّتٌ وَإِنْ كَانَ فِي الْأَحْيَاءِ ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وَكُلَّمَا بَعُدَ النَّاسُ عَنْ زَمَنِ الْوَحْيِ قَلَّ فِيهِمُ الْعِلْمُ، وَزَادَ فِيهِمُ الْجَهْلُ، كَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ الْأَحَادِيثُ:

فَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي مُوسَى رضي الله عنهما قَالَا: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ لَأَيَّامًا يَنْزِلُ فِيهَا الجَهْلُ، وَيُرْفَعُ فِيهَا الْعِلْمُ، وَيَكْثُرُ فِيهَا الهَرْجُ، وَالهَرْجُ: الْقَتْلُ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[1].

وَانْتِشَارُ الْجَهْلِ بِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ الْمُؤْذِنَةِ بِقُرْبِ قِيَامِهَا؛ كَمَا فِي حَدِيثِ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ، وَيَثْبُتَ الجَهْلُ، وَيُشْرَبَ الخَمْرُ، وَيَظْهَرَ الزِّنَا**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. وَفِي لَفْظٍ لِلْبُخَارِيِّ: «**إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ، وَيَكْثُرَ الجَهْلُ، وَيَكْثُرَ الزِّنَا، وَيَكْثُرَ شُرْبُ الخَمْرِ**»[2].

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: وَفِي زَمَنِنَا هَذَا كَثُرَ إِلْحَاحُ كَثِيرٍ مِنَ الصَّحَفِيِّينَ وَمَنْ يُسَمُّونَ أَنْفُسَهُمْ بِالْمُفَكِّرِينَ عَلَى التَّهْوِينِ مِنْ شَأْنِ الْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ، وَيُطَالِبُونَ بِتَقْلِيصِهَا فِي مَنَاهِجِ التَّعْلِيمِ، وَدَمْجِ بَعْضِهَا فِي بَعْضٍ، مَعَ مُطَالَبَتِهِمْ بِتَوْسِيعِ الْعُلُومِ الدُّنْيَوِيَّةِ

---

(١) أخرجه البخاري في الفتن، باب ظهور الفتن (٦٦٥٣)، ومسلم في العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان (٢٦٧٢).

(٢) أخرجه البخاري في العلم، باب رفع العلم وظهور الجهل (٨٠)، ومسلم في العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان (٢٦٧١).
والرواية الثانية للبخاري في النكاح، باب يقل الرجال ويكثر النساء (٤٩٣٣).

عَلَى حِسَابِهَا؛ زَاعِمِينَ أَنَّ ذَلِكَ سَبِيلُ التَّقَدُّمِ وَالِازْدِهَارِ.

يَقُولُونَ ذَلِكَ وَهُمْ يَرَوْنَ كَثِيرًا مِنَ الدُّوَلِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي أَقْصَتِ التَّعْلِيمَ الدِّينِيَّ، وَقَضَتْ عَلَى مَدَارِسِهِ وَجَامِعَاتِهِ وَمَنَاهِجِهِ مُنْذُ عُقُودٍ تَرْسُفُ فِي الْفَقْرِ وَالتَّخَلُّفِ وَالِانْحِطَاطِ وَالتَّبَعِيَّةِ، وَمَا نَفَعَهَا شَيْئًا الْقَضَاءُ عَلَى مُؤَسَّسَاتِ التَّعْلِيمِ الدِّينِيِّ وَمَنَاهِجِهِ، بَلْ أَضَرَّ بِشُعُوبِهَا ضَرَرًا بَالِغًا؛ فَلَا أَصْلَحُوا لِلنَّاسِ دُنْيَاهُمْ، وَلَا أَبْقَوْا لَهُمْ دِينَهُمْ.

وَلِذَا فَإِنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْغَيُورِينَ أَنْ يَقِفُوا أَمَامَ مُحَاوَلَاتِ الْمُنَافِقِينَ وَالتَّغْرِيبِيِّينَ الْعَبَثِيَّةِ التَّخْرِيبِيَّةِ الَّتِي تَسْتَهْدِفُ عُقُولَ أَوْلَادِنَا، وَمَدَارِسَنَا وَجَامِعَاتِنَا، وَمَنَاهِجَ تَعْلِيمِنَا، وَتُحَاوِلُ طَمْسَ أَنْوَارِ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ مِنْهَا، وَمَسْخَهَا لِتَكُونَ كَالْعُقُولِ الْغَرْبِيَّةِ فِي تَمَرُّدِهَا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَعَلَى أَنْبِيَائِهِ وَشَرَائِعِهِ.

إِنَّنَا مَا رَأَيْنَا هَؤُلَاءِ الْمُنْحَرِفِينَ عَنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى يُجِيدُونَ شَيْئًا سِوَى الثَّرْثَرَةِ فِي فَضَائِيَّاتِهِمْ وَصُحُفِهِمْ، فَلَمْ يَصْنَعُوا لِلْأُمَّةِ مَجْدًا، وَلَمْ يُعِيدُوا لَهَا حَقًّا، وَلَمْ يَخْتَرِعُوا شَيْئًا، وَلَمْ يُسْهِمُوا فِي رُقِيِّ الْأُمَّةِ وَتَقَدُّمِهَا، بَلْ هُمْ سَبَبٌ رَئِيسٌ فِي تَخَلُّفِهَا وَتَقَهْقُرِهَا بِدَعَوَاتِهِمُ الْمَشْبُوهَةِ لِنَبْذِ الدِّينِ، وَمُطَالَبَاتِهِمُ الْمَكْرُورَةِ بِالتَّبَعِيَّةِ لِلْغَرْبِ، وَالِانْصِهَارِ فِي مَنَاهِجِهِ الْمُحَرَّفَةِ لِتَفْقِدَ الْأُمَّةُ مَا مَيَّزَهَا اللهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ هَذَا الدِّينِ الْعَظِيمِ ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التَّوْبَة: ٣٢، ٣٣].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .

❊ ❊ ❊



٢٨٣- العلم والتعليم (٣)
العلماء الربانيون أمان للأمة

١/ ٢/ ١٤٢٩هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ فَضَّلَ هَذِهِ الْأُمَّةَ عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ، وَجعلَهَا شَاهِدَةً لِأَنْبِيَائِهِمْ عَلَيْهِمْ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، نَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا، وَنَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَعْطَانَا، وَنَسْتَغْفِرُهُ لِخطَايَانَا؛ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ الْخَيْرُ بِيَدَيْهِ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْهِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَخْرَجَنَا اللهُ تَعَالَى بِهِ مِنَ الضَّلَالِ إِلَى الْهُدَى، وَمِنَ الْجَهْلِ إِلَى الْعِلْمِ ﴿رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الطَّلاق: ١١] صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ مِنَ الْهُدَى، وَاحْذَرُوا مُضِلَّاتِ الْفِتَنِ وَاتِّبَاعَ الْهَوَى؛ فَإِنَّ الْفِتَنَ تُعْمِي عَنِ السُّنَنِ، وَإِنَّ الْهَوَى يَهْوِي بِأَهْلِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣١ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣١، ٣٢].

أَيُّهَا النَّاسُ: اخْتَارَ اللهُ تَعَالَى دِينَ الْإِسْلَامِ مُهَيْمِنًا عَلَى كُلِّ الْأَدْيَانِ وَالشَّرَائِعِ، وَاخْتَارَ سُبْحَانَهُ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خَاتِمًا لِلرِّسَالَاتِ وَالنُّبُوَّاتِ، وَاخْتَارَ الْقُرْآنَ كِتَابًا لِأَهْلِ الْحَقِّ وَالْهُدَى يَبْقَى إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ؛ فَلَا دِينَ بَعْدَ الْإِسْلَامِ، وَلَا نَبِيَّ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَلَا كِتَابَ بَعْدَ الْقُرْآنِ.

وَقَدْ قَضَى اللهُ تَعَالَى بِحِفْظِ دِينِ الْإِسْلَامِ وَكِتَابِهِ الْقُرْآنِ مِنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ وَالضَّيَاعِ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وَجَعَلَ ﷻ لِهَذَا الْحِفْظِ أَسْبَابًا قَدَرِيَّةً وَأَسْبَابًا شَرْعِيَّةً:

فَمِنَ الْأَسْبَابِ الشَّرْعِيَّةِ: تَحْذِيرُ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الِابْتِدَاعِ فِي الدِّينِ، وَنَهْيُهُمْ عَنِ التَّشَبُّهِ بِالْكَافِرِينَ؛ لِأَنَّ الِابْتِدَاعَ وَالتَّشَبُّهَ يُدْخِلَانِ فِي الدِّينِ مَا لَيْسَ مِنْهُ، وَإِذَا أُدْخِلَ فِيهِ مَا لَيْسَ مِنْهُ، خَرَجَ مَا هُوَ مِنْهُ، فَحَصَلَ التَّحْرِيفُ وَالتَّبْدِيلُ.

وَمِنَ الْأَسْبَابِ الْقَدَرِيَّةِ: أَنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَ فِي كُلِّ زَمَانٍ لِلْحَقِّ أَنْصَارًا يَذُودُونَ عَنِ الدِّينِ، وَيَحْفَظُونَهُ مِنْ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ، وَيَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْمُحَرِّفِينَ، وَيَصْبِرُونَ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ عَلَى أَذَى الْمُؤْذِينَ، وَظُلْمِ الظَّالِمِينَ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ مُعَاوِيَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللَّهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ**».

وَفِي رِوَايَةٍ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَا تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١).

وَمَنْ نَظَرَ فِي تَارِيخِ الْمُسْلِمِينَ مُنْذُ وَفَاةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ اسْتَبَانَ لَهُ أَنَّ عَلَى رَأْسِ هَذِهِ الطَّائِفَةِ الْمَنْصُورَةِ الْعُلَمَاءَ الرَّبَّانِيِّينَ، فَهُمُ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ الْحَقَّ خَلَفًا عَنْ سَلَفٍ، وَهُمُ الَّذِينَ يَدْرَءُونَ عَنِ الدِّينِ شُبُهَاتِ الْمُضِلِّينَ، وَهُمُ الَّذِينَ يُقَوِّمُونَ اعْوِجَاجَ الْأُمَّةِ إِذَا اعْوَجَّتْ، وَيَتَصَدَّوْنَ لِلْفَسَادِ وَالْمُفْسِدِينَ، وَيَنْصَحُونَ الْعَامَّةَ وَالْخَاصَّةَ، فَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيَصْدَعُونَ بِالْحَقِّ،

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب، باب سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية فأراهم انشقاق القمر (٣٤٤٢)، ومسلم في الإمارة، باب قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم» (١٠٣٧).

لَا يَخَافُونَ فِي اللَّهِ تَعَالَى لَوْمَةَ لَائِمٍ. وَفِي حَالِ المِحَنِ وَالْفِتَنِ وَاخْتِلَاطِ الْأَمْرِ يَؤُوبُ النَّاسُ إِلَيْهِمْ لِاسْتِجْلَاءِ الْأَمْرِ، وَاتِّخَاذِ المَوَاقِفِ المُنَاسِبَةِ.

لَقَدْ حَفِظَ اللهُ تَعَالَى الْأُمَّةَ مِنَ الِانْحِرَافِ وَالضَّيَاعِ بِالْعُلَمَاءِ الرَّبَّانِيِّينَ، وَبِهِمْ حَفِظَ دِينَهُ، وَلَقَدْ كَانَ الصِّدِّيقُ أَبُو بَكْرٍ ﷺ أَعْلَمَ الصَّحَابَةِ بِمُلَازَمَتِهِ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَبِعِلْمِهِ وَثَبَاتِهِ حَفِظَ اللهُ تَعَالَى الْأُمَّةَ بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، حِينَ صُدِمَ النَّاسُ بِوَفَاتِهِ، ثُمَّ حَفِظَ بِهِ الْأُمَّةَ مَرَّةً أُخْرَى لَمَّا ارْتَدَّ المُرْتَدُّونَ، فَثَبَتَ ثَبَاتًا عَظِيمًا قُضِيَ بِسَبَبِهِ عَلَى المُرْتَدِّينَ، وَسَلِمَتْ بِهِ الْأُمَّةُ مِنَ الْفِتْنَةِ فِي أَوَّلِ عَهْدِهَا.

وَلَمَّا حَاوَلَ بَعْضُ الزَّنَادِقَةِ وَالْمُنَافِقِينَ الْكَذِبَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَوَضَعُوا أَحَادِيثَ لَمْ يَقُلْهَا؛ انْبَرَى لَهُمْ عُلَمَاءُ الْحَدِيثِ وَالرِّجَالِ، فَبَيَّنُوا الصَّحِيحَ مِنَ السَّقِيمِ، وَمَيَّزُوا الْأَصِيلَ مِنَ الدَّخِيلِ، وَبِهِمْ حَفِظَ اللهُ تَعَالَى سُنَّةَ المُصْطَفَى ﷺ.

ثُمَّ لَمَّا أُحْدِثَ فِي الْأُمَّةِ بِدْعَةُ الْجَهْمِيَّةِ وَالمُعْتَزِلَةِ، وَانْتَحَلَهَا ثَلَاثَةٌ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ، تَصَدَّى لَهَا الْإِمَامُ أَحْمَدُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-، وَثَبَتَ ثَبَاتًا عَجِيبًا مَا ظَفِرَ المُبْتَدِعَةُ مِنْهُ بِشَيْءٍ، حَتَّى قَالَ عَلِيُّ بْنُ المَدِينِيِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «إِنَّ اللهَ أَعَزَّ هَذَا الدِّينَ بِأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ يَوْمَ الرِّدَّةِ، وَبِأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ يَوْمَ المِحْنَةِ»(٢). وَقَالَ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوَيْهِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «لَوْلَا أَحْمَدُ وَبَذْلُ نَفْسِهِ لِمَا بَذَلَهَا لَهُ لَذَهَبَ الْإِسْلَامُ»(٣).

وَلَمَّا احْتَلَّتِ الْجُيُوشُ الصَّلِيبِيَّةُ بَيْتَ المَقْدِسِ فِي الْقَرْنِ الْخَامِسِ نَهَضَ الْعُلَمَاءُ بِوَاجِبِهِمْ، يُرَبُّونَ الْأُمَّةَ، وَيَرُدُّونَهَا إِلَى دِينِهَا، وَيَحُولُونَ بَيْنَ النَّاسِ وَبَيْنَ المَعَاصِي

---

(٢) أخرجه الخطيب في تاريخه (٤/ ٤١٨)، وابن عساكر في تاريخه (٥/ ٢٧٨).

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٩/ ١٧١)، وابن عساكر (٥/ ٢٧٨).

وَالشَّهَوَاتِ، فَيَخْطُبُونَ فِي النَّاسِ، وَيُلْقُونَ الدُّرُوسَ وَالمَوَاعِظَ الَّتِي تَسْتَنْهِضُ الْعَزَائِمَ، وَتَشْحَذُ الْهِمَمَ، وَيَحُثُّونَهُمْ عَلَى جِهَادِ الصَّلِيبِيِّينَ، وَيَبُثُّونَ الْحَمِيَّةَ الدِّينِيَّةَ فِي قُلُوبِهِمْ؛ حَتَّى تَهَيَّأَتِ الْأُمَّةُ فِي عَهْدِ نُورِ الدِّينِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- وَقَدْ أَعْلَى مِنْ شَأْنِ الْعُلَمَاءِ فِي دَوْلَتِهِ وَأَدْنَاهُمْ، وَخَلَّى بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ النَّاسِ فِي بَيَانِ الْحَقِّ وَالصَّدْعِ بِهِ.

ثُمَّ خَلَفَهُ عَلَى سِيرَتِهِ الْحَسَنَةِ صَلَاحُ الدِّينِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-، فَاتَّخَذَ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ بِطَانَةً لَهُ، وَكَانَ بَعْضُهُمْ لَا يُفَارِقُهُ فِي حَضَرٍ وَلَا سَفَرٍ، وَلَا حَرْبٍ وَلَا سِلْمٍ، كَالْقَاضِي ابْنِ شَدَّادٍ الَّذِي لَازَمَهُ رُبْعَ قَرْنٍ، فَكَتَبَ سِيرَتَهُ[٤].

وَبِإِدْنَاءِ الْعُلَمَاءِ، وَالتَّخْلِيَةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ النَّاسِ؛ تَهَيَّأَتِ الْأُمَّةُ عَلَى أَيْدِي الْعُلَمَاءِ الصَّادِقِينَ لِكَسْرِ جُيُوشِ الصَّلِيبِيِّينَ، وَإِخْرَاجِهِمْ مِنْ بَيْتِ المَقْدِسِ أَذِلَّةً صَاغِرِينَ، وَتَمَّ ذَلِكَ بَعْدَ تِسْعِينَ سَنَةً مِن احْتِلَالِهَا[٥].

وَلَمَّا وَطِئَ التَّتَرُ بِلَادَ المُسْلِمِينَ، وَأَسْقَطُوا دَوْلَةَ بَنِي الْعَبَّاسِ، وَعَاثُوا فَسَادًا فِي الْعِرَاقِ وَالشَّامِ؛ هَيَّأَ اللهُ تَعَالَى الْقَائِدَ سَيْفَ الدِّينِ قُطُزَ الَّذِي تَرَبَّى فِي مَجَالِسِ الْعُلَمَاءِ، فَقَادَ الْأُمَّةَ وَمَا كَانَ يَقْطَعُ بِرَأْيٍ فِي الْإِعْدَادِ لِمُوَاجَهَةِ التَّتَرِ وَجِهَادِهِمْ حَتَّى يُرَاجِعَ الْعُلَمَاءَ، وَيَأْخُذَ بِمَشُورَتِهِمْ، وَلَا سِيَّمَا الشَّيْخُ عِزُّ الدِّينِ بْنُ عَبْدِالسَّلَامِ وَالْقَاضِي بَدْرُ الدِّينِ السِّنْجَارِيُّ[٦].

وَلَمَّا جَبُنَ بَعْضُ الْأُمَرَاءِ وَالْقَادَةِ عَنْ مُوَاجَهَةِ التَّتَرِ، وَهَابُوا الْخُرُوجَ إِلَيْهِمْ قَالَ الْعِزُّ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ: اخْرُجُوا وَأَنَا أَضْمَنُ لَكُمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى النَّصْرَ، وَاتَّفَقَ مَعَ

---

(٤) وكتابه مطبوع بعنوان: «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية».

(٥) ينظر خطبة: «سلب الأقصى واسترداده» مجلد (٣) خطبة رقم (١٤٥)، وخطبة: «معركة حطين» مجلد (٣) خطبة رقم (١٤٧).

(٦) ينظر: البداية والنهاية (١٣/ ٢١٥).

السُّلْطَانِ قُطُزَ عَلَى إِخْرَاجِ مَا فِي خَزَائِنِهِ مِنْ أَمْوَالٍ، وَكَذَلِكَ خَزَائِنُ الْأُمَرَاءِ لِتَجْهِيزِ الْجُيُوشِ، فَانْتَصَرَ الْمُسْلِمُونَ، وَكَسَرَ اللهُ تَعَالَى عَلَى أَيْدِيهِمُ التَّتَرَ فِي عَيْنِ جَالُوتَ، فَلَمْ تَقُمْ لَهُمْ قَائِمَةٌ بَعْدَهَا(٧).

وَكَانَ لِعُلَمَاءِ الْأَنْدَلُسِ الْفَضْلُ بَعْدَ اللَّهِ تَعَالَى فِي تَأَخُّرِ سُقُوطِهَا قَرْنَيْنِ وَزِيَادَةً، وَذَلِكَ بِالسَّعْيِ فِي الصُّلْحِ بَيْنَ الْحُكَّامِ الْمُتَنَاحِرِينَ، وَاسْتِنْهَاضِ هِمَمِ النَّاسِ لِلْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَمَّا تَدَهْوَرَتْ أَحْوَالُ الْمُسْلِمِينَ، وَعَظُمَ الِاخْتِلَافُ وَالتَّنَاحُرُ بَيْنَ مُلُوكِهِمْ، وَغَلَبَ النَّصَارَى عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْصَارِ؛ سَافَرَ جَمَاعَةٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْأَنْدَلُسِ إِلَى يُوسُفَ بْنِ تَاشْفِينَ فِي الْمَغْرِبِ، وَعَبَرُوا الْبَحْرَ لِأَجْلِ ذَلِكَ، فَكَانَ فِي رِحْلَتِهِمْ تِلْكَ إِنْقَاذٌ لِكَثِيرٍ مِنْ مَمَالِكِ الْأَنْدَلُسِ مِنَ السُّقُوطِ فِي أَيْدِي النَّصَارَى؛ إِذْ عَبَرَ إِلَيْهِمُ ابْنُ تَاشْفِينَ بِجُيُوشِهِ، وَكَسَرَ النَّصَارَى فِي مَعْرَكَةِ الزَّلَّاقَةِ، وَكَانَ الْفَضْلُ فِي ذَلِكَ بَعْدَ اللَّهِ تَعَالَى لِعُلَمَاءِ الْأَنْدَلُسِ وَفُقَهَائِهَا(٨).

وَأَمَّا جِهَادُ الْعُلَمَاءِ لِلْمُنَافِقِينَ وَالْمُرْتَدِّينَ بِأَقْلَامِهِمْ، وَذَبِّهِمْ عَنِ الشَّرِيعَةِ، وَحِمَايَتِهِمْ لِلْأُمَّةِ مِنَ الضَّلَالِ وَالِانْحِرَافِ فَأَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحْصَرَ، قَدِيمًا وَحَدِيثًا، حَتَّى إِنَّ مِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ شَغَلَ حَيَاتَهُ كُلَّهَا بِذَلِكَ؛ كَشَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ وَتِلْمِيذِهِ الْعَلَّامَةِ ابْنِ الْقَيِّمِ الَّذِي قَالَ: «وَالْجِهَادُ بِالْحُجَّةِ وَاللِّسَانِ مُقَدَّمٌ عَلَى الْجِهَادِ بِالسَّيْفِ وَالسِّنَانِ؛ وَلِهَذَا أَمَرَ بِهِ تَعَالَى فِي السُّوَرِ الْمَكِّيَّةِ حَيْثُ لَا جِهَادَ بِالْيَدِ؛ إِنْذَارًا وَتَعْذِيرًا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]، وَأَمَرَ تَعَالَى بِجِهَادِ الْمُنَافِقِينَ وَالْغِلْظَةِ عَلَيْهِمْ، مَعَ كَوْنِهِمْ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمَقَامِ وَالْمَسِيرِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ

---

(٧) ينظر: البداية والنهاية (١٣/ ٢١٥)، وطبقات الشافعية الكبرى للتاج السبكي (٨/ ٢١٥)، وخطبة: قهر التتار في رمضان مجلد (٣) خطبة رقم (١٥٠).

(٨) ينظر: خطبة معركة الزلاقة مجلد (٣) خطبة رقم (١٤٨).

وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣]، فَالْجِهَادُ بِالْعِلْمِ وَالْحُجَّةِ جِهَادُ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ وَخَاصَّتِهِ مِنْ عِبَادِهِ المَخْصُوصِينَ بَالْهِدَايَةِ وَالتَّوْفِيقِ وَالِاتِّفَاقِ» اهـ[٩].

وَلمَّا عَابَ بَعْضُ النَّاسِ عَلَى ابْنِ المُنَيِّرِ قُعُودَهُ عَنِ الْغَزْوِ، قَالَ: «وَلَا أَجِدُ فِي تَأَخُّرِي عَنْ حُضُورِ الْغَزَاةِ عُذْرًا إِلَّا صَرْفَ الْهِمَّةِ لِلتَّحْذِيرِ مِنَ هَذَا المُصَنَّفِ -يَعْنِي: كَشَّافَ الزَّمَخْشَرِيِّ المُعْتَزِلِيِّ- وَالرَّدِّ عَلَى أَقْوَالِهِ الَّتِي تُمَثِّلُ رَأْيَ المُعْتَزِلَةِ . . » اهـ[١٠].

وَقَدْ لَقِيَ الْعُلَمَاءُ الرَّبَّانِيُّونَ مِنْ أَهْلِ السُّوءِ وَالْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ أَنْوَاعًا مِنَ الْأَذَى كَالضَّرْبِ وَالْحَبْسِ وَالْقَتْلِ، وَمَا رَدَّهُمْ ذَلِكَ عَنْ بَذْلِ النُّصْحِ، وَالصَّدْعِ بِالْحَقِّ، وَالْقِيَامِ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَالمُلَاحَظُ فِي حَوَادِثِ التَّارِيخِ، وَسِيَرِ المُلُوكِ وَالْعُلَمَاءِ، أَنَّهُ مَتَى اتَّفَقَتْ سِيَاسَةُ السَّلَاطِينِ مَعَ كَلِمَةِ الْعُلَمَاءِ، وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَكَانَتْ بِطَانَةُ السَّلَاطِينِ مِنَ الْعُلَمَاءِ النَّاصِحِينَ؛ صَلَحَتْ أَحْوَالُ الرَّعِيَّةِ، وَاسْتَقَرَّتِ المَمَالِكُ، وَفَاضَتِ الْخَيْرَاتُ، وَبَقِيَتْ هَيْبَةُ السَّلَاطِينِ وَالْعُلَمَاءِ مَحْفُورَةً فِي قُلُوبِ النَّاسِ.

وَمَتَى وُجِدَ انْفِصَامٌ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ الرَّبَّانِيِّينَ المُخْلِصِينَ وَبَيْنَ السَّلَاطِينِ؛ فَسَدَتْ أَحْوَالُ الرَّعِيَّةِ، وَاضْطَرَبَتِ المَمَالِكُ، وَسَقَطَتْ مَهَابَةُ السَّلَاطِينِ وَالْعُلَمَاءِ عَلَى حَدٍّ سَوَاءٍ، وَفِي ذَلِكَ مِنَ الشَّرِّ وَالْفِتَنِ وَاضْطِرَابِ الْأَحْوَالِ مَا لَا يَخْفَى.

إِنَّ الْعُلَمَاءَ دُعَاةٌ بِأَلْسِنَتِهِمْ، وَأَصْحَابَ السُّلْطَانِ دُعَاةٌ بِأَلْسِنَتِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ، وَبِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ وَأَصْحَابِ السُّلْطَانِ وَتَعَاوُنِهِمْ تَتَقَدَّمُ الْأُمَّةُ، وَيَصْلُحُ أَمْرُ الْبِلَادِ

---

(٩) شرح الكافية الشافية (١/ ٢٦).

(١٠) دور العلماء في إصلاح المجتمع زمن الحروب الصليبية، د. أحمد محمد علوان (٦٠-٦١).

وَالْعِبَادِ؛ فَالْعُلَمَاءُ وَرِثُوا الْعِلْمَ مِنْ مَقَامِ النُّبُوَّةِ، وَأَهْلُ السُّلْطَانِ وَرِثُوا الْقُوَّةَ مِنْ مَقَامِ النُّبُوَّةِ، وَالْعَدْلُ أَسَاسُ الْمُلْكِ، وَالتَّقْوَى أَسَاسُ الْعِلْمِ، فَبِالْعَدْلِ وَالتَّقْوَى تُبْنَى الْأُمَمُ وَتَزْدَهِرُ، وَيَسُودُ الْأَمْنُ وَالرِّضَا، وَبِغَيْرِ ذَلِكَ يَكُونُ الْخَرَابُ وَالدَّمَارُ(١١).

نَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَنَسْأَلُهُ أَنْ يُصْلِحَ أَحْوَالَ الْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ . . .



الخُطبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الْأَمِينُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَرَاقِبُوهُ، وَالْزَمُوا طَاعَتَهُ وَلَا تَعْصُوهُ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: مَوْتُ الْعُلَمَاءِ الرَّبَّانِيِّينَ خَسَارَةٌ عَظِيمَةٌ لِلْأُمَّةِ الَّتِي تَعْرِفُ قِيمَتَهُمْ، وَتُدْرِكُ أَهَمِّيَّتَهُمْ، وَتَعْلَمُ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَى فَقْدِهِمْ، وَكَانَ النَّاسُ -وَلَا يَزَالُونَ- يَبْكُونَ الْعُلَمَاءَ الرَّبَّانِيِّينَ. وَلَمَّا مَاتَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ رضي الله عنه قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: «مَاتَ الْيَوْمَ حَبْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَلَعَلَّ اللهَ يَجْعَلُ فِي ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْهُ خَلَفًا»(١٢).

---

(١١) المصدر السابق (٨٤-٨٥).

(١٢) أخرجه ابن سعد (٢/ ٣٦١)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٠٤٣)، والطبراني في الكبير (٥/ ١٠٨) رقم (٤٧٥٠)، والحاكم (٣/ ٤٨٣).

وَبَقِيَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عَالِمًا لِلْأُمَّةِ، وَإِمَامًا لَهَا سَنَوَاتٍ طَوِيلَةً، فَلَمَّا مَاتَ صَفَّقَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما بِإِحْدَى يَدَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى، وَقَالَ: «مَاتَ أَعْلَمُ النَّاسِ وَأَحْلَمُ النَّاسِ، وَلَقَدْ أُصِيبَتْ بِهِ هَذِهِ الْأُمَّةُ مُصِيبَةٌ لَا تُرْتَقُ»(١٣).

وَإِنَّمَا كَانَ مَوْتُ الْعُلَمَاءِ الرَّبَّانِيِّينَ مُصِيبَةً عَظِيمَةً؛ لِأَنَّهُ مِنْ نَقْصِ الْأَرْضِ بِنَقْصِ الدِّينِ وَالْعِلْمِ فِيهَا ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد: ٤١] قَالَ عَطَاءٌ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- فِي مَعْنَى نَقْصِهَا: «هُوَ ذَهَابُ فُقَهَائِهَا وَخِيَارِ أَهْلِهَا»(١٤).

وَبِتَوَافُرِ الْعُلَمَاءِ الرَّبَّانِيِّينَ صَلَاحُ الدِّينِ وَالدُّنْيَا، وَبِفَقْدِهِمْ فَسَادُهُمَا؛ كَمَا قَالَ الْإِمَامُ الزُّهْرِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «كَانَ مَنْ مَضَى مِنْ عُلَمَائِنَا يَقُولُونَ: الِاعْتِصَامُ بِالسُّنَّةِ نَجَاةٌ، وَالْعِلْمُ يُقْبَضُ قَبْضًا سَرِيعًا، فَنَعْشُ الْعِلْمِ ثَبَاتُ الدِّينِ وَالدُّنْيَا، وفي ذَهَابِ الْعِلْمِ ذَهَابُ ذَلِكَ كُلِّهِ»(١٥).

وَقَالَ الْحَسَنِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «كَانُوا يَقُولُونَ: مَوْتُ الْعَالِمِ ثُلْمَةٌ فِي الْإِسْلَامِ، لَا يَسُدُّهَا شَيْءٌ ما اخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ»(١٦).

---

(١٣) أخرجه ابن سعد (٢/ ٣٧٢).

(١٤) أخرجه أبو نعيم في تاريخ أصبهان (٧٢٩)، وذكره القرطبي في تفسيره (٩/ ٣٣٤). ونسبه لابن عباس رضي الله عنهما أبو الليث السمرقندي في تفسيره (٢/ ٢٣١)، وابن الجوزي في تفسيره (٤/ ٣٤٠).

(١٥) أخرجه الدارمي (٩٦)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٣٦٩)، ويعقوب بن سفيان في المعرفة والتاريخ (٣/ ٣٧٣).

(١٦) أخرجه الدارمي (٣٢٤)، وابن أبي عاصم في الزهد (٢٦٢).
وأخرجه من حديث الحسن عن ابن مسعود موقوفًا: البيهقي في الشعب (١٧١٩).
وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد للبزار من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعًا، وقال الهيثمي: رواه البزار، وفيه محمد بن عبد الملك عن الزهري، قال البزار: يروي أحاديث لا يتابع عليها، وهذا منها (١/ ٢٠١).

وَسُئِلَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «مَا عَلَامَةُ هَلَاكِ النَّاسِ؟ قَالَ: إِذَا ذَهَبَ عُلَمَاؤُهُمْ»(١٧).

وَالْعِلْمُ إِنَّما يَزُولُ مِنَ الْأَرْضِ بِمَوْتِ الْعُلَمَاءِ، فَيَحِلُّ مَحَلَّهُمْ أَهْلُ الْجَهْلِ وَالْهَوَى، فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ تَجْهِيلُ النَّاسِ وَإِضْلَالُهُمْ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسَ رُؤُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. وَفِي رِوَايَةٍ لِأَحْمَدَ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنْزِعُ الْعِلْمَ مِنَ النَّاسِ بَعْدَ أَنْ يُعْطِيَهُمْ إِيَّاهُ، وَلَكِنْ يَذْهَبُ بِالْعُلَمَاءِ؛ كُلَّمَا ذَهَبَ عَالِمٌ ذَهَبَ بِمَا مَعَهُ مِنَ الْعِلْمِ، حَتَّى يَبْقَى مَنْ لَا يَعْلَمُ، فَيَتَّخِذَ النَّاسُ رُؤَسَاءَ جُهَّالًا، فَيُسْتَفْتَوْا، فَيُفْتُوا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَيَضِلُّوا وَيُضِلُّوا**»(١٨).

وَلَقَدْ رُزِئَتِ الْأُمَّةُ فِي هَذَا الْعَقْدِ الثَّالِثِ مِنَ المِئَةِ الْخَامِسَةِ بَعْدَ الْأَلْفِ بِكَوْكَبَةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ الرَّبَّانِيِّينَ، تَلَاحَقُوا فِي سَنَوَاتٍ قَلَائِلَ؛ فَفُتِحَ عَلَى النَّاسِ بَابٌ مِنَ الشَّرِّ وَالْفِتَنِ عَرِيضٌ، وَكَثُرَ الِاخْتِلَافُ، وَاسْتَنْسَرَ أَهْلُ الشَّرِّ وَالْفَسَادِ، وَحَقَّقُوا كَثِيرًا مِنْ مَآرِبِهِمُ الْخَبِيثَةِ، وَاسْتَطَاعُوا فِي بِضْعِ سَنَوَاتٍ تَحْقِيقَ مَا عَجَزُوا عَنْهُ فِي خَمْسِينَ سَنَةً، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَجَبَرَ اللهُ تَعَالَى مُصَابَ المُسْلِمِينَ فِي

---

(١٧) أخرجه الدارمي (٢٤١)، وابن أبي شيبة (٧/ ٤٥٨)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٢٧٦)، والبيهقي في الشعب (١٦٦٢).

(١٨) أخرجه البخاري في العلم، باب كيف يقبض العلم (١٠٠)، ومسلم في العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان (٢٦٧٣).

والرواية الثانية لأحمد (٢/ ٢٠٣)، وعبد الرزاق (٢٠٤٧١).

عُلَمَائِهِمْ، وَجَعَلَ فِي الْخَلَفِ مِنْهُمْ عِوَضًا عَنِ السَّلَفِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .



٢٨٤- ستر الله تعالى

٢٢/ ١٢/ ١٤٢٤هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: مَعْرِفَةُ اللَّهِ تَعَالَى تَقُودُ إِلَى تَوْحِيدِهِ وَعِبَادَتِهِ، وَمَحَبَّتِهِ وَطَاعَتِهِ، وَرَجَاءِ رَحْمَتِهِ وَعَفْوِهِ، وَالْخَوْفِ مِنْ عَذَابِهِ.

وَمَعْرِفَةُ اللَّهِ تَعَالَى تَكُونُ بِمَعْرِفَةِ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى، وَصِفَاتِهِ الْعُلَى، بِحَسَبِ مَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَاللهُ تَعَالَى يُحِبُّ مُقْتَضَى أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَمَا يُوَافِقُهَا؛ فَهُوَ الْقَوِيُّ وَيُحِبُّ الْمُؤْمِنَ الْقَوِيَّ، وَهُوَ الرَّحِيمُ وَيُحِبُّ الرُّحَمَاءَ مِنْ عِبَادِهِ، وَهُوَ الْعَفُوُّ الْكَرِيمُ وَيُحِبُّ أَهْلَ الْعَفْوِ مِنْ خَلْقِهِ[١].

---

(١) ينظر: تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد (٦٧٦).

وَلمَّا كَانَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ مُقْتَضَى أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ كَانَ أَحَبَّ الْخَلْقِ إِلَيْهِ مَنِ اتَّصَفَ بِالصِّفَاتِ الَّتِي يُحِبُّهَا، وَأَبْغَضَهُمْ إِلَيْهِ مَنِ اتَّصَفَ بِالصِّفَاتِ الَّتِي يَكْرَهُهَا، وَأَمَّا صِفَاتُ الْكِبْرِ وَالْجَبَرُوتِ وَالْعَظَمَةِ وَنَحْوِهَا مِنَ الصِّفَاتِ فَهِيَ مِنْ صِفَاتِهِ ﷻ، وَيُبْغِضُ مَنِ اتَّصَفَ بِهَا مِنْ خَلْقِهِ؛ لِأَنَّهَا تُنَافِي صِفَةَ الْعَبِيدِ، وَتُخْرِجُهُ مِنْ رِبْقَةِ الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ ﷻ، بِخِلَافِ الصِّفَاتِ الْأُخْرَى(٢).

وَمِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى: السِّتِّيرُ، وَمِنْ صِفَاتِهِ الْعُلَى: السَّتْرُ، فَهُوَ يَسْتُرُ عَلَى عِبَادِهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ أَهْلَ السَّتْرِ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ يَعْلَى بْنِ أُمَيَّةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى رَجُلًا يَغْتَسِلُ بِالْبَرَازِ بِلَا إِزَارٍ -أَي: الْفَضَاءُ الْوَاسِعُ- فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ ﷻ حَيِيٌّ سِتِّيرٌ يُحِبُّ الْحَيَاءَ وَالسَّتْرَ، فَإِذَا اغْتَسَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَتِرْ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ(٣).

قَالَ الْبَيْهَقِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «سِتِّيرٌ» يَعْنِي أَنَّهُ سَاتِرٌ يَسْتُرُ عَلَى عِبَادِهِ

---

(٢) ينظر: طريق الهجرتين لابن القيم (٢١٤). قال الشيخ ابن باز -رحمه الله تعالى- بعد أن قرر التخلق بموجب الأسماء التي يحسن من المخلوق أن يتصف بمقتضاها: «بخلاف الصفات المختصة بالله كالخلاق والرزاق والإله ونحو ذلك؛ فإن هذا شيء لا يمكن أن يتصف به المخلوق، ولا يجوز أن يدعيه، وهكذا ما أشبه هذه الأسماء، وإنما المقصود الصفات التي يحب الله من عباده أن يتصفوا بمقتضاها كالعلم والرحمة والحلم» مجموع فتاوى ومقالات متنوعة (١/ ١٣٨)، وينظر: أسماء الله الحسنى، للدكتور عبد الله الغصن (٢٥٧).

(٣) أخرجه وكيع في الزهد (١/ ٤٣٨)، وأحمد (٤/ ٢٢٤)، وأبو داود في الحمام، باب النهي عن التعري (٤٠١٢-٤٠١٣)، والنسائي في الغسل، باب الاستتار عند الاغتسال (١/ ٢٠٠)، وهناد في الزهد (١٣٥٩)، والبيهقي في السنن (١/ ١٩٨)، وفي الأسماء والصفات (١٥٧) وصححه النووي في خلاصة الأحكام (٥١٤) والألباني في صحيح الجامع (١٧٥٦).
وجاء عند عبد الرزاق مرسلًا من رواية عطاء -رحمه الله تعالى- (١١١١).

كَثِيرًا، وَلَا يَفْضَحُهُمْ فِي المَشَاهِدِ، كَذَلِكَ يُحِبُّ مِنْ عِبَادِهِ السَّتْرَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَاجْتِنَابَ مَا يَشِينُهُمْ(٤).

وَقَالَ المُنَاوِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «تَارِكٌ لِحُبِّ الْقَبَائِحِ، سَاتِرٌ لِلْعُيُوبِ وَالْفَضَائِحِ»(٥).

إِنَّ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ، وَتَفَضُّلِهِ عَلَيْهِمْ أَنْ سَتَرَ عَوْرَاتِهِمْ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ لِبَاسًا يُوارِي سَوْءَاتِهِمْ، وَأَجْمَلُ مَا يَكُونُ الْإِنْسَانُ حِينَ يَتَزَيَّا بِلِبَاسِهِ، وَيَسْتُرُ عَوْرَاتِهِ، وَأَقْبَحُ مَنْظَرٍ قَطُّ مَنْظَرُ إِنْسَانٍ عَارٍ مِنْ لِبَاسِهِ(٦)؛ وَلِأَجْلِ ذَلِكَ شُرِعَ

---

(٤) الأسماء والصفات (١/ ٢٢٤).

(٥) فيض القدير (٢/ ٢٢٨).

(٦) وقد ذكر الله تعالى هذه النعمة في معرض الآيات التي تُعَدِّد أفضاله ونعمه على بني آدم، فقال ﷻ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ [الأعراف: ٢٦].

قال الطبري -رحمه الله تعالى-: «﴿يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾، يقول: يَسْتر عوراتكم عن أعينكم، وكَنّى بـ«السوءات»، عن العورات. واحدتها: (سوءة)، وهي (فعلة) من (السوء)، وإنما سميت (سوءة)، لأنه يسوء صاحبها انكشافُها من جسده» (٨/ ١٤٦).

وقال القرطبي -رحمه الله تعالى-: «قال كثير من العلماء: هذه الآية دليل على وجوب ستر العورة لأنه قال: ﴿يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾ ومن جملة الإنعام ستر العورة، فبين أنه ﷻ جعل لذريته ما يسترون به عوراتهم، ودل على الأمر بالستر، ولا خلاف بين العلماء في وجوب ستر العورة عن أعين الناس» (٧/ ١٨٢).

وقوله ﷻ عقب ذكر هذه المنَّةِ العظيمة بإنزال اللباس لستر العورات: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ دليل على وجوب شكر الله تعالى على هذه النعمة التي لولاها لقبح بَنُو آدم، وفسدت أخلاقهم، وتعطلت مصالحهم.

قال الزمخشري في تفسيره: «ذلك من آيات الله الدالة على فَضْلِهِ ورحمته على عباده، يعني: إنزال اللباس لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ، فيعرفوا عظيم النعمة فيه، وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب ذكر بدو السوءات وخصف الورق عليها؛ إظهارًا للمنة فيما خلق من =

. . . .

= اللباس؛ ولما في العُرْى وكشف العورة مِنَ المهانة والفضيحة؛ وإشعارًا بأنّ التستر باب عظيم من أبواب التقوى» (٢/ ٩٤).

وقال ابن عاشور -رحمه الله تعالى-: «فابتدأ فأعلمهم بمنته عليهم أن أنزل لهم لباسًا يواري سوءاتهم، ويتجملون به بمناسبة ما قص الله عليهم مِنْ تَعَرّي أبويهم حين بدت لهما سوءاتهما، ثم بتحذيرهم من كيد الشيطان وفتنته بقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [الْأَعْرَاف: ٢٧] ثم بأن أمرهم بأخذ اللباس وهو زينة الإنسان عند مواقع العبادة لله تعالى بقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الْأَعْرَاف: ٣١]» (٨/ ٧٢).

وقال أيضًا: «ولما كان إلهام الله آدم أن يستر نفسه بورق الجنة منة عليه، وقد تقلدها بنوه، خوطب الناس بشمول هذه المنة لهم بعنوان يدل على أنها منة موروثة، وهي أوقع وأدعى للشكر، ولذلك سمي تيسير اللباس لهم وإلهامهم إياه إنزالًا، لقصد تشريف هذا المظهر، وهو أول مظاهر الحضارة، بأنه منزل على الناس من عند الله، أو لأن الذي كان منه على آدم نزل به من الجنة إلى الأرض التي هو فيها، فكان له في معنى الإنزال مزيد اختصاص، على أن مجرد الإلهام إلى استعماله بتسخير إلهي، مع ما فيه من عظيم الجدوى على الناس والنفع لهم، يحسن استعارة فعل الإنزال إليه؛ تشريفًا لشأنه... وقد كان ذلك اللباس الذي نزل به آدم هو أصل اللباس الذي يستعمله البشر. وهذا تنبيه إلى أن اللباس من أصل الفطرة الإنسانية، والفطرة أول أصول الإسلام، وأنه مما كرم الله به النوع منذ ظهوره في الأرض، وفي هذا تعريض بالمشركين؛ إذ جعلوا من قرباتهم نزع لباسهم بأن يحجوا عراة» (٨/ ٧٣-٧٤).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى-: «اللباس له منفعتان: إحداهما: الزينة بستر السوءة. والثانية: الوقاية لما يضر من حر أو برد أو عدو. فذكر اللباس في سورة الأعراف لفائدة الزينة وهي المعتبرة في الصلاة والطواف كما دل عليه قوله: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ وَقَالَ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾ ... ردًّا على ما كانوا عليه في الجاهلية من تحريم الطواف في الثياب الذي قدم بها غير الحمس... وذكره في النحل لفائدة الوقاية في قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ﴾، ولما كانت هذه الفائدة حيوانية طبيعية لا قوام للإنسان إلا بها جعلها من النعم، ولما كانت تلك فائدة كمالية قرنها بالأمر الشرعي، وتلك الفائدة من باب جلب المنفعة بالتزين، وهذه من باب دفع المضرة؛ فالناس إلى هذه =

. . . .

= أحوج» مجموع الفتاوى (١٥/ ٢١٧-٢١٨).
ومن أبين الأدلة على أن ستر العورة من الفطرة الإنسانية التي فطر عليها البشر، وفارقوا بها سائر الحيوان أَنَّ الطِّفْل الصغير غير المميز يستحيي من إبداء سَوْءَتِهِ، ويحاول موارَاتِها عن الأعين؛ ولأن البشرية قد تَنَاقَلَتْ سَتْرَ العورة جيلًا بعد جيل مِنْ لَدُن آدم عليه السلام، ولم يوجد خَرْق لتوارث اللباس وسَتْر العورة إلا عند بعض القَبَائِل الهَمَجِيَّة التي اتخذت إبداء العورة عادة أو دينًا وثنيًّا، وفق طقوس معينة يَعْتَقِدُونَها بسبب غلبة الجهل عليهم.
الحضارة المعاصرة والتعري:
كانت البشرية بما في ذلك الأمم الغربية تُرَاعِي مسألة الحشمة، وتأنف من التعري وكشف السوءة، إلى أن جاءت ثورة الحرية الفرنسية، وانتشرت شعاراتها في كافة الأرجاء الأوربية، وازدهرت التجارة والصناعة باختراع الآلات الحديثة، وفتح للبشرية فتوحات عظيمة في مجالات العلوم التجريبية وخاصة في أوربا.
ومع دوران الآلة، وتعدد سبل الصناعة ارتفعت نسبة الإنتاج، فكان لا بد من نقل عقليات البشر من العقلية المكتفية بالضرورات والقانعة بأيسر العيش إلى عقليات استهلاكية؛ لكي تستهلك منتجات المصانع والمزارع من المأكولات والمشروبات والملابس وغيرها، فأُقحمت المرأة في هذا الميدان للترويج للسلع، والدعاية لها، فظهرت أول ما ظهرت محتشمة، ولا تروج إلا لسلع النساء، ثم أخذت في التعرّي، وتنافست الشركات الكبرى على استقطاب أجمل النساء للدعاية لمنتجاتها، مع شيء من الإثارة والحركات الماجنة، وتَعْرِيَة أكبر قدر ممكن من الجسد، وصارت المرأة الدّعَائِيَّة مبتذلة لدرجة أنها تعمل دعاية لزيوت السيارات وإطاراتها، وغير ذلك مما لا دخل فيه للمرأة لا من قريب ولا من بعيد، إلا محاكاة الناس من غرائزهم، وجرهم إلى المنتج عن طريق شهواتهم لا عن طريق عقولهم باقتناعهم بجدوى هذه السلعة ومنفعتها.
والمطلع على التراث الأوربي في بداية القرن الميلادي الماضي، سواء في القصص أو المسرحيات المكتوبة، أو حتى الأفلام والمسلسلات التلفزيونية، يلاحظ أن المرأة الغربية كانت لا تعرف التعري، بل تلبس اللباس الفضفاض الواسع، وقد رأيت كثيرًا من الصور في المتاحف الغربية والأمريكية لمظاهرات وتجمعات صُوِّرَتْ قبل خمسين سنة وستين سنة، وأكثر من ذلك، يلاحظ فيها أن المرأة الغربية كانت تَسْتُر حتى شَعْرها، وكانت تبتعد عن الرجال قَدْرَ الإمكان، فتكون النساء كتلة مجتمعة في جانب المظاهرة أو التجمع؛ تحاشيًا للاختلاط بالرجال. =

. . . .

= فالتعري كان حادثًا حتى في الأمم الغربية التي وصل فيها الشذوذ إلى حَدٍّ مُخِيفٍ يفتك بالناس، وسأذكر شيئًا قليلًا من ذلك للتذكير فقط، وإلا فإن المشاهد التلفزيونية التي تعرضها القنوات الأوربية، وكذلك مَظَاهِر التَّعَرّي في الشوارع والأسواق وغيرها أشهر من أن يُسْتَدَلّ عليها.

وأذكر هنا بعض النماذج التي فيها شيء من الغرابة عن ذلك:

١- أن إحدى الجامعات الأوربية وهي جامعة (بوردو) نظمت مسابقة للتعري، والمتعارف عليه أن الجامعات هي محاضن التعليم والفضيلة لا التعري والرذيلة، وما يصل السوء إلى أماكن الفضيلة إلا بعد أن تفتك الرذيلة بالمجتمع، وتنتشر انتشار الوباء المهلك بسبب إطلاق الحريات الجنسية، واللهاث خلف الشهوات الحيوانية، يقول الإعلان عن هذه المسابقة السيئة:

سوف تعقد جامعة (بوردو) أول مسابقة لها في الإغراء السريع، يبدأ السير من قاعة الاتحاد من مركز الخدمات، وذلك في الساعة التاسعة مساء، الرَّجاء مِنْ كل من يرغب في الاشتراك أن يأتي مرتديًا بطانية فقط، ونحن نرحب بالمشاركين والمتطوعين.

المشتركون في هذه المسابقة سوف يتسابقون في الآتي:

١- مدى كشفهم لأجسامهم.

٢- المقدرة على الوقوف عراة وبدون حرج أمام العامة.

٣- مدى الاستجابة لمطالب العامة.

درجات المكافأة وشهادات التقدير:

١- شهادة استحقاق لكل مَنْ يُكْمل المدة المقررة عاريًا.

٢- سوف يمنح لقب سمير خاص لأول فتاة من جامعة بوردو.

٣- سوف تمنح مكافأة للمجموعة التي تؤدي عرضًا سريعًا.

٤- أعلى درجة شرف سوف تمنح لكل من يظهر على شاشة التلفزيون عاريًا. معتمدة من جمعية بوردو للتعري. «أفول شمس الحضارة الغربية من نافذة الإباحية» مصطفى غزال (١٤٣-١٤٥).

وهناك منظمات تتخذ من التعري وممارسة الجنس الجماعي أصلًا من أصول جماعتهم، كمنظمة (الهيبيز) المنتشرة في أوربة، نعوذ بالله مِنَ التَّرَدِّي والانتكاس. =

لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَحْمَدَ اللهَ تَعَالَى عَلَى مَا رَزَقَهُ مِنَ اللِّبَاسِ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ لَبِسَ ثَوْبًا فَقَالَ: الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَسَانِي هَذَا مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّةٍ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»[7].

= ٢- في أيام الحرب الأمريكية على العراق لخلع صدام حسين من الحكم قامت عجوز أمريكية تبلغ من العمر ٧٢ عامًا بالدعوة إلى مظاهرة ضد الحرب تتسم بالعري، فأَقْنَعَتْ نساء وفتيات بذلك، وقادَتْ هذه العجوز المظاهرة وَمَعَهَا حَشْد من النساء وهن عاريات من أي لباس. وعندما سئل زوجها: ألا تَغَارُ عليها عندما تخرج عارية في الشارع؟ قال: الحقيقة أني أغار كأي زوج، ولكن لِتَعَرِّيها أهداف سامية!! وهذا يُقَلِّصُ مِنَ الإحراج، وهي حُرَّة، وهذا أسلوبها في التعبير؛ وأنا أشجعها؛ لأنه ليس بوسع أي إنسان أن يتعرَّى، وذكر في ختام تعليقه على ذلك: أنه يتوقع بأن موجة من التعري الاحتجاجي ستجتاح العالم، وستشمل الرجال!! مجلة الجندي المسلم، عدد (١١١)، ص (١٠٨).

ومع الأسف فإن ما وَقَعَ في الغرب مِنَ التَّعَرِّي انتقل إلى البلاد الإسلامية؛ فَبَعْض الدول الإسلامية أنشأت نَوَادِيَ لِلْعُرَاةِ، وأكثر الدول الإسلامية انتشرت فيها موجة كشف أكثر الجسد في الشوارع والأسواق وغيرها، بِفِعْلِ الضخّ الإعلامي الضَّخْم الذي يدعو إلى التعرّي في مسلسلاته وأفلامه وأغَانِيه المصوّرة، وغير ذلك بالفعل والممارسة، والصورة قبل القول والتنظير الفكري، تحت دعاوى الحرية وتحرير المرأة، وما أشبه ذلك من الشعارات الاستهلاكية.

وكثير من المسلمين الذين بقي فيهم شيء من دين وحياء يأنفون من الخروج إلى شواطئ البحار والأنهار، ولا سيما في الصيف؛ لِمَا ينتشر فيها مِنْ تَعَرّي النساء اللائي يلبسن للبحر وأمام الناس ما لا يُلْبَس إلا في غرف النوم للأزواج. فنعوذ بالله من هذا الحال، ونسأله أن يستر علينا وعلى نسائنا ونساء المسلمين.

(٧) أخرجه من حديث معاذ بن أنس رضي الله عنه أبو داود في اللباس (٤٠٢٣)، والدارمي واللفظ له (٢٦٩٠)، وأبو يعلى (١٤٨٨-٣٤٩)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ١٨١) برقم (٣٨٩) وفي مسند الشاميين (٢٤٢)، والحاكم وصححه، وتعقبه الذهبي بأن في سنده أبا مرحوم وهو ضعيف (٤/ ٢١٣)، وأبو مرحوم هو عبد الرحيم بن ميمون المدني صدوق زاهد من السادسة كما في التقريب (٤٠٨٧)، وقال الذهبي في الكاشف: فيه لين (٣٣٥٩)، وذكره ابن حبان في الثقات (٧/ ١٣٤)، وذكر عوامة في حاشيته على الكاشف (١/ ٦٥١) أن الترمذي أخرج حديث الحبوة يوم الجمعة والإمام يخطب، وفي سنده أبو مرحوم، =

وَكُلَّمَا كَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ سَتْرًا، وَأَشَدَّ تَحَرُّزًا مِنْ كَشْفِ شَيْءٍ مِنْ عَوْرَاتِهِ كَانَ ذَلِكَ أَكْثَرَ لِحَيَائِهِ، وَأَدْعَى لِلاسْتِحْيَاءِ مِنْهُ، وَعُثْمَانُ ﷺ كَانَ شَدِيدَ الْحَيَاءِ فَاسْتَحْيَا مِنْهُ النَّبِيُّ ﷺ، وَاسْتَحْيَتْ مِنْهُ المَلَائِكَةُ.

وَمَنْ كَانَ صَفِيقَ الْوَجْهِ، قَلِيلَ الْحَيَاءِ، ضَعِيفَ الدِّيَانَةِ، مُعْدَمَ الْأَخْلَاقِ وَالمُرُوءَةِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَتَحَرَّزُ فِي لِبَاسِهِ، وَيَتَسَاهَلُ فِي عَوْرَتِهِ، وَلَا يُمَانِعُ مِنْ إِبْدَاءِ سَوْءَتِهِ، وَيَكْثُرُ ذَلِكَ فِي النِّسَاءِ المُتَخَلِّعَاتِ اللَّائِي يَنْزِعْنَ مِنْ لِبَاسِهِنَّ بِقَدْرِ مَا نُزِعَ

= وقال في آخره: وهذا حديث حسن، ينظر: سنن الترمذي، كتاب الصلاة، باب ما جاء في كراهية الاحتباء والإمام يخطب (٥١٤)، ثم قال عوامة: «واقتصار الترمذي على تحسين الحديث (حديث حسن) فقط دون كلمة غريب معها يشعر بتليين أحد رواته، وهو هذا هنا، راجع تعريفه للحديث الحسن آخر سننه، ولو أضاف إليها كلمة غريب لكان يريد الحسن لذاته» اهـ، وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٦٠٨٦).

وجاء في ذلك أيضًا: حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا استجدّ ثوبًا سمَّاه باسمه: إما قميصًا أو عِمامةً، ثم يقول: «**اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ، أَنْتَ كَسَوْتَنِيهِ، أَسْأَلُكَ مِنْ خَيرِهِ، وَخَيرِ مَا صُنِعَ لَهُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِ، وشرِّ مَا صُنِعَ لَهُ**». قال أبو نضرة: وكان أصحابُ النبي ﷺ إذا لبس أحدُهم ثوبًا جديدًا قيل له: «تُبْلي ويُخْلِفُ الله ﷻ» أخرجه أحمد (٣/ ٢٠-٥٠)، وأبو داود (٤٠٢٠)، والترمذي، وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح (١٧٦٧)، وعبد بن حميد (٨٨٢)، وابن سعد في الطبقات (١/ ٤٦٠)، والحاكم، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه (٤/ ٢١٣).

قال شراح الحديث: «خير الثوب بقاؤه ونقاؤه، وكونه ملبوسًا للضرورة والحاجة، وخير ما صنع له هو الضرورات التي من أجلها يصنع اللباس من الحر والبرد وستر العورة، والمراد: سؤال الخير في هذه الأمور، وأن يكون مبلغًا إلى المطلوب الذي صنع لأجله الثوب من العون على العبادة والطاعة لموليه. وفي الشر عكس هذه المذكورات، وهو كونه حرامًا ونجسًا ولا يبقى زمانًا طويلًا، أو يكون سببًا للمعاصي والشرور والافتخار والعجب والغرور، وعدم القناعة بثوب الدون وأمثال ذلك، والحديث يدل على استحباب حمد الله تعالى عند لبس الثوب الجديد» ينظر: مرقاة المفاتيح (٨/ ٢١٨)، وعون المعبود (١١/ ٤٤)، وتحفة الأحوذي (٥/ ٣٨٦).

مِنْ حَيَائِهِنَّ، وَيُبْدِينَ مِنْ عَوْرَاتِهِنَّ عِنْدَ مَحَارِمِهِنَّ وَعِنْدَ الْغُرَبَاءِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ مَا لَا يَحِلُّ كَشْفُهُ إِلَّا لِلزَّوْجِ!

وَإِنَّ مِنْ أَهَمِّ أَسْبَابِ ذَهَابِ الدِّينِ وَالْغَيْرَةِ، وَقِلَّةِ الْمُرُوءَةِ وَالْحَيَاءِ، وَالتَّهَتُّكِ فِي الْأَخْلَاقِ وَاللِّبَاسِ: النَّظَرَ إِلَى الْمُتَخَلِّعِينَ وَالْمُتَخَلِّعَاتِ، اللَّائِي نَبَذْنَ لِبَاسَهُنَّ كَمَا نَبَذْنَ أَخْلَاقَهُنَّ، يَخْتَلِطْنَ بِالرِّجَالِ فِي لِبَاسٍ فَاضِحٍ، وَحَرَكَاتٍ مَاجِنَةٍ، وَرَقَصَاتٍ خَالِعَةٍ، وَيَكْثُرُ ذَلِكَ فِي الْبَرَامِجِ الْفَضَائِيَّةِ الَّتِي صَارَتْ صَنْعَةُ أَكْثَرِهَا مَحْصُورَةً فِي تَهْيِيجِ الْغَرَائِزِ، وَفَتْحِ أَبْوَابِ الرَّذِيلَةِ وَالشَّرِّ وَالْفَسَادِ.

فَمَنْ رَضِيَ لِنِسَائِهِ وَبَنَاتِهِ وَأَخَوَاتِهِ، بَلْ حَتَّى لِإِخْوَانِهِ وَأَبْنَائِهِ أَنْ يُشَاهِدُوا هَذِهِ الْمَنَاظِرَ الْقَاتِلَةَ لِلْأَخْلَاقِ وَالْآدَابِ، الْمُعْدِمَةِ لِلْحَيَاءِ وَالسَّتْرِ وَالْعَفَافِ؛ فَلَا يَرْجُو أَنْ يَكُونَ أَهْلُ بَيْتِهِ أَهْلَ سَتْرٍ وَحَيَاءٍ وَعَفَافٍ، وَقَدْ نَزَعَتِ الْفَضَائِيَّاتُ ذَلِكَ مِنْ قُلُوبِهِمْ، نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى السَّتْرَ وَالْحَيَاءَ وَالْعَفَافَ لَنَا وَلِنِسَائِنَا وَأَوْلَادِنَا وَسَائِرِ الْمُسْلِمِينَ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

إِنَّ رَبَّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى سِتِّيرٌ يَسْتُرُ عِبَادَهُ، وَلَمَّا كَانَ مُحِبًّا لِمُقْتَضَى أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ أَهْلَ السَّتْرِ الَّذِينَ يَسْتُرُونَ مَعَايِبَهُمْ، وَلَا يُجَاهِرُونَ بِمَعَاصِيهِمْ.

وَمَا مِنْ عَبْدٍ مِنَ الْعِبَادِ إِلَّا وَلَهُ أَخْطَاءٌ وَمَعَايِبُ، وَهَنَّاتٌ وَفَضَائِحُ، فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى، أَوْ فِي حَقِّ نَفْسِهِ، أَوْ فِي حَقِّ الْعِبَادِ، فَإِنْ سَتَرَهَا سَتَرَهُ اللهُ تَعَالَى، وَكَانَ حَرِيًّا أَنْ يُوَفَّقَ لِلتَّوْبَةِ مِنْهَا، وَالْإِقْلَاعِ عَنْهَا، وَإِنْ أَظْهَرَهَا، وَجَاهَرَ بِذُنُوبِهِ، وَفَاخَرَ بِعِصْيَانِهِ، فَهُوَ مِمَّنْ يُشِيعُ الْفَاحِشَةَ، وَيَنْشُرُ الرَّذِيلَةَ، وَيُبَارِزُ اللهَ تَعَالَى بِمَعْصِيَتِهِ، وَهُوَ مُتَوَعَّدٌ بِالْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [النور: ١٩].

وَمِنَ الْعَذَابِ الْمُعَجَّلِ لَهُ فِي الدُّنْيَا: بَقَاؤُهُ عَلَى ذَنْبِهِ، وَإِصْرَارُهُ عَلَى عِصْيَانِهِ؛ حَتَّى يَسْتَحِقَّ الْعُقُوبَةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا، ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولَ: يَا فُلَانُ، عَمِلْتُ البَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ»**[٨].

---

(٨) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه البخاري في الأدب، باب ستر المؤمن على نفسه (٦٠١٩)، ومسلم في الرقائق، باب النهي عن هتك الإنسان ستر نفسه (٢٩٩٠).
قال القرطبي -رحمه الله تعالى-: «وَهَذِه الروايات -وإن اختلفت ألفاظها- هي راجعة إلى معنىً واحد قد فَسَّرَه في الحديث، وهو أن يعمل الرجل معصية في خفية وخلوة، ثم يخرج يتحدث بها مع الناس ويجهر بها ويعلنها، وهذا من أكبر الكبائر، وأفحش الفواحش؛ وذلك أن هذا لا يصدر إلا مِنْ جَاهِلٍ بقدر المعصية، أو مُسْتَهِين مُسْتَهْزِئ بها، مُصِرٌّ عليها، غير تائب منها، مظهرٍ للمنكر. والواحد من هذه الأمور كبيرة، فكيف إذا اجتمعت؟! فلذلك كان فاعل هذه الأشياء أشَدّ الناس بلاء في الدنيا وعقوبة في الآخرة؛ لأنه تجتمع عليه عقوبة تلك الأمور كلها، وسائر الناس ممن ليس على مثل حاله، وإن كان مرتكب كبيرة فأمره أخفّ وعقوبته إن عوقب أهون، ورجوعه عنها أقرب من الأول؛ لأن ذلك المجاهر قَلَّ أن يتوب أو يرجع عما اعْتَاده من المعصية وسهل عليه منها، فيكون كل العصاة بالنسبة إليه إما معافى مطلقًا إن تاب، وإما معافى بالنسبة إليه إن عوقب، والله تعالى أعلم» المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٦/ ٦١٨).
ونقل ابن حجر عن ابن بطال قوله: «في الجهر بالمعصية استخفاف بحق الله ورسوله وبصالحي المؤمنين، وفيه ضرب من العناد لهم، وفي الستر بها السلامة من الاستخفاف؛ لأن المعاصي تذل أهلها، ومن إقامة الحد عليه إن كان فيه حد، ومن التعزير إن لم يوجب حدًّا، وإذا تمحض حق الله فهو أكرم الأكرمين، ورحمته سبقت غضبه؛ فلذلك إذا ستره في الدنيا لم يَفْضَحْهُ في الآخرة، والذي يجاهر يفوته جميع ذلك» فتح الباري (١٠/ ٤٨٧).
وقال الحافظ ابن حجر بعد أن شرح حديث أبي هريرة في تحريم المجاهرة، وحديث ابن عمر في النجوى، وبعد أن ذكر حديث أبي سعيد في القصاص: «فدل مجموع هذه الأحاديث على أن العصاة من المؤمنين في القيامة على قسمين: =

. . . .

= أحدهما: من معصيته بينه وبين ربه، فدل حديث ابن عمر على أن هذا القسم على قسمين: قسم تكون معصيته مستورة في الدنيا، فهذا الذي يسترها الله عليه في القيامة، وهو بالمنطوق.
وقسم تكون معصيته مجاهرة، فدل مفهومه على أنه بخلاف ذلك.
والقسم الثاني: من تكون معصيته بينه وبين العباد؛ فهم على قسمين أيضًا:
قسم ترجح سيئاتهم على حسناتهم؛ فهؤلاء يقعون في النار ثم يخرجون بالشفاعة.
وقسم تتساوى سيئاتهم وحسناتهم؛ فهؤلاء لا يدخلون الجنة حتى يقع بينهم التقاص، كما دل عليه حديث أبي سعيد» فتح الباري (١٠/ ٤٨٩).
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى-: «نهى الله عن إشاعة الفاحشة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النور: ١٩]، وكذلك أمر بستر الفواحش كما قال النبي ﷺ: «**مَنِ ابْتُلِيَ بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ القَاذُورَاتِ فَلْيَسْتَتِرْ بِسَتْرِ اللَّهِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يُبْدِ لَنَا صَفْحَتَهُ نُقِمْ عَلَيهِ الكتاب**»، وقال: «**كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا المُجَاهِرِينَ**»، والمجاهرة: أن يبيت الرجل على الذنب قد سَتَرَهُ الله، فيصبح يتحدث به، فما دام الذنب مستورًا فمصيبته على صاحبه خاصة، فإذا أظهر ولم ينكر كان ضرره عامًّا؛ فكيف إذَا كان في ظهوره تحريك غيره إليه؛ ولهذا أنكر الإمام أحمد وغيره أشكال الشِّعْر الغزلي الرقيق؛ لئلا تتحرك النفوس إلى الفواحش؛ فلهذا أمر مَنِ ابْتُلِيَ بالعشق أن يعفّ ويكتم، فيكون حينئذ ممن قال الله فيه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]» مَجموع الفتاوى (٢٨/ ٢١٥).
وقال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: «وبالجملة فمراتب الفاحشة متفاوتة بحسب مفاسدها، فالمتخذ خدْنًا من النساء والمتخذة خدنًا من الرجال أقل شرًّا من المُسَافِح والمسافحة مَعَ كل أحد، والمستخفي بما يرتكبه أقل إثمًا من المجاهر المستعلن، والكاتم له أقل إثمًا من المُخْبِر المحدِّث للناس به، فهذا بعيد عن عافية الله تعالى وعفوه، كما قال النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إلا المُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ المُجَاهَرَةِ أَنْ يَسْتُرَ اللهُ تعالى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ، يَقُولُ: يَا فُلان، فَعَلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، فَيَبِيتُ رَبُّهُ يَسْتُرُهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْ نَفْسِهِ**» أو كما قال. وفي الحديث الآخر عنه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**مَنِ أُبْتُلِى مِنْ هذِهِ الْقَاذُورَاتِ بِشَيءٍ فَلْيَسْتَتِرْ بِسِتْرِ اللَّهِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يُبْدِ لَنَا صَفْحَتَهُ نُقِم عَلَيْهِ كِتَابَ اللَّهِ**»، وفي الحديث الآخر: =

وَلمَّا كَانَ اللهُ تَعَالَى سِتِّيرًا يُحِبُّ السَّتْرَ؛ فَإِنَّهُ نَدَبَ المُسْلِمَ إِذَا وَقَعَ فِيمَا يُوجِبُ حَدًّا أَوْ تَعْزِيرًا أَنْ يَسْتُرَ عَلَى نَفْسِهِ، وَيَتُوبَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى؛ وَذَلِكَ أَفْضَلُ مِنْ أَنْ يَرْفَعَ أَمْرَهُ لِلسُّلْطَانِ لِيُقِيمَ الْحَدَّ عَلَيْهِ، وَبِهَذَا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: «**مَنْ أَتَى مِنْ هَذِهِ الْقَاذُورَاتِ شَيْئًا فَلْيَسْتَتِرْ بِسَتْرِ اللَّهِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يُبْدِ لَنَا صَفْحَتَهُ نُقِمْ حَدَّ اللَّهِ عَلَيْهِ**»(٩).

= «**إِنَّ الخَطِيئَةَ إذا خفيت لَمْ تَضُرَّ إلا صَاحِبَهَا، وَلكِنْ إِذَا أُعْلِنَتْ فَلَمْ تُنْكَرْ ضَرَّتِ الْعَامَّةَ**».
وكذلك الزنا بالمرأة التي لا زوج لها أيسر إثمًا من الزنا بذات الزوج؛ لما فيه من ظلم الزوج والعدوان عليه، وإفساد فراشه عليه، وقد يكون إثم هذا أعظم من إثم مجرد الزنا، أو دونه. والزنا بحليلة الجار أعظم إثمًا من الزنا ببعيدة الدار؛ لما اقترن بذلك من أذى الجار، وعدم حفظ وصية الله تعالى ورسوله به. وكذلك الزنا بامرأة الغازي في سبيل الله أعظم إثمًا عند الله من الزنا بغيرها. ولهذا يقام له يوم القيامة ويقال له: «**خُذْ مِنْ حَسَنَاتِهِ مَا شِئْتَ**». وكما تختلف درجاته بحسب المزني بها فكذلك تتفاوت درجاته بحسب الزمان والمكان والأحوال، وبحسب الفاعل؛ فالزنا في رمضان ليلًا أو نهارًا أعظم إثمًا منه في غيره. وكذلك في البقاع الشريفة المفضلة هو أعظم إثمًا منه فيما سواها. وأما تفاوته بحسب الفاعل: فالزنا من الحر أقبح منه من العبد، ولهذا كان حَدُّه على النصف من حده، ومن المحصن أقْبَح منه من البكر، ومن الشيخ أقْبَح منه من الشاب؛ ولهذا كان أحد الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: الشيخ الزاني. ومِنَ العالم أقبح منه من الجاهل؛ لعلمه بقبحه، وما يترتب عليه، وإقدامه على بصيرة. ومن القادر على الاستغناء عنه أقبح من الفقير العاجز» إغاثة اللهفان (٢/ ١٤٧-١٤٨).

(٩) أخرجه مالك في الموطأ مرسلًا من حديث زيد بن أسلم (١٥٠٨).
وأخرجه مسندًا من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٩١)، والبيهقي (٨/ ٣٣٠)، والحاكم، وصححه وقال: على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي (٤/ ٢٤٤)، وذكر الحافظ في التلخيص الحبير: أن ابن السكن صححه (٤/ ٧٥)، وصححه السيوطي في الجامع الصغير (١٧٥)، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة، وقال بعد أن ذكر تصحيح الحاكم والذهبي: «وهو كما قالا»، وذكر له شاهدًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند الديلمي في مسند الفردوس، ينظر: السلسلة الصحيحة (٦٦٣).

قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: «فَإِنَّهُ أَرَادَ -وَاللهُ أَعْلَمُ- بَعْدَ أَمْرِهِ بِالِاسْتِتَارِ بِالذَّنْبِ أَنَّهُ مَنْ أَقَرَّ عِنْدَهُ فَلَا شَفَاعَةَ حِينَئِذٍ لَهُ وَلَا عَفْوَ عَنْهُ، وَمِنْ هَذَا وَشِبْهِهِ قَامَ الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْحُدُودَ إِذَا بَلَغَتِ السُّلْطَانَ لَمْ يَجُزْ أَنْ يُتَشَفَّعَ فِيهَا، وَلَا أَنْ تُتْرَكَ إِقَامَتُهَا، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ ﷺ فِي حَدِيثِ صَفْوَانَ بنِ أُمَيَّةَ: «**فَهَلَّا قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَنِي بِهِ**»، وَقَوْلِ الزُّبَيْرِ: إِذَا بَلَغْتَ بِهِ السُّلْطَانَ، فَلَعَنَ اللهُ الشَّافِعَ وَالْمُشَفَّعَ»(١٠).

وَلَمَّا جَاءَ مَاعِزُ بْنُ مَالِكٍ الْأَسْلَمِيُّ رضي الله عنه يَعْتَرِفُ بِأَنَّهُ زَنَى أَعْرَضَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ مِرَارًا، وَعَرَّضَ لَهُ بِأَنْ يَسْتُرَ نَفْسَهُ، وَيَتُوبَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى، فَلَمَّا أَقَرَّ عِنْدَهُ، أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِرَجْمِهِ(١١).

وَمِنْ فِقْهِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رضي الله عنهما: أَنَّ مَاعِزًا جَاءَهُمَا وَأَخْبَرَهُمَا قَبْلَ أَنْ يُخْبِرَ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَشَارَا عَلَيْهِ بِالتَّوْبَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَجَنُّبِ الْفَضِيحَةِ، وَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: «اسْتَتِرْ بِسَتْرِ اللَّهِ، وَتُبْ إِلَى اللَّهِ، فَإِنَّ النَّاسَ يُعَيِّرُونَ وَلَا يُغَيِّرُونَ،

---

(١٠) التمهيد (٥/ ٣٤١-٣٤٢).

(١١) جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن ماعزًا شهد على نفسه أربع مرات، وقال له النبي ﷺ: «**أبك جنون؟**» أخرجه البخاري في الحدود، باب الرجم في المصلى (٦٨٢٠)، ومسلم في الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنا (١٦٩١).

وفي رواية للبخاري في الحدود، باب سؤال الإمام المقر: «**هل أحصنت؟**» (٦٨٢٥) أن النبي ﷺ لما اعترف عنده ماعز أعرض عنه، فتنحى ماعز لشق وجهه الذي أعرض قبله .. وتكرر ذلك أربع مرات.

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال لماعز: «**لَعَلَّكَ قَبَّلْتَ أَوْ غَمَزْتَ أَوْ نَظَرْتَ**» أخرجه البخاري في الحدود، باب هل يقول الإمام للمقر: لعلك لمست أو غمزت أو نظرت (٦٨٢٤).

وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٢/ ١٣٨) تعليقًا على تبويب البخاري لهذا الحديث: «هذه الترجمة معقودة لجواز تلقين الإمام المقر بالحد ما يدفعه عنه، وقد خصه بعضهم بمن يظن به أنه أخطأ أو جهل».

وَإِنَّ اللهَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ»(١٢).

وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ رضي الله عنه لَمَّا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ بِالْكُوفَةِ حَتَّى امْتَلَأَتْ دَارُهُ قَالَ: «مَنْ جَاءَ يَسْتَفْتِينَا فَلْيَجْلِسْ نُفْتِيهِ إِنْ شَاءَ اللهُ، وَمَنْ جَاءَ يُرِيدُ أَنْ يُطْلِعَنَا عَلَى عَوْرَةٍ قَدْ سَتَرَهَا اللهُ عَلَيْهِ، فَلْيَسْتَتِرْ بِسِتْرِ اللَّهِ، وَلْيَقْبَلْ عَافِيَةَ اللَّهِ، وَلْيُسْرِرْ تَوْبَتَهُ إِلَى الَّذِي يَمْلِكُ مَغْفِرَتَهَا، فَإِنَّا لَا نَمْلِكُ مَغْفِرَتَهَا، وَلَكِنَّا نُقِيمُ عَلَيْهِ حَدَّهَا، وَنُمْسِكُ عَلَيْهِ بِعَارِهَا»(١٣).

وَجَاءَ عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ: «يَا نِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ، إِذَا أَذْنَبَتْ إِحْدَاكُنَّ ذَنْبًا فَلَا تُخْبِرَنَّ بِهِ النَّاسَ، وَلْتَسْتَغْفِرَنَّ اللهَ تَعَالَى، وَلْتَتُبْ إِلَيْهِ؛ فَإِنَّ الْعِبَادَ يُعَيِّرُونَ وَلَا يُغَيِّرُونَ، وَإِنَّ اللهَ يُغَيِّرُ وَلَا يُعَيِّرُ»(١٤).

وَلَمَّا كَانَ الشَّارِعُ الْحَكِيمُ سِتِّيرًا يُحِبُّ السَّتْرَ عَلَى عِبَادِهِ، وَيُحِبُّ الْعَفْوَ عَنْهُمْ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ نَهَى الْمُسْلِمَ أَشَدَّ النَّهْيِ عَنِ التَّجَسُّسِ عَلَى النَّاسِ لِكَشْفِ خَبَايَاهُمْ، وَالِاطِّلَاعِ عَلَى عَوْرَاتِهِمْ، فَمَنِ اسْتَتَرَ بِسَتْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَوْ كَانَ عَلَى مَعْصِيَةٍ، فَلَا يَجُوزُ هَتْكُ سِتْرِهِ، وَفَضْحُ أَمْرِهِ؛ إِلَّا إِذَا كَانَ فِي مَعْصِيَتِهِ إِضْرَارٌ بِالْمُسْلِمِينَ، وَإِلَّا فَالْأَصْلُ أَنَّ مَنْ أَذْنَبَ سِرًّا يَتُوبُ سِرًّا، وَمَنْ أَذْنَبَ عَلَانِيَةً يَتُوبُ عَلَانِيَةً(١٥).

---

(١٢) مشورة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما على ماعز أن يتوب أخرجها عبد الرزاق مرسلة عن سعيد بن المسيب -رحمه الله تعالى- (١٣٣٤٢)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٥٣٩) برقم: (٢٨٧٧٨)، وابن عبد البر في التمهيد (٢٣/ ١١٩-١٢٠)، واللفظ له من قول أبي بكر رضي الله عنه، وفيه: أن أبا بكر رضي الله عنه قال له: هل ذكرت ذلك لأحد قبلي؟ قال ماعز: لا، ثم أشار عليه بأن يستتر بستر الله تعالى . . . إلخ.

(١٣) أخرجه عبد الرزاق (١٨٩٤١).

(١٤) أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده (١٦٦٠)، والخرائطي في مكارم الأخلاق (٥١٦).

(١٥) قال ميمون بن مهران: «مَنْ أَسَاءَ سِرًّا فليتب سِرًّا، ومن أساء علانية فليتب علانية؛ فإن الله يغفر ولا يعير، والناس يعيرون ولا يغفرون» أخرجه أبو نعيم في الحلية (٤/ ٩٢)، وهو في تهذيب الكمال (٢٩/ ٢٢٢).
=

وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ، وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ، لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ؛ فَإِنَّهُ مَنِ اتَّبَعَ**

= قال شيخ الإسلام: «المعصية إذا كانت ظاهرة كانت عقوبتها ظاهرة؛ كما جاء في الأثر: «مَنْ أذنب سرًّا فليتب سرًّا، وَمَنْ أَذْنَبَ علانية فليَتُبْ عَلَانية»، وليس من الستر الذي يحبه الله تعالى -كما في الحديث-: «**مَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ**»، بل ذلك إذا ستر كان ذلك إقرارًا لمنكر ظاهر، وفي الحديث: «**إِنَّ الخَطِيئَةَ إِذَا خَفِيَتْ لَمْ تَضُرَّ إِلَّا صَاحِبَهَا، وَإِذَا أُعْلِنَتْ فَلَمْ تُنْكَرْ ضَرَّتِ الْعَامَّةَ**»، فإذا أعلنت أعلنت عقوبتها بحسب العدل الممكن، ولهذا لم يكن للمعلن بالبدع والفجور غيبة، كما رُوِي ذلك عن الحسن البصري وغيره؛ لأنه لما أعلن ذلك استحق عقوبة المسلمين له، وأدنى ذلك أن يُذَمّ عليه؛ لينزجر ويكف الناس عنه وعن مخالطته، ولو لم يذم ويذكر بما فيه من الفجور والمعصية أو البدعة لاغْتَرّ به الناس، وربما حمل بعضهم على أن يرتكب ما هو عليه ويزداد أيضًا هو جرأة وفجورًا ومعاصي. فإذا ذكر بما فيه انْكَفَّ وانكف غيره عن ذلك، وعن صحبته ومخالطته، قال الحسن البصري: «أترغبون عن ذكر الفاجر؟! اذكروه بما فيه كي يحذره الناس» وقد روي مرفوعًا. و«الفجور» اسم جامع لكل مُتَجَاهِر بمعصية أو كلام قبيح يَدُلّ السامع له على فجور قلب قائله. ولهذا كان مستحقًّا لِلْهَجْر إذا أعلن بدعة أو معصية أو فجورًا أو تهتكًا أو مخالطة لمن هذا حاله، بحيث لا يبالي بطعن الناس عليه؛ فإن رَأَى مَنْ يهوى بعض المتصلين به أو يعاشره عشرة منكرة، أو رأى له محبة أو ميلًا وصبابة وعشقًا، ولو كان ولده رأف به، وظن أن هذا من رحمة الخلق ولين الجانب بهم ومكارم الأخلاق، وإنما ذلك دياثة ومهانة وعدم دين، وضعف إيمان، وإعانة على الإثم والعدوان، وترك للتناهي عن الفحشاء والمنكر. وتدخل النفس به في القيادة التي هي أعظم الدياثة، كما دخلت عجوز السوء مع قومها في استحسان ما كانوا يتعاطونه من إتيان الذكران، والمعاونة لهم على ذلك، وكانت في الظاهر مسلمة على دين زوجها لوط، وفي الباطن منافقة على دين قومها، لا تقلي عملهم كما قلاه لوط؛ فإنه أنكره ونهاهم عنه وأبغضه، وكما فعل النسوة اللواتي بمصر مع يوسف؛ فإنهن أعَنَّ امرأة العزيز على ما دَعَتْه إليه من فعل الفاحشة معها؛ ولهذا قال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ وذلك بعد قولهن: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾. وَلَا ريب أن محبة الفواحش مرض في القلب؛ فإن الشهوة توجب السكر؛ كما قال تعالى عن قوم لوط: ﴿إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وفي الصحيحين واللفظ لمسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**الْعَيْنَانِ تَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا النَّظَرُ**» الحديث إلى آخره» الفتاوى (١٥/ ٢٨٥-٢٨٨).

عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعُ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ» أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ، وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ رضي الله عنه[١٦].

وَمِنْ أَعْظَمِ الْقُرُبَاتِ، وَأَحْسَنِ الطَّاعَاتِ، وَأَجْمَلِ الْأَخْلَاقِ: أَنْ يَبْتَعِدَ الْمُسْلِمُ عَنْ مَوَاطِنِ الرِّيَبِ، وَيَحْذَرَ مِنَ التَّجَسُّسِ عَلَى إِخْوَانِهِ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ عَلِمَ بِجُرْمِ عَبْدٍ مِنَ الْعِبَادِ لَمْ يُجَاهِرْ بِذَنْبِهِ سَتَرَهُ، وَلَمْ يَكْشِفْ سِتْرَهُ، وَلَا فَضَحَ أَمْرَهُ، وَقَدْ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[١٧].

وَفِي قِصَّةِ مَاعِزٍ رضي الله عنه لَمَّا زَنَى: أَنَّهُ جَاءَ لِأَحَدِ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم يُقَالُ لَهُ: هَزَّالٌ، يَسْتَشِيرُهُ فِيمَا يَفْعَلُ، فَاجْتَهَدَ هَزَّالٌ فَأَخْطَأَ، وَأَشَارَ عَلَى مَاعِزٍ بِأَنْ يَذْهَبَ لِلنَّبِيِّ ﷺ لِيُطَهِّرَهُ بِالْحَدِّ، فَلَمَّا أَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ الْحَدَّ عَلَى مَاعِزٍ رضي الله عنه، وَعَلِمَ بِمَشُورَةِ هَزَّالٍ رضي الله عنه قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «وَاللَّهِ يَا هَزَّالُ، لَوْ كُنْتَ سَتَرْتَهُ بِثَوْبِكَ لَكَانَ خَيْرًا لَكَ مِمَّا صَنَعْتَ بِهِ» رَوَاهُ أَحْمَدُ[١٨].

اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِنَا، وَآمِنْ رَوْعَاتِنَا، وَاحْفَظْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِينَا وَمِنْ خَلْفِنَا، وَعَنْ

---

(١٦) أخرجه أحمد (٤/ ٤٢٠-٤٢١)، وأبو داود في الأدب، باب في الغيبة (٤٨٨٠)، وابن أبي الدنيا في الصمت (١٦٧)، والبيهقي (١٠/ ٣٢٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٨٤).

وله شاهد من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عند الترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في تعظيم المؤمن (٢٠٣٢)، والبغوي في شرح السنة (٣٥٢٦)، وصححه ابن حبان (٥٧٦٣).

وله شواهد أخرى عن ابن عباس وثوبان والبراء بن عازب رضي الله عنهم.

(١٧) قطعة من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أخرجه البخاري في المظالم، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه (٢٤٤٢)، ومسلم في البر والصلة، باب تحريم الظلم (٢٥٨٠).

(١٨) أخرجه أحمد (٥/ ٢١٧)، وأبو داود في الحدود، باب في الستر على أهل الحدود (٤٣٧٧)، والنسائي في الكبرى (٧٢٧٤)، وابن أبي شيبة (٥/ ٥٤٠)، برقم: (٢٨٧٨٤)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٣٩٣) من حديث يزيد بن نعيم عن أبيه. وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣٤٦٠).

أَيْمَانِنَا وَعَنْ شَمَائِلِنَا، وَمِنْ فَوْقِنَا، وَنَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ نُغْتَالَ مِنْ تَحْتِنَا، اللَّهُمَّ اسْتُرْنَا وَإِخْوَانَنا الْمُسْلِمِينَ بِسَتْرِكَ، وَأَسْبِغْ عَلَيْنَا عَفْوَكَ.

وَأَقُولُ قَوْلِي هَذَا، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ.



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّ مَحَبَّةَ اللَّهِ تَعَالَى تُنَالُ بِطَاعَتِهِ، وَاجْتِنَابِ مَعْصِيَتِهِ، وَتَقْوَاهُ حَقَّ التَّقْوَى.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: اعْتَادَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ إِذَا أَلَمَّتْ بِهِمْ مُلِمَّةٌ أَنْ يَسْتَغِيثُوا بِاللَّهِ تَعَالَى لها فَيَقُولُوا: يَا سَاتِرُ، أَوْ يَقُولُوا: يَا سَتَّارُ، وَهَذَا خَطَأٌ؛ لِأَنَّ السَّاتِرَ لَيْسَ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْوَاجِبُ أَنْ يَقُولُوا: يَا سِتِّيرُ؛ لِوُرُودِ النَّصِّ النَّبَوِيِّ بِأَنَّهُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى(١٩)، وَكَمْ لِهَذَا الِاسْمِ الْعَظِيمِ الْجَلِيلِ مِنْ أَثَرٍ كَبِيرٍ فِي مَعَاشِ النَّاسِ وَمَعَادِهِمْ، فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا وَحَيَاتِهِمُ الْأُخْرَى.

---

(١٩) ومن الطريف في هذا الشأن ما نقل عن الشيخ المحدث محمد ناصر الدين الألباني -رحمه الله تعالى-، مِنْ أنه تعرّض لحادث سير فانقلبت السيارة، فقال أحد الركاب والسيارة تتدحرج: يا ساتر، فقال الشيخ له: «قل: يا ستير، ولا تقل: يا ساتر، فليس من أسماء الله تعالى».

إِنَّ مَنْ عَرَفَ اللهَ تَعَالَى بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، أَدْرَكَ آثَارَ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ عَلَيْهِ، وَعَلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ، بَلْ وَعَلَى الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ.

فَكَمْ مِنْ سَوْءَةٍ لَنَا سَتَرَهَا رَبُّنَا، وَكَمْ مِنْ عَبْدٍ لِلَّهِ تَعَالَى إِذَا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ؛ دَخَلَ دَارَهُ، وَأَغْلَقَ بَابَهُ، وَعَاشَ فِي أَمَانِ اللَّهِ تَعَالَى، لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ إِلَّا رَبُّهُ سُبْحَانَهُ، وَالْكِرَامُ الْكَاتِبُونَ، فَيَعْصِي رَبَّهُ، وَيَنْتَهِكُ حُرْمَتَهُ، المَرَّةَ وَالمَرَّتَيْنِ، وَالسَّنَةَ وَالسَّنَتَيْنِ، يُقِيمُ عَلَى المَعْصِيَةِ زَمَنًا طَوِيلًا لَا يَهْتِكُ اللهُ تَعَالَى سِتْرَهُ، وَلَا يَفْضَحُ أَمْرَهُ، فَمَا أَحْلَمَهُ تَعَالَى! وَمَا أَرْحَمَهُ بِخَلْقِهِ!

أَرَأَيْتُم -أَيُّهَا الإِخْوَةُ- لَوْ أَنَّ كُلَّ عَاصٍ مِنَّا -وَكُلُّنَا كَذَلِكَ- هَتَكَ اللهُ تَعَالَى سِتْرَهُ، وَأَظْهَرَ لِلنَّاسِ أَمْرَهُ، وَعَرَفَ أَهْلُهُ وَقَرَابَتُهُ وَجِيرَانُهُ بِكُلِّ ذَنْبٍ عَمِلَهُ فِي الْخَفَاءِ، فَكَمْ مِنَ الْعَارِ وَالْفَضِيحَةِ سَتَكُونُ فِي النَّاسِ؟! لَكِنَّ رَبَّنَا السِّتِّيرَ الرَّحِيمَ يَسْتُرُنَا عَنْ خَلْقِهِ، فَلَا تَنَالُنَا فَضِيحَةٌ، وَلَا يَلْحَقُنَا عَارٌ، وَلَا يُعَيِّرُنَا مُعَيِّرٌ، وَلَا يَشْمَتُ بِنَا شَامِتٌ، فَيَا لَهَا مِنْ نِعْمَةٍ عَظِيمَةٍ مَا عَرَفَ النَّاسُ قَدْرَهَا! فَلِلَّهِ رَبِّنَا الْحَمْدُ حَمْدًا كَثِيرًا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ.

وَأَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ -يَا عِبَادَ اللَّهِ- أَنَّهُ سُبْحَانَهُ مَعَ سَتْرِهِ لَنَا، يُوَفِّقُ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ لِلتَّوْبَةِ مِنْ ذَنْبِهِ، ثُمَّ يَقْبَلُهَا مِنْهُ فَيَتَجَاوَزُ عَمَّا سَلَفَ مِنْ عِصْيَانِهِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَى مَاضِيهِ، وَلَوْ عَصَى اللهَ تَعَالَى أَلْفَ مَرَّةٍ، وَلَوْ أَقَامَ عَلَى الْعِصْيَانِ خَمْسِينَ سَنَةً.

وَمِنْ عَظِيمِ فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْنَا وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمْ يَجْعَلْ تَوْبَتَنَا مِنْ ذُنُوبِنَا مُعَلَّقَةً عَلَى فَضِيحَتِنَا؛ فَلَيْسَ مِنْ شُرُوطِ التَّوْبَةِ أَنْ يُعْلِنَ التَّائِبُ ذَنْبَهُ المَسْتُورَ عَلَى رُؤُوسِ المَلَإِ، ثُمَّ يُعْلِنُ تَوْبَتَهُ عَقِبَ ذَلِكَ حَتَّى تُقْبَلَ، فَرَبُّنَا السِّتِّيرُ سُبْحَانَهُ سَتَرَ ذُنُوبَنَا عَنْ خَلْقِهِ، وَجَعَلَ تَوْبَتَنَا مِنْهَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ؛ حَتَّى لَا يُعَيِّرَنَا مُعَيِّرٌ، وَلَا يَشْمَتَ بِنَا شَامِتٌ.

وَمَنْ مَاتَ مِنَ الْعِبَادِ وَهُوَ مُصِرٌّ عَلَى مَعْصِيَتِهِ لَكِنَّهُ لَمْ يُجَاهِرْ بِهَا، فَهُوَ حَرِيٌّ أَنْ لَا يُفْضَحَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بَلْ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَرُبَّمَا عَفَا عَنْهُ؛ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: **«يَدْنُو أَحَدُكُمْ مِنْ رَبِّهِ، حَتَّى يَضَعَ كَنَفَهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولُ: عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، وَيَقُولُ: عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُقَرِّرُهُ، ثُمَّ يَقُولُ: إِنِّي سَتَرْتُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، فَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»**، وَفِي رِوَايَةٍ: **«فَإِنِّي سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى صَحِيفَةَ حَسَنَاتِهِ»** رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[٢٠].

وَمِنَ الْبِشَارَاتِ الْكَبِيرَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَتَفَضُّلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَيْهِمْ، وَرَحْمَتِهِ بِهِمْ: أَنَّ مَنْ سَتَرَهُ اللهُ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا فَهُوَ مَوْعُودٌ بِالسَّتْرِ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ؛ كَمَا رَوَى مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: **«لَا يَسْتُرُ اللهُ عَلَى عَبْدٍ فِي الدُّنْيَا إِلَّا سَتَرَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»**[٢١].

وَمَعْنَى ذَلِكَ: أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَسْتُرُ عَلَيْهِ فَلَا يَفْضَحُهُ فِي أَهْلِ الْمَوْقِفِ، وَقَدْ يَغْفِرُ اللهُ تَعَالَى ذُنُوبَهُ، فَإِنْ عُوقِبَ بِهَا لَمْ يَفْضَحْهُ اللهُ ﷻ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ[٢٢].

وَمِنَ الْآثَارِ الْعَظِيمَةِ لِاسْمِ السِّتِّيرِ: أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَمَّا أَحَبَّ السَّتْرَ فَسَتَرَ عَلَى عِبَادِهِ أَمَرَهُمْ بِأَنْ يَسْتُرَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَنَدَبَهُمْ إِلَى ذَلِكَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِمُ التَّجَسُّسَ وَالْغِيبَةَ وَظَنَّ السَّوْءِ، وَالتَّشْهِيرَ وَالتَّعْيِيرَ، فَتَعَايَشَ النَّاسُ عَلَى ذَلِكَ فِي

---

(٢٠) أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: البخاري في الأدب، ستر المؤمن على نفسه (٦٠٧٠)، ومسلم في التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله (٢٧٦٨).

(٢١) أخرجه مسلم في البر والصلة، باب بشارة من ستر الله عيبه في الدنيا بأن يستر عليه في الآخرة (٢٥٩٠)، والطيالسي (٢٤٢٧)، وجاء من حديث عائشة رضي الله عنها بمعناه عند: أحمد (٦/ ١٤٥)، والحاكم (٤/ ٤٢٥).

(٢٢) ينظر: شرح النووي على مسلم (١٦/ ٢١٦).

الْجُمْلَةِ؛ فَاسْتَقَامَتْ أُمُورُهُمْ، وَصَلَحَتْ أَحْوَالُهُمْ.

وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ تَجَسَّسُوا عَلَى بَعْضِهِمْ، وَصَارَ بَعْضُهُمْ يَفْضَحُ بَعْضًا وَيُعَيِّرُهُ، وَمَا يَقَعُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ فِي مَعْصِيَةٍ إِلَّا أُشْهِرَ أَمْرُهُ، وَهُتِكَ سِتْرُهُ، وَفُضِحَ فِي نَفْسِهِ وَبَيْتِهِ؛ لَعَسُرَ عَيْشُهُمْ، وَاضْطَرَبَتْ أَحْوَالُهُمْ، وَانْتَشَرَتْ فِيهِمُ الْأَحْقَادُ وَالضَّغَائِنُ، وَسَرَتْ فِيهِمُ الشَّائِعَاتُ وَالظُّنُونُ الْفَاسِدَةُ؛ فَحَسَمَ الشَّارِعُ الْحَكِيمُ كُلَّ هَذِهِ المَفَاسِدِ، وَأَوْصَدَ أَبْوَابَهَا بِتَحْرِيمِ مَا يُؤَدِّي إِلَيْهَا وَبِالْأَمْرِ بِالسَّتْرِ عَلَى عِبَادِهِ تَعَالَى.

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى -أَيُّها المُؤْمِنُونَ- وَاشْكُرُوهُ عَلَى مَا مَنَّ بِهِ عَلَيْكُمْ مِنْ نِعَمٍ عَظِيمَةٍ، أَعْظَمُهَا أَنْ هَدَاكُمْ لِهَذَا الدِّينِ الْعَظِيمِ، وَشَرَعَ لَكُمُ هَذِهِ الشَّرِيعَةَ الَّتِي كُلُّهَا خَيْرٌ وَصَلَاحٌ لِلْعِبَادِ فِي الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ، وَإِنَّ مِنْ تَمَامِ شُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ: الْتِزَامَ الْإِسْلَامِ وَشَرِيعَتِهِ الْغَرَّاءِ قَوْلًا وَعَمَلًا، وَفِي كُلِّ المَجَالَاتِ وَالشُّؤُونِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ ...



٢٨٥- فضل الاجتماع وخطر الاختلاف

٢٤/ ٤/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: أَهْبَطَ اللهُ تَعَالَى الْأَبَوَيْنِ عليهما السلام إِلَى الْأَرْضِ، وَسَخَّرَ لَهُمَا وَلِذُرِّيَّتِهِمَا مَا فِي سَمَائِهَا وَبَرِّهَا وَبَحْرِهَا ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، وَاسْتَخْلَفَ جل جلاله بَنِي آدَمَ فِي الْأَرْضِ، يَسْكُنُونَهَا وَيَعْمُرُونَهَا وَيَحْكُمُونَهَا، وَكُلُّ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ مَخْلُوقَاتٍ فَهُوَ مُسَخَّرٌ لَهُمْ، يَتَصَرَّفُونَ فِيهِ، وَلَا يَتَصَرَّفُ هُوَ فِيهِمْ مَهْمَا عَظُمَ حَجْمُهُ، وَمَهْمَا كَانَتْ قُوَّتُهُ ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وَفِي أُخْرَى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣٩].

بَلْ كَانَ اسْتِخْلَافُ بَنِي آدَمَ فِي الْأَرْضِ هُوَ الْغَايَةَ مِنْ خَلْقِ الْبَشَرِ؛ لِيُقِيمُوا دِينَ اللَّهِ تَعَالَى فيها؛ كَمَا جَاءَ ذَلِكَ مَنْصُوصًا عَلَيْهِ فِي الْقُرْآنِ ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

وَلَمَّا كَانَ الْبَشَرُ يَسْكُنُونَ الْأَرْضَ وَهُمْ حُكَّامُهَا، وَالْمُتَصَرِّفُونَ فِيهَا بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَحِكْمَتِهِ؛ كَانَ الْإِصْلَاحُ فِيهَا يَأْتِي مِنْ قِبَلِهِمْ، كَمَا أَنَّ الْإِفْسَادَ فِيهَا لَا يَكُونُ إِلَّا بِأَيْدِيهِمْ، وَكُلُّ الْمَخْلُوقَاتِ الْأُخْرَى عَلَى الْأَرْضِ وَإِنْ كَانَتْ أَكْثَرَ مِنَ الْبَشَرِ، وَكَثِيرٌ مِنْهَا أَكْبَرُ مِنْهُمْ وَأَقْوَى؛ فَإِنَّهَا لَا تَمْلِكُ إِصْلَاحًا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا؛ وَلِذَلِكَ خُوطِبَ الْبَشَرُ بِالْإِصْلَاحِ، وَنُهُوا عَنِ الْفَسَادِ، وَلَمْ يُخَاطَبْ غَيْرُهُمْ بِذَلِكَ ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [محمد: ٢٢]، وَقَالَ الْمَلَائِكَةُ لِرَبِّهِمْ ﷻ لَمَّا أَخْبَرَهُمْ بِاسْتِخْلَافِ الْبَشَرِ فِي الْأَرْضِ: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وَمِنْ سُنَنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي عِبَادِهِ أَنَّ الْمُصْلِحِينَ وَالْمُفْسِدِينَ مِنَ الْبَشَرِ يَبْقَوْنَ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ، وَيَكُونُونَ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَيَقَعُ بَيْنَهُمُ الصِّرَاعُ عَلَى الْأَرْضِ، فَالْمُصْلِحُونَ يُرِيدُونَ صَلَاحَهَا، وَالْمُفْسِدُونَ يَسْعَوْنَ فِي فَسَادِهَا؛ وَذَلِكَ لِيَتَحَقَّقَ الِاسْتِخْلَافُ، وَتَظْهَرَ حِكْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي ابْتِلَاءِ الْعِبَادِ.

وَمُنْذُ أَنْ بَعَثَ اللهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَإِنَّ أُمَّتَهُ اسْتَلَمَتْ قِيَادَةَ الصَّلَاحِ وَالْإِصْلَاحِ فِي الْأَرْضِ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْهَا مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ، وَبِمَا حَظِيَتْ بِهِ مِنَ شَرَفِ الْإِمَامَةِ وَالْخَيْرِيَّةِ الَّتِي مِنْ لَوَازِمِهَا السَّعْيُ بِالصَّلَاحِ وَالْإِصْلَاحِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ، وَمَعُونَةُ الْمُصْلِحِينَ، وَالْأَخْذُ عَلَى أَيْدِي الْمُفْسِدِينَ ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ

ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وَمِنْ لَوَازِمِ قِيَامِ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمُبَارَكَةِ بِمُهِمَّةِ الْإِصْلَاحِ فِي الْأَرْضِ الَّتِي كُلِّفَتْ بِهَا: أَنْ يَكُونَ أَفْرَادُهَا مُتَآلِفِينَ مُتَحَابِّينَ، مُعْتَصِمِينَ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا، مُتَوَاصِينَ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ، مُتَعَاوِنِينَ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، مُتَنَاهِينَ عَنِ الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، وَأَيُّ شَرْخٍ بَيْنَ أَفْرَادِهَا فَإِنَّهُ يَشْغَلُهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ عَنْ إِصْلَاحِ غَيْرِهِمْ، وَيُعَطِّلُ مُهِمَّتَهُمْ، وَيَسْلُبُهُمْ رِسَالَتَهُمُ الْعَظِيمَةَ، وَوَظِيفَتَهُمُ الْجَلِيلَةَ.

إِنَّ الْفُرْقَةَ وَالِاخْتِلَافَ دَاءَانِ وَبِيلَانِ يُقْعِدَانِ بِالْأَفْرَادِ وَالْأُمَمِ عَنِ الْإِصْلَاحِ وَالْبِنَاءِ، وَيُمَكِّنَانِ لِلْهَدْمِ وَالْفَسَادِ، وَيُسَبِّبَانِ ظُلْمَةَ الْقُلُوبِ، وَفَسَادَ الْأَلْسُنِ، وَالطَّعْنَ فِي النَّاسِ، وَقَدْ يُؤَدِّيَانِ إِلَى الِاحْتِرَابِ وَالتَّقَاتُلِ.

وَمَا أُصِيبَ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِالنَّقْصِ وَالْخِذْلَانِ، وَحَاقَ بِهِمُ الذُّلُّ وَالْهَوَانُ، وَحَقَّتْ عَلَيْهِمُ اللَّعْنَةُ -رَغْمَ أَنَّ النُّبُوَّةَ كَانَتْ فِيهِمْ، وَقَدْ فُضِّلُوا عَلَى الْعَالَمِينَ- إِلَّا بِسَبَبِ اخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، وَاتِّبَاعِ أَهْوَائِهِمْ، وَأَدَّى بِهِمْ ذَلِكَ إِلَى الْفُرْقَةِ وَالْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى فِي شَأْنِ الْيَهُودِ: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [المائدة: ٦٤]، وَفِي شَأْنِ النَّصَارَى قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [المائدة: ١٤].

لَقَدْ قَصَّ اللهُ تَعَالَى عَلَيْنَا مَا وَقَعَتْ فِيهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنَ الْفُرْقَةِ وَالِاخْتِلَافِ وَالْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ؛ لِئَلَّا نَسِيرَ سِيرَتَهُمْ، وَلِكَيْ نَحْذَرَ مَسْلَكَهُمْ وَطَرِيقَتَهُمْ، فَنَعْتَصِمَ بِحَبْلِ اللَّهِ تَعَالَى جَمِيعًا وَلَا نَتَفَرَّقَ ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ [يونس: ٩٣]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [الجاثية: ١٧].

وَبَلَغَ بِهِمُ اخْتِلَافُهُمْ وَفُرْقَتُهُمْ مَبْلَغَ الشِّقَاقِ وَالْعِنَادِ وَالْقِتَالِ؛ كَمَا فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦].

لَقَدْ نَهَانَا رَبُّنَا جَلَّ جَلَالُهُ أَنْ نَكُونَ كَمَا كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فُرْقَةً وَاخْتِلَافًا وَتَبَاغُضًا وَتَنَاحُرًا؛ لِئَلَّا نَضِلَّ كَمَا ضَلُّوا، وَنَزِيغَ كَمَا زَاغُوا ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الرُّوم: ٣١، ٣٢].

إِنَّهُ طَرِيقٌ وَاحِدٌ هُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ الَّذِي أَمَرَنَا اللهُ تَعَالَى بِسُلُوكِهِ، وَهُوَ طَرِيقُ الْأَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ، مَنْ سَلَكَهُ أَنْجَى نَفْسَهُ، وَسَعَى بِالصَّلَاحِ فِي أُمَّتِهِ، وَمَنْ حَادَ عَنْهُ فَقَدْ فَرَّقَ دِينَهُ، وَأَوْبَقَ نَفْسَهُ، وَجَنَى عَلَى أُمَّتِهِ.

وَلَمَّا أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِسُلُوكِ هَذَا الطَّرِيقِ الْأَوْحَدِ نَهَى عَنِ الطُّرُقِ الْأُخْرَى الَّتِي يَنْتِجُ عَنْهَا التَّفَرُّقُ وَالِاخْتِلَافُ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشُّورى: ١٣].

وَمَعَ هَذَا التَّحْذِيرِ الْعَظِيمِ مِنَ التَّفَرُّقِ وَالِاخْتِلَافِ الَّذِي أَبْدَأَ فِيهِ الْقُرْآنُ وَأَعَادَ فَإِنَّ أُمَّةَ الْإِسْلَامِ وَإِنْ كَانَتْ مَعْصُومَةً مِنَ الْإِجْمَاعِ عَلَى ضَلَالَةٍ، فَإِنَّهَا لَيْسَتْ مَعْصُومَةً مِنَ التَّفَرُّقِ وَالِاخْتِلَافِ الَّذِي سَبَبُهُ الْبِدَعُ وَالضَّلَالَاتُ، وَاتِّبَاعُ الْهَوَى، وَتَعْطِيلُ السُّنَنِ، وَالْغُرُورُ بِالدُّنْيَا وَزَخَارِفِهَا؛ وَلِذَلِكَ أَخْبَرَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا

وَاحِدَةً[١]، وَهَذِهِ الْوَاحِدَةُ هِيَ مَنْ سَلَكَتْ سَبِيلَ الْمُرْسَلِينَ، وَالْفِرَقُ الْبَاقِيَةُ الْهَالِكَةُ هِيَ الَّتِي ابْتَدَعَتْ فِي الدِّينِ.

يَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَالْبِدْعَةُ مَقْرُونَةٌ بِالْفُرْقَةِ كَمَا أَنَّ السُّنَّةَ مَقْرُونَةٌ بِالْجَمَاعَةِ، فَيُقَالُ: أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ كَمَا يُقَالُ: أَهْلُ الْبِدْعَةِ وَالْفُرْقَةِ» اهـ[٢].

وَقَدْ يَبْلُغُ التَّفَرُّقُ بِالْأُمَّةِ مَبْلَغَ الِاحْتِرَابِ وَالْاقْتِتَالِ، فَيُفْنِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيَقْتُلُونَ أَنْفُسَهُمْ، وَيَتْرُكُونَ أَعْدَاءَهُمْ؛ كَمَا وَقَعَ ذَلِكَ فِي كَثِيرٍ مِنْ دُوَلِ الْإِسْلَامِ وَتَارِيخِهِمْ، وَلَا يَزَالُ يَقَعُ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا، وَهُوَ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ ثَوْبَانَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «**يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ**

---

(١) جاء ذلك في أحاديث عدة منها:
١- حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند: أبي داود في السنة، باب شرح السنة (٤٥٩٦)، والترمذي في الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة (٢٦٤٠)، وابن ماجه في الفتن، باب افتراق الأمم (٣٩٩١)، وأحمد (٢/ ٣٣٢)، وأبو يعلى (٥٩١)، وصححه ابن حبان (٦٢٤٧)، والحاكم (١/ ٤٧).
٢- حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما عند: أحمد (٤/ ١٠٢)، والدارمي (٢٥١٨)، والحاكم (١/ ٢١٨)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٣٧٦) رقم (٨٨٤).
٣- حديث عوض بن مالك رضي الله عنه عند: ابن ماجه في الفتن، باب افتراق الأمم (٣٩٩٢)، وابن أبي عاصم في السنة (٦٣)، وصححه البوصيري (٤/ ١٧٩).
٤- حديث أنس بن مالك عند: ابن ماجه (٣٩٩٣)، وأحمد (٣/ ١٢٠)، وأبي يعلى (٣٩٤٤)، والطبراني في الصغير (٧٢٤).
٥- حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عند: عبد بن حميد (١٤٨).
٦- حديث أبي أمامة رضي الله عنه عند: الطبراني في الكبير (٨/ ٢٧٤) رقم (٨٠٥٤)، والأوسط (٧٢٠٢).
(٢) الاستقامة (١/ ٤٢).

عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا»(٣)، وَفِي حَدِيثِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا**» رَوَاهُمَا مُسْلِمٌ(٤).

وَإِذَا كَانَ التَّفَرُّقُ وَالِاخْتِلَافُ وَاقِعًا فِي الْأُمَّةِ لَا مَحَالَةَ، وَهُوَ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي قَدَّرَهُ عَلَيْهَا، فَلَيْسَ مَعْنَى ذَلِكَ أَنْ يَسْتَسْلِمَ أَفْرَادُ الْأُمَّةِ لِهَذَا الْقَدَرِ، وَلَا أَنْ يَحْتَجُّوا بِهِ عَلَى تَفَرُّقِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى وَإِنْ قَدَّرَ ذَلِكَ بِحِكْمَتِهِ فَقَدْ أَمَرَنَا سُبْحَانَهُ بِالِاجْتِمَاعِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفُرْقَةِ ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وَفِي أُخْرَى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وَرَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، يَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَأَنْ تَنَاصَحُوا مَنْ وَلَّاهُ اللهُ تَعَالَى أَمْرَكُمْ . . .**» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ(٥).

يَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَالِاجْتِمَاعُ وَالِائْتِلَافُ مِنْ أَعْظَمِ الْأُمُورِ الَّتِي أَوْجَبَهَا اللهُ تَعَالَى وَرَسُولُهُ ﷺ . . . وَهَذَا الْأَصْلُ الْعَظِيمُ، وَهُوَ الِاعْتِصَامُ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا، وَأَنْ لَا يَتَفَرَّقَ هُوَ مِنْ أَعْظَمِ أُصُولِ الْإِسْلَامِ،

---

(٣) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك الأمة بعضهم ببعض (٢٨٨٩)، وأحمد (٥/ ٢٧٨)، وابن أبي شيبة (٦/ ٣١١).

(٤) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك الأمة بعضهم ببعض (٢٨٩٠)، وأحمد (١/ ١٧٥)، وابن خزيمة (١٢١٧)، وابن حبان (٧٢٣٧).

(٥) أخرجه مسلم في الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة (١٧١٥)، ومالك (٢/ ٩٩٠)، وأحمد (٢/ ٣٦٧)، وابن حبان (٣٣٨)، ولم يذكر مسلم في روايته: «وأن تناصحوا من ولاه الله تعالى أمركم».

وَمِمَّا عَظُمَتْ وَصِيَّةُ اللَّهِ تَعَالَى بِهِ فِي كِتَابِهِ، وَمِمَّا عَظُمَ ذَمُّهُ لِمَنْ تَرَكَهُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِمْ، وَمِمَّا عَظُمَتْ بِهِ وَصِيَّةُ النَّبِيِّ ﷺ فِي مَوَاطِنَ عَامَّةٍ وَخَاصَّةٍ» اهـ(٦).

فَحَرِيٌّ بِكُلِّ مُخْلِصٍ لِرَبِّهِ، مُتَّبِعٍ لِلسُّنَّةِ، نَاصِحٍ لِلْأُمَّةِ: أَنْ يَسْعَى فِي كُلِّ طَرِيقٍ صَحِيحٍ يَجْمَعُ كَلِمَةَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِفَهْمِ سَلَفِ الْأُمَّةِ، وَأَنْ يَجْتَنِبَ كُلَّ طَرِيقٍ يُؤَدِّي إِلَى الشِّقَاقِ وَالْفُرْقَةِ وَالِاخْتِلَافِ، وَلَوْ سَعَى كُلُّ مُسْلِمٍ فِي بَيَانِ الْحَقِّ وَالنُّصْحِ لِلْخَلْقِ، بِحَسَبِ اسْتِطَاعَتِهِ لَتَقَارَبَتْ كَثِيرٌ مِنَ الْقُلُوبِ الْمُتَبَاعِدَةِ، وَلَأُزِيلَ كَثِيرٌ مِنَ الِاخْتِلَافِ وَالشِّقَاقِ الَّذِي يُوجِبُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ بَيْنَ النَّاسِ، وَحَسْبُ كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ حَصَرَ الْأُخُوَّةَ فِي الْإِيمَانِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠]. وَاتِّبَاعُ السُّنَّةِ، وَالتَّجَرُّدُ لِلْحَقِّ، وَالْبُعْدُ عَنِ الْهَوَى، هُوَ سَبَبُ الِاجْتِمَاعِ وَالْأُلْفَةِ، كَمَا أَنَّ الِابْتِدَاعَ فِي الدِّينِ، وَالْمَيْلَ إِلَى الْهَوَى، وَالْغُرُورَ بِالدُّنْيَا هُوَ سَبَبُ التَّفَرُّقِ وَالِاخْتِلَافِ.

نَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْهَوَى وَالرَّدَى، وَنَسْأَلُهُ الْمُوَافَاةَ عَلَى الْإِيمَانِ وَالسُّنَّةِ، آمِينَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ تَعَالَى لِي وَلَكُمْ . . .

❁ ❁ ❁

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَالْأُولَى، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ

---

(٦) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٣٥٨-٣٥٩).

وَرَسُولُهُ، الْعَبْدُ الْمُجْتَبَى، وَالنَّبِيُّ الْمُصْطَفَى، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ تَبِعَهُ وَاقْتَفَى.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

أَيُّهَا النَّاسُ: الِاخْتِلَافُ وَالتَّفَرُّقُ فِي الْأُمَّةِ يَنْتِجُ عَنْ أَحَدِ سَبَبَيْنِ كَبِيرَيْنِ أَوْ كِلَيْهِمَا، وَكُلُّ مَا يُذْكَرُ مِنْ أَسْبَابٍ أُخْرَى فَلَا تَخْرُجُ عَنْ أَحَدِ هَذَيْنِ:

أَمَّا السَّبَبُ الْأَوَّلُ: فَالشُّبْهَةُ فِي الدِّينِ، وَهِيَ الَّتِي تَقُودُ إِلَى أَنْوَاعٍ مِنَ الْبِدَعِ وَالضَّلَالَاتِ، كَبِدَعِ الْمُرْجِئَةِ وَالْخَوَارِجِ وَالْقَدَرِيَّةِ وَالْجَهْمِيَّةِ وَالرَّافِضَةِ وَغَيْرِهِمْ.

وَأَمَّا السَّبَبُ الثَّانِي: فَشَهْوَةُ الدُّنْيَا، وَهِيَ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَى التَّنَافُسِ عَلَى السُّلْطَانِ وَالْجَاهِ وَالْمَالِ فَيَخْتَلِفُ النَّاسُ عَلَيْهَا، وَيَفْتَرِقُونَ مِنْ أَجْلِهَا، وَقَدْ يَقْتَتِلُونَ بِسَبَبِهَا.

وَكُلُّ دُوَلِ الْإِسْلَامِ الَّتِي سَقَطَتْ فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ إِنَّمَا سَقَطَتْ بِهَذَيْنِ السَّبَبَيْنِ أَوْ أَحَدِهِمَا:

فَدَوْلَةُ الْخِلَافَةِ الرَّاشِدَةِ أُحْدِثَ فِي آخِرِهَا بِدْعَةُ الْخُرُوجِ عَلَى السَّلَاطِينِ، وَتَبِعَتْهَا بِدْعَةُ الْغُلُوِّ فِي عَلِيٍّ وَآلِهِ ﷺ بِسَبَبِ شُبُهَاتٍ عَرَضَتْ لِأَصْحَابِهَا، وَمُنَافِقِينَ رَوَّجُوهَا عَلَى النَّاسِ، مَعَ مَا دَاخَلَ الْقُلُوبَ مِنْ حُبِّ الدُّنْيَا وَالتَّنَافُسِ فِيهَا، فَزَالَتِ الْخِلَافَةُ الرَّاشِدَةُ بِسَبَبِ ذَلِكَ.

وَفِي أُخْرَيَاتِ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ دَبَّ الْخِلَافُ عَلَى الدُّنْيَا فِي الْبَيْتِ الْأُمَوِيِّ، وَاشْتَدَّ التَّنَافُسُ عَلَى مَنَاصِبِ الْخِلَافَةِ فَأَدَّى ذَلِكَ إِلَى الْفُرْقَةِ الَّتِي كَانَتْ سَبَبًا فِي ضَعْفِ الْأُمَوِيِّينَ وَسُقُوطِ دَوْلَتِهِمْ.

وَأَمَّا الدَّوْلَةُ الْعَبَّاسِيَّةُ فَظَهَرَتْ فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ الْبِدَعِ وَالْأَفْكَارِ الْيُونَانِيَّةِ وَالرُّومَانِيَّةِ

وَالْفَارِسِيَّةِ عَلَى إِثْرِ تَرْجَمَةِ كَثِيرٍ مِنْ كُتُبِهِمْ، وَفِي أُخْرَيَاتِهَا تَمَكَّنَ أَهْلُ الْبِدْعَةِ فِيهَا مِنَ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ عَلَى يَدِ الْوَزِيرِ الرَّافِضِي ابْنِ الْعَلْقَمِيِّ الَّذِي أَجْمَعَ الْمُؤَرِّخُونَ عَلَى أَنَّهُ مَنْ أَسْقَطَ الْخِلَافَةَ الْعَبَّاسِيَّةَ تَحْتَ أَقْدَامِ الْمغُولِ، وَخَانَ مَنْ أَحْسَنُوا إِلَيْهِ(٧).

وَأَمَّا الْخِلَافَةُ الْعُثْمَانِيَّةُ فَفِي أُخْرَيَاتِهَا ظَهَرَ الْقَوْلُ بِالْبِدْعَةِ الْقَوْمِيَّةِ، وَقَدْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ قَبْلَهَا يَجْمَعُهُمُ الْإِسْلَامُ، فَفَرَّقَهُمُ الْأَعْدَاءُ بِبِدْعَةِ الْجِنْسِ وَالْعِرْقِ، فَفَاخَرَ التُّرْكُ بِطُورَانِيَّتِهِمْ، وَاعْتَزَّ الْفُرْسُ بِفَارِسِيَّتِهِمْ، وَقِيلَ لِلْعَرَبِ أَنْ يَفْخَرُوا بِعُرُوبَتِهِمْ، وَصَارَ كُلُّ أَهْلِ عِرْقٍ وَقَوْمِيَّةٍ يُوَالُونَ وَيُعَادُونَ فِي عِرْقِهِمْ حَتَّى فُرِّقَتِ الْأُمَّةُ شَذَرَ مَذَرَ، وَوَجَدَ الْأَعْدَاءُ مَنْ يُعِينُهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْقَضَاءِ عَلَى دَوْلَتِهِمْ، فَقُضِيَ عَلَى الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ، وَمُزِّقَتْ تَرِكَتُهَا إِلَى دُوَيْلَاتٍ كَثِيرَةٍ ضَعِيفَةٍ، أُرِيدَ لَهَا أَنْ تَزْدَادَ تَفَرُّقًا إِلَى تَفَرُّقِهَا بِإِحْيَاءِ النُّعَرَاتِ الْقَوْمِيَّةِ وَالْوَطَنِيَّةِ وَالطَّائِفِيَّةِ؛ لِئَلَّا يَعُودَ لِلْمُسْلِمِينَ وَحْدَةٌ.

وَأَمَّا الْأَنْدَلُسُ الَّتِي مَا بَقِيَ لِلْإِسْلَامِ فِيهَا إِلَّا خَبَرٌ يُذْكَرُ، وَأَثَرٌ يُبْصَرُ، وَلَا دَوْلَةَ لَهُمْ فِيهَا الْبَتَّةَ؛ فَإِنَّ أَعْظَمَ سَبَبٍ لِسُقُوطِهَا كَانَ خِلَافُ مُلُوكِهَا وَأُمَرَائِهَا عَلَى الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا، حَتَّى إِنَّ الْأَخَ رُبَّمَا تَحَالَفَ مَعَ النَّصَارَى وَسَلَّمَهُمْ دِيَارَ الْمُسْلِمِينَ؛ لِيُعِينُوهُ عَلَى أَخِيهِ ابْنِ أُمِّهِ وَأَبِيهِ، بَلْ إِنَّ الِابْنَ قَدْ يُفَارِقُ مُلْكَ أَبِيهِ، وَيُعْلِنُ الْخُرُوجَ عَلَيْهِ فَيُعِينُهُ النَّصَارَى عَلَى ذَلِكَ لِوَهْنِ الْإِسْلَامِ، وَالْفَتِّ فِي عَضُدِ الْمُسْلِمِينَ وَتَمْزِيقِهِمْ، حَتَّى انْتَهَتْ دَوْلَتُهُمْ بِسَبَبِ ذَلِكَ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: بِمَا سَبَقَ إِيرَادُهُ مِنْ نُصُوصِ الْوَحْيَيْنِ، وَمِنْ مَوَاعِظِ التَّارِيخِ؛ يُعْلَمُ أَنَّ الِاجْتِمَاعَ خَيْرٌ وَرَحْمَةٌ، وَبِهِ يَقْوَى جَانِبُ الْمُسْلِمِينَ، وَتُهَابُ دَوْلَتُهُمْ،

---

(٧) ينظر تفصيل ذلك في: خطبة اجتياح المغول لبغداد مجلد (٣) خطبة رقم (١٤٩)، وخطبة سقوط بغداد مجلد (٣) خطبة رقم (١٥٣).

وَتُزْهِرُ حَضَارَتُهُمْ، وَلَا يَظْفَرُ الْأَعْدَاءُ مِنْهُمْ بِشَيْءٍ. وَأَنَّ الْفُرْقَةَ شَرٌّ وَعَذَابٌ، وَهِيَ سَبَبُ الْوَهْنِ وَالِاضْمِحْلَالِ، وَرَفْعِ الْأَمْنِ، وَحُلُولِ الْخَوْفِ، وَتَوَقُّفِ الْعُمْرَانِ، وَمَا ظَفِرَ أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا بِدَوْلَةٍ فَأَسْقَطُوهَا وَاحْتَلُّوهَا إِلَّا بِسَبَبِ الْفُرْقَةِ وَالْخِلَافِ بَيْنَ أَبْنَائِهَا، حَتَّى يَنْبَرِيَ الْخَوَنَةُ مِنْهُمْ لِإِعَانَةِ أَعْدَاءِ اللَّهِ تَعَالَى؛ كَيْمَا يُحَقِّقُوا مُرَادَهُمْ.

فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ حَقَّ الْإِدْرَاكِ دَانَ لِلَّهِ تَعَالَى بِلُزُومِ الْجَمَاعَةِ، وَحَذِرَ مِنْ مُفَارَقَةِ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَشَقِّ عَصَاهُمْ، وَالشُّذُوذِ عَنْهُمْ، وَمُمَالَأَةِ أَعْدَائِهِمْ عَلَيْهِمْ.

حَفِظَ اللهُ بِلَادَنَا وَبِلَادَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَمَكْرُوهٍ، وَرَدَّ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْمُفْسِدِينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ خَاسِرِينَ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ ...



٢٨٦- الإيثار (٣) (*)
صور أخرى منه

٢١/ ٥/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: لَمْ يَجْعَلِ اللهُ تَعَالَى الدُّنْيَا دَارَ نَعِيمٍ لِأَوْلِيَائِهِ، وَلَا هِيَ مُسْتَقَرٌّ لِعِبَادِهِ، وَلَكِنَّهَا دَارُ ابْتِلَاءٍ وَفِتْنَةٍ، يَبْتَلِي اللهُ تَعَالَى فِيهَا الْعِبَادَ بِالسَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَالْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَيَجْعَلُ بَعْضَهُمْ فِتْنَةً لِبَعْضٍ؛ فَالْمُسْلِمُ يُفْتَنُ بِالْكَافِرِ، وَالْكَافِرُ يُفْتَنُ بِالْمُسْلِمِ، وَالْغَنِيُّ يُفْتَنُ بِالْفَقِيرِ، وَالْفَقِيرُ يُفْتَنُ بِالْغَنِيِّ .. وَهَكَذَا دَوَالَيْكَ، ﴿كُلُّ

(*) الإيثار (١) تجدها في مجلد (٢) خطبة رقم (٩٧)، والإيثار (٢) تجدها في مجلد (٢) خطبة رقم (٩٨).

نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠].

وَأَفَاضِلُ الْخَلْقِ مِنَ الرُّسُلِ وَالأَنْبِيَاءِ عليهم السلام، وَمِنَ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ رضي الله عنهم ابْتُلُوا ابْتِلَاءً شَدِيدًا، أَصَابَتْهُمُ الْفَاقَةُ وَالْحَاجَةُ، وَمَسَّهُمُ الْجُوعُ وَالنَّقْصُ، وَهُمْ أَوْلِيَاءُ الرَّحْمَنِ وَأَحْبَابُهُ.

قَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ رضي الله عنه: «جَلَسْتُ فِي عِصَابَةٍ مِنْ ضُعَفَاءِ الْمُهَاجِرِينَ، وَإِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَسْتَتِرُ بِبَعْضٍ مِنَ الْعُرْيِ، وَقَارِئٌ يَقْرَأُ عَلَيْنَا، إِذْ جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَامَ عَلَيْنَا، فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَكَتَ الْقَارِئُ فَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ: مَا كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ؟ قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ كَانَ قَارِئٌ لَنَا يَقْرَأُ عَلَيْنَا، فَكُنَّا نَسْتَمِعُ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فِي أُمَّتِي مَنْ أُمِرْتُ أَنْ أَصْبِرَ نَفْسِي مَعَهُمْ** -يُرِيدُ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ﴾ [الكهف: ٢٨]- قَالَ: فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَسْطَنَا لِيَعْدِلَ بِنَفْسِهِ فِينَا، ثُمَّ قَالَ بِيَدِهِ هَكَذَا، فَتَحَلَّقُوا، وَبَرَزَتْ وُجُوهُهُمْ لَهُ، قَالَ: فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَرَفَ مِنْهُمْ أَحَدًا غَيْرِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **أَبْشِرُوا يَا مَعْشَرَ صَعَالِيكِ الْمُهَاجِرِينَ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، تَدْخُلُونَ الجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَاءِ النَّاسِ بِنِصْفِ يَوْمٍ وَذَاكَ خَمْسُ مِئَةِ سَنَةٍ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ[1].

---

(١) ما بين المعترضتين ليس في نص الحديث، ولكنه مني بيانًا للمقصود. والحديث أخرجه أحمد (٣/٦٣- ٩٦)، وأبو يعلى (١١٥١-١٣١٧)، وأبو داود في العلم، باب في القصص (٣٦٦٦)، والطبراني في الأوسط (٨٨٦٦)، والبغوي في شرح السنة (٣٩٩٢). وفي سنده العلاء بن بشير المزني وهو مجهول؛ ولذا ضعفه الألباني في المشكاة (٢١٩٨) وفي ضعيف الجامع (٤٠). =

إِنَّ الصَّبْرَ فِي حَالِ الْفِتْنَةِ وَالِابْتِلَاءِ مِنْ أَعْظَمِ المَقَامَاتِ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى قُوَّةِ الإِيمَانِ. وَمِنْ دَلَائِلِ الصَّبْرِ: الرِّضَا عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالتَّسْلِيمُ لأَمْرِهِ، وَالإِيمَانُ بِقَدَرِهِ، وَالْتِزَامُ شَرْعِهِ، وَأَعْلَى ذَلِكَ وَأَفْضَلُهُ: إِيثَارُ الْغَيْرِ بِالخَيْرِ الدُّنْيَوِيِّ؛ طَلَبًا لِلْخَيْرِ الأُخْرَوِيِّ، مَعَ الصَّبْرِ عَلَى اللَّأْوَاءِ وَالضَّنْكِ.

وَهَكَذَا كَانَ حَالُ سَلَفِ هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ إِمَامِهَا وَقُدْوَتِهَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى صَحَابَتِهِ ﷿ إِلَى التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، كَانُوا يُؤْثِرُونَ غَيْرَهُمْ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَالمَالِ وَالمَتَاعِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا، وَيَحْتَمِلُونَ نَتَائِجَ ذَلِكَ، وَيُعَالِجُونَ مُصَابَهُمْ بِالصَّبْرِ الجَمِيلِ الَّذِي لَا شَكْوَى لِلْخَلْقِ مَعَهُ، وَقِصَصُهُمْ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ، وَأَخْبَارُهُم فِيهِ غَزِيرَةٌ.

رَوَى المِقْدَادُ بْنُ الأَسْوَدِ ﷺ قَالَ: «أَقْبَلْتُ أَنَا وَصَاحِبَانِ لِي، وَقَدْ ذَهَبَتْ أَسْمَاعُنَا وَأَبْصَارُنَا مِنَ الْجَهْدِ -أي: الجُوعُ وَالمَشَقَّةُ- فَجَعَلْنَا نَعْرِضُ أَنْفُسَنَا عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْهُمْ يَقْبَلُنَا -وَسَبَبُ ذَلِكَ: قِلَّتُهُمْ وَعَجْزُهُمْ عَنْ مُوَاسَاتِهِمْ- فَأَتَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ فَانْطَلَقَ بِنَا إِلَى أَهْلِهِ، فَإِذَا ثَلَاثَةُ أَعْنُزٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **احْتَلِبُوا هَذَا اللَّبَنَ بَيْنَنَا**، قَالَ: فَكُنَّا نَحْتَلِبُ فَيَشْرَبُ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنَّا نَصِيبَهُ، وَنَرْفَعُ لِلنَّبِيِّ ﷺ نَصِيبَهُ، قَالَ: فَيَجِيءُ مِنَ اللَّيْلِ فَيُسَلِّمُ تَسْلِيمًا لَا يُوقِظُ نَائِمًا، وَيُسْمِعُ الْيَقْظَانَ، قَالَ: ثُمَّ يَأْتِي المَسْجِدَ فَيُصَلِّي، ثُمَّ يَأْتِي شَرَابَهُ فَيَشْرَبُ، فَأَتَانِي الشَّيْطَانُ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَقَدْ شَرِبْتُ نَصِيبِي، فَقَالَ: مُحَمَّدٌ يَأْتِي الأَنْصَارَ فَيُتْحِفُونَهُ، وَيُصِيبُ عِنْدَهُمْ مَا بِهِ حَاجَةٌ إِلَى هَذِهِ الْجُرْعَةِ، فَأَتَيْتُهَا فَشَرِبْتُهَا، فَلَمَّا

= لكن لآخره شاهد عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام نصف يوم**» أخرجه الترمذي في الزهد، باب ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم، وقال: حديث حسن صحيح (٢٣٥٣)، وابن ماجه (٤١٢٢).

أَنْ وَغَلَتْ فِي بَطْنِي، وَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَيْسَ إِلَيْهَا سَبِيلٌ، قَالَ: نَدَّمَنِي الشَّيْطَانُ، فَقَالَ: وَيْحَكَ! مَا صَنَعْتَ؟ أَشَرِبْتَ شَرَابَ مُحَمَّدٍ، فَيَجِيءُ فَلَا يَجِدُهُ فَيَدْعُو عَلَيْكَ فَتَهْلِكُ فَتَذْهَبُ دُنْيَاكَ وَآخِرَتُكَ؟! وَعَلَيَّ شَمْلَةٌ إِذَا وَضَعْتُهَا عَلَى قَدَمَيَّ خَرَجَ رَأْسِي، وَإِذَا وَضَعْتُهَا عَلَى رَأْسِي خَرَجَ قَدَمَايَ، وَجَعَلَ لَا يَجِيئُنِي النَّوْمُ، وَأَمَّا صَاحِبَايَ فَنَامَا وَلَمْ يَصْنَعَا مَا صَنَعْتُ، قَالَ: فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ، فَسَلَّمَ كَمَا كَانَ يُسَلِّمُ، ثُمَّ أَتَى المَسْجِدَ فَصَلَّى، ثُمَّ أَتَى شَرَابَهُ فَكَشَفَ عَنْهُ، فَلَمْ يَجِدْ فِيهِ شَيْئًا، فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقُلْتُ: الْآنَ يَدْعُو عَلَيَّ فَأَهْلِكُ، فَقَالَ: **اللهُمَّ أَطْعِمْ مَنْ أَطْعَمَنِي، وَأَسْقِ مَنْ أَسْقَانِي**، قَالَ: فَعَمَدْتُ إِلَى الشَّمْلَةِ فَشَدَدْتُهَا عَلَيَّ، وَأَخَذْتُ الشَّفْرَةَ فَانْطَلَقْتُ إِلَى الْأَعْنُزِ أَيُّهَا أَسْمَنُ، فَأَذْبَحُهَا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَإِذَا هِيَ حَافِلَةٌ، وَإِذَا هُنَّ حُفَّلٌ كُلُّهُنَّ -أَيْ: بِالْحَلِيبِ- فَعَمَدْتُ إِلَى إِنَاءٍ لِآلِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَا كَانُوا يَطْمَعُونَ أَنْ يَحْتَلِبُوا فِيهِ، قَالَ: فَحَلَبْتُ فِيهِ حَتَّى عَلَتْهُ رَغْوَةٌ، فَجِئْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: **أَشَرِبْتُمْ شَرَابَكُمُ اللَّيْلَةَ؟** قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اشْرَبْ، فَشَرِبَ، ثُمَّ نَاوَلَنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اشْرَبْ، فَشَرِبَ، ثُمَّ نَاوَلَنِي، فَلَمَّا عَرَفْتُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ رَوِيَ وَأَصَبْتُ دَعْوَتَهُ، ضَحِكْتُ حَتَّى أُلْقِيتُ إِلَى الْأَرْضِ، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **إِحْدَى سَوْآتِكَ يَا مِقْدَادُ**. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَانَ مِنْ أَمْرِي كَذَا وَكَذَا وَفَعَلْتُ كَذَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **مَا هَذِهِ إِلَّا رَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ، أَفَلَا كُنْتَ آذَنْتَنِي فَنُوقِظَ صَاحِبَيْنَا فَيُصِيبَانِ مِنْهَا؟** قَالَ: فَقُلْتُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا أُبَالِي إِذَا أَصَبْتَهَا وَأَصَبْتُهَا مَعَكَ مَنْ أَصَابَهَا مِنَ النَّاسِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[٢].

---

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٣)، ومسلم في الأشربة، باب إكرام الضيف وفضل إيثاره (٢٠٥٥)، والترمذي في الاستئذان، باب كيف السلام (٢٧١٩)، والنسائي في الكبرى (١٠١٥٥).
وما بين المعترضتين ليس في نص الحديث، ولكنه مني بيانًا لواقع الحال كما ذكره شراح الحديث، وينظر: شرح النووي على مسلم (١٤/ ١٣).

وَهَذَا الخُلُقُ الْكَرِيمُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ وَشِدَّةُ إِيثَارِهِ لِغَيْرِهِ أَخَذَهُ عَنْهُ صَحَابَتُهُ الْكِرَامُ ﷺ، وَضَرَبَ الأَنْصَارُ فِي ذَلِكَ أَرْوَعَ الأَمْثِلَةِ، حَتَّى نَوَّهَ اللهُ تَعَالَى بِفِعْلِهِمْ فِي قُرْآنٍ يُتْلَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَأَثْنَى بِهِ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَهَذَا المَقَامُ أَعْلَى مِنْ حَالِ الَّذِينَ وَصَفَهُمُ اللهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [الإنسان: ٨]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: ١٧٧] فَإِنَّ هَؤُلَاءِ تَصَدَّقُوا وَهُمْ يُحِبُّونَ مَا تَصَدَّقُوا بِهِ، وَقَدْ لَا يَكُونُ لَهُمْ حَاجَةٌ إِلَيْهِ، وَلَا ضَرُورَةٌ بِهِ، وَهَؤُلَاءِ آثَرُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مَعَ خَصَاصَتِهِمْ وَحَاجَتِهِمْ إِلَى مَا أَنْفَقُوا، وَمِنْ هَذَا المَقَامِ تَصَدَّقَ الصِّدِّيقُ ﷺ بِجَمِيعِ مَالِهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟** فَقَالَ ﷺ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ»[٣]. وَهَكَذَا المَاءُ الَّذِي عُرِضَ عَلَى عِكْرِمَةَ وَأَصْحَابِهِ يَوْمَ الْيَرْمُوكِ، فَكُلٌّ مِنْهُمْ يَأْمُرُ بِدَفْعِهِ إِلَى صَاحِبِهِ، وَهُوَ جَرِيحٌ مُثْقَلٌ أَحْوَجُ مَا يَكُونُ إِلَى المَاءِ، فَرَدَّهُ الآخَرُ إِلَى الثَّالِثِ، فَمَا وَصَلَ إِلَى الثَّالِثِ حَتَّى مَاتُوا عَنْ آخِرِهِمْ، وَلَمْ يَشْرَبْهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ»[٤].

لَقَدْ كَانَ الإِيثَارُ خُلُقًا عَامًّا فِي صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ حَتَّى كَثُرَتْ أَخْبَارُهُمْ فِي ذَلِكَ، رَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ ﷺ فَقَالَ:

---

(٣) أخرجه من حديث عمر بن الخطاب ﷺ: أحمد في فضائل الصحابة (٥٢٧)، وأبو داود في الزكاة، باب في الرخصة في ذلك (١٦٧٨)، والترمذي في المناقب، باب في مناقب أبي بكر وعمر ﷺ كليهما، وقال: حديث حسن صحيح (٣٦٧٥)، والدارمي (١٦٦٠)، وعبد بن حميد (١٤)، والحاكم وصححه وقال: على شرط مسلم ووافقه الذهبي (١/ ٤١٤).

(٤) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٢٨).

«أُهْدِيَ لِرَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَأْسُ شَاةٍ فَقَالَ: إِنَّ أَخِي فُلَانًا وَعِيَالَهُ أَحْوَجُ إِلَى هَذَا مِنَّا، قَالَ: فَبَعَثَ إِلَيْهِ، فَلَمْ يَزَلْ يَبْعَثُ بِهِ وَاحِدٌ إِلَى آخَرَ حَتَّى تَدَاوَلَهَا سَبْعَةُ أَبْيَاتٍ، حَتَّى رَجَعَتْ إِلَى الأَوَّلِ، فَنَزَلَتْ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] إِلَى آخِرِ الآيَةِ . . .» رَوَاهُ الحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ[٥].

وَأَخَذَ التَّابِعُونَ -رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى- هَذَا الخُلُقَ عَنِ الصَّحَابَةِ ﷺ؛ فَآثَرُوا غَيْرَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، ورُوِيَ عَنْهُمُ الْعَجَبُ الْعُجَابُ فِي ذَلِكَ؛ كَمَا نَقَلَ الْقُرْطُبِيُّ عَنْ أَبِي الحَسَنِ الأَنْطَاكِيِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «أَنَّهُ اجْتَمَعَ عِنْدَهُ نَيِّفٌ وَثَلَاثُونَ رَجُلًا بِقَرْيَةٍ مِنْ قُرَى الرَّيِّ، وَمَعَهُمْ أَرْغِفَةٌ مَعْدُودَةٌ لَا تُشْبِعُ جَمِيعَهُمْ، فَكَسَرُوا الرُّغْفَانَ، وَأَطْفَؤُوا السِّرَاجَ، وَجَلَسُوا لِلطَّعَامِ، فَلَمَّا رُفِعَ فَإِذَا الطَّعَامُ بِحَالِهِ لَمْ يَأْكُلْ مِنْهُ أَحَدٌ شَيْئًا؛ إِيثَارًا لِصَاحِبِهِ عَلَى نَفْسِهِ»[٦].

اللهُ أَكْبَرُ، أَخْلَاقٌ كَرِيمَةٌ، وَإِيثَارٌ عَجِيبٌ، وَإِرَادَةٌ قَوِيَّةٌ فِي كَبْحِ جِمَاحِ النَّفْسِ وَشَهَوَاتِهَا، وَالصَّبْرِ عَلَى الجُوعِ وَالْقِلَّةِ، وَهِمَّةٌ عَالِيَةٌ مَطْلُوبُهَا رِضْوَانُ اللَّهِ تَعَالَى، وَصَدَقَ اللهُ الْعَظِيمُ إِذْ قَالَ فِيهِمْ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، جَعَلَنَا اللهُ تَعَالَى وَالمُسْلِمِينَ مِنْهُمْ، وَأَلْحَقَنَا بِهِمْ، وَوَقَانَا شُحَّ أَنْفُسِنَا، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ . .

❁ ❁ ❁

---

(٥) أخرجه الحاكم وصححه، وتعقبه الذهبي فقال: عبيد الله بن الوليد ضعفوه (٢/ ٥٢٦).
وجاء نحوه عن مجاهد -رحمه الله تعالى- في مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ٢١٤) برقم (٣٥٤٤٧).

(٦) الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ٢٠).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى بِفِعْلِ مَا أَمَرَ، وَاجْتَنِبُوا الْفَوَاحِشَ مَا بَطَنَ مِنْهَا وَمَا ظَهَرَ ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٨، ١٩].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: مَا أَحْوَجَ الْبَشَرِيَّةَ فِي هَذَا الْعَصْرِ إِلَى إِحْيَاءِ خُلُقِ الإِيثَارِ وَالْمُوَاسَاةِ فِي النَّاسِ؛ كَيْ يُقْضَى عَلَى كَثِيرٍ مِنْ مَشَاكِلِهِمْ!!

إِنَّ المَشَاكِلَ الِاقْتِصَادِيَّةَ فِي هَذَا الْعَصْرِ أَنْتَجَتْ مَشَاكِلَ سِيَاسِيَّةً وَأَمْنِيَّةً وَاجْتِمَاعِيَّةً، وَسَبَبُ ذَلِكَ فِيمَا يَرَاهُ كَثِيرٌ مِنَ الْبَشَرِ: الْفَقْرُ وَالجُوعُ، وَالْفَقْرُ وَالجُوعُ إِنَّمَا نَجَمَا عَنِ اسْتِيلَاءِ الدُّوَلِ الْقَوِيَّةِ عَلَى ثَرَوَاتِ الأَرْضِ بِالمَكْرِ وَالخَدِيعَةِ، أَوْ بِالسِّلَاحِ وَالْقُوَّةِ، وَفِي الدَّوْلَةِ الْوَاحِدَةِ يَسْتَأْثِرُ الأَغْنِيَاءُ بِالأَمْوَالِ دُونَ الْفُقَرَاءِ، وَيُنَمُّونَهَا بِكُلِّ الطُّرُقِ المَشْرُوعَةِ وَالمُحَرَّمَةِ، إِلَّا مَنْ هَدَاهُ اللهُ تَعَالَى.

لَقَدْ أَضْحَتِ المَشَاكِلُ الِاقْتِصَادِيَّةُ تُشَكِّلُ رُعْبًا حَقِيقِيًّا لِجَمِيعِ الْبَشَرِ، يَقُضُّ مَضَاجِعَهُمْ، وَيُهَدِّدُ أَمْنَهُمُ السِّيَاسِيَّ وَالِاجْتِمَاعِيَّ وَالنَّفْسِيَّ؛ حَتَّى تَنَادَوْا فِي كُلِّ الأَقْطَارِ إِلَى بَحْثِ هَذِهِ المَشَاكِلِ، وَمُحَاوَلَةِ تَخْفِيفِ آثَارِهَا، وَتَضْيِيقِ نِطَاقِهَا، وَلَا إِخَالُهُم يَنْجَحُونَ فِي ذَلِكَ؛ لأَنَّ المُشْكِلَةَ لَيْسَتْ نَاجِمَةً عَنْ قِلَّةٍ وَنُدْرَةٍ فِي المَوَارِدِ وَالأَرْزَاقِ، أَوْ زِيَادَةٍ فِي الْبَشَرِ، كَمَا يُرَوِّجُ ذَلِكَ مَنْ يُرَوِّجُهُ مِمَّنْ لَا عِلْمَ

عِنْدَهُمْ؛ فَمَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا وَمَعَهُ رِزْقُهُ، وَمَا ضَنَّتِ الْأَرْضُ بِخَيْرَاتِهَا، وَلَا حَبَسَ اللهُ تَعَالَى رِزْقَهُ عَنِ الْعِبَادِ، بَلْ هُوَ الْجَوَّادُ الْكَرِيمُ، الْمُنْعِمُ بِالْخَيْرِ الْوَفِيرِ؛ وَلَكِنَّ الْمُشْكِلَةَ مُشْكِلَةُ مَبَادِئَ وَقِيَمٍ وَأَخْلَاقٍ سَيْطَرَتْ عَلَى الْبَشَرِ، وَاسْتَحْوَذَتْ عَلَى عُقُولِهِمْ، وَمَلَكَتْ نُفُوسَهُمْ.

إِنَّ المَسْؤُولَ الْأَوَّلَ عَنْ ذَلِكَ: الثَّقَافَةُ الرَّأْسِمَالِيَّةُ الَّتِي عَظَّمَتِ المَادَّةَ أَكْثَرَ مِنْ تَعْظِيمِ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَدَّمَتِ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ؛ إِنْكَارًا لها، أَوِ اسْتِخْفَافًا بِشَأْنِهَا.

إِنَّهَا ثَقَافَةُ الِاسْتِهْلَاكِ الَّتِي اجْتَاحَتِ الدُّوَلَ وَالْأُمَمَ، وَاقْتَنَعَ بِهَا الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ وَالْأَطْفَالُ، وَلَمْ يَسْلَمْ مِنْهَا الْغَنِيُّ وَلَا الْفَقِيرُ.

وَانْظُرُوا -رَحِمَكُمُ اللهُ تَعَالَى- إِلَى آثَارِ ذَلِكَ فِي المَطَاعِمِ وَالمَشَارِبِ، وَالْأَثَاثِ وَالْبُيُوتِ وَالسَّيَّارَاتِ، وَسَائِرِ النَّفَقَاتِ؛ تَجِدُوا أَنَّ ثُلُثَيْ مَا يُنْفَقُ عَلَيْهَا لَيْسَ مِنَ الحَاجَاتِ فَضْلًا عَنِ الضَّرُورَاتِ، أَوْصَلَ أَصْحَابَهُ إِلَى السَّرَفِ المُحَرَّمِ، وَإِذَا مَا اسْتَمَرَّ هَذَا الْفِكْرُ المَادِّيُّ الْبَغِيضُ مُسَيْطِرًا عَلَى عَقْلِ الإِنْسَانِ فَإِنَّ الْبَشَرِيَّةَ لَنْ تَسْلَمَ مِنَ الْقَلَاقِلِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْأَمْنِيَّةِ الَّتِي يَنْتِجُ عَنْهَا الْخَوْفُ وَالْجُوعُ.

إِنَّ الِاسْتِهْلَاكَ يَحْتَاجُ إِلَى إِنْفَاقٍ، وَالسِّلَعُ المُسْتَهْلَكَةُ لَا تَنْتَهِي، وَالنَّاسُ يَلْهَثُونَ خَلْفَهَا فِي سِبَاقٍ مَحْمُومٍ، يَقُودُهُمْ إِلَى ذَلِكَ دِعَايَاتٌ وَإِعْلَانَاتٌ غَطَّتْ عُقُولَهُمْ، وَحَرَّكَتْ شَهَوَاتِهِمْ، وَلَوْ مَلَكَ وَاحِدُهُمْ مَالَ قَارُونَ لما سَدَّ نَفَقَاتِهِ، وَلَا أَشْبَعَ نَهْمَتَهُ فِي الِاسْتِهْلَاكِ؛ لأَنَّ السِّلَعَ المُسْتَهْلَكَةَ لَا تَنْتَهِي عِنْدَ حَدٍّ مُعَيَّنٍ، وَالنَّفْسُ الْبَشَرِيَّةُ لَا يُوقِفُ طَمَعَهَا شَيْءٌ.

إِنَّهَا أَزْمَةُ قَنَاعَاتٍ وَأَفْكَارٍ، وَقِيَمٍ وَمَبَادِئَ يَتَرَبَّى عَلَيْهَا النَّاسُ، وَانْتَقَلَتْ مِنَ الْغَرْبِ الَّذِي نَشَأَتْ فِيهِ إِلَى الشَّرْقِ، حَتَّى اجْتَاحَتِ الْأَرْضَ كُلَّهَا، وَمَا اعْتَدَتِ الدُّوَلُ الْقَوِيَّةُ عَلَى الدُّوَلِ الضَّعِيفَةِ إِلَّا لِنَهْبِ خَيْرَاتِهَا، وَالِاسْتِئْثَارِ بِأَرْزَاقِهَا؛ لِأَنَّ

اسْتِهْلَاكَ أَفْرَادِهَا لَا يَقِفُ عِنْدَ حَدٍّ، فَمَا كَفَتْهُمْ أَرْزَاقُهُمْ رَغْمَ كَثْرَةِ خَيْرَاتِ بِلَادِهِمْ، فَأَرَادُوا خَيْرَاتِ الْآخَرِينَ.

وَانْتَقَلَ هَذَا الْفِكْرُ الْمَادِّيُّ الْمُدَمِّرُ إِلَى الْمُسْلِمِينَ مَعَ الِانْفِتَاحِ عَلَى الْآخَرِينَ، وَالْخُلْطَةِ بِهِمْ، وَانْتِشَارِ ثَقَافَتِهِمْ.

لَقَدْ كَانَتْ أَخْلَاقُ الْمُوَاسَاةِ وَالْإِيثَارِ وَالرِّضَا وَالْقَنَاعَةِ أَخْلَاقًا سَائِدَةً فِي مُجْتَمَعَاتِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى وَقْتٍ قَرِيبٍ، فَلَمْ يُعَانُوا مِنَ الْمُشْكِلَاتِ الِاقْتِصَادِيَّةِ وَمَا يَنْتِجُ عَنْهَا، رَغْمَ شَظَفِ الْعَيْشِ، وَقِلَّةِ ذَاتِ الْيَدِ، فَكَانَ الْوَاحِدُ مِنْهُم يَتَفَقَّدُ جِيرَانَهُ، وَيُوَاسِي فُقَرَاءَ بَلْدَتِهِ أَوْ قَرْيَتِهِ، وَكَانَ الْفَقِيرُ يُقَاسِمُ أَخَاهُ مَا جَاءَهُ مِنْ رِزْقٍ، وَرُبَّمَا آثَرَ أَخَاهُ عَلَى نَفْسِهِ، فَلَمْ يَشْكُوا قِلَّةَ الرِّزْقِ، بَلْ قَنِعُوا بِمَا قَسَمَ اللهُ تَعَالَى لَهُمْ، وَكَانَتْ نُفُوسُهُمْ غَنِيَّةً رَغْمَ قِلَّتِهِمْ، وَبَارَكَ اللهُ تَعَالَى فِيمَا عِنْدَهُمْ مِنْ قَلِيلِ طَعَامٍ وَلِبَاسٍ وَأَثَاثٍ.

أَمَّا الْيَوْمُ فَقَدْ فُتِحَتِ الْأَرْزَاقُ عَلَى النَّاسِ، وَمَعَ ذَلِكَ صَارَتْ أَرْزَاقُهُمْ لَا تَكْفِيهِمْ حَسَبَ رُؤْيَتِهِمْ، وَشَكَوْا قِلَّةَ الرِّزْقِ، وَاسْتَوْلَتِ الْأَثَرَةُ وَالطَّمَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، فَمَا عَادَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يُحِلُّ حَلَالًا، أَوْ يُحَرِّمُ حَرَامًا! فَالْحَلَالُ مَا وَقَعَ فِي أَيْدِيهِمْ، وَالْحَرَامُ مَا لَمْ يُدْرِكُوهُ!! وَصَارَ فِي مَسْتُورِي الْحَالِ وَالْفُقَرَاءِ مِنَ الطَّمَعِ وَالْجَشَعِ مَا يُوَازِي جَشَعَ الْأَغْنِيَاءِ وَيَفِيضُ عَنْهُ؛ فَحَلَّتِ الْأَثَرَةُ مَحَلَّ الْإِيثَارِ، وَالطَّمَعُ مَكَانَ الْقَنَاعَةِ، وَاسْتَبْدَلُوا الْفَرْدِيَّةَ بِالْمُوَاسَاةِ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ تَعَالَى وَقَلِيلٌ مَا هُمْ.

وَلَا عِلَاجَ يَنْجَعُ لِهَذِهِ الْمُشْكِلَاتِ الْمُتَفَاقِمَةِ إِلَّا رَدُّ النَّاسِ إِلَى الْجَادَّةِ، وَتَرْبِيَتُهُمْ عَلَى أَخْلَاقِ الْإِسْلَامِ مِنَ: الْمُوَاسَاةِ وَالْإِيثَارِ وَالْقَنَاعَةِ وَالرِّضَا، وَأَيُّ عِلَاجٍ سِوَى ذَلِكَ فَإِنَّمَا هُوَ مُسَكِّنَاتٌ لَا تَأْتِي عَلَى الْعِلَّةِ مِنْ جُذُورِهَا،

وَلَا تَسْتَأْصِلُ المَرَضَ مِنْ أَصْلِهِ، وَلَوْ مَلَكَ وَاحِدُهُمْ خَزَائِنَ الْأَرْضِ، أَوْ مَفَاتِيحَ كُنُوزِ قَارُونَ فَلَنْ يَشْبَعَ، بَلْ سَيَطْلُبُ المَزِيدَ وَالمَزِيدَ وَلَوْ عَلَى حِسَابِ الْآخَرِينَ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لَابْتَغَى ثَالِثًا، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ**»(٧).

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ.



(٧) أخرجه من حديث ابن عباس ﵄: البخاري في الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال (٦٤٣٦).

وجاء من حديث أنس ﵁ عند: البخاري في الكتاب والباب السابقين (٦٤٣٩)، ومسلم في الزكاة، باب لو أن لابن آدم واديين لابتغى ثالثًا (١٠٤٨).

٢٨٧- لا يسخر قوم من قوم

١٨/٣/١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ خَلَقَ الْخَلْقَ فَهَدَاهُمْ، وَكَلَّفَ الْبَشَرَ وَاصْطَفَاهُمْ، لَهُ الْحُكْمُ فِيمَا خَلَقَ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ فِيمَا قَضَى وَأَوْجَبَ ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الْأَنْعَام: ١٤٩]، نَحْمَدُهُ حَمْدَ الشَّاكِرِينَ، وَنَسْتَغْفِرُهُ اسْتِغْفَارَ الْمُذْنِبِينَ، وَنَسْأَلُهُ مِنْ فَضْلِهِ الْعَظِيمِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ كَرَّمَ الْإِنْسَانَ بِالْعَقْلِ، وَهَدَاهُ إِلَى الْحَقِّ، ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [الْبَلَد: ٨-١٠].

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ بَعَثَهُ اللهُ تَعَالَى لِيُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ، وَيَدُلَّ عَلَى مَحَاسِنِ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ، فَكَانَ أَكْمَلَ النَّاسِ خُلُقًا، وَأَحْسَنَهُمْ قَوْلًا وَفِعْلًا ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [الْقَلَم: ٤] سُئِلَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عَنْ خُلُقِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَتْ لِلسَّائِلِ: «أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَتْ: فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ»[١]، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ مِنَ النُّورِ وَالْهُدَى ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٥ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الْأَعْرَاف: ٣٦].

---

(١) أخرجه في حديث طويل: مسلم في صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنها أو مرض (٧٤٦)، والنسائي في قيام الليل وتطوع النهار، باب قيام الليل (٣/ ١٩٩).

أَيُّهَا النَّاسُ: خَلَقَ اللهُ تَعَالَى الْبَشَرَ، وَفَاضَلَ بَيْنَهُمْ، وَجَعَلَ بَعْضَهُمْ فِي خِدْمَةِ بَعْضٍ؛ ابْتِلَاءً وَتَسْخِيرًا ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الْأَنْعَام: ١٦٥]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ﴾ [الزُّخْرُف: ٣٢].

وَهَذِهِ الرِّفْعَةُ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا لَا تَسْتَلْزِمُ الرِّفْعَةَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، بَلْ يَتَفَاضَلُ النَّاسُ عِنْدَ رَبِّهِمْ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ [الْحُجُرَات: ١٣]، وَلِهَذَا كَانَ وَاجِبًا عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّقُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ بِالْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ، فَلَا يَسْخَرُ قَوِيُّهُمْ مِنْ ضَعِيفِهِمْ، وَلَا يَهْزَأُ سَيِّدُهُمْ بِمَسُودِهِمْ، وَلَا يَحْقِرُ غَنِيُّهُمْ فَقِيرَهُمْ.

وَقَدْ نَهَاهُمُ اللهُ تَعَالَى عَنِ التَّخَلُّقِ بِأَخْلَاقِ الْجَاهِلِينَ فِيمَا بَيْنَهُمْ مِنَ السُّخْرِيَةِ وَاللَّمْزِ وَالتَّنَابُزِ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [الْحُجُرَات: ١١].

إِنَّ السُّخْرِيَةَ بِالنَّاسِ خُلُقٌ ذَمِيمٌ، اتَّصَفَ بِهِ مَنْ أَبْغَضَهُمُ اللهُ تَعَالَى وَمَقَتَهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى سُخْرِيَتَهُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَاسْتِهْزَاءَهُمْ بِهِمْ، وَلَمْزَهُمْ لَهُمْ، وَالْحَطَّ مِنْهُمْ، فَالْكُفَّارُ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ عليه السلام كَانُوا يَسْخَرُونَ مِنْهُ وَمِمَّنِ اتَّبَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ﴾ [هُود: ٣٨]، وَهَكَذَا كَانَ دَأْبُ الْكَافِرِينَ فِي كُلِّ الْأُمَمِ يَسْخَرُونَ مِنْ رُسُلِهِمْ، كَمَا أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الزُّخْرُف: ٧]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠].

وَأَمَّا سُخْرِيَتُهُمْ بِالمُؤْمِنِينَ فَجاءَ خَبَرُهَا فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البَقَرَة: ٢١٢]، وَفِي الآيَةِ الأُخْرَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المُطَفِّفِين: ٢٩، ٣٠].

وَيَقُولُونَ سَاخِرِينَ بِالمُؤْمِنِينَ، مُحَقِّرِينَ شَأْنَهُمْ، مُصَغِّرِينَ أَمْرَهُمْ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ [الأَنْعَام: ٥٣].

وَأَمَّا المُنَافِقُونَ فَهُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ سُخْرِيَةً بِالرُّسُلِ وَأَتْبَاعِهِمْ، وَبِمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ عليهم السلام مِنَ الْحَقِّ وَالْهُدَى ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٤]، وَفِي الآيَةِ الأُخْرَى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ [التَّوْبَة: ٦٤]، وَفِي مَقَامٍ آخَرَ قَالَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التَّوْبَة: ٧٩].

وَسَيَجِدُ الْكُفَّارُ وَالمُنَافِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَاقِبَةَ سُخْرِيَتِهِمْ بِالرُّسُلِ وَأَتْبَاعِهِمْ، وَبِمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ عليهم السلام، وَحِينَهَا يَعْرِفُونَ أَنَّ مَنْ كَانُوا يَسْخَرُونَ مِنْهُمْ كَانُوا هُمْ أَهْلَ الْحَقِّ وَالْهُدَى، وَأَنَّهُمْ هُمْ أَهْلُ الْبَاطِلِ وَالضَّلَالِ، وَذَلِكَ حِينَ يُقَالُ لَهُمْ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [المُؤْمِنُون: ١٠٩-١١١].

وَيَعْجَبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ لَا يَرَوْنَ مَنْ كَانُوا يَسْخَرُونَ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا مَعَهُمْ فِي النَّارِ، وَقَدْ كَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ عَلَى ضَلَالٍ ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ

ﭐلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [سورة ص: ٦٢، ٦٣].

وَيَكُونُ الضَّحِكُ فِي الْآخِرَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ حِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فَيَرَوْنَ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ الْعَظِيمِ الْمُقِيمِ، وَيَرَوْنَ مَنْ كَانُوا يَسْخَرُونَ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ فِي الْعَذَابِ الْأَلِيمِ الْمُهِينِ ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المطفِّفين: ٣٤-٣٦]. نَعَمْ وَاللَّهِ قَدْ ثُوِّبُوا وَجُوزُوا بِأَعْظَمِ الْعَذَابِ، وَأَشَدِّ النَّكَالِ عَلَى كُفْرِهِمْ وَنِفَاقِهِمْ، وَعَلَى سُخْرِيَتِهِمْ بِالْمُؤْمِنِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، نَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنْ حَالِهِمْ وَمَآلِهِمْ.

وَإِذَا كَانَتِ السُّخْرِيَةُ مِنْ أَخْلَاقِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ فَلَا يَلِيقُ بِمُسْلِمٍ أَنْ يَتَخَلَّقَ بِأَخْلَاقِهِمْ، فَيَسْخَرَ مِنْ إِخْوَانِهِ الْمُسْلِمِينَ، أَوْ يَلْمِزَهُمْ، أَوْ يُنَابِزَهُمْ بِأَلْقَابٍ فِيهَا تَحْقِيرٌ لَهُمْ، وَحَطٌّ مِنْ شَأْنِهِمْ، وَقَدْ نَهَاهُ اللهُ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَا هُنَا، وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[٢]. أَيْ: كَافِيهِ مِنْ خِلَالِ الشَّرِّ وَخِصَالِهِ احْتِقَارُهُ لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ.

وَالسُّخْرِيَةُ مِنَ النَّاسِ تَنِمُّ عَنْ كِبْرٍ فِي قَلْبِ صَاحِبِهَا، وَتَعَالٍ عَلَى مَنْ سَخِرَ مِنْهُمْ، فَلَا يَرَى لَهُمْ عَلَيْهِ حَقَّ التَّوْقِيرِ وَالِاحْتِرَامِ، وَيَأْنَفُ مِنْ أُخُوَّتِهِمْ وَهُمْ إِخْوَانُهُ فِي الدِّينِ، وَالْكِبْرُ مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ، وَجَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**»، ثُمَّ فَسَّرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الْكِبْرَ بِأَنَّهُ «**بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ**

---

(٢) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: مسلم في البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره (٢٥٦٤).
وجاء نحوه عن ابن عمر رضي الله عنهما عند: البخاري في المظالم، باب لا يظلم المسلم ولا يسلمه (٢٣١٠)، ومسلم في البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٢٥٨٠).

النَّاسِ»(٣)، وَغَمْطُ النَّاسِ: هُوَ احْتِقَارُهُمْ وَازْدِرَاؤُهُمْ؛ وَذَلِكَ يَحْصُلُ مِنَ النَّظَرِ إِلَى النَّفْسِ بِعَيْنِ الْكَمَالِ وَإِلَى غَيْرِهِ بِعَيْنِ النَّقْصِ(٤).

وَقَدْ يَكُونُ الدَّافِعُ إِلَى سُخْرِيَةِ المَرْءِ بِأَخِيهِ المُسْلِمِ: حَسَدَهُ لَهُ عَلَى نِعْمَةٍ لَمْ يَبْلُغْهَا، وَيَرَى أَنَّ أَخَاهُ لَا يَسْتَحِقُّهَا، فَيَبْلُغُ بِهِ حَسَدُهُ وَظُلْمَةُ قَلْبِهِ عَلَيْهِ أَنْ يَسْخَرَ مِنْ أَخِيهِ وَيَحْتَقِرَهُ وَيَتَنَقَّصَهُ؛ لِيَحُطَّ مِنْ قَدْرِهِ، وَيُنْزِلَهُ مِنْ مَكَانَتِهِ، وَيُعْلِيَ مِنْ شَأْنِ نَفْسِهِ، وَيَلْفِتَ الأَنْظَارَ إِلَيْهِ، وَلِسَانُ حَالِهِ يَقُولُ: أَنَا أَحَقُّ بِهِ مِنْ نِعْمَتِهِ.

وَالسُّخْرِيَةُ تَقُودُ إِلَى الْغِيبَةِ وَهِيَ مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ، فَقَدْ لَا يَسْتَطِيعُ السُّخْرِيَةَ بِحَضْرَةِ أَخِيهِ، فَيَسْخَرُ بِهِ مِنْ وَرَائِهِ؛ فَتَكُونُ سُخْرِيَةً وَغِيبَةً، وَيَكُونُ هُوَ بِمَثَابَةِ مَنْ أَكَلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا.

وَصَاحِبُ السُّخْرِيَةِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هَمَّازًا لَمَّازًا، وَاللَّمْزُ هُوَ المُبَاشَرَةُ بِالسُّوءِ وَالمَكْرُوهِ، وَالمُوَاجَهَةُ بِالْقَدْحِ وَالْعَيْبِ، وَيَكُونُ بِالْقَوْلِ. وَالْهَمْزُ يَكُونُ بِالْفِعْلِ كَأَنْ يَعِيبَهُ بِالإِشَارَةِ بِالْعَيْنِ أَوْ بِالشِّدْقِ أَوْ بِالرَّأْسِ بِحَضْرَتِهِ أَوْ عِنْدَ تَوَلِّيهِ(٥).

---

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه (٩١)، وأحمد (١/ ٤٢٧).
وأخرجه بنحوه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أبو داود في اللباس، باب ما جاء في الكبر (٤٠٩٢).

(٤) جامع العلوم والحكم (١/ ١٢٢).

(٥) اختلف أهل اللغة والتفسير في معنى الهمز واللمز والفرق بينهما، فمنهم من جعلهما بمعنى، ومنهم من جعل الهمز بالقول، واللمز بالفعل، ومنهم من جعل الهمز بالجهر، واللمز بالسر، أي: الغيبة.
قال النحاس: «يقال: لمزه يلمزه: إذا عابه، ومنه: فلان همزة لمزة، أي: عيَّاب للناس، ويقال: اللمزة: هو الذي يعيب في سر، وإن الهمزة هو الذي يشير بعينيه، وهذا كله يرجع إلى أنه يعيب» معاني القرآن (٣/ ٢٢٠).
وقال ابن الجوزي: «اختلفوا في الهمزة واللمزة هل هما بمعنى واحد أم مختلفان؟ على قولين:
أحدهما: أنهما مختلفان، ثم فيهما سبعة أقوال: =

وَهَذَانَ الْخُلُقَانِ الذَّمِيمَانِ اتَّصَفَ بِهِمَا بَعْضُ الْمُشْرِكِينَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ ﷺ، فَكَانُوا يَهْمِزُونَهُمْ وَيَلْمِزُونَهُمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِيهِمْ سُورَةَ الْهُمَزَةِ ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الْهُمَزَة: ١]، وَتَوَعَّدَهُمْ فِيهَا بِنَارِ اللَّهِ الْمُوقَدَةِ ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ [الْهُمَزَة: ٧-٩].

= أحدها: أن الهمزة المغتاب، واللمزة العيّاب، قاله ابن عباس.
والثاني: أن الهمزة الذي يهمز الإنسان في وجهه، واللمزة يلمزه إذا أدبر عنه، قاله الحسن وعطاء وأبو العالية.
والثالث: أن الهمزة الطعان في الناس، واللمزة الطعان في أنساب الناس، قاله مجاهد.
والرابع: أن الهمزة بالعين، واللمزة باللسان، قاله قتادة.
والخامس: أن الهمزة الذي يهمز الناس بيده ويضربهم، واللمزة الذي يلمزهم بلسانه، قاله ابن زيد.
والسادس: أن الهمزة الذي يهمز بلسانه، واللمزة الذي يلمز بعينه، قاله سفيان الثوري.
والسابع: أن الهمزة المغتاب، واللمزة الطاعن على الإنسان في وجهه، قاله مقاتل.
والقول الثاني: أن الهمزة العياب الطعان، واللمزة مثله. وأصل الهمز واللمز الدفع، قاله ابن قتيبة، وكذلك قال الزجاج: الهمزة اللمزة الذي يغتاب الناس ويعضهم» زاد المسير (٩/ ٢٢٧-٢٢٨).
وقال ابن كثير: «الهماز بالقول، واللماز بالفعل، يعني: يزدري الناس، وينتقص بهم» (٤/ ٥٤٩).
وقال شيخ الإسلام: «قوله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، هو الطعان العياب، كما قال: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١١]، وقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ٥٨]، وقال: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٧٩]، والهمز أشد؛ لأن الهمز الدفع بشدة، ومنه الهمزة من الحروف، وهي نقرة في الحلق، ومنه ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ [المؤمنون: ٩٧]، ومنه قول النبي ﷺ: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه»، وقال: «هَمْزُهُ الموتة» وهي: الصرع، فالهمز مثل الطعن لفظًا ومعنى. واللمز كالذم والعيب، وإنما ذم من يكثر الهمز واللمز، فإن الهُمَزَة و اللُمَزَة هو الذي يفعل ذلك كثيرًا، والهُمْزَةُ واللُمْزَةُ الذي يفعل ذلك به» مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٢١-٥٢٢).

فَالْهَمَّازُ اللَّمَازُ فِي النَّاسِ مُتَّصِفٌ بِصِفَاتِ الْمُشْرِكِينَ، مُتَخَلِّقٌ بِأَخْلَاقِ أَهْلِ السَّعِيرِ، وَيَنَالُهُ مِنَ الْوَعِيدِ فِي ذَلِكَ بِقَدْرِ هَمْزِهِ وَلَمْزِهِ فِي إِخْوَانِهِ الْمُسْلِمِينَ. كَمَا أَنَّ الْهَمَّازَ قَدْ أَخَذَ مِنَ الشَّيَاطِينِ بَعْضَ صِفَاتِهِمُ الَّتِي أَمَرَ اللهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ أَنْ يَتَعَوَّذَ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنْهَا ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [الْمُؤْمِنُون: ٩٨]، فَالْهَمَّازُ مِنَ الشَّيَاطِينِ يَطْعَنُ بَنِي آدَمَ بِالصَّرْعِ وَالْمَسِّ، وَالْهَمَّازُ مِنَ الْبَشَرِ يَطْعَنُ أَخَاهُ بِالْعَيْبِ وَالنَّقْصِ.

وَالْهَمَّازُ قَدْ يَسْعَى بِالنَّمِيمَةِ وَهِيَ مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ، وَقَدْ حَذَّرَ اللهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْهُ ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾ [الْقَلَم: ١٠، ١١].

وَإِذَا فَشَتِ السُّخْرِيَةُ فِي النَّاسِ تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ، وَعَيَّرَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَتَنَافَرَتْ قُلُوبُهُمْ، وَانْحَلَّتْ رَوَابِطُهُمْ، فَتَعَادَوْا وَتَهَاجَرُوا، وَتَدَابَرُوا وَتَبَاغَضُوا، وَلَمْ يَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا؛ وَلِذَا نَهَاهُمُ اللهُ تَعَالَى عَنِ التَّنَابُزِ بِالْأَلْقَابِ، وَالتَّنَادِي بِالْعُيُوبِ وَالْمَعَايِرِ ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ [الْحُجُرَات: ١١].

قَالَ أَبُو جُبَيْرَةَ بْنُ الضَّحَّاكِ رضي الله عنه: «فِينَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي بَنِي سَلِمَةَ: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الْحُجُرَات: ١١] قَالَ: قَدِمَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَيْسَ مِنَّا رَجُلٌ إِلَّا وَلَهُ اسْمَانِ أَوْ ثَلَاثَةٌ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: يَا فُلَانُ، فَيَقُولُونَ: مَهْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ يَغْضَبُ مِنْ هَذَا الِاسْمِ، فَأُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(٦).

وَلَمَّا عَيَّرَ أَبُو ذَرٍّ رضي الله عنه رَجُلًا بِأُمِّهِ غَضِبَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ لَهُ: «**يَا أَبَا ذَرٍّ، أَعَيَّرْتَهُ**

(٦) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في الألقاب (٤٩٦٢)، والنسائي في الكبرى (١١٥١٦)، وأحمد (٤/ ٢٦٠)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٣٨٩) رقم (٩٦٨)، والضياء في المختارة (٨١)، وصححه الحاكم (٤/ ٣١٤).

بِأُمِّهِ؟! إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٧).

وَلَمَّا عَابَتْ عَائِشَةُ صَفِيَّةَ رضي الله عنهما غَضِبَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهَا، وَبَيَّنَ لَهَا عَظِيمَ مَا فَعَلَتْ؛ كَمَا رَوَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها فَقَالَتْ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةَ كَذَا وَكَذَا -تَعْنِي قَصِيرَةً- فَقَالَ: **لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ**، قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: وَحَكَيْتُ لَهُ إِنْسَانًا فَقَالَ: **مَا أُحِبُّ أَنِّي حَكَيْتُ إِنْسَانًا وَأَنَّ لِي كَذَا وَكَذَا**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(٨).

وَالسُّخْرِيَةُ سَبَبٌ لِلْعَدَاوَةِ وَالْخُصُومَاتِ، وَقَدْ يَنْتِجُ عَنْهَا سِبَابٌ وَاعْتِدَاءٌ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ وَالْمُقَاتَلَةِ؛ لِأَنَّ السَّاخِرَ قَدْ يَتَمَادَى فِي سُخْرِيَتِهِ، فَلَا يَحْتَمِلُ أَخُوهُ مِنْهُ سُخْرِيَتَهُ، فَيَنْتَصِرُ لِنَفْسِهِ بِالْقَوْلِ أَوْ بِالْفِعْلِ. وَكَمْ مِنْ خُصُومَاتٍ وَمُشَاجَرَاتٍ أَضَرَّتْ بِأَصْحَابِهَا وَلَرُبَّمَا كَانَ فِيهَا قَاتِلٌ وَمَقْتُولٌ كَانَتْ شَرَارَتُهَا الْأُولَى اسْتِهْزَاءَ أَحَدِ الْخَصْمَيْنِ بِالْآخَرِ، نَفَخَ الشَّيْطَانُ فِي نَارِهَا حَتَّى آلَتْ بِأَصْحَابِهَا إِلَى الْمُقَاتَلَةِ!!

وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ لِكُلِّ عَاقِلٍ أَنَّ السُّخْرِيَةَ بِالنَّاسِ بَابٌ مِنَ الشَّرِّ عَظِيمٌ، يَفْتَحُ أَبْوَابَ الْهَمْزِ وَاللَّمْزِ وَالْغِيبَةِ وَالنَّمِيمَةِ، وَيَمْلَأُ الْقُلُوبَ ضَغَائِنَ وَأَحْقَادًا وَعَدَاوَاتٍ، وَيَكْفِي رَادِعًا عَنِ السُّخْرِيَةِ بِالْآخَرِينَ أَنَّهَا مِنْ صِفَاتِ أَهْلِ النَّارِ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، فَحَرِيٌّ بِكُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَحْفَظَ لِسَانَهُ، وَيَتَوَقَّى فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ،

---

(٧) أخرجه من حديث أبي ذر رضي الله عنه: البخاري في الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية (٣٠)، والبيهقي (٨/ ٧).
وأخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: إسحاق بن راهويه (٤٩٣)، والطبراني في مسند الشاميين (٢٣٤٣).

(٨) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في الغيبة (٤٨٧٥)، والترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع، باب (٥١)، وقال: حديث حسن صحيح (٢٥٠٢-٢٥٠٣)، وأحمد (٦/ ١٨٩).

وَيَحْذَرَ سَبِيلَ الْهَمَّازِينَ اللَّمَّازِينَ الَّذِينَ يَسْخَرُونَ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ؛ لِيَنْجُوَ مَعَ النَّاجِينَ، وَلَا يَهْلِكَ مَعَ الْهَالِكِينَ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عِمْرَان: ١٦٢].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ...

❁ ❁ ❁

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الْأَمِينُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَرَاقِبُوهُ، وَالْزَمُوا طَاعَتَهُ وَلَا تَعْصُوهُ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النُّور: ٥٢].

أَيُّهَا النَّاسُ: كَانَ سَلَفُنَا الصَّالِحُ -رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ- يَتَوَقَّوْنَ عَيْبَ غَيْرِهِمْ وَقَدْحَهُمْ، وَالسُّخْرِيَةَ بِهِمْ، وَالْحَطَّ مِنْهُمْ؛ حِفَاظًا عَلَى الْأُخُوَّةِ، وَتَأْلِيفًا لِلْقُلُوبِ، وَخَوْفًا مِنَ الْإِثْمِ، وَحَذَرًا مِنَ الْوُقُوعِ فِي عُيُوبِ أَهْلِ الْعُيُوبِ، وَكَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ فِي ذَلِكَ، حَتَّى نُقِلَ عَنْهُ قَوْلُهُ: «لَوْ سَخِرْتُ مِنْ كَلْبٍ لَخَشِيتُ أَنْ أَكُونَ كَلْبًا»[٩]، وَكَانَ رضي الله عنه يَقُولُ: «الْبَلَاءُ مُوَكَّلٌ

(٩) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٧٤١)، وهناد في الزهد (١١٩٤)، وابن أبي شيبة (٥/ ٢٣١)، وابن عساكر في تاريخه (٣٣/ ١٧٩).

بِالْقَوْلِ» رَوَاهُمَا ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ[١٠].

وَجَاءَ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَوْ رَأَيْتُ رَجُلًا يَرْضَعُ شَاةً فِي الطَّرِيقِ فَسَخِرْتَ مِنْهُ خِفْتُ أَنْ لَا أَمُوتَ حَتَّى أَرْضَعَهَا» رَوَاهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ[١١].

وَاجْتَمَعَ الْكِسَائِيُّ وَالْيَزِيدِيُّ عِنْدَ الرَّشِيدِ، فَحَضَرَتْ صَلَاةٌ يُجْهَرُ فِيهَا، فَقَدَّمُوا الْكِسَائِيَّ يُصَلِّي، فَأُرْتِجَ عَلَيْهِ فِي قِرَاءَةِ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، فَلَمَّا أَنْ سَلَّمَ قَالَ الْيَزِيدِيُّ: قَارِئُ أَهْلِ الْكُوفَةِ يُرْتَجُ عَلَيْهِ فِي ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فَحَضَرَتْ صَلَاةٌ يُجْهَرُ فِيهَا، فَقَدَّمُوا الْيَزِيدِيَّ فَأُرْتِجَ عَلَيْهِ فِي سُورَةِ (الْحَمْدُ)، فَلَمَّا أَنْ سَلَّمَ قَالَ:

احْفَظْ لِسَانَكَ لَا تَقُولُ فَتُبْتَلَى ... إِنَّ الْبَلَاءَ مُوَكَّلٌ بِالْمَنْطِقِ[١٢]

وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- يَقُولُ: «إِنِّي لَأَرَى الشَّيْءَ أَكْرَهُهُ فَمَا يَمْنَعُنِي أَنْ أَتَكَلَّمَ فِيهِ إِلَّا مَخَافَةَ أَنْ أُبْتَلَى بِمِثْلِهِ»[١٣].

وَقَالَ يَحْيَى بْنُ جَابِرٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «مَا عَابَ رَجُلٌ رَجُلًا قَطُّ بِعَيْبٍ إِلَّا ابْتَلَاهُ اللهُ بِمِثْلِ ذَلِكَ الْعَيْبِ»[١٤]، وَهَذَا وَاقِعٌ مَشَاهَدٌ، وَقَدْ يَجِدُهُ الْإِنْسَانُ فِي نَفْسِهِ، فَيَسْخَرُ مِنْ شَخْصٍ فِي صِفَةٍ اتَّصَفَ بِهَا، أَوْ فِعْلَةٍ فَعَلَهَا، ثُمَّ إِذَا هُوَ يَفْعَلُ مِثْلَ فِعْلَتِهِ، وَيَتَخَلَّقُ بِصِفَتِهِ الَّتِي عَابَهَا مِنْهُ، أَوْ ضَحِكَ بِسَبَبِهَا عَلَيْهِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ

---

(١٠) أخرجه ابن أبي شيبة (٥/ ٢٣١)، وأبو القاسم البغوي في مسند ابن الجعد (١٩٦٣)، وهناد في الزهد (١١٩٣).

وجاء مرفوعًا من طرق كثيرة لا يصح منها شيء، والصحيح موقوف.

(١١) أخرجه ابن أبي شيبة (٥/ ٢٣٠)

(١٢) أخرجه الخطيب في تاريخه (١١/ ٤٠٨).

(١٣) أخرجه هناد (١١٩٢)، والبيهقي في الشعب (٦٧٧٥).

(١٤) أخرجه البيهقي في الشعب (٦٧٧٦).

عَاجِلًا أَوْ آجِلًا، فَإِنْ لَمْ تَصُبْهُ أَصَابَتْ وَلَدَهُ حَتَّى يَرَاهَا فِيهِ، وَهَذَا جَزَاءٌ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا.

إِنَّ السُّخْرِيَةَ بِالنَّاسِ فِي هَذَا الزَّمَنِ الَّذِي كَثُرَ فِيهِ الِانْحِرَافُ قَدْ أَضْحَتْ فَنًّا مِنَ الْفُنُونِ يُسَوَّقُ لَهُ فِي وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ فِيمَا يُسَمَّى بِفَنِّ الْفُكَاهَةِ أَوِ الْكُومِيدْيَا، يَتَقَمَّصُ فِيهِ الْمُمَثِّلُونَ شَخْصِيَّاتِ مَنْ يُرِيدُونَ السُّخْرِيَةَ بِهِمْ فِي هَيْئَاتِهِمْ أَوْ طَرِيقَةِ كَلَامِهِمْ أَوْ أَفْعَالِهِمْ؛ لِيُضْحِكُوا النَّاسَ فِي كَرَاسِيِّ الْمَسَارِحِ أَوْ مِنْ وَرَاءِ الشَّاشَاتِ عَلَيْهِمْ. وَقَدْ يَتَعَدَّى ذَلِكَ إِلَى السُّخْرِيَةِ مِنَ الدِّينِ وَأَحْكَامِهِ وَأَهْلِهِ؛ لِصَدِّ النَّاسِ عَنْهُ، وَتَنْفِيرِهِمْ مِنْهُ، نَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنَ الضَّلَالِ.

وَلَا تَسْلَمُ الصُّحُفُ وَالْمَجَلَّاتُ مِنْ وَبَاءِ السُّخْرِيَةِ بِالنَّاسِ فِيمَا يُسَمَّى بِالْكَارِيكَتِيرِ وَالْمَقَالَاتِ السَّاخِرَةِ الَّتِي لَا تَخْلُو مِنْ غَمْزِ أَشْخَاصٍ وَلَمْزِهِمْ وَإِضْحَاكِ النَّاسِ عَلَيْهِمْ، وَيَزْعُمُ أَصْحَابُ هَذِهِ التَّوَجُّهَاتِ السَّاخِرَةِ أَنَّهُمْ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ مِنْ بَابِ النَّقْدِ الْهَادِفِ، وَمُحَاوَلَةِ الْإِصْلَاحِ، وَلَا يَدْرِي الْعُقَلَاءُ كَيْفَ يَكُونُ الْإِصْلَاحُ فِي السُّخْرِيَةِ مِنَ النَّاسِ؟!

وَثَمَّةَ أَشْخَاصٌ مُتَخَصِّصُونَ فِي صُنْعِ النَّوَادِرِ وَالنُّكَتِ عَلَى أَقْوَامٍ بِالْبُخْلِ أَوْ قِلَّةِ الْمُرُوءَةِ، وَعَلَى آخَرِينَ بِالْجَشَعِ وَالطَّمَعِ، وَعَلَى غَيْرِهِمْ بِالْغَبَاءِ وَالْغَفْلَةِ، وَهَكَذَا دَوَالَيْكَ . . . لَا يَتْرُكُونَ قَبِيلًا مِنَ النَّاسِ، أَوْ بَلَدًا مِنَ الْبُلْدَانِ إِلَّا أَبْرَزُوا بَعْضَ عُيُوبِ أَفْرَادِهِ وَعَمَّمُوهَا عَلَى جَمِيعِهِمْ فِي طَرَائِفَ وَنُكَتٍ يَبُثُّونَهَا عَلَى الْعَالَمِينَ. وَهَذَا النَّوْعُ مِنَ السُّخْرِيَةِ لَا تَكَادُ أَرْضٌ تَخْلُو مِنْهُ، فَأَهْلُ كُلِّ بُقْعَةٍ يَخْتَرِعُونَ النَّوَادِرَ عَلَى جِيرَانِهِمْ، سَاخِرِينَ مِنْهُمْ، مُقَلِّلِينَ مِنْ شَأْنِهِمْ، وَتَكْثُرُ فِي أَهْلِ الْقُرَى وَالْمُدُنِ الصَّغِيرَةِ الْمَعَايِرُ، حَتَّى لَا يُعْرَفَ الْوَاحِدُ بِاسْمِهِ أَوْ بِكُنْيَتِهِ بَلْ يُعْرَفُ بِمَا يُعَيِّرُهُ النَّاسُ بِهِ.

وَقَدْ يَسْخَرُ بَعْضُ النَّاسِ بِخَدَمِهِمْ وَعُمَّالِهِمْ، وَقَدْ يَسْخَرُ الْمُدَرِّسُ بِبَعْضِ طُلَّابِهِ، وَالْمُدِيرُ بِبَعْضِ مُوَظَّفِيهِ، وَقَدْ تَسْخَرُ الرَّعَايَا بِرَاعِيهَا، وَالرُّؤَسَاءُ بِشُعُوبِهَا، وَقَدْ يَسْخَرُ أَفْرَادُ الْمُجْتَمَعِ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، وَتَكُونُ سُخْرِيَتُهُمْ لَهُمْ بِتَقْلِيدِ أَصْوَاتِهِمْ، أَوْ مُحَاكَاةِ مَا يُضْحِكُ مِنْ أَفْعَالِهِمْ، أَوْ إِظْهَارِ مَعَايِبِهِمْ، أَوْ تَعْيِيرِهِمْ بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ أَوْ هَمْزٍ أَوْ لَمْزٍ أَوْ إِشَارَةٍ أَوْ إِيمَاءٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، أَوْ يَسْخَرُونَ بِغَيْرِهِمْ فِي لِسَانِهِمْ أَوْ جِنْسِهِمْ أَوْ لَوْنِهِمْ أَوْ قَبَائِلِهِمْ أَوْ حِرَفِهِمْ أَوْ عَادَاتِهِمْ أَوْ صِفَاتِهِمْ حَتَّى تَغْلِبَ السُّخْرِيَةُ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ فَتَكُونَ دَيْدَنَهُمْ، وَلَا يُنْكِرُهَا عَلَيْهِمْ غَيْرُهُمْ!!

وَقَدْ تُخَصُّ السُّخْرِيَةُ بِمَجَالِسَ وَبَرَامِجَ يَتَمَتَّعُ فِيهَا رُوَّادُهَا وَمُشَاهِدُوهَا بِالْهُزْءِ بِعِبَادِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالسُّخْرِيَةِ مِنْهُمْ، وَالضَّحِكِ عَلَيْهِمْ كَمَا هُوَ الْحَالُ فِي عَصْرِنَا هَذَا!! وَمِنْ هُنَا نَفْهَمُ جَوَابَ النَّبِيِّ ﷺ لَمَّا سُئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ، فَقَالَ: «**الْفَمُ وَالْفَرْجُ**»(١٥). وَفِي حَدِيثِ مُعَاذٍ رضي الله عنه قَالَ لَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ**» رَوَاهُمَا التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُمَا(١٦).

فَرَحِمَ اللهُ عَبْدًا حَفِظَ لِسَانَهُ عَنِ الْهَمْزِ وَاللَّمْزِ وَالسُّخْرِيَةِ بِالنَّاسِ، وَاشْتَغَلَ

---

(١٥) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: الترمذي في النكاح، باب ماجاء في حسن الخلق، وقال: صحيح غريب (٢٠٠٤)، وابن ماجه في الزهد، باب ذكر الذنوب (٤٢٤٦)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٩٤)، وأحمد (٢/ ٢٩١)، وصححه ابن حبان (٤٧٦)، والحاكم (٤/ ٣٦٠).

(١٦) أخرجه الترمذي في الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، وقال: حسن صحيح (٢٦١٦)، وابن ماجه في الفتن، باب كف اللسان في الفتنة (٣٩٧٣)، وأحمد (٢٢٠١٦)، والحاكم وصححه، وقال: على شرط الشيخين ولم يخرجاه (٣٦٠٥).

بِعُيُوبِ نَفْسِهِ عَنْ عُيُوبِ غَيْرِهِ «وَالْمُسْلِمُ مِنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»(١٧)، وَلِلَّهِ دَرُّ يَحْيَى بْنِ مُعَاذٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- حِينَ قَالَ: «مَنْ سَلِمَ مِنْهُ الْخَلْقُ رَضِيَ عَنْهُ الرَّبُّ»(١٨).

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .



(١٧) أخرجه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: البخاري في الإيمان، باب: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده (١٠)، ومسلم في الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل (٤٠).

(١٨) أخرجه البيهقي في الشعب (٦٧٨٣).

٢٨٨- من حقوق البنات على آبائهن

١٣/ ٥/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ أَعْطَى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى، وَأَلْزَمَ عِبَادَهُ بِمَا أَنْزَلَ مِنَ الْهُدَى، أَحْمَدُهُ عَلَى مَا أَرْشَدَ وَهَدَى، وَأَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَسْدَى وَأَعْطَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ إِلَيْهِ تُرْفَعُ الشَّكْوَى، وَهُوَ مُنْتَهَى كُلِّ نَجْوَى، وَإِلَيْهِ المَآبُ والرُّجْعَى، وَأَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ الْعَبْدُ الْمُجْتَبَى، وَالنَّبِيُّ الْمُصْطَفَى، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَمَنْ تَبِعَ هَدْيَهُمْ وَاقْتَفَى.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ، وَأَدُّوا مَا عَلَيْكُمْ مِنَ الْأَمَانَاتِ، وَتَخَلَّصُوا مِنَ الْحُقُوقِ؛ فَإِنَّكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ مَوْقُوفُونَ، وَعَلَى أَعْمَالِكُمْ مُحَاسَبُونَ، وَعَنْ أَمَانَاتِكُمْ مَسْئُولُونَ ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨].

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ أَنْ جَعَلَ تَنَاسُلَهُمْ وَتَكَاثُرَهُمْ بِالْمُزَاوَجَةِ بَيْنَ ذُكُورِهِمْ وَإِنَاثِهِمْ، وَتِلْكَ سُنَّةٌ عَامَّةٌ فِي الإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ وَالطَّيْرِ وَالْحَشَرَاتِ وَغَيْرِهَا، وَلَوْ شَاءَ سُبْحَانَهُ لَكَاثَرَهُمْ بِغَيْرِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ، وَلَكِنَّ إِرَادَتَهُ سُبْحَانَهُ اقْتَضَتْ الْمُزَاوَجَةَ بَيْنَ النُّوعَيْنِ، وَفِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكَمِ مَا نَعْلَمُهُ وَمَا لَا نَعْلَمُهُ ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

وَالنَّوعُ الْأَقْوَى دَائِمًا هُوَ الذَّكَرُ، وَالْأُنْثَى هِيَ الْأَضْعَفُ فِي كُلِّ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَكُلُّ نُوعٍ مِنْهُمَا مُحْتَاجٌ إِلَى الْآخَرِ، وَلَا تَسْتَقِيمُ الْحَيَاةُ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِاتِّفَاقِهِمَا وَتَزَاوُجِهِمَا.

وَلَمَّا كَانَتِ الْمَرْأَةُ أَضْعَفَ مِنَ الرَّجُلِ كَانَتْ مُسْتَضَامَةً عِنْدَ كُلِّ الْأُمَمِ الضَّالَّةِ

مِنْ فَجْرِ التَّارِيخِ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا، وَكَانَ الْعَرَبُ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ يَئِدُونَ الْبَنَاتِ؛ لأَنَّهُنَّ لَا يَمْتَطِينَ الْجِيَادَ، وَلَا يُقَاتِلْنَ الْأَعْدَاءَ، وَلَا يَكْتَسِبْنَ المَالَ، وَلَا يَدْفَعْنَ عَنْ أَنْفُسِهِنَّ أَيَّ اعْتِدَاءٍ؛ فَرَآهُنَّ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ عِبْئًا وَعَارًا ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التَّكوير: ٨، ٩].

وَإِزَاءَ هَذَا الضَّعْفِ فِي المَرْأَةِ ٱلَّذِي اتَّسَمَتْ بِهِ خِلْقَتُهَا، وَاسْتُبِيحَ بِسَبَبِهِ حِمَاهَا، وَسُلِبَ مِنْهَا حَقُّهَا؛ جَاءَ الْإِسْلَامُ بِمَا يُعَزِّزُ مَوْقِفَهَا، وَيُعْلِي مَكَانَتَهَا، وَيَحْفَظُ لَهَا حَقَّهَا؛ فَعَابَ اللهُ تَعَالَى عَلَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ نَظْرَتَهُمْ لِلْبَنَاتِ، وَشُؤْمَهُمْ مِنْهُنَّ ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩].

وَأَفْضَلُ الْخَلْقِ وَأَزْكَى الْبَشَرِ وَخَاتَمُ الرُّسُلِ ﷺ مَا عَاشَ لَهُ مِنَ الْوَلَدِ إِلَّا الْبَنَاتُ، وَذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ ٱلفَخْرِ لِلْبَنَاتِ، وَفِيهِ تَسْلِيَةٌ لِمَنْ لَمْ يُرْزَقْ مِنَ الْوَلَدِ إِلَّا بَنَاتٌ.

وَلَمَّا كَانَ الْبَنَاتُ هُنَّ الْأَضْعَفَ، وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَسْتَبْشِرُونَ بِالْأَبْنَاءِ أَكْثَرَ مِنَ اسْتِبْشَارِهِمْ بِالْبَنَاتِ؛ فَإِنَّ الشَّرِيعَةَ الْغَرَّاءَ رَتَّبَتْ مِنَ الْأُجُورِ الْعَظِيمَةِ عَلَى رِعَايَةِ الْبَنَاتِ، وَرَحْمَتِهِنَّ، وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِنَّ أَكْثَرَ مِمَّا جَاءَ فِي حَقِّ الْأَبْنَاءِ، وَاخْتَصَّتِ الْبَنَاتِ بِنُصُوصٍ كَثِيرَةٍ فِي ذَلِكَ:

فَمَنْ رُزِقَ بَنَاتٍ وَأَحْسَنَ تَرْبِيَتَهُنَّ، وَالْقِيَامَ عَلَيْهِنَّ، نُجِّيَ مِنَ النَّارِ بِسَبَبِهِنَّ بَعْدَ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَحُشِرَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَدْخَلَهُ بَنَاتُهُ الْجَنَّةَ، وَفِي ذَلِكَ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ:

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنِ ابْتُلِيَ مِنْ هَذِهِ ٱلْبَنَاتِ بِشَيءٍ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ**»(١).

---

(١) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها: البخاري في الزكاة باب «**اتقوا النار ولو بشق تمرة**» والقليل من الصدقة (١٣٥٢)، ومسلم في البر والصلة والآداب، باب فضل الإحسان إلى البنات (٢٦٢٩).

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ، وَصَبَرَ عَلَيْهِنَّ، وَكَسَاهُنَّ مِنْ جِدَتِهِ، كُنَّ لَهُ حِجَابًا مِنَ النَّارِ»(٢).

وَفِي حَدِيثٍ ثَالِثٍ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُدْرِكُهُ ابْنَتَانِ فَيُحْسِنُ صُحْبَتَهُمَا إِلَّا أَدْخَلَتَاهُ الجَنَّةَ»(٣).

وَفِي رَابِعٍ: «مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ يُؤْوِيهِنَّ وَيَكْفِيهِنَّ وَيَرْحَمُهُنَّ فَقَدْ وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ الْبَتَّةَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَعْضِ الْقَوْمِ: وَثِنْتَيْنِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: وَثِنْتَيْنِ»(٤).

وَفِي خَامِسٍ: «مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ حَتَّى تَبْلُغَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ، وَضَمَّ أَصَابِعَهُ»(٥)، وَكُلُّهَا أَحَادِيثُ ثَابِتَةٌ، وَبَعْضُهَا فِي الصَّحِيحَيْنِ.

---

(٢) أخرجه من حديث عقبة بن عامر ﷺ: ابن ماجه في الأدب، باب بر الوالد والإحسان إلى البنت (٣٦٦٩)، وأحمد (٤/ ١٥٤)، وأبو يعلى (١٧٦٤)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٦)، والطبراني في الكبير (١٧/ ٢٩٩) رقم (٨٢٦)، والبيهقي في الشعب (٨٦٨٨)، وابن أبي الدنيا في العيال (٨٩)، وصححه البوصيري في زوائد ابن ماجه (٤/ ١٠١).

(٣) أخرجه من حديث ابن عباس ﷺ: ابن ماجه (٣٦٧٠)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٧)، وأحمد (١/ ٣٦٣)، وأبو يعلى (٢٥٧١)، والبيهقي في الشعب (٨٦٨٣)، والطبراني في الكبير (١٠/ ٣٣٧) رقم (١٠٨٣٦)، وصححه ابن حبان (٢٩٤٥)، والحاكم (٤/ ١٩٦)، والضياء في المختارة (٤٥١) والمنذري في الترغيب والترهيب (٣٠٢١)، وضعفه البوصيري في مصباح الزجاجة (٤/ ١٠١)، وقال الألباني في صحيح الأدب المفرد: حسن لغيره (٥٧).

(٤) أخرجه من حديث جابر بن عبد الله ﷺ: أحمد (٣/ ٣٠٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٨)، والبيهقي في الشعب (١١٠٢٥)، وابن أبي الدنيا في العيال (٨٤)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: وإسناد أحمد جيد (٨/ ١٥٧)، وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٥٨)، وذكره في الصحيحة (٢٩٤-٢٤٩٢).

(٥) أخرجه من حديث أنس بن مالك ﷺ: مسلم في البر والصلة، باب الإحسان إلى البنات (٢٦٣١)، والترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في النفقة على البنات والأخوات (١٩١٤)، والبخاري في الأدب المفرد (٨٩٤).

وكثيرٌ مِنَ النَّاسِ يَحْصُرُ الإِعالةَ وَالإِحْسَانَ لِلْبَنَاتِ فِي الْجَوَانِبِ الْحِسِّيةِ مِنَ المَأْكَلِ وَالمَشْرَبِ وَالمَلْبَسِ وَنَحْوِهِ، وَيُغْفِلُ جَوَانِبَ الْعَطْفِ وَالْحَنَانِ، وَالْحَاجَاتِ الْقَلْبِيَّةَ وَالنَّفْسِيَّةَ، مِنَ الْجُلُوسِ مَعَهُنَّ، وَالتَّبَسُّمِ لَهُنَّ، وَالْحَدِيثِ إِلَيْهِنَّ، وَالْإِنْصَاتِ لِحَدِيثِهِنَّ، وَتَلَمُّسِ حَاجَاتِهِنَّ، وَمُعَالَجَةِ مَشَاكِلِهِنَّ، حَتَّى تَسَرَّبَتْ إِلَى بَعْضِ النَّاسِ عَادَاتُ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ فَلَا يَأْكُلُ مَعَ نِسَائِهِ وَبَنَاتِهِ، وَيَرَى أَنَّ ذَلِكَ مُنَافٍ لِرُجُولَتِهِ، قَادِحٌ فِي شَخْصِيَّتِهِ، وَلَا يَحْظَى بِمُجَالَسَتِهِ وَمُؤَاكَلَتِهِ وَمُبَاسَطَتِهِ إِلَّا الذُّكُورُ مِنْ وَلَدِهِ دُونَ الْإِنَاثِ؛ وَهَذَا مِنَ التَّفْرِقَةِ بَيْنَ الْأَوْلَادِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «**اتَّقُوا اللهَ وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[٦].

وَالْعَدْلُ فِي هَذَا وَاجِبٌ مِثْلُ الْعَدْلِ فِي النَّفَقَةِ إِنَّ لَمْ يَكُنْ أَهَمَّ وَأَوْلَى مِنَ الْعَدْلِ فِي النَّفَقَةِ؛ لِمَسِيسِ حَاجَاتِ الْبَنَاتِ لِمِثْلِ هَذَا النَّوْعِ مِنَ الْإِحْسَانِ وَالرِّعَايَةِ.

وَمَا ضُحِكَ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ بَنَاتِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى وَقَعْنَ فِي المَعْصِيَةِ وَالْعَارِ إِلَّا بَعْدَ خُلُوِّ بُيُوتِهِنَّ مِنْ تِلْكَ الرِّعَايَةِ، فَبَحَثْنَ عَنْهَا فِي غَيْرِ بُيُوتِ آبَائِهِنَّ؛ فَاصْطَادَهُنَّ ذِئَابٌ لَا يَرْقُبُونَ فِي حُرُمَاتِ الْمُسْلِمِينَ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً، فَكَانَ مِنْ أَمْرِهِنَّ مَا كَانَ.

وَمِنَ الْخَطَلِ فِي الرَّأْيِ وَالْخَطَإِ فِي الْفَهْمِ أَنْ يَظُنَّ ظَانٌّ أَنْ هَذَا الْأَجْرَ الْعَظِيمَ فِي رِعَايَةِ الْبَنَاتِ وَإِعَالَتِهِنَّ الَّذِي أَخْبَرَتْ بِهِ الْأَحَادِيثُ يَنَالُهُ مَنْ قَصَّرَ فِي تَرْبِيَةِ بَنَاتِهِ عَلَى أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ، أَوْ فَتَحَ لَهُنَّ أَبْوَابَ المَعْصِيَةِ، فَلَا عَلَّمَهُنَّ أَحْكَامَ الْحَيْضِ وَالطَّهَارَةِ، وَلَا أَمَرَهُنَّ بِالصَّلَاةِ وَالطَّاعَةِ، وَلَا بَيَّنَ لَهُنَّ أَهَمِّيَّةَ الْعَفَافِ وَالطُّهْرِ وَالْحَصَانَةِ . . وَلَمْ يُرَاقِبْ حِجَابَهُنَّ، وَلَا يُبَالِي أَيَّ لِبَاسٍ يَلْبَسْنَ، وَلَا يَسْأَلُ: مَعَ مَنْ كُنَّ وَأَيْنَ ذَهَبْنَ؟ وَقَدْ مَلَأَ بَيْتَهُ بِأَنْوَاعٍ مِنَ المُوبِقَاتِ الَّتِي تُوبِقُ بَنَاتِهِ وَتُهْلِكُهُنَّ،

---

(٦) أخرجه من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما: البخاري في الهبة وفضلها، باب الإشهاد في الهبة (٢٤٤٧)، ومسلم في الهبات، باب كراهية تفضيل بعض الأولاد في الهبة (١٦٢٣).

مِنْ فَضَائِيَّاتٍ سَاقِطَةٍ، وَأَشْرِطَةٍ مَاجِنَةٍ، وَمَجَلَّاتٍ هَابِطَةٍ، تُثِيرُ الشَّهَوَاتِ وَلَا تُشْبِعُ الْعَوَاطِفَ، وَتُحَرِّكُ الْغَرَائِزَ وَلَا تُنَمِّي الْعُقُولَ، وَتَدْعُو إِلَى الْمَعَاصِي، بَلْ تُؤَصِّلُ لِلْمَعْصِيَةِ وَالْكُفْرِ بِشِعَارَاتٍ بَرَّاقَةٍ، وَعَنَاوِينَ خَادِعَةٍ مِنَ الْحُرِّيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ، وَالْحُبِّ خَارِجَ إِطَارِ الزَّوْجِيَّةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا غَزَا أَكْثَرَ الْبُيُوتِ، وَفَتَكَ بِقُلُوبِ كَثِيرٍ مِنْ بَنَاتِ الْمُسْلِمِينَ.

أَوَيَظُنُّ مُسْلِمٌ أَنْ يَحْظَى بِهَذَا الْأَجْرِ فِي إِعَالَةِ بَنَاتِهِ وَقَدْ أَشْبَعَ بُطُونَهُنَّ وَأَهْمَلَ عُقُولَهُنَّ، وَأَلْهَبَ غَرَائِزَهُنَّ وَلَمْ يُشْبِعْ عَوَاطِفَهُنَّ، قَدِ اهْتَمَّ بِأُمُورِ دُنْيَاهُنَّ وَلَمْ يُبَالِ بِأَعْمَالِ أُخْرَاهُنَّ؟!

كَيْفَ يَظُنُّ مُسْلِمٌ ذَلِكَ وَهُوَ يَرى أَنَّ هَذِهِ الْأَحَادِيثَ ذَكَرَتْ أَوْصَافًا لِمَنْ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ مِنْ أَوْلِيَاءِ الْبَنَاتِ؛ فَفِي حَدِيثٍ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**فَيُحْسِنُ صُحْبَتَهُمَا**»، وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: «**يُؤْوِيهِنَّ وَيَكْفِيهِنَّ وَيَرْحَمُهُنَّ**» فَهَلْ أَحْسَنَ صُحْبَتَهُنَّ مَنْ ضَيَّعَ عَلَيْهِنَّ الدِّينَ وَاكْتَفَى لَهُنَّ بِالدُّنْيَا؟ وَهَلْ رَحِمَهُنَّ مَنْ جَلَبَ لَهُنَّ أَسْبَابَ الْعَذَابِ وَالنَّارِ فِي الْآخِرَةِ؟ وَتَأَمَّلُوا قَوْلَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**يُؤْوِيهِنَ وَيَكْفِيهِنَّ**»، وَالْإِيوَاءُ وَالْكِفَايَةُ لَهَا قَدْرٌ مُحَدَّدٌ، لَا يَنْزِلُ عَنْهُ فَيَحْتَجْنَ إِلَى غَيْرِهِ وَهُوَ أَبُوهُنَّ وَرَاعِيهِنَّ، وَلَا يَتعدَّاهُ فَيُفْسِدُهُنَّ وَيُبْطِرُهُنَّ، فَإِنْ قَصَّرَ عَنْ هَذَا الْحَدِّ مَا كَانَ مُؤْوِيًا لَهُنَّ وَلَا كَافِيًا، وَإِنْ تَجَاوَزَهُ إِلَى السَّرَفِ وَالتَّرَفِ مِمَّا يَحِلُّ وَمَا يَحْرُمُ فَقَدِ انْتَقَلَ مِنَ الْإِيوَاءِ وَالْكِفَايَةِ إِلَى الطُّغْيَانِ وَالْإِفْسَادِ، وَكِلَا الْوَجْهَيْنِ مَذْمُومٌ.

فَإِذَا عَمِلَ فِيهِنَّ بِشَرْعِ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَامَ عَلَيْهِنَّ خَيْرَ قِيَامٍ حَتَّى يُزَوِّجَهُنَّ بِالْأَكْفَاءِ فَقَدْ أَدَّى الْأَمَانَةَ، وَالْتَزَمَ الدِّيَانَةَ، وَاسْتَحَقَّ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى مَا رُتِّبَ عَلَى رِعَايَةِ الْبَنَاتِ مِنْ أُجُورٍ عَظِيمَةٍ.

وَمِنْ أَعْظَمِ الظُّلْمِ، وَأَكْبَرِ الْبَغْيِ، وَأَشَدِّ أَنْوَاعِ الْقَسْوَةِ: أَنْ يَحْرِمَ بَنَاتِهِ مِنْ حَقِّ

قَدْ قَضَاهُ اللهُ تَعَالَى لَهُنَّ؛ كَمَا يَفْعَلُهُ مَنْ يَفْعَلُهُ مِنْ جَهَلَةِ النَّاسِ، وَجُفَاةِ الرِّجَالِ بِحِرْمَانِ بَنَاتِهِمْ مِنَ الْمِيرَاثِ، أَوِ التَّحَايُلِ لِإِسْقَاطِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ بِأَنْ يُسَجِّلَ أَمْلَاكَهُ بِاسْمِ أَبْنَائِهِ دُونَ بَنَاتِهِ، وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ خَتَمَ حَيَاتَهُ بِخَاتِمَةِ السُّوءِ، وَلَقِيَ اللهَ تَعَالَى بِظُلْمٍ عَظِيمٍ لِبَنَاتِهِ، وَقَدْ خَلَقَهُنَّ اللهُ تَعَالَى ضِعَافًا، وَأَوْصَى بِهِنَّ، فَضَيَّعَ بِجَهْلِهِ وَعَصَبِيَّتِهِ وَصِيَّةَ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِنَّ، وَانْحَازَ إِلَى الْأَقْوِيَاءِ مِنْ وَلَدِهِ، وَأَعْطَاهُمْ حَقَّ الضُّعَفَاءِ، وَلَعَلَّهُ لَا يُحْسِنُ إِلَيْهِ فِي كِبَرِهِ وَضَعْفِهِ، وَلَا يَدْعُو لَهُ فِي قَبْرِهِ إِلَّا بَنَاتُهُ.

وَأَعْظَمُ ظُلْمًا مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَعْضُلَ بَنَاتِهِ، فَلَا يُزَوِّجُهُنَّ الْأَكْفَاءَ مِنَ الرِّجَالِ إِمَّا عَصَبِيَّةً لِعَشِيرَتِهِ؛ فَبَنَاتُهُمْ لَا تُزَوَّجُ مِنْ غَيْرِ أَبْنَاءِ الْعَشِيرَةِ، وَلَيْسَ فِي عَصَبَتِهِ كُفْؤٌ يَرْضَاهُ عَاقِلٌ لِابْنَتِهِ، فَإِمَّا زَوَّجَهَا بِغَيْرِ كُفْءٍ لَهَا فَظَلَمَهَا، أَوْ تَرَبَّصَ إِلَى أَنْ تُنْتِجَ عَشِيْرَتُه كُفْئًا لَهَا، وَقَدْ يَأْتِي وَقَدْ لَا يَأْتِي حَتَّى يَشِيبَ رَأْسُهَا.

أَوْ كَانَ أَبُوهَا مَرِيضًا بِالْعَظَمَةِ فَيَرُدُّ عَنْهَا الْخَاطِبِينَ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَمْلَئُوا عَيْنَهُ، وَلَا أَحَدَ يَمْلَأُ عَيْنَهُ؛ لِأَنَّ الْعِلَّةَ فِيهِ لَا فِيهِمْ، وَالرَّجُلُ الْعَاقِلُ لَا يَطْلُبُ الْمَعَالِيَ فِي تَزْوِيجِ بَنَاتِهِ، بَلْ يَنْشُدُ سِتْرَهُنَّ وَسَعَادَتَهُنَّ.

أَوْ يَمْنَعُهَا الزَّوَاجَ لِأَنَّهُ أَهْدَاهَا فِي صِغَرِهَا لِأَحَدِ أَبْنَاءِ عَمِّهِ وَهِيَ لَا تُرِيدُهُ، فَيَرْكَبُ رَأْسَهُ؛ لِئَلَّا يُقَالَ: قَدْ رَضَخَ لِرَأْيِ النِّسَاءِ، فَيُعَذِّبَ نَفْسَهُ وَابْنَتَهُ لِعِزَّةٍ يَتَوَهَّمُهَا، وَهِيَ عَيْنُ الذُّلِ وَالْإِهَانَةِ؛ إِذْ كَيْفَ يَبْتَزُّهُ الْآخَرُونَ فِي بَنَاتِهِ، فَلَا رَأْيَ لَهُ فِيهِنَّ، بَلِ الرَّأْيُ رَأْيُهُمْ!!

أَوْ يَمْنَعُهَا الزَّوَاجَ يُرِيدُ بَيْعَهَا لِذَوِي الْمَالِ وَالْجَاهِ كَمَا تُبَاعُ السِّلَعُ، حَتَّى إِذَا قَبَضَ ثَمَنَهَا، وَقَضَى الْغَنِيُّ حَاجَتَهُ مِنْهَا؛ رَمَى بِهَا مُهَانَةً ذَلِيلَةً حَزِينَةً، فَهَلْ هَذَا أَبٌ يَرْحَمُ؟! كَيْفَ وَمَهْرُهَا مَهْمَا بَلَغَ حَقٌّ لَهَا لَا لِأَبِيهَا، وَلَهَا أَنْ تَتَنَازَلَ عَمَّا شَاءَتْ مِنْهُ لِزَوجِهَا؟!

أَوْ كَانَتْ تَعْمَلُ وَيَأْخُذُ أَبُوهَا أَجْرَهَا فَيَحْبِسُهَا، وَيَرُدُّ الْأَكْفَاءَ عَنْهَا لِأَجْلِ ذَلِكَ. وَرُبَّمَا كَانَ صَفِيقَ الْوَجْهِ، قَلِيلَ الْحَيَاءِ، يُعَلِّلُ فِعْلَتَهُ الشَّنِيعَةَ فِي بَنَاتِهِ بِمَا مَضَى مِنْ نَفَقَتِهِنَّ، وَيَمُنُّ عَلَيْهِنَّ بِحَقٍّ أَوْجَبَهُ اللهُ تَعَالَى لَهُنَّ، فَيَحْرِمُ بَنَاتِهِ أَعْظَمَ لَذَّةٍ فِي الدُّنْيَا وَهِيَ الزَّوَاجُ وَطَلَبُ الْوَلَدِ، وَقَدْ تَمَتَّعَ هُوَ مِنْ قَبْلُ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ، فَأَيُّ فَرْدِيَّةٍ تِلْكَ؟ وَأَيُّ قُلُوبٍ قُدَّتْ مِنْ حَجَرٍ قُلُوبُ هَؤُلَاءِ الْآبَاءِ؟

وَإِذَا خَطَبَهَا خَاطِبٌ وَجَبَ عَلَى أَبِيهَا أَنْ يَتَحَرَّى عَنْهُ، وَيَسْأَلَ عَنْ دِينِهِ وَأَخْلَاقِهِ، ثُمَّ يَعْرِضُ الْأَمْرَ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ الْخَاطِبُ مِمَّنْ يُرْضَى دِينُهُ وَأَخْلَاقُهُ، وَلَا يُكْرِهُهَا عَلَيْهِ، فَالْحَقُّ لَهَا، وَالْقَوْلُ قَوْلُهَا، وَهِيَ مَنْ تَتَحَمَّلُ نَتِيجَةَ اخْتِيَارِهَا، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا تُنْكَحُ الْأَيِّمُ حَتَّى تُسْتَأْمَرَ، وَلَا تُنْكَحُ الْبِكْرُ حَتَّى تُسْتَأْذَنَ**. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ إِذْنُهَا؟ قَالَ: **أَنْ تَسْكُتَ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٧).

وَلَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَعْضُلَهَا، وَالْعَضْلُ: هُوَ مَنْعُ الْمَرْأَةِ مِنَ التَّزْوِيجِ بِكُفْئِهَا إِذَا طَلَبَتْ ذَلِكَ، وَرَغِبَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فِي صَاحِبِهِ.

وَقَدْ ذَكَرَ الْفُقَهَاءُ أَنَّ الْبِنْتَ إِنْ رَغِبَتْ فِي كُفْءٍ بِعَيْنِهِ، وَأَرَادَ أَبُوهَا تَزْوِيجَهَا بِغَيْرِهِ مِنْ أَكْفَائِهَا، وَأَبَى تَزْوِيجَهَا مِنَ الَّذِي أَرَادَتْهُ كَانَ عَاضِلًا لَهَا، فَأَمَّا إِنْ طَلَبَتِ التَّزْوِيجَ بِغَيْرِ كُفْئِهَا فِي دِينٍ أَوْ خُلُقٍ فَلَهُ مَنْعُهَا مِنْ ذَلِكَ، وَلَا يَكُونُ عَاضِلًا لَهَا بِهَذَا(٨).

وَإِذَا رَأَى الرَّجُلُ عُزُوفًا مِنْ بَنَاتِهِ عَنِ الزَّوَاجِ لِأَجْلِ الدِّرَاسَةِ أَوِ الْوَظِيفَةِ ذَكَّرَهُنَّ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَوَعَظَهُنَّ بِكِتَابِهِ، وَبَيَّنَ لَهُنَّ خُطُورَةَ رَدِّ الْأَكْفَاءِ مِنَ الرِّجَالِ،

---

(٧) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في النكاح، باب لا ينكح الأب وغيره البكر والثيب إلا برضاها (٤٨٤٣)، ومسلم في النكاح، باب استئذان الثيب في النكاح بالنطق والبكر بالسكوت (١٤١٩).

(٨) المغني لابن قدامة (٧/ ٢٤).

وَأَخْبَرَهُنَّ أَنَّ الْوَاحِدَةَ مِنْهُنَّ إِنْ رَدَّتْ كُفْئًا يُرْضَى دِينُهُ وَخُلُقُهُ فَقَدْ تُعَاقَبُ بِالْحِرْمَانِ مِنْ مِثْلِهِ؛ حَتَّى لَا يَأْتِيَهَا مُسْتَقْبَلًا إِلَّا غَيْرُ كُفْءٍ لَهَا، وَإِذَا اشْتُهِرَ عِنْدَ النَّاسِ أَنَّ آلَ فُلَانٍ يَرُدُّونَ الْأَكْفَاءَ عَنْ بَنَاتِهِمْ أَحْجَمُوا عَنْهُمْ، وَهَذَا وَاقِعٌ مُشَاهَدٌ، وَكَمْ رَاحَ ضَحِيَّتَهُ كَثِيرٌ مِمَّنْ يَرْغَبُ الشَّبَابُ فِي مِثْلِهِنَّ مِنْ بَنَاتِ النَّاسِ، لَوْلَا هَذَا التَّصَرُّفُ الْخَطَأُ؟!

وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَونَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ**»(٩)، فَمَنْ يَرْضَى مِنَ الْآبَاءِ، وَمَنْ يَرْضَى مِنَ الْبَنَاتِ أَنْ تَكُونَ سَبَبًا مِنْ أَسْبَابِ الْفِتْنَةِ فِي الْأَرْضِ وَالْفَسَادِ الْعَرِيضِ؟!

وَالْوَظِيفَةُ وَالدِّرَاسَةُ لَيْسَتْ تَمْنَعُ مِنَ الزَّوَاجِ؛ إِذْ سَتَجِدُ مَنْ يَقْبَلُهَا مَعَ وَظِيفَتِهَا وَدِرَاسَتِهَا، وَلَوْ قُدِّرَ التَّعَارُضُ فِي ذَلِكَ قُدِّمَتْ مَصْلَحَةُ زَوَاجِهَا عَلَى وَظِيفَتِهَا وَدِرَاسَتِهَا؛ لِأَنَّهُ بِزَوَاجِهَا يُنْفِقُ عَلَيْهَا زَوْجُهَا فَلَا تَحْتَاجُ إِلَى الْوَظِيفَةِ، لَكِنْ إِنْ فَاتَهَا الزَّوَاجُ لِكِبَرِهَا، وَرَغْبَةِ الرِّجَالِ عَنْهَا؛ لَمْ تَهَبْ لَهَا وَظِيفَتُهَا زَوْجًا وَوَلَدًا.

وَإِذَا طُلِّقَتِ الْبِنْتُ وَعَادَتْ إِلَى بَيْتِ أَبِيهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يُعَيِّرَهَا بِطَلَاقِهَا، وَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُحْسِنَ إِلَيْهَا؛ حَتَّى يَجْعَلَ اللهُ تَعَالَى لَهَا سَبِيلًا بِرَجُلٍ آخَرَ، فَإِنْ خَرَجَتْ مِنْ عِدَّتِهَا، وَعَادَ إِلَيْهَا مُطَلِّقُهَا يُرِيدُ نِكَاحَهَا مَرَّةً أُخْرَى فَالْقَوْلُ قَوْلُهَا،

---

(٩) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: الترمذي في النكاح، باب ما جاء إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه (١٠٨٤)، وابن ماجه في النكاح باب الأكفاء (١٩٦٧)، وصححه الحاكم (٢/ ١٧٩)، ورجح البخاري فيما نقله عنه الترمذي إرساله عن عبد الله بن هرمز عن النبي ﷺ، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه.
وجاء أيضًا من حديث أبي حاتم المزني عند: البيهقي (٧/ ٨٢)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١١٢٢)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٢٩٩) رقم (٧٦٢).

فَإِنْ أَرَادَتْهُ فَلَيْسَ لِأَبِيهَا أَنْ يَمْنَعَهَا مِنْهُ بِحُجَّةِ أَنَّهُ طَلَّقَهَا المَرَّةَ الْأُولَى، وَفِي مِثْلِ هَذِهِ الصُّورَةِ نَزَلَتْ آيَةُ الْعَضْلِ؛ كَمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ قَالَ: «حَدَّثَنِي مَعْقِلُ بْنُ يَسَارٍ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِيهِ، قَالَ: زَوَّجْتُ أُخْتًا لِي مِنْ رَجُلٍ فَطَلَّقَهَا، حَتَّى إِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا جَاءَ يَخْطُبُهَا، فَقُلْتُ لَهُ: زَوَّجْتُكَ وَأَفْرَشْتُكَ وَأَكْرَمْتُكَ فَطَلَّقْتَهَا، ثُمَّ جِئْتَ تَخْطُبُهَا! لَا وَاللَّهِ لَا تَعُودُ إِلَيْكَ أَبَدًا، وَكَانَ رَجُلًا لَا بَأْسَ بِهِ، وَكَانَتِ المَرْأَةُ تُرِيدُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْهِ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ فَقُلْتُ: الْآنَ أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَزَوَّجَهَا إِيَّاهُ»(١٠)، وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ مَعْقِلٌ ﷺ: «سَمْعًا لِرَبِّي وَطَاعَةً، فَدَعَا زَوْجَهَا فَزَوَّجَهَا إِيَّاهُ»(١١)، وَفِي هَذِهِ الْحَادِثَةِ يَقُولُ الْحَسَنُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «عَلِمَ اللهُ تَعَالَى حَاجَةَ الرَّجُلِ إِلَى امْرَأَتِهِ، وَحَاجَةَ المَرْأَةِ إِلَى زَوْجِهَا، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ»(١٢).

نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَحْفَظَنَا وَالمُسْلِمِينَ بِحِفْظِهِ، وَأَنْ يُسْبِغَ عَلَى نِسَاءِ المُسْلِمِينَ وَبَنَاتِهِمْ سِتْرَهُ، وَأَنْ يُجَنِّبَهُنَّ طُرُقَ الْهَلَاكِ وَالرَّدَى، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ . . .

❀ ❀ ❀

---

(١٠) أخرجه البخاري في النكاح، باب من قال: لا نكاح إلا بولي (٤٨٣٧).
(١١) ذكر هذه الرواية الحافظ في الفتح من رواية أبي مسلم الكجي (٩/ ١٨٧).
(١٢) زاد المسير لابن الجوزي (١/ ٢٦٨)، وينظر: الفتح (٩/ ١٨٧).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التَّحريم: ٦].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَيْسَ مِنَ الْعَيْبِ فِي شَيْءٍ أَنْ يَعْرِضَ الرَّجُلُ بَنَاتِهِ عَلَى الْأَكْفَاءِ تَصْرِيحًا أَوْ تَلْمِيحًا، أَوْ يُوصِيَ بِذَلِكَ مَنْ يَثِقُ بِهِ؛ فَإِنَّ الْأَكْفَاءَ مِنَ الرِّجَالِ إِنْ رَغِبُوا فِيهِنَّ حَصَلَ لَهُ مَا أَرَادَ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ تَمَامِ إِحْسَانِهِ لِبَنَاتِهِ، وَإِنْ رَغِبُوا عَنْهُنَّ مَنَعَهُمْ دِينُهُمْ وَأَخْلَاقُهُمْ مِنَ الْكَلَامِ وَالثَّرْثَرَةِ، وَإِفْشَاءِ سِرِّهِ، وَقَدْ فَعَلَ ذَلِكَ خِيَارُ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ: فَعُمَرُ عَرَضَ ابْنَتَهُ حَفْصَةَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ ثُمَّ عَلَى عُثْمَانَ رضي الله عنهم، فَتَزَوَّجَهَا النَّبِيُّ ﷺ. وَعُثْمَانُ عَرَضَ ابْنَتَهُ عَلَى ابْنِ مَسْعُودٍ وَهُوَ كَبِيرٌ وَهِيَ صَغِيرَةٌ مَعَ مَا بَيْنَهُمَا رضي الله عنهما مِنْ خِلَافٍ فِي بَعْضِ الْمَسَائِلِ.

وَسَعِيدُ بنُ الْمُسَيَّبِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- رَفَضَ ابْنَ الْخَلِيفَةِ وَقَدْ خَطَبَ ابْنَتَهُ، وَزَوَّجَهَا مِنْ رَجُلٍ صَالِحٍ فَقِيرٍ كَانَ يَطْلُبُ الْعِلْمَ عَلَى يَدَيْهِ.

وَإِنْ طُلِّقَتِ الْبِنْتُ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ، أَوْ كَانَ أَزْوَاجُهَا يَمُوتُونَ عَنْهَا، فَلَيْسَ لِأَبِيهَا أَنْ يُعَاقِبَهَا بِمَنْعِهَا مِنَ الزَّوَاجِ؛ حَرَجًا مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، أَوْ خَوْفًا مِنْ شَمَاتَتِهِمْ، فَحَقُّ ابْنَتِهِ عَلَيْهِ أَوْلَى مِنْ مُرَاعَاةِ النَّاسِ، وَلَوْ أَرَادَتِ الزَّوَاجَ وَلَهَا أَوْلَادٌ فَلَهَا ذَلِكَ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَمْنَعَهَا حَقَّهَا وَلَوْ كَانَتْ كَبِيرَةَ السِّنِ، فَهِيَ أَدْرَى بِنَفْسِهَا،

وَأَعْرَفُ بِحَاجَتِهَا، وَقَدْ كَانَتِ الصَّحَابِيَّاتُ رَضِيَ اللهُ عنهنَّ لَا تَنْقَضِي عِدَّةُ الْوَاحِدَةِ مِنْهُنَّ إِلَّا وَتُخْطَبُ عَلَى الْفَوْرِ، وَقَدْ تزَوَّجَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ رضي الله عنها جَعْفَرًا ثُمَّ أَبَا بَكْرٍ ثُمَّ عَلِيًّا رضي الله عنهم. وَكَوْنُهَا تكُونُ زَوْجَةً ثَانِيَةً أَوْ ثَالِثَةً أَوْ رَابِعَةً خَيْرًا لَهَا مِنْ بَقَائِهَا بِلَا زَوْجٍ.

وَمَا انْتَشَرَ رَفْضُ هَذِهِ المَبَادِئِ الْأَصِيلَةِ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا الشَّرِيعَةُ، وَطَبَّقَهَا الصَّحَابَةُ، إِلَّا لَمَّا سَادَتْ ثَقَافَةُ المُسَلْسَلَاتِ الْهَابِطَةِ، وَالمَجَلَّاتِ السَّاقِطَةِ بَيْنَ النَّاسِ، حَتَّى حَارَبُوا تَعَدُّدَ الزَّوْجَاتِ وَهُوَ خَيْرٌ لِلنِّسَاءِ وَلِلْمُجْتَمَعِ، وَأَلْقَوْا فِي رُوعِ المُطَلَّقَةِ عَدَمَ الزَّوَاجِ مَرَّةً أُخرَى، وَعَلَيْهَا أَنْ تَبْحَثَ عَنْ ذَاتِهَا وَلَذَّتِهَا فِي طَرِيقٍ آخَرَ غَيْرِ طَرِيقِ الزَّوَاجِ، يَعْنِي: فِي الْحَرَامِ! نَسْأَلُ اللهَ الْعَافِيَةَ، حَتَّى وُئِدَتِ الْفَضِيلَةُ، وَانْتَشَرَتِ الرَّذِيلَةُ، وَإِنْ صَبَرَتْ فَعَلَى جَمْرٍ يُحْرِقُ قَلْبَهَا.

وَمِنْ إِحْسَانِ الرَّجُلِ إِلَى بَنَاتِهِ أَنْ يُحْسِنَ إِلَى أَزْوَاجِهِنَّ؛ فَيَبْتَسِمَ لَهُمْ، وَيُظْهِرَ حَفَاوَتَهُ بِهِمْ، وَيَحْضُرَ وَلَائِمَهُمْ، وَيَدْعُوَهُمْ هُوَ إِلى بَيْتِهِ؛ فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَ ذَا فَضْلٍ عَلَيْهِمْ بِتَزْوِيجِهِمْ، فَلَهُمْ فَضْلٌ عَلَيْهِ بِحِفْظِ عَوْرَةٍ لَهُ، وَإِحْسَانُهُ إِلَيْهِمْ يَنْتجُ عَنْهُ وَلَا بُدَّ إِحْسَانُ الْأَزْوَاجِ إِلَى بَنَاتِهِ، وَهَذَا مَا يَطْلُبُهُ لَهُنَّ.

وَيَنْبَغِي لِمَنْ رَزَقَهُ اللهُ تَعَالَى أَوْلَادًا وَحَفَدَةً أَنْ لَا يُظْهِرَ احْتِفَاءَهُ بِأَوْلَادِ بَنِيهِ أَكْثَرَ مِنِ احْتِفَائِهِ بِأَوْلَادِ بَنَاتِهِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَنْكَأُ فِي قُلُوبِ بَنَاتِهِ، وَيَكُونُ سَبَبًا لِلْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ بَيْنَ أَوْلَادِهِ وَأَحْفَادِهِ.

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُم -أَيُّهَا المُسْلِمُونَ- وَأَدُّوا أَمَانَاتِكُمْ، وَأَحْسِنُوا إِلَى بَنَاتِكُم كَمَا تُحْسِنُونَ إِلَى أَبْنَائِكُمْ، وَخُذُوا فِي ذَلِكَ بِآدَابِ الْإِسْلَامِ؛ فَفِي ذَلِكَ خَيْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا . . .

٢٨٩- الحسد .. أثره وعلاجه

٢٣/ ٥/ ١٤١٥هـ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَخِيرَتُهُ مِنْ خَلْقِهِ صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ جَعَلَ صَلَاحَ الْجَسَدِ فِي صَلَاحِ الْقَلْبِ، وَفَسَادَهُ فِي فَسَادِهِ، ذَلِكَ الْقَلْبُ الَّذِي بِهِ يَكُونُ الْإِنْسَانُ بَشَرًا سَوِيًّا أَوْ يَكُونُ شَيْطَانًا مَرِيدًا، ذَلِكَ الْقَلْبُ الَّذِي هُوَ الْمَلِكُ وَالْجَوَارِحُ تَبَعٌ لَهُ، وَالْأَفْعَالُ إِنَّمَا تَصْدُرُ بِأَمْرِهِ «**أَلَا إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[1].

وَإِنَّ مِنْ أَشَدِّ الْأَمْرَاضِ فَتْكًا بِتِلْكَ الْمُضْغَةِ: الْحَسَدَ، الَّذِي أُمِرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَسْتَعِيذَ بِرَبِّهِ سُبْحَانَهُ مِنْهُ ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥].

---

(١) أخرجه من حديث النعمان بن بشير ﷺ: البخاري في الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه (٥٢)، ومسلم في المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات (١٥٩٩).

قَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ فِي تَعْرِيفِهِ: «هُوَ تَمَنِّي زَوَالِ النِّعْمَةِ عَنْ صَاحِبِهَا، سَوَاءً كَانَتْ نِعْمَةَ دِينٍ أَوْ دُنْيَا»(٢).

نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْهُ بِقَوْلِهِ: «**وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَحَاسَدُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا**»(٣)، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا لَمْ يَتَحَاسَدُوا**» رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ، وَقَالَ الْمُنْذِرِيُّ: رِجَالُهُ ثِقَاتٌ(٤).

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ فِي اللَّهِ: بِسَبَبِ الْحَسَدِ طُرِدَ إِبْلِيسُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، حِينَمَا أَبَى السُّجُودَ لِآدَمَ ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، وَأُهْبِطَ آدَمُ مِنَ الْجَنَّةِ حِينَمَا حَسَدَهُ إِبْلِيسُ، فَزَيَّنَ لَهُ الْمَعْصِيَةَ.

وَمِنْ جَرَّاءِ الْحَسَدِ قَتَلَ ابْنُ آدَمَ أَخَاهُ، وَلَطَّخَ الْأَرْضَ بِأَوَّلِ دَمٍ يُسْفَكُ عَلَيْهَا، وَسَنَّ الْقَتْلَ فِي بَنِي آدَمَ؛ فَهُوَ يَحْمِلُ وِزْرًا مَعَ كُلِّ دَمٍ يَسِيلُ ظُلْمًا. وَلِهَذَا قِيلَ: الْحَسَدُ أَوَّلُ ذَنْبٍ ارْتُكِبَ فِي السَّمَاءِ، وَأَوَّلُ ذَنْبٍ وَقَعَ فِي الْأَرْضِ(٥).

---

(٢) رياض الصالحين (٢٨٩) ونقل الإجماع على تحريمه، فقال: وهذا حرام بإجماع الأمة مع النصوص الصحيحة، شرح مسلم (٦/ ٩٧).

(٣) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه: البخاري في الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر (٦٠٦٥)، ومسلم في البر والصلة والآداب، باب تحريم التحاسد والتباغض والتدابر (٢٥٥٩).

(٤) رواه الطبراني في الكبير (٨/ ٣٠٩) رقم (٨١٥٧)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب: رواه الطبراني ورواته ثقات (٣/ ٣٤٧)، وأورده الألباني بسند الطبراني في السلسلة الصحيحة (٣٣٨٦)، وقال: وهذا إسناد جيد، رجاله كلهم ثقات من رجال «التهذيب»، وفي بعضهم خلاف لا يضر؛ غير شيخ الطبراني: الحسن بن جرير الصوري، وهو من شيوخه المشهورين، ترجم له الحافظ ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤/ ٤١٩) بروايته عن جمع من الثقات، وعنه نحو عشرين من الشيوخ بعضهم من الحفاظ، ووصفه الحافظ الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٤٤٢) بـ: «الإمام المحدث» اهـ.

(٥) أخرجه من قول سفيان بن عيينة -رحمه الله تعالى-: أبو بكر الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (٦٥٩)، وأورده غير منسوب لقائل: ابن قتيبة في عيون الأخبار (١٤٧)، والماوردي في تفسيره (٦/ ٣٦٦).

وَلَا يَقَعُ هَذَا الدَّاءُ الْخَبِيثُ إِلَّا بَيْنَ الْأَقْرَانِ فِي الْغَالِبِ، وَلَقَدْ عَمَّ وطَمَّ فِي هَذَا الزَّمَانِ، بِسَبَبِ تَعْظِيمِ المَادَّةِ، وَالمَيْلِ إِلَى الشَّهْوَةِ، وَلَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى فِئَةٍ مُعَيَّنَةٍ مِنَ النَّاسِ، بَلْ شَمِلَ السَّادَةَ وَالْكُبَرَاءَ، كَمَا أَتَى عَلَى الضَّعَفَةِ وَالْفُقَرَاءِ.

أَلَا تَرَوْنَ أَهْلَ الرِّيَاسَةِ وَالْجَاهِ وَالمَنَاصِبِ يَتَحَاسَدُونَ؟ يَطَأُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا! وَتَكْثُرُ المَكَائِدُ وَالْحِيَلُ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَتُسْرِعُ الْوِشَايَةُ فِي أَوْسَاطِهِمْ، وَالْحَاذِقُ الْفَطِنُ مَنْ يُسْقِطُ صَاحِبَهُ، وَيَعْتَلِي المَجْدَ عَلَى كَتِفَيْهِ، بَعِيدًا عَنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْحَذَرِ مِنْ مَكْرِهِ، فَذَلِكَ أَمْرٌ لَا يُؤْبَهُ بِهِ عِنْدَهُمْ.

وَكَمَا يَنْتَشِرُ الْحَسَدُ فِي هَؤُلَاءِ؛ فَالْأَغْنِيَاءُ وَأَهْلُ الثَّرَوَاتِ لَيْسُوا عَنْهُمْ بِبَعِيدٍ، يَظْهَرُ ذَلِكَ حِينَمَا تُطْرَحُ المُنَاقَصَاتُ، أَوْ يُعْلَنُ عَنْ فَتْحِ أَسْوَاقٍ جَدِيدَةٍ، فَيَتَنَافَسُونَ فِيهَا، وَلَا يَكْفِيهِمُ التَّنَافُسُ، بَلْ يَتَحَاسَدُونَ وَيَتَنَاجَشُونَ وَيَتَبَاغَضُونَ، سَالِكِينَ فِي تَحْقِيقِ المَكَاسِبِ، وَمُضَاعَفَةِ الْأَرْبَاحِ كُلَّ طَرِيقٍ مِنَ الْكَذِبِ وَالتَّزْوِيرِ وَالرَّشْوَةِ وَالْخِدَاعِ، وَحِينَمَا يَعْلُو اسْمٌ فِي السُّوقِ، وَيُوَفَّقُ رَجُلٌ مِنْهُمْ فِي تِجَارَتِهِ يَغْتَمُّونَ لِذَلِكَ، وَفِي عِرْضِهِ يَقَعُونَ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ تَعَالَى.

وَأَمَّا تَحَاسُدُ الْعَامَّةِ فَعَلَى قَدْرِهِمْ، وَفِي مُسْتَوَى مَعِيشَتِهِمْ، يَحْسُدُونَ الرَّجُلَ عَلَى زَوْجَةٍ حَسْنَاءَ أَوْ صَالِحَةٍ أَوْ غَنِيَّةٍ، وَيَحْسُدُونَهُ عَلَى صَلَاحِ الْأَوْلَادِ وَاسْتِقَامَتِهِمْ وَتَفَوُّقِهِمْ وَرِفْعَتِهِمْ، وَلِلنِّسَاءِ فِي الْحَسَدِ عَلَى الْأَوْلَادِ وَصَلَاحِهِمْ نَصِيبٌ كَبِيرٌ.

وَأَقْبَحُ الْحَسَدِ وَأَشْنَعُهُ حِينَمَا يَكُونُ بَيْنَ المُنْتَسِبِينَ لِلْعِلْمِ وَالدَّعْوَةِ، فَيُحْسَدُ أَقْوَامٌ عَلَى مَا أُوتُوا مِنَ الْعِلْمِ وَالْفِقْهِ، وَأُعْطُوا مِنَ الْحِكْمَةِ وَالمَعْرِفَةِ . .

يُحْسَدُونَ عَلَى قُوَّةِ حُجَّتِهِمْ، وَعَظِيمِ بَلَاغَتِهِمْ، وَرَوْعَةِ بَيَانِهِمْ، وَشِدَّةِ تَأْثِيرِهِمْ فِي النَّاسِ . .

يُحْسَدُونَ عَلَى حَدِيثِهِمُ الَّذِي يَأْخُذُ بِمَجَامِعِ الْقُلُوبِ، وَيَسْتَدِرُّ الدُّمُوعَ، وَكَذَلِكَ حُسِدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ . .

يُحْسَدُونَ لِأَنَّ النَّاسَ اجْتَمَعُوا حَوْلَهُمْ، وَاتَّفَقُوا عَلَى حُبِّهِمْ، وَأَجْمَعُوا عَلَى بُغْضِ مَنْ نَاوَأَهُمْ. وَتَجِدُ أَنَّ الْحَاسِدِينَ لَهُمْ قَلِيلُو عِلْمٍ وَفِقْهٍ، ضَعِيفُو عَمَلٍ وَدَعْوَةٍ، لَا يَظْهَرُ عَلَيْهِمْ أَثَرُ عِبَادَةٍ وَوَرَعٍ . . فَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِ غَيْرِهِمْ، وَيَنْتَقِدُونَ عَمَلَهُمْ.

حَسَدُوهُمْ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ تَعَالَى مِنْ فَضْلٍ وَعِلْمٍ، وَتَقْوَى وَعَمَلٍ.

وَالْحَسَدُ فِي الدِّينِ وَالْعِلْمِ مِنْ سِمَاتِ الْيَهُودِ ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

وَحِينَمَا تَجْتَمِعُ مِلَلُ أَهْلِ الْأَرْضِ، وَدِيَانَاتُ النَّاسِ كُلِّهِمْ مِنْ يَهُودِيَّةٍ وَنَصْرَانِيَّةٍ، وَبُوذِيَّةٍ وَهُنْدُوسِيَّةٍ، وَإِلْحَادٍ وَعَلْمَانِيَّةٍ وَغَيْرِهَا عَلَى بُغْضِ الْمُسْلِمِينَ، وَتُجْمِعُ عَدَاوَتَهُمْ وَقَهْرَهُمْ وَظُلْمَهُمْ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ مِنَ الْحَسَدِ عَلَى هَذَا الدِّينِ الْعَظِيمِ، كَمَا أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى بِذَلِكَ عَنْ أَعْدَاءِ المِلَّةِ وَالدِّينِ ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءًۖ﴾ [النساء: ٨٩]، ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّۖ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وَالْحَسَدُ -أَيُّهَا الْإِخْوَةُ- وَهُوَ مَعْصِيَةٌ وَاحِدَةٌ، يَجُرُّ إِلَى مَعَاصٍ عِدَّةٍ، فَالْحَسُودُ مُعْتَرِضٌ عَلَى اللَّهِ ﷻ فِي تَدْبِيرِ خَلْقِهِ، وَتَقْسِيمِ رِزْقِهِ، فَكَأَنَّهُ يُخَاطِبُ رَبَّهُ قَائِلًا: لِمَاذَا أُعْطَى قَلِيلًا وَيُعْطَى غَيْرِي كَثِيرًا؟! وَلِذَا قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: «مَنْ رَضِيَ بِقَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى لَمْ يَسْخَطْهُ أَحَدٌ، وَمَنْ قَنِعَ بِعَطَائِهِ لَمْ يَدْخُلْهُ حَسَدٌ»[٦].

وَالْحَسُودُ مَلِيءٌ قَلْبُهُ بِالْكِبْرِ وَالْعُجْبِ، وَتَزْكِيَةِ النَّفْسِ؛ فَهُوَ يَرَى نَفْسَهُ أَفْضَلَ

---

(٦) أدب الدنيا والدين (٣٣٣).

مِنَ المَحْسُودِ، وَإِلَّا لَمَا حَسَدَهُ؛ وَلِهَذَا فَسَّرَ النَّبِيُّ ﷺ الْكِبْرَ بِأَنَّهُ: «**بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ**»(٧)، فَهُوَ غَمْطُ النَّاسِ حُقُوقَهُمْ، وَعَدَمُ إِنْزَالِهِمْ مَنَازِلَهُمُ الَّتِي أَعْطَاهُمُ اللهُ تَعَالَى.

وَالْحَسُودُ مُبْتَلًى بِالنَّمِيمَةِ وَالْوِشَايَةِ، فَهُوَ لَا يَزَالُ يَمْشِي بِهَا حَتَّى يُسْقِطَ المَحْسُودَ، أَوْ يُصِيبَهُ بِمَكْرُوهٍ. وَالْحَسُودُ لَا يَسْلَمُ مِنَ الْغِيبَةِ؛ فَهُوَ يُنَفِّسُ عَمَّا فِي قَلْبِهِ بِالْوُقُوعِ فِي عِرْضِ المَحْسُودِ، ثُمَّ هُوَ ظَالِمٌ مُبِينٌ، فَالمَحْسُودُ إِنَّمَا نَالَ مَا نَالَ مِنْ خَيْرٍ؛ لِأَنَّهُ فِي الْغَالِبِ يَسْتَحِقُّهُ، وَالْحَسَدُ إِيذَاءٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

إِنَّ الْحَاسِدَ خَبِيثُ النَّفْسِ، شَحِيحٌ بِالْخَيْرِ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ تَعَالَى، يَشُقُّ عَلَيْهِ أَنْ يُوصَفَ عِنْدَهُ حُسْنُ حَالِ عَبْدٍ وَقَعَتْ لَهُ نِعْمَةٌ، وَيَفْرَحُ بِذِكْرِ فَوَاتِ خَيْرٍ عَلَى أَخِيهِ المُسْلِمِ، وَاضْطِرَابِ أُمُورِهِ، وَتَنَغُّصِ عَيْشِهِ، فَهُوَ أَبَدًا يُحِبُّ الْإِدْبَارَ لِغَيْرِهِ، وَيَبْخَلُ بِنِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ، كَأَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِهِ.

أَرَأَيْتُمْ -عِبَادَ اللَّهِ- كَيْفَ كَانَ الْحَسَدُ مِفْتَاحًا لِلْكَبَائِرِ، جَامِعًا لِلذُّنُوبِ .. هَذَا ضَرَرُ الدِّينِ، وَأَمَّا ضَرَرُ الدُّنْيَا؛ فَقَدْ قَالَ المَاوَرْدِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ ذَمِّ الْحَسَدِ إِلَّا أَنَّهُ خُلُقٌ دَنِيءٌ يَتَوَجَّهُ نَحْوَ الْأَكْفَاءِ وَالْأَقَارِبِ، وَيَخْتَصُّ بِالمُخَالِطِ وَالمُصَاحِبِ، لَكَانَتِ النَّزَاهَةُ عَنْهُ كَرَمًا، وَالسَّلَامَةُ مِنْهُ مَغْنَمًا، فَكَيْفَ

---

(٧) أخرجه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه: مسلم في الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه (٩١).
قال ابن الأثير -رحمه الله تعالى-: «بطر الحق: أن يجعل ما جعله الله حقًّا من توحيده وعبادته باطلًا، هذا عند من جعل أصل البطر من الباطل، ومن جعله من الحيرة، فمعناه: أن يتحير عند الحق فلا يقبله حقًّا، وقيل: البطر: التكبر، أي: يطغى ويتكبر عند سماع الحق فلا يقبله.
غمط: غمطت حق فلان: إذا احتقرته ولم تره شيئًا، وكذلك غمصته: إذا انتقصت به وأزريت به» جامع الأصول (١٠/ ٦١٥).

وَهُوَ بِالنَّفْسِ مُضِرٌّ، وَعَلَى الْهَمِّ مُصِرٌّ، حَتَّى رُبَّمَا أَفْضَى بِصَاحِبِهِ إِلَى التَّلَفِ مِنْ غَيْرِ نِكَايَةٍ فِي عَدُوٍّ وَلَا إِضْرَارٍ بِمَحْسُودٍ»(٨).

وَقَالَ مُعَاوِيَةُ رضي الله عنه: «لَيْسَ فِي خِصَالِ الشَّرِّ أَعْدَلُ مِنَ الْحَسَدِ، يَقْتُلُ الْحَاسِدَ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى الْمَحْسُودِ»(٩).

وَقَالَ عُثْمَانُ رضي الله عنه: «يَكْفِيكَ مِنَ الْحَاسِدِ أَنَّهُ يَغْتَمُّ فِي وَقْتِ سُرُورِك»(١٠).

وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ: «لَقِيتُ أَعْرَابِيًّا قَدْ أَتَتْ عَلَيْهِ مِئَةٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً، فَقُلْتُ: مَا بَقَّى نَفْسَكَ؟ فَقَالَ: تَرَكْتُ الْحَسَدَ فَبَقِيَتْ نَفْسِي»(١١).

وَقَالَ ابْنُ الْمُعْتَزِّ: «الْحَسَدُ دَاءُ الْجَسَدِ»(١٢).

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: قَدْ يَكُونُ الْحَسَدُ طَبْعًا فِي النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ، لَا يَسْلَمُ مِنْه إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللهُ تَعَالَى، لَكِنْ يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يُكَافِحَهُ وَيَقْهَرَ نَفْسَهُ؛ حَتَّى لَا يَتَمَكَّنَ هَذَا الدَّاءُ مِنْ إِفْسَادِ قَلْبِهِ؛ فَعَلَيْهِ: أَنْ يُؤْمِنَ بِاللَّهِ تَعَالَى وَبِقَدَرِهِ وَرِزْقِهِ؛ فَهُوَ تَعَالَى الْبَاسِطُ الْقَابِضُ، وَهُوَ الْمَانِعُ الْمُعْطِي، وَهُوَ الْمُبَاعِدُ الْمُقَرِّبُ، لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، وَلَا رَادَّ لِقَضَائِهِ، وَلَا مُمْسِكَ لِرِزْقِهِ وَفَضْلِهِ، يَرْفَعُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَضَعُ آخَرِينَ.

إِذَا أَدْرَكَ الْمُؤْمِنُ ذَلِكَ وَتَذَكَّرَهُ كُلَّ حِينٍ ذَهَبَتْ سَوْرَةُ الْحَسَدِ مِنْ نَفْسِهِ، وَخَفَّتْ حِدَّتُهُ مِنْ قَلْبِهِ، وَيُعَوِّدُ نَفْسَهُ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى فِي كُلِّ مُنَاسَبَةٍ يَرَى فِيهَا نِعْمَةً

---

(٨) أدب الدنيا والدين (٣٣٤).

(٩) الفاضل للمبرد (٣١)، وأدب الدنيا والدين (٣٣٤).

(١٠) الإعجاز والإيجاز للثعالبي (٢٦)، وربيع الأبرار للزمخشري (١/ ٢٨٦).

(١١) أخرجه أبو بكر الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (٦٦٠)، وأبو طاهر السلفي في الطيوريات (٦/ ٥٢٤).

(١٢) أدب الدنيا والدين (٣٣٨).

عَلَى عَبْدٍ مِنْ عِبَادِهِ سُبْحَانَهُ، ثُمَّ لِيَعْلَمِ الْعَبْدُ أَنَّ النِّعْمَةَ قَدْ تَكُونُ نِقْمَةً وَبَلَاءً عَلَى أَخِيهِ، فَعَلَامَ يَحْسُدُهُ؟!

وَلْيُدْرِكْ أَنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا لَا فَائِزَ فِيهَا إِلَّا مَنْ أَطَاعَ اللهَ تَعَالَى، وَلَا مُطِيعَ لَهُ سُبْحَانَهُ مَنْ حَسَدَ عِبَادَهُ ﷻ، قَالَ ابْنُ سِيرِينَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «مَا حَسَدْتُ أَحَدًا عَلَى شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا؛ لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَكَيْفَ أَحْسُدُهُ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ يَصِيرُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَكَيْفَ أَحْسُدُهُ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ يَصِيرُ إِلَى النَّارِ»(١٣).

وَقَالَ ابْنُ حِبَّانَ-رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «الْعَاقِلُ إِذَا خَطَرَ بِبَالِهِ ضَرْبٌ مِنَ الْحَسَدِ لِأَخِيهِ أَبْلَغَ الْمَجْهُودَ فِي كِتْمَانِهِ وَتَرْكِ إِبْدَاءِ مَا خَطَرَ بِبَالِهِ»(١٤).

وَعَنْ حَمَّادِ بْنِ حُمَيْدٍ قَالَ: «قُلْتُ لِلْحَسَنِ: يَا أَبَا سَعِيدٍ: هَلْ يَحْسُدُ الْمُؤْمِنُ؟ قَالَ: مَا أَنْسَاكَ بَنِي يَعْقُوبَ لَا أَبَا لَكَ! حَيْثُ حَسَدُوا يُوسُفَ، وَلَكِنْ غُمَّ الْحَسَدَ فِي صَدْرِكَ؛ فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّكَ مَا لَمْ يَعْدُ لِسَانُكَ، وَتَعْمَلْ بِهِ يَدُكَ»(١٥).

أَمَّا إِذَا أَصَرَّ الْحَاسِدُ عَلَى ذَنْبِهِ؛ فَالْخَيْرُ فِي مُقَاطَعَتِهِ، وَالتَّحْذِيرِ مِنْهُ، وَعَلَامَتُهُ: «أَنَّهُ إِذَا رَأَى بِأَخِيهِ نِعْمَةً بُهِتَ، وَإِنْ رَأَى بِهِ عَثْرَةً شَمِتَ، وَدَلِيلُ مَا فِي قَلْبِهِ كَمِينٌ عَلَى وَجْهِهِ مُبِينٌ»(١٦)، وَفِي الِابْتِعَادِ عَنْهُ كِفَايَةٌ مِنْ شَرِّهِ، وَحِفْظٌ مِنْ خُبْثِ نَفْسِهِ، وَمِنْ أَقْوَالِ الْحُكَمَاءِ: «مَنْ ضَرَّ بِطَبْعِهِ فَلَا تَأْنَسْ بِقُرْبِهِ، فَإِنَّ قَلْبَ الْأَعْيَانِ صَعْبُ الْمَرَامِ»(١٧).

---

(١٣) أخرجه ابن حبان في روضة العقلاء (١٣٤)، والبيهقي في الزهد الكبير (٨٤٥)، وابن عساكر (٥٣/ ٢١٥-٢١٦).

(١٤) روضة العقلاء (١٣٦).

(١٥) أخرجه أبو الشيخ الأصبهاني في التوبيخ والتنبيه (٧٢)، وابن حبان في روضة العقلاء (١٣٦).

(١٦) الفاضل (٣١)، وروضة العقلاء (١٣٧).

(١٧) أدب الدنيا والدين (٣٣٩).

اللَّهُمَّ طَهِّرْ قُلُوبَنَا مِنَ الْغِلِّ وَالْبَغْضَاءِ، وَمِنَ الْحِقْدِ وَالْحَسَدِ وَالشَّحْنَاءِ، وَاجْعَلْنَا مِنْ عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ الطَّاهِرِينَ، وَلَا تُشْمِتْ بِنَا الْأَعْدَاءَ وَلَا الْحَاسِدِينَ، وَنَعُوذُ بِكَ اللَّهُمَّ مِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ.

وَأَقُولُ هَذَا الْقَوْلَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ، فَاسْتَغْفِرُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.

❊ ❊ ❊

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا، هُوَ الْحَكِيمُ فِي أَفْعَالِهِ، الْعَلِيمُ بِمَكْنُونَاتِ عِبَادِهِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَصْدَقُ الْعِبَادِ إِيمَانًا، وَأَكْثَرُهُمْ نَقَاءً، وَأَطْهَرُهُمْ سَرِيرَةً، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، وَالتَّابِعِينَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ-؛ فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تُخْفُونَ، وَمَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ، وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ فِي اللَّهِ: لَيْسَ مِنَ الْحَسَدِ أَنْ يَتَمَنَّى الْإِنْسَانُ مِثْلَ نِعْمَةِ أَخِيهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَمَنَّى زَوَالَهَا مِنْهُ، وَهَذَا مِنَ الْغِبْطَةِ(١٨)، وَالتَّنَافُسِ فِي الْخَيْرِ، الْمَأْمُورِ بِهِ شَرْعًا إِذَا كَانَ فِي أُمُورِ الدِّينِ، ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا

---

(١٨) قال البغوي -رحمه الله تعالى-: «الغبطة هي: أن يتمنى أن يكون له مثل ما لأخيه من غير أن يتمنى زوالها عن أخيه» شرح السنة (١/ ٢٩٩).

ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١].

وَالمُسَابَقَةُ وَالمُسَارَعَةُ تَقْتَضِي التَّنَافُسَ وَالتَّشْمِيرَ، وَلَكِنْ مِنْ غَيْرِ حَسَدٍ عَلَى عَمَلٍ صَالِحٍ أَوْ عِلْمٍ نَافِعٍ، وَذَلِكَ هُوَ الْغِبْطَةُ المَحْمُودَةُ.

وَالتَّنَافُسُ فِي أَمْرِ الدِّينِ وَالمُسَابَقَةُ فِي الْخَيْرَاتِ مِنْ أَعْظَمِ الْأُمُورِ الَّتِي تُقَرِّبُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٍ آتَاهُ اللهُ مَالًا، فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ، وَرَجُلٍ آتَاهُ اللهُ حِكْمَةً، فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه[19]. وَفِيهِمَا عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٍ آتَاهُ اللهُ القُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٍ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ**»[20].

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: تَرْكُ الْحَسَدِ يَجْعَلُ الْإِنْسَانَ فِي مَصَافِّ الْأَفَاضِلِ، وَضِمْنَ الْأَخْيَارِ، فَفِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قَالَ: «قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: **كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ، صَدُوقِ اللِّسَانِ**، قَالُوا: صَدُوقُ اللِّسَانِ نَعْرِفُهُ، فَمَا مَخْمُومُ الْقَلْبِ؟ قَالَ: **هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ، لَا إِثْمَ فِيهِ، وَلَا بَغْيَ، وَلَا غِلَّ، وَلَا حَسَدَ**»[21].

---

(١٩) أخرجه البخاري في العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة (٧٣)، ومسلم في صلاة المسافرين، باب من يقوم بالقرآن ويعلمه (٨١٦).

(٢٠) أخرجه البخاري في التوحيد، باب قول النبي ﷺ: «رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل يقول: لو أوتيت مثل ما أوتي هذا فعلت كما يفعل» (٧٥٢٩)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه، وفضل من تعلّم حكمة مِنْ فقه، أو غيره فعمل بها وعلمها (٨١٥).

(٢١) أخرجه ابن ماجه في الزهد، باب الورع والتقوى (٤٢١٦)، والخرائطي في مكارم الأخلاق (٢٣)، والطبراني في مسند الشاميين (١٢١٨)، وابن عساكر في تاريخه (٥٩/ ٤٥١)، =

بَلْ إِنَّ تَرْكَ الْحَسَدِ سَبَبٌ لِدُخُولِ الْجَنَّةِ وَلَوْ كَانَ عَمَلُ الْإِنْسَانِ قَلِيلًا، فَقَدْ قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه: «كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: **يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الْآنَ مِنْ هَذَا الفَجِّ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ**، قَالَ: فَطَلَعَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، تَنْطِفُ لِحْيَتُهُ مِنْ وَضُوئِهِ، قَدْ عَلَّقَ نَعْلَهُ فِي يَدِهِ الشِّمَالِ، فَسَلَّمَ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مِثْلَ ذَلِكَ، فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ مِثْلَ مَرَّتِهِ الْأُولَى، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّالِثُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مِثْلَ مَقَالَتِهِ أَيْضًا، فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ الْأُولَى، فَلَمَّا قَامَ النَّبِيُّ ﷺ تَبِعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: إِنِّي لَاحَيْتُ أَبِي فَأَقْسَمْتُ أَنْ لَا أَدْخُلَ عَلَيْهِ ثَلَاثًا، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُؤْوِيَنِي إِلَيْكَ حَتَّى تَنْقَضِيَ الثَّلَاثَةُ فَعَلْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ أَنَسٌ: فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ يُحَدِّثُ أَنَّهُ بَاتَ مَعَهُ ثَلَاثَ لَيالٍ، قَالَ: فَلَمْ يَرَهُ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ - أَي: اسْتَيْقَظَ- وَتَقَلَّبَ عَلَى فِرَاشِهِ ذَكَرَ اللهَ وَكَبَّرَ، حَتَّى يَقُومَ لِصَلَاةِ الْفَجْرِ. غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَقُولُ إِلَّا خَيْرًا، قَالَ: فَلَمَّا مَضَتِ الثَّلَاثُ لَيَالٍ وَكِدْتُ أَحْتَقِرُ عَمَلَهُ، قُلْتُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، إِنِّي لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِي غَضَبٌ وَلَا هَجْرٌ، وَلَكِنْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لَكَ ثَلَاثَ مِرَارٍ: **يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ**، فَطَلَعْتَ أَنْتَ الثَّلَاثَ مِرَارٍ، فَأَرَدْتُ أَنْ آوِيَ إِلَيْكَ لِأَنْظُرَ مَا عَمَلُكَ، فَأَقْتَدِيَ بِهِ، فَلَمْ أَرَكَ تَعْمَلُ كَثِيرَ عَمَلٍ، فَمَا الَّذِي بَلَغَ بِكَ مَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَ: مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ. قَالَ: فَانْصَرَفْتُ عَنْهُ، فَلَمَّا وَلَّيْتُ دَعَانِي، فَقَالَ: مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ، غَيْرَ أَنِّي لَا أَجِدُ فِي نَفْسِي عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ غِشًّا، وَلَا أَحْسُدُهُ عَلَى خَيْرٍ أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهُ. فَقَالَ

= وصححه المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٣٤٩)، والبوصيري في مصباح الزجاجة (٤/ ٢٤٠)، والألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، وقال: وهذا إسناد صحيح رجاله ثقات (٩٤٨).

عَبْدُ اللَّهِ: فَهَذِهِ الَّتِي بَلَغَتْ بِكَ، وَهِيَ الَّتِي لَا تُطَاقُ» أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ(٢٢).

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ -أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ- وَأَزِيلُوا الْبَغْضَاءَ مِنْ قُلُوبِكُمْ، وَارْفَعُوا أَسْبَابَ التَّحَاسُدِ فِيمَا بَيْنَكُمْ، وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ؛ تَنَالُوا رِضَاهُ وَجَنَّتَهُ.

ثُمَّ صَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ . . .

❁ ❁ ❁

---

(٢٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٦٩٤)، وفي المسند (١)، وعبد الرزاق (٢٠٥٥٩)، وأحمد والسياق له (٣/ ١٦٦)، وعبد بن حميد (١١٥٩)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٨٦٣)، والخرائطي في مساوئ الأخلاق (٢/ ٢٧٩)، والطبراني في مكارم الأخلاق (٨٦)، والبيهقي في الشعب (٦٦٠٥)، والبغوي في شرح السنة (٣٥٣٥)، والضياء المقدسي في المختارة (٢٦١٩)، قال المنذري في الترغيب والترهيب: رواه أحمد بإسناد على شرط البخاري ومسلم (٣/ ٣٤٨)، وساقه ابن كثير في التفسير بسنده، وقال: وهذا إسناد صحيح على شرط الصحيحين (٤/ ٣٣٩)، وساقه الألباني في مقدمة سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة في معرض رده على الشيخ إسماعيل الأنصاري، وقال: وإسناده صحيح على شرط الشيخين (١/ ٢٦).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فقول عبد الله بن عمرو له: «هذه التي بلغت بك وهي التي لا نطيق» يشير إلى خلوه وسلامته من جميع أنواع الحسد، وبهذا أثنى الله تعالى على الأنصار، فقال: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]؛ أي: مما أوتي إخوانهم المهاجرون، قال المفسرون: لا يجدون في صدورهم حاجة، أي: حسدًا وغيظًا مما أوتي المهاجرون، ثم قال بعضهم: من مال الفيء، وقيل: من الفضل والتقدم؛ فهم لا يجدون حاجة مما أوتوا من المال، ولا من الجاه، والحسد يقع على هذا. وكان بين الأوس والخزرج منافسة على الدين، فكان هؤلاء إذا فعلوا ما يفضلون به عند الله ورسوله أحب الآخرون أن يفعلوا نظير ذلك، فهو منافسة فيما يقربهم إلى الله كما قال: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]» مجموع الفتاوى (١٠/ ١١٩).



٢٩٠- العصبية الجاهلية

٢٧/ ٦/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: خَلَقَ اللهُ تَعَالَى آدَمَ عليه السلام مِنْ تُرَابٍ، وَأَنْسَلَ جَمِيعَ الْبَشَرِ مِنْهُ، وَهَذَا التُّرَابُ الَّذِي خُلِقَ مِنْهُ آدَمُ مُخْتَلِفٌ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ الْأَرْضِ فِي لَوْنِهَا وَطَبِيعَتِهَا، وَسُهُولَتِهَا وَصُعُوبَتِهَا، وَطَيِّبِهَا وَخَبِيثِهَا، فَكَانَ بَنُو آدَمَ عَلَى نَحْوِ الْأَرْضِ، فِيهِمُ الْأَبْيَضُ وَالْأَحْمَرُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَفِيهِمُ السَّهْلُ وَالْحَزْنُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَفِيهِمُ الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ؛ لَكِنَّ أَصْلَهُمْ وَاحِدٌ[1].

---

(١) كما في حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ، جَاءَ مِنْهُمُ الْأَحْمَرُ وَالْأَبْيَضُ** =

وَالْإِنْسَانُ بِطَبْعِهِ أَكْثَرُ مَيْلًا إِلَى مَنْ يُشَاكِلُهُ وَيُمَاثِلُهُ فِي لَوْنِهِ أَوْ لِسَانِهِ أَوْ عِرْقِهِ أَوْ قَبِيلَتِهِ أَوْ مَوْطِنِهِ، وَيَقْتَرِبُ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ، وَيَأْنَسُ بِهِ مَا لَا يَأْنَسُ بِسِوَاهُ.

لِأَجْلِ ذَلِكَ ظَهَرَتِ الْعَصَبِيَّاتُ فِي الْبَشَرِ لِلْعِرْقِ، أَوْ لِلْوَطَنِ، أَوْ لِلِّسَانِ، أَوْ لِلَّوْنِ، وَأَكْثَرُ حُرُوبِ الْبَشَرِ وَتَكَتُّلَاتِهِمْ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَبَعْدَهُ كَانَ مَبْنَاهَا عَلَى هَذَا الْأَسَاسِ الَّذِي لَا يُحِبُّه اللهُ تَعَالَى وَلَا يَرْضَاهُ، وَتَرْفُضُهُ شَرَائِعُهُ وَتَأْبَاهُ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ التَّعَصُّبَ لِلْعِرْقِ، أَوْ لِلْوَطَنِ، أَوْ لِلِّسَانِ، أَوْ لِلَّوْنِ سَبَبٌ لِإِقْصَاءِ الدِّيَانَةِ، وَتَعْطِيلِ الشَّرِيعَةِ، وَالِاسْتِكْبَارِ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَرَفْضِ الْخُضُوعِ لِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَالتَّكَبُّرِ عَلَى خَلْقِهِ.

وَمَا الَّذِي جَعَلَ إِبْلِيسَ يَهْبِطُ مِنْ أَعْلَى دَرَجَاتِ الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ تَعَالَى إِلَى أَسْفَلِ دَرَكَاتِ الِاسْتِكْبَارِ وَالْعِنَادِ، وَيَخْرُجُ مِنْ رِضَا اللَّهِ تَعَالَى إِلَى سَخَطِهِ عَلَيْهِ؛ إِلَّا اغْتِرَارُهُ بِنَفْسِهِ، وَعَصَبِيَّتُهُ لِأَصْلِهِ؟! ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٢، ١٣].

فَاخَرَ بِأَصْلِهِ، وَاسْتَكْبَرَ عَنْ عِبَادَةِ رَبِّهِ؛ فَعَاقَبَهُ اللهُ تَعَالَى بِالصَّغَارِ الدَّائِمِ، وَالْعَذَابِ الْخَالِدِ.

إِنَّ مِنْ عَدْلِ اللَّهِ ﷻ -وَهُوَ الْحَكَمُ الْعَدْلُ- أَنْ جَعَلَ حِسَابَ الْبَشَرِ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، وَلَا يُحَاسَبُونَ عَلَى أَجْنَاسِهِمْ وَأَلْوَانِهِمْ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ مِنْ كَسْبِهِمْ، فَقَدْ يَكُونُ السَّادَةُ وَالْكُبَرَاءُ فِي النَّارِ بِكُفْرِهِمْ وَاسْتِكْبَارِهِمْ، كَأَبِي جَهْلٍ

= وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالسَّهْلُ وَالحَزْنُ، وَالخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ» أخرجه أبو داود في السنة، باب في القدر (٤٦٩٣)، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة البقرة وقال: حسن صحيح (٢٩٩٥)، وأحمد (٤/ ٤٠٠)، وعبد بن حميد (٥٤٩)، وصححه ابن حبان (٦١٦٠).

وَأَبِي لهَبٍ، وَيَكُونُ الْعَبِيدُ وَالْإِمَاءُ فِي الْجَنَّةِ بِإِيمَانِهِمْ وَعَمَلِهِمُ الصَّالِحِ، كَبِلَالٍ وَيَاسِرٍ وَسُمَيَّةَ.

وَلمَّا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠] كَانَ الْجَوَابُ: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٠-٨٢].

وَلمَّا قَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨] كَانَتِ الْحُجَّةُ الدَّامِغَةُ: ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨].

إِنَّ كُلَّ فَخْرٍ بِغَيْرِ الْإِسْلَامِ فَهُوَ مَرْفُوضٌ، وَكُلَّ عَصَبِيَّةٍ لَيْسَتْ عَلَى دِينِ اللَّهِ تَعَالَى فَهِيَ مَذْمُومَةٌ؛ فَالْوَلَاءُ وَالْبَرَاءُ، وَالْحُبُّ وَالْبُغْضُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ وَفِي اللَّهِ، وَذَلِكَ أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ، وَلَا فَخْرَ إِلَّا بِالْإِسْلَامِ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصّلت: ٣٣].

وَهَذَا الِانْتِسَابُ لِلْإِسْلَامِ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ؛ لِأَنَّهُ انْتِسَابٌ إِلَى مَا يُحِبُّهُ اللهُ تَعَالَى وَيَرْضَاهُ، وَيَكُونُ سَبَبًا لِلْفَلَاحِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨].

وَقَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِأَنْ يَفْخَرَ الْمُسْلِمُ بِإِسْلَامِهِ، وَحَذَّرَهُ مِنِ افْتِخَارِهِ بِآبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ؛ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «... **مَنِ ادَّعَى دَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ فَهُوَ مِنْ جُثَى جَهَنَّمَ**»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى؟ قَالَ: «**وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى،**

تَدَاعُوا بِدَعْوَى اللَّهِ الَّذِي سَمَّاكُمُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ، عِبَادَ اللَّهِ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَصَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ خُزَيْمَةَ وَابْنُ حِبَّانَ[٢].

وَخَطَبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي النَّاسِ، فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ ﷻ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ، وَفَخْرَهَا بِالآبَاءِ: مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، لَيَدَعَنَّ رِجَالٌ فَخْرَهُمْ بِأَقْوَامٍ إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ، أَوْ لَيَكُونُنَّ

---

(٢) أخرجه من حديث الحارث الأشعري ﷺ: الترمذي في الأمثال، باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب. قال محمد بن إسماعيل: الحارث الأشعري له صحبه وله غير هذا الحديث» (٢٨٦٣)، والنسائي في الكبرى (١١٣٤٩)، وأحمد (٤/ ١٣٠)، وأبو يعلى (١٥٧١)، والبيهقي (٨/ ١٥٧)، وصححه ابن خزيمة (١٨٩٥)، وابن حبان (٦٢٣٣)، والحاكم وقال: على شرط الشيخين (١/ ٥٨٢)، وصححه ابن القيم في إعلام الموقعين (١/ ٢٣١)، وحسنه ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٩).

وأخرجه عبد الرزاق من حديث علي ﷺ موقوفًا (٥١٤١).

وأخرجه عبد الرزاق بلاغاً من حديث يحيى بن أبي كثير قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال ... فذكره (٢٠٧٠٩).

وقوله في الحديث: «فهو من جثى جهنم» الجثى جمع، واحده: جُثوة، وهي الشيء المجموع، قال طرفة:

ترى جثوتين من تراب عليهما ... صفائح صم من صفيح موصد

يصف قبرين، فكان معنى الحديث: أنه من جماعات جهنم، هذا بتخفيف الثاء، ومن شدّدها فإنه يريد الذين يجثون على الركب، واحدها: جاث، وجمعه: جثيّ بتشديد الياء، قال تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ [مريم: ٦٨] ذكر المعنيين أبو عبيد القاسم بن سلام في غريب الحديث، ثم قال عن المعنى الثاني: وهذا أحب إِلَيَّ من الأول. اهـ (٣/ ٢٠٦)، وجزم بالمعنى الثاني ابن الجوزي في غريب الحديث (١/ ١٣٨)، وذكر الزمخشري في الفائق المعنيين ولم يرجح (١/ ١٩٠).

وقال ابن عبد البر: جِثَاء جَهَنَّمَ، وغيْرُهُ يَرْوِيه: جُثَاء جهنم بالجيم، وذلك كله خطأ عند أهل العلم باللغة، وقد أنكره أبو عبيدة وغيره، وقال أبو عبيد: إنما هو من حثاء جهنم، وهو كما قال أبو عبيد. التمهيد لابن عبد البر (٢١/ ٢٨٠).

أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الجِعْلَانِ الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتَنَ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ(٣).

قَالَ الْقَارِي -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «شَبَّهَ الْمُفْتَخِرِينَ بِآبَائِهِمُ الَّذِينَ مَاتُوا فِي

---

(٣) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: أبو داود في الأدب، باب في التفاخر بالأحساب (٥١١٦)، والترمذي في المناقب، باب في فضائل الشام واليمن، وقال: هذا حديث حسن غريب (٣٩٥٥- ٣٩٥٦)، وأحمد (٢/ ٣٦١-٥٢٣)، والبيهقي (١٠/ ٢٣٢)، وصححه شيخ الإسلام في الاقتضاء (١/ ٧٣)، وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٦٧٣) برقم (٦٩٤٤).

وله شاهد ضعيف من حديث ابن عمر ﷺ، أخرجه الترمذي في التفسير، باب ومن سورة الحجرات، وقال: هذا حديث غريب (٣٢٧٠)، وعبد بن حميد (٧٩٥)، وصححه ابن حبان (٣٨٢٨).

وقوله عليه الصلاة والسلام في الحديث: «عُبِّيَة الجاهِلِيَّة» يجوز في عَيْنِهَا الكسر والضم، ومعناه: الكبر والفخر والنخوة.

قال الخطابي -رحمه الله تعالى- في غريب الحديث (١/ ٢٩٠): «العُبِّيَة: الكبر والنخوة، يريد بهذا القول ما كان عليه أهل الجاهلية من التفاخر بالأنساب والتباهي بها، وفيها لغة أخرى وهي العِبية بالكسر، وأصله مهموز من العبء وهو الحمل الثقيل، ولكن الهمزة قد تركت فيه كالبرية والذرية، قال الشنفرى:

ويقال: ألقى فلان علي عِباه، أي: ثقله، ومثله: ألقى عليه عبالته» اهـ.

وقال في اللسان (١/ ٥٧٤-٥٧٥): «العُبِّيَّة والعِبِّيَّة: الكبر والفخر، حكى اللِّحْيَانِيّ: هذه عُبِّيَّةُ قُرَيْش، وَعِبِّيَّةُ، ورجل فيه عُبِّيَّة وعِبِّيَّة، أَيْ: كِبْر وفخر، وعُبِّيَّةُ الْجَاهِلِيَّة: نَخْوَتُهَا، وفي الحديث: «إِنَّ اللهَ وَضَعَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ وَتَعَظُّمَهَا بآبائها» يعني: الكبر، بِضَمّ العين، وتُكْسَر، وهي فُعُّولَة أو فُعِّيلَة، فإن كانَ فُعُّولَة فَهِيَ مِنَ التَّعْبِيَة؛ لأَنَّ المُتَكَبِّر ذُو تَكَلُّف وتَعْبِيَة، خلافُ المُسْتَرْسِل عَلَى سَجِيَّتِهِ، وإنْ كَانَتْ فُعِّيلَة فَهِيَ مِنْ عُبَابِ المَاءِ، وهُوَ أَوَّلُهُ وارْتِفَاعُهُ» اهـ.

وقال العسكري: «وقد رواه بعضهم: عُمِّيَّة الجاهلية بالميم، وعلى هذا فَسَّرَهُ الخليل بن أحمد فقال: هِيَ الكبر والتَّعَظُّم، ورواه القُتَيْبِي: عِبِّيَّة الجاهلية، بكسر العين، وزعم أنهما لغتان: عُبِّيَّة وَعِبِّيَّة، بالضم والكسر، ويقال فيه: عُبِيَة، العين مضمومة والباء مشددة، وهذا هو الأشهر والأكثر. وفيه عُنْجُهِيَّة وجَبَرِيَّة: إذا كان فِيهِ تَكَبُّر وتَعَظُّم» تصحيفات المحدثين (١/ ٢٩١).

الْجَاهِلِيَّةِ بِالْجِعْلَانِ، وَآبَاءَهُمُ الْمُفْتَخَرَ بِهِمْ بِالْعَذِرَةِ، وَنَفْسَ افْتِخَارِهِمْ بِهِمْ بِالدَّفْعِ وَالدَّهْدَهَةِ بِالْأَنْفِ، وَالمَعْنَى: أَنَّ أَحَدَ الْأَمْرَيْنِ وَاقِعٌ الْبَتَّةَ: إِمَّا الِانْتِهَاءُ عَنِ الِافْتِخَارِ، أَوْ كَوْنُهُمْ أَذَلَّ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الجِعْلَانِ المَوْصُوفَةِ»[٤] اهـ.

وَالْفَخْرُ بِالْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ أَوْ بِالْوَطَنِ وَالتُّرَابِ يُقَوِّي العِزْوَةَ بِالْقَبِيلَةِ وَالْجِنْسِ حَتَّى تَحِلَّ مَحَلَّ الْعِزْوَةِ بِالدِّينِ، فَمَنْ وَقَعَ فِي ذَلِكَ عَامَلَ النَّاسَ بِحَسَبِ قَبَائِلِهِمْ وَأَجْنَاسِهِمْ، لَا بِدِينِهِمْ وَتَقْوَاهُمْ؛ فَكَانَ وَلَاؤُهُ وَبَرَاءُهُ، وَحُبُّهُ وَبُغْضُهُ لِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَالْعَصَبِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةُ مِنْ أَعْظَمِ مَدَاخِلِ الشَّيْطَانِ عَلَى قَلْبِ الْإِنْسَانِ، وَقَدْ يَرْدَى بِهَا صَالِحُونَ، وَيُضَلُّ بِهَا مُهْتَدُونَ .. كَيْفَ؟ وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ مِنْ خِيَارِ هَذِهِ الْأُمَّةِ: الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ! فَفِي إِحْدَى الْغَزَوَاتِ كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَاجْتَمَعَ قَوْمُ ذَا، وَقَوْمُ ذَا، وَقَالَ هَؤُلَاءِ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ! وَقَالَ هَؤُلَاءِ: يَا لَلْأَنْصَارِ! فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: «**دَعُوهَا، فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ**»، ثُمَّ قَالَ: «**أَلَا مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الجَاهِلِيَّةِ؟! أَلَا مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الجَاهِلِيَّةِ؟!**»[٥].

---

(٤) عون المعبود (١٤/ ١٧).

(٥) أخرجه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: البخاري في التفسير، باب قوله تعالى: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨] (٤٦٢٤)، ومسلم في البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا (٢٥٨٤)، وأحمد (٣/ ٣٣٨).
والكسع هو: ضرب الدّبر، وكان ذلك عظيمًا عند الأنصار رضي الله عنهم؛ فهذا هو سبب شدة غضب الأنصاريّ، وثوران الفتنة بينهم رضي الله عنهم.
قال في اللسان (٨/ ٣٠٩) مادة (كسع): «والكسع: أن تضرب بيدك أو برجلك بصدر قدمك على دبر إنسان أو شيء» اهـ.
وقال ابن الأثير في النهاية (٤/ ١٧٣): «هو ضرب الدبر»، ونقل الحافظ في الفتح =

قَالَ النَّوَوِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَأَمَّا تَسْمِيَتُهُ ذَلِكَ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَهُوَ كَرَاهَةٌ مِنْهُ لِذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ مِمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ الْجَاهِلِيَّةُ مِنَ التَّعَاضُدِ بِالْقَبَائِلِ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا وَمُتَعَلَّقَاتِهَا، وَكَانَتِ الْجَاهِلِيَّةُ تَأْخُذُ حُقُوقَهَا بِالْعَصَبَاتِ وَالْقَبَائِلِ، فَجَاءَ الْإِسْلَامُ بِإِبْطَالِ ذَلِكَ، وَفَصَّلَ الْقَضَايَا بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ، فَإِذَا اعْتَدَى إِنْسَانٌ عَلَى آخَرَ حَكَمَ الْقَاضِي بَيْنَهُمَا، وَأَلْزَمَهُ مُقْتَضَى عُدْوَانِهِ كَمَا تَقَرَّرَ مِنْ قَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ»(٦).

وَلَيْسَ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ مَحَبَّةُ الرَّجُلِ قَوْمَهُ، وَنُصْرَتُهُمْ فِي الْحَقِّ، وَبَذْلُ الْمُعْرُوفِ إِلَيْهِمْ، وَتَعَاهُدُهُمْ بِالهَدِيَّةِ، وَالصَّدَقَةُ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، بَلْ ذَلِكَ صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ، وَفَضْلٌ وَإِحْسَانٌ، وَلَكِنْ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ: أَنْ يُعِينَهُمْ عَلَى الظُّلْمِ، أَوْ يُفَاخِرَ بِهِمْ فِي غَيْرِ دِينِ اللَّهِ ﷺ، دَلِيلُ ذَلِكَ أَنَّ وَاثِلَةَ بْنَ الْأَسْقَعِ اللَّيْثِيَّ ﵁ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْعَصَبِيَّةِ فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْعَصَبِيَّةُ؟ قَالَ: **أَنْ تُعِينَ قَوْمَكَ عَلَى الظُّلْمِ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَفِي رِوَايَةٍ لِأَحْمَدَ أَنَّ وَاثِلَةَ قَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمِنَ الْعَصَبِيَّةِ أَنْ يُحِبَّ الرَّجُلُ قَوْمَهُ؟ قَالَ: **لَا، وَلَكِنَّ الْعَصَبِيَّةَ أَنْ يُعِينَ الرَّجُلُ قَوْمَهُ عَلَى الظُّلْمِ**»(٧).

= (٨/ ٦٥١) عن ابن التين قوله: «الكسع أن تضرب بيدك على دبر شيء أو برجلك، وقال القرطبي: أن تضرب عجز إنسان بقدمك، وقيل: الضرب بالسيف على المؤخر» اهـ. ونقل الحافظ أيضًا في الفتح (٨/ ٦٤٩) رواية الطبري وفيها «أن رجلًا من المهاجرين كسع رجلًا من الأنصار برجله وذلك عند أهل اليمن شديد..»، وذكر الحافظ أن المهاجري هو جهجاه ابن قيس، ويقال: ابن سعيد الغفاري، وكان مع عمر بن الخطاب يقود فرسه، والرجل الأنصاري هو سنان بن وبرة الجهني حليف الأنصار، وفي رواية عبد الرزاق عن معمر عن قتادة مرسلًا أن الأنصاري كان حليفًا لهم من جهينة، وأن المهاجري كان مِنْ غِفَار، وسماهما ابن إسحاق في المغازي عن شيوخه» اهـ من الفتح.

(٦) شرح النووي على مسلم (١٦/ ١٣٧).

(٧) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في العصبية (٥١١٩)، وابن ماجه في الفتن، باب =

وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ هَذِهِ الْخِصَالُ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَأَرَادَ إِحْيَاءَهَا فِي الْمُسْلِمِينَ بِتَحَزُّبٍ مَذْمُومٍ، أَوْ تَعَصُّبٍ مَمْقُوتٍ؛ فَيَجِبُ وَعْظُهُ وَكَفُّهُ، أَوْ تَأْدِيبُهُ وَرَدْعُهُ بِمَا يُزِيلُ أَدْرَانَ الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ صَدْرِهِ؛ لِئَلَّا يَتَمَادَى فِي عَصَبِيَّتِهِ، فَيَضُرَّ نَفْسَهُ وَغَيْرَهُ.

عَنْ عُتَيِّ بْنِ ضَمْرَةَ قَالَ: «رَأَيْتُ رَجُلًا تَعَزَّى عِنْدَ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ بِعَزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ، افْتَخَرَ بِأَبِيهِ، فَأَعَضَّهُ بِأَبِيهِ وَلَمْ يَكْنِهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ أُبَيٌّ ﷺ: أَمَا إِنِّي قَدْ أَرَى الَّذِي فِي أَنْفُسِكُمْ، إِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ إِلَّا ذَلِكَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: مَنْ **تَعَزَّى بِعَزَاءِ الجَاهِلِيَّةِ فَأَعِضُّوهُ وَلَا تَكْنُوا**» وَفِي رِوَايَةٍ: «أَنَّ رَجُلًا اعْتَزَى فَأَعَضَّهُ أُبَيٌّ بِهَنِ أَبِيهِ، فَقَالُوا: مَا كُنْتَ فَاحِشًا!! قَالَ: إِنَّا أُمِرْنَا بِذَلِكَ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ(٨).

= العصبية (٣٩٤٩)، وأحمد (٤/ ١٠٧)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٩٦)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٩٨) برقم (٢٣٦)، والبيهقي (١٠/ ٢٣٤).

(٨) أخرجه أحمد (٥/ ١٣٦) والرواية الثانية له أيضًا (٥/ ١٣٣)، والنسائي في الكبرى (١٠٨١٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٩٦٣)، وصححه ابن حبان (٣١٥٣).
وقوله: «مَنْ تَعَزَّى بِعَزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ» معناه: افتخر بهم، وانتسب إليهم بدل انْتِسَابِهِ للإسلام.
نقل أبو عبيد عن الكسائي قوله: «يعني: انتسب وانتمى، كقولهم: يا لفلان ويا لبني فلان، فقوله: «عَزَاء الجاهلية» الدعوى للقبائل، أن يقال: يَا لتميم، ويا لعامر، وأشباه ذلك» اهـ من غريب الحديث لابن سلام (١/ ٣٠١).
وقال ابن الأثير -رحمه الله تعالى-: «التعزي: الانتماء والانتساب إلى القوم، يقال: عزيت الشيء، وعزوته أعزيه، وأعزوه: إذا أسندْته إِلَى أَحَدٍ، والعزاء والعزوة اسم لدعوى الْمُسْتَغِيث، وهو أن يقول: يا لفلان، أو يا للأنصار، ويا للمهاجرين» اهـ من النهاية (٣/ ٢٣٣).
وقوله: «**فَأَعِضُّوهُ بِهَنِ أَبِيهِ وَلَا تَكْنُوا**» أي: قولوا له: أعضض بأير أبيك، ولا تكنوا عن الأير بالهن؛ تنكيلًا له وتأديبًا. ينظر: النهاية (٣/ ٢٥٢).
وذكر ابن الأثير رواية أخرى لم أقف عليها عند غيره وهي: «**مَنْ تَعَزَّى بِعَزَاءِ الجَاهِلِيَّة فَأَعِضْهُوهُ** -هكذا بهاء بين الضاد والواو- وقال: هكذا جاء في رواية، أي: اشتموه صَرِيحًا من العضيهة البهت» اهـ من النهاية (٣/ ٢٥٥).

وَاسْتَأْذَنَ رَجُلٌ عَلَى عُمَرَ ﷺ فَقَالَ: «اسْتَأْذِنُوا لِابْنِ الْأَخْيَارِ، فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: ائِذَنُوا لَهُ، فَلَمَّا دَخَلَ قَالَ لَهُ عُمَرُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ، قَالَ: فَجَعَلَ يَعُدُّ رِجَالًا مِنْ أَشْرَافِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: أَنْتَ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ؟ قَالَ: لَا، قَالَ عُمَرُ: ذَاكَ ابْنُ الْأَخْيَارِ، وَأَنْتَ ابْنُ الْأَشْرَارِ، إِنَّمَا تَعُدُّ عَلَيَّ رِجَالَ أَهْلِ النَّارِ» رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ، وَقَالَ: عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ(٩).

وَهَكَذَا أَدَّبَ الْفَارُوقُ وَأُبَيٌّ ﷺ مَنْ كَانَتْ فِيهِمَا لَوْثَاتٌ جَاهِلِيَّةٌ، وَبَقَايَا مِنْ أَدْرَانِهَا.

نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى صَلَاحَ الْقُلُوبِ، وَزَكَاءَ الْأَعْمَالِ، وَصِدْقَ الِانْتِمَاءِ لَهُ وَلِدِينِهِ، وَمُوَالَاةَ أَوْلِيَائِهِ، وَمُعَادَاةَ أَعْدَائِهِ..

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٤، ١٢٥].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ...



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالِمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ

(٩) أخرجه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي (٢/ ٣٧٨).

الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الْأَمِينُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ . .

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ؛ فَإِنَّ التَّفَاضُلَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَكُونُ إِلَّا بِالتَّقْوَى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه: «**انْظُرْ؛ فَإِنَّكَ لَيْسَ بِخَيْرٍ مِنْ أَحْمَرَ وَلَا أَسْوَدَ إِلَّا أَنْ تَفْضُلَهُ بِتَقْوَى**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(١٠).

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَسُنَّةُ رَسُولِهِ ﷺ يَدْعُوانِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى اجْتِمَاعِ الْكَلِمَةِ، وَتَوْحِيدِ الْأُمَّةِ، وَيُحَذِّرَانِهَا مِنَ التَّفَرُّقِ وَالِاخْتِلَافِ ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وَقَدْ حَصَرَ اللهُ تَعَالَى الْأُخُوَّةَ فِي الإِيمَانِ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، فَهِيَ الرَّابِطَةُ الْقَوِيَّةُ، وَالْحَبْلُ الْمَتِينُ بَيْنَ عِبَادِ اللَّهِ تَعَالَى.

بِهَا تُلْغَى كُلُّ الرَّوَابِطِ وَالْعَصَبِيَّاتِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَالتَّحَزُّبَاتِ الْمَذْمُومَةِ، كَمَا فَعَلَ

(١٠) أخرجه أحمد (٥/ ١٥٨)، ولم أقف عليه عند غيره، وفي سنده أبو هلال الراسبي ضعيف، وهو كذلك منقطع؛ إذ يرويه بكر المزني عن أبي ذر ولم يسمع منه، ولذلك قال الحافظان الهيثمي والمنذري: «رواه أحمد ورجاله ثقات إلا أن بكر بن عبد الله المزني لم يسمع من أبي ذر» انظر: مجمع الزوائد (٨/ ٤٨)، والترغيب والترهيب (٣/ ٣٧٥) برقم (٤٤٩٣)، لكن للحديث شواهد تقويه منها:

١- حديث أبي نضرة المنذر بن مالك العبدي عن أحد الصحابة في ذكر خطبة النبي ﷺ بمنى وسط أيام التشريق، وجاء فيها: «**أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى**» أخرجه أحمد (٥/ ٤١١) وسنده صحيح.

٢- حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه عند أحمد (٤/ ١٤٥-١٤٦).

٣- حديث أبي هريرة رضي الله عنه المخرج في حاشية (٣).

الصَّحَابَةُ ﷺ؛ إِذْ قَدَّمُوا فِي الْوِلَايَةِ إِخْوَانَهُمُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى آبَائِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَعَشِيرَتِهِمْ فَمَدَحَهُمُ اللهُ تَعَالَى، وَأَثْنَى بِهِ عَلَيْهِمْ، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿أُولَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]، فَمَنْ قَطَعَ هَذِهِ الرَّابِطَةَ الإِيمَانِيَّةَ، وَخَالَفَ مُقْتَضَاهَا فَدَعَا إِلَى عَصَبِيَّةٍ، أَوْ غَضِبَ لَها، أَوْ نَصَرَهَا، أَوْ قَاتَلَ عَلَيْهَا فَفِيهِ لَوْثَةٌ جَاهِلِيَّةٌ، وَيُخْشَى عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ الْخَاتِمَةِ، وَشُؤْمِ الْعَاقِبَةِ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ، وَفَارَقَ الجَمَاعَةَ فَمَاتَ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً، وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ، يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ، أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبَةٍ، أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً فَقُتِلَ، فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ** . .» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[11].

لَاحِظُوا -أَيُّهَا الإِخْوَةُ- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا حَذَّرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الخُرُوجِ مِنَ الطَّاعَةِ، وَمُفَارَقَةِ الْجَمَاعَةِ حَذَّرَهُمْ كَذَلِكَ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ، وَجَعَلَ ذَلِكَ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ مِنْ أَهَمِّ أَسْبَابِ التَّفَرُّقِ وَالِاخْتِلَافِ، وَإِشْعَالِ الْفِتَنِ

(١١) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: مسلم في الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة (١٨٤٨)، والنسائي في تحريم الدم، باب التغليظ فيمن قاتل تحت راية عمية (٧/ ١٢٣)، وابن ماجه مختصرًا في الفتن، باب العصبية (٣٩٤٨)، وأحمد (٢/ ٢٩٦) واللفظ لمسلم.
وقوله عليه الصلاة والسلام: «تحت راية عمِّيَّة» أي: غَيْر مستبينة ولا واضحة، نقل ابن الجوزي عن الإمام أحمد قوله: «هذا الأمر الأعمى كالعصبية لا يُسْتَبَانُ وَجْهُهُ، يقال: مات فلان ميتة عمية، أي: ميتة فتنة» اهـ من الغريب لابن الجوزي (٢/ ١٢٧- ١٢٨).
وقال القاضي عياض: قوله: «مَنْ قَاتَلَ تحت راية عمية يعصب لعصبة، أو يدعو لعصبة أو ينصر عصبة» كذا جاء في رواية الكافة عن مسلم في حديث شيبان بن فروخ: بالعين والصاد المهملتين، كما جاء في سائر الأحاديث بعد، ووقع هنا عند العذري في الحرفين الأولين: غضبة: بالغين والضاد المعجمتين وكسر الباء وهاء الإضافة، والأول أوجه وأصوب» اهـ من مشارق الأنوار (٢/ ٩٥).
وقال ابن الأثير: «قيل: هو فعيلة من العماء: الضلالة، كالقتال في العصبية والأهواء، وحكى بعضهم فيها ضم العين» اهـ من النهاية (٣/ ٣٠٤).

وَالِاحْتِرَابِ: إِحْيَاءَ الْعَصَبِيَّاتِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَالْقَضَاءَ عَلَى الأُخُوَّةِ الإِيمَانِيَّةِ.

إِنَّ الْعَصَبِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ قَدْ تَكُونُ تَعَصُّبًا لِحِزْبٍ، أَوْ طَائِفَةٍ، أَوْ مَذْهَبٍ، أَوْ قَبِيلَةٍ، أَوْ بَلَدٍ، أَوْ عَشِيرَةٍ؛ حَتَّى يُقَدِّمَ الْمُتَعَصِّبُ وَلَاءَهُ لِمَنْ تَعَصَّبَ لَهُ عَلَى وَلَائِهِ لِلَّهِ تَعَالَى وَلِدِينِهِ، وَيُرْضِيهِ مِنْ دُونِ رِضَا اللَّهِ تَعَالَى.

وَفِي النُّظُمِ السِّيَاسِيَّةِ الْحَدِيثَةِ حَلَّتِ الْأَحْزَابُ وَالتَّكَتُّلَاتُ الْمُخْتَلِفَةُ فِيمَا يُعْرَفُ بِالْمَذَاهِبِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ مَحَلَّ الْقَبَائِلِ الْقَدِيمَةِ، فَصَارَ الْمُنْتَمِي لِحِزْبٍ سِيَاسِيٍّ يُوالِي فِيهِ، وَيُعَادِي فِيهِ، وَيَتَعَصَّبُ لَهُ أَكْثَرَ مِنْ عَصَبِيَّتِهِ لِلَّهِ تَعَالَى وَلِدِينِهِ إِنْ كَانَ مُسْلِمًا.

وَلَمْ يَسْلَمْ مِنْ هَذَا الدَّاءِ الْوَبِيلِ كَثِيرٌ مِنْ أَتْبَاعِ الْجَمَاعَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ؛ فَتَرَى وَاحِدَهُمْ مَعَ دِينِهِ وَاسْتِقَامَتِهِ، وَتَعْظِيمِهِ شَرِيعَةَ رَبِّهِ يَتَعَصَّبُ لِجَمَاعَتِهِ، فَيَرْضَى عَنْ خَطَئِهِمْ، وَلَا يَسْمَحُ بِنَقْدِهِمْ، وَلَوْ كَانَ نَقْدًا فِي الْحَقِّ، صَادِرًا مِنْ أَنْصَحِ النَّاسِ وَأَعْلَمِهِمْ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ نَاقِدَهُمْ لَيْسَ مِنْهُمْ!

بَلْ سَقَطَ فِي حَمِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَعَصُّبَاتِهَا الْمَذْمُومَةِ كَثِيرٌ مِمَّنْ يُنَادُونَ بِالْعَوْدَةِ إِلَى مَنْهَجِ سَلَفِ الْأُمَّةِ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يُحَارِبُونَ الْحِزْبِيَّةَ؛ فَإِذَا هُمْ فِي الْعَصَبِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ يَرْتَكِسُونَ، وَفِي الْحِزْبِيَّةِ الْمَذْمُومَةِ يَرْتَمِسُونَ؛ فَاخْتَرَعُوا لَهُمْ مَذْهَبًا شَاذًّا يَقُومُ عَلَى السَّبِّ وَالشَّتْمِ، وَالْوَقِيعَةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَاحْتَكَرُوا مَذْهَبَ السَّلَفِ الصَّالِحِ لَهُمْ وَحْدَهُمْ، وَأَخْرَجُوا مِنْهُ كُلَّ مُخَالِفِيهِمْ، بَلْ رَمَوْا بِالْبِدْعَةِ مَنْ لَا يُوَافِقُهُمْ فِي غُلُوِّهِمْ وَضَلَالِهِمْ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ!

ثُمَّ لَمَّا شَبِعُوا مِنْ فَرْيِ أَعْرَاضِ الْمُسْلِمِينَ، وَالْوُلُوغِ فِي لُحُومِ الْعُلَمَاءِ وَالدُّعَاةِ وَالْمُصْلِحِينَ عَادُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِمَنْهَجِهِمُ الْفَاسِدِ؛ فَصَارَ بَعْضُهُمْ يَرْمِي بَعْضًا بِالْبِدْعَةِ وَالْفِسْقِ، وَأَحْيَانًا بِالْكُفْرِ عِيَاذًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ، وَجَعَلُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِنْ

إِخْوَانِهِمُ الصَّالِحِينَ شَمَاتَةً لِأَعْدَاءِ المِلَّةِ وَالدِّينِ مِنَ الزَّنَادِقَةِ وَالْفَسَقَةِ وَالظَّالِمِينَ، وَيَظُنُّونَ أَنَّهُمْ بِغُلُوِّهِمُ المَقِيتِ، وَتَنَطُّعِهِمُ الشَّدِيدِ، وَالطَّعْنِ فِي عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ قَدْ حَارَبُوا الْبِدْعَةَ، وَهُمْ أَهْلُ الْبِدْعَةِ!!

يَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «فَمَنْ تَعَصَّبَ لِأَهْلِ بَلْدَتِهِ أَوْ مَذْهَبِهِ أَوْ طَرِيقَتِهِ أَوْ قَرَابَتِهِ أَوْ لِأَصْدِقَائِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ كَانَتْ فِيهِ شُعْبَةٌ مِنَ الجَاهِلِيَّةِ، حَتَّى يَكُونَ المُؤْمِنُونَ كَمَا أَمَرَهُمُ اللهُ تَعَالَى مُعْتَصِمِينَ بِحَبْلِهِ وَكِتَابِهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ؛ فَإِنَّ كِتَابَهُمْ وَاحِدٌ، وَدِينَهُمْ وَاحِدٌ، وَنَبِيَّهُمْ وَاحِدٌ، وَرَبَّهُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ»(١٢).

وَالمُسْلِمُونَ فِي هَذَا الْوَقْتِ الْعَصِيبِ مُحْتَاجُونَ إِلَى مَنْ يَجْمَعُهُمْ، لَا إِلَى مَنْ يُفَرِّقُهُمْ! وَإِلَى مَنْ يُوَحِّدُ كَلِمَتَهُمْ، لَا إِلَى مَنْ يُشَتِّتُ شَمْلَهُمْ! وَمَنْ ضَاقَ صَدْرُهُ عَلَى إِخْوَانِهِ ضَاقَ عِلْمُهُ، وَقَصُرَ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى الحَقِّ، فَتَخَطَّفَتْهُ الْأَهْوَاءُ، وَتَمَكَّنَتْ مِنْهُ الشُّبُهَاتُ؛ فَلَجَأَ إِلَى الْعَصَبِيَّةِ وَالْحَمِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ الَّتِي وَصَفَ اللهُ تَعَالَى بِهَا أَهْلَ الْكُفْرِ، وَبَرَّأَ مِنْهَا المُؤْمِنِينَ الَّذِينَ انْشَرَحَتْ صُدُورُهُمْ لِإِخْوَانِهِمْ؛ فَلَا يَحْمِلُونَ فِي قُلُوبِهِمْ غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٦].

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

أَلَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ ..

---

(١٢) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٢٢-٤٢٣).



٢٩١- الكبر والخيلاء

١٤١٧/١/١١هـ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فَيَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: الْأَخْلَاقُ الْفَاضِلَةُ، وَالسُّلُوكُ الطَّيِّبُ، وَتَرْبِيَةُ الْإِنْسَانِ عَلَى حُسْنِ الْمُعَامَلَةِ مَعَ الْآخَرِينَ، كُلُّ ذَلِكَ وَنَحْوُهُ اسْتَغْرَقَ فِي شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى نُصُوصًا كَثِيرَةً؛ فَالْإِسْلَامُ دِينُ الْأَدَبِ وَحُسْنِ الْمُعَامَلَةِ، وَعَدَمِ التَّفْرِيقِ بَيْنَ النَّاسِ إِلَّا بِالتَّقْوَى.

وَإِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْأَمْرَاضِ الَّتِي تَفْتِكُ بِالْآدَابِ وَالْأَخْلَاقِ الْحَمِيدَةِ، وَتَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ وَالْهُدَى: دَاءَ الْكِبْرِ وَالْخُيَلَاءِ، الَّذِي مَا دَخَلَ قَلْبًا إِلَّا أَفْسَدَهُ، وَلَا لَزِمَ عَبْدًا إِلَّا أَهْلَكَهُ، يُطْبَعُ عَلَى قَلْبِ صَاحِبِهِ، وَيُصْرَفُ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَيَسْتَوْجِبُ النَّارَ ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]،

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥]، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣].

بِالْكِبْرِ حُرِمَ إِبْلِيسُ الْجَنَّةَ حِينَمَا تَكَبَّرَ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِالسُّجُودِ لِآدَمَ، وَبِالْكِبْرِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى كَانَ فِرْعَوْنُ مُخَلَّدًا فِي النَّارِ، وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى الِانْقِيَادِ لِلرُّسُلِ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، كَمَا هُوَ حَالُ كُفَّارِ مَكَّةَ، وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ تَعَالَى فَقَدْ أَتَى كَبِيرَةً مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ، يَسْتَحِقُّ بِهَا الْعَذَابَ، وَهُوَ تَحْتَ مَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَيَكْفِي فِي الْكِبْرِ ذَمًّا وَإِثْمًا أَنَّهُ مُنَازَعَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى فِيمَا هُوَ مِنْ خَصَائِصِهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**الْعِزُّ إِزَارُهُ، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ، فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(١)].

وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ «**أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(٢)].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**تَحَاجَّتِ الجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالمُتَكَبِّرِينَ، وَالمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الجَنَّةُ: فَمَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ وَغِرَّتُهُمْ؟ قَالَ اللهُ لِلْجَنَّةِ: إِنَّمَا أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا، فَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَمْتَلِئُ حَتَّى يَضَعَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى**

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب، باب تحريم الكبر (٢٦٢٠).

(٢) أخرجه من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أبو داود في الأدب، باب في التفاخر بالأحساب (٥١١٦)، والترمذي في المناقب، وقال: حسن صحيح (٣٩٥٦)، وأحمد (٢/ ٥٢٣)، والبيهقي (١٠/ ٢٣٢)، وصححه ابن تيمية في الاقتضاء (٧٣)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٧٨٧).

رِجْلَهُ، تَقُولُ: قَطْ قَطْ قَطْ، فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ، وَيُزْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَلَا يَظْلِمُ اللهُ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَأَمَّا الجَنَّةُ فَإِنَّ اللهَ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا» أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ(٣).

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: إِنَّ لِلْكِبْرِ دَوَاعِيَ يُوجَدُ بِوُجُودِهَا فِي الْغَالِبِ؛ فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَكَبَّرُ بِحَسَبِهِ، وَيُفَاخِرُ بِنَسَبِهِ، فَيَقُودُهُ ذَلِكَ إِلَى التَّرَفُّعِ عَنْ مُجَالَسَةِ النَّاسِ وَمُخَالَطَتِهِمْ، وَقَدْ عَرَّفَهُ اللهُ تَعَالَى نَسَبَهُ: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٨]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١]. وَلَمَّا عَيَّرَ أَبُو ذَرٍّ ﷺ رَجُلًا بِأُمِّهِ قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ ...»(٤).

وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ يَفْتَخِرُونَ بِآبَائِهِمُ الَّذِينَ مَاتُوا، إِنَّمَا هُمْ فَحْمُ جَهَنَّمَ، أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الجِعْلَانِ الَّذِي يُدَهْدِهُ الخِرَاءَ بِأَنْفِهِ، إِنَّ اللهَ تَعَالَى أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِالآبَاءِ، إِنَّمَا هُوَ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، النَّاسُ كُلُّهُمْ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ خُلِقَ مِنْ تُرَابٍ» أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ(٥).

وَفِي النَّاسِ مَنْ يَكُونُ كِبْرُهُ بِسَبَبِ مَالِهِ؛ فَيَرَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ لَا حَقَّ لِأَحَدٍ فِي

---

(٣) أخرجه البخاري في التفسير، باب قوله: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [سورة ق: ٣٠] (٤٨٥٠)، ومسلم واللفظ له، في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٤٦).

(٤) أخرجه البخاري في الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك (٣٠)، ومسلم في الإيمان والنذور، باب إطعام المملوك مما يأكل (١٦٦١).

(٥) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في التفاخر بالأحساب (٥١١٦)، والترمذي في المناقب، وقال: حديث حسن (٣٩٥٥)، وساقه عقبه بسياق مختصر وقال: حسن صحيح (٣٩٥٦)، وأحمد (٢/ ٥٢٣)، والبيهقي (١٠/ ٢٣٢)، وصححه ابن تيمية في الاقتضاء (٧٣)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٧٨٧).

هَذَا المَالِ وَلَوْ كَانَ خَالِقَهُ ﷻ، وَيَأْنَفُ مِنْ مُجَالَسَةِ الْفُقَرَاءِ أَوْ مُخَالَطَتِهِمْ، وَمَا عَلِمَ هَذَا وَأَمْثَالُهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخبَرَ بِأَنَّ فُقَرَاءَ المُسْلِمِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَائِهِمْ بِخَمْسِمِائَةِ عَامٍ(٦)، ثُمَّ إِنَّ الَّذِي أَعْطَاهُ المَالَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَسْلُبَهُ إِيَّاهُ.

وَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَكَبَّرُ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ تَعَالَى بِجَاهِهِ وَمَنْصِبِهِ، فَيُؤْذِي مَنْ هُمْ تَحْتَ يَدِهِ. فَلَا يُعْطِي النَّاسَ حُقُوقَهُمْ، وَلَا يُنْجِزُ أَعْمَالَهُمْ؛ لِأَنَّهُ يَرَى أَنَّهُمْ لَا يَسْتَحِقُّونَ ذَلِكَ. وَاللهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي رَفَعَهُ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَضَعَهُ، وَقَدْ دَعَا النَّبِيُّ ﷺ عَلَى مِثْلِ هَذَا؛ فَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ ﵂ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ، فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ، فَارْفُقْ بِهِ**»(٧).

وَمِنْ أَقْبَحِ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ سَبَبَ كِبْرِهِ عِبَادَتُهُ، فَلَا يَزَالُ يَتَكَبَّرُ عَلَى النَّاسِ؛ لِأَنَّهُ يَرَى أَنَّهُ أَصْلَحُ مِنْهُمْ، وَيَرَى أَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ قَدْ هَلَكُوا، وَأَنَّهُ النَّاجِي الْوَحِيدُ فِيهِمْ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِذَا سَمِعْتُمُ الرَّجُلَ يَقُولُ: هَلَكَ النَّاسُ، فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ**»(٨).

---

(٦) كما في حديث أبي سعيد الخدري ﵁ عند: الترمذي في الزهد، باب ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم، وقال: حديث حسن غريب من هذا الوجه (٢٣٥١).

وحديث أبي هريرة ﵁ عند: الترمذي في الكتاب والباب السابق ذكرهما، وقال: حسن صحيح (٢٣٥٣).

(٧) أخرجه مسلم في الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية، والنهي عن إدخال المشقة عليهم (١٨٢٨).

(٨) أخرجه من حديث أبي هريرة ﵁: مسلم في البر والصلة والآداب، باب النهي عن قول: هلك الناس (٢٦٢٣)، وأبو داود في الأدب، باب لا يقال خبثت نفسي (٤٩٨٣).

ونقل أبو داود عن الإمام مالك قوله: «إذا قال ذلك تحزنًا لما يرى في الناس -يعني في =

وَلَمَّا ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى جُمْلَةً مِنْ أَوْصَافِ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ خَتَمَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، قَالَتْ عَائِشَةُ ﵂: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هُوَ الَّذِي يَسْرِقُ وَيَزْنِي وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ، وَهُوَ

= أمر دينهم- فلا أرى به بأسًا، وإذا قال ذلك عجبًا بنفسه وتصاغرًا للناس فهو المكروه الذي نهي عنه» اهـ.

وقال الحميدي: «قال بعض الرواة: لا أدري «أهلكَهم» بالنصب، أو «أهلكُهم» بالرفع. كذا قال، والرفع أشهر، أي: أشدهم هلاكًا، وذلك إذا قال على سبيل الإزراء عليهم بالاحتقار لهم وتفضيل نفسه عليهم؛ لأنه لا يدري سرائر الله في خلقه. وهكذا كان بعض علمائنا يقول، والله أعلم بما أراد رسول الله ﷺ» الجمع بين الصحيحين (٣/ ٢٨٧).

وقال الخطابي: «تأويل هذا على وجهين:

أحدهما: أن يكون ذلك في أصحاب الوعيد، ومن يرى رأي الغلاة منهم في الخلود على الكبيرة والإياس من عفو الله، والقنوط من رحمته، يقول: فمن رأى هذا الرأي كان أشد هلاكًا وأعظم وزرًا ممن قارف الخطيئة ثم لم ييأس من الرحمة.

والوجه الآخر: أن يكون ذلك في الرجل يولع بذكر الناس، وإحصاء عيوبهم، وعد مساوئهم؛ فهو لا يزال يقول: هلك الناس، وفسدت نِيَّاتُهم، وقلت أماناتهم، ويذهب بنفسه عجبًا، ويرى لها على الناس فضلًا، يقول: فهذا بما يناله في ذلك من الإثم أشدهم هلاكًا وأعظمهم وزرًا» اهـ غريب الحديث (١/ ٥٣٦-٥٣٧).

وقال ابن عبد البر: «هذا الحديث معناه لا أعلم خلافًا فيه بين أهل العلم: أن الرجل يقول ذلك القول احتقارًا للناس، وازدراء بهم، وإعجابًا بنفسه. وأما إذا قال ذلك تأسفًا وتحزنًا وخوفًا عليهم؛ لقبح ما يرى من أعمالهم، فليس ممن عني بهذا الحديث. والله أعلم» الاستذكار (٨/ ٥٤٩).

وقال أيضًا: «والفرق بين الأمرين أن يكون في الوجه الأول راضيًا عن نفسه، معجبًا بها، حاسدًا لمن فوقه، محتقرًا لمن دونه. ويكون في الوجه الثاني ماقتًا لنفسه، موبخًا لها، غير راض عنها، روينا عن أبي الدرداء -﵁- أنه قال: لن يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس كلهم في ذات الله، ثم يعود إلى نفسه فيكون لها أشد مقتًا» التمهيد (٢١/ ٢٤٢).

وينظر للاستزادة: شرح السنة (١٣/ ١٤٤)، وجامع الأصول (١١/ ٧٤١)، ومشارق الأنوار (٢/ ٢٦٨)، وكشف المشكل لابن الجوزي (٣/ ٥٦٠)، وشرح النووي على مسلم (١٦/ ١٧٥).

يَخَافُ اللهَ؟ قَالَ: «**لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُ الَّذِي يُصَلِّي وَيَصُومُ وَيَتَصَدَّقُ وَهُوَ يَخَافُ اللهَ ﷻ**»(٩).

وَيَكُونُ الْعِلْمُ سَبَبًا لِلْكِبْرِ، مَعَ أَنَّ الْعِلْمَ يَدْعُو لِلتَّوَاضُعِ، فَيَسْتَشْعِرُ الْمُتَكَبِّرُ بِعِلْمِهِ كَمَالَ عِلْمِهِ، وَيَسْتَعْظِمُ نَفْسَهُ، وَيَحْقِرُ النَّاسَ وَيَسْتَجْهِلُهُمْ، لَا يَعْرِفُ حَقَّ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْهُ، وَلَا يَقْبَلُ الْحَقَّ مِمَّنْ هُوَ دُونَهُ، وَلَا يَبْذُلُ لِلنَّاسِ عِلْمَهُ، وَهَذَا هُوَ الْبَلَاءُ الَّذِي يُورِدُ الْمَهَالِكَ.

كَمْ مِنْ أَشْخَاصٍ ظَنُّوا أَنَّهُمْ بَلَغُوا الْغَايَةَ فِي الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ، فَغَمَطُوا النَّاسَ حُقُوقَهُمْ، وَوَقَعُوا فِي أَعْرَاضِ الصَّالِحِينَ وَالْمُصْلِحِينَ مِنْهُمْ، فَكَالُوا لَهُمُ التُّهَمَ فِي النِّيَّاتِ وَالْمَقَاصِدِ، وَقَذَفُوهُمْ بِقَبِيحِ الْعِبَارَاتِ، وَشَنِيعِ الْأَلْفَاظِ، ثُمَّ لَمْ يَسُدُّوا مَسَدَّهُمْ.

إِنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْعُلَمَاءِ وَطُلَّابِ الْعِلْمِ أَنْ يَخْفِضُوا جَنَاحَهُمْ لِلنَّاسِ، فَيُعَلِّمُوهُمْ

---

(٩) أخرجه الترمذي في التفسير، باب سورة المؤمنون (٣١٥٧)، وابن ماجه في الزهد، باب التوقي على العمل (٤١٩٨)، وأحمد (٦/ ١٥٩)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢/ ٤٦٣)، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة (١٦٢).

فائدة: قال الألباني: «والسر في خوف المؤمنين أن لا تقبل منهم عبادتهم، ليس هو خشيتهم أن لا يوفيهم الله أجورهم، فإن هذا خلاف وعد الله إياهم في مثل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ [النساء: ١٧٣]، بل إنه ليزيدهم عليها كما قال: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ [فاطر: ٣٠]، والله تعالى لا يخلف وعده كما قال في كتابه، وإنما السر أن القبول متعلق بالقيام بالعبادة كما أمر الله ﷻ، وهم لا يستطيعون الجزم بأنهم قاموا بها على مراد الله، بل يظنون أنهم قصروا في ذلك، ولهذا فهم يخافون أن لا تقبل منهم. فليتأمل المؤمن هذا؛ عسى أن يزدادَ حرصًا على إحسان العبادة والإتيان بها كما أمر الله، وذلك بالإخلاص فيها له، واتباع نبيه ﷺ في هديه فيها. وذلك معنى قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]» سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٣٠٦).

وَيُفْتُوهُمْ، وَيَقْبَلُوا الْحَقَّ مِمَّنْ سِوَاهُمْ، وَلَوْ كَانَ أَصْغَرَ سِنًّا، وَأَقَلَّ عِلْمًا وَشَأْنًا؛ فَالْحَقُّ لَا يُعْرَفُ بِالرِّجَالِ، وَإِنَّمَا الرِّجَالُ يُعْرَفُونَ بِالْحَقِّ.

كَمَا يَجِبُ عَلَى أَهْلِ الثَّرَاءِ وَالْجَاهِ وَالْمَنَاصِبِ أَنْ يَتَوَاضَعُوا لِلنَّاسِ، فَيَقْضُوا حَوَائِجَهُمْ، وَيُنْفِقُوا عَلَى ضُعَفَائِهِمْ. أَمَّا أَنْ يُغْلِقُوا الْأَبْوَابَ دُونَهُمْ، وَيَمْنَعُوهُمْ حُقُوقَ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَمْوَالِهِمْ، فَذَلِكَ مِمَّا يُوَلِّدُ الْأَحْقَادَ، وَيُذْكِي الْعَدَاوَاتِ، وَيَسْتَوْجِبُ الْعُقُوبَاتِ.

وَمَنْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ كِبْرًا وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يُوَطِّنَ نَفْسَهُ عَلَى التَّوَاضُعِ وَعَدَمِ التَّرَفُّعِ؛ فَإِنَّ التَّوَاضُعَ يُتَعَلَّمُ كَمَا يُتَعَلَّمُ الْعِلْمُ؛ وَذَلِكَ بِأَسَالِيبَ كَثِيرَةٍ؛ مِنْ إِجَابَةِ دَعْوَةِ الْفُقَرَاءِ، وَحَمْلِ مَتَاعِ الضُّعَفَاءِ، وَقَضَاءِ حَوَائِجِ الْأَهْلِ بِنَفْسِهِ، وَمُخَالَطَةِ الْمَسَاكِينِ، وَبَذْلِ الْمَالِ وَالْجَاهِ لِلْمُسْتَحِقِّينَ، قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه: «لَا يَنْقُصُ الرَّجُلَ الْكَامِلَ مِنْ كَمَالِهِ مَا حَمَلَ مِنْ شَيْءٍ إِلَى عِيَالِهِ»(١٠).

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: إِنَّ الْمُتَكَبِّرِينَ يُعَامَلُونَ فِي الْآخِرَةِ بِاحْتِقَارٍ وَإِذْلَالٍ؛ جَزَاءَ تَكَبُّرِهِمْ فِي الدُّنْيَا، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ الرِّجَالِ، يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَيُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَسَ، تَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ، يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ، طِينَةِ الْخَبَالِ**» أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ(١١)، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ عَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: «**يَخْرُجُ عُنُقٌ مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَهُ عَيْنَانِ تُبْصِرَانِ، وَأُذُنَانِ تَسْمَعَانِ، وَلِسَانٌ يَنْطِقُ، يَقُولُ: إِنِّي وُكِّلْتُ بِثَلَاثَةٍ: بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وَبِكُلِّ مَنِ ادَّعَى مَعَ**

---

(١٠) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٥٥).

(١١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع، باب (٤٧) وحسنه (٢٤٩٢)، وأحمد (٢/ ١٧٩)، والحميدي (٥٩٨)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٨٠٤٠).

اللَّهِ إِلهًا آخَرَ، وَبِالْمُصَوِّرِينَ» أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ(١٢).

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ . . .

❁ ❁ ❁

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الْأَمِينُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ، وَمَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ وَاقْتَفَى أَثَرَهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَقَدْ يَصِلُ الْكِبْرُ بِالْإِنْسَانِ إِلَى مُوَافَقَةِ الشَّيْطَانِ فِي الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ بِالشِّمَالِ، وَقَدْ أَبْصَرَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ، فَقَالَ: «**كُلْ بِيَمِينِكَ**»، قَالَ: لَا أَسْتَطِيعُ، قَالَ: «**لَا اسْتَطَعْتَ**»، مَا مَنَعَهُ إِلَّا الْكِبْرُ، قَالَ: فَمَا رَفَعَهَا إِلَى فِيهِ. أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ(١٣).

وَمِنْ أَعْظَمِ مَدَاخِلِ الْكِبْرِ عَلَى الْإِنْسَانِ: التَّمَيُّزُ بِاللِّبَاسِ، وَالْإِسْرَافُ فِيهِ، وَلِذَا

---

(١٢) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: الترمذي في صفة جهنم، باب ما جاء في صفة النار، وقال: حسن صحيح غريب (٢٤٧٤)، وأحمد (٢/ ٣٣٦)، والبيهقي في الشعب (٦٣١٧)، وأورده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة وقال: وإسناده صحيح على شرط الشيخين (٥١٢).

(١٣) أخرجه من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه: مسلم في الأشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما (٢٠٢١).

حَذَّرَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ لِبَاسِ الشُّهْرَةِ؛ لِأَنَّهُ مَدْخَلٌ مِنْ مَدَاخِلِ الْكِبْرِ، كَمَا فِي حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: «**مَنْ لَبِسَ ثَوْبَ شُهْرَةٍ أَلْبَسَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَوْبًا مِثْلَهُ، ثُمَّ تُلَهَّبُ فِيهِ النَّارُ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(١٤)، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي حُلَّةٍ تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ، مُرَجِّلٌ رَأْسَهُ، يَخْتَالُ فِي مِشْيَتِهِ، إِذْ خَسَفَ اللهُ بِهِ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِي الْأَرْضِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٥).

وَمِمَّا يَدْخُلُ فِي الْكِبْرِ: إِسْبَالُ الثِّيَابِ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**لَا يَنْظُرُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ بَطَرًا**»(١٦).

قَالَ الْعُلَمَاءُ: هَذَا الْحَدِيثُ فِيمَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلَاءَ، أَمَّا مَنْ لَمْ يَقْصِدْ الْخُيَلَاءَ فَفِيهِ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَا أَسْفَلَ الْكَعْبَيْنِ مِنَ الْإِزَارِ فَفِي النَّارِ**» أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ(١٧)، وَلَمْ يُقَيِّدْ فِي هَذَا الْحَدِيثِ الْوَعِيدَ بِالْخُيَلَاءِ، بَلْ أَطْلَقَهُ فِي جَمِيعِ مَنْ أَسْبَلَ ثَوْبَهُ، سَوَاءٌ قَصَدَ الْخُيَلَاءَ أَمْ لَمْ يَقْصِدْهَا(١٨)؛ وَلِذَا جَاءَ فِي

---

(١٤) أخرجه أبو داود في اللباس، باب في لبس الشهرة (٤٠٢٩)، وابن ماجه في اللباس، باب من لبس شهرة من الثياب (٣٦٠٦)، وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٨٣)، والألباني في صحيح الجامع (٦٥٢٦)، ورجح أبو حاتم وقفه كما في العلل (١٤٧١).

(١٥) أخرجه البخاري في اللباس، باب من جر ثوبه من الخيلاء (٥٧٨٩)، ومسلم في اللباس والزينة، باب تحريم التبختر في المشي مع إعجابه بثيابه (٢٠٨٨).

(١٦) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في اللباس، باب من جر ثوبه من الخيلاء (٥٧٨٨)، ومسلم في اللباس والزينة، باب تحريم جر الثوب خيلاء (٢٠٨٧).

(١٧) أخرجه البخاري في اللباس، باب من جر ثوبه من الخيلاء (٥٧٨٧).

(١٨) قال الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله تعالى-: «إسبال الإزار إذا قصد به الخيلاء فعقوبته أن لا ينظر الله تعالى إليه يوم القيامة، ولا يكلمه، ولا يزكيه، وله عذاب أليم.

وأما إذا لم يقصد به الخيلاء فعقوبته: أن يعذب ما نزل من الكعبين بالنار؛ لأن النبي ﷺ قال: «**ثَلَاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يوْمَ القِيَامَةِ، ولا ينظُرُ إليهِمْ، ولا يُزَكِّيهِمْ، ولهم عَذَابٌ أَلِيمٌ: المُسْبِلُ، وَالمَنَّانُ، وَالمنفق سِلْعَتَهُ بالحلِف الكَاذِبِ**»، وقال ﷺ: «**مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلَاءَ لَمْ** =

حَدِيثٍ آخَرَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِزْرَةُ الْمُؤْمِنِ إِلَى نِصْفِ السَّاقِ، وَلَا حَرَجَ -أَوْ قَالَ: لَا جُنَاحَ- عَلَيْهِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَعْبَيْنِ، وَمَا كَانَ أَسْفَلَ مِنَ ذلك فَهُوَ فِي النَّارِ، وَمَنْ جَرَّ إِزَارَهُ بَطَرًا لَمْ يَنْظُرِ اللهُ إِلَيْهِ يوم القِيَامَةِ» أَخْرَجَهُ مَالِكٌ وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ(١٩).

= يَنْظُرِ اللهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» فهذا فيمن جر ثوبه خيلاء.

وأما من لم يقصد الخيلاء ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «مَا أَسْفَلَ مِنَ الْكَعْبَيْنِ مِنَ الإِزَارِ فَفِي النَّارِ». ولم يقيد ذلك بالخيلاء، ولا يصح أن يقيد بها بناء على الحديث الذي قبله؛ لأن أبا سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِزْرَةُ المؤمِنِ إلى نِصْفِ السَّاقِ ولا حَرَج -أو قال: لا جناح- عليه فما بيْنَهُ وبَيْنَ الكعْبَيْنِ، وما كان أسْفَل مِنْ ذلك فَهُوَ فِي النَّارِ، ومَنْ جَرَّ إِزَارَهُ بَطرًا لم ينظرِ اللهُ إليهِ يَوْمَ القيامَةِ» رواه مالك، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان في صحيحه؛ ولأن العملين مختلفان، والعقوبتين مختلفتان، ومتى اختلف الحكم والسبب امتنع حمل المطلق على المقيد، لما يلزم على ذلك من التناقض.

وأما من احتج علينا بحديث أبي بكر ﷺ فنقول له: ليس لك حجة فيه، من وجهين:

الوجه الأول: أن أبا بكر ﷺ قال: «إِنَّ أَحَدَ شقي ثوبي يسترخي، إلا أن أتعاهد ذلك منه..» فهو ﷺ لم يرخ ثوبه اختيارًا منه، بل كان ذلك يسترخي، ومع ذلك فهو يتعاهده، والذين يسبلون ويزعمون أنهم لم يقصدوا الخيلاء يرخون ثيابهم عن قصد، فنقول لهم: إن قصدتم إنزال ثيابكم إلى أسفل من الكعبين بدون قصد الخيلاء عُذِّبْتم على ما نزل فقط بالنار، وإن جررتم ثيابكم خيلاء عذبتم بما هو أعظم من ذلكم، لا يكلمكم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليكم، ولا يزكيكم، ولكم عذاب أليم.

الوجه الثاني: أن أبا بكر ﷺ زكاه النبي ﷺ، وشهد له أنه ليس ممن يصنع خيلاء، فهل نال أحد من هؤلاء تلك التزكية والشهادة؟ ولكن الشيطان يفتح لبعض الناس اتباع المتشابه من نصوص الكتاب والسنة؛ لِيُبَرِّر لهم ما كانوا يعملون، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، نسأل الله لنا الهداية والعافية» مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (١٢/ ٣٠٨-٣٠٩).

(١٩) أخرجه من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ: مالك (٢/ ٩١٤)، وأحمد (٣/ ٦)، وأبو داود في اللباس، باب في قدر موضع الإزار (٤٠٩٣)، وابن ماجه في اللباس، باب موضع الإزار أين هو (٣٥٧٣)، وصححه ابن حبان (٥٤٤٦)، والنووي فيما نقله عنه المناوي في فيض القدير (١/ ٤١٨)، والألباني في صحيح الجامع (٩٢١).

وَأَمَّا مَنِ احْتَجَّ بِحَدِيثِ أَبِي بَكْرٍ مِنْ أَنَّهُ شَكَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ اسْتِرْخَاءَ إِزَارِهِ، فَقَالَ: «**إِنَّكَ لَسْتَ تَصْنَعُ ذَلِكَ خُيَلَاءَ**»[٢٠]، فَذَلِكَ مِنْ تَلْبِيسِ الشَّيْطَانِ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّ إِزَارَ أَبِي بَكْرٍ ؓ كَانَ يَسْتَرْخِي مِنْ غَيْرِ اخْتِيَارِهِ وَهُوَ يَتَعَاهَدُهُ بِالرَّفْعِ، أَمَّا هَؤُلَاءِ الْمُسْبِلُونَ فَقَدْ أَرْخَوْا ثِيَابَهُمْ بِاخْتِيَارِهِمْ، بَلْ إِنَّ الثَّوْبَ لَوْ عَلَا عَلَى الْكَعْبَيْنِ لَمَا لَبِسُوهُ حَتَّى يَنْزِلَ عَنِ الْكَعْبَيْنِ.

فَيَا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: اتَّقُوا اللهَ تَعَالَى فِي أَنْفُسِكُمْ، وَارْفَعُوا أَلْبِسَتَكُمْ عَنِ الْكَعْبَيْنِ؛ فَإِنَّهُ أَتْقَى لِرَبِّكُمْ، وَأَنْقَى لِثِيَابِكُمْ، وَمَنْ أَبَى ذَلِكَ فَلْيَضَعْ عَلَى رِجْلِهِ جَمْرَةً وَلْيَنْظُرْ هَلْ يَصْبِرُ عَلَيْهَا؟ فَكَيْفَ سَيَصْبِرُ عَلَى نَارِ جَهَنَّمَ الَّتِي سَتَشْوِي مَا أَسْفَلَ مِنَ الْكَعْبَيْنِ مِنَ الْإِزَارِ؟!

وَيَعْظُمُ الْإِثْمُ وَيَكْبُرُ حِينَمَا يُسْتَهْزَأُ بِهَذِهِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ، وَيُسْخَرُ مِمَّنْ يُطَبِّقُهَا، وَمَنِ اسْتَهْزَأَ بِرَفْعِ اللِّبَاسِ عَنِ الْكَعْبَيْنِ، فَقَدْ أَتَى جُرْمًا عَظِيمًا، فَإِنْ كَانَ اسْتِهْزَاؤُهُ بِذَاتِ السُّنَّةِ فَقَدْ خَرَجَ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَإِنْ كَانَ اسْتِهْزَاؤُهُ بِالشَّخْصِ نَفْسِهِ فَقَدْ أَتَى كَبِيرَةً مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: يَجِبُ الْإِنْكَارُ عَلَى الْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُسْبِلِينَ مَهْمَا كَانُوا، وَتَأَمَّلُوا هَذَا الْإِنْكَارَ عَلَى الْمُسْبِلِينَ مِنَ الْفَارُوقِ ؓ وَهُوَ مَطْعُونٌ يَنْتَظِرُ الْمَوْتَ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ؓ قَالَ: «دَخَلَ شَابٌّ عَلَى عُمَرَ، فَجَعَلَ الشَّابُّ يُثْنِي عَلَيْهِ، قَالَ: فَرَآهُ عُمَرُ يَجُرُّ إِزَارَهُ، قَالَ: فَقَالَ لَهُ: يَا ابْنَ أَخِي، ارْفَعْ إِزَارَكَ؛ فَإِنَّهُ أَتْقَى لِرَبِّكَ، وَأَنْقَى لِثَوْبِكَ. فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ يَقُولُ: يَا عَجَبًا لِعُمَرَ! إِنْ رَأَى حَقَّ اللَّهِ عَلَيْهِ فَلَمْ يَمْنَعْهُ مَا هُوَ فِيهِ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ»[٢١].

---

(٢٠) أخرجه من حديث ابن عمر ؓ: البخاري في المناقب، باب قول النبي ﷺ: «**لو كنت متخذًا خليلًا**» (٣٦٦٥).

(٢١) أخرجه ابن أبي شيبة (٥/ ١٦٦)، وابن شبة في أخبار المدينة (١٦٠١)، والبلاذري في =

وَرَأى مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ المُهَلَّبَ بْنَ أَبِي صُفْرَةَ يَتَبَخْتَرُ فِي جُبَّةِ خَزٍّ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، إِنَّ هَذِهِ مِشْيَةٌ يُبْغِضُهَا اللهُ وَرَسُولُهُ، فَقَالَ لَهُ المُهَلَّبُ: أَمَا تَعْرِفُنِي؟ فَقَالَ: بَلَى أَعْرِفُكَ، أَوَّلُكَ نُطْفَةٌ مَذِرَةٌ، وَآخِرُكَ جِيفَةٌ قَذِرَةٌ، وَأَنْتَ بَيْنَ ذَلِكَ تَحْمِلُ الْعَذِرَةَ. فَتَرَكَ المُهَلَّبُ مِشْيَتَهُ تِلْكَ(٢٢).

فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَتَوَاضَعُوا فِيمَا بَيْنَكُمْ .. وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا ..



= أنساب الأشراف (٣/ ٤٠٩).

وورد أيضًا عن علي رضي الله عنه أنه أنكر على مسبل وهو خارج من المسجد، كما في المطالب العالية (١٣٣٩) وعزاه لإسحاق وعبد بن حميد.

(٢٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٨٤)، والخطيب البغدادي في الزهد والرقائق (٢٨)، وابن عساكر (٥٦/ ٤٢٧)، وابن الجوزي في المنتظم (٧/ ٢٧٣).

وأخطأ الغزالي في الإحياء فجعل المنكر على المهلب مطرف بن عبد الله بن الشخير (٣/ ٣٤٠).

٢٩٢- اختلاط النساء بالرجال (١) الحكم والأدلة

١٧/ ١١/ ١٤٢٧هـ

الحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيمِ الْخَبِيرِ؛ شَرَعَ لِعِبَادِهِ مِنَ الدِّينِ أَحْسَنَهُ، وَاخْتَارَ لَهُمْ مِنَ الشَّرَائِعِ أَكْمَلَهَا، فَأَكْمَلَ لَهُمْ دِينَهُم، وَأَتَمَّ عَلَيْهِم نِعْمَتَهُ، وَرَضِيَ لَهُمُ الإِسْلَامَ دِينًا، نَحْمَدُهُ عَلَى مَا شَرَعَ وَأَوْجَبَ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَعْطَى وَأَنْعَمَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ خَلَقَ فَأَتْقَنَ الخَلْقَ، وَحَكَمَ فَأَحْسَنَ الحُكْمَ؛ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠] ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَنْصَحُ الخَلْقِ للخَلْقِ، وَأَتْقَاهُم لِلَّهِ تَعَالَى، لَا خَيْرَ إِلَّا دَلَّنَا عَلَيْهِ وَأَمَرَنَا بِهِ، وَلَا شَرَّ إِلَّا حَذَّرَنَا مِنْهُ وَنَهَانَا عَنْهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ أَسْرَعِ هَذِهِ الأُمَّةِ اسْتِجَابَةً للأَوَامِرِ الرَّبَّانِيَّةِ، وَأَشَدِّهِم الْتِزَامًا بِالأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُم بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَأَطِيعُوهُ، وَاعْمَلُوا فِي دُنْيَاكُم مَا يَكُونُ زَادًا لَكُمْ فِي أُخْرَاكُم، وَاعْلَمُوا أَنَّ الدُّنْيَا إِلَى زَوَالٍ، وَأَنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ، وَأَنَّ المَوْتَ حَقٌّ، وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا، وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي القُبُورِ؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١].

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ دَلَائِلِ صِدْقِ إِيمَانِ الْعَبْدِ وَسَلَامَةِ قَلْبِهِ لِلَّهِ تَعَالَى: الِاسْتِسْلَامُ لِأَمْرِهِ سُبْحَانَهُ فِي الأُمُورِ كُلِّهَا، وَتَعْظِيمُ نُصُوصِ الشَّرِيعَةِ، وَالوُقُوفُ عِنْدَهَا، وَتَقْدِيمُهَا عَلَى أَقْوَالِ الرِّجَالِ مَهْمَا كَانُوا؛ ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ

وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥١ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥١، ٥٢].

وَإِنَّمَا تَقَعُ الرِّدَّةُ وَالضَّلَالُ، وَيَتَأَصَّلُ الزَّيْغُ وَالنِّفَاقُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ إِذَا عَارَضَ شَرْعَ اللَّهِ تَعَالَى؛ تَقْلِيدًا لِغَيْرِهِ، أَوْ لِرَأْيٍ أَحْدَثَهُ؛ مُتَّبِعًا فِيهِ هَوَاهُ، مُعْرِضًا عَنْ شَرْعِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ؛ ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وَمَعَ عَظِيمِ الْأَسَى، وَشَدِيدِ الْأَسَفِ، فَإِنَّ الإِعْلَامَ الْمُعَاصِرَ فِي أَكْثَرِ فَضَائِيَّاتِهِ وَإِذَاعَاتِهِ، وَصُحُفِهِ وَمَجَلَّاتِهِ، يُرَبِّي الْمُتَلَقِّينَ عَنْهُ عَلَى التَّمَرُّدِ عَلَى أَوَامِرِ اللَّهِ تَعَالَى وَانْتِهَاكِ حُرُمَاتِهِ، وَالِاجْتِرَاءِ عَلَى شَرِيعَتِهِ، فِي كَثِيرٍ مِنَ الْقَضَايَا الَّتِي يُلْقِيهَا عَلَى النَّاسِ مِنْ سِيَاسِيَّةٍ وَاقْتِصَادِيَّةٍ، وَاجْتِمَاعِيَّةٍ وَثَقَافِيَّةٍ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ الْحَدِيثُ عَنِ الْمَرْأَةِ وَقَضَايَاهَا.

لَقَدِ اعْتَادَ الْمُتَلَقُّونَ عَنِ الإِعْلَامِ وَبِشَكْلٍ يَوْمِيٍّ، بَلْ وَفِي كُلِّ سَاعَةٍ وَلَحْظَةٍ، اعْتَادُوا عَلَى مُشَاهَدَةِ سُفُورِ النِّسَاءِ، وَظُهُورِهِنَّ بِأَبْهَى حُلَّةٍ، وَأَجْمَلِ زِينَةٍ، مُتَكَشِّفَاتٍ مُبْتَسِمَاتٍ، مُخْتَلِطَاتٍ بِالرِّجَالِ، تَجْلِسُ الْمَرْأَةُ بِجِوَارِ الرَّجُلِ، وَتُمَازِحُهُ وَتُضَاحِكُهُ أَمَامَ مَلَايِينِ الْمُشَاهِدِينَ وَالْمُشَاهِدَاتِ، وَلَا هِيَ قَرِيبَتُهُ، وَلَا هُوَ مَحْرَمٌ لَهَا، وَلَيْسَ بَيْنَهُمَا رِبَاطٌ إِلَّا رِبَاطَ الإِعْلَامِ وَالشَّيْطَانِ، وَلَا يَكَادُ يَخْلُو بَرْنَامَجٌ أَوْ فَقْرَةٌ مِنْ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ فِي الأَخْبَارِ وَالرِّيَاضَةِ، وَالْحِوَارِ وَالسِّيَاسَةِ، وَالأَزْيَاءِ وَالطَّبْخِ، بَلْ حَتَّى بَرَامِجُ الأَطْفَالِ لَا بُدَّ فِيهَا مِنْ فَتًى وَفَتَاةٍ، وَهَذِهِ الصُّورَةُ الْمُتَكَرِّرَةُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ تُهَوِّنُ هَذَا الْمُنْكَرَ الْعَظِيمَ فِي نُفُوسِ الْمُشَاهِدِينَ، وَتُحَوِّلُهُ مِنْ مَعْصِيَةٍ وَعَيْبٍ إِلَى لَا شَيْءَ، وَتِلْكَ وَاللَّهِ مِنَ الْفِتَنِ الَّتِي يُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا؛ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ.

وَاعْتِيَادُ النَّاسِ عَلَى هَذِهِ المَشَاهِدِ الْآثِمَةِ يَجْعَلُ إِنْكَارَهُم لَهَا، وَانْصِرَافَهُم عَنْهَا ضَعِيفًا جِدًّا، بَلْ لَرُبَّما أَنْكَرَ أَكْثَرُهُمْ عَلَى مَنْ يُنْكِرُهَا وَيُنْكِرُ مُشَاهَدَتَهَا، فَانْقَلَبَتْ مِنْ كَوْنِهَا مُنْكَرًا وَبَاطِلًا، إِلَى مَعْرُوفٍ وَحَقٍّ لَا يَجُوزُ أَنْ يُجَادِلَ فِيهِ أَحَدٌ!!

وَهَذَا التَّهْوِينُ لِلْمُنْكَرِ بِالْفِعْلِ وَالصُّورَةِ الَّذِي يَتَكَرَّرُ فِي كُلِّ سَاعَةٍ وَلَحْظَةٍ، يُصَاحِبُهُ تَسْوِيغٌ لَهُ بِالْكَلِمَةِ وَالمَقَالَةِ؛ فَيَنْبَرِي أَجْهَلُ النَّاسِ بِالشَّرِيعَةِ، وَأَضْعَفُ الْخَلْقِ دِيَانَةً لِمُنَاقَشَةِ مَسَائِلِ الْحِجَابِ وَالسُّفُورِ، وَالْخَلْوَةِ وَالِاخْتِلَاطِ، وَسَفَرِ المَرْأَةِ بِلَا مَحْرَمٍ، وَلَيْسَ نِقَاشُهُمْ عِلْمِيًّا مَوْضُوعِيًّا لِإِحْقَاقِ حَقٍّ، وَإِبْطَالِ بَاطِلٍ، وَإِنَّمَا هُوَ نَسْفٌ لِلشَّرِيعَةِ، وَإِبْطَالٌ لِلْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، وَإِلْغَاءٌ لِمَا سَارَتْ عَلَيْهِ الأُمَّةُ المُسْلِمَةُ فِي قُرُونِهَا السَّالِفَةِ، وَإِحْلَالٌ لِلْقَوَانِينِ وَالْعَادَاتِ الغَرْبِيَّةِ مَحَلَّ شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي التَّعْظِيمِ وَالطَّاعَةِ وَالِامْتِثَالِ، بِاسْمِ الِانْفِتَاحِ وَالرُّقِيِّ وَالتَّقَدُّمِ.

وَمِنْ آثَارِ هَذَا التَّجْيِيشِ الْإِعْلَامِيِّ لِلْبَاطِلِ، وَنَشْرِ تِلْكَ الرَّذَائِلِ عَلَى أَوْسَعِ نِطَاقٍ، نَرَى تَغَيُّرًا مُسْتَمِرًّا فِي كَثِيرٍ مِنْ بُيُوتِ المُسْلِمِينَ، يَتَجَلَّى فِي مَظَاهِرَ عِدَّةٍ، وَأَخلَاقٍ بَدِيلَةٍ، لَمْ يَكُنِ المُسْلِمُونَ يَعْرِفُونَهَا قَبْلَ هَذَا الْغَزْوِ الإِعْلَامِيِّ، مِنَ التَّسَاهُلِ بِالْحِجَابِ، وَسَفَرِ الْفَتَاةِ لِلدِّرَاسَةِ بِلَا مَحْرَمٍ، وَمُزَاحَمَةِ المَرْأَةِ لِلرِّجَالِ فِي الْعَمَلِ، وَاخْتِلَاطِهَا بِهِم فِي كَثِيرٍ مِنَ المَجَالَاتِ وَالأَعْمَالِ، بِلَا خَجَلٍ وَلَا حَيَاءٍ، وَأَهْلُ الْفَسَادِ يُوَسِّعُونَ دَائِرَةَ الْإِفْسَادِ؛ لِيَجْتَاحَ الأُمَّةَ بِأَكْمَلِهَا، وَيَأْتِيَ عَلَى الْبُيُوتِ وَالأُسَرِ كُلِّهَا.

وَإِذَا لَمْ يَسْعَ المُسْلِمُونَ لإِيقَافِ هَذِهِ الأَمْرَاضِ الَّتِي تَفْتِكُ بِالمُجْتَمَعَاتِ، وَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى أَيْدِي دُعَاةِ الرَّذِيلَةِ وَنَاشِرِي الْفَسَادِ، فَإِنَّهُ سَيَأْتِي الْيَوْمُ الَّذِي يَفْقِدُ فِيهِ الرَّجُلُ سُلْطَانَهُ عَلَى نِسَائِهِ وَبَنَاتِهِ، فَيَخْرُجْنَ مَتَى أَرَدْنَ، وَيُصَاحِبْنَ مَنْ شِئْنَ، وَيَفْعَلْنَ مَا يَحْلُو لَهُنَّ، كَمَا وَقَعَ فِي كَثِيرٍ مِنْ بِلَادِ المُسْلِمِينَ الَّتِي غَزَاهَا شَيَاطِينُ

الإِنْسِ بِأَفْكَارِهِم، وَدَمَّرُوهَا بِمَشْرُوعَاتِهِمُ التَّغْرِيبِيَّةِ التَّخْرِيبِيَّةِ، وَحِينَهَا لَا يَنْفَعُ نَدَمٌ وَلَا بُكَاءٌ عَلَى عِفَّةٍ فُقِدَتْ، وَقَدْ كَانَتْ مِنْ قَبْلُ تَسْتَصْرِخُ أَهْلَ الْغَيْرَةِ وَلَا مُجِيبَ لَهَا، وَنُعِيذُ بِاللَّهِ تَعَالَى بِلَادَنَا وَبِلَادَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَحِلَّ بِهَا ذَلِكَ.

إِنَّ الخَطَأَ خَطَأٌ وَلَوْ كَثُرَ الْوَاقِعُونَ فِيهِ، وَإِنَّ الْمُنْكَرَ لَا يَنْقَلِبُ إِلَى مَعْرُوفٍ بِمُجَرَّدِ انْتِشَارِهِ، وَهَكَذَا الْبَاطِلُ يَبْقَى بَاطِلًا وَلَوْ زَيَّنَهُ الْمُزَوِّرُونَ بِزُخْرُفِ الْقَوْلِ، وَرَوَّجُوهُ بِالدِّعَايَةِ، وَالوَاجِبُ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ إِنْكَارُ الْمُنْكَرِ، وَلَوْ كَانَ الْمُتَجَافِي عَنْهُ غَرِيبًا فِي النَّاسِ، كَمَا يَجِبُ عَلَيْهِم إِحْقَاقُ الحَقِّ وَلَوْ أَعْرَضَ عَنْهُ أَكْثَرُ النَّاسِ. فَانْتِشَارُ الْبَاطِلِ وَانْتِشَاءُ أَهْلِهِ، وَغُرْبَةُ الحَقِّ وَضَعْفُ حَمَلَتِهِ لَا يُسَوِّغُ السُّكُوتَ وَالتَّخَاذُلَ، وَإِلَّا غَرِقَ الْمُجْتَمَعُ كُلُّهُ فِي حَمْأَةِ الْبَاطِلِ، وَطُوفَانِ الرَّذَائِلِ.

وَاخْتِلَاطُ المَرْأَةِ بِالرِّجَالِ هِيَ القَضِيَّةُ الأَسَاسُ الَّتِي يَسْعَى الْمُفْسِدُونَ لِنَشْرِهَا فِي الْمُجْتَمَعِ، وَيَسْتَمِيتُونَ فِي إِقْنَاعِ النَّاسِ بِهَا، وَيُوجِدُونَ لَهَا الْمُسَوِّغَاتِ، وَيَجْعَلُونَهَا مِنَ الضَّرُورَاتِ، وَيَعْزُونَ كُلَّ بَلَاءٍ فِي الأُمَّةِ وَتَخَلُّفٍ وَانْحِطَاطٍ إِلَى مَا سَادَ مِنْ عَزْلِ الْمَرْأَةِ عَنِ الرَّجُلِ فِي التَّعْلِيمِ وَالْعَمَلِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَيَعْلَمُ الْمُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أَنَّهُم إِنْ نَجَحُوا فِي نَشْرِ الِاخْتِلَاطِ، وَقَهْرِ النَّاسِ عَلَيْهِ بِقُوَّةِ الْقَرَارَاتِ الدَّوْلِيَّةِ، وَالتَّخْوِيفِ بِالدُّوَلِ الْمُسْتَكْبِرَةِ، وَاسْتِغْلَالِ نُفُوذِهِم فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَالْتِفَافِهِمْ عَلَى أَصْحَابِ الْقَرَارَاتِ وَالتَّوْصِيَاتِ؛ مِمَّا يَجْعَلُهُمْ قَادِرِينَ عَلَى إِلْجَاءِ النَّاسِ إِلَيْهِ عَمَلِيًّا فِي الْعَمَلِ وَالدِّرَاسَةِ، وَفَرْضِهِ بِقُوَّةِ النِّظَامِ - وَهُوَ مَا يَسْعَونَ إِلَيْهِ بِجِدٍّ وَقُوَّةٍ - فَإِنَّ مَا بَعْدَ الِاخْتِلَاطِ مِنَ الْإِفْسَادِ يَكُونُ أَهْوَنَ، وَالنِّسَاءُ إِلَيْهِ أَسْرَعَ كَالْخَلْوَةِ الْمُحَرَّمَةِ، وَسَفَرِ الْمَرْأَةِ بِلَا مَحْرَمٍ، وَسُفُورِهَا وَتَبَرُّجِهَا، وَعَرْضِ زِينَتِهَا، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الإِثْمِ وَالضَّلَالِ، وَانْتِهَاكِ حُرُمَاتِ الْكَبِيرِ الْمُتْعَالِ.

وَلَنْ يُوقِفَ ذَلِكَ إِلَّا إِنْكَارُ النَّاسِ عَلَيْهِمْ، وَرَفْضُهُمْ لِمَشْرُوعَاتِهِمُ التَّغْرِيبِيَّةِ، وَكَشْفُ خُطَطِهِمْ وَمَآرِبِهِمْ لِعَامَّةِ النَّاسِ، وَالأَمْرُ يَعْنِي الْجَمِيعَ، وَلَا يَخْتَصُّ بِأَحَدٍ دُونَ أَحَدٍ، وَمِنْ حَقِّ النَّاسِ أَنْ يَسْعَوْا إِلَى مَا فِيهِ حِفْظُ بُيُوتِهِمْ وَأُسَرِهِمْ وَبَنَاتِهِمْ وَنِسَائِهِمْ مِنْ أَسْبَابِ الْفَسَادِ وَالِانْحِرَافِ، وَأَنْ يَأْخُذُوا عَلَى أَيْدِي الْمُفْسِدِينَ وَالْمُفْسِدَاتِ، مِنْ أَتْبَاعِ الْغَرْبِ وَعُبَّادِ الشَّهَوَاتِ.

وَمَنْ نَظَرَ فِي شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى يَجِدْ أَنَّهَا أَوْصَدَتْ كُلَّ الأَبْوَابِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى الِاخْتِلَاطِ، وَسَدَّتِ الذَّرَائِعَ لِذَلِكَ، وَحَمَتِ الْمُجْتَمَعَ مِنَ الْفَاحِشَةِ وَالرَّذِيلَةِ بِتَشْرِيعَاتٍ رَبَّانِيَّةٍ، تُبْقِي عَلَى الْمُجْتَمَعِ عِفَّتَهُ وَطَهَارَتَهُ وَنَقَاءَهُ، وَاسْتِقَامَةَ أُسَرِهِ، وَصَلَاحَ بُيُوتِهِ، مَا دَامَ أَفْرَادُهُ قَائِمِينَ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، مُمْتَثِلِينَ شَرْعَهُ، مُسْتَسْلِمِينَ لِنُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَلَمْ يَسْمَحُوا لِلْمُفْسِدِينَ أَنْ يَنْخَرُوا ذَلِكَ السِّيَاجَ الرَّبَّانِيَّ بَيْنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ.

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وَهَذَا الْخِطَابُ الرَّبَّانِيُّ لِأَطْهَرِ هَذِهِ الأُمَّةِ قُلُوبًا وَهُمُ الصَّحَابَةُ ﷺ وَفِي أَعَفِّ النِّسَاءِ، وَهُنَّ أُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ رضي الله عنهنَّ فَمَا بَالُكُمْ بِمَنْ هُمْ دُونَهُمْ مِنَ الرِّجَالِ، وَبِمَنْ هُنَّ دُونَهُنَّ مِنَ النِّسَاءِ؟! ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ﴾، فَالْخَالِقُ الرَّزَّاقُ سُبْحَانَهُ يَأْمُرُ فِي كِتَابِهِ بِالْحِجَابِ بَيْنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، وَالْمُفْسِدُونَ يُرِيدُونَ تَحْطِيمَهُ وَإِزَالَتَهُ.

وَفِي خِطَابٍ رَبَّانِيٍّ آخَرَ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ من [النور: ٣٠]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

فَلَوْ كَانَ الِاخْتِلَاطُ سَائِغًا فِي الشَّرْعِ، لَكَانَ فِي هَذِهِ الأَوَامِرِ الرَّبَّانِيَّةِ تَكْلِيفٌ

بِمَا لَا يُطَاقُ؛ إِذْ كَيْفَ تَخْتَلِطُ المَرْأَةُ بِالرَّجُلِ، وَتَجْلِسُ بِجِوَارِهِ فِي الْعَمَلِ أَوِ الدِّرَاسَةِ، وَلَا يَنْظُرُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لِلْآخَرِ، وَهُمَا يَتَبَادَلَانِ الْأَعْمَالَ وَالْأَوْرَاقَ وَالدُّرُوسَ؟!

وَذَكَر النَّبِيُّ عَلَيْه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ مِنْ حَقِّ الطَّرِيقِ: «**غَضُّ الْبَصَرِ**»[1]، فَإِذَا كَانَ غَضُّ الْبَصَرِ وَاجِبًا عَلَى الرِّجَالِ إِذَا مَرَّتْ بِمَجْلِسِهِمْ فِي الطَّرِيقِ امْرَأَةٌ، فَكَيْفَ يُسَوَّغُ لِلْمُزَوِّرِينَ أَنْ يَزْعُمُوا أَنَّ شَرِيعَةَ اللَّهِ تَعَالَى لَا تُمَانِعُ مِنِ اخْتِلَاطِ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ؟!

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ قَالَ عَلَيْه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ**»؛ رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[2]، فَكَيْفَ إِذًا بِالمُكْثِ عِنْدَهُنَّ وَأَمَامَهُنَّ وَبِجِوَارِهِنَّ فِي سَاعَاتِ الْعَمَلِ كُلَّ يَوْمٍ؟!

بَلْ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَمِلَ عَلَى مَنْعِ الِاخْتِلَاطِ فِي الطَّرِيقِ أَثْنَاءَ الْخُرُوجِ مِنَ المَسْجِدِ، وَمَا هُوَ إِلَّا لَحَظَاتٌ، وَعَقِبَ عِبَادَةٍ عَظِيمَةٍ، وَالرِّجَالُ فِيهِ وَالنِّسَاءُ مِنَ المُصَلِّينَ وَالمُصَلِّيَاتِ، وَهُمْ وَهُنَّ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى، وَأَبْعَدُ عَنِ الرِّيبَةِ، فَكِيفَ بِغَيْرِ ذَلِكَ؟!

---

(١) كما في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**إياكم والجلوس على الطرقات**»، فقالوا: ما لنا بد، إنما هي مجالسنا نتحدث فيها. قال: «**فإذا أبيتم إلا المجالس، فأعطوا الطريق حقها**»، قالوا: وما حق الطريق؟ قال: «**غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر**» أخرجه البخاري في الاستئذان، باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧] (٥٨٧٥)، ومسلم في اللباس والزينة، باب النهي عن الجلوس في الطرقات وإعطاء الطريق حقه (٢١٢١).

(٢) أخرجه من حديث عقبة بن عامر ﷺ: البخاري في النكاح، باب لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم، والدخول على المغيبة (٥٢٣٢)، ومسلم في السلام، باب تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها (٢١٧٢).

رَوَتْ أُمُّ سَلَمَةَ رضي الله عنها: «أَنَّ النِّسَاءَ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُنَّ إِذَا سَلَّمْنَ مِنَ المَكْتُوبَةِ، قُمْنَ وَثَبَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَنْ صَلَّى مِنَ الرِّجَالِ مَا شَاءَ اللهُ، فَإِذَا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَامَ الرِّجَالُ» رَوَاهُ البُخَارِيُّ(٣).

وَذَاتَ مَرَّةٍ وَقَعَ فِي الخُرُوجِ مِنَ المَسْجِدِ اخْتِلَاطٌ غَيْرُ مَقْصُودٍ، فَبَادَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَى إِنْكَارِهِ، وَأَوْصَى بِمَا يُزِيلُهُ؛ كَمَا رَوَى أَبُو أُسَيْدٍ الأَنْصَارِيُّ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ وَهُوَ خَارِجٌ مِنَ المَسْجِدِ، فَاخْتَلَطَ الرِّجَالُ مَعَ النِّسَاءِ فِي الطَّرِيقِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلنِّسَاءِ: «**اسْتَأْخِرْنَ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكُنَّ أَنْ تَحْقُقْنَ الطَّرِيقَ، عَلَيْكُنَّ بِحَافَّاتِ الطَّرِيقِ**. فَكَانَتِ المَرْأَةُ تَلْتَصِقُ بِالْجِدَارِ، حَتَّى إِنَّ ثَوْبَهَا لَيَتَعَلَّقُ بِالْجِدَارِ مِنْ لُصُوقِهَا بِهِ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(٤).

وَفِي المَسْجِدِ مَنَعَ النَّبِيُّ ﷺ الِاخْتِلَاطَ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**خَيْرُ صُفُوفِ الرِّجَالِ أَوَّلُها، وَشَرُّهَا آخِرُهَا، وَخَيْرُ صُفُوفِ النِّسَاءِ آخِرُهَا، وَشَرُّهَا أَوَّلُها**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٥).

وَالمَسْجِدُ أَجَلُّ مَكَانٍ وَأَشْرَفُهُ، وَالْقُلُوبُ فِيهِ مُتَعَلِّقَةٌ بِاللَّهِ تَعَالَى، بَعِيدَةٌ عَنِ

---

(٣) أخرجه البخاري في صفة الصلاة، باب انتظار الناس قيام الإمام العالم (٨٢٨)، والنسائي في السهو، باب جلسة الإمام بين التسليم والانصراف (٣/ ٦٧)، وأحمد (٦/ ٣١٦)، وأبو يعلى (٦٩٨٣)، وابن خزيمة (١٧١٨)، وابن حبان (٢٢٣٣).

(٤) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في مشي النساء مع الرجال في الطريق (٥٢٧٢)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٢٦١) رقم (٥٨٠)، وابن عبد البر في الاستذكار (٢/ ٤٧٠)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود.

(٥) أخرجه مسلم في الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها (٤٤٠)، وأبو داود في الصلاة، باب صف النساء (٦٧٨)، والنسائي في الإمامة، باب ذكر خير صفوف النساء وشر صفوف الرجال (٢/ ٩٣)، والترمذي في الصلاة، باب ما جاء في فضل الصف الأول (٢٢٤)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب صفوف النساء (١٠٠٠)، وأحمد (٢/ ٣٦٧).

الْفَسَادِ وَالشَّرِّ، وَمَعَ ذَلِكَ حُسِمَتْ فِيهِ مَادَّةُ الشَّرِّ، وَسُدَّتْ فِيهِ ذَرَائِعُ الْفَسَادِ.

وَفِي الطَّوَافِ بِالْبَيْتِ -وَهُوَ مِنْ أَجَلِّ الْعِبَادَاتِ وَأَشْرَفِهَا- مُنِعَ الِاخْتِلَاطُ؛ كَمَا أَخْبَرَ التَّابِعِيُّ الْجَلِيلُ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ النِّسَاءَ فِيهِ لَمْ يَكُنَّ يُخَالِطْنَ الرِّجَالَ، وَقَالَ: «كَانَتْ عَائِشَةُ ﵂ تَطُوفُ حَجْرَةً مِنَ الرِّجَالِ، لَا تُخَالِطُهُمْ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٦)، وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِزَوْجِهِ أُمِّ سَلَمَةَ ﵂: «**طُوفِي مِنْ وَرَاءِ النَّاسِ وَأَنْتِ رَاكِبَةٌ**»(٧).

وَلَمَّا وَقَعَ فِي عَهْدِ عُمَرَ ﵁ شَيْءٌ مِنِ اخْتِلَاطِ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ فِي الطَّوَافِ، نَهَى أَنْ يَطُوفَ الرِّجَالُ مَعَ النِّسَاءِ، فَرَأَى رَجُلًا مَعَهُنَّ، فَضَرَبَهُ بِالدِّرَّةِ(٨).

تِلْكَ هِيَ شَرِيعَةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي قَضِيَّةِ الِاخْتِلَاطِ الَّتِي يَسْعَى الْمُنَافِقُونَ وَالشَّهْوَانِيُّونَ؛ لِإِقْنَاعِ النَّاسِ بِأَنَّ الِاخْتِلَاطَ لَا يُعَارِضُ الدِّينَ، وَأَنَّهُ مِنْ أَسْبَابِ الرُّقِيِّ وَالتَّقَدُّمِ، كَذَبُوا وَاللَّهِ، وَضَلُّوا وَأَضَلُّوا!!

أَفَبَعْدَ هَذِهِ النُّصُوصِ الْمُحْكَمَةِ الْوَاضِحَةِ يَلِيقُ بِالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ أَنْ يُصَدِّقُوا أَكَاذِيبَهُمْ، وَيَرْضَوْا بِمَشْرُوعَاتِهِمْ، وَيَسْتَسْلِمُوا لِإِفْسَادِهِمْ، وَإِخْرَاجِهِم لِنِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَبَنَاتِهِم، وَقَتْلِهِمْ لِحَيَائِهِنَّ وَإِحْصَانِهِنَّ وَعَفَافِهِنَّ، وَيَتْرُكُوهُمْ يَنْخَرُونَ فِي الْمُجْتَمَعِ، وَلَا يُنْكِرُوا ذَلِكَ عَلَيْهِم؟! وَقَدِ اسْتَبَانَ لَهُمُ الْحَقُّ بِأَدِلَّتِهِ، وَبَانَ لَهُمُ الْبَاطِلُ بِدَجَلِهِ وَعَوْرَتِهِ، وَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ؟!

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ

---

(٦) أخرجه البخاري في الحج، باب طواف النساء مع الرجال (١٥٣٩).

(٧) أخرجه البخاري في الحج، باب طواف النساء مع الرجال (١٥٤٠)، ومسلم في الحج، باب جواز الطواف على بعير وغيره (١٢٧٦).

(٨) أخرجه الفاكهي في أخبار مكة (٤٨٤).

ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٦-٢٨].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.

❁ ❁ ❁

الْخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى إِحْسَانِهِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى فَضْلِهِ وَإِنْعَامِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، شَهَادَةً نَرْجُو بِهَا النَّجَاةَ يَوْمَ لِقَائِهِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٨١].

أَيُّهَا النَّاسُ: عَزْلُ النِّسَاءِ عَنِ الرِّجَالِ، وَاخْتِصَاصُهُنَّ بِأَعْمَالِ الْمَنْزِلِ وَحَضَانَةِ الأَطْفَالِ، وَاخْتِصَاصُ الرِّجَالِ بِالْعَمَلِ وَالِاكْتِسَابِ؛ هِيَ الْفِطْرَةُ الَّتِي فَطَرَ اللهُ تَعَالَى النَّاسَ عَلَيْهَا، وَسَارَتْ عَلَيْهَا الْبَشَرِيَّةُ طَوَالَ تَارِيخِهَا فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ، وَعِنْدَ سَائِرِ الأُمَمِ، قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَ الْحَضَارَةُ الْمُعَاصِرَةُ بِضَلَالِ الِاخْتِلَاطِ، وَمَنْ قَرَأَ تَوَارِيخَ الْحَضَارَاتِ وَالْأُمَمِ السَّالِفَةِ، أَيْقَنَ بِحَقِيقَةِ ذَلِكَ.

وَنَزَلَتْ شَرَائِعُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ عليهم السلام بِمَا يُوافِقُ هَذِهِ الْفِطْرَةَ، وَقَدْ أَجْمَعَتِ الشَّرَائِعُ كُلُّهَا عَلَى حِفْظِ النَّسْلِ مِنَ الِاخْتِلَاطِ، وَعَلَى حِفْظِ الْمُجْتَمَعَاتِ مِنَ الْفَسَادِ وَالِانْحِلَالِ؛ وَلِذَا كَانَ الزِّنَا مُحَرَّمًا عَلَى لِسَانِ كُلِّ الْمُرْسَلِينَ عليهم السلام، وَيُجْمِعُ كُلُّ الْعُقَلَاءِ مِنَ الْبَشَرِ عَلَى أَنَّ الِاخْتِلَاطَ أَكْبَرُ سَبَبٍ لِلزِّنَا، كَمَا يُجْمِعُ

الْبَشَرُ عَلَى أَنَّ الزِّنَا سَبَبٌ لِلْأَمْرَاضِ وَالطَّوَاعِينِ الَّتِي تَفْتِكُ بِالنَّاسِ، وَالْوَاقِعُ يَدُلُّ عَلَى هَذِهِ الْحَقَائِقِ، وَلَا يُمَارِي فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا جَاهِلٌ أَوْ مُكَابِرٌ؛ فَمَنْ دَعَا لِلِاخْتِلَاطِ وَرَضِيَهُ، فَهُوَ يَدْعُو لِلزِّنَا وَانْتِشَارِ الْفَوَاحِشِ، وَهُوَ يَدْعُو كَذَلِكَ لِنَشْرِ الطَّاعُونِ فِي النَّاسِ، وَإِهْلَاكِهِمْ بِهِ، شَاءَ ذَلِكَ أَمْ أَبَى؛ إِذْ إِنَّ هَذِهِ الْأَمْرَاضَ الْخَبِيثَةَ هِيَ نِتَاجُ دَعْوَتِهِ الْخَبِيثَةِ.

وَإِنْ تَعْجَبُوا، فَعَجَبٌ لأُنَاسٍ يَدْعُونَ لِلِاخْتِلَاطِ، وَيَنْشُرُونَ الرَّذِيلَةَ فِي النَّاسِ، ثُمَّ يُحَذِّرُونَ مِنَ انْتِشَارِ مَرَضِ الْإِيدْزِ، وَيَعْقِدُونَ الْمُؤْتَمَرَاتِ وَالنَّدَوَاتِ لِمُكَافَحَتِهِ، فَهَلْ هُمْ صَادِقُونَ فِي تَحْذِيرِهِمْ؟ وَهَلْ يَعْقِلُونَ مَا يَقُولُونَ وَمَا يَفْعَلُونَ؟ وَهَلْ هُمْ إِلَّا كَمَنْ يَسْقِي الْإِنْسَانَ سُمًّا، ثُمَّ يَصِيحُ بِهِ مُحَذِّرًا إِيَّاهُ أَنْ يَمُوتَ مِمَّا سَقَاهُ؟!

إِنَّهُ لَنْ تُجْدِيَ الْمُؤْتَمَرَاتُ وَالنَّدَوَاتُ، وَالتَّوْعِيَةُ الصِّحِّيَّةُ وَالِاجْتِمَاعِيَّةُ فِي التَّخْفِيفِ مِنَ الْأَمْرَاضِ الْمُسْتَعْصِيَةِ، النَّاجِمَةِ عَنِ الْمُمَارَسَاتِ الْجِنْسِيَّةِ الْمُحَرَّمَةِ، إِذَا كَانَ الْمُفْسِدُونَ يَخْلِطُونَ النِّسَاءَ بِالرِّجَالِ، وَيُوَسِّعُونَ دَائِرَةَ الِاخْتِلَاطِ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ؛ وَيَنْشُرُونَ فِي إِعْلَامِهِمْ مَا يُسَعِّرُ الشَّهَوَاتِ، وَيَدْعُو إِلَى الرَّذِيلَةِ؛ وَلِذَا نُوصِيهِمْ أَلَّا يَكْذِبُوا عَلَى النَّاسِ وَيَخْدَعُوهُمْ، وَيُحَذِّرُوهُمْ مِنَ انْتِشَارِ الْإِيدْزِ؛ لأَنَّهُم أَكْبَرُ سَبَبٍ مِنْ أَسْبَابِهِ حِينَ شَرَّعُوا الِاخْتِلَاطَ، وَأَفْسَدُوا الْإِعْلَامَ، وَفَرَضُوا عَلَى النَّاسِ آرَاءَهُمُ الْفِكْرِيَّةَ الشَّهْوَانِيَّةَ.

يَقُولُ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَلَا رَيْبَ أَنَّ تَمْكِينَ النِّسَاءِ مِنِ اخْتِلَاطِهِنَّ بِالرِّجَالِ أَصْلُ كُلِّ بَلِيَّةٍ وَشَرٍّ، وَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ نُزُولِ الْعُقُوبَاتِ الْعَامَّةِ، كَمَا أَنَّهُ مِنْ أَسْبَابِ فَسَادِ أُمُورِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ. وَاخْتِلَاطُ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ سَبَبٌ لِكَثْرَةِ الْفَوَاحِشِ وَالزِّنَا، وَهُوَ مِنْ أَسْبَابِ الْمَوْتِ الْعَامِّ، وَالطَّوَاعِينِ

الْمُهْلِكَةِ. وَلَمَّا اخْتَلَطَ الْبَغَايَا بِعَسْكَرِ مُوسَى ﷺ وَفَشَتْ فِيهِمُ الْفَاحِشَةُ، أَرْسَلَ اللهُ إِلَيْهِمُ الطَّاعُونَ، فَمَاتَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ سَبْعُونَ أَلْفًا، وَالْقِصَّةُ مَشْهُورَةٌ فِي كُتُبِ التَّفَاسِيرِ. فَمِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الْمَوْتِ الْعَامِّ: كَثْرَةُ الزِّنَا بِسَبَبِ تَمْكِينِ النِّسَاءِ مِنِ اخْتِلَاطِهِنَّ بِالرِّجَالِ، وَالْمَشْيِ بَيْنَهُمْ مُتَبَرِّجَاتٍ مُتَجَمِّلَاتٍ»[٩].

وَكَلَامُ ابْنِ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- لَا يُعْجِبُ أَهْلَ الشَّرِّ وَالفَسَادِ، وَدُعَاةَ الرَّذِيلَةِ وَالِانْحِلَالِ؛ لِأَنَّهُمْ مُسْتَعْبَدُونَ فِي أَفْكَارِهِمْ لِمَا يُمْلِيهِ عَلَيْهِمْ أَهْلُ الْحَضَارَةِ الْمُعَاصِرَةِ، وَمُشْرَبُونَ بِحُبِّ كِتَابَاتِ الْغَرْبِيِّينَ، فَلَا بَأْسَ مِنْ نَقْلِ شَيْءٍ مِنْ أَقْوَالِ الْغَرْبِيِّينَ مِنْ بَابِ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥].

وَحَيْثُ إِنَّ الْمُفْسِدِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ بِمَشْرُوعَاتِهِمُ التَّغْرِيبِيَّةِ التَّخْرِيبِيَّةِ يَنْصُرُونَ الْمَرْأَةَ، وَيُدَافِعُونَ عَنْ حُقُوقِهَا فِي الِاخْتِلَاطِ وَالْفَسَادِ، فَإِنَّنِي سَأَنْقُلُ بَعْضَ أَقْوَالِ النِّسَاءِ الْغَرْبِيَّاتِ؛ حَتَّى نَعْرِفَ رَأْيَهُنَّ فِي الِاخْتِلَاطِ وَقَدْ جَرَّبْنَهُ، وَسَبَقْنَ نِسَاءَ الْعَالَمِينَ إِلَيْهِ، وَلَسْنَ مُتَّهَمَاتٍ بِأَنَّهُنَّ مُؤْدلَجاتٌ أَوْ مُتَطَرِّفَاتٌ، أَوْ يَعِشْنَ عُصُورَ الظَّلَامِ وَالحَرِيمِ، كَمَا يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ.

تَقُولُ الصَّحَفِيَّةُ الأَمْرِيكِيَّةُ هِيلْيَان سْتَانْبِرِي: «أَنْصَحُكُمْ بِأَنْ تَتَمَسَّكُوا بِتَقَالِيدِكُمْ وَأَخْلَاقِكُمْ، امْنَعُوا الِاخْتِلَاطَ، وَقَيِّدُوا حُرِّيَّةَ الْفَتَاةِ، بَلِ ارْجِعُوا لِعَصْرِ الْحِجَابِ، فَهَذَا خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِبَاحِيَّةِ وَانْطِلَاقِ وَمُجُونِ أُورُبَّا وَأَمْرِيكَا . . ، امْنَعُوا الِاخْتِلَاطَ؛ فَقَدْ عَانَيْنَا مِنْهُ فِي أَمْرِيكَا الْكَثِيرَ، لَقَدْ أَصْبَحَ الْمُجْتَمَعُ الأَمْرِيكِيُّ مُجْتَمَعًا مَلِيئًا بِكُلِّ صُوَرِ الْإِبَاحِيَّةِ وَالْخَلَاعَةِ. إِنَّ ضَحَايَا الِاخْتِلَاطِ يَمْلَؤُونَ

(٩) الطرق الحكمية (٤٠٧).

السُّجُونَ، إِنَّ الِاخْتِلَاطَ فِي المُجْتَمَعِ الْأَمْرِيكِيِّ وَالْأُورُبِّيِّ قَدْ هَدَّدَ الْأُسْرَةَ، وَزَلْزَلَ الْقِيَمَ وَالْأَخْلَاقَ»(١٠).

وَتَقُولُ كَاتِبَةٌ أُخْرَى: «إِنَّهُ لَعَارٌ عَلَى بِلَادِ الْإِنْجِلِيزِ أَنْ تَجعَلَ بَنَاتِهَا مَثَلًا لِلرَّذَائِلِ بِكَثْرَةِ مُخَالَطَةِ الرِّجَالِ»(١١). وَفِي بِرِيطَانْيَا حَذَّرَتِ الْكَاتِبَةُ الإِنْجِلِيزِيَّةُ اللِّيدي كوك مِنْ أَخْطَارِ وَأَضْرَارِ اخْتِلَاطِ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ، فَقَالَتْ: «عَلَى قَدْرِ كَثْرَةِ الِاخْتِلَاطِ، تَكُونُ كَثْرَةُ أَوْلَادِ الزِّنَا، وَقَالَتْ: عَلِّمُوهُنَّ الِابْتِعَادَ عَنِ الرِّجَالِ»(١٢).

فَهَلْ يَبْقَى لِدُعَاةِ الِاخْتِلَاطِ وَالْفَسَادِ قَوْلٌ وَقَدْ عَارَضُوا شَرِيعَةَ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَالَفُوا الْفِطْرَةَ الَّتِي فَطَرَ اللهُ النَّاسَ عَلَيْهَا، وَكَذَبُوا عَلَى النَّاسِ، فَزَوَّرُوا الْحَقَائِقَ، وَأَخْفَوُا النَّتَائِجَ المُخْزِيَةَ لِلِاخْتِلَاطِ فِي الْبِلَادِ الَّتِي اكْتَوَتْ بذَلِكَ؟!

حَمَى اللهُ تَعَالَى بِلَادَنَا وَبِلَادَ المُسْلِمِينَ مِنَ المُفْسِدِينَ والمُفْسِدَاتِ، وَالمُنَافِقِينَ وَالمُنَافِقَاتِ، وَرَدَّهُم عَلَى أَعْقَابِهِمْ خَاسِرِينَ؛ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ...

❁ ❁ ❁

(١٠) من مقالة (أنا الحجاب) فاضل بشناق، منشور في موقع (عودة ودعوة) على الشبكة العالمية.

(١١) المصدر السابق.

(١٢) المصدر السابق.

٢٩٣- اختلاط النساء بالرجال (٢) نتائجه وآثاره

٦/ ٢/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ ضَرَبَ لِلخَلْقِ آجَالَهُمْ، وَكَفَلَ لَهُمْ أَرْزَاقَهُمْ، وَشَرَعَ لَهُمْ دِينَهُمْ، نَحْمَدُهُ عَلَى نِعْمَتِهِ وَهِدَايَتِهِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى رِعَايَتِهِ وَكِفَايَتِهِ، فَمَا مِنْ نِعْمَةٍ إِلَّا وَهُوَ مُسْدِيهَا، وَلَا مِنْحَةٍ إِلَّا وَهُوَ مُعْطِيهَا، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ [النحل: ٥٣].

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ الخَلْقُ خَلْقُهُ، وَالْأَمْرُ أَمْرُهُ، والشَّرْعُ شَرْعُهُ، وَالْعِبَادُ عِبَادُهُ، لَا يَسَعُ أَحَدًا الخُرُوجُ عَنْهُ، أَوْ إِبْدَالُ غَيْرِهِ بِهِ؛ ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَصَفِيُّهُ وَخَلِيلُهُ؛ لَا خَيْرَ إِلَّا دَلَّ أُمَّتَهُ عَلَيْهِ، وَلَا شَرَّ إِلَّا حَذَّرَهُم مِنْهُ؛ رَحْمَةً بِهِمْ، وَشَفَقَةً عَلَيْهِمْ، وَإِحْسَانًا إِلَيْهِمْ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ أَسْرَعِ النَّاسِ الْتِزَامًا بِأَمْرِهِ، وَأَبْعَدِهِم عَنْ نَهْيِهِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَالْتَزِمُوا شَرِيعَتَهُ، وَارْجُوا رَحْمَتَهُ، وَاحْذَرُوا مَعْصِيَتَهُ، وَخَافُوا نِقْمَتَهُ، وَلَا تَأْمَنُوا مَكْرَهُ؛ فَإِنَّهُ لَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ.

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِعِبَادِهِ رَفْعُهُ الْحَرَجَ عَنْهُم، وَتَكْلِيفُهُمْ بِمَا يُطِيقُونَ، وَالتَّخْفِيفُ عَنْهُمْ فِيمَا يُرْهِقُهُمْ وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ؛ ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وَفِي الآيَةِ الأُخْرَى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ [الحج: ٧٨].

وَلَمَّا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ التَّخْفِيفَ فِي أَحْكَامِ الصِّيَامِ، قَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وَفِي شَرْعِيَّةِ التَّيَمُّمِ عِنْدَ عَدَمِ المَاءِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

وَوَصَفَ رَسُولَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِأَنَّهُ: يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ.

وَمِنْ مَظَاهِرِ الرَّحْمَةِ وَالْيُسْرِ فِي شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى: أَنْ كَلَّفَ الْعِبَادَ بِمَا يُطِيقُونَ مِنَ الْوَاجِبَاتِ، وَخَفَّفَ عَنْهُمْ مَا لَا يُطِيقُونَ، وَهَذَا المَظْهَرُ مِنْ مَظَاهِرِ التَّخْفِيفِ بَيِّنٌ وَاضِحٌ لِكُلِّ مَنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَيَعْرِفُ الْأَحْكَامَ.

وَثَمَّةَ مَظْهَرٌ آخَرُ لِلتَّيْسِيرِ يَغْفُلُ عَنْهُ أَكْثَرُ النَّاسِ، وَهُوَ لَا يَقِلُّ أَهَمِّيَّةً عَنِ الْأَوَّلِ؛ ذَلِكُمْ -يَا عِبَادَ اللَّهِ- أَنَّ اللهَ تَعَالَى لمَّا حَرَّمَ المُحَرَّمَاتِ عَلَى الْعِبَادِ أَوْصَدَ سُبُلَهَا، وَمَنَعَ وَسَائِلَهَا، وَسَدَّ الطُّرُقَ المُفْضِيَةَ إِلَيْهَا؛ رَحْمَةً بِالْعِبَادِ، وَعَوْنًا لَهُمْ؛ وَذَلِكَ لِئَلَّا تُوجَدَ فِي نُفُوسِهِمْ دَوَاعِيهَا، وَقَدْ حُرِّمَتْ عَلَيْهِمْ، فَيُرْهِقُهُمُ الِامْتِنَاعُ عَنْهَا.

فَالزِّنَا حَرَّمَهُ اللهُ تَعَالَى فِي كُلِّ شَرَائِعِ الرُّسُلِ ﷺ؛ لِمَا فِيهِ مِنَ انْتِهَاكِ العِرْضِ، وَتَدْمِيرِ النَّسْلِ. وَالشَّرَائِعُ الرَّبَّانِيَّةُ جَاءَتْ بِحِفْظِ الضَّرُورَاتِ الَّتِي مِنْهَا الْعِرْضُ وَالنَّسْلُ.

وَلَمَّا كَانَ مِنْ فِطْرَةِ الإِنْسَانِ وَجِبِلَّتِهِ الَّتِي خَلَقَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهَا مَيْلُ كُلِّ جِنْسٍ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ لِلْجِنْسِ الْآخَرِ، وَمَحَبَّتُهُ لَهُ، وَالأُنْسُ بِهِ، وَتَمَنِّي مُعَاشَرَتِهِ؛ فَإِنَّ الشَّرَائِعَ الرَّبَّانِيَّةَ نَظَّمَتْ ذَلِكَ بِالزَّوَاجِ، وَحَرَّمَتِ السِّفَاحَ، وَأَوْصَدَتِ الطُّرُقَ المُسَبِّبَةَ لِلزِّنَا، فَأَمَرَتِ الشَّرِيعَةُ السَّمْحَةُ بِغَضِّ الْبَصَرِ، وَمَنَعَتِ الْخَلْوَةَ بِالنِّسَاءِ، وَسَفَرَهُنَّ بِلَا مَحَارِمَ، كَمَا مَنَعَتْ سُفُورَهُنَّ وَتبَرُّجَهُنَّ واخْتِلَاطَهُنَّ بِالرِّجَالِ.

وَلَوْ كَانَتْ هَذِهِ الْأَسْبَابُ وَالْوَسَائِلُ مُبَاحَةً مَعَ تَحْرِيمِ مَا تُفْضِي إِلَيْهِ مِنَ الزِّنَا؛ لَكَانَ فِي ذَلِكَ مِنَ الرَّهَقِ وَالْعُسْرِ عَلَى الْعِبَادِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ تَعَالَى؛ وَلَكَانَ حَالُهُمْ كَحَالِ الْجَائِعِ الَّذِي يُوضَعُ أَمَامَهُ مَا لَذَّ مِنَ الطَّعَامِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: لَا تَأْكُلْ، وَالْجَائِعُ يَصْبِرُ عَنِ الطَّعَامِ إِذَا كَانَ لَا يَرَاهُ وَلَا يَشْتَمُّهُ، وَلَكِنْ إِذَا رَآهُ أَوِ اشْتَمَّهُ، لَمْ يَصْبِرْ عَنْهُ، وَالرَّجُلُ يَصْبِرُ عَنِ الْمَرْأَةِ فِي حَالِ غِيَابِهَا وَتَسَتُّرِهَا، وَلَكِنَّهُ لَا يَصْبِرُ عَنْهَا فِي حَالِ سُفُورِهَا وَتَبَرُّجِهَا وَاخْتِلَاطِهَا بِهِ.

وَحَيْثُمَا كَثُرَ الِاخْتِلَاطُ وَالْعُرْيُ وَالتَّفَسُّخُ فِي بَلَدٍ مِنَ الْبُلْدَانِ؛ مَرِضَتِ الْقُلُوبُ، وَفَسَدَتِ الْأَخْلَاقُ، وَازْدَادَ السُّعَارُ الْجِنْسِيُّ، وَانْتَشَرَتْ جَرَائِمُ الزِّنَا وَالِاغْتِصَابِ، وَأَنْوَاعُ الشُّذُوذِ.

وَإِذَا أُوصِدَتْ أَبْوَابُ الْفِتْنَةِ وَالشَّرِّ وَالْفَسَادِ، وَفُصِلَ النِّسَاءُ عَنِ الرِّجَالِ، صَلَحَتِ الْقُلُوبُ، وَاسْتَقَامَتِ الْأَخْلَاقُ، وَانْتَشَرَ فِي النَّاسِ الطُّهْرُ وَالْعَفَافُ، وَالْوَاقِعُ يَشْهَدُ لِتِلْكَ الْحَقَائِقِ.

إِنَّ اخْتِلَاطَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ هُوَ الْبَوَّابَةُ الَّتِي مَا فَتَحَتْهَا أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ إِلَّا وَلَجَتْ إِلَيْهَا الْجَرَائِمُ الْأَخْلَاقِيَّةُ، وَانْتَشَرَ فِيهَا الشُّذُوذُ الْجِنْسِيُّ، وَصَارَتْ عُرْضَةً لِلطَّاعُونِ وَالْأَوْبِئَةِ الْفَتَّاكَةِ.

إِنَّ الِاخْتِلَاطَ يَفْتَحُ أَنْوَاعًا مِنَ الْبَلَاءِ وَالشُّرُورِ عَلَى النَّاسِ؛ فَحَيَاءُ الْمَرْأَةِ الَّذِي لَا زِينَةَ لَهَا إِلَّا بِهِ يَضْعُفُ شَيْئًا شَيْئًا كُلَّمَا اقْتَرَبَتْ مِنَ الرِّجَالِ، وَعَامَلَتْهُمْ وَخَالَطَتْهُمْ، تُكَلِّمُ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ وَتُضَاحِكُهُ، وَتُمَازِحُهُ أَشَدَّ مِمَّا تَفْعَلُ ذَاتُ الْمَحْرَمِ مَعَ مَحَارِمِهَا، وَمَا كَانَتْ بَجَاحَتُهَا وَجُرْأَتُهَا إِلَّا بِسَبَبِ قِلَّةِ حَيَائِهَا.

وَالْمَرْأَةُ تَعْتَنِي بِحِجَابِهَا؛ لِئَلَّا يَرَاهَا مَنْ لَا يَحِلُّ لَهُمْ رُؤْيَتُهَا مِنَ الرِّجَالِ، فَإِذَا كَانَتْ تُقِيمُ السَّاعَاتِ الطِّوَالَ أَمَامَهُمْ، وَتُعَايِشُهُمْ فِي أَمَاكِنِهِمْ وَمَقَرَّاتِ أَعْمَالِهِمْ،

فَإِنَّهَا تَتَخَفَّفُ مِنْ حِجَابِهَا الشَّيءَ بَعْدَ الشَّيءِ؛ لِأَنَّهَا أَلِفَتْهُمْ، وَلَا تَرَاهُمْ فِي مَنْزِلَةِ مَنْ لَا تَعْرِفُهُمْ مِنَ الرِّجَالِ، وَمَعَ كَثْرَةِ المُخَالَطَةِ لَا تَرَى حَرَجًا فِي إِلْقَاءِ حِجَابِهَا أَمَامَهُمْ بِحُجَّةِ الزَّمَالَةِ وَقِدَمِ المَعْرِفَةِ، وَثِقَتِهَا بَأَخْلَاقِهِمْ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْحُجَجِ الْوَاهِيَةِ الَّتِي يُزَيِّنُهَا الشَّيْطَانُ لَهَا، وَتَعْصِي بِهَا رَبَّهَا الَّذِي أَمَرَهَا بِالْحِجَابِ ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

وَالمَرْأَةُ تَعْتَنِي أَبَدًا بِزِينَتِهَا، وَيَهُمُّهَا شَكْلُهَا وَمَظْهَرُهَا، وَتَضْعُفُ أَمَامَ المَادِحِينَ لَهَا، فَإِذَا اخْتَلَطَتْ بِالرِّجَالِ، أَبْدَتْ لَهُمْ مَا يُثْنُونَ بِهِ عَلَيْهَا، وَتَنَافَسَتْ هِيَ وَزَمِيلَاتُهَا فِي هَذَا المَجَالِ؛ حَتَّى يُخَيَّلَ لِبَعْضِ مَنْ يَرَاهُنَّ أَنَّهُنَّ فِي دُورِ عُرُوضِ الْأَزْيَاءِ، مِنْ كَثْرَةِ أَصْبَاغِهِنَّ، وَعُرْيِ مَلَابِسِهِنَّ، فَيُخَالِفْنَ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣١].

وَلِضَعْفِ المَرْأَةِ أَمَامَ عَوَاطِفِهَا، فَقَدْ تَتَعَلَّقُ فِي مَجَالِ عَمَلِهَا بِرَجُلٍ لِجَمَالِ خِلْقَتِهِ، أَوْ حُسْنِ مُعَامَلَتِهِ، أَوْ قُوَّةِ نُفُوذِهِ، وَهُوَ لَا يَحِلُّ لَهَا؛ لِأَنَّهَا ذَاتُ زَوْجٍ، أَوْ لَا تَسْتَطِيعُ الْوُصُولَ إِلَيْهِ، فَتَكُونُ بَيْنَ نَارَيْنِ؛ إِمَّا أَنْ تُشْبِعَ عَوَاطِفَهَا وَرَغَبَاتِهَا بِمَا حَرَّمَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهَا، أَوْ تَكْبِتَ مَشَاعِرَهَا، فَتَشْقَى بِهَا.

وَلَا تَسْلَمُ المَرْأَةُ الْعَامِلَةُ فِي مَجَالَاتٍ مُخْتَلِطَةٍ مِنَ الْخَلْوَةِ بِزَمِيلٍ أَوْ مُدِيرٍ لِأَيِّ ظَرْفٍ كَانَ، فَتَقَعُ بِذَلِكَ فِي مُخَالَفَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ قَالَ: «**لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ**»(١).

وَأَخْطَرُ مَا فِي الِاخْتِلَاطِ مَا تَتَعَرَّضُ لَهُ المَرْأَةُ مِنَ الْإِغْرَاءِ وَالْإِغْوَاءِ، وَالمُرَاوَدَةِ وَالِابْتِزَازِ، وَقَدْ يَصِلُ ذَلِكَ إِلَى التَّحَرُّشِ وَالِاعْتِدَاءِ بِالْقَوْلِ أَوْ بِالْفِعْلِ

---

(١) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: البخاري في النكاح، باب لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم والدخول على المغيبة (٤٩٣٥)، ومسلم في الحج، باب فرض الحج مرة في العمر (١٣٤١).

مِنْ زُمَلَائِهَا أَوْ أَسَاتِذَتِهَا أَوْ رُؤَسَائِهَا، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَتْ دَرَجَاتُهَا وَتَرْقِيَاتُهَا بِأَيْدِيهِمْ، وَلَا دِينَ يَرْدَعُهُمْ، وَلَا خُلُقَ يَمْنَعُهُمْ. وَفِي الدُّوَلِ الَّتِي سَبَقَتْ فِي الِاخْتِلَاطِ، وَزَاحَمَتِ المَرْأَةُ فِيهَا الرِّجَالَ؛ تَكْثُرُ الْفَضَائِحُ وَالمُشْكِلَاتُ بَيْنَ الْعَامِلِينَ وَالْعَامِلَاتِ، وَالطُّلَّابِ وَالطَّالِبَاتِ، حَتَّى وَصَلَتْ نِسْبَةُ الِاعْتِدَاءَاتِ وَالتَّحَرُّشَاتِ إِلَى تِسْعِينَ فِي المِائَةِ فِي بَعْضِ الْبِلَادِ الْغَرْبِيَّةِ، وَكَمْ مِنْ فَتَاةٍ عَفِيفَةٍ تَرَكَتْ دِرَاسَتَهَا، أَوْ غَيَّرَتْ تَخَصُّصَهَا، أَوْ نَقَلَتْ وَظِيفَتَهَا؛ لِمَا تَلْقَاهُ مِنِ ابْتِزَازٍ فِي عِرْضِهَا وَعَفَافِهَا؟!

وَالِاخْتِلَاطُ سَبَبٌ لِلْعُزُوفِ عَنِ الزَّوَاجِ؛ لِأَنَّ الرَّجُلَ إِذَا قَدَرَ عَلَى إِرْوَاءِ غَرِيزَتِهِ بِغَيْرِ زَوَاجٍ وَلَا نَفَقَةٍ، وَلَا بَيْتٍ وَلَا مَسْؤُولِيَّاتٍ، فَلِمَاذَا إِذًا يَتَزَوَّجُ؟! وَعُزُوفُ الشَّبَابِ عَنِ الزَّوَاجِ فِي الْمُجْتَمَعَاتِ الْمُخْتَلِطَةِ مِنْ أَبْيَنِ الدَّلَائِلِ عَلَى ذَلِكَ، وَفِي الْبِلَادِ الْغَرْبِيَّةِ أَرْقَامٌ مُخِيفَةٌ فِي ذَلِكَ.

وَالِاخْتِلَاطُ مِنْ أَكْبَرِ أَسْبَابِ الْخِيَانَاتِ الزَّوْجِيَّةِ، وَهُوَ يُوقِدُ نَارَ الْخِصَامِ وَالْجِدَالِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ؛ فَلَا الرَّجُلُ يَقْنَعُ بِزَوْجَتِهِ، وَهُوَ فِي كُلِّ صَبَاحٍ يُجَالِسُ الْجَمِيلَاتِ وَيُمَازِحُهُنَّ، وَلَا المَرْأَةُ تَقْنَعُ بِزَوْجِهَا وَهِيَ تَرَى مِنْ زُمَلَائِهَا مَنْ هُمْ أَجْمَلُ خِلْقَةً، وَأَرْقَى تَعَامُلًا مِنْ زَوْجِهَا.

وَالِاخْتِلَاطُ سَبَبٌ لِكَسَادِ المَرْأَةِ، وَعُزُوفِ الرِّجَالِ عَنْهَا، وَعَدَمِ رَغْبَتِهِمْ فِيهَا؛ لِأَنَّ غَيْرَتَهُمْ تَمْنَعُهُمْ مِنْ قَبُولِ امْرَأَةٍ تُعَامِلُ الرِّجَالَ وَتُحَادِثُهُمْ وَتُجَالِسُهُمْ، فَالرَّجُلُ السَّوِيُّ يُرِيدُهَا لَهُ وَحْدَهُ، وَلَا يُرِيدُ أَنْ يُشَارِكَهُ فِيهَا أَحَدٌ، وَعُزُوفُ الشَّبَابِ عَنِ الزَّوَاجِ بِالْعَامِلَاتِ فِي المَجَالَاتِ الطِّبِّيَّةِ المُخْتَلِطَةِ دَلِيلٌ عَلَى ذَلِكَ.

وَالِاخْتِلَاطُ سَبَبٌ لِانْشِغَالِ كُلِّ جِنْسٍ بِالْآخَرِ عَنِ الْعَمَلِ أَوِ الدِّرَاسَةِ، فَهُوَ أَبَدًا يُفَكِّرُ فِيهِ، وَيُكَرِّسُ عَقْلَهُ وَجُهْدَهُ فِي كَيْفِيَّةِ الْوُصُولِ إِلَيْهِ، وَقَدْ أَثْبَتَتْ كَثِيرٌ مِنَ

الدِّرَاسَاتِ الْحَدِيثَةِ أَنَّ مِنْ أَهَمِّ أَسْبَابِ ضَعْفِ التَّحْصِيلِ الدِّرَاسِيِّ فِي المَدَارِسِ المُخْتَلِطَةِ انْشَغَالَ كُلِّ جِنْسٍ بِالجِنْسِ الْآخَرِ؛ يَقُولُ أَحَدُ الْأَطِبَّاءِ الْغَرْبِيِّينَ: عِنْدَمَا تَتَحَرَّكُ الْغَرِيزَةُ الْجِنْسِيَّةُ لَدَى الْإِنْسَانِ، تُفْرِزُ بَعْضُ الْغُدَدِ هُرْمُونَاتٍ تَتَسَرَّبُ فِي الدَّمِ إِلَى أَنْ تَصِلَ إِلَى الدِّمَاغِ، فَتُخَدِّرُهُ فَلَا يُصْبِحُ قَادِرًا عَلَى التَّفْكِيرِ وَالتَّرْكِيزِ الصَّافِي(٢).

وَالْغَرَائِزُ الجِنْسِيَّةُ تَتَحَرَّكُ بِشَكْلٍ أَكْبَرَ حِينَ يَجْتَمِعُ النِّسَاءُ بِالرِّجَالِ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ.

فَعُلِمَ بِذَلِكَ أَنَّ الِاخْتِلَاطَ دَاءٌ وَبِيلٌ، وَشَرٌّ مُسْتَطِيرٌ، لَا يُفْتَحُ عَلَى أُمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ إِلَّا أَصَابَ دِينَهَا وَأَخْلَاقَهَا فِي مَقْتَلٍ، وَكَانَ سَبَبًا لِانْتِشَارِ الرَّذَائِلِ وَالْفَوَاحِشِ الَّتِي تُنْتِجُ أَوْلَادَ الْحَرَامِ، وَتُسَبِّبُ كَثْرَةَ الْإِجْهَاضِ، وَتَنْشُرُ الطَّوَاعِينَ وَالْأَمْرَاضَ، وَتُفَكِّكُ رَوَابِطَ الْأُسَرِ، وَتُوجِدُ الشُّكُوكَ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ.

وَالمُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ مِنَ المُنَافِقِينَ وَالشَّهْوَانِيِّينَ، يَسْعَوْنَ جُهْدَهُمْ فِي تَوْسِيعِ مَجَالَاتِ الِاخْتِلَاطِ فِي بِلَادِنَا؛ فَبَعْدَ أَنْ فَرَضُوهُ وَاقِعًا فِي كُلِّيَّاتِ الطِّبِّ وَالمُسْتَشْفَيَاتِ، وَالمَرَاكِزِ الصِّحِّيَّةِ، ثُمَّ فِي الْبُنُوكِ وَكَثِيرٍ مِنَ الشَّرِكَاتِ وَالمُؤَسَّسَاتِ، يُرِيدُونَ تَوْسِيعَهُ فِي مَجَالَاتٍ أُخْرَى، وَيَعْقِدُونَ المُؤْتَمَرَاتِ وَالمُنْتَدَيَاتِ المُخْتَلِطَةَ، لَا لِشَيْءٍ إِلَّا لِتَكْرِيسِ هَذِهِ الصُّورَةِ المُنْحَرِفَةِ فِي أَذْهَانِ النَّاسِ، وَالتَّقَرُّبِ إِلَى الدُّوَلِ المُسْتَكْبِرَةِ بِالْجَهْرِ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَعَدِّي حُدُودِهِ، وَانْتِهَاكِ حُرُمَاتِهِ. وَوَدَّ المُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ لَوِ اجْتَاحَتْ حُمَّى الِاخْتِلَاطِ كُلَّ المَجَالَاتِ، حَتَّى تَصِلَ إِلَى المَدَارِسِ وَالْجَامِعَاتِ! وَمَا يَصِيحُونَ بِهِ فِي صُحُفِهِمْ وَفَضَائِيَّاتِهِمْ يَشِي بِمَا فِي نُفُوسِهِمْ نَحْوَ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ مِنْ مُحَاوَلَةِ الْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ، وَفَرْضِ المَنَاهِجِ الْغَرْبِيَّةِ المُنْحَرِفَةِ عَلَى المُجْتَمَعِ، وَقَسْرِ النَّاسِ

(٢) تنظر بعض الدراسات المتخصصة في نهاية حواشي الخطبة.

عَلَيْهَا بِالقُوَّةِ وَالْإِرْهَابِ، وَلَنْ يَسْتَكِينُوا أَوْ يَتَوَقَّفُوا عَنْ فَسَادِهِمْ وَإِفْسَادِهِمْ؛ حَتَّى يَرَوُا الْحَرَائِرَ الْعَفِيفَاتِ يَبْذُلْنَ أَعْرَاضَهُنَّ بِالمَجَّانِ وَبِأَبْخَسِ الْأَثْمَانِ.

وَمِنْ حَقِّ النَّاسِ أَنْ يَغَارُوا عَلَى نِسَائِهِمْ وَبَنَاتِهِمْ، وَأَنْ يَقِفُوا فِي وُجُوهِهِمْ، وَيُنْكِرُوا عَلَى المُفْسِدِينَ خُطُوَاتِهِمُ المُسْتَفِزَّةَ الَّتِي هِيَ مِنْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ، وَلَا سِيَّمَا أَنَّهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ يَأْتُونَ بِقَارِعَةٍ جَدِيدَةٍ، وَيَجُسُّونَ نَبْضَ النَّاسِ بِخُطْوَةٍ يُقْدِمُونَ عَلَيْهَا فِي بَابِ الِاخْتِلَاطِ[٣].

فَإِذَا لَمْ يُنْكِرِ النَّاسُ عَلَيْهِمْ كُلَّ مُنْكَرٍ فِي حِينِهِ تَقَدَّمُوا خُطْوَةً أُخْرَى، وَهَكَذَا .. حَتَّى يَصِلُوا إِلَى مُرَادِهِمْ مِنْ إِفْسَادِ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ، وَخَلْطِ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ.

رَدَّ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ كَيْدَهُمْ وَمَكْرَهُمْ، وَحَفِظَ الْعِبَادَ وَالْبِلَادَ مِنْ إِفْكِهِمْ وَشَرِّهِمْ؛ إِنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ.



الْخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدَ الشَّاكِرِينَ، وَنَسْتَغْفِرُهُ اسْتِغْفَارَ المُذْنِبِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

---

(٣) نشرت الصحف هذه الأيام أن بعض شركات الطيران الجديدة خرجت دفعات من المضيفين والمضيفات السعوديات، كما نشرت أنه وظف في مطار جدة أربع بنات يعملن بجانب الرجال في كونترات خدمات المسافرين .

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: يَرَى الْمُتَبَصِّرُ أَنَّ الْعَالَمَ بِشَرْقِهِ وَغَرْبِهِ قَدْ تَجَرَّعَ آلَامَ الِاخْتِلَاطِ وَمَفَاسِدَهُ، وَأَثْبَتَتِ الدِّرَاسَاتُ تِلْوَ الدِّرَاسَاتِ أَنَّ عَزْلَ النِّسَاءِ عَنِ الرِّجَالِ، وَالطُّلَّابِ عَنِ الطَّالِبَاتِ خَيْرٌ لِلنِّسَاءِ وَلِلرِّجَالِ، وَلِلْمُجْتَمَعِ بِأَسْرِهِ، وَنَادَى كَثِيرٌ مِنَ الْبَاحِثِينَ وَالْبَاحِثَاتِ فِي الدُّوَلِ الَّتِي شَرَّعَتْ لِلِاخْتِلَاطِ . . نَادَوْا بِعَزْلِ النِّسَاءِ عَنِ الرِّجَالِ، وَقَامَ بَعْضُ الزُّعَمَاءِ وَأَصْحَابُ الْقَرَارِ فِي الْبِلَادِ الْغَرْبِيَّةِ بِخُطُوَاتٍ عَمَلِيَّةٍ فِي هَذَا السَّبِيلِ(٤)، إِلَّا أَنَّ كَثِيرًا مِنْ بَنِي قَوْمِنَا لَا زَالُوا مُتَخَلِّفِينَ،

---

(٤) نشر الموقع الأمريكي (سي إن إن) في ١٨/١١/٢٠٠٦م تحت عنوان: (الطلاب الأمريكيون في الصفوف المختلطة يحصلون على علامات متدنية) أن إدارة الرئيس الأمريكي جورج بوش قد منحت مدراء المدارس العامة في البلاد حق فصل الصفوف بين الجنسين، الأمر الذي يعتبر أكبر تعديل يطال النظام التربوي منذ عقود عديدة.
وسيتم بموجب القرار إيلاء مديري المدارس حق تقرير ما إذا كان من الأفضل فصل الصفوف التعليمية على أساس جنسي أو إبقائها موحدة، وذلك بحسب المادة المراد تعليمها، أو بموجب معايير إدارية خاصة.
وقالت وزيرة التربية الأمريكية مارغريت سبيلنغ: إن القرار يأتي انسجامًا مع حق كل طلاب الولايات المتحدة في الحصول على تعليم جيد من جهة، وحق الهيئات التعليمية بامتلاك الوسائل التي تكفل تحقيق هذا الهدف من جهة أخرى.
واستندت الدوائر التربوية الأمريكية في موقفها على معطيات، أمنتها تقارير إحصائية، تُظهر حصول الطلاب في الصفوف غير المختلطة على علامات أعلى من نظرائهم في الصفوف المختلطة، خاصة في مادتي الرياضيات واللغات الأجنبية.
ويلاقي القرار معارضة شديدة من جمعيات حقوقية ونسائية تتهم واضعيه بالسعي إلى خلق تمييز تعليمي، وبتجاوز حقوق الطلاب الأساسية بتحصيل العلوم بشكل متساوٍ.
ويعود آخر قرار مماثل إلى العام ١٩٧٥، عندما أقرت الدوائر التربوية الأمريكية مبدأ =

يَعِيشُونَ بِعَقْلِيَّاتِ مَا قَبْلَ مِائَةِ سَنَةٍ مِنَ الْآنَ، حِينَ اجْتَاحَتْ مَوْجَاتُ الِاخْتِلَاطِ كَثِيرًا مِنَ الدُّوَلِ، وَقَامَتْ كَثِيرٌ مِنَ الْحَرَكَاتِ التَّحَرُّرِيَّةِ النِّسَوِيَّةِ بِالمُطَالَبَةِ بِهِ وَتَشْرِيعِهِ، وَلَمَّا بَانَتْ لَهُمْ أَضْرَارُهُ بَعْدَ قَرْنٍ رَجَعَ كَثِيرٌ مِنْ مُفَكِّرِيهِمْ إِلَى مُقَاوَمَتِهِ، وَالمُطَالَبَةِ بِإِلْغَائِهِ، وَتَغَيَّرَ العَالَمُ وَلَمْ يَتَغَيَّرْ بَنُو قَوْمِنَا، فَهُمْ أَحَقُّ بِوَصْفِ التَّخَلُّفِ وَالرَّجْعِيَّةِ مِنْ غَيْرِهِمْ.

لَقَدِ افْتَرَى المُنَافِقُونَ وَالشَّهْوَانِيُّونَ فِرْيَةً صَدَّقُوهَا، ثُمَّ نَشَرُوهَا، فَانْطَلَتْ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ، وَهَذِهِ الفِرْيَةُ هِيَ قَوْلُهُمْ: إِنَّ عَزْلَ النِّسَاءِ عَنِ الرِّجَالِ سبَّبَ سُعَارًا جِنْسِيًّا فِي المُجْتَمَعَاتِ المُنْغَلِقَةِ، فَأَصْبَحَ الرَّجُلُ لَا يَرَى فِي المَرْأَةِ إِلَّا المَعَانِيَ الجِنْسِيَّةَ، بِخِلَافِ المُجْتَمَعَاتِ المُنْفَتِحَةِ المُتَحَرِّرَةِ الَّتِي يَخْتَلِطُ فِيهَا الرِّجَالُ بِالنِّسَاءِ، وَتَتَعَرَّى النِّسَاءُ كَمَا يَحْلُو لَهُنَّ، وَتُصَاحِبُ المَرْأَةُ فِيهَا مَنْ تَشَاءُ، لَا يُوجَدُ فِيهَا هَذَا السُّعَارُ؛ لِأَنَّ الرَّجُلَ قَدْ تَعَوَّدَ عَلَى المَرْأَةِ وَأَلِفَهَا، هَكَذَا يَقُولُونَ!

وَالسُّؤَالُ هُنَا: إِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَمَا يَقُولُ المُفْتَرُونَ، فَلِمَاذَا يَكْثُرُ اغْتِصَابُ

= فصل الطلاب على أساس الجنس، لكنها حصرته في ذلك الحين بحصص التربية الجنسية.
غير أن القانون الجديد يتيح لمديري المدارس تقدير منافع الفصل الجنسي، وتطبيقه في حصص المواد التي يرتئونها، على أنه يمنح الطلاب بالمقابل حق عدم حضور تلك الصفوف.
يشار إلى أن المدارس الراغبة بتطبيق هذا القانون، يتوجب عليها الالتزام بتقديم نوعية التعليم ذاتها لكل طلابها من الجنسين، مع تقديم مراجعة كل سنتين لأداء الصفوف التي تخضع لهذا القانون.
ولفت مراقبون تربويون إلى انتشار المدارس العامة التي تعتمد الفصل الجنسي بشكل كامل في الآونة الأخيرة، حيث ارتفع عددها من أربعة عام ١٩٩٨ إلى ٢٢٨ في العام الحالي. انتهى.
وسمعت أن العدد تضاعف أربع مرات هذا العام.

النِّسَاءِ، بَلِ الْأَطْفَالِ فِي الْمُجْتَمَعَاتِ الْمُنْحَلَّةِ؟! أَلَيْسَ الوُصُولُ إِلَى الْمَرْأَةِ سَهْلًا؛ فَالْبَغَايَا يَمْلأْنَ الْحَانَاتِ وَالْخَمَّارَاتِ، وَيَنْتَظِرْنَ زَبَائِنَهُنَّ عَلَى نَوَاصِي الطُّرُقَاتِ؟!

أَلَيْسَ الحُصُولُ عَلَى المُتْعَةِ فِي بِلَادِهِمْ أَسْهَلَ مِنْ شِرَاءِ الْخُبْزِ؟! فَمَا عَلَى الرَّجُلِ إِلَّا أَنْ يُصَادِقَ مَنْ تُعْجِبُهُ، فَيَأْخُذَ مِنْهَا مَا يُرِيدُ! إِذًا فَلِمَاذَا يَكْثُرُ الِاغْتِصَابُ فِي بِلَادِهِمْ؟! حَتَّى إِنَّ الْوَاحِدَةَ مِنْ نِسَائِهِمْ لَا تَخْلُو حَقِيبَةُ يَدِهَا مِنْ سَلَاحٍ تُدَافِعُ بِهِ عَنْ نَفْسِهَا، وَتَرُدُّ عُدْوَانَ الْمُعْتَدِينَ عَلَيْهَا، وَلِمَاذَا تَظْهَرُ الْفَضَائِحُ تِلْوَ الْفَضَائِحِ لِلسِّيَاسِيِّينَ وَأَصْحَابِ النُّفُوذِ فِي بِلَادِهِمْ بِتَحَرُّشَاتِهِمْ بِنِسَاءٍ يَعْمَلْنَ عِنْدَهُمْ، أَوْ يَتَدَرَّبْنَ فِي مَكَاتِبِهِمْ؟!

بَلْ لِمَاذَا يَكْثُرُ الشُّذُوذُ وَالزَّوَاجُ المِثْلِيُّ وَأَنْوَاعُ الْغَرَائِبِ الجِنْسِيَّةِ الَّتِي تَأْبَاهَا الْحَيَوَانَاتُ وَيَرْضَاهَا بَشَرُهُمْ؟ أَلَيْسُوا غَيْرَ مُعَقَّدِينَ، وَلَا مَكْبُوتِينَ جِنْسِيًّا، كَمَا يَقُولُ بَنُو قَوْمِنَا؟! وَمَنْ قَرَأَ أَرْقَامَ الِاغْتِصَابِ وَالشُّذُوذِ عَلِمَ أَنَّ مُجْتَمَعَاتِهِمْ تَسِيرُ إِلَى الْهَاوِيَةِ، وَسَبَبُ ذَلِكَ هُوَ الِاخْتِلَاطُ، وَلَوْ قَالَ الْمُنَافِقُونَ وَالشَّهْوَانِيُّونَ غَيْرَ ذَلِكَ، وَكُلُّ الدِّرَاسَاتِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ وَالإِحْصَاءَاتِ الْجَادَّةِ فِي كُلِّ الْبِلَادِ الَّتِي يَنْتَشِرُ فِيهَا الِاخْتِلَاطُ -سَوَاءٌ كَانَتْ بِلَادًا غَرْبِيَّةً أَمْ شَرْقِيَّةً، وَسَوَاءٌ كَانَتْ بِلَادًا مُسْلِمَةً أَمْ غَيْرَ مُسْلِمَةٍ- تُجْمِعُ عَلَى حَقِيقَةٍ مُفَادُهَا: أَنَّ خَلْطَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ شَرٌّ عَلَى الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالمُجْتَمَعِ بِأَسْرِهِ، وَيُخَلِّفُ كَثِيرًا مِنَ الْمُشْكِلَاتِ وَالْأَمْرَاضِ الْجِنْسِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي تَسْتَعْصِي عَلَى الْعِلَاجِ.

فَمَتَّى يَتْرُكُ الْكَذَّابُونَ كَذِبَهُمْ، وَيَتَوَقَّفُونَ عَنِ افْتِرَائِهِمْ، وَيُقْلِعُونَ عَنْ إِفْسَادِهِمْ، وَيَقِفُونَ مَوْقِفَ صِدْقٍ مَعَ أَنْفُسِهِمْ، وَنُصْحٍ لِمُجْتَمَعِهِمْ وَأُمَّتِهِمْ، فَيَسْأَلُونَ أَنْفُسَهُمْ: لِمَاذَا يَنْشُرُونَ الْفَسَادَ وَالِاخْتِلَاطَ فِي بِلَادٍ حُفِظَتْ مِنْهُ طِيلَةَ الْعُقُودِ المَاضِيَةِ، وَقَدْ غَرِقَتْ أَكْثَرُ الْبُلْدَانِ فِي مُصِيبَتِهِ، وَتَجَرَّعَتْ مَرَارَتَهُ، وَرَأَى الْقَرِيبُ

وَالْبَعِيدُ مَا خَلَّفَهُ الِاخْتِلَاطُ فِيهَا مِنْ آثَارٍ سَلْبِيَّةٍ، وَمُشْكِلَاتٍ كَثِيرَةٍ مُسْتَعْصِيَةٍ؟ وَلَمْ يَعُدْ ذَلِكَ خَافِيًا عَلَى أَحَدٍ، فَهَلْ هُمْ نَاصِحُونَ غَافِلُونَ؟ أَوْ فَاسِدُونَ مُفْسِدُونَ؟ أَوْ هُمْ أُجَرَاءُ حَاقِدُونَ عَلَى مُجْتَمَعَاتِهِمْ، لَهُمْ مُهِمَّةٌ مُحَدَّدَةٌ فِي إِفْسَادِ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ بِأَجْرٍ يَقْبِضُونَهُ مِنْ مُنَظَّمَاتٍ مَشْبُوهَةٍ، وَدُوَلٍ مُتَنَفِّذَةٍ طَامِعَةٍ فِي الْمِنْطَقَةِ، لَهَا مَشْرُوعَاتُهَا وَخُطَطُهَا؟!

وَإِلَى مَتَى يَقِفُ الْعُقَلَاءُ وَالْحُكَمَاءُ وَالصَّالِحُونَ، وَأُولُو النُّصْحِ لِبِلَادِهِمْ وَوُلَاتِهِمْ، وَأَهْلُ الْغَيْرَةِ عَلَى نِسَائِهِمْ وَبَنَاتِهِمْ .. إِلَى مَتَى يَقِفُونَ مَوَاقِفَ الْمُتَفَرِّجِينَ السَّلْبِيِّينَ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ وَيَنْتَظِرُونَ؛ حَتَّى تَحُلَّ الْقَوَارِعُ بِمُجْتَمَعَاتِهِمْ، وَيَتَمَكَّنَ أَهْلُ الْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ مِنْ بُيُوتِهِمْ وَنِسَائِهِمْ؟! فَلَا هُمْ يُنْكِرُونَ عَلَيْهِمْ، وَلَا يُنَاصِحُونَهُمْ، وَلَا يَحُولُونَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ إِفْسَادِهِمْ، وَلَا يُبَيِّنُونَ لِلنَّاسِ خَطَرَ الِاخْتِلَاطِ، وَقَدْ فَتَكَ بِكَثِيرٍ مِنَ الدُّوَلِ الَّتِي انْتَشَرَ فِيهَا.

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَانْصَحُوا لِوُلَاتِكُمْ، وَأَخْلِصُوا لِمُجْتَمَعَاتِكُمْ، وَخُذُوا عَلَى أَيْدِي الْمُفْسِدِينَ مِنْكُمْ، وَقِفُوا دُونَ إِفْسَادِهِمْ لِنِسَائِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ، وَأْطُرُوهُمْ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا، وَاعْلَمُوا أَنَّ السَّفِينَةَ إِذَا خُرِقَتْ غَرِقَ كُلُّ مَنْ كَانَ فِيهَا.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ[٥].

---

(٥) بعض الدراسات التربوية المختصة في ضرر الاختلاط وأثره على التحصيل العلمي والعملي:
أجريت دراسات في ألمانيا الغربية وبريطانيا على المدارس المختلطة فلوحظ فيها انخفاض مستوى ذكاء الطلاب، واستمرار تدهور مستواهم الدراسي، وثبت العكس من ذلك في المدارس غير المختلطة.
وأجرى معهد أبحاث علم النفس الاجتماعي في بون بألمانيا دراسة تبين منها: أن تلاميذ وتلميذات المدارس المختلطة لا يتمتعون بقدرات إبداعية، وهم محدودو المواهب، قليلو الهوايات، وأنه على العكس من ذلك تبرز محاولات الإبداع واضحة بين تلاميذ مدارس =

. . . .

= الجنس الواحد غير المختلطة. ينظر: الغرب يتراجع عن التعليم المختلط (٧-٨).
وفي تجربة أخرى تم فصل البنين عن البنات، فحققوا نتائج أفضل في شهادة الثانوية العامة وأثبتت التجربة: أن عدد البنين الذين نالوا درجات مرتفعة تزايد أربع مرات على ما كان سيكون عليه الحال لو أن الفصل كان مختلطًا. ينظر: مجلة المعرفة، شوال ١٤١٧هـ.
وفي دراسة أخرى بمعهد كيل بألمانيا تبين بعد الفصل بين الطلاب والطالبات أن البنات كن أكثر انتباها ، ودرجاتهن أفضل كثيرًا قبل فصلهن عن الطلاب. ينظر: مجلة المعرفة، رمضان ١٤١٩هـ.
وذكرت الدكتورة كاولس شوستر خبيرة التربية الألمانية: أن توحد نوع الجنس في المدارس بحيث يكون البنون في مدارس البنين، والبنات في مدارس البنات يؤدي إلى استعلاء روح المنافسة بين التلاميذ، أما الاختلاط فيلغي هذا الدافع. ينظر: الغرب يتراجع عن التعليم المختلط (٧).
وفي دراسات عربية في بعض المدارس العربية المختلطة ثبت أن أضرار الاختلاط في التعليم كثيرة جدًا، ومن تلكم الدراسات:
١- قامت الباحثة فاطمة محمد رجاء مناصرة بدراسة أثر مشكلة الاختلاط على تعليم الفتاة المسلمة في الجامعات الأردنية، فخرجت بالنتائج التالية:
السؤال الأول: هل يعد الاختلاط في الدراسة بنظرك مشكلة؟
- أجاب ٧٧% من الطلاب والطالبات بنعم.
السؤال الثاني: إذا كان الاختلاط مشكلة، اذكر أهم السلبيات التي تعانيها بسببه؟
فذكرت المشكلات التالية:
أ- مشكلات أخلاقية:
١- إثارة الفتنة.
٢- التصنع في التصرفات من قبل الجنسين .
٣- تعرض الفتيات لمضايقات الشباب.
٤- ضعف الوازع الديني، بسبب تعود الطلبة على الممارسات الخاطئة، واستباحة المنكرات لكثرة تكرارها.
٥- انتشار ظاهرة السفور، بسبب تبرج الطالبات ولباسهن المخالف للزي الإسلامي، فطالبات الجامعة اللاتي يرحن ويرجعن بين البيت والجامعة سافرات متبرجات يلبسن =

. . . .

= ثيابًا رقيقة قصيرة.
٦- انتشار الجرائم الأخلاقية مثل الزنا، فإن كثرة المخالطة مع وجود عوامل الفتنة تؤدي إلى ارتكاب الفاحشة.
٧- فساد الأخلاق عند الطرفين.
ب- مشكلات أكاديمية:
١- عدم الحرية في النقاش أثناء المحاضرات، وهذا يظهر في عدم رغبة الطلاب والطالبات بالمشاركة في الدرس خيفة أن يخطئ أحدهم فيُحرج أمام الجنس الآخر، فتشوه صورته أمام من يود كسب رضاه من الجنس الآخر .
٢- تعاطف المدرسين مع الطالبات، وذلك على حساب الطلاب.
٣- التغيب عن المحاضرات، وعدم الالتزام بحضورها بسبب انشغال كل جنس مع الآخر.
٤- صعوبة ممارسة النشاطات الجادة والفاعلة، وخاصة التي تمارس في ساحات الجامعة.
٥- تحويل الجامعة عن الغاية الأساسية التي وجدت من أجلها.
٦- فيه قتل للوقت؛ لكثرة التفكير بالجنس الآخر.
٧- ضعف التحصيل العلمي.
ج- مشكلات اقتصادية:
وقد حددها الطلبة بما يلي:
١- محاولة إظهار كل من الجنسين كرمه وسخاءه أمام الجنس الآخر، وبذلك يتحمل كل منهما مسؤوليات مادية كثيرة قد تضطره لإرهاق نفسه بالديون، أو اللجوء إلى تصرفات غير مرغوب بها لتحصيل المال.
٢- المبالغة في النفقات على اللباس والمظهر الخارجي من قبل الجنسين وخاصة الطالبات.
د- مشكلات اجتماعية: وتتلخص آراء الطلبة فيما يلي:
١- التقليل من قدر المرأة في المجتمع؛ حيث تصبح عارضة أزياء تلفت الأنظار، فتعتبر نفسها كسلعة قابلة للعرض.
٢- له آثار سلبية في الحياة الأسرية للطلاب والطالبات المتزوجين، فقد يكون سببًا في دمار هذه الأسرة وتشتيت شملها، بسبب تعرف الشاب على فتاة أخرى غير متزوجة مثلًا!
٣- عزوف الشباب عن الزواج، والاكتفاء بالعلاقات غير المشروعة. =

. . . .

= وهذه المشكلات هي جزء من معاناة الشباب، والضغوطات التي يسببها الاختلاط لهم والمآسي التي تترتب على ذلك.

هـ- مشكلات نفسية:

ولقد ذكر الطلبة بعضًا من المشكلات النفسية منها:

١- القلق والاضطراب والخوف من الجنس الآخر نتيجة ما يرى من ممارسات خاطئة.

٢- الصراع الداخلي في نفس الشاب.

السؤال الثالث: اذكر أهم المعوقات التي يسببها الاختلاط على تحصيلك العلمي؟

هناك من اعتبر أن للاختلاط معوقات، ومنهم من يرى أن ليس للاختلاط معوقات، وكانت النسب على النحو التالي:

أجاب ٧٥٪ بأن للاختلاط معوقات.

وأجاب ٢٥٪ ليس للاختلاط معوقات.

ويبدو أن أهم المعوقات في نظر هذه المجموعة التي تعتبر أن للاختلاط معوقات هي:

١- الخوف من السؤال بصراحة؛ خوفًا من التعرض لسخرية الآخرين واستهزائهم.

٢- تكرار التغيب عن المحاضرات للانشغال بالجنس الآخر.

٣- عدم المشاركة في المحاضرة خوفًا من الوقوع في الخطأ.

٤- تعرض الأستاذ للحرج وعدم توضيح الكثير من القضايا لوجود الطالبات.

٥- إعطاء الأستاذ أكبر قدر من الاهتمام للطالبات على حساب الطلاب.

٦- إذا كان المعلم أنثى، فهذا يؤثر على نفسية الطلاب ولا يقبلون تلقي العلم من امرأة.

وبالتالي فإن كل هذا يؤدي إلى انخفاض مستوى التحصيل العلمي عند الطلبة.

السؤال الرابع: يدعي البعض أن العلاقة التي تنشأ بين الجنسين تحفز على زيادة التحصيل العلمي لكونها باعثًا للتعلم، فما رأيك في ذلك؟

- فأجاب ٩٠٪: ليس للاختلاط حافز على التعليم.

- أجاب ١٠٪: الاختلاط يشكل حافزًا باعثًا على التعليم.

السؤال الخامس: هل وجود الجنسين في قاعة واحدة يعيق حرية الأستاذ في إيضاح عناصر الموضوع؟

أجاب ٨٦٪: يعيق.

أجاب ١٤٪: لا يعيق. =

. . . .

= السؤال السادس: ما الآثار التي يسببها الاختلاط على حياتك الاجتماعية؟ اذكرها؟
أجاب ٨٦% أن له آثارًا سلبية.
فمن تلك الآثار:
١- عدم ثقة الشباب بالفتيات، وبالتالي العزوف عن الزواج.
٢- تفكك الروابط الاجتماعية وبروز المشكلات الأسرية.
٣- عدم قدرة الشباب على الزواج، وبالتالي يتعرضون للانحراف والفساد.
٤- كثرة التفكير في الجنس الآخر، وإثارة الشهوة في النفس وتحررها من القيود التي يجب أن يلتزم بها.
٥- البعض يحبذ عند ذلك الانعزال والوحدة والابتعاد عن الآخرين حتى من بني جنسه؛ لقلة ثقته بهم.
٦- قد يؤدي إلى الخجل والخوف مِنَ التَّعامل مع الجنس الآخر.
٧- آثار سلبية على علاقاتهم مع أهلهم في البيت ومع الآخرين في المجتمع. تنظر هذه الدراسة في: رسالة ماجستير بعنوان (أثر مشكلتي الاختلاط والمنهاج التعليمي على تعليم الفتاة المسلمة في الجامعات الأردنية) ص٣٢ إلى ص٤٦.

الدراسة الثانية:

قام عبد الحليم محمود السيد وآخرون بدراسة المشكلات النفسية والاجتماعية لدى عينة من طلاب جامعة القاهرة حجمها (٣٩٨٧) طالبًا وطالبة، وكشفت نتائج هذه الدراسة فيما يتعلق بالمشكلات مع الزملاء من الجنس الآخر عن أن أكثر مشكلات الطلبة أهمية مع زميلاتهم تتمثل:
المبالغة في الملبس.
عدم الالتزام بتعاليم الدين.
والتحرر من السلوك.
والاختلاط الزائد عن الحد بين الجنسين.
والخروج عن العادات والتقاليد.
أما بالنسبة إلى المشكلات التي تعاني منها الطالبات في علاقتهن بزملائهن من الطلبة الذكور فتتمثل في:
عدم الالتزام بتعاليم الدين. =

. . . .

= والتحرر في السلوك.
والاختلاط الزائد عن الحد بين الجنسين.
وعدم مراعاة مشاعر الزملاء.
وسوء الفهم المتبادل. تنظر نتائج هذه الدراسة في: المجلة العربية للتربية، المجلد السادس عشر- العدد الأول ١٤١٧هـ بحث بعنوان (الاتجاه نحو الاختلاط بين الجنسين لدى عينة من طلاب جامعة الكويت) د . عبد اللطيف محمد خليفة.
ومن يتتبع أقوال أهل التربية والتعليم يلحظ أن أقوالهم تكاد تتفق على خطورة الاختلاط على مستوى دين وثقافة الطالب والطالبة، فمن تلك الأقوال:
يقول الشيخ علي الطنطاوي -رحمه الله تعالى-: «إني لا أرى الاختلاط بين الجنسين في المدارس، ولا في كليات الجامعة، لا لموانع الدين فقط، فقد يكون من القراء من لا يحرص مع الأسف على تتبع أوامر الدين ونواهيه، بل لأنَّ هذا الاختلاط إذا قلَّت نتائجه السيئة في فرنسا وانجلترا وأمريكا لطول اعتياد أهلها عليه، فإنَّ خطره شديد في بلاد خرجت رأسًا من الحجاب السابغ إلى هذا الاختلاط على قوة الغريزة، وشدة الرغبة، وطول الحرمان، وهذه مصر جرَّبت الاختلاط في الجامعة قبلنا، ولا تزال إلى اليوم تشعر بأضراره، وقد ظهرت فيها رغبة طوية من الطالبات أنفسهن في الانفصال عن الشباب، ومن شاء فليقرأ خبر ذلك في جرائد مصر، وفي آخر عدد وصل إلى الشام من (أخبار اليوم)، وأنا مستعد للمناقشة في هذا الموضوع بلسان الواقع والعلم لا بلسان الدين، فمن شاء فليناقشني. أمَّا التسرع إلى الرد عليّ بأنَّ هذه رجعية وجمود، فلا ينفع شيئاً؛ لأنَّه لو كان كل جديد نافعًا، وكان كل قديم ضارًّا، لكان أشدّ الأشياء ضررًا العقل؛ لأنَّ العقل أقدم من التسرع، وكان أنفع الأشياء في هذا الباب مذهب العري، وأن نمشي في الجامعة وغيرها مثل الحيوانات؛ لأنَّ مذهب العري أحدث المذاهب!!» مأخوذ من: موقع لها أون لاين بعنوان: (المرأة والتعليم المختلط) ..وقد نشرت هذه المقالة في مجلة المرأة. دمشق ١٩٤٨م.
ويقول رئيس الاتحاد الوطني لطلبة جامعة الكويت محمد الرشيد: إن الأبحاث العلمية أكدت أن الاختلاط ما بين الجنسين يؤثر سلبًا على تحصيل الطلبة دراسيًّا ... ينظر: جريدة السياسة ٢ أكتوبر ٢٠٠١ م.
وأوفدت وزارة التربية السورية الأستاذ أحمد مظهر العظمة إلى بلجيكا في رحلة علمية =

. . . .

= زار فيها المدارس البلجيكية، وفي إحدى الزيارات لمدرسة ابتدائية للبنات سأل المديرة: لماذا لا تخلطون البنين مع البنات في هذه المرحلة؟ فأجابته: قد لمسنا أضرار اختلاط الأطفال حتى في سن المرحلة الابتدائية. ينظر: مكانك تحمدي (ص٨٩-٩٠).

وذكر الباحث الأمريكي جورج بالوشي في كتاب الثورة الجنسية: بأن الرئيس الأمريكي كنيدي صرح عام **١٩٦٢** بأن مستقبل أمريكا في خطر؛ لأن شبابها مائع منحل غارق في الشهوات لا يقدر المسئولية الملقاة على عاتقه، وأن من بين كل سبعة شبان يتقدمون للتجنيد يوجد ستة غير صالحين؛ لأن الشهوات التي أغرقوا فيها أفسدت لياقتهم الطبية والنفسية.

ونتيجة للاختلاط الكائن بين الطلاب والطالبات في المدارس والجامعات ذكرت جريدة لبنانية: أن الطالبة في المدرسة والجامعة لا تفكر إلا بعواطفها والوسائل التي تتجاوب بها مع هذه العاطفة .. وأن أكثر من ستين في المائة من الطالبات سقطن في الامتحانات، وتعود أسباب الفشل إلى أنهن يفكرن في عواطفهن أكثر من دروسهن وحتى مستقبلهن.

ينظر: الإعجاز العلمي في الإسلام، السنة النبوية، لمحمد كامل عبد الصمد.

٢٩٤- اختلاط النساء بالرجال (٣)
آراء العقلاء ودراسات المختصين

٢٢/ ٧/ ١٤٢٩هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ؛ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، وَرَحِمَ عِبَادَهُ فِي حُكْمِهِ وَشَرْعِهِ، لَهُ الْحِكْمَةُ الْبَاهِرَةُ فِي قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، وَلَهُ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فِي أَمْرِهِ وَشَرْعِهِ ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، نَحْمَدُهُ حَمْدَ الشَّاكِرِينَ، وَنَسْتَغْفِرُهُ اسْتِغْفَارَ الْمُذْنِبِينَ، وَنَسْأَلُهُ مِنْ فَضْلِهِ الْعَظِيمِ، فَهُوَ الْجَوَادُ الْكَرِيمُ، الْبَرُّ الرَّحِيمُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَخَالِقُ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ لَا خَيْرَ إِلَّا دَلَّنَا عَلَيْهِ، وَلَا شَرَّ إِلَّا حَذَّرَنَا مِنْهُ، تَرَكَنَا عَلَى بَيْضَاءَ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، فَإِنَّ تَقْوَاهُ وَطَاعَتَهُ سَبَبٌ لِصَلَاحِ أُمُورِ الْعِبَادِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَيُّهَا النَّاسُ: شَرِيعَةُ اللَّهِ تَعَالَى جَاءَتْ بِكُلِّ خَيْرٍ، وَمَنَعَتْ مِنْ كُلِّ شَرٍّ، فَهِيَ الصَّلَاحُ وَالرَّشَادُ لِلنَّاسِ فِي الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ، بَلَّغَهَا النَّبِيُّونَ عَنْ رَبِّهِمْ، وَاسْتَنْكَفَ عَنْهَا الْمُجْرِمُونَ مِنَ الْبَشَرِ، وَحَارَبُوا أَتْبَاعَهَا وَالدُّعَاةَ إِلَيْهَا، وَزَيَّنُوا

لِلنَّاسِ كُلَّ طَرِيقٍ تُخْرِجُ النَّاسَ مِنْ دِينِهِمْ، وَتَصُدُّهُمْ عَنْ شَرِيعَةِ رَبِّهِمْ.

وَمِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَرَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ أَنَّهُ حَرَّمَ الزِّنَا وَنَهَى الْعِبَادَ عَنْهُ؛ لِمَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنَ المَفَاسِدِ، وَيُؤَدِّي إِلَيْهِ مِنَ الْهَلَاكِ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ المَرْأَةَ أَعْظَمُ مَا يَفْتِنُ الرَّجُلَ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً هِيَ أَضَرُّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[1].

وَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِعِبَادِهِ: أَنَّهُ لَمَّا جَعَلَ فِي كُلٍّ مِنَ الرَّجُلِ وَالمَرْأَةِ مَيْلًا إِلَى الْآخَرِ؛ نَظَّمَ الْعَلَاقَةَ بَيْنَهُمَا بِمَا يُحَقِّقُ المَصْلَحَةَ، وَيَرْوِي الشَّهْوَةَ، وَيُحَافِظُ عَلَى النَّسْلِ، وَيَصُونُ الْعِرْضَ، وَيَدْرَأُ الشَّرَّ، فَرَغَّبَ فِي النِّكَاحِ وَحَضَّ عَلَيْهِ ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ﴾ [النساء: ٣]، وَأَمَرَ ﷻ بِالْعَفَافِ مَنْ لَا يَجِدُ مُؤْنَةَ النِّكَاحِ ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ﴾ [النور: ٣٣]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنِ اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لم يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[2].

ثُمَّ أَوْصَدَ الشَّارِعُ الْحَكِيمُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ طَرِيقٍ يُؤَدِّي إِلَى وُقُوعِ الْفَاحِشَةِ أَوْ مُقَدِّمَاتِهَا، فَحَرَّمَ خَلْوَةَ الرَّجُلِ بِالْأَجْنَبِيَّةِ عَنْهُ، وَمَنَعَ مِنْ سَفَرِ المَرْأَةِ بِلَا مَحْرَمٍ، وَأَمَرَ النِّسَاءَ بِالْحِشْمَةِ وَالسَّتْرِ وَالْحَيَاءِ وَالْعَفَافِ، وَنَهَى عَنِ اخْتِلَاطِ النِّسَاءِ

---

(١) أخرجه مسلم في الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء، وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة بالنساء (٢٧٤٠).

(٢) أخرجه البخاري في النكاح، باب قول النبي ﷺ: «من استطاع منكم الباءة فليتزوج، لأنه أغض للبصر وأحصن للفرج» وهل يتزوج من لا أرب له في النكاح (٥٠٦٥)، ومسلم في النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه (١٤٠٠).

بِالرِّجَالِ؛ لِمَا فِيهِ مِنَ الْفَسَادِ وَالانْحِلَالِ؛ وَلِمَا يُخَلِّفُهُ مِنْ ذَهَابِ الْأَخْلَاقِ وَقِلَّةِ الْحَيَاءِ؛ وَلِأَنَّهُ سَبَبٌ فِي وُقُوعِ الْفَوَاحِشِ وَنَشْرِهَا.

وَالْأَدِلَّةُ عَلَى تَحْرِيمِ خَلْطِ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ تَظَاهَرَتْ بِهَا نُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَأَجْمَعَ عُقَلَاءُ الْبَشَرِ عَلَى مَا يُخَلِّفُهُ الِاخْتِلَاطُ مِنْ مَفَاسِدَ وَكَوَارِثَ دِينِيَّةٍ وَأَخْلَاقِيَّةٍ وَاجْتِمَاعِيَّةٍ وَصِحِّيَّةٍ وَاقْتِصَادِيَّةٍ، وَلَمْ يُمَارِ فِي ذَلِكَ إِلَّا جَاهِلٌ أَوْ مُكَابِرٌ.

وَقَدِ اتَّجَهَ جَمْعٌ مِنَ الْبَاحِثِينَ فِي الدُّوَلِ الَّتِي شَرَّعَتْ لِلِاخْتِلَاطِ بَعْدَ عُقُودٍ مِنْ تَجْرِبَتِهِ لِدِرَاسَةِ آثَارِهِ وَنَتَائِجِهِ، فَأَجْمَعَتْ دِرَاسَاتُهُمْ وَإِحْصَائِيَّاتُهُمْ عَلَى أَنْ ضَرَرَهُ أَعْظَمُ مِنْ نَفْعِهِ، وَأَنَّ الْمَنَافِعَ الَّتِي تَوَهَّمَهَا مَنْ شَرَّعُوا لِلِاخْتِلَاطِ خَلَّفَتْ مِنَ الْأَضْرَارِ الدِّينِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ وَالِاقْتِصَادِيَّةِ مَا لَا يُحْصَى.

وَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّ مَعْهَدَ أَبْحَاثِ عِلْمِ النَّفْسِ الِاجْتِمَاعِيِّ فِي مَدِينَةِ (بُون) بِأَلْمَانْيَا أَجْرَى دِرَاسَةً عَلَى الْمَدَارِسِ الْمُخْتَلِطَةِ وَغَيْرِ الْمُخْتَلِطَةِ، فَتَبَيَّنَ أَنَّ تَلَامِيذَ وَتِلْمِيذَاتِ الْمَدَارِسِ الْمُخْتَلِطَةِ لَا يَتَمَتَّعُونَ بِقُدُرَاتٍ إِبْدَاعِيَّةٍ، وَهُمْ مَحْدُودُو الْمَوَاهِبِ، قَلِيلُو الْهِوَايَاتِ، وَأَنَّهُ عَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ تَبْرُزُ مُحَاوَلَاتُ الْإِبْدَاعِ وَاضِحَةً بَيْنَ تَلَامِيذِ مَدَارِسِ الْجِنْسِ الْوَاحِدِ غَيْرِ الْمُخْتَلِطَةِ.

وَفِي تَجْرِبَةٍ أُخْرَى تَمَّ فَصْلُ الْبَنِينَ عَنِ الْبَنَاتِ فِي الدِّرَاسَةِ، فَحَقَّقَ الْجَمِيعُ نَتَائِجَ أَفْضَلَ فِي شَهَادَةِ الثَّانَوِيَّةِ الْعَامَّةِ، وَأَثْبَتَتِ التَّجْرِبَةُ: أَنَّ عَدَدَ الْبَنِينَ الَّذِينَ نَالُوا دَرَجَاتٍ مُرْتَفِعَةً تَزَايَدَ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ عَلَى مَا كَانَ سَيَكُونُ عَلَيْهِ الْحَالُ لَوْ أَنَّ الْفَصْلَ الدِّرَاسِيَّ كَانَ مُخْتَلِطًا.

وَفِي دِرَاسَةٍ أُخْرَى بِمَعْهَدِ (كِيل) بِأَلْمَانْيَا تَبَيَّنَ بَعْدَ الْفَصْلِ بَيْنَ الطُّلَّابِ وَالطَّالِبَاتِ أَنَّ الْبَنَاتِ كُنَّ أَكْثَرَ انْتِبَاهًا، وَدَرَجَاتُهُنَّ أَفْضَلُ كَثِيرًا قَبْلَ فَصْلِهِنَّ عَنِ الطُّلَّابِ.

وَعَلَى إِثْرِ ذَلِكَ ذَكَرَتِ الدَّكْتُورَةُ (كَاولس شوستر) خَبِيرَةُ التَّرْبِيَةِ الْأَلْمَانِيَّةِ: أَنَّ تَوْحِيدَ نَوْعِ الْجِنْسِ فِي الْمَدَارِسِ، بِحَيْثُ يَكُونُ الْبَنُونَ فِي مَدَارِسِ الْبَنِينَ، وَالْبَنَاتُ فِي مَدَارِسِ الْبَنَاتِ، يُؤَدِّي إِلَى اسْتِعْلَاءِ رُوحِ الْمُنَافَسَةِ بَيْنَ التَّلَامِيذِ، أَمَّا الِاخْتِلَاطُ فَيُلْغِي هَذَا الدَّافِعَ.

وَهَذِهِ الدِّرَاسَاتُ الْمُتَعَدِّدَةُ صَدَرَتْ فِي أَلْمَانْيَا، وَهِيَ بَلَدٌ نَصْرَانِيٌّ عَلْمَانِيٌّ، وَلَمْ تَصْدُرْ عَنْ مُسْلِمِينَ حَتَّى يُقَالَ: إِنَّهُمْ مُنْحَازُونَ لِلْقِيَمِ الْإِسْلَامِيَّةِ، بَلْ صَدَرَتْ عَنْ مُتَخَصِّصِينَ يَعْنِيهِمُ الشَّأْنُ الْأَلْمَانِيُّ أَوَّلًا وَأَخِيرًا.

وَفِي مَقَامٍ آخَرَ أَوْفَدَتْ وِزَارَةُ التَّرْبِيَةِ السُّورِيَّة مُهْتَمًّا بِشَأْنِ التَّعْلِيمِ وَالتَّرْبِيَةِ إِلَى بَلْجِيكَا فِي رِحْلَةٍ عِلْمِيَّةٍ زَارَ فِيهَا الْمَدَارِسَ الْبَلْجِيكِيَّةَ، وَفِي إِحْدَى الزِّيَارَاتِ لِمَدْرَسَةٍ ابْتِدَائِيَّةٍ لِلْبَنَاتِ سَأَلَ الْمُدِيرَةَ: لِمَاذَا لَا تَخْلِطُونَ الْبَنِينَ مَعَ الْبَنَاتِ فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ؟ فَأَجَابَتْهُ: قَدْ لَمَسْنَا أَضْرَارَ اخْتِلَاطِ الْأَطْفَالِ حَتَّى فِي سِنِّ الْمَرْحَلَةِ الِابْتِدَائِيَّةِ.

وَفِي أَمْرِيكَا نَشَرَ الْمَوْقِعُ الْإِخْبَارِيُّ الْأَمْرِيكِيُّ (سِي إن إن) قَبْلَ سَنَتَيْنِ خَبَرًا تَحْتَ عُنْوَانِ: (الطُّلَّابُ الْأَمْرِيكِيُّونَ فِي الصُّفُوفِ الْمُخْتَلِطَةِ يَحْصُلُونَ عَلَى عَلَامَاتٍ مُتَدَنِّيَةٍ) وَذُكِرَ فِيهِ: أَنَّ إِدَارَةَ الرَّئِيسِ قَدْ مَنَحَتْ مُدِيرِي الْمَدَارِسِ الْعَامَّةِ فِي الْبِلَادِ حَقَّ فَصْلِ الصُّفُوفِ بَيْنَ الْجِنْسَيْنِ، حَسَبَ مَا يَرَوْنَهُ مِنَ الْمَصْلَحَةِ التَّرْبَوِيَّةِ لِلطُّلَّابِ وَالطَّالِبَاتِ، وَهَذَا يُعَدُّ أَكْبَرَ تَعْدِيلٍ يَطَالُ النِّظَامَ التَّرْبَوِيَّ فِي أَمْرِيكَا مُنْذُ عُقُودٍ كَثِيرَةٍ.

وَاسْتَنَدَتِ الدَّوَائِرُ التَّرْبَوِيَّةُ الْأَمْرِيكِيَّةُ فِي مَوْقِفِهَا هَذَا عَلَى تَقَارِيرَ إِحْصَائِيَّةٍ أَثْبَتَتْ حُصُولَ الطُّلَّابِ فِي الصُّفُوفِ غَيْرِ الْمُخْتَلِطَةِ عَلَى عَلَامَاتٍ أَعْلَى مِنْ نُظَرَائِهِمْ فِي الصُّفُوفِ الْمُخْتَلِطَةِ، خَاصَّةً فِي مَادَّتَي الرِّيَاضِيَّاتِ وَاللُّغَاتِ الْأَجْنَبِيَّةِ.

هَذَا؛ وَقَدِ اشْتَهَرَ ابْتِزَازُ الضُّبَّاطِ وَالجُنُودِ فِي الجُيُوشِ المُخْتَلِطَةِ لِلْمُجَنَّدَاتِ وَالْعَامِلَاتِ فِي الْجَيْشِ، وَأُجْرِيَ أَكْثَرُ مِنْ تَحْقِيقٍ فِي اغْتِصَابِهِنَّ وَالتَّحَرُّشِ الجِنْسِيِّ بِهِنَّ، وَإِكْرَاهِهِنَّ عَلَى مَا يُرِيدُهُ رُؤَسَاؤُهُنَّ مِنْهُنَّ، وَسَبَبُ ذَلِكَ هُوَ الِاخْتِلَاطُ.

وَكَشَفَ تَقْرِيرٌ صَحَفِيٌّ لِجَرِيدَةِ (نُيويُورْك تَايمْز) أَنَّ الْجَيْشَ الْأَمْرِيكِيَّ يُوَاجِهُ اتِّهَامَاتٍ كَثِيفَةً تَتَعَلَّقُ بِتَحَرُّشَاتٍ جِنْسِيَّةٍ، وَاعْتِدَاءَاتٍ جِنْسِيَّةٍ بِحَقِّ مُجَنَّدَاتٍ أَمْرِيكِيَّاتٍ مِنْ جَانِبِ زُمَلَاءٍ لَهُنَّ وَخَاصَّةً فِي الْعِرَاقِ وَالْكُوَيْتِ وَأَفْغَانِسْتَانَ، كَمَا تُشِيرُ إِحْصَاءَاتٌ صَادِرَةٌ فِي إِسْرَائِيلَ إِلَى ارْتِفَاعٍ حَادٍّ فِي ظَاهِرَةِ تَحَرُّشِ الْجُنُودِ بِزَمِيلَاتِهِمْ المُجَنَّدَاتِ.

وَلِكَثْرَةِ الشِّكَايَةِ مِنَ التَّحَرُّشَاتِ الْجِنْسِيَّةِ فِي وَسَائِلِ المُوَاصَلَاتِ المُخْتَلِطَةِ؛ عَمَدَتْ بَعْضُ الدُّوَلِ الْوَثَنِيَّةِ إِلَى تَخْصِيصِ عَرَبَاتٍ خَاصَّةٍ لِلنِّسَاءِ فِي بَعْضِ الْقِطَارَاتِ.

وَفِي دِرَاسَةٍ تَرْبَوِيَّةٍ لِبْنَانِيَّةٍ تَبَيَّنَ نَتِيجَةً لِلِاخْتِلَاطِ بَيْنَ الطُّلَّابِ وَالطَّالِبَاتِ فِي المَدَارِسِ وَالْجَامِعَاتِ: أَنَّ الطَّالِبَةَ فِي المَدْرَسَةِ وَالْجَامِعَةِ لَا تُفَكِّرُ إِلَّا بِعَوَاطِفِهَا وَالْوَسَائِلِ الَّتِي تَتَجَاوَبُ بِهَا مَعَ هَذِهِ الْعَاطِفَةِ . . . وَأَنَّ أَكْثَرَ مِنْ سِتِّينَ فِي المِئَةِ مِنَ الطَّالِبَاتِ رَسَبْنَ فِي الِامْتِحَانَاتِ، وَتَعُودُ أَسْبَابُ الْفَشَلِ إِلَى أَنَّهُنَّ يُفَكِّرْنَ فِي عَوَاطِفِهِنَّ أَكْثَرَ مِنْ دُرُوسِهِنَّ وَحَتَّى مُسْتَقْبَلِهِنَّ.

وَأَشَارَ تَقْرِيرٌ حُكُومِيٌّ يَابَانِيٌّ إِلَى ارْتِفَاعٍ وَاضِحٍ فِي قَضَايَا التَّحَرُّشِ الْجِنْسِيِّ بِالنِّسَاءِ الْعَامِلَاتِ وَصَلَ إِلَى خَمْسَةٍ وَأَرْبَعِينَ فِي المِئَةِ، وَنَفْسُ النِّسْبَةِ ثَبَتَتْ فِي دِرَاسَةٍ مَيْدَانِيَّةٍ فِي مِصْرَ عَلَى النِّسَاءِ الْعَامِلَاتِ، وَهِيَ نِسْبَةٌ تُقَارِبُ النِّصْفَ، أَيْ: مَا يُقَارِبُ مِنْ نِصْفِ الْعَامِلَاتِ فِي أَجْوَاءٍ مُخْتَلِطَةٍ، يَتَعَرَّضْنَ لِمُضَايَقَاتٍ وَتَحَرُّشَاتٍ

جِنْسِيَّةٍ، وَرُبَّمَا وَصَلَ الْأَمْرُ إِلَى التَّهْدِيدِ أَوِ الِاغْتِصَابِ.

وَهُنَاكَ مِئَاتُ التَّقَارِيرِ وَالدِّرَاسَاتِ تُثْبِتُ أَضْرَارَ الِاخْتِلَاطِ وَمَآسِيهِ فِي الْغَرْبِ وَالشَّرْقِ، وَالْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَغَيْرِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَبَعْدَ تَجْرِبَةٍ مَرِيرَةٍ عَانَى النِّسَاءُ مِنْ آثَارِهَا مُعَانَاةً شَدِيدَةً، يَعُودُ الْعَالَمُ مِنْ جَدِيدٍ إِلَى اكْتِشَافِ أَنَّ الِاخْتِلَاطَ شَرٌّ وَبَلَاءٌ عَلَى الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، وَهُوَ مَا نَهَتْ عَنْهُ شَرِيعَةُ اللَّهِ تَعَالَى، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللهُ، وَنَسْأَلُهُ تَعَالَى أَنْ يُثَبِّتَنَا عَلَيْهَا إِلَى المَمَاتِ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ..

❁ ❁ ❁

الخُطبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: مَنْ نَظَرَ إِلَى الْبُحُوثِ الْأَكَادِيمِيَّةِ وَالْإِحْصَائِيَّةِ، وَالدِّرَاسَاتِ المُتَخَصِّصَةِ الْجَادَّةِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِمُشْكِلَةِ خَلْطِ الْفَتَيَاتِ بِالْفِتْيَانِ فِي المَدَارِسِ وَالْجَامِعَاتِ، وَخَلْطِ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ فِي الْوَظَائِفِ وَالمِهَنِ وَالْأَعْمَالِ؛ وَصَلَ إِلَى

مَا قَرَّرَتْهُ الشَّرِيعَةُ الْغَرَّاءُ مِنْ لُزُومِ فَصْلِ الْفَتَيَاتِ عَنِ الْفِتْيَانِ، وَإِبْعَادِ النِّسَاءِ عَنِ الرِّجَالِ، وَإِلَّا كَانَتِ المَصَائِبُ وَالْمُشْكِلَاتُ.

وَأَكْثَرُ هَذِهِ الْبُحُوثِ وَالدِّرَاسَاتِ وَالْإِحْصَاءَاتِ صَدَرَتْ فِي دُوَلٍ عَلْمَانِيَّةٍ نَصْرَانِيَّةٍ سَبَقَتِ الْعَالَمَ فِي الِاخْتِلَاطِ، وَجَرَّبَتْهُ عُقُودًا مُتَتَابِعَةً، ثُمَّ صَدَرَتْ بُحُوثٌ أُخْرَى فِي بِلَادٍ عَرَبِيَّةٍ وَأُخْرَى شَرْقِيَّةٍ أَثْبَتَتْ بِجَلَاءٍ وَوُضُوحٍ أَنَّ مَنْعَ الِاخْتِلَاطِ خَيْرٌ لِلنِّسَاءِ وَالرِّجَالِ وَالْمُجْتَمَعِ بِأَسْرِهِ.

وَلَكِنَّنَا قَدِ ابْتُلِينَا بِصَحَفِيِّينَ وَإِعْلَامِيِّينَ لَا نَدْرِي مَا هُمْ؟ وَلَا كَيْفَ يُفَكِّرُونَ؟ وَلَا مَاذَا يُرِيدُونَ؟

لَا يَحْفِلُونَ بِشَرْعِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا يَرْفَعُونَ بِهِ رَأْسًا، وَلَا يَرْضَوْنَ بِهِ حَكَمًا، حَتَّى نَحْتَكِمَ وَإِيَّاهُمْ فِي قَضِيَّةِ الِاخْتِلَاطِ إِلَى الشَّرِيعَةِ الَّتِي ارْتَضَاهَا لَنَا رَبُّنَا، وَأَمَرَنَا بِهَا!

وَلَيْسُوا مِنْ عُقَلَاءِ الْبَشَرِ، حَتَّى نَحْتَكِمَ وَإِيَّاهُمْ إِلَى بَدَائِهِ الْعَقْلِ وَمُسَلَّمَاتِهِ.

وَلَيْسُوا مِنْ أَهْلِ الدِّرَاسَاتِ وَالْبُحُوثِ وَالْإِحْصَاءِ، حَتَّى نَعْرِضَ قَضَايَا الِاخْتِلَافِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ عَلَى تِلْكَ الدِّرَاسَاتِ وَالْبُحُوثِ وَالْإِحْصَاءَاتِ.

إِنَّهُمْ جَهَلَةٌ فِي تَعْلِيمِهِمْ، مُتَخَلِّفُونَ فِي تَفْكِيرِهِمْ، لَمْ يَتَجَاوَزْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فِي تَعْلِيمِهِ الْأَكَادِيمِيِّ الشَّهَادَةَ الْمُتَوَسِّطَةَ؛ بِسَبَبِ ضَيَاعِهِمْ فِي الْأَنْدِيَةِ وَالشَّوَارِعِ وَالْأَرْصِفَةِ، وَلَا حَظَّ لَهُمْ مِنْ تَجْرِبَةٍ وَخِبْرَةٍ، وَلَيْسَ لَدَيْهِمْ أَثَارَةٌ مِنْ عِلْمٍ وَلَا مَعْرِفَةٍ، وَلَمْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الْقِرَاءَةِ وَالثَّقَافَةِ، غَايَةُ مَعْرِفَتِهِمْ تَتَبُّعُ أَخْبَارِ الْمُغَنِّيَاتِ وَالرَّاقِصَاتِ وَالْمُمَثِّلَاتِ فِي المَلَاحِقِ الْفَنِّيَّةِ وَالرِّيَاضِيَّةِ لِلصُّحُفِ وَالمَجَلَّاتِ.

ثُمَّ فَجْأَةً أُبْرِزُوا لِلنَّاسِ فِي هَيْئَةِ خُبَرَاءَ وَمُفَكِّرِينَ وَمُثَقَّفِينَ، يَلُوكُونَ كَلَامًا

لَا يُدْرِكُونَ أَبْعَادَهُ وَلَوَازِمَهُ، وَيَسْتَعْمِلُونَ أَلْفَاظًا وَمُصْطَلَحَاتٍ لَا يَفْقَهُونَ أَكْثَرَهَا، وَقَدْ أُذِنَ لَهُمْ وَرُبَّما شُجِّعُوا عَلَى أَنْ يَخُوضُوا فِي الْقَضَايَا الْكُبْرَى لِلْأُمَّةِ، وَأَنْ يَرُدُّوا شَرْعَ اللَّهِ تَعَالَى بِمَحْضِ أَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ، وَأَنْ يُنَاكِفُوا بِهَذَيَانٍ كَهَذَيَانِ الْبُلْهِ وَالمَجَانِينِ كِبَارَ عُلَمَاءِ الشَّرِيعَةِ، وَالمُخْتَصِّينَ فِي عُلُومِ النَّفْسِ وَالِاجْتِمَاعِ وَالْحَضَارَةِ، لَا زِمَامَ لِمَقُولَاتِهِمْ وَلَا خِطَامَ، وَلَا تَسْتَنِدُ إِلَى قَوَاعِدَ حَتَّى يُحَاكِمَهَا عُقَلَاءُ الْبَشَرِ إِلَى تِلْكَ الْقَوَاعِدِ؛ لِنَقْصِ عُقُولِهِمْ وَمَعَارِفِهِمْ، وَمَرَضِ قُلُوبِهِمْ وَنَفْسِيَّاتِهِمْ، وَحَقُّ كَثِيرٍ مِنْهُمْ أَنْ يُحْجَرَ عَلَيْهِمْ فِي المَصَحَّاتِ الْعَقْلِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ لِلْعِلَاجِ، لَا أَنْ يُسَوَّدُوا فِي الصُّحُفِ وَالمَجَلَّاتِ وَالْفَضَائِيَّاتِ.

وَمَعَهُمْ لَفِيفٌ مِنَ الْعَجَائِزِ اللِّيبْرَالِيَّاتِ المُتَشَبِّبَاتِ يُرِدْنَ إِفْسَادَ بَنَاتِ المُسْلِمِينَ بِاسْمِ الْإِصْلَاحِ، وَانْتِزَاعِ حُقُوقِ المَرْأَةِ مِنَ المُجْتَمَعِ، وَهُنَّ فَاشِلَاتٌ فِي حَيَاتِهِنَّ، قَدِ امْتَلَأْنَ بِالْعُقَدِ النَّفْسِيَّةِ وَالْيَأْسِ وَالْإِحْبَاطِ؛ بِسَبَبِ عُنُوسَتِهِنَّ فَلَا يَرْضَاهُنَّ عُقَلَاءُ الرِّجَالِ زَوْجَاتٍ لَهُمْ، وَالمُتَزَوِّجَاتُ مِنْهُنَّ فَشِلْنَ فِي حَيَاتِهِنَّ الْأُسَرِيَّةِ؛ فَأَكْثَرُهُنَّ مُطَلَّقَاتٌ، وَمَع ذَلِكَ يَزْعُمْنَ أَنَّهُنَّ مُصْلِحَاتٌ، فَإِنْ كَانَ هَؤُلَاءِ الشُّمْطُ المُتَصَابِيَاتُ قَدْ فَشِلْنَ فِي إِصْلَاحِ أَحْوَالِهِنَّ، وَالمُحَافَظَةِ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ وَبُيُوتِهِنَّ فَكَيْفَ يُصْلِحْنَ غَيْرَهُنَّ؟! مَا أَعْرَضَهَا مِنْ دَعْوَى!!

وَلَنْ يُعْطِيَ المَرْأَةَ حُقُوقَهَا، وَيَضَعَهَا فِي مَكَانِهَا اللَّائِقِ بِهَا إِلَّا مَنْ خَلَقَهَا ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] فَمَنْ عَارَضَ شَرِيعَتَهُ ضُرِبَ بِكَلَامِهِ عُرْضَ الْحَائِطِ كَائِنًا مَنْ كَانَ، وَوَجَبَ الْأَخْذُ عَلَى يَدِهِ، وَرَدُّهُ عَنْ غَيِّهِ وَإِفْسَادِهِ.

وَإِنَّ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَى عُمُومِ المُسْلِمِينَ أَنْ يُوَاجِهُوا الْحَمَلَاتِ المُنَظَّمَةَ لِإِفْسَادِ المَرْأَةِ وَالْأُسْرَةِ، وَأَنْ يَدْفَعُوا المُحَاوَلَاتِ المَكْرُورَةَ لِتَوْسِيعِ مَجَالَاتِ الِاخْتِلَاطِ وَالْفَسَادِ، وَأَنْ يَسْعَوْا فِي رَدْعِ المُفْسِدِينَ وَالمُفْسِدَاتِ؛ دِيَانَةً لِلَّهِ تَعَالَى فِي إِنْكَارِ

مُنْكَرِهِمْ، وَصِيَانَةً لِأَعْرَاضِهِمْ، وَحِفْظًا لِنِسَائِهِمْ وَبَنَاتِهِمْ؛ فَإِنَّ الْبُلْدَانَ الَّتِي سَبَقَتْ إِلَى الِاخْتِلَاطِ يُعَانِي نِسَاؤُهَا مُشْكِلَاتٍ تِلْوَ مُشْكِلَاتٍ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ الْمُفْسِدُونَ نَشْرَ الِاخْتِلَاطِ وَتَعْمِيمَهُ أَصَابَنَا مَا أَصَابَ غَيْرَنَا، وَلَنْ يُوقِفَهُمْ عَنْ غَيِّهِمْ إِلَّا وُقُوفُكُمْ -عِبَادَ اللَّهِ- فِي وُجُوهِهِمْ، وَفَضْحُ مُخَطَّطَاتِهِمْ، وَبَيَانُ عُوَارِهِمْ، وَكَشْفُ زَيْفِهِمْ، بِالِاحْتِسَابِ عَلَيْهِمْ، وَنَشْرِ مَا صَدَرَ مِنْ دِرَاسَاتٍ وَإِحْصَاءَاتٍ تُثْبِتُ ضَرَرَ الِاخْتِلَاطِ، وَذَلِكَ مَسْئُولِيَّةُ الْجَمِيعِ، وَلَا يَخْتَصُّ بِأَحَدٍ دُونَ أَحَدٍ؛ فَإِنَّ الْفَسَادَ إِنِ انْتَشَرَ عَمَّ ضَرَرُهُ الْجَمِيعَ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٢٦ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٦، ٢٧].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .





٢٩٥- من أحكام السفر وآدابه (١)
السفر بين الطاعة والمعصية

٦/ ٥/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ خَلَقَ الْبَشَرَ لِيَعْبُدُوهُ، وَرَزَقَهُمْ لِيَشْكُرُوهُ وَلَا يَكْفُرُوهُ، نَحْمَدُهُ عَلَى عَظِيمِ نِعَمِهِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى تَتَابُعِ مِنَنِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِيَدِهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النَّحل: ٩٦]، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ بَشَّرَ أُمَّتَهُ وَأَنْذَرَهُمْ، وَمَا مِنْ خَيْرٍ إِلَّا دَلَّهُمْ عَلَيْهِ، وَلَا شَرٍّ إِلَّا حَذَّرَهُمْ مِنْهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَرَاقِبُوهُ فَلَا تَعْصُوهُ، اتَّقُوهُ فِي أَنْفُسِكُمْ وَرَعَايَاكُمْ، وَاتَّقُوهُ فِي حِلِّكُمْ وَتَرْحَالِكُمْ؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبٌ، وَبِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ مِنْ أَقْوَالِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ وَمَقَاصِدِكُمْ ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٥٤]، ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٧، ٨].

أَيُّهَا النَّاسُ: لِلنُّفُوسِ الْبَشَرِيَّةِ إِقْبَالُهَا وَإِدْبَارُهَا، وَلَهَا ضَرُورَاتُهَا وَحَاجَاتُهَا، وَقَدْ رَاعَى الْإِسْلَامُ مَا فِي النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ مِنْ حُبٍّ لِلشَّهَوَاتِ؛ فَأَبَاحَ مِنَ الشَّهَوَاتِ مَا يَنْفَعُهَا وَيُنَشِّطُهَا، وَحَرَّمَ عَلَيْهَا مَا يَضُرُّهَا وَيُوبِقُهَا، وَمَا مِنْ شَهْوَةٍ مُحَرَّمَةٍ فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا وَيُغْنِي عَنْهَا مَا هُوَ خَيْرٌ وَأَنْفَعُ مِنْهَا.

إِنَّ الْإِسْلَامَ وَإِنْ كَانَ دِينَ الْجِدِّ وَالْعَمَلِ، وَيُرَبِّي أَتْبَاعَهُ عَلَى الِاقْتِصَادِ فِي اللَّهْوِ وَالْعَبَثِ، وَيُوَجِّهُهُمْ إِلَى الْآخِرَةِ عِوَضًا عَنِ الدُّنْيَا وَمَلَذَّاتِهَا؛ فَإِنَّهُ كَذَلِكَ أَبَاحَ لَهُمْ

مِنْ لَذَائِذِ الدُّنْيَا مَا يَكُونُ عَوْنًا عَلَى الطَّاعَةِ، وَسَبَبًا لِاجْتِنَابِ الْمُحَرَّمِ.

وَتَكُونُ هَذِهِ اللَّذَّاتُ الْمُبَاحَةُ عِبَادَاتٍ يُؤْجَرُ عَلَيْهَا صَاحِبُهَا إِذَا أَحْسَنَ النِّيَّةَ فِيهَا؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ**، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: **أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(١)].

وَلَمَّا قَالَ حَنْظَلَةُ الْأُسَيِّدِيُّ رضي الله عنه: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(٢)].

وَلَمَّا أَرَادَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو رضي الله عنهما أَنْ يَأْخُذَ نَفْسَهُ بِالْجِدِّ، وَيُفَرِّغَهَا لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ؛ رَغْبَةً فِي الْآخِرَةِ، وَإِعْرَاضًا عَنِ الدُّنْيَا؛ تَعَقَّبَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي سِيرَتِهِ تِلْكَ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**يَا عَبْدَ اللَّهِ، أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ وَتَقُومُ اللَّيْلَ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَلَا تَفْعَلْ، صُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ؛ فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[(٣)].

---

(١) أخرجه من حديث أبي ذر رضي الله عنه: مسلم في الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (١٠٠٦)، وأحمد (٥/ ١٦٧)، وابن حبان (٤١٦٧).

(٢) أخرجه مسلم في التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة... (٢٧٥٠)، والترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع، باب (٥٩) (٢٥١٤)، وابن ماجه في الزهد، باب المداومة على العمل (٤٢٣٩)، وأحمد (٤/ ١٧٨).

(٣) أخرجه البخاري في النكاح باب لزوجك عليك حقًّا (٤٩٠٣)، ومسلم في الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تعذر به أو فوت به حقًّا... (١١٥٩).

فَأَخْذُ النَّفْسِ بِالْجِدِّ دَائِمًا قَدْ يُؤَدِّي إِلَى المَلَلِ وَالسَّأَمِ، وَمِنْ ثَمَّ تَرْكِ كُلِّ الْعَمَلِ، وَقَدْ نُقِلَ عَنْ عَلِيٍّ ﷺ قَوْلَهُ: «أَجِمُّوا هَذِهِ الْقُلُوبَ، وَالْتَمِسُوا لَهَا طَرَائِفَ الْحِكْمَةِ؛ فَإِنَّهَا تَمَلُّ كَمَا تَمَلُّ الْأَبْدَانُ»(٤).

وَكَذَلِكَ الزِّيَادَةُ فِي اللَّهْوِ وَالتَّرْوِيحِ، وَالِانْغِمَاسُ فِي المَلَذَّاتِ وَلَوْ كَانَتْ مُبَاحَةً سَبَبٌ لِمَوْتِ الْقَلْبِ، وَالْإِقْبَالِ عَلَى الدُّنْيَا، وَالْإِعْرَاضِ عَنِ الْآخِرَةِ، وَالْخِيَارُ فِي ذَلِكَ المُوَازَنَةُ بَيْنَ حُقُوقِ الْآخِرَةِ، وَحُظُوظِ النَّفْسِ مِنَ الدُّنْيَا.

وَلِلنَّاسِ فِي التَّرْوِيحِ وَالسَّعَةِ مَذَاهِبُ يَتَّبِعُونَهَا، وَطَرَائِقُ يَسْلُكُونَهَا: مِن اتِّخَاذِ المَزَارِعِ وَالضَّيْعَاتِ، وَالْخُرُوجِ إِلَى المُتَنَزَّهَاتِ وَالِاسْتِرَاحَاتِ، فِي أَنْوَاعٍ مِنَ اللَّهْوِ المُبَاحِ وَغَيْرِ المُبَاحِ.

وَمِنْ أَشْهَرِ أَنْوَاعِ التَّرْوِيحِ وَالتَّنْفِيسِ عَنِ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ: السَّفَرُ مِنْ بَلَدِهِ إِلَى بِلَادٍ أُخْرَى، إِمَّا لِأَنَّهَا مَسْقَطُ رَأْسِهِ، وَبَلَدُ آبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ، وَإِمَّا لِمِيزَاتٍ أُخْرَى دَعَتْهُ إِلَيْهَا، وَجَعَلَتْهُ يُقَدِّمُهَا عَلَى غَيْرِهَا.

وَغَالِبُ الْبَشَرِ يُقَدِّمُونَ السَّفَرَ لِلتَّنْفِيسِ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ أَنْوَاعِ التَّرْفِيهِ وَالتَّرْوِيحِ، وَيَجْعَلُونَهُ تَاجَهَا وَرَأْسَهَا، وَلَا بُدَّ مِنْهُ فِي كُلِّ عَامٍ عِنْدَ أَكْثَرِ النَّاسِ مِمَّنْ يُطِيقُونَهُ وَيَجِدُونَ نَفَقَاتِهِ.

وَالسَّفَرُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ سَفَرَ طَاعَةٍ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ سَفَرَ مَعْصِيَةٍ، وَالمُبَاحُ مِنْهُ يَؤُولُ بِالنِّيَّةِ وَالْعَمَلِ إِلَى أَحَدِهِمَا وَلَا بُدَّ.

وَمِنْ سَفَرِ الطَّاعَةِ: السَّفَرُ لِلْجِهَادِ أَوِ الرِّبَاطِ، أَوْ طَلَبِ الْعِلْمِ، أَوْ صِلَةِ

---

(٤) أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق (٣٣٨)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (١/ ١٠٥)، والسمعاني في أدب الإملاء والاستملاء (٦٨)، والخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ١٢٩) رقم (١٣٧).

الرَّحِمِ، أَوْ زِيَارَةِ الْإِخْوَانِ فِي اللَّهِ تَعَالَى.

وَمِنْ سَفَرِ المَعْصِيَةِ: السَّفَرُ لِلسَّرِقَةِ، أَوْ قَطْعِ الطَّرِيقِ، أَوِ الزِّنَا، أَوِ الْقِمَارِ، أَوِ الْخَمْرِ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ المُحَرَّمَاتِ.

وَالسَّفَرُ لِلتَّرْوِيحِ وَالتَّرْفِيهِ هُوَ مِنَ المُبَاحَاتِ الَّتِي تَؤُولُ إِلَى الطَّاعَةِ أَوْ إِلَى المَعْصِيَةِ.

فَإِنْ سَافَرَ إِلَى بَلَدٍ يُقَامُ فِيهَا دِينُ اللَّهِ تَعَالَى، وَيُحْكَمُ فِيهِ بَيْنَ أَهْلِهَا بِشَرِيعَتِهِ، وَأَحْكَامُ الْإِسْلَامِ فِيهَا ظَاهِرَةٌ، وَالدِّينُ فِيهَا عَزِيزٌ، مَعَ قِيَامِهِ فِي نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَرُفْقَتِهِ بِمَا أَمَرَ اللهُ تَعَالَى مِنْ فِعْلِ المَأْمُورَاتِ، وَاجْتِنَابِ المَحْظُورَاتِ، فَهَذَا سَفَرٌ مُبَاحٌ لَا ضَيْرَ عَلَى الْعَبْدِ فِيهِ، وَلَا فِيمَا أَنْفَقَهُ مِنْ نَفَقَاتٍ عَلَيْهِ.

فَإِنِ اقْتَرَنَ بِذَلِكَ نِيَّةٌ صَالِحَةٌ مِنْ قَصْدِ إِدْخَالِ السُّرُورِ عَلَى أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ، وَجَعْلِهِمْ تَحْتَ عِلْمِهِ وَبَصَرِهِ، وَحِفْظِهِمْ مِنَ الْفَرَاغِ وَرُفْقَةِ السُّوءِ فِي بَلَدِهِ، أَوْ أَرَادَ بِسَفَرِهِ نَشَاطَ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالتَّفَكُّرِ فِي عَجَائِبِ خَلْقِهِ وَقُدْرَتِهِ؛ كَانَ سَفَرُهُ سَفَرَ طَاعَةٍ، وَلَهُ مِنَ الْأَجْرِ فِيهِ عَلَى حَسَبِ نِيَّتِهِ، وَنَفَقَتُهُ فِيهِ مَخْلُوفَةٌ عَلَيْهِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

وَأَمَّا إِنْ كَانَتْ وِجْهَةُ سَفَرِهِ إِلَى بِلَادٍ كَافِرَةٍ، الْكُفْرُ فِيهَا عَزِيزٌ، وَالْإِسْلَامُ فِيهَا ضَعِيفٌ، وَحُرُمَاتُ اللَّهِ تَعَالَى تُنْتَهَكُ فِيهَا جِهَارًا نَهَارًا وَلَا نَكِيرَ، فَهَذَا سَفَرُ مَعْصِيَةٍ لَا خَيْرَ فِيهِ، وَإِثْمُهُ أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِ. وَهَكَذَا إِنْ سَافَرَ إِلَى بِلَادٍ تَتَسَمَّى بِالْإِسْلَامِ وَلَيْسَ الْإِسْلَامُ فِيهَا ظَاهِرًا، بَلِ الظَّاهِرُ فِيهَا الْكُفْرُ وَالْفُسُوقُ وَالْعِصْيَانُ. وَلَمْ يُرَخِّصِ الْعُلَمَاءُ فِي السَّفَرِ إِلَيْهَا إِلَّا لِضَرُورَةٍ لَا بُدَّ مِنْهَا، أَوْ حَاجَةٍ مُلِحَّةٍ، بِشَرْطِ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ هَذَا المُسَافِرِ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ رُفْقَتِهِ عِلْمٌ يَدْفَعُ بِهِ الشُّبُهَاتِ، وَأَنْ يَكُونَ عِنْدَهُ دِينٌ يَمْنَعُهُ مِنَ الشَّهَوَاتِ.

فَإِنْ خَشِيَ عَلَى نَفْسِهِ مِنَ الزَّيْغِ وَالضَّلَالِ، أَوْ كَانَ ضَعِيفًا أَمَامَ الشَّهَوَاتِ، فَالسَّلَامَةُ لَا يَعْدِلُهَا شَيْءٌ، وَلَعَلَّ ضَرُورَتَهُ أَوْ حَاجَتَهُ تَنْدَفِعُ بِغَيْرِ هَذَا السَّفَرِ، وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا، وَمَنْ تَرَكَ شَيْئًا لِلَّهِ تَعَالَى عَوَّضَهُ اللهُ تَعَالَى خَيْرًا مِنْهُ.

إِنَّ السَّفَرَ إِلَى بِلَادٍ تَعِجُّ بِأَنْوَاعِ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ لَمِمَّا يَضُرُّ الْمُسْلِمَ فِي دِينِهِ، فَكَيْفَ إِذَا اصْطَحَبَ مَعَهُ أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ، وَهُمْ أَمَانَةٌ فِي عُنُقِهِ، وَأَضْرَارُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ، وَآثَامُهُ عَظِيمَةٌ: فَمَنِ اخْتَارَ بِلَادًا كَافِرَةً مَوْطِنًا لِسِيَاحَتِهِ، وَمَقَرًّا لِإِجَازَتِهِ فَقَدْ أَجَازَ لِنَفْسِهِ الْإِقَامَةَ بَيْنَ ظَهْرَانَي الْمُشْرِكِينَ بِلَا ضَرُورَةٍ وَلَا حَاجَةٍ، فَيُخْشَى عَلَيْهِ مِنْ بَرَاءَةِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْهُ؛ كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ**»(٥).

فَإِنْ وَقَعَتْ لَهُ مُشْكِلَةٌ اضْطَرَّتْهُ إِلَى مَحَاكِمِهِمْ فَقَدْ تَحَاكَمَ إِلَى الطَّاغُوتِ بِلَا اخْتِيَارٍ مِنْهُ، وَقَدْ كَانَ فِي عَافِيَةٍ مِنْ ذَلِكَ.

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي السَّفَرِ مِنَ الْحَرَجِ وَالْإِثْمِ إِلَى بِلَادٍ يَظْهَرُ فِيهَا الْكُفْرُ وَالْفُجُورُ وَيُعْلِنُ النَّاسُ بِهِ إِلَّا أَنَّ هَذَا الْمُسَافِرَ الْمُسْلِمَ يَرَى الْمُنْكَرَ فَلَا يُنْكِرُهُ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يُغَيِّرَهُ وَيُزِيلَهُ؛ لَكَانَ كَافِيًا فِي صَرْفِهِ عَنْهُ، وَالِاسْتِعَاضَةِ بِمَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ. وَكَمْ يَمُرُّ بِهِ فِي يَوْمِهِ وَلَيْلَتِهِ مِنْ مُنْكَرَاتٍ يَأْثَمُ بِحُضُورِهَا وَعَدَمِ إِنْكَارِهَا؟ وَلَازِمٌ عَلَى مَنْ حَضَرَ مُنْكَرًا أَنْ يُنْكِرَهُ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يُفَارِقَ مَكَانَهُ.

بَلْ إِنَّ إِدْمَانَهُ عَلَى مُشَاهَدَةِ الْمُنْكَرَاتِ يَكُونُ سَبَبًا فِي تَغَيُّرِ قَلْبِهِ، وَرِقَّةِ دِينِهِ؛ فَإِنْ

---

(٥) أخرجه من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه: أبو داود في الجهاد، باب النهي عن قتل من اعتصم بالسجود (٢٦٤٥)، والترمذي في السير، باب ما جاء في كراهية المقام بين أظهر المشركين (١٦٠٤)، والنسائي في القسامة، باب القود بغير حديدة (٨/ ٣٦)، واختلف في وصله وإرساله، ورجح البخاري إرساله كما في علل الترمذي (٤٨٣)، وصححه الألباني في الإرواء (١٢٠٧).

سَلِمَ هُوَ مِنْ أَكْثَرِ ذَلِكَ لِعُزْلَتِهِ فِي مَسْكَنِهِ أَوْ مُنْتَجَعِهِ؛ لَمْ يَسْلَمْ مَنْ مَعَهُ مِنْ أَهْلٍ وَوَلَدٍ وَرُفْقَةٍ، وَآثَامُهُمْ عَلَى رَقَبَتِهِ.

وَإِنَّ تَغَيُّرَ أَخْلَاقِ كَثِيرٍ مِنْ نِسَاءِ الْمُجْتَمَعِ وَفَتَيَاتِهِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْحِجَابِ الشَّرْعِيِّ حَتَّى اسْتُبْدِلَ بِهِ اللِّثَامُ وَالنِّقَابُ وَاللِّبَاسُ الضَّيِّقُ، وَالتَّوَسُّعِ فِي كَشْفِ الْوَجْهِ، وَإِظْهَارِ الزِّينَةِ، فِي أَنْوَاعٍ مِنَ الْغُرُورِ وَالِاسْتِعْرَاضِ مَا هُوَ إِلَّا مِنْ بَلَاءِ السَّفَرِ وَالْإِعْلَامِ، فَالمَرْأَةُ الرَّحَّالَةُ مَعَ أَهْلِهَا شَرْقًا وَغَرْبًا قَدْ أَلِفَتْ نَزْعَ الْحِجَابِ فِي غَيْرِ بَلَدِهَا، مَعَ اخْتِلَاطِهَا بِالرِّجَالِ، وَبِنَزْعِهَا لِحِجَابِهَا نُزِعَ حَيَاؤُهَا، فَثَقُلَ عَلَيْهَا أَنْ تُعِيدَهُ كَمَا كَانَ إِذَا عَادَتْ إِلَى بَلَدِهَا!! وَكُلُّ هَذِهِ الْآثَامِ يَتَحَمَّلُهَا وَلِيُّهَا، مَعَ بَقَاءِ إِثْمِهَا عَلَيْهَا. نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يُخَفِّفَ عَنَّا وَعَنِ الْمُسْلِمِينَ.

وَمِنْ أَعْظَمِ مَا يَكُونُ سَبَبًا لِلْإِعْجَابِ بِالْكُفَّارِ وَمَذَاهِبِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ وَطَرَائِقِ عَيْشِهِمْ مِثْلُ هَذِهِ الْأَسْفَارِ المَشْؤُومَةِ؛ حَتَّى صَارَتِ المُجَاهَرَةُ بِمَدِيحِهِمْ عَلَانِيَةً فِي الصُّحُفِ وَغَيْرِهَا مَعَ نِهَايَةِ كُلِّ صَيْفٍ، فَكُلُّ كَاتِبٍ مُعْجَبٍ بِهِمْ، أَقَامَ صَيْفَهُ فِي أَحْضَانِهِمْ، يَعُودُ إِلَى بَلَدِهِ لِيَنْفُثَ جَهَالَاتِهِ وَضَلَالَاتِهِ عَلَى النَّاسِ، مَدْحًا لِلْكُفَّارِ، وَإِعْجَابًا بِهِمْ، وَشَتْمًا فِي بَلَدِهِ وَأَهْلِهِ وَبُغْضًا لَهُمْ، وَهُوَ يَأْكُلُ مِنْ خَيْرِهِمْ، وَيَتَفَيَّأُ ظِلَالَهُمْ، فَمَا أَجْحَدَهُ! وَمَا أَنْكَرَهُ! ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧].

وَمَا عَلِمَ هَذَا الْمِسْكِينُ المُعْجَبُ بِمَا لَا يُعْجِبُ الْعُقَلَاءَ مِنْ بَنِي آدَمَ أَنَّ الْكُفْرَ أَعْظَمُ الذُّنُوبِ، وَأَنَّ المُتَلَبِّسَ بِهِ مَهْمَا كَانَتْ أَخْلَاقُهُ عَالِيَةً، وَابْتِسَامَتُهُ عَرِيضَةً، وَتَعَامُلُهُ حَسَنًا؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يُقَرِّبُهُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى طَرْفَةَ عَيْنٍ، بَلْ هُوَ مَمْقُوتٌ عِنْدَهُ سُبْحَانَهُ وَإِنْ عَمِلَ صَالِحًا فِي الدُّنْيَا عُجِّلَتْ لَهُ حَسَنَتُهُ فِيهَا؛ حَتَّى لَا يَبْقَى لَهُ شَيْءٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى يُحَاجِجُهُ بِهِ، فَيُوَافِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يُوَافِي وَلَا حَسَنَةَ لَهُ، وَقَدِ اسْتَحَقَّ النَّارَ خَالِدًا فِيهَا مُخَلَّدًا إِنْ مَاتَ عَلَى كُفْرِهِ، فَمَنْ يُعْجَبُ بِمَنْ كَانَتْ هَذِهِ

حَالَهُ وَمَنْزِلَتَهُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، وَتِلْكَ نِهَايَتُهُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ؟!

وَاللَّهِ لَا يُعْجَبُ بِهِ، وَلَا يُثْنِي عَلَيْهِ، وَلَا يَرْضَى بِحَالِهِ إِلَّا مَرِيضُ الْقَلْبِ، مَغْمُوصٌ عَلَيْهِ فِي النِّفَاقِ، أَوْ جَاهِلٌ أَخْرَقُ لَا يَدْرِي مَا يَقُولُ.

وَكُلُّ الَّذِينَ يُنَادُونَ بِالتَّغْرِيبِ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ مَا هُمْ إِلَّا ضَحَايَا لِهَذِهِ الْأَسْفَارِ الْمُحَرَّمَةِ حَتَّى لُوِّثَتْ عُقُولُهُمْ بِالشُّبُهَاتِ، وَتَمَلَّكَهُمْ حُبُّ الشَّهَوَاتِ، فَهِيَ الَّتِي تُسَيِّرُهُمْ فِي دَعَوَاتِهِمُ التَّخْرِيبِيَّةِ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى لَنَا وَلَهُمُ الْهِدَايَةَ، وَأَنْ يَكْفِيَ الْمُسْلِمِينَ شُرُورَ دَعَوَاتِهِمْ وَمَشْرُوعَاتِهِمْ.

وَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ بَعْضَ أَضْرَارِ السَّفَرِ لِبِلَادِ الْكُفْرِ وَالْفُجُورِ فَكَيْفَ يَسُوغُ لِعَاقِلٍ أَنْ يُورِدَ نَفْسَهُ وَمَنْ يُحِبُّ مِنْ أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ هَذِهِ الْمَهَالِكَ فِي الدِّينِ مِنْ أَجْلِ مُتْعَةٍ عَابِرَةٍ، وَلَذَّةٍ زَائِلَةٍ؟!

هَذَا إِنْ سَلِمَ هُوَ وَأَهْلُهُ وَوَلَدُهُ مِنَ الْوُقُوعِ فِي كَبَائِرِ الذُّنُوبِ، وَعَظَائِمِ الْمُوبِقَاتِ، وَقَلَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَسْلَمُ؛ لِغَلَبَةِ الشَّهْوَةِ، وَقُوَّةِ الدَّافِعِ، وَغِيَابِ الرَّادِعِ، إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللهُ تَعَالَى، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ.

وَكَمْ نَقَلَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسَافِرِينَ أَمْرَاضًا جِنْسِيَّةً لِأَهْلِهِمْ وَمُجْتَمَعِهِمْ لَا عَافِيَةَ مِنْهَا إِلَّا بِاجْتِنَابِ مَا حَرَّمَ اللهُ تَعَالَى مِنَ الْخَبَائِثِ، وَالِاكْتِفَاءِ بِالْحَلَالِ الطَّيِّبِ!

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- وَاجْتَنِبُوا مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ، وَرَاقِبُوهُ فِي كُلِّ أَحْوَالِكُمْ، وَاسْتَعِيضُوا بِالْحَلَالِ الطَّيِّبِ عَنِ الْحَرَامِ الْخَبِيثِ؛ فَإِنَّ فِيهِ الْخَيْرَ وَالْبَرَكَةَ، وَإِنَّ الْحَرَامَ لَا يُشْبَعُ مِنْهُ، وَعَاقِبَتُهُ شَقَاءٌ فِي الدُّنْيَا، وَعَذَابٌ فِي الْآخِرَةِ، وَاحْفَظُوا أَنْفُسَكُمْ وَرَعَايَاكُمْ مِنْ أَهْلٍ وَوَلَدٍ مِنْ مُوجِبَاتِ غَضَبِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ

شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التَّحْرِيم: ٦].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.

❁ ❁ ❁

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الْأَمِينُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَرَاقِبُوهُ، وَالْزَمُوا طَاعَتَهُ وَلَا تَعْصُوهُ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النُّور: ٥٢].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: خَلَقَ اللهُ تَعَالَى الْخَلْقَ لِعِبَادَتِهِ، وَوَاجِبٌ عَلَى مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ تَعَالَى رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ نَبِيًّا؛ أَنْ يُرَاقِبَ اللهَ تَعَالَى فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ، وَأَنْ يَصْدُرَ عَنْ شَرِيعَتِهِ، وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يُقَدِّمَ هَوَاهُ وَهَوَى أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى؛ فَإِنَّ ذَلِكَ سَبَبُ الزَّيْغِ وَالضَّلَالِ ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النُّور: ٦٣]، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٣٦].

وَقَدْ جَعَلَ اللهُ تَعَالَى فِي التَّرْوِيحِ الْحَلَالِ وَالسَّفَرِ الْمُبَاحِ مَنْدُوحَةً وَغِنًى لِلْمُؤْمِنِ عَنْ كُلِّ سَفَرٍ مُحَرَّمٍ.

وَمِنْ عَجِيبِ أَمْرِ بَعْضِ الْمُسَافِرِينَ أَنَّهُمْ يُنْفِقُونَ مَالًا عَظِيمًا فِي أَسْفَارِهِمْ،

لَا يُنْفِقُونَ عُشْرَهُ فِي مَجَالَاتِ الْخَيْرِ، وَنَفْعِ النَّاسِ، وَالصَّدَقَةِ عَلَى الْفُقَرَاءِ.

وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ وَاحِدَهُمْ يَزْعُمُ مَحَبَّةَ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَحَبَّةَ رَسُولِهِ ﷺ، وَهُوَ فِي كُلِّ سَنَةٍ يَقْطَعُ آلَافَ الْأَمْيَالِ فِي سَفَرٍ مُحَرَّمٍ، وَيُصَبِّرُ نَفْسَهُ عَلَى الرَّهَقِ وَالْعُسْرِ وَالزِّحَامِ فِي المَطَارَاتِ وَغَيْرِهَا، وَمَكَّةُ وَالمَدِينَةُ قَرِيبَتَانِ مِنْهُ، فَيَغِيبُ عَنْهُمَا سَنَةً وَسَنَتَيْنِ، بَلْ عَشْرًا وَعِشْرِينَ، وَلَرُبَّمَا أَنْكَرَ عَلَى وَلَدِهِ أَوْ قَرَابَتِهِ كَثْرَةَ الْعُمْرَةِ وَزِيَارَةِ المَدِينَةِ، بِحُجَّةِ الزِّحَامِ وَالْحَرِّ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَهُوَ لَمْ يَمْنَعْهُ تَكَلُّفُ صِعَابٍ أَعْظَمَ، وَمَسَافَاتٍ أَطْوَلَ، وَنَفَقَاتٍ أَكْثَرَ مِنْ سَفَرِهِ المُحَرَّمِ، فَأَيُّ حِرْمَانٍ وَخِذْلَانٍ لِمَنْ كَانَ هَذَا حَالَهُ؟! نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى السَّلَامَةَ وَالْهِدَايَةَ.

وَمَنْ أَبَى مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ إِلَّا أَنْ يَخْتَارَ السَّفَرَ المُحَرَّمَ، وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى كَبْحِ جِمَاحِ شَهْوَتِهِ عَنْهُ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَتَّقِيَ اللهَ تَعَالَى فِي سَفَرِهِ، وَأَنْ يُرَاقِبَ أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ، وَأَنْ يَدْعُوَ إِلَى الْإِسْلَامِ مَنْ خَالَطَهُ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ، أَوْ إِلَى الطَّاعَةِ مَنْ رَآهُ مِنَ المُسْلِمِينَ عَلَى مَعْصِيَةٍ؛ لَعَلَّهُ بِذَلِكَ أَنْ يُكَفِّرَ بَعْضَ سَيِّئَاتِ سَفَرِهِ.

وَأَمَّا تَرْكُهُ أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ يَسْرَحُونَ وَيَمْرَحُونَ كَيْفَ شَاءُوا، وَيَأْتُونَ مِنَ الْمُنْكَرَاتِ مَا أَرَادُوا؛ فَذَلِكَ مِنْ تَضْيِيعِ الْأَمَانَةِ، وَخِيَانَةِ الدِّيَانَةِ، وَهُمْ مُتَعَلِّقُونَ بِرَقَبَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا مَحَالَةَ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ.

كَمَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُلْزِمَ زَوْجَهُ وَبَنَاتِهِ الْحِجَابَ الشَّرْعِيَّ حَتَّى لَوْ كَانُوا فِي بِلَادٍ لَا يَلْتَزِمُهُ أَهْلُهَا؛ إِذْ إِنَّ الْوُقُوعَ فِي المُحَرَّمِ -وَهُوَ السَّفَرُ إِلَى تِلْكَ الْبِلَادِ- لَا يُسَوِّغُ المُحَرَّمَاتِ الْأُخْرَى.

وَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُلْزِمَ رُفْقَتَهُ بِإِقَامِ الصَّلَاةِ فِي وَقْتِهَا، فَكَمْ تُنْسَى الصَّلَاةُ فِي بِلَادٍ لَا تُرَى فِيهَا المَسَاجِدُ إِلَّا قَلِيلًا، وَلَا يُعْلَنُ بِالنِّدَاءِ لِلصَّلَاةِ فِيهَا؟! فَلَعَلَّ مَنْ حَافَظَ عَلَى دِينِهِ أَنْ يَرْزُقَهُ اللهُ تَعَالَى وَأَهْلَهُ وَوَلَدَهُ خَشْيَةً وَصَلَاحًا فِي قُلُوبِهِمْ، تَجْعَلُهُمْ

يَسْتَغْنُونَ عَمَّا حَرَّمَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِمَا أَحَلَّ لَهُمْ، فَيُعْتَقُونَ مِنْ أَسْرِ هَذِهِ المَعَاصِي وَالْآثَامِ.

وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُبْدِيَ إِعْجَابَهُ بِأَحْوَالِ الْكُفَّارِ، وَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ حُسْنِ المَعِيشَةِ وَالْحَالِ دُونَ أَنْ يَقْرِنَ ذَلِكَ بِالتَّحْذِيرِ مِنْ كُفْرِهِمْ، وَبَيَانِ سُوءِ عَاقِبَتِهِمْ؛ لِئَلَّا يَغْتَرَّ بِمَدِيحِهِ ضِعَافُ الْقَلْبِ وَالْإِيمَانِ.

وَالثَّنَاءُ عَلَى الْكُفَّارِ وَمَدْحُهُمْ بِإِطْلَاقٍ سَبَبٌ لِمَحَبَّتِهِمْ وَمَوَدَّتِهِمْ، وَمَحَبَّةِ مَنَاهِجِهِمْ وَطَرَائِقِ عَيْشِهِمْ؛ وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المُجَادَلَة: ٢٢].

كَمَا أَنَّهُ سَبَبٌ لِتَوَلِّيهِمْ وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [المَائِدَة: ٥١].

وَهُوَ كَذَلِكَ سَبَبٌ لِتَقْلِيدِهِمْ، وَالتَّشَبُّهِ بِهِمْ فِيمَا أُعْجِبَ بِهِ مِنْهُمْ؛ وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»(٦).

(٦) أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أبو داود في اللباس، باب في لبس الشهرة (٤٠٣١)، وأحمد (٢/ ٥٠)، وعبد بن حميد (٨٤٨)، وساق ابن تيمية في الاقتضاء سند أبي داود وقال: وهذا إسناد جيد (٨٢)، وقال الذهبي في السير: إسناده صالح (١٥/ ٥٠٩)، وصححه العراقي في المغني عن حمل الأسفار (٨٥١)، وحسنه الحافظ في الفتح (١٠/ ٣٧١)، وقال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة: حديث حسن صحيح (١٤/ ٢٤) في ثنايا كلامه على الحديث رقم (٦٥٠٩).

وَالْوَاجِبُ عَلَيْهِ إِبْرَازُ قَبَائِحِهِمْ، وَإِظْهَارُ مَعَايِبِهِمْ، وَانْتِقَادُ طَرَائِقِ عَيْشِهِمْ؛ تَحْذِيرًا لِنَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ مِنْ سُلُوكِ مَسْلَكِهِمْ، وَانْتِهَاجِ نَهْجِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ النَّارِ إِنْ لَقُوا اللهَ تَعَالَى عَلَى كُفْرِهِمْ، وَأَهْلُ النَّارِ لَا يُمْدَحُونَ بِإِطْلَاقٍ، بَلْ هُمْ أَهْلُ المَذَمَّةِ وَالْقَدْحِ، نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى الْعَافِيَةَ مِنْ حَالِهِمْ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا . . .





٢٩٦- من أحكام السفر وآدابه (٢) بعض أحكام السفر

٧/٦/١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ هَدَانَا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَشَرَعَ لَنَا دِينًا قَوِيمًا ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١] نَحْمَدُهُ عَلَى تَتَابُعِ نِعَمِهِ، وَتَرَادُفِ آلَائِهِ وَمِنَنِهِ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ لَا رَبَّ لَنَا سِوَاهُ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَعْلَمُ الْخَلْقِ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَأَتْقَاهُمْ لَهُ، أَعْلَى اللهُ تَعَالَى ذِكْرَهُ فِي الْعَالَمِينَ، وَجَعَلَهُ حُجَّةً عَلَى الْبَشَرِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أُولِي الْبِرِّ وَالْهُدَى، وَأَصْحَابِ الْفَضْلِ وَالتُّقَى، وَمَنْ تَبِعَهُمْ وَسَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ وَاقْتَفَى.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاعْمَلُوا صَالِحًا لِغَدِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ مُفَارِقُونَ دُنْيَاكُمْ إِلَى أُخْرَاكُمْ، وَمُرْتَحِلُونَ عَنْ قُصُورِكُمْ إِلَى قُبُورِكُمْ، وَمَسْئُولُونَ عَنْ أَعْمَالِكُمْ؛ فَأَعِدُّوا لِلسُّؤَالِ جَوَابًا، وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ بِالدُّنْيَا، فَإِنَّهَا لَا تَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ۝ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٥، ٦].

أَيُّهَا النَّاسُ: إِذَا وَسَّعَ اللهُ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ فِي الرِّزْقِ، وَفَتَحَ عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّهُمْ يُفْتَنُونَ بِهَا، وَيَتَفَنَّنُونَ فِي مُتَعِهَا وَمَلَذَّاتِهَا؛ حَتَّى تَتَحَوَّلَ الْوَسَائِلُ عِنْدَهُمْ إِلَى غَايَاتٍ، وَالْكَمَالِيَّاتُ إِلَى ضَرُورَاتٍ.

وَفِي هَذَا الْعَصْرِ بَلَغَتِ الرَّفَاهِيَةُ بِالْوَاجِدِينَ أَوْجَهَا، وَانْتَهَتْ بِهِمْ إِلَى كَمَالِهَا، فِي مَآكِلِهِمْ وَمَشَارِبِهِمْ وَمَرَاكِبِهِمْ، وَفِي مَسَاكِنِهِمْ وَمَلَابِسِهِمْ وَمَرَاقِدِهِمْ، وَفِي حِلِّهِمْ وَتَرْحَالِهِمْ.

وَأَضْحَتِ الْمُتْعَةُ وَالرَّفَاهِيَةُ فَنًّا مِنَ الْفُنُونِ، وَتِجَارَةً مِنَ التِّجَارَاتِ؛ تُدَرَّسُ فِي المَعَاهِدِ وَالْجَامِعَاتِ، وَتُخَصُّ بِالتَّدْرِيبَاتِ وَالدَّوْرَاتِ، وَيَتَدَاعَى لِمَشْرُوعَاتِهَا التُّجَّارُ وَالْأَغْنِيَاءُ، فَجَامِعَاتٌ تَمْنَحُ شَهَادَاتٍ عُلْيَا فِي صُنْعِ لَوْنٍ مِنْ أَلْوَانِ الطَّعَامِ، وَأُخْرَى فِي نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الرِّيَاضَاتِ، وَغَيْرُهَا فِي السَّفَرِ وَالسِّيَاحَةِ، حَتَّى غَدَتْ هَذِهِ الْوَسَائِلُ وَالْكَمَالِيَّاتُ فُنُونًا يُنْفَقُ عَلَيْهَا طَائِلُ الْأَمْوَالِ، وَتُفْنَى فِي تَعَلُّمِهَا وَصِنَاعَتِهَا الْأَعْمَارُ؛ وَذَلِكَ لِلتَّرْفِيهِ عَنِ الْأَغْنِيَاءِ وَإِسْعَادِهِمْ عَلَى حِسَابِ الْفُقَرَاءِ وَتَعَاسَتِهِمْ.

هَذَا غَيْرُ وَسَائِلِ التَّرْفِيهِ المُحَرَّمِ مِنَ الرَّقْصِ وَالتَّمْثِيلِ وَالْغِنَاءِ وَأَنْوَاعِ الصِّنَاعَاتِ السِّينِمَائِيَّةِ وَالمَسْرَحِيَّةِ وَالْفُكَاهِيَّةِ الَّتِي يُنْفَقُ عَلَيْهَا مَا يَفُوقُ مُوَازَنَاتِ دُوَلٍ كَامِلَةٍ.

وَالسَّفَرُ مِنْ أَقْدَمِ مَا عَرَفَ الْإِنْسَانُ مِنْ وَسَائِلِ الرَّفَاهِيَةِ وَالتَّرْوِيحِ عَنِ النَّفْسِ وَإِجْمَامِهَا، وَقَدْ عَرَفَهُ الْإِنْسَانُ مُنْذُ الْقِدَمِ، وَفِيهِ مِنَ المَنَافِعِ مَا لَا يَخْفَى، كَمَا أَنَّهُ يَنْطَوِي عَلَى مَخَاطِرَ وَأَضْرَارٍ لَا تُنْكَرُ[1] وَقَدْ ذَكَرَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ، يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَنَوْمَهُ، فَإِذَا قَضَى نَهْمَتَهُ فَلْيُعَجِّلْ إِلَى أَهْلِهِ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[2].

---

(١) ذكر ابن القيم -رحمه الله تعالى- أن أسفار النبي عليه الصلاة والسلام دائرة بين أربعة أسفار: سفره لهجرته، وسفره للجهاد وهو أكثرها، وسفره للعمرة، وسفره للحج. زاد المعاد (١/ ٤٦١).

(٢) أخرجه البخاري في العمرة، باب السفر قطعة من العذاب (١٧١٠)، ومسلم في الإمارة، باب السفر قطعه من العذاب (١٩٢٧).

وَالشَّرِيعَةُ الْغَرَّاءُ قَدْ جَاءَتْ بِأَحْكَامٍ وَآدَابٍ لِلْمُسَافِرِ قَبْلَ سَفَرِهِ وَأَثْنَاءَهُ وَبَعْدَهُ، يُؤْجَرُ مَنْ تَمَسَّكَ بِهَا، وَيُحْرَمُ خَيْرًا كَثِيرًا مَنْ فَرَّطَ فِيهَا.

وَوَاجِبٌ عَلَى الْمُسْلِمِ وَهُوَ يُرِيدُ سَفَرًا قَرِيبًا أَوْ بَعِيدًا أَنْ يَسْتَشْعِرَ مَا مَنَّ اللهُ تَعَالَى بِهِ عَلَيْهِ مِنْ عَظِيمِ النِّعَمِ، وَجَزِيلِ الْعَطَاءِ؛ فَهُوَ يُسَافِرُ لِمُجَرَّدِ النُّزْهَةِ وَالرَّفَاهِيَةِ، وَآخَرُونَ غَيْرُهُ يُسَافِرُونَ بِلَا اخْتِيَارٍ مِنْهُمْ، بَلْ أَلْجَأَتْهُمْ إِلَى سَفَرِهِمُ الضَّرُورَةُ أَوِ الْحَاجَةُ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ يُسَافِرُونَ فِرَارًا مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ، قَدِ اسْتُبِيحَتْ أَوْطَانُهُمْ، وَاحْتُلَّتْ دِيَارُهُمْ، وَرُفِعَ أَمْنُهُمْ، وَاسْتَحَرَّ الْقَتْلُ فِيهِمْ، فَالْقَادِرُ مِنْهُمْ يَفِرُّ مِنْ بَلَدِهِ مُهَاجِرًا أَوْ لَاجِئًا قَدْ خَلَّفَ دَارَهُ وَأَرْضَهُ وَضَيْعَتَهُ وَرَاءَهُ، لَا يَلْوِي عَلَى شَيْءٍ إِلَّا نَجَاةَ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَوَلَدِهِ.

وَآخَرُونَ يَهْجُرُونَ أَوْطَانَهُمْ، وَيُفَارِقُونَ أَهْلَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ؛ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ، وَطَلَبًا لِلرِّزْقِ، قَدْ شَحَّتْ مَوَارِدُهُمْ فِي بِلَادِهِمْ، فَبَحَثُوا عَنْ فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى فِي غَيْرِهَا.

وَآخَرُونَ قَدْ أَخَذَتِ الْأَمْرَاضُ مِنْ أَجْسَادِهِمْ حَظَّهَا، فَأَطَالَتْ نَهَارَهُمْ، وَأَسْهَرَتْ لَيْلَهُمْ، وَحَالَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ لَذَّةِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالنِّكَاحِ، كُلَّمَا سَمِعُوا بِطَبِيبٍ شَدُّوا رِحَالَهُمْ إِلَيْهِ، وَإِذَا وُصِفَ لَهُمْ دَوَاءٌ جَدُّوا فِي تَحْصِيلِهِ، يُسَافِرُونَ حِينَ يُسَافِرُونَ لَا لِلرَّفَاهِيَةِ وَالْمُتْعَةِ، وَإِنَّمَا لِلصِّحَّةِ وَالْعَافِيَةِ الَّتِي لَا يَعْرِفُ كَثِيرٌ مِنَّا قَدْرَهَا.

كُلُّ أُولَئِكَ يُسَافِرُونَ حِينَ يُسَافِرُونَ مُكْرَهِينَ، تَحْتَ سِيَاطِ الضَّرُورَاتِ وَالْحَاجَاتِ، فَوَاجِبٌ عَلَى مَنْ أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ بِالْأَمْنِ وَالرِّزْقِ وَالْعَافِيَةِ أَنْ يَعْرِفَ فَضْلَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ إِذْ أَعْطَاهُ وَحُرِمَ غَيْرُهُ، وَعَافَاهُ وَابْتُلِيَ سِوَاهُ، فَهُوَ حِينَ يُسَافِرُ إِنَّمَا يُسَافِرُ لِمُتْعَةِ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَوَلَدِهِ، فَلْيَشْكُرِ اللهَ تَعَالَى عَلَى نِعَمِهِ؛ فَإِنَّ الشُّكْرَ يَزِيدُهَا، وَإِنَّ كُفْرَهَا يَرْفَعُهَا ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ

وَلَبِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبْرَاهِيم: ٧].

وَمِنْ دَلَائِلِ شُكْرِ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ أَنْ يَتَّقِيَ اللهَ تَعَالَى فِي سَفَرِهِ، فَلَا يَقْصِدُ بِلَادًا الْكُفْرُ فِيهَا عَزِيزٌ، وَالْإِيمَانُ فِيهَا ضَعِيفٌ، قَدْ عَجَّتْ بِأَنْوَاعِ الشُّبَهِ وَالِانْحِرَافَاتِ، وَطَفَحَتْ بِعَظَائِمِ المَعَاصِي وَالمُوبِقَاتِ، وَمَهْمَا عَظُمَتْ مِيزَاتُهَا، وَاخْضَرَّتْ أَرْضُهَا، وَحَسُنَتْ أَجْوَاؤُهَا، فَإِنَّ إِعْلَانَ المَعَاصِي فِيهَا، مَعَ عَدَمِ قُدْرَتِهِ هُوَ عَلَى إِنْكَارِهَا يُلْغِي كُلَّ حَسَنَةٍ فِيهَا، وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِ الْبَقَاءَ فِيهَا، وَإِذَا كَانَ المُسْلِمُ مَأْمُورًا بِمُفَارَقَةِ مَجْلِسٍ فِيهِ مُنْكَرٌ لَا يَسْتَطِيعُ تَغْيِيرَهُ وَلَوْ فِي وَلِيمَةٍ يَجِبُ عَلَيْهِ حُضُورُهَا؛ فَكَيْفَ إِذَنْ يُسَافِرُ بِأَهْلِهِ وَوَلَدِهِ إِلَى بِلَادِ المُنْكَرَاتِ وَالمُوبِقَاتِ؟![٣].

وَيُكْرَهُ لِلْمَرْءِ أَنْ يُسَافِرَ وَحْدَهُ، وَلَا يُسَافِرَ الِاثْنَانِ، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ ثَلَاثَةٍ وَهُمُ الْجَمَاعَةُ؛ اتِّبَاعًا لِلسُّنَّةِ، وَإِبْعَادًا لِلْوَحْشَةِ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**الرَّاكِبُ شَيْطَانٌ وَالرَّاكِبَانِ شَيْطَانَانِ وَالثَّلَاثَةُ رَكْبٌ**» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ[٤].

---

(٣) ينظر في مفاسد السفر إلى بلاد الكفر أو الفجور: الخطبة التي قبل هذه، ص: (٦٠٥).

(٤) أخرجه من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أبو داود في الجهاد، باب في الرجل يسافر وحده (٢٦٠٧)، والترمذي في الجهاد، باب ما جاء في كراهية أن يسافر الرجل وحده وحسنه (١٦٧٤)، والنسائي في الكبرى (٨٨٤٩)، ومالك (٢/ ٩٧٨)، وأحمد (٢/ ١٨٦)، وصححه ابن خزيمة (٢٥٧٠)، والحاكم وقال: على شرط مسلم (٢/ ١١٢)، والنووي في رياض الصالحين (٢٤١)، وحسنه البغوي في شرح السنة (٢٦٧٥)، والحافظ في الفتح (٦/ ٥٣).
وقد اختلف العلماء في النهي عن الوحدة في السفر هل هو على التحريم أم على الكراهة؟ ولا يصل إلى التحريم، على قولين:
الأول: أن النهي للتحريم، وهو ما يُفهم من تبويب ابن خزيمة على الحديث إذ قال: باب النهي عن سير الاثنين والدليل على أن ما دون الثلاث من المسافرين فهم عصاة؛ إذ النبي ﷺ قد أعلم أن الواحد شيطان، والاثنان شيطانان، ويشبه أن يكون معنى قوله: شيطان =

. . . .

= أو عاصي كقوله: شياطين الإنس والجن، ومعنا: عصاة الجن والإنس. صحيح ابن خزيمة (٤/ ١٥١).

الثاني: أن النهي للكراهية ولا يصل إلى التحريم، قال الطبري -رحمه الله تعالى-: هذا الزجر زجر أدب وإرشاد؛ لما يخشى على الواحد من الوحشة والوحدة وليس بحرام، فالسائر وحده في فلاة، وكذا البائت في بيت وحده لا يأمن من الاستيحاش لا سيما إذا كان ذا فكرة رديئة، وقلب ضعيف، والحق أن الناس يتباينون في ذلك، فيحتمل أن يكون الزجر عن ذلك وقع لحسم المادة، فلا يتناول ما إذا وقعت الحاجة لذلك. اهـ من فتح الباري لابن حجر (٦/ ٥٣-٥٤).

وقال ابن عبد البر -رحمه الله تعالى-: «في هذا الحديث كراهية الوحدة في السفر، وأن هذا الحديث بلفظ (الراكب)، ويدخل الراجل في معناه إذا كان وحده، ولم تختلف الآثار في كراهية السفر للواحد، واختلفت في الاثنين، ولم يختلف في الثلاثة، فما زاد أن ذلك حسن جائز، وإنما وردت الكراهية في ذلك -والله أعلم- لأن الوحيد إذا مرض لم يجد من يمرضه، ولا يقوم عليه، ولا يخبر عنه» التمهيد لابن عبد البر (٢٠/ ٦).

ثم قال ابن عبد البر: «وقد كان مجاهد ينكر هذا الحديث مرفوعًا ويجعله قول عمر، ولا وجه لقول مجاهد؛ لأن الثقات رووه مرفوعًا، وخبر مجاهد أخبرناه محمد بن عبد الملك حدثنا ابن الأعرابي حدثنا سعدان بن نصر حدثنا سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قيل له: إن النبي ﷺ قال: الواحد في السفر شيطان والاثنان شيطانان، قال: لا، لم يقله النبي ﷺ، قد بعث النبي ﷺ عبد الله بن مسعود وخباب بن الأرت سرية، وبعث دحية سرية وحده، ولكن قال عمر يحتاط للمسلمين: كونوا في أسفاركم ثلاثة إن مات واحد وليه اثنان، الواحد شيطان والاثنان شيطانان» التمهيد (٢٠/ ٦-٧).

لكن أجاب ابن المنير عما احتج به مجاهد من الآثار في سفر الواحد والاثنين فقال -رحمه الله تعالى-: «السير لمصلحة الحرب أخص من السفر، والخبر ورد في السفر، فيؤخذ من حديث جابر جواز السفر منفردًا للضرورة والمصلحة التي لا تنتظم إلا بالانفراد كإرسال الجاسوس والطليعة، والكراهة لما عدا ذلك، ويحتمل أن تكون حالة الجواز مقيدة بالحاجة عند الأمن، وحالة المنع مقيدة بالخوف حيث لا ضرورة، وقد وقع في كتب المغازي بعث كل من حذيفة ونعيم بن مسعود وعبد الله بن أنيس وخوات بن جبير وعمرو بن أمية وسالم بن عمير في عدة مواطن وبعضها في الصحيح» اهـ من الفتح =

. . . .

= لابن حجر (٦/ ١٣٨)، وعنه تحفة الأحوذي (٥/ ٢٦٠).
ولفظ حديث جابر الذي أشار إليه ابن المنير -رحمه الله تعالى-: «ندب النبي ﷺ الناس يوم الخندق فانتدب الزبير، ثم ندبهم فانتدب الزبير، ثم ندبهم فانتدب الزبير ثلاثًا، قال النبي ﷺ: **إن لكل نبي حواريًّا وحواريَّ الزبير**» أخرجه البخاري (٦٨٣٣)، ومسلم (٢٤١٥).

وقال الخطابي -رحمه الله تعالى-: «معناه: أن التفرد والذهاب وحده في الأرض من فعل الشيطان، أو هو شيء يحمله عليه الشيطان ويدعوه إليه، فقيل على هذا: إن فاعله شيطان، ويقال: إن اسم الشيطان مشتق من الشطون وهو البعد والنزوح، يقال: بئر شطون: إذا كانت بعيدة المهوى، فيحتمل على هذا أن يكون المراد: أن الممعن في الأرض وحده مضاهيًا للشيطان في فعله وشبه اسمه، وكذلك الاثنان ليس معهما ثالث، فإذا صاروا ثلاثة فهم ركب، أي: جماعة وصحب، قال: والمنفرد في السفر إن مات لم يكن بحضرته من يقوم بغسله ودفنه وتجهيزه، ولا عنده من يوصي إليه في ماله، ويحمل تركته إلى أهله، ويورد خبره إليهم، ولا معه في سفره من يعينه على الحمولة، فإذا كانوا ثلاثة تعاونوا وتناوبوا المهنة والحراسة وصلوا الجماعة، وأحرزوا الحظ منها» اهـ من معالم السنن بهامش أبي داود (٣/ ٨٠-٨١)، وقريب منه في النهاية لابن الأثير (٢/ ٤٧٥-٤٧٦).
ونقل البغوي في شرح السنة (١١/ ٢٢) بعض كلام الخطابي ثم قال: معنى الحديث عندي: ما روي عن سعيد بن المسيب مرسلًا عن رسول الله ﷺ: «**الشيطان يهم بالواحد وبالاثنين، فإذا كانوا ثلاثة لم يهم بهم** ...» اهـ.
وقال الزرقاني في شرح الموطأ: «والثلاثة ركب؛ لزوال الوحشة، وحصول الأنس، وانقطاع الأطماع عنهم، وخروجه ﷺ مع أبي بكر مهاجرين لضرورة الخوف على أنفسهما من المشركين، أو لأن من خصائصه ﷺ عدم كراهة الانفراد في السفر وحده؛ لأمنه من الشيطان بخلاف غيره» شرح الزرقاني (٤/ ٥٠٠).
وقال النووي: «يستحب أن يرافق في سفره جماعة» المجموع (٤/ ٣٢٩).
فكل المنقول عن هؤلاء العلماء -خلا المنقول عن ابن خزيمة- يفيد أنهم يرون كراهة الوحدة في السفر، واستحباب الجماعة ثلاثة فأكثر.
وأما ما نقل عن الإمام أحمد في ذلك فلا يفيد أنه يرى التحريم، قال عبد الله بن أحمد: سمعت أبي يقول: لا يسافر الرجل وحده، ولا يبيت في بيت وحده، وقال جعفر: سألت =

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي الْوَحْدَةِ مَا أَعْلَمُ مَا سَارَ رَاكِبٌ بِلَيْلٍ وَحْدَهُ**»(٥).

وَالسُّنَّةُ أَنْ يُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ فِي سَفَرِهِمْ، وَالْأَوْلَى أَنْ يَخْتَارُوا أَحْكَمَهُمْ وَأَعْلَمَهُمْ، وَأَكْثَرَهُمْ دِرَايَةً بِالسَّفَرِ وَحَاجَاتِهِ؛ جَمْعًا لِلْقُلُوبِ، وَقَطْعًا لِلاخْتِلَافِ؛ فَإِنَّ الِاخْتِلَافَ وَالتَّبَاغُضَ فِي السَّفَرِ لَا يُطَاقُ، وَيَزِيدُ مِنْ عَذَابِهِ وَمَشَقَّتِهِ، وَقَدْ رَوَى أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا خَرَجَ ثَلَاثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(٦).

= أحمد عن الرجل يبيت وحده؟ قال: أحب إليَّ أن يتوقى ذلك، قال: وسألت أحمد عن الرجل يسافر وحده؟ قال: لا يعجبني. وقال في رواية الحسن بن علي بن الحسن: ما أحب ذلك، يعني في المسألتين إلا أن يضطر مضطر. وقال في رواية صالح في الرجل يسير وحده: مع الجماعة أحب إلي. اهـ من الآداب الشرعية لابن مفلح (١/ ٤٥٧).

والسفر الآن تغير عن العهد السابق؛ فإن الطرق المعبدة التي تسلكها السيارات لا يصدق على الشخص أنه منفرد بالسفر ولو كان وحده في السيارة، وكذلك من سافر وليس معه أحد يعرفه في طائرة أو قطار أو باخرة فإنه لا يكون وحده، بل معه أناس ولو لم يعرفهم، أشبه ما يكون بالقافلة قديمًا. وقد أحسن الألباني حين علق على الحديث بقوله: «ولعل الحديث أراد السفر في الصحارى والفلوات التي قَلَّمَا يرى المسافر فيها أحدًا من الناس، فلا يدخل فيها السفر اليوم في الطرق المعبدة الكثيرة المواصلات. والله أعلم.

ثم إن فيه ردًّا صريحًا على خروج بعض الصوفية إلى الفلاة وحده للسياحة وتهذيب النفس، زعموا! وكثيرًا ما تعرضوا في أثناء ذلك للموت عطشًا وجوعًا، أو لتكفف أيدي الناس، كما ذكروا ذلك في الحكايات عنهم. وخير الهدي هدي محمد ﷺ» اهـ سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ١٣٢) حديث (٦٢).

(٥) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب السير وحده (٢٨٣٦).

(٦) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب في القوم يسافرون ويؤمرون أحدهم (٢٦٠٨)، وأبو عوانة (٧٥٣٨)، والطبراني في الأوسط (٨٠٩٤).

وجاء أيضًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: عند أبي داود في الجهاد، باب في القوم يسافرون ويؤمرون أحدهم (٢٦٠٩)، والبيهقي (٥/ ٢٥٧)، وأعله الدارقطني بالاختلاف فيه على =

فَإِذَا اسْتَوَى عَلَى مَرْكُوبِهِ أَتَى بِمَا وَرَدَ مِنَ الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ مُسْتَحْضِرًا نِعْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ بِمَا يَسَّرَ لَهُ مِنَ المَرَاكِبِ، وَسَخَّرَ لَهُ مِنْ وَسَائِلِ النَّقْلِ الَّتِي حُرِمَهَا غَيْرُهُ مِمَّنْ لَا يُطِيقُونَ ثَمَنَهَا، وَهَذَا الدُّعَاءُ الَّذِي يَقُولُهُ فِيهِ نَفْعُهُ وَصَلَاحُهُ؛ لِأَنَّهُ يَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَحْفَظَهُ وَيُعِينَهُ فِي سَفَرِهِ، وَأَنْ لَا يَفْجَعَهُ فِي نَفْسِهِ أَوْ أَهْلِهِ أَوْ مَالِهِ، وَحَرِيٌّ بِهِ أَنْ يُسْتَجَابَ لَهُ مَا دَامَ مُمْتَثِلًا أَوَامِرَ اللَّهِ تَعَالَى، مُطَبِّقًا لِلسُّنَّةِ، رَوَى ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا اسْتَوَى عَلَى بَعِيرِهِ خَارِجًا إِلَى سَفَرٍ كَبَّرَ ثَلَاثًا ثُمَّ قَالَ: **سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ، وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ. اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَى، وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى. اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ. اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ المَنْظَرِ، وَسُوءِ المُنْقَلَبِ فِي المَالِ وَالْأَهْلِ**، وَإِذَا رَجَعَ قَالَهُنَّ، وَزَادَ فِيهِنَّ: **آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٧).

= أبي هريرة أو أبي سعيد، ورجح إرساله عن أبي سلمة، كما هي رواية يحيى القطان. ينظر: العلل (٩/ ٣٢٦) رقم (١٧٩٥).

(٧) أخرجه مسلم في الحج، باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره (١٣٤٢)، والترمذي في الدعوات، باب ما يقول إذا ركب الناقة (٣٤٤٧)، والنسائي في الكبرى (١٠٣٣٥)، والدارمي (٢٦٧٣)، وأحمد (٢/ ١٤٤)، وعبد بن حميد (٨٣٣).

وجاء أيضًا في ذلك حديث علي بن ربيعة -رحمه الله تعالى- قال: «شهدت عليًّا أتي بدابة ليركبها، فلما وضع رجله في الركاب قال: بسم الله، ثلاثًا، فلما استوى على ظهرها قال: الحمد لله، ثم قال: سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون، ثم قال: الحمد لله، ثلاثًا، والله أكبر، ثلاثا، سبحانك إني قد ظلمت نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، ثم ضحك، قلت: من أي شيء ضحكت يا أمير المؤمنين؟ قال: رأيت رسول الله ﷺ صنع كما صنعت ثم ضحك، فقلت: من أي شيء ضحكت يا رسول الله؟ قال: إن ربك ليعجب من عبده إذا قال: رب اغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب غيرك» رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح (٣٤٤٦).

وَجَاءَ فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَرْجِسَ ﷺ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سَافَرَ يَتَعَوَّذُ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ، وَالْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْنِ، وَدَعْوَةِ الْمَظْلُومِ، وَسُوءِ الْمَنْظَرِ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٨).

(٨) أخرجه مسلم في الحج، باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره (١٣٤٣)، والنسائي في الاستعاذة، باب الاستعاذة من دعوة المظلوم (٨/ ٢٧٣)، وابن ماجه في الدعاء، باب ما يدعو به الرجل إذا سافر (٣٨٨٨)، وابن أبي شيبة (٦/ ٧٨)، وعبد الرزاق (٢٠٩٢٧)، وأحمد (٥/ ٨٢)، والطيالسي (١١٨٠).
وجاء في رواية مسلم «الحور بعد الكون»، وفي كل الروايات: «الحور بعد الكور».
قوله: (والحور بعد الكون) قال النووي -رحمه الله تعالى-: «هكذا هو في معظم النسخ من صحيح مسلم (بعد الكون) بالنون، بل لا يكاد يوجد في نسخ بلادنا إلا بالنون، وكذا ضبطه الحفاظ المتقنون في صحيح مسلم، قال القاضي: وهكذا رواه الفارسي وغيره من رواة صحيح مسلم، قال: ورواه العذري (بعد الكور) بالراء، قال: والمعروف في رواية عاصم الذي رواه مسلم عنه بالنون، قال القاضي: قال إبراهيم الحربي: يقال: إن عاصمًا وهم فيه، وأن صوابه (الكور) بالراء، قلت: وليس كما قال الحربي، بل كلاهما روايتان. وممن ذكر الروايتين جميعًا الترمذي في جامعه وخلائق من المحدثين، وذكرهما أبو عبيد وخلائق من أهل اللغة وغريب الحديث، قال الترمذي بعد أن رواه بالنون: ويُروى بالراء أيضًا، ثم قال: وكلاهما له وجه، قال: ويقال: هو الرجوع من الإيمان إلى الكفر، أو من الطاعة إلى المعصية، ومعناه: الرجوع من شيء إلى شيء من الشر، هذا كلام الترمذي، وكذا قال غيره من العلماء معناه بالراء والنون جميعًا: الرجوع من الاستقامة، أو الزيادة إلى النقص، قالوا: ورواية الراء مأخوذة من تكوير العمامة وهو لفها وجمعها، ورواية النون مأخوذة من الكون، مصدر كان يكون كونًا: إذا وجد واستقر، قال المازري في رواية الراء: قيل أيضًا: إن معناه: أعوذ بك من الرجوع عن الجماعة بعد أن كنا فيها، يقال: كار عمامته إذا لفها، وحارها إذا نقضها، وقيل: نعوذ بك من أن تفسد أمورنا بعد صلاحها كفساد العمامة بعد استقامتها على الرأس، وعلى رواية النون قال أبو عبيد: سئل عاصم عن معناه فقال: ألم تسمع قولهم: حار بعد ما كان؟ أي أنه كان على حالة جميلة فرجع عنها، والله أعلم» اهـ من شرح النووي على صحيح مسلم (٩/ ١١١-١١٢).
وقال السندي في حاشيته على النسائي (٨/ ٢٧٣): «(والحور بعد الكور) الكور: لف العمامة، والحور: نقضها، والمراد: الاستعاذة من النقصان بعد الزيادة، أو من الشتات =

وَالسُّنَّةُ إِذَا عَلَا شَرَفًا مِنَ الْأَرْضِ أَنْ يُكَبِّرَ اللهَ تَعَالَى، وَهَكَذَا إِذَا أَقْلَعَتْ بِهِ الطَّائِرَةُ، وَإِذَا هَبَطَ وَادِيًا أَنْ يُسَبِّحَ اللهَ تَعَالَى، وَهَكَذَا إِذَا هَبَطَتْ بِهِ الطَّائِرَةُ؛ لِمَا رَوَى جَابِرٌ رضي الله عنه فَقَالَ: «كُنَّا إِذَا صَعِدْنَا كَبَّرْنَا، وَإِذَا نَزَلْنَا سَبَّحْنَا» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٩).

وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا صَعِدَ أَكَمَةً أَوْ نَشَزًا قَالَ: **اللَّهُمَّ لَكَ الشَّرَفُ عَلَى كُلِّ شَرَفٍ، وَلَكَ الحَمْدُ عَلَى كُلِّ حَمْدٍ**»(١٠).

وَرَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُسَافِرَ فَأَوْصِنِي، قَالَ: «**عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالتَّكْبِيرِ عَلَى كُلِّ شَرَفٍ**. فَلَمَّا أَنْ وَلَّى الرَّجُلُ، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **اللَّهُمَّ اطْوِ لَهُ الْأَرْضَ وَهَوِّنْ عَلَيْهِ السَّفَرَ**» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ(١١).

= بعد الانتظام، أي: من فساد الأمور بعد صلاحها، وقيل: من الرجوع عن الجماعة بعد الكون فيهم، وروي «بعد الكون» بنون، أي: الرجوع من الحالة المستحسنة بعد أن كان عليها، قيل: هو مصدر كان تامة، أي: من التغير بعد الثبات» اهـ.
وللاستزادة ينظر: التمهيد لابن عبد البر (٢٤/ ٣٥٣)، ومشارق الأنوار (١/ ٣٤٩)، وغريب الحديث لابن سلام (١/ ٢٢٠)، والتطريف في التصحيف للسيوطي (٣٥).

(٩) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب التسبيح إذا هبط واديًا (٣٨٣١)، والدارمي (٢٦٧٤)، وأحمد (٣/ ٣٣٣)، والنسائي في الكبرى (١٠٣٧٦)، وابن خزيمة (٢٥٦٢).

(١٠) أخرجه أحمد (٣/ ١٢٧)، وأبو يعلى (٤٢٩٧)، والطبراني في الدعاء (٨٤٩)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٥٢٢).

(١١) أخرجه الترمذي في الدعوات، باب (٤٦) وقال: هذا حديث حسن (٣٤٤٥)، وابن ماجه في الجهاد، باب فضل الحرس والتكبير في سبيل الله تعالى (٢٧٧١)، وأحمد (٢/ ٣٢٥)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٥٠١)، والبيهقي في السنن (٥/ ٢٥١)، وفي الزهد الكبير (٨٨٣)، وصححه ابن خزيمة (٢٥٦١)، وابن حبان (٢٦٩٢)، والحاكم وقال: على شرط مسلم (٢/ ١٠٨).

وَلَمَّا كَانَ الْمُسَافِرُ إِذَا عَلَا نَشَزًا مِنَ الْأَرْضِ، أَوْ حَلَّقَ فِي الْهَوَاءِ رَأَى مِنْ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى مَا رَأَى مِنْ جِبَالٍ وَبِحَارٍ وَغَابَاتٍ وَعُمْرَانٍ وَغَيْرِهِ، وَقَدْ يَعْظُمُ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ نَاسَبَ أَنْ يُكَبِّرَ اللهَ تَعَالَى، فَيُقِرَّ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَكْبَرُ مِمَّا يَرَى مِنْ عَجَائِبِ خَلْقِهِ.

وَأَيْضًا فَإِنَّ الِاسْتِعْلَاءَ وَالِارْتِفَاعَ مَحْبُوبٌ لِلنُّفُوسِ؛ لِمَا فِيهِ مِنَ اسْتِشْعَارِ الْكِبْرِيَاءِ، فَشُرِعَ لِمَنْ تَلَبَّسَ بِهِ أَنْ يَذْكُرَ كِبْرِيَاءَ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، فَيُكَبِّرُهُ لِيَشْكُرَ لَهُ ذَلِكَ، فَيَزِيدَهُ مِنْ فَضْلِهِ(١٢).

وَأَمَّا تَسْبِيحُهُ حَالَ انْخِفَاضِهِ وَهُبُوطِهِ، فَهُوَ تَنْزِيهٌ لِلَّهِ تَعَالَى عَنْ كُلِّ انْخِفَاضٍ وَسُفُولٍ(١٣).

وَإِذَا انْبَلَجَ عَلَيْهِ السَّحَرُ وَهُوَ فِي سَفَرِهِ قَالَ مَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا كَانَ فِي سَفَرٍ وَأَسْحَرَ يَقُولُ: «**سَمِعَ سَامِعٌ بِحَمْدِ اللَّهِ وَحُسْنِ بَلَائِهِ عَلَيْنَا، رَبَّنَا صَاحِبْنَا وَأَفْضِلْ عَلَيْنَا، عَائِذًا بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٤). وَمَعْنَاهُ: لِيَسْمَعْ سَامِعٌ، وَيَشْهَدْ شَاهِدٌ بِحَمْدِنَا لِرَبِّنَا عَلَى نِعْمَتِهِ، ثُمَّ

---

(١٢) فتح الباري لابن حجر (١١/ ١٨٨).

(١٣) وقيل أيضًا: إن مناسبة التسبيح عند الهبوط؛ لكون المكان المنخفض مَكَانَ ضيقٍ فيشرع فيه التسبيح؛ لأنه من أسباب الفرج، كما وقع في قصه يونس ﵇ حين سبح في الظلمات فنُجِّي مِنَ الغم. الفتح (١١/ ١٨٨).

(١٤) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما لم يعمل (٢٧١٨)، وأبو داود في الأدب، باب ما يقول إذا أصبح (٥٠٨٦)، والنسائي في الكبرى (٨٨٢٨)، وابن خزيمة (٢٥٧١)، وابن حبان (٢٧٠١).

وقوله «سمع سامع» يروى بفتح ميم الفعل سمَّع وتشديدها، كما يروى بكسرها وتخفيفها، واختار القاضي عياض التشديد باعتبار أنها رواية الأكثر، وضبطه الخطابي بالكسر والتخفيف. ينظر: مشارق الأنوار (٢/ ٢٢١)، وشرح النووي على مسلم (١٧/ ٣٩)، والديباج على مسلم (٦/ ٦٩).

يَطْلُبُ حِفْظَهُ وَإِعَانَتَهُ، وَيَتَعَوَّذُ مِنَ النَّارِ(١٥).

فَإِذَا نَزَلَ مَنْزِلًا فَاسْتَعَاذَ بِاللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ يُعِيذُهُ مِنْ شُرُورِ ذَلِكَ الْمَكَانِ وَآفَاتِهِ؛ كَمَا قَالَتْ خَوْلَةُ السُّلَمِيَّةُ رضي الله عنها: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا ثُمَّ قَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ. لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٦).

وَيُشْرَعُ لِلْمُسَافِرِ أَنْ يُكْثِرَ مِنَ الدُّعَاءِ لِنَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَوَلَدِهِ وَالْمُسْلِمِينَ؛ لِأَنَّ دَعْوَةَ الْمُسَافِرِ مَرْجُوَّةُ الْإِجَابَةِ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لَا شَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ الْوَالِدِ، وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ(١٧).

وَعَلَى الْمُسَافِرِ أَنْ يَتَّقِيَ اللهَ تَعَالَى فِي سَفَرِهِ، فَيَلْزَمَ طَاعَتَهُ، وَيَجْتَنِبَ مَعْصِيَتَهُ، وَيَعْتَزَّ بِدِينِهِ، وَيَأْمُرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيَحْفَظَ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ وَجَوَارِحَهُ عَمَّا حَرَّمَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ غَائِبًا عَنْ أَعْيُنِ مَنْ يَخَافُهُمْ أَوْ يَسْتَحْيِي مِنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ، عَالِمٌ بِأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٠]، وَفِي أُخْرَى: ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٤]، وَفِي ثَالِثَةٍ: ﴿يَعْلَمُ

---

(١٥) ينظر: شرح النووي على مسلم (١٧/ ٣٩)، ومشارق الأنوار (٢/ ٢٢١)، والنهاية لابن الأثير (٢/ ٤٠١).

(١٦) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره (٢٧٠٨)، والترمذي في الدعوات، باب ما جاء ما يقول إذا نزل منزلًا (٣٤٣٧)، والدارمي (٢٦٨٠)، ومالك (٢/ ٩٧٨)، وأحمد (٦/ ٣٧٧).

(١٧) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب الدعاء بظهر الغيب (١٥٣٦) والترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في بر الخالة وسكت عنه (١٩٠٥) وفي موضع آخر حسنه (٣٤٤٨)، وأحمد (٢/ ٢٥٨)، والطيالسي (٢٥١٧)، وعبد بن حميد (١٤٢١)، وصححه ابن حبان (٢٦٩٩).

خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غَافِر: ١٩]، وَالمَلَائِكَةُ الْكِرَامُ يُحْصُونَ عَلَيْهِ أَفْعَالَهُ وَأَقْوَالَهُ ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [سورة ق: ١٨]، ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الِانْفِطَار: ١٠-١٢].

وَلْيَحْفَظْ أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ؛ فَإِنَّهُمْ رَعِيَّتُهُ، وَأَمَانَةُ اللَّهِ تَعَالَى عِنْدَهُ، وَاللهُ تَعَالَى قَدْ أَمَرَنَا بِأَدَاءِ الْأَمَانَاتِ، وَبِحِفْظِ الْأَهْلِ مِمَّا يُوجِبُ عَذَابَهُ سُبْحَانَهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التَّحْرِيم: ٦].

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يُعَلِّمَنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَأَنْ يَرْزُقَنَا الْعَمَلَ بِمَا عَلَّمَنَا، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ . . .

❁ ❁ ❁

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأَحْزَاب: ٧٠، ٧١].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: يُشْرَعُ لِلْمُسَافِرِ إِذَا قَفَلَ مِنْ سَفَرِهِ أَنْ يُكَبِّرَ اللهَ تَعَالَى وَيُهَلِّلَهُ وَيَحْمَدَهُ كُلَّمَا عَلَا مُرْتَفَعًا حَتَّى يَبْلُغَ بَلَدَهُ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما

قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَفَلَ مِنَ الْجُيُوشِ أَوِ السَّرَايَا أَوِ الْحَجِّ أَوِ الْعُمْرَةِ إِذَا أَوْفَى عَلَى ثَنِيَّةٍ أَوْ فَدْفَدٍ كَبَّرَ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: **لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ سَاجِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ، صَدَقَ اللهُ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ. وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «فَلَمْ يَزَلْ يَقُولُ ذَلِكَ حَتَّى قَدِمْنَا المَدِينَةَ»(١٨).

وَالمُسَافِرُ مَنْهِيٌّ عَنْ مُفَاجَأَةِ أَهْلِهِ لَيْلًا بِمَجِيئِهِ؛ لِئَلَّا يَقَعَ بَصَرُهُ عَلَى مَا يَكْرَهُ مِنْ شَعَثِ امْرَأَتِهِ أَوْ وَلَدِهِ، أَوْ عَدَمِ نَظَافَةِ مَنْزِلِهِ، أَوْ عَدَمِ تَهْيِئَةِ فِرَاشِهِ؛ فَإِنَّ مِنْ عَادَةِ المَرْأَةِ تَبَسُّطَهَا فِي بَيْتِهَا إِذَا غَابَ زَوْجُهَا، وَاسْتِعْدَادَهَا لَهُ إِذَا عَلِمَتْ بِمَقْدَمِهِ، وَهَذَا مِمَّا يُؤَلِّفُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ. وَوُقُوعُ عَيْنِ الزَّوْجِ عَلَى مَا يَكْرَهُ مِنْ بَيْتِهِ أَوْ زَوْجِهِ أَوْ وَلَدِهِ قَدْ يُؤَدِّي إِلَى النُّفْرَةِ بَيْنَهُمَا؛ وَالشَّارِعُ الْحَكِيمُ قَدْ سَدَّ مَنَافِذَ الشِّقَاقِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ، وَدَعَا إِلَى مَا يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمَا.

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَا يَطْرُقُ أَهْلَهُ لَيْلًا، وَكَانَ يَأْتِيهِمْ غُدْوَةً أَوْ عَشِيَّةً» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٩).

وَعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: «نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَطْرُقَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ لَيْلًا يَتَخَوَّنُهُمْ أَوْ يَلْتَمِسُ عَثَرَاتِهِمْ».

---

(١٨) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب التكبير إذا علا شرفًا (٢٨٣٣)، ومسلم في الحج، باب ما يقول إذا قفل من سفر الحج وغيره (١٣٤٤).
وقوله: (أو فدفد) قال القاضي عياض: هي الفلاة من الأرض لاشيء فيها، وقيل: الغليظة من الأرض ذات الحصى، وقيل: الجلد من الأرض في ارتفاع، وجمعه فدافد، ينظر: المشارق (٢/ ١٤٩)، وشرح النووي على مسلم (٩/ ١١٣)، وقال الحافظ في الفتح: هي الرابية المشرعة، ووقع عند أبي داود: (قردد) بقاف وراء ودالين، قال ابن الأثير: هذا الموضع المرتفع، ويقال الأرض المستوية. قال الحافظ: والأول أصح. اهـ (٧/ ٣٨١).

(١٩) أخرجه البخاري في العمرة، باب الدخول بالعشي (١٧٠٦)، ومسلم في الإمارة، باب كراهة الطروق وهو الدخول ليلًا لمن ورد من سفر (١٩٢٨).

وَفِي لَفْظٍ قَالَ جَابِرٌ ﷺ: «كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزَاةٍ، فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ ذَهَبْنَا لِنَدْخُلَ فَقَالَ: **أَمْهِلُوا حَتَّى نَدْخُلَ لَيْلًا** -أَيْ: عِشَاءً- **كَيْ تَمْتَشِطَ الشَّعِثَةُ وَتَسْتَحِدَّ الْمُغِيبَةُ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[٢٠]

وَمَنْ أَعْلَمَ أَهْلَهُ بِوَقْتِ وُصُولِهِ فَإِنَّ النَّهْيَ لَا يَتَنَاوَلُهُ[٢١]، وَمِنْ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى

---

(٢٠) أخرجه البخاري في النكاح، باب لا يطرق أهله ليلًا إذا أطال الغيبة مخافة أن يخونهم أو يلتمس عثراتهم (٤٩٤٥-٤٩٤٦)، ومسلم في الإمارة، باب كراهة الطروق، وهو الدخول ليلًا لمن ورد من سفر (٧١٥).

(٢١) كذلك لا يتناول الحديث من خرج لحاجته في النهار وعاد ليلًا؛ لأن الحديث قيد بطول الغيبة.

قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله تعالى-: «وقوله في طريق عاصم عن الشعبي عن جابر: «**إذا أطال أحدكم الغيبة فلا يطرق أهله ليلًا**» التقييد فيه بطول الغيبة، يشير إلى أن علة النهي إنما توجد حينئذ؛ فالحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا، فلما كان الذي يخرج لحاجته مثلًا نهارًا ويرجع ليلًا لا يتأتى له ما يحذر من الذي يطيل الغيبة، كان طول الغيبة مظنة الأمن من الهجوم، فيقع الذي يهجم بعد طول الغيبة غالبًا ما يكره:

إما أن يجد أهله على غير أهبة من التنظف والتزين المطلوب من المرأة، فيكون ذلك سبب النفرة بينهما، وقد أشار إلى ذلك بقوله: «**كي تستحد المغيبة وتمتشط الشعثة**»، ويؤخذ منه كراهة مباشرة المرأة في الحالة التي تكون فيها غير متنظفة؛ لئلا يطلع منها على ما يكون سببًا لنفرته منها.

وإما أن يجدها على حالة غير مرضية، والشرع محرض على الستر، وقد أشار إلى ذلك بقوله: «**أن يتخونهم ويتطلب عثراتهم**».

فعلى هذا، من أعلم أهله بوصوله، وأنه يقدم في وقت كذا مثلًا لا يتناوله هذا النهي، وقد صرح بذلك ابن خزيمة في صحيحه، ثم ساق من حديث ابن عمر ﷺ قال: «قدم النبي ﷺ من غزوة فقال: **لا تطرقوا النساء**، وأرسل من يؤذن الناس إنهم قادمون».

قال ابن أبي جمرة -رحمه الله تعالى-: وقد خالف بعضهم فرأى عند أهله رجلًا، فعوقب بذلك على مخالفته. اهـ

وأشار بذلك إلى حديث أخرجه ابن خزيمة عن ابن عمر ﷺ قال: «نهى رسول الله ﷺ =

عَلَى النَّاسِ مَا يَسَّرَ لَهُمْ مِنْ وَسَائِلِ الاتِّصَالِ الَّتِي تُزِيلُ كَثِيرًا مِنَ الْحَرَجِ فِي ذَلِكَ.

وَالسُّنَّةُ إِذَا عَادَ مِنْ سَفَرِهِ فَبَلَغَ بَلَدَهُ أَنْ يَبْدَأَ بِالمَسْجِدِ قَبْلَ بَيْتِهِ، فَيُصَلِّيَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ؛ لِمَا رَوَى كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ فَقَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالمَسْجِدِ فَيَرْكَعُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ»(٢٢). وَرَوَى جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَلَمَّا قَدِمْنَا المَدِينَةَ قَالَ لِي: **ادْخُلِ المَسْجِدَ فَصَلِّ رَكْعَتَيْنِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٢٣).

وَمِنَ السُّنَّةِ أَنْ يُولِمَ بَعْدَ عَوْدَتِهِ وَلِيمَةً تُسَمَّى النَّقِيعَةَ، وَهِيَ وَلِيمَةٌ يُقِيمُهَا الْعَائِدُ مِنَ السَّفَرِ، وَيَدْعُو النَّاسَ إِلَيْهَا، رَوَى جَابِرٌ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا قَدِمَ المَدِينَةَ «نَحَرَ جَزُورًا أَوْ بَقَرَةً»، وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ جَابِرٌ ﷺ: «فَلَمَّا قَدِمَ صِرَارًا -وَهُوَ مَوْضِعٌ بِظَاهِرِ المَدِينَةِ- أَمَرَ بِبَقَرَةٍ فَذُبِحَتْ فَأَكَلُوا مِنْهَا» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٢٤).

= أن تطرق النساء ليلا، فطرق رجلان، كلاهما وجد مع امرأته ما يكره» وأخرجه من حديث ابن عباس نحوه، وقال فيه: «فكلاهما وجد مع امرأته رجلًا»، ووقع في حديث محارب عن جابر أن عبد الله بن رواحة أتى امرأته ليلًا وعندها امرأة تمشطها فظنها رجلًا، فأشار إليها بالسيف، فلما ذكر للنبي ﷺ نهى أن يطرق الرجل أهله ليلًا» أخرجه أبو عوانة في صحيحه» اهـ فتح الباري (٩/ ٣٤٠-٣٤١).

(٢٢) أخرجه البخاري في المغازي، باب حديث كعب بن مالك (٤١٥٦)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب الركعتين في المسجد لمن قدم من سفر أول قدومه (٧١٦).

(٢٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب الصلاة إذا قدم من سفر (٢٩٢١)، ومسلم في النكاح، باب استحباب نكاح البكر (٧١٥).

(٢٤) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب الطعام عند القدوم (٢٩٢٣-٢٩٢٤)، ومسلم في المساقاة، باب بيع البعير واستثناء ركوبه (٧١٥)، وما بين الحاصرتين مني بيانًا للمعنى.

وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما لَا يَصُومُ أَوَّلَ قُدُومِهِ مِنَ السَّفَرِ لِأَجْلِ الَّذِينَ يَغْشَوْنَهُ لِلسَّلَامِ عَلَيْهِ وَالتَّهْنِئَةِ بِالْقُدُومِ(٢٥).

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: كَانَتْ تِلْكَ بَعْضَ أَحْكَامِ السَّفَرِ وَآدَابِهِ، مَنْ أَخَذَ بِهَا كَانَ مُمْتَثِلًا لِلسُّنَّةِ، مَأْجُورًا فِي أَسْفَارِهِ، مَعَ مَا يَحْصُلُ لَهُ مِنَ الْأُنْسِ وَالْمُتْعَةِ الْمُبَاحَةِ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْهَا اسْتِهَانَةً بِهَا فَقَدْ حَرَمَ نَفْسَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَمَنْ تَرَكَهَا جَهْلًا فَقَدْ قَصَّرَ فِي تَعَلُّمِ مَا يَنْفَعُهُ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَتْ أَسْفَارُهُ كَثِيرَةً.

فَاعْرِفُوا -عِبَادَ اللَّهِ- مَا يَنْفَعُكُمْ، وَتَعَلَّمُوا الضَّرُورِيَّ مِنْ أُمُورِ دِينِكُمْ، وَالْتَزِمُوا سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي كُلِّ شُئُونِكُمْ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .



---

(٢٥) علقه البخاري بصيغة الجزم في فاتحة باب الطعام عند القدوم من كتاب الجهاد والسير (٣/ ١١٢٣)، ووصله إسماعيل القاضي في أحكام القرآن من طريق أيوب عن نافع قال: «كان ابن عمر إذا كان مقيمًا لم يفطر، وإذا كان مسافرًا لم يصم، فإذا قدم أفطر أيامًا لغاشيته ثم يصوم» اهـ من الفتح لابن حجر (٦/ ١٩٤)، وينظر: تغليق التعليق (٣/ ٤٦٧).



الفهرس



